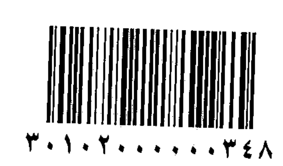
جامعة الملك عبد العزيز
بمكة المكرمة
الدراسات العليا العربية
فرع الأدب



التجديد في علوم البلاغة في العصر الحديث

رسالة لنيل درجة الدكتوراه

اعداد : منير محمد خليل ندا

اشراف : الدكتور علي العماري

المقدمة

بسم الله نبدأ ، وبه نستعين ، ونحمده سبحانه وتعالى أن هدانا لهذا (وماكنا لنهتدى لولا أن هدانا الله) .

ونصلى ونسلم على سيد الخلق ، وأشرف المرسلين ، امام الأنبياء ، وسيد البلغاء آتاه الله جوامع الكلم وسحر البيان ، وخصه من بين رسله بمعجزة القرآن .

وبعد : فان من المقاصد العالية التى يتطلع اليها الباحث مايكون الهدف الاسمى من معالجتها خدمة اللغة العربية ، لغة القرآن الكريم ، الذى أنزل بلسان عربى مبين ، فكان المعجزة الخالدة الى يوم الدين .

ومن أهم العلوم التى وضعت للبحث فى هذه المعجزة ، وأسهمت فيه بنصيب موفور ، علم البلاغة ، علم الذوق والجمال والفن الأدبى .

ولقد كان لعلم البلاغة فضل كبير فى بيان أساليب العرب وتراكيب لغتهم ، وما تمتاز به من قوة وجمال فى اللفظ والمعنى والعاطفة والخيال ، مما أعان كثيرا على فهم تراثنا ، وتقدير لغتنا ، وبيان اعجاز كتابنا الكريم . بل ان دراسة الاعجاز وادراكه كان الهدف الأسمى الذى من أجله وضع علم البلاغة . يقول ابن خلدون (واعلم أن ثمرة هذا الفن انما هى فهم الاعجاز من القرآن) . (١)

فالبلاغة العربية اذن دينية النشأة ، قرآنية المولد ، درجت ونمت فى رحاب كتاب الله ، تستهدى آياته ، وتتشرب معانيه ، قبل أن تتناول الأدب العربى بوجه عام .

وعلى هذا فالبلاغة علم له قدره ومكانته ، وعلينا نحن العرب والمسلمين أن نحله المكانة اللائقة به من الاهتمام والتقدير .

لكن البلاغة العربية - وان كانت لقيت عناية كبيرة فى عصورها الأولى - تخلفت عن ركب العلوم الحديثة ، واعترض طريقها من الصعاب والعقبات ماوقف بها عن بلوغ الغاية ، وحاد بها عن مسار الذوق والفن والجمال .

---

(١) مقدمة ابن خلدون - باب البيان - ص٥٢١ ط الشعب .

ذلك أن البلاغة بعد أن أينعت على يد الامام عبد القاهر واستوت على سوقها تعجب الزراع مالبثت أن استقرت فى يد علماء الكلام والفلسفة والمناطق فحولوها الى تعاريف وتقاسيم تقوم على جدل عقيم.

فمنذ ألف السكاكى فى القرن السادس الهجرى كتابه المفتاح ، وجعل القسم الثالث منه فى علم البلاغة ، وكتب المؤلفين تدور حوله ، وتبنى عليه ، وتنهج طريقته الكلامية الجدلية ، بل وتزيد عليه تعقيدا واغرابا . (١)

وجاء القزوينى فى القرن الثامن الهجرى فاتجه هو الآخر الى " مفتاح العلوم " ولخص قسمه الثالث بعد أن رأى فيه حشوا وتطويلا وتعقيدا فهذبه ورتبه ترتيبا أقرب تناولا ولكن بنفس الطريقة والاسلوب ، ثم رأى أن هذا التلخيص غير واف بالغرض فوضع شرحا على تلخيصه هو " الايضاح " وهذا الكتاب هو الذى وقفت عنده البلاغة لا تريم ، ولم يكتب لها بعده التطور والتجديد .

وفى كتابى القزوينى (التلخيص والايضاح) يجد الباحث الفلسفة وأساليب المناطقة ومصطلحاتهم ماثلة أمامه مما يعوق الانتفاع من بلاغته فى صقل الأذواق وتربيتها . وللأسف فان كتاب التلخيص هو الذى دارت حوله وحول شروحه دراسة البلاغة حتى العصر الحديث.

وقد نقد الدكتور احمد مطلوب كتابى القزوينى نقدا جيدا ، (٢) وأبرز مافيهما من عيوب واغراب عن مسائل البلاغة وفنها ، ونقل بعض عبارات القزوينى عن الملكة والكيف والصدق والكذب والجامع والدلالات وغيرها كأمثلة تؤيد وجهة نظره ، ثم قال : لقد نقلنا هذا كله لنظهر خروجهم عن البلاغة ، والا فما علاقة هذا الكلام بها ، وكيف يستفيد منه الأديب فى نقد الأدب واظهار جماله ؟ (٣)

وقال فى موضوع آخر : وننتهى من هذا كله الى أن النزعة الفلسفية والجدلية تسيطر على بلاغة القزوينى ، وهذا واضح فى المنهج والتبويب وبيان المعانى البلاغية

---

(١) يستثنى من ذلك النذر اليسير مثل كتابى " ابن الأثير وابن سنان "

(٢) انظر " مناهج بلاغية " ص٣٧٨ - ٤٢٠

(٣) المرجع السابق ص ٤٠٤

واستخدام الأساليب والمصطلحات الكلامية والفلسفية ، ومن هنا نرى أن لا فائدة من العكوف على بلاغة القزويني وشراح تلخيصه . (١)

والواقع أن الشكوى من جفاف علم البلاغة واقحام مسائل الفلسفة والمنطق فيه شكوى عامة وردت في كثير من كتب المعصرين الذين كتبوا في تاريخ البلاغة وعلومها أو دعوا الى تجديدها ، كما وردت كذلك في كتب المتقدمين والمستأخرين ، من ذلك قول المغربي بعد أن تحدث عن اللذة والألم والأشكال والسمع والذوق : " وقد أطنبت فيما يتعلق بهذه الكيفيات على حسب ما فسرها الشارح مما هو من تدقيقات الحكماء بعد تفسير بعضها بما هو أقرب الى الفهم قصد الايضاح وزيادة في الفائدة ، وان كان تفسيره - كما قيل - لا يناسب هذا الفن ، ولا يسهل على المتعلم ، بل يزيده حيرة (٢)

ومن ذلك أيضا قول عصام الدين بعد أن تكلم عن الحواس والكيفيات والحركات " واعلم أنه لم يف المصنف بما وعد في ديباجة الكتاب من حذف الحشو والتطويل والتعقيد ، وسها عنه في هذا المقام ، لأن هذه التقسيمات مما لا نفع له في هذا الفن ، بل يوجب تحير الأفهام ، وايقاع المبتدئين في الظلام " . (٣)

اذن فالقدماء أنفسهم أحسوا بما في هذه البحوث من حشو واقحام على الدراسات البلاغية ، ولكنهم - فيما يبدو - فعلوا ذلك ليثبتوا ثقافتهم الواسعة واطلاعهم العميق على أساليب الفلاسفة والمتكلمين .

ولقد كنا ونحن طلاب بالقسم الثانوي في معهد القاهرة الديني نحس بجفاف البلاغة وكتبها ، ونتساءل : أهذه هي البلاغة حقا ؟ وهل يجوز أن يتعلم طالب البلاغة أول ما يتعلم التنافر والتعقيد والغرابة وأن يكون ذلك أول ما ينطبع في ذهنه عن البلاغة ؟ ثم هو لا يجد بعد ذلك - اذا ما أخذ يتعمق في الدراسة - الا جدالا طويلا عقيما مملا يخرج منه في النهاية بأن الخلاف لفظي أو أن الجهد لا يكافئ النتيجة وتبحث عن البلاغة فتجدها ضائعة مطمورة تحت هذه الأمواج العارمة من المصطلحات والمحترزات والفرعيات التي لا حصر لها .

---

(١) المرجع السابق ص ٤١٠

(٢) مواهب الفتاح - شروح التلخيص ج ٣ ص ٣٤٣

(٣) الاطول - ج ٢ ص ٧٧

وليس معنى ذلك أننا كارهون لقديم البلاغة ، نريد أن نلقى به وبكتبه فى بحر الظلمات " كلا " فان التراث القديم يستحق منا التقدير والاحترام ، ولكنى لا أعتقد أبدا أنه يستحق التقديس والعبادة .

والدعوة الى التجديد فى البلاغة ليست شيئا حديثا ابتدعناه ، فمنذ القرن الثالث الهجرى دعا ابن قتيبة الى التجديد وقال قولته المأثورة " ان الله لم يقصر العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوما دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده فى كل دهر ، وجعل كل قديم حديثا فى عصره " . (١) .

وفى القرن السادس الهجرى ثار ابن بسام فى أقصى المغرب وشكا من الجمود وتقليد المشارقة فقال : " وليت شعرى من قصر العلم على بعض الزمان ، وخص أهل المشرق بالاحسان ، والاحسان غير محصور ، وليس الفضل على زمن بمقصور ، وعزيز على الفضل أن ينكر ، تقديم به الزمان أو تأخر ، ولحى الله قولهم : الفضل للمتقدم فكم دفن من احسان ، وأخمل من فلان ، ولو اقتصر المتأخرون على كتب المتقدمين لضاع علم كثير ، وذهب أدب غزير " (٢) .

ولو أمعنا النظر فيما تركه لنا الامام عبد القاهر - طيب الله ثراه - من تراث بلاغى لوجدناه قد أفسح المجال للتجديد فى البحث البلاغى ، وترك الباب مفتوحا أمام كل باحث مجدد مخلص ، وكان حريصا على أن يذكر فى أكثر من موضع أن هذا الجهد الكبير الذى بذله لا يعد الكلمة الاخيرة ، وأنه ليس فى استطاعة أى باحث مهما أوتى من حول وطول أن يستقصى مسائل الفن البلاغى ، أو أن يدعى لنفسه العلم والاحاطة بذلك ، أو أن يسد باب الاجتهاد .

ومن ثم رأينا الأستاذ الامام يختم بعض مباحثه البلاغية بما يؤكد هذا المعنى فمثلا نجده بعد حديثه عن أسرار حذف المفعول يقول : " وليس لنتائج هذا الحذف أعنى حذف المفعول - نهاية فانه طريق الى ضروب من الصنعة والى لطائف لا تحصى

---

(١) الشعر والشعراء ص٧ وانظر " أبو هلال العسكرى ومقاييسه النقدية للدكتور بدوى ص ٥٦ و ٥٧
(٢) الذخيرة ج ١ ص ٢ ط ٣
(٣) دلائل الاعجاز ص ١٢٥ ط دار المعرفة ببيروت .

وفى نهاية بحثه للكناية والتعريض يقول : " وليس لشعب هذا الأصل وفروعه وأمثلته وصورة وطرقه ومسالكه حد ونهاية " (١) وفى حديثه عن العبرة والتفصيل فى ضروب التشبيه والتمثيل يقول : " واعلم أن هذه القسمة فى التفصيل موضوعة على الأغلب الاعرف والا فدقائقه لا تكاد تضبط " (٢)

وهكذا نجد الامام عبد القاهر فى بحوثه البلاغية كان من وقت لآخر يمنحنا انطباعا بأن فرصة الكشف عن الجديد مهيأة بل مطلوبة .

ان الزمان لم يعقم ، وان الحياة لا تزال خصبة مثمرة ، وان الطبيعة لم ينقطع عطاؤها بعد ، ومايزال فى أمة الاسلام خير كثير ، ومازال بين علمائها وأدبائها من يستطيع التجديد والتطوير .

وقد وجدت عددا غير قليل نادى بتجديد البلاغة ، ووضع معالم لهذا التجديد من هؤلاء الشيخ أمين الخولى والشيخ عبد العزيز البشرى ، والأساتذة احمد الشايب واحمد حسن الزيات وأنيس المقدسى ، والدكاترة : احمد بدوى وعلى العمارى وعبد الرزاق محي الدين وأحمد مطلوب وعلى عبد الرزاق وبدوى طبانة وحفنى شرف ومحمد نايل وكامل الخولى وغيرهم ، كما وجدت فى تقرير لجنة المعارف المصرية تخطيطا كاملا لمنهج جديد للبلاغة . وقد عرضت كل ذلك ناقدا ومفندا كما عرضت لمعركة البلاغة التى قامت على صفحات الرسالة وبينت مالها من قيمة وأثر وكيف أنها أثارت قضية التجديد من جديد .

ولأن بلاغتنا الحبيبة تعرضت فى العصر الحديث لهجوم ظالم خبيث باسم الاصلاح والتجديد فقد عقدت بابا عن البلاغة بين الدفاع والهجوم وأوضحت وجه الخطأ والصواب فى كل .

ولأن اعجاز القرآن هو الهدف الاسمى من أهداف البلاغة وغاياتها فقد عقدت الباب الاخير لبيان ما جد من آراء فى أوجه الاعجاز .

---

(١) المرجع السابق ص ٢٤١

(٢) أسرار البلاغة ص ١٤٦ ط ه المنار .

وانى لآمل أن أخرج من هذه الدراسة بمنهج جديد صالح لبلاغتنا الحبيبة يبرز جمالها ، ويرضى عشاقها ، ويسعد دارسيها ، ويعيد اليها قدرها ومكانتها .

وانى لأعلم أن طريق البلاغة طريق شائك مهجور ، يسيرفيه علماء البلاغة وحدهم بلا أضواء ولا جمهور ، ومع ذلك فقد اخترت هذا الطريق ، لأنى منذ صباى أحببت البلاغة ، وأعجبت بأساليب البلغاء ، وحفظت مختارات منها . وعندما أخذت فى دراسة البلاغة صدمت كما صدم الآخرون بكتبها ومناهجها ، ووجدنا فرقا كبيرا بين البلاغة التى نحبها ونحسها وبين هذه الكتب التى ندرسها ، والتى ان صح أنها صلحت لعصرها فهى بالتأكيد لا تصلح لعصرنا .

ولقد هاجم بلاغتنا من هاجم ، وأيدها من أيد ، وأضاف اليها من أضاف ، وانتقص منها من انتقص ، فكان لابد من وقفة نعيد فيها النظر ، ونجيل الرأى ، ونشخص الداء ، ونستقصى الحقيقة ، ونعرض على بساط البحث ماجد من آراء وبحوث ومناهج ، علنا بذلك نستطيع أن نتبين الرشد من الغى فى تجديد بلاغتنا ، وما يجب أن تكون عليه فى العصر الحديث .

من أجل كل ذلك كان هذا البحث :

" التجديد فى علوم البلاغة فى العصر الحديث " .

وانى لأتقدم بوافر الشكر ، وجزيل التقدير ، الى أستاذى الفاضل الدكتور على العمارى ، على مابذله معى من جهد مخلص فى الاشراف على هذه الرسالة . وقد كان لتوجيهاته القيمة ، وملاحظاته الدقيقة ، ومناقشاته العميقة ، وارشاده اياى الى كثير من المراجع ، كان لكل هذا الأثر الكبير فى استواء هذا البحث ، وأداء هذه الرسالة .

والله أسأل أن يوفقنا لخدمة ديننا ولغتنا وبلاغتنا . انه سميع مجيب .

التمهيد

نشأة البلاغة وتطورها

مدارسها وخصائصها

صلة البلاغة بالعلوم الاخرى

نضوجها على يد الامام عبد القاهر

استقلالها على يد السكاكي

جمود البحث البلاغي بعده

حاجة البلاغة الى التجديد

من الأسس الهامة التي يقوم عليها هذا البحث بيان وتقييم ماوصلت اليه البلاغة العربية في العصر الحديث من تطور وتجديد .

ولكي نحقق هذا الهدف كان علينا أن نعرض بادئ ذي بدء لنشأة البلاغة وتطورها على مر العصور ، حتى يمكننا أن نكشف عما صاحبها من تطورات ، وما جد عليها من تعديلات واضافات . فالتجديد ومعرفة الجديد يحتاج كل منهما الى معرفة القديم .

واذا كنا نريد أن نتحدث عن نشأة البلاغة وتطورها ، فعلينا أذن أن نبدأ من أول التاريخ العربي ، من العصر الجاهلي ، حيث وجد لدينا ـ نحن العرب ـ هذا الحشد الهائل من القصائد والأشعار التي حفلت بأيام العرب وتاريخهم .

واذا تأملنا في الأدب الجاهلي وتاريخه وجدناه حافلا بالملاحظات النقدية التي كانت (من أهم العوامل في ايجاد البلاغة ، وذلك أن هذه الملاحظات والأحكام النقدية أفادت جماعة العلماء فأحالوها قوانين وأصولا ، ودونوها في فصول مختلطة بالنقد حينا ، ومنفصلة أخيرا حتى كانت أساسا صالحا لتكوين قواعد بلاغية قامت بوظيفتها فيما مضى) . (١)

(ويمكن أن يستدل الباحث على أن العرب عرفوا كثيرا من الأحكام النقدية في العصر الجاهلي بأمرين :

الاول : عقلي لا يمكن انكاره ، وهو أنه لا يصدق أن الشعر وصل الى ماوصل اليه في تلك الفترة ، وأن الخطابة بلغت ذروتها ، وأن اللغة أخذت صورتها ، من غير أن يكون هناك عقل مدبر لذلك ، ومن غير أن تكون هناك أصول عامة تعارف عليها الشعراء والمتكلمون ، وساروا عليها فيما نظموا أو قالوا . ومهما تحدث الباحثون عن السليقة العربية الصافية والذوق السليم ، ومهما وصفوهم بالفطانة والذكاء ، فان العقل لينكر أن يكون ما كان من غير ثقافة ودربة ، وقواعد تضئ لهم الطريق وتفتح أمامهم سبل القول .

الثاني : نقلي ، وهو ما أثر عنهم ، وما جاء عن خطبهم ووصف خطبهم .

---

(١) الأسلوب : احمد الشايب ص ١٤ ط ٦

وقد كان الخطباء يعتزون ببيانهم ويفخرون بأنفسهم . ولما دخل ضمرة ابن ضمرة على النعمان بن المنذر زرى عليه للذى رأى من دمامته وقصره وقلته ، فقال النعمان : " تسمع بالمعيدى لا أن تراه " فقال ضمرة : " أبيت اللعن ، ان الرجال لا تكال بالقفزان ، ولا توزن بالميزان ، وليست بمسوك تستقى وانما المرء بأصغريه : بقلبه ولسانه ، ان صال صال بجنان ، وأن قال قال ببيان " (١) . وكان ضمرة خطيبا فارسا شاعرا شريفا سيدا ، وكان يحكم وينفر بالأسجاع . قال الجاحظ : " ان ضمرة بن ضمرة وهرم بن قطبة والأقرع بن حابس ونفيل بن عبد العزى كانوا يحكمون وينفرون بالأسجاع وكذلك ربيعة بن حذار " (٢) ....) (٣)

وعلى هذا فيمكننا أن نتلمس بذور البلاغة الأولى فى مناظرات الشعراء الجاهليين وأحاديثهم ، وخاصة فى أسواقهم الشهيرة مثل : سوق عكاظ ، ومجنة ، وذى المجاز . حيث كان الحكام الحكماء وكبار الشعراء يتصدرون مجالس الحكم ، وينقدون الشعر ، ويحكمون للجيد بجودته ، وللردئ برداءته . ومن تلك الأحكام النقدية والملاحظات الفطرية التى تعتمد على الذوق العربى الأصيل بدأت تتكون البلاغة فنا جميلا بين فنون اللغة العربية يمتاز بذكاء النظرة وجمال الفكرة .

من ذلك ماروى عن النابغة الذبيانى أنه جلس مرة فى سوق عكاظ فتتابع عليه الشعراء ينشدون بين يديه أجود أشعارهم وما أن سمع النابغة قصيدة الأعشى حتى قضى له . ثم جاءت بعده الخنساء فأنشدته رائيتها التى ترثى بها أخاها صخرا ، والتى تقول فيها :

وان صخرا لمولانا وسيدنا   وان صخرا اذا نشتو لنحار
وان صخرا لتأتم الهداة به   كأنه علم فى رأسه نار

---

(١) البيان والتبيين : جـ ١ ص ١٧١
(٢) البيان والتبيين : جـ ١ ص ١٩٠
(٣) مناهج بلاغية : د . مطلوب - ص ٢٠ و ٢١

فيعجب النابغة بقولها ويقول لها : (لولا أن أبا بصير أنشدنى آنفا لقلت انك أشعر الجن والانس) ، ويسمع حسان هذا الحكم على الخنساء فتأخذه الغيرة ، ويذهب به الغضب ، فيقول للنابغة : أنا والله أشعر منها ومنك ومن أبيك .. فيقبل عليه النابغة فيسأله : (حيث تقول ماذا ؟) .. فيقول حسان حيث أقول :

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى
وأسيافنا يقطرن من نجدة دما
ولدنا بنى العنقاء وابنى محرق
فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنما

لكن النابغة لا يعجبه هذا التصوير من حسان فيقول له : أنت شاعر ، ولكنك أقللت من جفانك وأسيافك ، وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك وقلت يلمعن بالضحى ولو قلت يبرقن بالدجى لكان أبلغ فى المديح لأن الضيف فى الليل أكثر ، وقلت يقطرن من نجدة دما ولو قلت يجرين لكان أكثر لانصباب الدم . ولن تستطيع أن تقول :

فانك كالليل الذى هو مدركى وان خلت أن المنتأى عنك واسع (١) .

وسواء صحت هذه الرواية أم لا فانها على أية حال تعطينا صورة عما كان يجرى بين الشعراء فى ذلك العصر من مساجلات أدبية ونقدية كانت نواة لما ظهر بعد من الاصطلاحات البلاغية المعروفة .

ومن ذلك أيضا ماروى عن طرفة بين العبد أنه لاحظ على المتلمس ـ أو المسيب بن علس ـ أنه وصف فى بعض شعره البعير بوصف خاص بالناقة قال ساخرا : " استنوق الجمل " . وهذا البيت هو :

وقد أتناسى الهم عند احتضاره بناج عليه الصيعرية مكدم

وذلك أن الصيعرية سمة تكون فى عنق الناقة لا فى عنق البعير (٢) .

---

(١) الأغانى ٩ / ٣٤٠ طبع دار الكتب .
(٢) الأغانى (طبع الساسى) ٢١ / ١٣٢ وتاريخ النقد الأدبى عند العرب ت/ طه احمد ابراهيم ص ١٣ طبع بيروت .

(هذا وقد وصف العرب كلامهم فى أشعارهم كبرود العصب وكالحلل والمعاطف والديباج والوشى وأشباه ذلك. (١)
كما وصفوا شعراءهم وأضفوا عليهم ألقابا ، ولأمر يتعلق بمكانتهم أطلقوا عليهم تلك الألقاب : كالمهلهل والمرقش والأفوه والنابغة وغيرها . وهذه الأوصاف تتصل بأحكامهم النقدية وبذوقهم الذى ميزوا فيه بين شاعر وشاعر
وكان بعض الشعراء فى الجاهلية يعنون بأشعارهم وينقحونها قبل أن يذيعوها بين الناس، وقد اشتهر زهير بن أبى سلمى بالحوليات، وتبعه فى ذلك الحطيئة وغيره ممن اهتموا بتنقيح الشعر وتجويده . وكان الحطيئة يقول : " خير الشعر الحولى المحكك " ، وقال الأصمعى : " زهير بن أبى سلمى والحطيئة وأشباههما عبيد الشعر لأنهم نقحوه ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين" (٢)
ان وقوف الشعراء عند قصائدهم لينقحوها ويعيدوا النظر فيها يدل على الروح النقدية التى كان الشاعر نفسه يمارسها قبل أن ينقده السامعون(٣)
ذلك ومثله ما يتخلل ثنايا أدبنا الجاهلى يدلنا على أن الشعراء كانوا يدققون فى اختيار الألفاظ والمعانى والصور ، وكانوا يبدون أحيانا ملاحظات نقدية ذكية مهدت لظهور البلاغة وبروزها الى عالم الوجود .
هذا الى أن أشعار العرب تزخر بالتشبيهات والاستعارات وتتناثر فيها بين الحين والحين ألوان من المقابلات والجناسات مما يدل دلالة واضحة على أنهم كانوا يعنون عناية واسعة باحسان الكلام على وجهيه الحقيقى والمجازى قبل أن يعرفوا الحقيقة والمجاز بالمعنى الاصطلاحى بزمن طويل

---

(١) البيان والتبيين : ج ١ ص ٢٢٢
(٢) الشعر والشعراء : ج ١ ص ٧٨
(٣) مناهج بلاغية : ص ٢١-٢٣ بتصرف.

وقد أستدل الجاحظ على أن العرب فى الجاهلية قد عرفوا عيوب البلاغة والخطابة فقال : (وكلام الناس فى طبقات، كما أن الناس أنفسهم فى طبقات ، فمن الكلام. الجزل والسخيف والمليح والحسن والقبيح والخفيف والثقيل ، وكله عربى ، وبكل قد تكلموا ، وبكل قد تمادحوا وتعايبوا فان زعم زاعم أنه لم يكن فى كلامهم تفاضل ، ولا بينهم فى ذلك تفاوت ، فلم ذكروا : العيى(١) والبكى(٢) والحصر(٣) والفدم(٤) والخطل(٥) والمسهب(٦) والمتشدق(٧) والمتفيهق(٨) والهماز والمهماز (٨) والثرثار والمكثار(٩) ؟ وقالوا : رجل تلقاعة(١٠) وتلهاعة(١١) وفلان يتلهيع فى خطبته ، وقالوا : فلان يخطئ فى جوابه ويحيل فى كلامه ويناقض فى خبره ،ولولا أن هذه الأمور قد كانت تكون فى بعضهم دون بعض لما سمى ذلك البعض والبعض الآخر بهذه الأسماء (١٢)) .

فالعرب فى الجاهلية كانوا اذن - كما يرى الجاحظ - يحسون بفطرتهم مواضع البلاغة، ويستعملونها دون تفقيه أو تعريف.

---

(١) العيى : من عيى أى حصر فى النطق ولم يستطع المضى فيه . المنجد ص٥٤٢
(٢) البكى : كثير البكاء .
(٣) حصر حصرا : عيى فى النطق ، وأصله من الحصر أى التضييق .المنجد ص١٣٧
(٤) فدم فدما : لم يستطع جوابا . المنجد ص ٥٧١
(٥) خطل خطلا : واخطل في كلامه ،أتى بكلام كثيرفاسد ،والخطل : الخطأ يقول الشاعر : أصالة الرأى صانتنى من الخطل . والخطل الأحمق . المنجد ص ١٨٧ .
(٦) أسهب الكلام وفى الكلام : أطال فهو مسهب . المنجد ص ٣٥٩
(٧) شدق شدقا : اتسع شدقه فهو أشدق ،تشدق : لوى شدقه للتفصح ، وتشدق : استهزأ بالناس يلوى شدقه بهم وعليهم . المنجد ص ٣٧٩
(٨) همزه : غمزه وضغطه ونخسه ودفعه واغتابه فهو هماز وهمزة ، وهمز الفرس نخسه بالمهماز ، والهماز والهمزة ، العياب والعياب والطعان . المنجد ص ٨٧٣
(٩) المكثار : الكثير الكلام (للمذكر والمؤنث) منجد ص ٦٧٤
(١٠) تلقع بالكلام: رمى به رميا ، والتلقاعة : العيبة الطلقب للناس - والكثير الكلام والأحمق . منجد ص ٧٣٠
(١١) لهع فى الكلام: تشدق ، واللهاعة : الغفلة . منجد ص ٧٣٦
(١٢) البيان والتبيين ج ١ ص ١١٠ تحقيق حسن الندوى .

وذكر أبو هلال العسكرى أن القدماء أشاروا الى الفصل والوصل فى الكلام قال : " وكان أكثم بن صيفى اذا كاتب ملوك الجاهلية يقول لكتابه : افصلوا بين كل معنى منقضى ، وصلوا اذا كان الكلام معجونا بعضه ببعض . وكان الحارث بن أبى شمر الغسانى يقول لكاتبه المرقش : اذا نزع بك الكلام الى الابتداء بمعنى غير ما أنت فيه فافصل بينه وبين تبيعته من الألفاظ ، فانك أذا مذقت الفاظك بغير مايحسن أن تمذق به نفرت القلوب عن وعيها ، وملته الأسماع ، واستثقلته الرواة " . (١)

وشك بعض الباحثين فى هذه الروايات فقال الدكتور جميل سعيد : ونحن نستبعد أن يكون عند العرب هذا النوع من النقد الذى يرويه الرواة ، لأنا لا نعرف لهم شبيهها به فى ذلك العصر . وقد رأينا نقدهم للقرآن الكريم فما رأينا فيه مثيلا له ، ونرجح أن يكون هذا من اضافات النقاد فى القرن الثالث الهجرى أو نحوه ، يوم نما النقد ونمت بذور البلاغة (٢)

ـ مع هذا الشك نقرر أن هذه الروايات تعكس جانبا من فهم العرب للنقد فى المرحلة الأولى . وليس بعيدا أن تصدر مثل هذه الأحكام فى الجاهلية بعد مارأينا من الدلائل التى تؤيد ذلك . هذا بالاضافة الى أن هذه الروايات ليس فيها التعليل القائم على النظارة العلمية لكى ننكرها فما هى الا أحكام عابرة أطلقها الشعراء والمحكمون معتمدين على الذوق الفطرى الذى عرف به العرب (٣) . " وليس فى تلك اللمحات النقدية شئ غريب عن البيئة التى قيلت فيها ، بل انها أشبه ماتكون بطبيعة الجاهليين الذين لم يكن لديهم من أسباب الحضارة وألوان الثقافة مايسمح لهم بمحاولة تأييد الرأى بالعلة المعقولة والدليل الواضح " (٤)

وقد ورد أن شعراء اليونان القدماء كانوا يصدرون بعض الأحكام النقدية التى تعبر عن رأى ذاتى أبعد مايكون عن القاعدة العلمية . (٥) فلم نستبعد ذلك عن العرب وهم أهل الذوق الرفيع والشعر البديع .

---

(١) الصناعتين ص ٤٤٠
(٢) دروس فى البلاغة وتطورها ص ١٠ وتاريخ النقد الأدبى عند العرب للمرحوم طه احمد ابراهيم ص ١٩
(٣) انظر مناهج بلاغية ص ٢٧ وما بعدها .
(٤) دراسات فى نقد الأدب العربى . د . طبانه ص ١٧٢
(٥) النقد الأدبى عند اليونان . د . صقر خفاجه ص ١٧

كان ذلك فى العصر الجاهلى . . فلما أرسل الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم هاديا وبشيرا ، وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا ، وايده بمعجزة بيانية كبرى هى القرآن الكريم .. أنزله بلسان عربى مبين فأخرس بفصاحته فصحاء العرب ، وأذهل ببلاغته فرسان البلاغة ، وحاول أمراء البيان وسادات القوافى أن يأتوا بمثله ، أو بسورة من مثله ، أو حتى بآية من مثله[1] فما استطاعوا وعجزوا عن مجاراته ومعارضته ، وعز عليهم عجزهم وفشلهم فقالوا : هو شعر أو كهانة أو سحر ، ولو كان شيئا من ذلك الذى قالوه لاستطاعوا أن يأتوا بمثله . [2]

وقصة الوليد بن المغيرة عندما ذهب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسمع منه شيئا من القرآن . . عاد الى قومه بوجه غير الوجه الذى ذهب به وقال لهم : خلوا بين هذا الرجل وبين ماهو فيه . ولما سألوه قال : " والله لقد سمعت من محمد آنفا كلاما ماهو من كلام الانس ولا من كلام الجن والله ان له لحلاوة ، وان عليه لطلاوة ، وان أعلاه لمثمر ، وان أسفله لمغدق ، وانه يعلو ولا يعلى عليه ، وفى رواية : وما هو يقول بشر ."[3]

وتعطينا هذه القصة صورة صادقة عما كان يفعله القرآن الكريم فى نفوس العرب عندما كانوا يسمعون شيئا منه ، وماذلك الا لما فيه - بجانب المعنى والمضمون - من بلاغة وفصاحة بلغا حد الاعجاز .

وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أن العباس سأله ، فقال : يارسول الله فيم الجمال ؟ قال صلى الله عليه وسلم " فى اللسان "[4]

---

(١) من الذين حاولوا تقليد القرآن الشاعر أمية بن أبى الصلت ومسيلمة الكذاب فمن قول الأول : " انا أعطيناك العقعق ، فصل لربك وأزعق . ان شانئك هو الحصان الأبلق .

(٢) وهناك مذهب " الصرفة " الذى يقول بأن العرب البلغاء كان بامكانهم مجاراة القرآن لشدة فصاحتهم لكن الله صرفهم عن ذلك فلم يأتوا بمثله . وعلى ذلك فمذهب " الصرفة " يرى أن القرآن ليس بمعجز حيث كان فى الامكان أن يقلد . ويجارى لولا أن الله صرف البلغاء عن ذلك . لكن ثبت على مر الدهور والعصور أن القرآن الكريم معجز بلفظه ومعناه بشكله ومضمونه وسيظل معجزا الى يوم الدين . هذا وسوف نعود الى الخوض فى هذا الموضوع بتفصيل عند الحديث عن (قضية الاعجاز) .

(٣) مختصر تفسير بن كثير ج ٣ ص ٥٦٩ - ٥٧٠ تحقيق واختصار محمد الصابونى .

(٤) البيان والتبيين ج ١ ص ١٨٤ .

ولا شك أن الرسول صلى الله عليه وسلم يريد بجمال اللسان بلاغته وحسن حديثه . فقد ذكر صاحب البيان والتبيين : أن النبي عليه السلام كان ... ه التكلف فى القول والاغراب فى البيان . وله الأحاديث الكثيرة التى تؤيد ذلك . منها قوله صلى الله عليه وسلم : " ان الله يبغض البليغ الذى يتخلل (١) بلسانه كما تتخلل الباقرة (٢) بلسانها " ، وقال : " اياى والتشادق وقال : " أبغضكم الى الثرثارون المتفيهقون " . ثم قال الجاحظ بعد ايراد هذه الأحاديث : (وعاب رسول الله الفدادين (٣) والمتزيدين فى جهارة الصوت ، وانتحال سعة الأشداق ، ورحب الغلاصم (٤) ، وهدل الشفاه . .) (٥)

هذا وكان الرسول عليه السلام يراعى فى كتبه الى الملوك والقبائل مطابقة كلامه لمقتضى الحال . فقد ذكر صاحب البيان والتبيين أن الرسول صلى الله عليه وسلم لما أراد أن يكتب الى أهل فارس كتب اليهم بما يمكن ترجمته فسهل الألفاظ غاية التسهيل حتى لا يخفى منها شىء على من له أدنى معرفة بالعربية . . ولكن لما أراد أن يكتب الى قوم من العرب فخم اللفظ لما عرف من فضل قوتهم على فهمه وعادتهم لسماع مثله . وذلك مثل كتابه لوائل بن حجر الحضرى . (٦)

---

(١) خل الشىء : ثقبه ، وخلل بينهما : فرج ، وتخلل القوم : دخل بينهم . وتخلله بالرمح : طعنه طعنة اثر أخرى . . . المنجد ص ١٩٠

(٢) بقره بقرا : شقه . . . ، والبقر والبقارى : الكذب الداهية . المنجد ص ٤٤

(٣) فد الرجل : رفع صوته . منجد ص ٥٧٢

(٤) الغلصمة : رأس الحلقوم ، وهو الموضع الناتئ فى الحلق . المختار ص ٣٧٦

(٥) البيان والتبيين ج ١ ص ١٨٤

(٦) البيان والتبيين ج ١ ص ٣٥ ، والصناعتين لأبى هلال العسكرى تحقيق على محمد البجاوى ومحمد أبو الفضل ص ١٦٠ و ١٦١

وعلى نهج الرسول الكريم فى البلاغة والبيان سار الخلفاء الراشدون من بعده .. فأبو بكر الصديق رضى الله عنه كان يفاضل بين الشعراء ... ويروى أنه كان يفضل النابغة ويقدمه على غيره من الشعراء ويقول : هو أحسنهم شعرا ، وأعذبهم بحرا ، وأبعدهم قصرا .(١)

ونلاحظ من اسلوب أبى بكر السابق أنه يتحدث عن البلاغة بأسلوب بليغ .

وهذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان هو أيضا يفاضل بين الشعراء وكان يفضل زهير بن أبى سلمى ، لأنه لا يعاظل فى الكلام ، ولا يتتبع حوشيه ، ولا يمدح الرجل الا بما هو فيه .(٢) وكان رضى الله عنه يوجه الشعراء فى القول ، ويدلهم على مواطن الصواب ، حتى قال له الحطيئة : أنت والله يا أمير المؤمنين أعلم منى بمذاهب الشعر .(٣)

ويتضح من كلام عمر فى الشعر والشعراء أن البلاغة عنده : تجنب التعقيد ، وترك الغريب والوحشى ، والبعد عن المبالغة والكذب .

أما على كرم الله وجهه فكان من أنصار السهولة فى التعبير فعرف البلاغة بأنها : ايضاح الملتبس بأسهل عبارة .(٤)

وقريب من هذا التعريف قول الحسن بن على رضى الله عنهما : البلاغة تقريب بعيد الحكمة بأسهل العبارة . ومثله قول محمد ابنه : البلاغة تفسير عسير الحكمة بأقرب الألفاظ .(٥)

هذا وكان على يفخر بالفصاحة ، ويعدها من خصائص قريش . وقد روى عنه قوله : مارأيت بليغا قط الا وله فى القول ايجاز ، وفى المعانى اطالة (٦)

---

(١) العمدة لابن رشيق ج ١ ص ٩٥ تحقيق محمد محيى الدين .
(٢) المرجع السابق ص ٩٨
(٣) المرجع السابق ص ١٧٠
(٤) الصناعتين ص ٥٨
(٥) المرجع السابق
(٦) المرجع السابق

مما تقدم نستطيع القول بأن البلاغة فى العصر الاسلامى الأول (عصر صدر الاسلام) لم يدون لها علوم ، ولم توضع لها مصطلحات، وأنها مازالت عبارة عن مجموعة من الملاحظات والتوجيهات النقدية النابعة من ذوق عربى سليم.

واذا ما انتقلنا الى العصر الاسلامى الثانى (العصر الأموى) نجد علمين كبيرين بارزين برزا فى ميدان الكتابة والأدب ، وكان لهما فى مجال البلاغة فضل لا ينكر .. هما :

" عبد الحميد الكاتب" و " ابن المقفع "

أما عبد الحميد : فكان زعيم الكتاب فى عصره ، وصاحب مذهب منفرد فى البلاغة والبيان ، وهو أول من خطا بالنثر الفنى خطوة واسعة الى ميدان الأدب الفسيح ، وأول من عنى بالمحسنات اللفظية واستعملها برقة وبراعة فائقة ، وكانت طريقته فى الكتابة مدرسة سار عليها الكتاب من بعده الى عهد ابن العميد . ولذا قيل : (بدئت الكتابة بعبد الحميد ، وختمت بابن العميد).

وأما ابن المقفع : فقد تأثر بالثقافة الأجنبية الفارسية مما جعله يميل فى كتابته الى الاسهاب والاطناب والتحليل والتفريع.

ولعله أول من شرح البلاغة وفسرها تفسيرا فنيا الى حد ما . قال اسحق ابن حسان : (لم يفسر البلاغة تفسير ابن المقفع احد قط . سئل : ماالبلاغة؟ قال : البلاغة اسم جامع لمعان تجرى فى وجوه كثيرة . فمنها ما يكون فى السكوت ، ومنها مايكون فى الاستماع ، ومنها مايكون فى الاشارة ، ومنها مايكون فى الحديث ، ومنها مايكون فى الاحتجاج ، ومنها مايكون جوابا ومنها مايكون ابتداء ، ومنها مايكون شعرا ، ومنها مايكون سجعا وخطبا ومنها مايكون رسائل . فعامة مايكون فى هذه الأبواب الوحى فيها والاشارة الى المعنى . والايجاز هو البلاغة . فأما الخطاب بين السماطين وفى اصلاح ذات البين . فالاكثار فى غير خطل ، والاطالة فى غير ملل ، وليكن فى صدر كلامك دليل على حاجتك ، كما أن خير أبيات الشعر البيت الذى اذا سمعت صدره عرفت قافيته)[1]

---

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ٩١ ، والصناعتين ص ٢٠

ويتلخص لنا من ذلك أن البلاغة عند ابن المقفع هي : الايجاز في موضعه والاطناب في موضعه ، والمعرفة بسياسة القول ، والمطابقة بين الكلام ومقتضى الحال . وكأن جرثومة التعريف الاصطلاحي نشأت عند ابن المقفع.(١)

وبعد ذلك بحوالى قرن من الزمان ظهرت طائفة من العلماء أطلق عليهم : " علماء الكلام ". اتجه هؤلاء العلماء الى دراسة اعجاز القرآن الكريم وما يقوم عليه من ظواهر بلاغية ، وصارت معرفة البلاغة أمرا دينيا كلاميا يقرر حجة الله فى عقول المتكلمين كما يقول عمرو بن عبيد فى القرن الثالث الهجرى .(٢)

أخذ علماء الكلام يشتغلون بالابحاث البلاغية فظهرت على أيديهم أوليات الاصطلاحات البلاغية . يقول ابن تيمية : (وانما هذا - يقصد تقسيم الكلام الى حقيقة ومجاز - اصطلاح حادث ، والغالب أنه كان من جهة المعتزلة ونحوهم من المتكلمين ، فانه لم يوجد هذا فى كلام أحد من أهل الفقه والأصول والتفسير والحديث ونحوهم من السلف . . .)(٣)

وكانت مدرسة المتكلمين جدلية برهانية ، تستعين بالأبحاث الفلسفية ، وتتسلح بالمنطق ، وترجح جانب المنهج النظرى العقلى ، وتتناول مسائل البلاغة تناولا منطقيا عقليا استدلاليا .(٤)

---

(١) البلاغة العربيه فى دولا نشأتها ص ١٠٧
(٢) البيان والتبيين ج ١ ص ٩٠
(٣) الايمان : لابن تيمية ص ٢٥
(٤) محاضرات فى البيان العربى : ص ١٠ للدكتور يوسف البيومى / طبعة ١٩٦٥

وكان بشر بن المعتمر واحدا من هؤلاء المتكلمين الذين انتهت اليهم زعامة المعتزلة ببغداد ، يتمتع بثقافة واسعة ، وعقل نافذ وزوق حساس وصحيفة بشر[١] فى البلاغة مشهورة حاول فيها أن يوضح معالم وأسس صناعة البيان . ومايهمنا فى هذه الصحيفة يتلخص فى نقطتين تناولهما بشر فى صحيفته :

<u>اللفظ والمعنى :</u> فكل عين وغرة من الكلام " لفظ شريف ومعنى بديع " ،والتعقيد هو الذى " يستهلك معانيك ، ويشين ألفاظك ، ومن أراغ معنى كريما فليلتمس لفظا كريما ، فان حق المعنى الشريف اللفظ الشريف ، ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما ويهجنهما " .[٢]

من هذه العبارات نستنبط أن بشرا يسوى فى المنزلة بين اللفظ والمعنى ، فلكل منهما حقه فى وجوب العناية والرعاية ، وهو يحكم على الأديب بقدر اجادته فيهما معا . وتلك هى النظرة المثلى الى الفن الأدبى ، وما يجب أن يراعى فيه من جودة اللفظ والمعنى معا ، وتناسق كل منهما مع الآخر .

<u>مطابقة الكلام لمقتضى الحال :</u> وفيه يقول بشر :" ان مدار الشرف على الصواب واحراز المنفعة مع موافقة الحال ، وما يجب لكل مقام من المقال" [٣] ويقول :" وينبغى للمتكلم أن يعرف أقدار المعانى ، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين ، وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما ، ولكل حال من ذلك مقاما ، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعانى ، ويقسم أقدار المعانى على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات" [٤]

---

(١) راجع نص صحيفة بشر فى البيان والتبيين ج ١ ص ١٠٤ – ١٠٧ ، والعمدة لابن رشيق ج ١ ص ٢١٢ – ٢١٤ ،والصناعتين لأبى هلال العسكرى ص ١٤٠ – ١٤١

(٢) البيان والتبيين ج ١ ص ١٣٦

(٣) المرجع السابق .

(٤) المرجع السابق ص ١٣٩

وهاتان النقطتان ـ اللفظ والمعنى ، ومقتضى الحال ـ من أهم ماتدور حوله الدراسات البيانية ، وحديث بشر عنهما فى صحيفته يلفت نظرنا الى نقطة هامة ، هى أن الدراسات البيانية وضع أساسها ، وأبان أول معالمها المتكلمون .

ويرى الأستاذ احمد أمين أن صحيفة بشر تشتمل على " أسس البلاغة ، وقد كتبها بشر قبل أن يؤلف (البيان والتبيين) لأن الجاحظ نقلها عنه ، ولأن بشرا نضج قبل نضوج الجاحظ ،ومات قبله بنحو خمس وأربعين سنة ، فان بشرا مات سنه ٢١٠هـ ومات الجاحظ سنه ٢٥٥هـ ، ولا نعلم قبل بشر من تعرض لوضع هذه الأسس ، فلو أسميناه مؤسس علم البلاغة لم نبعد "(١)

وفى هذا الكلام نظر ، فقد بينا منذ قليل فى الصفحات السابقة أن " عبد الحميد الكاتب " و " ابن المقفع " كان لهما سهم كبير فى ارساء أوليات البلاغة وخاصة ابن المقفع . كما ذكرنا فى الصفحات الأسبق الدعوة الصريحة فى كلام النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين الى مجانبة التكلف وترك التعقيد ومراعاة مقتضى الحال . وكذلك نلاحظ أن ابن المقفع قال ماهو أدخل فى باب البحث البلاغى مما قاله بشر .

وقد وضع الدكتور سيد نوفل صحيفة بشر فى اطارها الصحيح ، ولم يؤيد ماذهب اليه الأستاذ أحمد أمين . . فقال :" ولكنى لا أستطيع أن أذهب مذهب الأستاذ احمد أمين . . فلكى نحكم بجدة قول بشر فى تاريخ البلاغة ، يجب أن نعلم أولا قول ابراهيم بن جبلة الذى اعترض عليه بشر ، فربما كان أدخل فى البحث البلاغى منه ، ويجب أن نعلم كذلك ماكان يقوله غير ابراهيم من المعلمين لتلاميذهم ، وتوجيهات عبد الحميد الكاتب وسهيل بن هرون وكتابيه : معانى القرآن والخطب فى التوحيد والعدل ، وغيرهما من الكتب التى لم تصلنا ، فتاريخ البلاغة ملئ بالمجهولات ، والقول بأن فلانا مؤسس علم البلاغة لا يقوى أى باحث على تحمل عبئه .

---

(١) ضحى الاسلام ج ١ ص ١٤١

على أنى لست بحاجة الى الاحالة على مجهول ، فقد رأينا الدعوة الى مجانبة التكلف والتعقيد والى مراعاة مقتضى الحال فى كلام النبى والصحابة والتابعين ، ورأينا أن ابن المقفع قد قال ماهو أدخل فى باب البحث البلاغى من هذا ، وقيل عنه ان أحدا لم يفسر البلاغة تفسيره اياها ، وأنه قد وجه الكتابة العربية توجيها جديدا ، وابن المقفع توفى سنه ١٤٢ هـ . وهذا أبو عبيدة قد عاصر بشرا وعاش نحو مائة سنة وتوفى قبله بعامين ، وألف فى مجاز القرآن وتحدث فى التشبيه والاستعارة ، وبشر توفى والجاحظ فى الستين من عمره . فالقول بأن الجاحظ لم ينضج وقت هذا القول ليس له مايثبته وبخاصة أن هذا القول جاء فى كتاب البيان والتبيين وهو من آخر مؤلفات الجاحظ "[1].

وبعد بشر بن المعتمر يطالعنا على الطريق شيخ العربية وامامها وعلم القرن الثالث الهجرى أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ فقد ترك لنا ثروة ضخمة من أثمنها كتابه " البيان والتبيين " .

فى هذا الكتاب تعرض الجاحظ لموضوعات البيان والفصاحة والبلاغة ، ولم يكن لأحد من هذه الألفاظ مدلول خاص يميز كلا منها عن الآخر ، وعرف البلاغة عند الأمم المختلفة من فرس وروما ن ويونان وهنود[2] ، ونقل أقوالا كثيرة فى البلاغة وعلق على بعضها شرحا وتعليقا . من ذلك قوله : (حدثنى صديق لى قال : قلت للعتابى : ماالبلاغة؟ قال كل من أفهمك حاجته من غير اعادة ولا حبسة ولا استعانة فهو بليغ)[3] ثم قال بعد شرح وتوضيح : وانما عنى العتابى افهامك كلام العرب حاجتك على مجارى كلام العرب الفصحاء .

---

(١) انظر البلاغة العربية فى دور نشأتها ص ٨٨و ٨٩

(٢) البيان والتبيين - ج ١ ص ٨٨

(٣) البيان والتبيين - ج ١ ص ١١٣

وأثار الجاحظ فى كتابه هذا بعض القضايا البلاغية العامة : كالعيوب اللسانية ، ونبه الى وجوب مراعاة مقتضى الحال ، وقسم الكلام الى طبقات والناس الى طبقات كذلك فقال : (وكما لا ينبغى أن يكون اللفظ عاميا وساقطا سوقيا فكذلك لا ينبغى أن يكون غريبا وحشيا ، الا أن يكون المتكلم بدويا اعرابيا ، فان الوحشى من الكلام يفهمه الوحشى من الناس ، كما يفهم السوقى رطانة السوقى ، وكلام الناس فى طبقات ، كما أن الناس أنفسهم فى طبقات ، فمن الكلام : الجزل والسخيف والمليح والحسن والقبيح والخفيف والثقيل ، وكله عربى ، وبكل قد تكلموا ، وبكل قد تمادحوا وتعايبوا) (١)

وهكذا نجد الجاحظ فى كتابه (البيان والتبيين) تعرض لكثير من فنون البلاغة ، وعرضها عرضا رائعا يمتاز بالجمع بين التوضيح النظرى والنموذج التطبيقى ، فذكر البديع والايجاز وعرض للاطناب والازدواج والسجع والمجاز والتشبيه ، وله مع كل منها وقفة رائعة ولمحات ذكية .

وفى كتابه (الحيوان) وقفات أخرى فى الحقيقة والمجاز والتشبيه والاستعارة لا تقل روعة وذكاء عن وقفاته فى البيان والتبيين . (٢)

والواقع أن الجاحظ لم يختر فى كتابته أسلوب التعريف والتحديد ، وانما اختار أسلوب الأديب البليغ الذى ينطلق مع عقله وذوقه وفطرته ، فكان يستعرض النصوص الأدبية ويشرحها مستهدفا الوصول الى مواطن الجمال فيها مستعينا على ذلك بالشواهد الكثيرة من القرآن الكريم ومن كلام العرب .

---

(١) البيان والتبيين - ج ١ ص ١٤٤

(٢) انظر كتاب الحيوان : ج ٥ ص ٢٣ و ٢٥ و ٢٨ و ٣٩ و ٤٢٥ .

وفى ذلك يقول الدكتور شوقى ضيف : (ان الجاحظ قد ألم فى كتاباته الصور البيانية المختلفة ، وبكثير من فنون البديع ، غير أنه لم يسق ذلك فى تعريفات وتحديدات ، فقد كان مشغولا بايراد النماذج البلاغية ، وقلما عنى بتوضيح دلالة المثال على القاعدة البلاغية التى يقررها) [1] .

على أن عزوف الجاحظ عن الصطلحات والتعريفات لم يمنع من جاءوا بعده من الكتاب أن يستخرجوا من كتاباته عن البلاغة كثيرا من الاصطلاحات والتعريفات .

يقول الدكتور ضيف : (وقد ظلت كتابات الجاحظ وملاحظاته فى البيان والبلاغة معينا لا ينفذ لمد الأجيال التالية بكثير من قواعدهما ، كل يستمد منهما حسب قدرته الذهنية) [2]

ثم يقول : (ولعلنا لا نبالغ اذا قلنا بعد ذلك كله : ان الجاحظ يعد - غير منازع - مؤسس البلاغة العربية ، فلقد أفرد لها لأول مرة كتابه " البيان والتبيين " ، ونثر فيه كثيرا من ملاحظاته وملاحظات معاصريه ، وتعمق وراء عصره ، فحكى آراء العرب السابقين ، والتمس آراء بعض الأجانب أو قل سجلها وقد مضى ينثر فى كتابه " الحيوان " تحليلات لبعض الصور البيانية فى الذكر الحكيم . وليس من شك فى أن كتابه المفقود الذى صنفه فى نظم القرآن كان يشتمل على كثير من ملاحظاته البلاغية . وهو حقا لم يكن يعنى بوضع ملاحظاته فى شكل قوانين محددة بالتعريفات الدقيقة ، ولكنه صورها فى أمثلة متعددة بحيث تمثلها من خلفوه تمثلا واضحا) [3] .

---

(١) البلاغة تطور وتاريخ : ص ٥٦
(٢) البلاغة تطور وتاريخ : ص ٥٧
(٣) البلاغة تطور وتاريخ : ص ٥٧ و ٥٨

وقد شارك الدكتور سيد نوفل الدكتور ضيف رأيه في أن الجاحظ هو مؤسس علم البلاغة فقال : (يعد الجاحظ في رأيي مؤسس علم البلاغة العربية ذلك بأنه قد جمع ما يتصل به من كلام سابقيه ومعاصريه ، وشرحه وأضاف اليه ..)[1]

هذا بينما نرى الدكتور بدوى طبانة يقرر أن الجاحظ : (واسع المعرفة ضليع في الثقافة ، عظيم الخبرة ، رحب العقل والتفكير ، ومن هنا تزاحمت عليه الأفكار ، وتسابقت الى قلمه ، فحشد كل ما استطاع أن يسجل مما جال بفكره في كتابته ، وكان هذا هو السر فيما نرى من فقد التنظيم العلمي حتى ليصعب الاهتداء في جنبات مؤلفاته الى الفكرة والرأي لمن يبحث عن الفكرة والرأي .

وعلى هذا النحو كتاب " البيان والتبيين " الذي تضل فيه الابانة عن حدود البلاغة ، وأقسام البيان والفصاحة ، انها مبثوثة في تضاعيفه ، ومنتشرة في أثنائه ، فهي ضالة بين الأمثلة ، لا تدرك الا بالتأمل الطويل ، والتصفح الكثير)[2] . ومع ذلك يرى الدكتور طه حسين أن : (العرب لم يخطئوا حين عدوا الجاحظ مؤسس البيان العربي ، وليس ذلك لأنه وصل بجهده الخاص الى قاعدة بيانية بعينها ، فشخصيته القوية تكاد تكون معدومة في كتابه البيان والتبيين ، ولكن لأنه جمع في هذا الكتاب طائفة من النصوص توضح لنا توضيحا حسنا كيف كان العرب يتصورون البيان في القرن الثاني والنصف الاول من القرن الثالث ، وتعطينا صورة مجملة لنشأة البيان العربي ، ان لم تسمح لنا بتأريخ هذه النشأة)[3]

---

(١) البلاغة العربية في دور نشأتها ص ١٧٠
(٢) البيان العربي : ص ٦٥ و ٦٦
(٣) مقدمة نقد النثر : د . طه حسين ص ٣ و ٤

ويبدو أن هذا الرأى للدكتور طه حسين والدكتور بدوى طبانة مأخوذ من كتاب الصناعتين لأبى هلال العسكرى.[1]

ورأيى أن كتاب البيان والتبيين على مافيه من قيمة بلاغية يحتاج لمجهود كبير، وتأمل طويل، لاستخراج هذه القيم. فهى ليست منظمة تنظيما علميا بحيث يسهل ادراكها والاستفادة بها. كما أن القول بأن الجاحظ مؤسس علم البلاغة مردود بما قلناه عن بشر بن المعتمر حين قيل عنه بأنه مؤسس علم البلاغة.

ومن الذين كان لهم باع لا ينكر فى التأليف البلاغى العالم الجليل ابن قتيبة صاحب كتاب "تأويل مشكل القرآن".. فهذا الكتاب قد أولى البلاغة عناية كبيرة وان كان صاحبه قد ألفه أصلا للرد على الطاعنين فى بلاغة القرآن، الذين اتبعوا ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وقد تحدث ابن قتيبة فى هذا الكتاب عن كثير من فنون البلاغة وعقد لها أبوابا، هى القول فى المجاز، والاستعارة، والمقلوب، والحذف والاختصار، وتكرار الكلام والزيادة فيه، والكناية والتعريض ومخالفة ظاهر اللفظ معناه، ولانجد فى الكتب المتقدمة هذا المنهج فى دراسة البلاغة، وهذه الأبواب الواضحة المعالم." وبذلك يعد ابن قتيبة من أوائل الذين فتحوا باب التأليف فى هذا الفن لابن المعتز.[2]

وأهم كتاب جاء بعد ذلك هو كتابه (البديع) لابن المعتز[3].. ذلك أنه أول كتاب فى البلاغة العربية لم يجاوز فى موضوعاته وفنونه دائرة البحث البلاغى.

---

(١) انظر كتاب الصناعتين: ص ٥

(٢) دائرة المعارف الاسلامية ج ١ ص ٢٠٨

(٣) من أعلام القرن الثالث الهجرى، انظر ترجمته فى تاريخ بغداد ١٠/ ٩٥ والاغانى (ط دار الكتب) ١٠/ ٢٧٤، ونزهة الألبا ٢٩٩، وشذرات الذهب ٢/ ٢٢١.

وكلمة " البديع " التي وضعت عنوانا لهذا الكتاب ليست جديدة مستحدثة، بل كانت مستعملة في لغة العرب من قبل ، وكانت تدل على كل طريف مستحسن، وفي القرآن الكريم: " بديع السموات والأرض"، وقد ذكر الجاحظ هذه الكلمة حين ذهب الى أن البديع مقصور على العرب ، ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة ، وأربت على كل لسان .

فاذن ليس لابن المعتز فضل في هذه التسمية ، ولكن فضله يعزى الى أنه أول من جمع فنون البديع ووضحها وأتى بشواهد لها من القرآن الكريم، والسنة الشريفة ، وكذلك من روائع الأدب .

ويعتز ابن المعتز بسبقه الى التأليف البلاغي فيقول: (وماجمع فنون البديع ولاسبقني اليه أحد)[1]

ويذكر ابن المعتز أن السبب الذى دعاه الى تأليف كتابه (البديع) هو تلك الخصومة القائمة بين القدامى والمحدثين ، فأنصار القديم يرون أن القدماء هم أهل الفصاحة واللسن، وهم أصحاب المعاني والأخيلة ، وهم السابقون الى وضع الأوزان والقوافي ، وأن المحدثين عالة عليهم . وأنصار الحديث يرون أن المولدين هم أهل المواهب وأصحاب البديع ومخترعوه .

وانبرى ابن المعتز يفند دعاوى المحدثين ، ويثبت أصالة العرب في البديع ، وان كان للمحدثين شئ فهو مغالاتهم فيه واسرافهم في استعماله

يقول ابن المعتز: (وانما غرضنا في هذا الكتاب تعريف الناس أن المحدثين لم يسبقوا المتقدمين الى شئ من أبواب البديع ..)[2]

والبديع عند ابن المعتز يشمل خمسة فنون هي:

الاستعارة - والتجنيس - والمطابقة - ورد أعجاز الكلام على ماتقدمها - والمذهب الكلامي .

---

(1) كتاب البديع ص ١
(2) المرجع السابق ص ٣

على أن ابن المعتز لم يقصر كتابه على هذه الفنون الخمسة ، وانما ذكر بعدها ثلاثة عشر فنا . قال انها من محاسن الكلام ، وهي : الالتفات ، الاعتراض ، الرجوع ، حسن الخروج ، تأكيد المدح بما يشبه الذم ، تجاهل العارف ، الهزل يراد به الجد ، حسن التضمين ، التعريض والكناية ، الافراط في الصفة ، حسن التشبيه ، لزوم مالا يلزم حسن الابتداء ، وضرب لكل ذلك أمثلة كثيرة .

(ونلاحظ أن ابن المعتز اعتبر التعريض والكناية شيئا واحدا . كما نلاحظ أن ماذكره ابن المعتز من البديع والمحاسن خليط عد بعضه أخيرا من علم المعاني : كالالتفات والاعتراض ، وعد بعضه من علم البيان : كالاستعارة وحسن التشبيه والتعريض والكناية ، وبعضه من البديع الاصطلاحي كالتجنيس والمطابقة .

وبالرغم من ذلك فكتاب البديع هو أول محاولة جدية في وضع اصطلاحات والقاب لوجوه الحسن في الكلام ما أسرع مابني عليه من بعده قواعد هذا العلم وشادوا من بنيانه) (١)

واذا كان لابن المعتز فضل كبير على البلاغة بتأليفه هذا الكتاب ، فان له كذلك فضلا كبيرا على النقد ، اذا أدخل فيه جانب البلاغة ، وجعل أساس النقد الأدبي تمييز الأسلوب بما فيه من فنون البديع ، وأولها عنده (الاستعارة) ، وهذا يعني أن ابن المعتز أدخل الصورة بين عناصر النقد الأدبي ، بعد أن كان النقد متجها الى الكلمة ومافيها من خطأ أولحن ، والى المعنى ومايتضمنه من جودة أو رداءة .

---

(١) المدخل الى البلاغة العربية : د . يوسف البيومي ص ١٥

وكتاب البديع - فوق ما تقدم - يمتاز بأنه عمل عربى صرف لم يتأثر بنزعة أجنبية كما حدث بعد ذلك عندما ألف قدامة بن جعفر كتابه " نقد الشعر " فقد جاء منهجه متأثرا بما عرف من قواعد البلاغة عند أرسطو وفلاسفة اليونان وما ترجم منها فى ذلك الحين .

وكان قدامة (١) قد أشتهر بين معاصريه بثقافته العميقة ومعرفته بالفلسفة والمنطق فجاء كتابه " نقد الشعر " كأنه تحد لابن المعتز ومدرسته العربية الأصلية .

ويرى الدكتور طه حسين أن قدامة لم يتأثر بتفكير أرسطو وفلسفته (٢) بينما لا يشك باحث فى كتاب قدامة أن صاحبه كان مطلعا على آراء أرسطو ومتأثرا بهما الى حد بعيد (٣)

وقد رد الدكتور شوقى ضيف على الدكتور طه حسين ردا مقنعا أثبت فيه أن قدامة تأثر فى كتابه " نقد الشعر " بكتابى الخطابة والشعر لأرسطو ، كما تأثر بكتابات الجاحظ وابن المعتز والاصمعى وغيرهم من سابقيه (٤)

وبنظرة عاجلة على كتاب (نقد الشعر) لقدامة نجده نظمه ورتبه فصولا ثلاثة :

الفصل الاول : لتعريف الشعر وبيان أجزائه .

الفصل الثانى : تحدث فيه عن نعوت الجودة فى الشعر .

الفصل الثالث : خصه بعيوب الشعر ونعوت رداءته .

ومجمل القول أن قدامة وفق فى هذا الكتاب توفيقا عظيما جعل من يكتبون بعده فى البديع يلهجون باسمه وفى مقدمتهم أبو هلال العسكرى صاحب كتاب الصناعتين .

---

(١) انظر تاريخ قدامة وترجمته فى : معجم الادباء لياقوت (طبعة القاهرة) ج ١٧ ص ١٢١ ، وتاريخ بغداد ٧ / ٢٠٥

(٢) مقدمة نقد النثر ص ١٧

(٣) انظر (بلاغة أرسطو بين العرب واليونان) د . ابراهيم سلامة ، (والنقد المنهجى عند العرب) د . محمد مندور ص ٦٢ - ٦٨

(٤) (البلاغة تطور وتاريخ) د . شوقى ضيف ص ٨١ وما بعدها الى ص ٩١

هذا وقد ظهرت ـ فيما بين قدامة وأبى هلال العسكرى كتب نقدية تناول أصحابها كثيرا من الأمور البلاغية ، مثل كتاب (عيار الشعر) لابن طباطبا سنه ٣٢٢هـ ، وكتاب (الموازنة بين الطائيين) للآمدى سنه ٣٧١هـ ، وكتاب (الوساطة بين المتنبى وخصومه) للقاضى الجرجانى سنه ٣٩٢هـ .

وقد اشتهرت هذه الكتب فى تاريخ النقد الأدبى ، وهى كتب كثر الحديث فيها عن التشبيه والاستعارة والجناس والطباق ، وعما يستحسن من هذه الفنون ويستقبح . والظاهرة العامة فى هذه الكتب أن النقد الأدبى فيها قد اختلط بالبلاغة ، والبلاغة اختلطت بالنقد ، وبات من العسير على الباحث فيها أن يميز نقدا من بلاغة أو بلاغة من نقد . يقول صاحب الموجز : " وذلك فى اعتقادنا أمر محمود ، وكان ينبغى أن يستمر ، فلا يقدم نقد بلا بلاغة ، لأنها عنصر من عناصره ، ولا تقدم بلاغة بلا أدب ، لأنها به تحيا وتزدهر ، وما أظلمت البلاغة عندنا وجمدت الا يوم انزوت عن النقد والادب جميعا لتصبح حدودا جامدة وتعريفات خالية من النبض والروح " (١)

ولأن هذه الكتب (عيار الشعر ، والموازنة ، والوساطة) لا تعد كتبا فى البلاغة بالمعنى الذى آلت اليه بعد ذلك فاننا نتجاوزها الى كتب أخرى تلتها ، واتخذت من فنون البلاغة موضوعا لها . ككتاب الصناعتين لأبى هلال العسكرى الذى أشرنا اليه آنفا .

---

(١) الموجز فى تاريخ البلاغة ص ٧٩ و ٨٠ للدكتور زكى المبارك .

ويعتبر كتاب الصناعتين لأبى هلال العسكرى [1] نقطة هامة على طريق التطور البلاغى وتحولا ملحوظا فى تاريخ الدراسات البلاغية ، فتلك الملاحظات النقدية التى أشرنا اليها عند ابن المقفع وبشر بن المعتمر والجاحظ وغيرهم من الأدباء جمعها أبو هلال ونسقها فى قواعد بلاغية تعين على صناعة الكتابة والشعر. ولذلك يمكننا أن نعتبر هذا الكتاب بداية تحول النقد الى بلاغة.

وقد ذكر أبو هلال فى مقدمة كتابه السبب الذى دعاه الى وضع كتاب فى البلاغة والفصاحة فقال : (ان أحق العلوم بالتعليم وأولاها بالتحفظ ، بعد المعرفة بالله جل ثناؤه ، علم البلاغة ومعرفة الفصاحة ، الذى به يعرف اعجاز كتاب الله تعالى ...) [2]

فالبلاغة على هذا ـ عند المؤلف ـ لها غاية دينية ، وهى اثبات اعجاز القرآن عن طريق معرفتها . وتلك الغاية الدينية هى التى لمسناها لدى أكثر السابقين الى علم البلاغة .

ونظرة فاحصة الى الأبواب والفصول التى اشتمل عليها كتاب الصناعتين ترينا مبلغ الجهد الشاق الذى بذله أبو هلال فى تأليف هذا الكتاب. وقد قسمه الى عشرة أبواب تشتمل على ثلاثة وخمسين فصلا ، تتناول الموضوعات البلاغية المختلفة من تحديد موضوع البلاغة لغة واصطلاحا ، الى تمييز جيد الكلام من رديئه ، ومعرفة صنعته ، وحسن الأخذ وقبحه ،الى ذكر الايجاز والاطناب والتشبيه وما يستحسن وما يستقبح ، وذكر السجع والازدواج والقول فى البديع ووجوهه وحصر أبوابه وفنونه . وذكر لكل ذلك أمثلة كثيرة عنى فى أحوال كثيرة بتحليل أطراف منها تحليلا يدل على رهافة حسه وصفاء ذوقه ونقائه .

ومما يذكر بالفضل لأبى هلال فى كتابه الصناعتين ذلك الأسلوب الأدبى الممتع الذى سلكه فى تبويب البلاغة وتطبيق الأمثلة وشرحها ، وبعده عن طريقة علماء المنطق والكلام التى كانت قد طغت على أفكار القوم وأساليبهم فى القرن الرابع ، وكأنما تنبه العسكرى الى مخالفة هذه الأساليب لطبيعة البلاغة العربية الاصيلة . وقد أشار الى ذلك فى آخر الفصل الاول من الباب الأول اذ قال :

---

(١) انظر ترجمته فى : معجم الأدباء ٣/١٣٥ ، وخزانة الادب ١/١١٢ .
(٢) الصناعتين ص ١ .

(ليس الغرض فى هذا الكتاب سلوك مذهب المتكلمين ، وانما قصدت فيه مقصد صناع الكلام من الشعراء والكتاب . . .)[1]

وهكذا كان أبو هلال العسكرى فى كتابه الصناعتين كاتبا أديبا يتذوق البلاغة ويبحث عن مواطن الجمال فيها مستدلا بالشواهد والبراهين . وما فعله أبو هلال العسكرى فى علم البلاغة هو ـ لا شك ـ عمل قيم وعظيم ، ولكنه لا يعد شيئا بجانب ما أتى به امام البلاغة وعلمها الشامخ الأستاذ الامام عبد القاهر الجرجانى[2] . الذى بلور نظرية النظم ورأى أن البلاغة تدور فى فلكها ، وأن الأبحاث البلاغية يجب أن ترتبط بها وتنضوى تحتها . وما النظم عند الجرجانى الا ائتلاف الالفاظ ووضعها فى الجملة الموضع الذى يفرضه معناها النحوى ، فالمعنى النحوى للكلمة هو الذى يفرض تقديمها أو تأخيرها ، تعريفها أو تنكيرها ، ذكرها أو حذفها . يقول الجرجانى : (واعلم أن ليس النظم الا أن تضع كلامك الوضع الذى يقتضيه علم النحو ، وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه التى نهجت فلا تزيغ عنها ، وتحفظ الرسوم التى رسمت لك فلا تخل بشىء منها . . .)[3]

ويقول فى موضع آخر : (وليس الغرض بنظم الكلم أن توالت ألفاظه فى النطق ، بل أن تناسقت دلالتها وتلاقت معانيها على الوجه الذى يقتضيه العقل)[4] . وفى كتابه (دلائل الاعجاز) نجد أن معظم الابحاث البلاغية التى درسها عبد القاهر فى هذا الكتاب هى التى وضعت فيما بعد تحت اسم " علم المعانى " فقد عالج مسائل كثيرة ترتبط بالمعانى التى تستفاد من الجملة عندما توضع على نحو خاص من تقديم وتأخير وذكر وحذف وتعريف وتنكير الى غير ذلك من ألوان الصياغة ،

---

(١) الصناعتين ص ٨
(٢) انظر ترجمته فى : انباء الرواة ٢ / ١٨٨ ، وطبقات السبكى ٣ / ٢٤٢ ، وبغية الوعاة ٣١٠ .
(٣) دلائل الاعجاز ص ٤٨
(٤) المرجع السابق ص ٣٣

فجاء من بعده وربطوا بين هذه المسائل التى عالجها على نحو جديد وسموها (علم المعانى) ، بل لعل الاسم نفسه مأخوذ عن عبد القاهر أيضا لأنه كثيرا ماردد وأعاد وكرر أن النظم هو توخى معانى النحو فيما بين الكلم .

وفى كتابه (أسرار البلاغة) يتابع عبد القاهر ويؤكد نظريته فى النظم ، وأن مزية البيان انما هى فيما بين الألفاظ من علاقات تنسجم مع المعنى ، وبدون ذلك لا فائدة للألفاظ " كيف والالفاظ لا تفيد حتى تؤلف ضربا خاصا من التأليف ، ويعمد بها الى وجه دون وجه من التركيب والترتيب "(١) ويؤكد عبد القاهر ذلك فى أكثر من موضع وهو أن العبرة ليست باللفظ وانما بالمعنى ، لأن اتساق الألفاظ وترتيبها انما يكون بحسب ترتيب معانيها فى النفس وتقبلها فى العقل ويضرب عبد القاهر لذلك أمثلة عديدة ، منها ماذكره عن التجنيس فقال :

(أما التجنيس فانك لا تستحسن تجانس اللفظتين الا اذا كان موقع معنيهما من العقل موقعا حميدا)(٢). كما يقول فى موضع آخر :

(ولن تجد أيمن طائرا ، وأحسن أولا وآخرا ، وأهدى الى الاحسان وأجلب للاستحسان ، من أن ترسل المعانى على سجيتها ، وتدعها تطلب الألفاظ لنفسها ، فانها اذا تركت وما تريد لم تكتس الا ما يليق بها ، ولم تلبس من المعارض الا مايزينها ، فأما أن تضع فى نفسك أنه لابد من أن تجنس أو تسجع بلفظين مخصوصين فهو الذى أنت فيه بغرض الاستكراه وعلى خطر من الخطأ والوقوع فى الذم)(٣).

وقد حشد عبد القاهر فى (أسرار البلاغة) كثيرا من أبحاث علم البيان ، فبحث فيه التشبيه والتمثيل والمجاز بنوعيه اللغوى والعقلى وهذه الأبحاث هى التى جمعها من جاءوا بعد عبد القاهر فى علم واحد سموه " علم البيان ".

---

(١) اسرار البلاغة : ص ٣

(٢) المرجع السابق : ص ٦

(٣) المرجع السابق : ص ١٣ و ١٤

وهذه الجهود العظيمة التي بذلها عبد القاهر في الابحاث البلاغية جعلت صاحب الطراز يذكر في فاتحة كتابه أن عبد القاهر هو واضع علم البلاغة يقول: (وأول من أسس من هذا الفن قواعده ، وأوضح براهينه ، وأظهر فوائده ، ورتب أفانينه ، الشيخ العالم النحرير علم المحققين عبد القاهر الجرجاني .. فجزاه الله عن الاسلام خير الجزاء)[1]. كما يرى د. بدوى طبانة أن عبد القاهر فاق أرسطو في هذا المجال يقول: (ولقد أفاد من دراسات عبد القاهر وبحوثه البلاغية من لا يحصون من علماء البلاغة ، وانتفعت الاجيال المتعاقبة بما بسط من الأفكار وبما عمق من البحث في أصول الفن الادبي ، ومازالت أصداؤه تتجاوب في بيئات الأدب وقاعات الدرس في جامعاتنا وفي كتبنا البلاغية ودراساتنا النقدية ، حتى ليمكن القول بحق أن عبد القاهر هو أرسطو العرب في سعة باعه وغزارة معرفته بالفن الأدبي ، وان فضل عبد القاهر أرسطو في نصاعة الحجة واشراق البيان)[2]

وهكذا نجد أن البحوث البلاغية تكاد تكون قد تمت وبلغت أوجها في دراسات عبد القاهر الجرجاني . ولكن كما يقول الشاعر: لكل شيء اذا ماتم نقصان فقد شاء الله تعالى أن تتحول البلاغة من علم ذوق وجمال وأدب الى علم جاف يعتمد على المنطق بأصوله ومناهجه الحادة مما جعل علم البلاغة قوانين تسبك في قوالب منطقية جافة .

ولقد حدث هذا التحول الخطير على يد أبي يعقوب السكاكي[3]. الذي وضع كتابه (مفتاح العلوم) وقسمه ثلاثة أقسام: القسم الأول للصرف والقسم الثاني للنحو ، والقسم الثالث للبلاغة وما تحتوى عليه من أقسام المعاني والبيان والبديع ومايلحق بهذه العلوم من قافية وعروض .

حقيقة ان هذا التحول يرجع قبل السكاكي الى فخر الدين الرازي في كتابه (نهاية الايجاز في دراية الاعجاز) فهو أصل القسم الثالث من كتاب المفتاح .. الا أن السكاكي أخذ هذه البداية وركز عليها ونماها وزاد فيها حتى اعتبر لدى علماء البلاغة امام هذه الطريقة .

---

(١) الطراز: ج ١ ص ٤

(٢) البيان العربي : ص ٢٥٠

(٣) انظر ترجمته في: معجم الأدباء ٧/ ٣٠٦ ، وبغية الوعاة : ٤٢٥

وما صنعه السكاكي في مفتاح العلوم من تقسيم البلاغة هو الذي أخذ به علماء البلاغة من بعده ، وهو الذي استقرت عليه البلاغة الى وقتنا الحاضر . فاذا عرفنا أن السكاكي كان متأثرا بثقافته النحوية والمنطقية والكلامية ، وعرفنا أنه صبغ البلاغة في كتابه بصبغة هذه العلوم ، عرفنا سبب طغيان القوالب والحدود على علوم البلاغة ، وعرفنا سبب التعقيد الذي أصابها عنده وعند من قلدوه وحذوا حذوه من بعده . اذ ظل (مفتاح العلوم) للسكاكي محورا للتأليف البلاغي ، فظهر حوله عدد كبير من كتب الشرح والايضاح والتلخيص والتهذيب فكانت كغيوم تحجب صفاء السماء وتمنع عن البلاغة البهجة والرواء .

ويرى الأستاذ احمد موسى أن البديع ساء حاله على يد السكاكي ولم يعد بديعا فقد (أخذ يتحدر رويدا رويدا الى هاوية الاسفاف والانحطاط ، ويفقد صبغته الأدبية التي أبرزته في معرض الاشراق والاعجاب ، ويتعثر في قيود ضيقة قيدها له المنطق والفلسفة ، حتى صار هم العلماء تحديد ألوانه والاكتفاء بتحديدها كما تحدد الكلمات اللغوية وسوق الأمثلة التقليدية التي يتوارثونها لكابر عن كابر ، حتى أصبحت الكتب الكثيرة التي ألفت فيه بعد السكاكي كأنها كتاب واحد ، فمن وقف على أحدها غني به عما عداه ، وقد زاده تعثرا على مر الزمن وقوعه فريسة للشراح والمقررين الذين يرون أن الحذق والتمهر انما يظهران في العناية بالجدل الذي لا يفيد وافتراض الافتراضات والشبه ثم الاشتطاط عليها مما قضى على البديع وذهب بروعته الأدبية وأورده موارد العقم والجمود)[1]

من أجل ذلك قامت الدعوة الى تجديد البلاغة أو العودة بها الى عصر نضجها وازدهارها أو على الأقل تنقيتها مما شابها من أسلوب المناطقة وطريقة الجدل العقيم الذي جاء كعاصفة مترية وريح سموم فغطى على جمال البلاغة وما امتازت به أصلا من فخامة اللفظ ورقة المعنى وحلاوة الصياغة وجمال الصورة وقوة الخيال .

---

(١) الصبغ البديعي : ص ٢٤٢

مع روعة فى التطبيق وبراعة فى الاستشهاد الى غير ذلك مما امتازت به المدرسة الأدبية قبل أن تظاهر عليها وتطغى المدرسة الكلامية .

ويسوقنا هذا الى الحديث عن المدارس التى مرت بها البلاغة وخصائص كل منها حديثا موجزا يتناسب مع هذا التمهيد الذى أحاذر فيه الايجاز المخل والاطناب الممل .

المدرستان الأدبية والكلامية : وأعود فأقول : ان بلاغتنا العربية عاشت فى أحضان مدرستين كان لكل منهما طابعها الخاص ومنهجها فى البحث والدراسة . وهاتان المدرستان هما :

أ ـ المدرسة الأدبية ب ـ المدرسة الكلامية

وقد نشأت البلاغة كما عرفنا ـ منذ العصر الجاهلى ـ عربية الروح وترعرعت وأزهرت فى رحاب الذوق الحساس ولفتات الطبع الذكية فى أسلوب أدبى هو من حوك البلاغة التى يصورها والدرر التى ينظمها ، فكانت النفوس تأنس لها وتنتعش بما تجد فيها من بهجة وجمال وسحر .

ذلك هو العصر الأول للبلاغة الذى انتهى الى الشيخ عبد القاهر الجرجانى وتمثل فى كتابيه (دلائل الاعجاز وأسرار البلاغة) ذلك العصر الذى لا نستطيع أن نحكم على تراثه فى البلاغة والأدب أى كتبه بلاغة وأيها أدب لشدة الامتزاج وكثرة التداخل ووفرة ما أفاض كل منهما على الآخر فالبلاغة والأدب فرعان متعانقان من شجرة طيبة هى شجرة اللغة العربية الخالدة .

تلك هى المدرسة الادبية ، وقد كان للكتاب والشعراء الأثر البالغ فى نشأة تلك المدرسة فقد صبغوا كثيرا من مباحثها بصبغة أدبية رائعة ، وذلك لما امتازوا به من حس دقيق مرهف وطبع رقيق صاف وذوق ناقد وذلك يتضح من حديث الجاحظ عن الكتاب حيث يقول : "أما أنا فلم أر قوما قط أمثل طريقة فى البلاغة من الكتاب ..." (١)

---

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ١٠٥

ومن أهم ما تمتاز به تلك المدرسة هو مجافاتها الأحكام النظرية ، وعدم التحاكم الى المناطق الميزانى ، والاعتبار العقلى ، والشعور بأن فى الانسان من قوى الحكم شيئاغير هذا كله . "(١) فالذوق أساس هام فى الاحساس بجمال الكلام وروعة الاسلوب وقد أدرك هذا الامام عبد القاهر فعقد فصلا فى آخر " دلائل الاعجاز " بعنوان (ادراك البلاغة فى الذوق والاحساس الروحانى) .

وكذلك مما تمتاز به هذه المدرسة الأدبية اكثارها المسرف فى استعمال الشواهد الأدبية شعرا ونثرا ، واقلالها من البحث فى التعاريف والقواعد والأقسام والفروع ، مع الاعتماد على الذوق وحاسة الجمال فى تقرير المعانى الأدبية .(٢)

ومن أبرز رجال هذه المدرسة الامام عبد القاهر وكتاباه ، وضياء الدين بن الاثير الذى يعد قمة المدرسة الأدبية لأنه بحث البلاغة بحثا أدبيا فى كتابيه : المثل السائر ،والجامع الكبير (٣) وكذلك أبو هلال العسكرى فى كتابه : الصناعتين ،ويمكن أن نعد من رجالها كذلك : ابن رشيق القيروانى فى : العمدة ، وابن سنان الخفاجى فى : الفصاحة ، والرمانى فى : النكت فى اعجاز القرآن .

أما العصر الثانى : فهو عصر المدرسة الكلامية التى حمل لواءها أبو يعقوب السكاكى فى أواخر القرن السادس وامتدت حتى قبيل النهضة الحديثة . وفى تلك الفترة طغت الروح الاعجمية والافكار الأجنبية وأصاب البلاغة منها رذاذ كثير بل سيل جارف أغرقها فى دوامات المنطق والفلسفة وعلم الكلام وتحولت البلاغة المسكينة الى حدود وتعريفات وشروح وتلخيصات أبعد ماتكون عن روح البلاغة وما يجب أن يكون فيها من روعة وجمال .

---

(١) فن القول ص٩٢

(٢) مناهج تجديد ص ٢٣٠

(٣) اتجاهات البلاغة العربيه ص ١٢ / د . احمد مطلوب .

وقد يكون للمدرسة الكلامية فضل فى استواء علم البلاغة وتكامل نموه وتقسيمه الى فروعه الثلاثة : المعانى ، والبيان ، والبديع ، وتخصيص كل قسم بما يضمه ويندرج تحته من فنون البلاغة . ولكن مما لا شك فيه أن ضررها كان أكثر من نفعها وأن المدرسة الكلامية رغم مابذلت من جهود وانتجت من كتب بعدت بالبلاغة عن روحها ودخلت بها فى متاهات مازالت تتخبط فى دياجيرها حتى اليوم .

تلك هى المدرسة الكلامية وتتلخص خصائصها فى تطبيق المظاهر المنطقية والفلسفية فى الأبحاث البلاغية ، واصدار أحكام عقلية فى الموضوع الوجدانى ، والجور على الناحية الأدبية بالاقلال من الشواهد الأدبية والاكثار من الأمثلة المصنوعة التافهة ، وعدم العناية بالناحية الفنية فى ادراك خصائص التراكيب ، واستعمال المقاييس الحكمية والخلقية والعقلية فى تقدير المعانى الأدبية .[1] هذا وربما تكون المدرسة الكلامية قد ظهرت مبكرة عما ذكرنا ، فنحن نعرف أن الجاحظ كان من أعلام المتكلمين وكان على رأس فرقة اعتزالية لها مبادئها الخاصة فى علم الكلام ، وكان الجاحظ مشغوفا بعلم الكلام لدرجة أنه تمنى أن يكون الأطباء متكلمين[2] ولكن عصر الجاحظ كان عصرا ذهبيا ازدهرت فيه الآداب لذلك لم يظهر أثرالمتكلمين واضحا فى كتابته . هذا بالاضافة الى أن الجاحظ نفسه كان صاحب ذوق رفيع واحساس مرهف وطبع صاف أصيل فغطى ذلك على ميوله الكلامية وهو يكتب فى البلاغة والأدب . لكن هذا لا يمنع أن المدرسة الكلامية كانت موجودة قبل السكاكى وان كانت ضعيفة الأثر لم تطغ بشكل واضح على الناحية الأدبية .

وليس عجيبا بعد ذلك أن نرى الجاحظ وهو من أعلام المتكلمين يشير الى المدرسة الأدبية ويبدى اعجابه بها وذلك عندما تحدث عن الكتاب فقال : " أما أنا فلم أر قوما قط أمثل طريقة فى البلاغة من الكتاب فانهم قد التمسوا من الألفاظ مالم يكن متوعرا وحشيا ولا ساقطا سوقيا "[3]

---

(٢) انظر كتاب الحيوان : ج ٥ ص ٢٢

(١) انظر خصائص المدرستين الادبية والكلامية فى مناهج تجديد ص ١٢٥ وص ٢٦ ١ وص ٢٣٠ ، وفن القول ص ٧٩ — ١٠٠

(٣) البيان والتبيين : ج ١ ص ١٠٥

وفى كتاب الصناعتين لأبى هلال العسكرى نجده هو الآخر يشير صراحة الى منهجين فى دراسة الادب والبلاغة هما : منهج المتكلمين الذى يعنى بتحديد الموضوعات وتقسيمها وبيان ما يتشعب منها ، ثم منهج الأدباء الذى يمتاز بالاكثار من الشواهد شعرا ونثرا وتلمس الجمال الفنى فيها . يقول أبو هلال : (وليس الغرض فى هذا الكتاب سلوك مذهب المتكلمين ، وانما قصدت فيه مقصد صناع الكلام من الشعراء والكتاب)(1)

على أن هناك مدارس أخرى مرت بها البلاغة فى أيامها الاولى مثل : المدرسة الأصولية ، ومدرسة الرواة ، ومدرسة الكتاب التى تعتبر نواة للمدرسة الأدبية . ذلك أن البلاغة العربية نشأت وترعرعت فى أحضان علوم أخرى ترتبط بها أشد الارتباط ، وستظل مرتبطة بها مهما بلغت سن الرشد فأستقلت علومها وتحددت مسائلها . وهل تستغنى البلاغة عن علوم القرآن واللغة والأدب والنقد . هذه هى العلوم التى نشأت البلاغة فى أحضانها ونمت حتى استوت على سوقها علما ناضجا مزهرا .

فعلماء أصول الفقه مثلا كانت لهم بحوث بلاغية تحتل المقدمة اللغوية لعلم الأصول ، وهى مقدمة تضخمت مع الوقت حتى صارت مسائلها من أهم ما يبحثه الأصوليون . فقد عرضوا فى مبادئهم اللغوية للبحث فى الحقيقة والمجاز والتشبيه والكناية وما الى ذلك من أبحاث علم البيان ، كما تحدثوا عما يتصل ببحث أجزاء الجملة فى علم المعانى ، ففى حديثهم عن العموم والخصوص عرضوا للتنكير والتعريف ، واستغراق المفرد ،واستغراق الجمع ، والحصر ونحوه . وتلك الابحاث البلاغية فى المدرسة الأصولية هى التى جعلت السكاكى يشير الى استئثار علم أصول الفقه بأبحاث علمى المعانى والبيان ويقول : " بل تصفح معظم أبواب أصول الفقه لترى من أى علم هى ومن يتولاها "(2)

---

(1) الصناعتين : ص ١٥

(2) مفتاح العلوم ص ١٩٩ ط ١ الحلبى .

أما الرواة فقد كانت لهم جهود طيبة فى وصل ماضى العرب بحاضرهم وحفظ تراث اللغة والأدب بعد ما اختلط العرب بالعجم. وقد خاض هؤلاء النفر من أصحاب اللغة فى الألفاظ العربية واستعمالاتها وما الى ذلك من دراسة بلاغية يشير اليها الجاحظ فى البيان والتبيين بعد ماروى بيت الأشهب بن رميلة :

هم ساعد الدهر الذى يتقى به   وما خير كف لا تنوء بساعد

فيقول : (هم ساعد الدهر) انما هو مثل ، وهذا الذى تسميه الرواة البديع[1] كما يشير عبد القاهر الجرجانى فى دلائل الاعجاز[2] الى ما نجده فى كتب اللغة من ادخال ماليس طريق نقله التشبيه فى الاستعارة كما صنع أبو بكر بن دريد فى الجمهرة فانه ابتدأ بابا فقال : باب الاستعارات . . وكالذى نجده متفرقا فى كتب الأمالى من هذا التناول البلاغى لأصحاب اللغة ودارسيها .[3]

أما الكتاب فقد كان لهم بدراساتهم ومؤلفاتهم أثر واضح فى حياة البلاغة العربية يدركه من تتبع أعلامهم من ابن المقفع بأدبيه ، الى قدامة ابن جعفر بنقده .[4] الى ابن شيت القرشى صاحب كتاب " معالم الكتابة ومغانم الاصابة " والشهاب الحلبى الكاتب صاحب كتاب " حسن التوسل الى صناعة الترسل " ، وابن الأثير بمثله السائر ، والقلقشندى بـ " صبح الأعشى فى صناعة الأنشا " . فهؤلاء وغيرهم من الكتاب قد خدموا دراسة البلاغة العربية خدمات جليلة .[5]

ويطول بنا الحديث لو أردنا أن نتتبع ونستقرى كل ماورد فى علوم القرآن واللغة والأدب والنقد من مسائل بلاغية تبلورت على مر الأيام وأصبحت فنا له حدوده ومعالمه .

---

(١) البيان والتبيين : ج ٣ ص ٢٤٢

(٢) ص ٣٢٨ ط الترقى

(٣) المدخل الى البلاغة العربية ص ١٤

(٤) بعضهم يرى أنه ليس لقدامة الا نقد الشعر فقط .

(٥) المدخل ص ١٢

وكنا نود أن تظل البلاغة ـ بعلومها الثلاثة التى تحددت معالمها فى بيئتها التى نشأت فيها . وترعرعت فى أكنافها ، فتسير فى موكب هذه العلوم ، تتقدم معها ، وتتجدد فى ظلالها . لأن البلاغة يوم بعد بها رجالها عن هذه العلوم ، وألقوا بها فى أحضان علوم آخرى كالمنطق والفلسفة فقدت رواءها وضلت أهدافها ودخلت فى متاهات لم تخرج منها حتى اليوم .

ان علوم القرآن واللغة والأدب والنقد هى الأسرة الطيبة المباركة التى أنجبت علوم البلاغة والتى يجب أن تظل البلاغة منتمية اليها ،فى رحابها ترتع وفى أفيائها تعيش . كما أن هذه الاسرة الطيبة من العلوم لا تستغنى عن البلاغة ولا تجد عنها بديلا .

هذا وقد أشرنا من قبل وأوضحنا أن الذى قام بهذه القطيعة بين البلاغة وأسرتها العلمية هو السكاكى ، فبالرغم من أن استقلال البلاغة بعلومها الثلاثة قد تم على يديه ـ فهو الذى حدد معالمها وأحسن تبويبها ـ الا أنه جنح بها بعيدا عن أسرتها وبيئتها ، وأسلمها الى علوم المنطق والفلسفة فغرقت فى بحر من التقسيم والجدل العقيم

والذين جاءوا بعد السكاكى ـ للأسف ـ سلكوا طريقته [1] وساروا سيرته ، فظل السكاكى محورا للتأليف البلاغى ، تدور كتبهم حوله وتحذو حذوه (حتى ليخيل اليك وأنت تقرأ جمهورها أنك أمام عدة علوم قوامها المنطق والفلسفة وعلم الكلام . أما البلاغة فالعفاء عليها وسط هذه الأخلاط أو قل ان شئت فأما البلاغة فهى كالبرق الخاطف وسط هذه السحب المتراكمة يبدو قليلا ثم يختفى كثيرا)[2]

واذا كان هناك شبه اجماع من المحدثين بأن السكاكى هو السبب فى تعقيد البلاغة وتعقيدها فان هناك بعض الأصوات تخالف ذلك وترى غير هذا الرأى . فقد وجدت فى كتاب (المتنبى وشوقى) للدكتور عباس حسن رأيا مخالفا تماما ..

---

(١) يستثنى من ذلك قليلون مثل ابن الأثير وابن سنان الخفاجى .

(٢) الصبغ البديعى : ص ٢٤٣

اذ يرى الدكتور عباس أن السكاكي خدم البلاغة خدمة جليلة ويشيد بفضل السكاكي ومن لف لفه برغم الناقمين عليه أو المتسرعين في حكمهم على آثاره ، وذهب يثبت ذلك بآراء وحجج لا نسلم له بكثير منها .(١)

ويبدو أن رأي الدكتور عباس حسن مأخوذ من ابن خلدون في مقدمته حين كان يؤرخ لعلم البيان حيث قال : " . . . ثم لم تزل مسائل الفن تكمل شيئا فشيئا الى أن محض السكاكي زبدته ، وهذب مسائله ، ورتب أبوابه على نحو ماذكرنا آنفا من الترتيب ، وألف كتابه المسمى " بالمفتاح " في النحو والتصريف والبيان فجعل هذا الفن من بعض أجزائه ، وأخذ المتأخرون من كتابه ولخصوا منه . . . (٢)

والواقع أن ادخال السكاكي للمنطق في البحث البلاغي وربطه بين علم الاستدلال وعلم المعاني كان ضرره أكثر من نفعه . ذلك أن العمل البلاغي النقدي يعتمد اعتمادا كبيرا على الذوق ، والاذواق تتباين وتختلف ، ولا يلزم لهذا العمل التعريف الجامع المانع وانما يكفي وضع الملامح العامة . ومثالا على ذلك فان أنصار المنهج السكاكي قد أخفقوا في وضع هذه التعريفات الجامعة المانعة للفنون البلاغية ولم يلتقوا عند رأي واحد في كثير منها . كرأيهم مثلا في الاستعارة المكنية فهي عند السكاكي : لفظ المشبه المستعمل في المشبه به الادعائي ، وعند الخطيب : هي التشبيه المضمر في النفس المتروك أركانه سوى التشبيه المدلول عليه باثبات لازم المشبه به للمشبه وعند الجمهور : لفظ المشبه به المحذوف المستعار في النفس للمشبه والمرموز اليه باثبات شيء من لوازمه للمشبه . وهذا قليل جدا من كثير جدا جدا من الخلافات التي لا طائل تحتها والتي تحاشينا الدخول في تفاصيلها لأنها ليست من مهمتنا في هذا البحث ، ويكفي أن نقول ان هذه الخلافات والطرائق الجدلية والفلسفية بعدت بالبلاغة عن روعتها وجمالها .(٣)

---

(١) انظر ص ٦٤ - ٦٩ من كتاب (المتنبي وشوقي)

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٥٢٠ ط الشعب .

(٣) انظر الرسالة البيانيه للصبان بحاشية الشيخ الانبابي ص ٤٢-٤٨ والبلاغة بين عهدين د . نايل ص ٢٢٠ ، ومنهج البحث البلاغي بين السكاكي وعبد القاهر د . حماد ص ٣٧٤ و ٣٧٥

والعجيب أن السكاكي و ومن أغرق البلاغة في بحار المنطق ونأى بها عن نهر الذوق يقف في قضية الاعجاز موقفا مخالفا لمنهجه فيرد الاعجاز الى الذوق ويقول : (واعلم أن شأن الاعجاز عجيب يدرك ولا يمكن وصفه ، كاستقامة الوزن تدرك ولا يمكن وصفها وكالملاحة ، ومدرك الاعجاز عندي هو الذوق ليس الا ، وطريق اكتساب الذوق طول خدمة هذين العلمين)[١].

ويرى الاستاذ احمد موسى أن البلاغة (استفادت الكثير على يد السكاكي من حسن التنسيق والتبويب ، ودقة التقسيم والتفصيل ، واحكام التمييز بين مباحث علم المعاني وعلم البيان . فان هذا مما يحمده التاريخ للسكاكي . ولو سلم هذا القسم الثالث من (المفتاح) من مزجه بالعلوم العقلية لكان هذا من خير المؤلفات في البلاغة في جميع عصورها)[٢].

وأما الدكتورة سهير القلماوي فانها تعفي السكاكي من مسئولية جمود البحث البلاغي وتعقيده وترى .(أن كتاب " المفتاح " كتاب جاف في ترتيبه ومعالجته للموضوعات ، وأن السكاكي ليس هو المسئول عن جفاف هذه الدراسة التي نتجت عن جفاف الكتاب نفسه ، ولكن الواقع أن البلاغة والنقد الادبي لابد أن يمرا في هذه الاطوار دائما ببداية فطرية مبعثرة ، ثم دراسة حية قوية مثمرة مؤثرة وأخيرا خلاصة وتقنين وتعقيد جاف يودي بحياة النظرية او الفكرة أو الناحية المدروسة ، ان هذه سنة الحياة في الابحاث الأدبية والفنية . أما المسئول عن جفاف هذه الدراسة فهو أمة بأسرها وظروف في جملتها لقد كان عصره عصر جمع وتبويب ، وعصر تقعيد وتقنين ، فجمع فنون البلاغة وكانت أشتاتا مفرقة في كتب كثيرة ..

---

(١) المفتاح ص ١٩٦
(٢) الصبغ البديعي ص ٢٤٩

وكتاب المفتاح بلاشك عمل على حفظ الصورة البلاغية القديمة وروج لها ولكنه لم يسع الى تطويرها ، لأن مهمته الرئيسية كانت الصون والحماية ونشر الذوق العربي السليم في كل الأرضين التي فتحها المسلمون – ان في البلاغة العربية غابات بل أدغالا مازالت بكرا تنتظر الدارسين)[1]

ونحن لانسلم بكل ماورد في كلام الدكتورة سهير القلماوى ، فانه اذا كان عصر السكاكي قد أسهم بنصيب وافر في جفاف الدراسة البلاغية فان السكاكي هو الآخر قد شارك في صنع هذا الجفاف، ألا ترى أن عصر عبد القاهر كانت تشيع فيه موجة السجع والجناس والزخارف اللفظية حتى لتكاد تطغى على المعنى والمضمون ، ومع ذلك شمر عبد القاهر عن ساعد الجد وأخرج لنا كتابيه دلائل الاعجاز وأسرار البلاغة وما فيهما من نفائس بلاغية بأسلوب أدبي في غاية الرقي ومازلنا نحن في القرن العشرين نتغذى برحيقهما ونتغنى بروعتهما ونرجع اليهما كقمة فنية في ميدان البلاغة والأدب .

أما أن كتاب (المفتاح) كان أعون على نشر الذوق العربي السليم في كل الأرضين التي فتحها المسلمون . فهذا أيضا كلام لانسلمه للدكتورة فالسكاكي وان كان دعا الى استخدام الذوق في ادراك قضية الاعجاز الا أنه لم يطبق ذلك عمليا فخالف قوله فعله وسلك بالبلاغة دروبا وأزقة منطقية وفلسفية ضلت فيها البلاغة وغمرتها تلك الكثرة الكاثرة من الحواشي والهوامش والتقريرات التي ان صح أنها تعين على شحذ الأفكار فانها لاتربي ذوقا ولا تنمي احساسا .

أما مانسلم به للدكتورة فهو قولها : (ان في البلاغة العربية غابات بل أدغالا مازالت بكرا تنتظر الدارسين) فهذا قول حق ، ولعله هو الذى دعا علماءنا القدامى أن يقولوا عن البلاغة : انها علم مانضج وما احترق ، وفي ذلك حث لنا أن نشمر عن ساعد الجد لنجدد بلاغتنا وننهض بها بحيث تساير الفنون الأدبية في العصر الحديث .

---

(١) انظر تقديم د . سهير القلماوى لرسالة الماجستير (البلاغة عند السكاكي) للدكتور احمد مطلوب .

أجل أن بلاغتنا اليوم فى حاجة ماسة الى التجديد والتطوير ، وأول مايجب عمله هو تجريدها من أصداء السوء ، واستخلاصها من براثن تلك العلوم التى جنت عليها من أمثال المنطق والفلسفة وعلم الكلام والجدل والمماحكات التى بعدت بالبلاغة عن ميدانها وجعلتها مسخا مشوها مع أنها فن الروعة والجمال . وبات علم البلاغة ـ للأسف الشديد ـ كريها الى طلابنا ، ثقيلا على أدبائنا ، بعيدا عن نقادنا .

من أجل ذلك كان لابد لرجال البلاغة والمهتمين بشئونها من وقفة يعيدون فيها النظر ويدققون البحث من أجل تجديد البلاغة وتطويرها .

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الاول

بوادر التجديد واتجاهاته

(أ) التجديد - مفهومه - بوادره

(ب) اتجاهات التجديد ومظاهره

الفصل الاول

التجديد - مفهومه - بوادره

التجديد والتغير طبيعة الحياة ، وسنة الله فى كونه ، والتجدد والتغير ظاهرة عامة فى كل زمان ومكان ، تشمل الانسان والحيوان والنبات والجماد وكل ماخلق الله فى هذا الوجود من ماديات ، ومن معنويات أيضا ، فالعلوم والفنون والآداب على اختلاف أنواعها وأجناسها تتغير فى كل عصر ، وتتجدد مع كل جيل .

والتجديد لايأتى عادة طفرة واحدة ، وانما هو تغير حتمى يصاحب تغير الزمن ، وتغير المجتمعات ، وتغير الفكر .

واذا دققت النظر ، وأمعنت الفكر ، " لاتجد شيئا يثبت على وضع ، ولا انسانا يدوم على حال ، انما هو التطور الحتمى الذى يخرج بالخليقة من النقص الى الكمال ، ومن الحسن الى الأحسن ، تبعا لعوامل تؤثر فى الفكر الاجتماعى من دين وعلم وحضارة وخلق ، واللغة وعلومها من أدب وقواعد وأساليب محكومة بهذا القانون الطبيعى ، لاتستطيع أن تجمد والانسان يتطور ، ولا أن تقف والعالم يسير " (١)

واذا كان من رأى بعض العلماء والادباء أن التطور الحتمى يخرج بالخليقة من النقص الى الكمال ، ومن الحسن الى الأحسن ... فانا لانرى ذلك فى كل حال . بل نستطيع القول فى ثقة وادراك بأن التغير والتجدد قد يكون أحيانا سموا وتقدما ، وقد يكون أحيانا آخرى هبوطا وتدنيا . وواقع الآداب يؤيد أن الأشعار القديمة هى خير ما أنتجته العقول : " فمن الثابت لدى معظم النقاد أن خير أشعار الأمم هو ماقالته أيام بداوتها الأولى ، وفى تاريخ الأدب العربى مايزيد من رجحان كفة قديم الشعر على حديثه ، وهو صدور القديم عن طبع وحياة ، وصدور أغلب الحديث عن تقليد وفن ".(٢)

---

(١) من تقديم الزيات لكتاب الصراع الأدبى بين القديم والجديد - د على العمارى .. ص ٧ ط ١٩٦٥

(٢) النقد المنهجى عند العرب ص ١٣ د . محمد مندور .

وكان المأمون الخليفة العباسي — مع ثقافته الواسعة — يتعصب للأوائل من الشعراء ، ويقول: انقضى الشعر مع ملك بني أمية [1]. (وينفرد ابن خلدون وحده — من بين نقادنا القدامى — فيما أعلم — بتفضيل الاسلاميين على الجاهليين ، وذلك أنه بنى حكمه على نظرية آمن بها وأشاعها في فصول الأدب من كتابه (المقدمة) وهي أثر المحفوظ من الكلام في تكوين الملكة . وهو يرى أن الاسلاميين قرءوا من جيد المنثور والمنظوم مالم يتح للجاهليين ، فقد تدارسوا القرآن الكريم وحفظوه ، أو حفظه كثير منهم ، كما حفظوا أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، وحفظوا أشعار الجاهليين ، فتهيأ لهم من هذا قدر كبير صالح حرم منه الجاهليون ، فجاءت أشعارهم — يعني الاسلاميين — أجود . بل جعل كلامهم في نظمهم ونثرهم أحسن ديباجة ، وأصفى رونقا ، وأرصف معنى ، وأعدل تثقيفا .

وكلام الآمدي في (الموازنة) صريح في الرد على مثل ابن خلدون حيث يقول : " والذي يورده الأعرابي ، وهو محتذ على غير مثال أحلى في النفوس ، وأشهى في الاسماع ، وأحق بالزيادة والاستجادة مما يورده المحتذى على الامثلة) [2]

وهكذا نجد الخلاف واضحا في أفضلية الجديد على القديم ، وبالتالي لانستطيع أن نحكم بأن الجديد الذي اقتضاه التطور الحتمي هو دائما أفضل ، ويخرج بالخليقة من النقص الى الكمال ومن الحسن الى الأحسن .

واذا نظرنا في تاريخ الدول والشعوب نجد ذلك واضحا أيضا فالعصر الاسلامي — مثلا — من حيث الدولة والحكم والتشريع كان أفضل من العصر الجاهلي فالتطور هنا كان من النقص الى الكمال ومن الحسن الى الأحسن . ولكن العصر الأموي ليس كذلك ولم يكن التطور فيه ، من النقص الى الكمال ولا من الحسن الى الأحسن . كذلك العصر العباسي الثاني لم يكن أفضل من العصر العباسي الأول ، وليس ذلك بحاجة الى دليل وبرهان ، فيكفي أن نعرف أن العصر العباسي الأول كان عصر القوة أدبيا وسياسيا ، وكان عصر الدولة الواحدة المرهوبة الجانب .

---

(١) ديوان المعاني ج ١ ص ١٦٢

(٢) الصراع الأدبي ص ٧٩ د . العماري

أما العصر الثانى - مع أنه وقع فيه جزء كبير من العصر الذهبى للعلوم والفنون والآداب العربية - فقد كان عصر الضعف والتخاذل ، عصر الدويلات والانقسامات وملوك الطوائف . فهل بعد ذلك - وهو على سبيل المثال - نستطيع أن نجزم بأن التطور والتجدد دائما يخرج بالخليقة من النقص الى الكمال ومن الحسن الى الاحسن ؟

واذا عدنا الى الادب والشعر ، فسنجد أن الشعر فى العصر الحديث تجدد وتطور ولكن من أحسن الى حسن ، ثم من حسن الى سيئ ، فالشعر الحديث والشعر الحر تأخر لا تقدم ، وتدن لا سمو . وكذلك الأدب العربى - فيما يلوح لى - بوجه عام . هذا بينما علوم أخرى تقدمت وسمت حتى وصلت الى القمر . فالتجديد اذن طبيعة كونية ، وقاعدة يخضع لها كل موجود ، سواء كان هذا التجدد الى الاحسن أم الى الأسوأ ، الى الضعف أم الى القوة .

واللغة بوصفها كائنا حيا تتجدد مع الأحياء ، وتتطور مع أجيالها ، فلكل عصر لغته ، ولكل جيل أسلوبه ، ولكل مقام مقال .

ولقد تطورت لغتنا العربية ، ولقيت علومها اللغوية والشرعية الكثير من الاهتمام والعناية ، فسايرت ركب الحضارة ، وواكبت تقدم الزمن . . الا علم البلاغة ، شذ عن القاعدة ، وخرج عن سنة الطبيعة ، وظل جامدا منذ القرن السادس الهجرى حتى اليوم .

وهانحن أولاء (فى مستهل القرن الخامس عشر الهجرى) ننظر الى علوم البلاغة بحسرة وأسى ، فقد انصرف عنها الدارسون ، وزهد فيها الأدباء والكاتبون ، مع أنها من أجل العلوم العربية قدرا .

يقول الامام عبد القاهر : (ثم انك لا ترى علما هو أرسخ أصلا ، وأبسق فرعا ، وأحلى جنى ، وأعذب وردا ، وأكرم نتاجا ، وأنور سراجا ، من علم البيان ، الذى لولاه لم تر لسانا يحوك الوشى ، ويصوغ الحلى ، ويلفظ الدر ، وينفث السحر ، ويقرى الشهد ، ويريك بدائع من الزهر ،

ويجنيك الحلو اليانع من الثمر ، والذى لولا تحفيه بالعلوم ، وعنايته بها ، وتصويره اياها ، لبقيت كامنة مستورة ، ولما استبنت لها يد الدهر صورة ، ولاستمر السرار بأهلتها ، واستولى الخفاء على جملتها ، الى فوائد لا يدركها الاحصاء ، ومحاسن لا يحصرها الاستقصاء .)(١)

فالبلاغة اذن لاغنى عنها لتذوق أدبنا ، ومعرفة ما في لغتنا من جمال وسحر ، ثم هى - كذلك - لاغنى عنها لمعرفة اعجاز القرآن الكريم المعجزة الكبرى الالهية التى أنزلها الله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بلسان عربى مبين ، ليخرج الناس من الظلمات الى النور ويهديهم الى صراط العزيز الحميد . بل ان دراسة الاعجاز وادراكه كان الهدف الأساسى الذى من أجله وضع علم البلاغة . يقول ابن خلدون : (واعلم أن ثمرة هذا الفن انما هى فى فهم الاعجاز من القرآن) (٢)

ولما كانت البلاغة بهذه المنزلة من علو القدر وعظم الشأن ، وقد تعرضت فى العصور الأخيرة لما تعرضت له من توقف وجمود ، بل من هجوم وتجن ، كان من المحتم أن يدعو بعض المهتمين بشئون الأدب واللغة الى تجديد علوم البلاغة فى العصر الحديث ، وأصبحت تلك الدعوة قضية تثار من وقت لآخر ، ومحاولات واهية ، تظهر حينا وتختفى أحيانا .

والشكوى من الحيف الذى لحق علوم البلاغة شكوى قديمة (فلا تكاد تطلع على مؤلف فى البلاغة العربية - منذ أخذت تتكون علما له قواعد ورسوم ، وتسلك طريقها الى التحديد والتقعيد - حتى تجد العلماء يجهرون بالشكوى المرة ، من اهمال الناس لهذه العلوم ، وانصرافهم عنها ، وبعدهم عن التعمق فى دراستها ، واكتفائهم بالقشور دون اللباب وتقاعسهم عن اكتناه أسرارها واستجلاء غوامضها وتفهم شواهدها .

(١) مدخل دلائل الاعجاز ص ٤ طبعة السيد محمد رشيد رضا سنه ١٩٦١
(٢) مقدمة ابن خلدون - باب البيان - ص ٥٢١ طبعة الشعب .

فتجد عبد القاهر الجرجاني الامام الجليل ، يطيل القول في وصف الظلم الذى لحق بهذه العلوم ، وعذره واضح ، فهو يرى للنحو مدارس ودارسين ، وكتبا تؤلف ، ومناظرات تقدم ، وتنافسا قويا حادا .

ويرى للفقه مدارس تتدارسه ، وتأخذ في تحقيق أصوله ، واستخراج فروعه ، فتخرج بحوثا متجددة دائمة . ويرى لعلم الكلام حركة نشيطة ، وحيوية غالية ، فيشغل هذا العلم كثيرا من الأذهان ، ويسيطر على كثير من العقول ، ويبلغ ذروته في البحث والاستقصاء ، والأخذ والرد . وهكذا يجد في التفسير والحديث والاصول والمنطق والادب . . . ثم ينظر في علوم البلاغة فلايجد لها حياة بين الدارسين ، ويرى التعمق في دراستها أبعد ماتكون عن تفكير العلماء . وانما يكتفون اذا درسوا ـ بالنظرة العابرة ، والجولة الحائرة ، والهمة الخائرة .

ولذا يقول عبد القاهر في مقدمة كتابه " دلائل الاعجاز " بعد أن تحدث عن علم البلاغة وفضله على سائر العلوم : " الا أنك لن ترى على ذلك نوعا من العلم قد لقى من الضيم مالقيه ، ومنى من الحيف بما منى به " (١)

ثم يجئ السكاكي في القرن السادس فيردد في مقدمة القسم الثالث من كتابه (المفتاح) ماقاله عبد القاهر ، فيقول : " ثم مع مالهذا العلم من الشرف الظاهر ، والفضل الباهر ، لاترى علما لقي من الضيم مالقي ، ولا مني من سوم الخسف بما مني ، أين الذى مهد له قواعد ، ورتب له شواهد ، وبين له حدودا يرجع اليها ، وعين له رسوما يعرج عليها ، ووضع له أصولا وقوانين ، وجمع له حججا وبراهين ، وشمر لضبط متفرقاته ذيله ، واستنهض في استخلاصها خيله ورجله ؟ علم تراه أيدى سبا ، فجزء حوته الدبور ، وجزء حوته الصبا " .

---

(١) ص ٥ دلائل الاعجاز

ولم يكن عصر السعد والسيد بأجدب على هذه العلوم ، ولم يكن أهله أحفل بها ، فنرى السعد يقول فى مقدمة شرحه للقسم الثالث من مفتاح العلوم : " وبعد انقراض علماء فن البيان ، المطلع على نكت نظم القرآن ، وانتقاص أمره على الزمان ، وانتقاص مدده بتعاقب الحدثان كاد تبقى رباعه من غير طلل ورسم ، وتذهب ذهاب جديس وطسم ، وتؤذن آليها بالطمس ، ويقرأ عليها : كان بالأمس ". ويقول فى مقدمة المختصر : " وان هذا الفن قد نضب اليوم ماؤه ، فصار جدالا بلا أثر ، وذهب رواؤه ، فعاد خلافا بلا ثمر ، حتى طارت بقية آثار السلف أدراج الرياح وسالت بأعناق مطايا تلك الأحاديث البطاح " . ويردد هذه المعانى باسهاب فى مقدمة المطول .

ونلاحظ أن العلماء كذلك يحرصون فى أوائل كتبهم على أن يبينوا أن هذه العلوم جليلة القدر ، عظيمة المنزلة ، لما يترتب عليها من فهم اعجاز القرآن ، وأنها اولى العلوم بالدراسة ، وأحقها بالعناية ، فمن الرسوم المقررة أن تجد فى أوائل كتب البلاغة اشادة بمقادير هذه العلوم ، وشكوى من تقاصر الهمم عن تحصيلها .

وهذه كلمة لأحد المؤلفين من علماء القرن الثامن تعطينا صورة قوية واضحة للنهج الذى سارت عليه جمهرة كتبهم .

قال أمير المؤمنين على بن حمزة صاحب كتاب " الطراز المتضمن لاسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز " فى مقدمة كتابه .

" أما بعد . فان العلوم الأدبية ، وان عظم فى الشرف شأنها ، وعلا على أوج الشمس قدرها ومكانها ، خلا أن علم البيان هو أمير جندها وواسطة عقودها ، وفلكها المحيط الدائر ، وقمرها السامر الزاهر ، وهو أبو عزرتها ، وانسان مقلتها ، وشعلة مصباحها ، وياقوتة وشاحها ، ولولاه لم تر لسانا يحوك الوشى من حلل الكلام ، وينفث السحر مفتر الاكمام وكيف لا وهو المطلع على أسرار الاعجاز ، والمستولى على حقائق المجاز ، فهو من العلوم بمنزلة الانسان من السواد ، والمهيمن عليها عند السير والحك والانتقاد ، ولما فيه من الغموض ودقة الرموز ، واحتوائه على الاسرار والكنوز ، استولت عليه يد النسيان والذهول ،

وآلت نجومه وشموسه الى الانكساف والأفول ، ولم يختص باحرازه من العلماء الا واحد بعد واحد ، وطالما قيل : اذا عظم المطلوب قل المساعد ، وما ذاك الا لقصور الهمم عن بلوغ غاياته ، وعجزها عن ادراكه والوصول الى نهاياته ".

(فاذا وصلنا الى عصرنا الحاضر نجد الشكوى لا تزال مرة قاسية ، ونحن - ولا شك - أحق بالشكوى ، وأولى بتصوير الظلم الذى منيت به هذه العلوم ، فالمطابع العربية تلد كل يوم عشرات المؤلفات ، ومع ذلك فلا نجد منها فى علوم البلاغة الا النزر اليسير ، فاكثره للتجارة لا للعلم ، وبعضه للهدم لا للبناء)(١)

وهكذا نجد أنه - بعد هذه العهود الطويلة قد آن الأوان لتجديد علوم البلاغة وادراكها قبل أن تغرق فى محيط الاهمال والجمود والتأخر ، فقد سبحت طويلا فى بحور الفلسفة والمنطق وعلم الكلام فلم تصادف جزيرة ، ولم تصل الى شاطئ.

والدعوة الى تجديد البلاغة لها جذور قديمة بدأت منذ بدأ البحث البلاغى ينمو ويتفرع ، ومنذ بدأت الآراء والأحكام تصدر وتتوالى من علماء البلاغة واللغة والأدب .

من ذلك ما ارتآه ابن قتيبة فى القرن الثالث الهجرى من رأى يعارض به ماساد فى عصره وقبل عصره من بعض الآراء التى تجعل القداسة للقديم وحده ، فنجده يقرر " أن الله عز وجل لم يقصر العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوما دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده فى كل دهر ". (٢)

واذا كان ابن قتيبة قد دعا الى تجديد البلاغة ، فهل ماجاء به الجاحظ وابن المعتز من اضافات لها وزنها فى البحث البلاغى يعد من قبيل التجديد .

---

(١) قضايا بلاغية : ص ١٣٦ د . العمارى .
(٢) الشعر والشعراء ص ٦ .

ان الجاحظ جمع ماتفرق فى كتب السابقين من مباحث بلاغية ، وماتناثر هنا وهناك من أحكام وآراء نقدية وبلاغية ، وصاغ كل ذلك بأسلوب أدبى ، وأضاف من عنده بعض المباحث ، كبحثه فى اللفظ والمعنى .

وابن المعتز وضع كتابه (البديع) فكان أول كتاب يجرد مباحث البلاغة ، ويخلصها مما اختلطت به من مباحث علوم أخرى ، وقد اخترع مسميات ووضع رموزا لكثير من ألوان البديع .

وكذلك فعل قدامة بن جعفر ، فانه جاء فى كتابه (نقد الشعر) بصياغة جديدة للبلاغة العربية ، فاخضعها لنزعته الأجنبية ، ولمنهجه المتأثر بالفلسفة والمنطق وما عرف من قواعد البلاغة عند أرسطو وفلاسفة اليونان حين ذاك .

وأبو هلال العسكرى الذى يعتبر كتابه (الصناعتين) بداية تحول النقد الى بلاغة ، والذى (يمكن أن يعد نقطة تحول فى الدراسات البيانية والنقدية ، وأنه جنح بتلك المعالم الذوقية اتجاها قاعديا بما وضع من أسس فن البلاغة التى يعد كتابه مصدرا من أهم مصادرها)(١)

ثم عبد القاهر الجرجانى الذى نضجت على يديه نظرية النظم ، وبلغ البحث البلاغى بفضله الى القمة ، وكان كتاباه - أسرار البلاغة ، ودلائل الاعجاز - من أحدث وأفضل كتب البلاغة فى عصره ، ومازالا الى يومنا هذا أروع ماكتب فى علم البيان .

كل ذلك هل يعتبر تجديدا ؟ وهل كل ماأضافه واستحدثه هؤلاء العلماء يعد من قبيل التجديد ؟

أغلب الظن أنه ليس كذلك . . فقد كانت البلاغة العربية فى دور التكوين والبناء - لم تكتمل بعد - والتكوين والبناء لا يعتبران تجديدا ، بل هما انشاء وايجاد .

---

(١) البيان العربى ص ١٢٦ - د . طبانة .

ولكن نستطيع أن نقول : انه لما نضجت البلاغة ومباحثها على يد عبد القاهر ، ثم بدأت تنحدر على يد السكاكي ومن تابعه من بعده حتى بداية العصر الحديث - كما أوضحنا من قبل - وجدنا البلاغة العربية وقد أجهدها السير الطويل فى شعاب مقفرة مظلمة فشحب لونها ، وجف عودها ، وذهب رواؤها ، فكانت حينئذ فى حاجة الى التجديد .

ومن هنا ارتفعت أصوات بعض العلماء والمهتمين بشئون البلاغة يدعون الى تجديدها .

وهذا ليس عيبا توصم به البلاغة ، فكثير من العلوم جددت وطورت وأخذت مكانتها فى العصر الحديث .

واذا كان الأوان قد آن لتجديد علوم البلاغة ، والوصول بها الى ماترجو لها من قوة وتمكن وتأثير ، فما هو الطريق الأسلم الذى نسلكه الى هذا التجديد ؟

وهل يكفى أن نفعل ما فعله الامام محمد عبده حين قام بتدريس كتابى عبد القاهر - دلائل الاعجاز وأسرار البلاغة - فى الأزهر الشريف؟

يقول الدكتور احمد مطلوب : ان الأزهر الشريف هو أول من حمل لواء التجديد فى البلاغة (وذلك بأن قيض الله له الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده الذى أخذ يحيى كتب السلف وعلومهم ، ويقوم ما اعوج من مناهج التأليف وطرائق التدريس ، فقد انصرف الشيخ الى تدريس كتابى " دلائل الاعجاز " و " أسرار البلاغة " لعبد القاهر وبذلك فتح أذهان الطلبة ، وقوى مداركهم ومواهبهم ، لأنهم وجدوا فى تدريس الامام غير ماألفوه ، وبذلك كان الجامع الأزهر أول معهد من معاهد التعليم الاسلامى والعربى قرئ فيه : دلائل الاعجاز وأسرار البلاغة - بعد الغفوة الطويلة - درسا لطلاب البلاغة ، ولأجله طبع الكتابان وانتشرا . وقد تخرج فى الأزهر الشريف فى مطلع العصر الحديث جيل فيه عزم على البحث ، وفى روحه اندفاع الى التجديد)[1]

---

(١) اتجاهات البلاغة العربية ص ١٨٠

ومع اعترافنا بجهد الامام الشيخ محمد عبده وحسن صنيعه ، وأنه أفاد طلاب الازهر فى البلاغة ، نرى أن مافعله الامام الجليل انما كان بداية طيبة لنهضة بلاغية مأمولة ، ومحاولة لها قيمتها فى ارواء شجرة البلاغة التى جفت وكادت تذويها الرياح .

ولكن مافعله الامام محمد عبده — مع ماكان له من قيمة وفائدة جليلة — هل يعتبر تجديدا ؟

الواقع أننى لا أرى فيه أى تجديد ، فالامام الجليل اختار أفضل الكتب فى البلاغة ليدرسها لابنائه الطلاب فى الازهر ، وهذا كان عملا جليلا لا شك فيه ، ولكنه لايعتبر بحال من الأحوال تجديدا ، وانما يعتبر — فى رأيى — من قبيل احياء التراث والاستفادة به .

وعلى هذا فلا يمكننا أن نعتبر الامام محمد عبده من المجددين فى علم البلاغة وان كان أول من حاول فى العصر الحديث أن يحيى تراثها ، ويضىء أفضل قناديلها ، فأجاد وأفاد . رحمه الله .

مفهومنا عن التجديد :

واذا لم يكن كل ما تقدم من قبيل التجديد ، فما مفهوم التجديد عامة ؟ وما المراد بتجديد البلاغة خاصة ؟

نقول وبالله التوفيق : ان مفهوم التجديد عامة يتضح اذا نظرنا الى الشىء وضده ، فبضدها تتميز الأشياء .

فالجديد ضد القديم ، والقديم يتجدد ، والجديد يصبح قديما ، وتجديد القديم ينبغى ويندب اذا دعت الحالة الى ذلك ، ويكون التجديد حينئذ بازالة سمات القديم وما نتج عنه من ضعف ووهن ، ثم تزويده بعد ذلك بما يقويه ويعيد اليه رونقه وجدته وجماله ، بحيث يصبح لحسنه وقوته محبوبا جاذبا للانتباه .

أما أن نترك القديم كله ، وندعه للفناء والبلى ، ثم نأتى بجديد آخر ، يحل محله ويأخذ مكانه ، فليس ذلك بتجديد ولا تطوير ، بل هو وضع شىء مكان آخر . فالتطوير والتجديد يستلزمان أن يكون هناك قديم أصلا يجرى عليه التجدد والتطور

هذا هو مفهومنا عن التجديد بمعنى عام .

وعلى هذا الاساس يمكن أن نفهم المراد بتجديد البلاغة . فان القائلين بالغاء بلاغتنا القديمة ، والقاء كتبها فى بحر الظلمات وستيراد بلاغة اخرى أجنبية تحل محلها . هؤلاء ليسوا بحال من الأحوال مجددين ، وانما هم فى الحقيقة غاشمون معتدون على تراثهم وتاريخهم مبغضون لأمتهم ولغتهم .

فتجديد البلاغة فى مفهومنا هو أن نتناول بلاغتنا القديمة - ولكل قديم داؤه - فنخلصها من دائها ، ثم نضيف اليها مايقويها ويرد شبابها ورواءها ، ثم نكسوها أحدث الحلل وأبهاها حتى تصبح فى العصر الحديث فتنة للناظرين .

وقد يكون من المفيد - والمؤيد لنا فى هذا المقام - أن نعود الى المعاجم فنستأنس بما قالته فى مادة (جدد) . فنجد لهذه الكلمة فى (المنجد) أحد عشر معنى ، وكثيرا من الاستعمالات والتراكيب نجتزئ منها مايأتى :-

جدّه = قطع ، والمجدود المقطوع .

وجد = فى الأمر ، عجل وأسرع .

وجد = به الأمر ، اشتد

وجد = فى أعين القوم : عظم .

وجد = اجتهد ، وجد فى الأمر = حقق ، اهتم .

واجد الامر = حققه ، أحكمه .

والجد (بـ) بكسر الجيم = ضد الهزل .

والجد = المحقق المبالغ فيه ، يقال " عذاب جدّ " أى مبالغ فيه . " وفلان عالم جدّ عالم " أى متناه فى العلم ، و " عظيم جدا " أى بالغ الغاية فى العظم .

والجد = بفتح الجيم وضمها ، الحظ - الحظوة - الرزق ، والجديد والمجدود = ذو الحظ .

ونستطيع مما تقدم أن نستخدم فى معنى التجديد عدة أساليب مثل : جد فى أعين القوم : أى عظم . بمعنى أن القديم عندما يصير جديدا يعظم فى أعين الناس ويحبهم ويقبلون عليه .

ومثل : جد فى الأمر : أى حقق واهتم . بمعنى أن القديم لابد أن يقوم تجديده على أساس من التحقيق والاهتمام . ومثله : أجدّ الأمر . أى حققه وأحكمه . وعظيم جدا : أى بالغ الغاية فى العظم .

أما الجد بمعنى : الحظ والحظوة فلايخفى مناسبته لمعنى الجديد فالجديد والمجدود : ذو الحظ ، لانه بعد أن كان قديما لاحظ له ، أصبح بعد العناية به وتجديده ذا حظ عظيم .

وفى المنجد أيضا :-

جدّ الثوب جدة = صار جديدا .

وجدّد وأجدّ الشئ = صيره جديدا فتجدد ، والجديد ج جدد : عكس القديم .

" والجديدان والأجدان " الليل والنهار ، لانهما لا يبليان أبدا .وهما لا يفردان فلا يقال للواحد منهما الجديد أو الأجد .(1)

وفى المختار من صحاح اللغة نحتزئ أيضا ما يأتى :-

والجدّ أيضا : الحظ والبخت ، والجمع الجدود ، تقول منه : جددت يافلان - على مالم يسم فاعله - أى صرت ذا جد ، فأنت جديد : حظيظ ومجدود : محظوظ ، وجد - بوزن حد - ، وجدى - بوزن مكى . وفى الدعاء : " ولا ينفع ذا الجد منك الجد " أى لا ينفع ذا الغنى عندك غناه ، وانما ينفعه العمل بطاعتك ، و" منك " معناه عندك .

وقوله تعالى : " وأنه تعالى جد ربنا " أى عظمة ربنا ، وقيل : غناه . وفى حديث أنس:" كان الرجل منا اذا قرأ البقرة وآل عمران جدّ فينا" أى عظم فى أعيننا .

تقول من العظمة ومن الحظ أيضا : جددت يارجل - بالكسر - جدا بالفتح والجدّ - بالكسر - : ضد الهزل ، تقول منه : جد فى الأمر يجد ويجد والجدّ - بالكسر أيضا - : الاجتهاد فى الأمر ، تقول منه : جد فى الأمر يجد ويجد - بكسر الجيم فى المضارع وضمها . وتقول : أجد فى الأمر أيضا .

(1) المنجد ص ٨٠ ط ٢٣

والجدّة - بالضم - الطريقة ، والجمع جدد ، قال الله تعالى : " ومن الجبال جدد بيض وحمر " أى طرائق تخالف لون الجبل .

وجد الشيء : قطعه ، وبابه ردّ . وثوب جديد ، وهو فى معنى مجدود يراد به حين جدّه الحائك ؛ أى قطعه . قال الشاعر :

أبى حبى سليمى أن يبيدا وأمسى حبلها خلقا جديدا

أى مقطوعا .

وتجدّد الشيء : صار جديدا . وأجدّه ، وجدّده ، واستجدّه : أى صيره جديدا .[1] ونخلص من ذلك كله الى أن جميع الصيغ تدل على أن هناك شيئا يجرى عليه التجديد أو التجدد . ففى المنجد مثلا ؛ نجد قوله : جدّد وأجدّ الشيء : صيره جديدا فتجدد .

وفى المختار : تجدّد الشيء : صار جديدا . وأجدّه ، واستجده : أى صيره جديدا .

هذا الى مافى معنى التجديد من القطع ، والعظمة ، والتحقق ، والاهتمام ، والاحكام . الى غير ذلك مما أوردناه آنفا .

وما دمنا بسبيل الاستئناس بالمعاجم فانه لمن المهم أن نبحث هنا كلمة كثر ذكرها وترديدها مع كلمة التجديد وهى : التطوير .

ففى المنجد فى مادة (طار) نجد لها عدة معان نجتزئ منها ما يأتى :-

طار = طورا وطورانا بفلان ، قرب منه .

والطور = (مص) ج أطوار : ماكان على حد الشيء أو بحذائه . يقال : " عدا طوره " أى حده ، و " جاوز طوره " أى قدره ...

والطور = ج أطوار : الهيئة - الحال . يقال :- " الناس أطوار " أى أصناف وعلى حالات شتى .

والطور = التارة . يقال : " أتيته طورا بعد طور " أى تارة بعد تارة " .[2]

---

(١) ص ٧٠ و ٧١ ط ٣ .
(٢) المنجد ص ٤٧٥ ط ٢٣ .

وفى المختار من صحاح اللغة نجتزئ أيضا ما يأتى :-

طور = عدا طوره ، أى جاوز حده .

والطور = التارة . وقوله تعالى :" وقد خلقكم أطوارا " قال الأخفش :

طورا علقة ، وطورا مضغة .

والناس أطوار : أى أخياف على حالات شتى .(١)

واذا أعدنا النظر ، ورددنا الفكر ، فى مادة (طار) كما فى المنجد و (طور) كما فى المختار ، وجدنا العبارات الآتية :

" عدا طوره " أى حده ، و " جاوز طوره " أى قدره . ومعنى ذلك أنه خرج عن شكله التقليدى ، وحده الذى ثبت عليه ، وقدره الذى عرف به ، وذلك نوع من التغيير والتجديد .

ونجد أيضا : الطور . ج أطوار : الهيئة أو الحال ، يقال" والناس أطوار " أى أصناف وعلى حالات شتى .

والأصناف تتعلق بالشكل ، والحالات تتعلق بالمعنى والمضمون .

و " الناس أطوار " أى تختلف فى المظهر والمخبر ، فالطور هو الهيئة المتغيرة أو الحال المختلف أو كلاهما معا ، ولا تتغير الهيئة الا اذا كان لها شكل قديم سابق على التغيير ، وكذلك الحال المختلف. وفى ذلك أيضا نلمح معنى التجديد .

ونجد أيضا : الطور = التارة ، يقال : " أتيته طورا بعد طور " أى تارة بعد تارة ، ومنه قوله تعالى : " وقد خلقكم أطوارا " أى - كما قال الأخفش - طورا علقة ، وطورا مضغة .

وهنا يتبين لنا بصورة أوضح معنى التجدد والتغير من حال الى حال وهو هنا فى الآية تغير من نقص الى كمال ، وهو تغير تدريجى اذا لاحظنا الترتيب فى قوله تعالى :

---

(١) المختار من صحاح اللغة . ص ٣١٦ ط ٣ .

" ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر . . . "(١) فهذه كلها أطوار متتالية يمر بها الجنين ، وفى كل طور منها يتغير ويتجدد من نقص الى كمال ، حتى يستوى خلقا سويا ، " فتبارك الله أحسن الخالقين"

اذن فمادة (طار) أو (طور) فيها معنى التجدد والتغير والخروج من حال الى حال . وتبقى مشكلة الكلمة من الناحية اللغوية ، فانه لم يرد فى اللغة لفظ (طوّر) مضعفا ، وبالتالى فكلمة (تطوير) غير صحيحة لغة ، وان كانت تتضمن معنى التغيير والتحول .

ونقول ان العصر الحديث يتطلب منا التوسع فى اللغة ، وعدم الجمود على الصيغ والاشتقاقات القديمة ، وخاصة اذا شاع استعمال الكلمة بين الأدباء والكتاب ، وكانت على صلة بالمعنى الذى تستعمل فيه من قريب أو بعيد .

وهذه الكلمة على صلة بالمعنى واللفظ ، فلماذا لا نشتق من مادة (طار) أو (طور) طوّر بالتضعيف ؟ خاصة وان كان لها فى ذلك شبيه ونظير ، مثل : مادة (طال) أو (طول) فانه يتصرف منها : طال يطول طولا ، وطوّل بالتضعيف يطوّل تطويلا . وكذلك : خاف يخاف خوفا ، وخوّف يخوّف تخويفا ، وتخوّف يتخوّف تخوفا وأيضا : حال يحول حولا ، وحوّل يحوّل تحويلا ، وتحوّل يتحوّل تحوّلا .

وغير ذلك كثير اذا رحت أتتبع وأرصد الأشباه والنظائر . ألا يجيز لنا كل ذلك أن نشتق من (طار) أو (ط و ر) طوّر يطوّر تطويرا ، وتطوّر يتطوّر تطوّرا ؟

وهل يجنى ذلك على اللغة أم يفيدها ويثريها ويعتبر كسبا لها ؟ والى متى نظل مستمسكين بزمام اللغة ، نشد لجامها ، ونغلق نوافذها وأبوابها ، ونضرب حولها سورا حديديا ، ونمنعها من التوسع والانتشار ؟

---

(١) المؤمنون ١١ ــ ١٤

وليس معنى ذلك أن نفتح باب التوسع فى اللغة على مصراعيه ، حتى لا يحدث ما يخشاه المحافظون من شيوع العامية فى الفصحى ، بل وربما أدى ذلك فى المدى الطويل الى طغيان العامية وطمس معالم الفصحى ، ويصبح من العسير فهم كتاب الله وهو عقيدتنا ودينا وتشريع حياتنا .

ولكن نقول : افتحوا الباب بحساب ، فلا يدخل منه الا ما يستحق من الكلمات والألفاظ ، وما نجد له صلة بالفصحى ، وما نشعر أنه كسب لنا وللغتنا وقريب من طبعنا وأذواقنا ثم نخضعه بعد ذلك لقواعد النحو والصرف ويجب أن يشعر الأدباء والكتاب والنقاد أننا نفعل ذلك من باب التجديد والتطوير والتوسع فى اللغة ، فلسنا جامدين ، ولا لغتنا جامدة ، وقد تقبلت من قبل كلمات أعجمية ، ونزل القرآن ببعضها ، أفليس ذلك ايحاء لنا بأن لغتنا يمكن أن تتقبل وتهضم كلمات وأساليب قد تطرأ فى المستقبل وتفيدنا فى التصوير والتعبير .

ولا خوف على كتاب الله وفهمه من هذا التوسع المحدود ، اذا ركزنا فى دروسنا وتعليمنا على أسلوب القرآن ولغته وعباراته وجعلناها مقياسا للجودة والفصاحة .

ومجامع اللغة العربية هى الحارس الأمين على تراثنا اللغوى ،وهى المسئولة عن هذا التوسع فى اللغة ، فهل أدت المجامع العربية رسالتها ؟ . والى متى يظل صوتها خافتا لا يجلجل ؟

ونعود الى كلمة (تطوير) أو (تطوّر) فنقول : ان لهذه الكلمة صلة بالفصحى من جهة المعنى ، ومن جهة اللفظ ، ومادتها موجودة فى معاجم اللغة ، ولها من حيث الاشتقاق والتصريف أشباه ونظائر . وهى كلمة أثبتت وجودها وعاشت ـ رغما عنا ـ (1) فى أساليب الكتاب والادباء ، فما أحقها بالانضمام الى روضة الفصحى ، عضوا جديدا له مؤهلاته وكفاءته

---

(1) اعتمد مجمع اللغة العربية هذا التعبير ، وأصله : على الرغم من كذا وبالرغم منه .

وهناك من دعاة التجديد من نادى بفكرة التوسع فى اللغة ، ولكن دعوتهم غير دعوتنا ، فنحن نرى التوسع فى حدود وقيود ، وهم يفتحون الباب على مصراعيه حتى ليجيزون امتزاج العامية بالفصحى وتداخلهما ، ولسنا معهم فى ذلك مهما قدموا من اعتبارات ومبررات.

ومن هؤلاء الكاتب الكبير الأستاذ احمد حسن الزيات ، فقد تحدث عن التجديد فى الأدب ، واللغة ، وقواعد النحو والصرف ، والعروض والقافية . ويعنينا من هذا كله قوله : (فأما التجديد فى اللغة فيكون بقبول ماوضع المولدون والمحدثون من الألفاظ والتراكيب والمصطلحات ، لأن اللغة ألفاظ يعبر بها كل قوم عن أغراضهم وأفكارهم والأغراض لا تنتهى ، والمعانى لا تنفذ ، والناس لا يستطيعون أن يعيشوا خرسا وهم يرون الأغراض تتجدد ، والمعانى تتولد ، والحضارة ترميهم كل يوم بمخترع ، والعلوم تطالبهم كل ساعة بمصطلح ، ولا علة لهذا الخرس الا أن البدو والمحصورين فى حدود الزمان والمكان لم يتنبئوا بحدوث هذه الأشياء ، ولم يضعوا لها ما يناسبها من الأسماء .

بذلك ينهار السد الذى أقامه اللغويون والأدباء الأولون بين الفصحى والعامية ، فتكسب الفصحى من العامية السعة والمرونة والجدة ، وتكسب العامية من الفصحى السلامة والصيانة والسمو ، فيكون لنا من تداخل اللغتين وتفاعلهما لغة تجمع بين محاسن هذه ومحاسن تلك . أما مساوئ الفصحى أو عنجهيتها فتموت كما يموت الحوشى المهجور فى كل لغة . وأما مساوئ العامية أو حثالتها فتبقى على الألسنة التى تستذيقها من دهماء العامة ، وتكون هى العامية التى لابد منها فى كل لغة من لغات العالم . ولكن بالنسبة الضئيلة التى لا تطفيها على الفصحى ، ولا تفرضها على الناس)[1]

---

(١) من تقديم الزيات لكتاب: الصراع الأدبى بين القديم والجديد للدكتور العمارى ص ٩ — ١٠

ولئن كان هذا رأى الكاتب الكبير فاننا نعرف أنه قاله عن حسن نية وطيب طوية ، فاعزازه للفصحى وتقديره لها فوق كل شك . ولكن هناك من اتخذ مثل هذه الدعوى ذريعة لمحاربة الاسلام والمسلمين ، ونادى بها عن دهاء وخبث ، وأراد بها الكيد للعرب ولغة العرب وكل ما هو عربى . وسنعود لهذا الموضوع بالتفصيل فى الباب الرابع ان شاء الله .

ونعود الى كلامنا عن التجديد فى مجال البلاغة فنقول : انه قد آن الأوان للعناية بعلوم البلاغة وتجريدها مما شانها وأثقلها من مسائل علم الكلام والمنطق والفلسفة والرياضة وغير ذلك مما طغى على بلاغتنا فأخفى جمالها وحجب رواءها ، حتى أطلق عليها بعض النقاد " بلاغة الأعاجم " أو طريقة الأعاجم " . وعلينا بعد أن نزيل عن كاهلها هذا العبء ، وننفض عنها هذا الثقل ، أن ننظر فيما يصلح لها وتحتاجه من الدراسات الحديثة ، فنأخذ منها بقدر ، وننقل اليها فى حدود وبحذر ، بحيث يكون مانضيفه اليها كالاطار الجميل ، يحدد صورتها ، ويبرز سحرها وفتنتها ، ويؤثر فى النفوس .

بوادر التجديد :

وقد كان لهذا التجديد ـ الذى نأمله وندعو اليه ـ بوادر وبدايات ، بدأت مع بداية هذا القرن العشرين ، وتمثلت فى محاضرات ومقالات تدعو الى تجديد البلاغة العربية بعد ماطال عليها الزمن ، ولم تغير ثوبها منذ القرن السادس الهجرى حتى اليوم .

وقد كان لهذه البوادر والبدايات أصوات تعلو حينا ، وتخفت أحيانا ، الى أن كانت البداية التى أشعلت الحماس ، وأثارت الرأى ، تلك هى معركة البلاغة التى حمى وطيسها على صفحات مجلة الرسالة بين الدكتور العمارى والاستاذ أمين الخولى ثم انضم اليهما آخرون .

وتثور قضية التجديد البلاغى ، فيعكف الأستاذ أمين الخولى على كتابه " فن القول " ويضمنه آراءه وخطته فى تجديد البلاغة.
ويشارك الاستاذ احمد حسن الزيات فى القضية فيدفع الى الميدان بكتابه : " دفاع عن البلاغة " .
ومن قبل وفى الجامعة الأمريكية يلقى البشرى محاضرتة : " ثورة على علوم البلاغة " .
وفى المجمع اللغوى يلقى د . عبد الرزاق محيى الدين بحثه : " مفاهيم بلاغية "
وتعقد الندوات والمحاضرات بين المعنيين بالدراسات البلاغية والنقدية وتذاع على الهواء ، كالندوة التى عقدت بين الدكاترة : غنيمى هلال ، وبدوى طبانة ، واحمد بدوى .
وفى جامعة الأزهر ينشأ قسم خاص بالبلاغة والنقد فى كلية اللغة العربية ، ويقوم أساتذته بالدعوة الى تجديد البلاغة وتطويرها .
وفى آداب القاهرة ، والاسكندرية ، وعين شمس ، ودار العلوم ،ترتفع الأصوات بضرورة اصلاح البلاغة وتجديدها حتى تخرج من عزلتها ، وتعود الى المشاركة والعمل فى ميادين الأدب ، بعد ما أوشكت مقاييس النقد الأدبى الجديد أن تزيحها وتحل محلها . بل أن ذلك قد حدث بالفعل فى السنوات الأخيرة .

كل ذلك أثار قضية البلاغة بعد ركود ، وأيقظها بعد سبات ، وأخذ العلماء والأدباء وأساتذة البلاغة ، يعبرون عن آرائهم ، ويعلنون عن اتجاهاتهم فى تطوير البلاغة وتجديدها .

الفصل الثاني

اتجاهات التجديد ومظاهره

عندما انطلقت أصوات الدعاة في العصر الحديث تنادي بتطوير البلاغة وتجديدها ، بدأ كل منهم يضرب عن رأيه في التجديد ، ويبين وجهة نظره في التطوير .

وباستقراء آراء هؤلاء الدعاة ، نجدهم في دعوتهم الي التجديد يتجهون في شبه اجماع الى تخليص البلاغة مما شابها من علوم المنطق والفلسفة وغيرهما مما جنى عليها وأضر بها، ثم يختلفون بعد ذلك :

أ - بعضهم يرى الاعتماد على تراثنا في البلاغة وجعله أساسا للتجديد وأن التجديد يجب أن يكون نابعا من روحنا ومجتمعنا وتكويننا وفطرتنا وذوقنا .

ب - وبعض آخر يرى أن الكتب القديمة التي تناولت البلاغة بمنهج السكاكي والخطيب يجب أن تلغى ويحل محلها كتب أخرى جديدة مؤلفة على منهج حديث. ومعنى ذلك أن التجديد عند هؤلاء أن نلقي بتراثنا البلاغي في بحر الظلمات ، وأنه لابد من وأد القديم ليظهر الجديد وينتعش .

ج - وبعض ثالث يرون مزج البلاغة العربية بأصول الدراسات البلاغية في شتى اللغات الحديثة الأوربية ، وأنه من الخير الجمع بين ما يصلح من تراثنا وما يصلح من بلاغة الغرب ، وأن التعايش بين القديم والحديث أفضل نتاجا وأقوى أثرا .

مظاهر التجديد الأولى :

كان لهذه الاتجاهات في تجديد البلاغة والدعوة الى تطويرها آثار ومظاهر بدأت صغيرة بسيطة ، ولكنها أخذت تكبر وتقوى وتشتد حتى صارت شعلا وهاجة توضح معالم الطريق الى بلاغة عربية جديدة .

ومن أول المظاهر التي رأيناها - كأثر من آثار الدعوة الى التجديد - مظهران : أولهما نظري ، والثاني عملي .

مقدمة لدراسة بلاغة العرب :

كان من أوائل الذين دعوا الى الاهتمام بالبلاغة وتجديدها الدكتور احمد ضيف الذى أصدر كتابه : (مقدمة لدراسة بلاغة العرب) وكان ذلك عام ١٩٢١.

وهذا الكتاب - فيما وجدنا - هو أول ظاهرة نظرية ، تحدثت عن البلاغة وتعريفها بطريقة مغايرة لطريقة القدماء ، وقد يكون ماورد فى هذا الكتاب يمت بصلة الى المدرسة الأدبية ، ولكنه على أى حال كان أول ظاهرة للخروج على نظام وروح المدرسة السكاكيه ..

وفى هذا الكتاب يرى الدكتور ضيف أن البلاغة هى : (كل قول الغرض منه قبل كل شىء الاستيلاء على نفس السامع أو القارئ بفصاحة العبارة وحسن التركيب وبراعة الكاتب أو الشاعر) . أو بعبارة أخرى : (هى الكلام الفنى الممتع ، والكلام الفنى يملأنفس السامع وعواطفه فى أى موضوع كان ، وعلى أى معنى دل) . ولعل الكاتب أراد بهذا التعريف للبلاغة أن يبعد عن التعريفات القديمة التقليدية ، وماترتب عليها من محترزات وشروح وتعليقات . ولئن كان هذا قصده فلقد أفلح الى حد ما على الأقل .

ويفرق الكاتب بين البلاغة وعلومها .. (فعلوم البلاغة هى علوم البيان المعروفة بالمعانى والبيان والبديع . أما البلاغة فهى عبارة عن أدب اللغة ، فهى تعبير اللفظ واتقانه ليبلغ المعنى قلب السامع أو القارئ بلا حجاب ، ولينال الكاتب أو الشاعر من الأفئدة مايريد ، وهى المقصودة بقوله عليه السلام : " وان من البيان السحرا " ، وأنها ابلاغ المتكلم حاجته بحسن افهام السامع ، ولذلك سميت بلاغة).

ولا جديد فى هذا فالفرق بين البلاغة وعلومها وارد فى كتب السابقين ، وكذلك هذا التعريف الذى ورد فى آخر الفقرة السابقة.

ويرى الدكتور أحمد ضيف : (أن البلاغة فن من الفنون الجميلة مثل التصوير والموسيقى ، والغرض منها تهذيب النفس ، وترقيق العواطف ، وتقوية الملاحظة ، فهو مسلاة النفوس ، وأنيس الجليس ، فعلى هذا هي ضرب من الكمال . أما من جهة أنها معرض عام للحياة ، وجعبة لأفكار الانسان ، ومسرح الآراء والفلسفة ، فهي شيء من الضروريات لتربية الافكار وتهذيبها) .

ويوضح د . ضيف كلامه هذا بأن هناك نوعين من البلاغة : (البلاغة الوجدانية ، والبلاغة الاجتماعية . فالبلاغة اما أن تكون عبارة عما يجول في نفس الانسان من عواطف واحساسات وخيالات وغيرها مما يدل على شخصية الكاتب أو المتكلم فحسب . واما أن تكون صورة غير صورة نفس الكاتب أو الشاعر . فالاولى هي البلاغة الوجدانية ، والثانية هي البلاغة الاجتماعية)(1)

وتقسيم البلاغة الى وجدانية واجتماعية يعتبر رأيا جديدا ، اذ لم نسمع بهذا التقسيم من قبل ، ولكنه على أي حال تقسيم غير مقنع ولا مفيد ولعل الكاتب خلط في هذا التقسيم بين الأدب والبلاغة ، لأن من أنواع الأدب ، الأدب الوجداني أو الذاتي : وذلك عندما يتحدث الأديب عن نفسه وعن مشاعره وأحاسيسه وتصوراته . والأدب الاجتماعي : وذلك عندما يتناول الأديب مشاكل المجتمع وصور الحياة المختلفة . ويرجح هذا المزج بين البلاغة والأدب ما قاله الكاتب عندما فرق بين البلاغة وعلومها فعرف البلاغة بأنها : عبارة عن أدب اللغة .

هذا وقد فرق القدماء بين الشعر الوجداني والشعر الاجتماعي . فهذا التقسيم اذن بالنسبة للأدب شعرا ونثرا ليس جديدا ، ولكنه بالنسبة للبلاغة جديد وغريب .

---

(1) راجع ص ٢٧ - ٣٧ مقدمة لدراسة بلاغة العرب .

أما الغرض من البلاغة فيقول الكاتب : (فان جماعة من العلماء[1] أن الغرض منها ـ أي البلاغة ـ نشر المعلومات الصحيحة بأسلوب يلذ للناس وقالوا : انه لا يصح أن يقول الشاعر مالا معنى له ، أو يكتب الناثر صحيفة أو صحيفتين بدون أن تحتوى على معلومات مفيدة ، وحتى قال " تين " فى مقدمة كتابه " تاريخ البلاغة الانجليزية " ان البلاغة صورة كاملة صحيحة من الزمن والأشخاص الذين يعيشون فيه)[2]

وأعتقد أيضا أن " تين " فى كتابه " تاريخ البلاغة الانجليزية " خلط كذلك بين الأدب والبلاغة . فالأدب هو الذى يوصف بأنه صورة كاملة صحيحة من الزمن والأشخاص الذين يعيشون فيه . وليس البلاغة .

ويعود الدكتور فيقرر أن الرأى الصحيح السائد هو أن (الغرض من البلاغة اعجاب القارئ أو السامع ببراعة الكاتب أو المتكلم ، وأنه لا يطلب من البليغ أن يملأ كلامه بشىء من المعلومات الصحيحة)[3]

والجزء الأول من هذا الكلام هو عودة من المؤلف الى قوله سابقا فى تعريف البلاغة هى : (كل قول الغرض منه قبل كل شىء الاستيلاء على نفس السامع أو القارئ بفصاحة العبارة وحسن التركيب وبراعة الكاتب أو الشاعر) . ونسى الكاتب أن الغرض من البلاغة أولا وقبل كل شىء هو : تربية الملكة لادراك الاعجاز . ثم هو بعد ذلك ـ على حد تعبير الكاتب ـ : تهذيب النفس ، وترقيق العواطف ، وتقوية الملاحظة وهو أمر ضرورى فى تربية الأجيال العربية وتهذيبها ، وليس ضربا من الكمال كما يقول الكاتب .

أما الجزء الثانى ـ وهو أنه لا يطالب من البليغ أن يملأ كلامه بشىء من المعلومات الصحيحة ـ فليس داخلا فى أغراض البلاغة من قريب أو بعيد ولعل الكاتب يقصد أن العبرة فى البلاغة بالاسلوب لا بالمعنى ، وأن الشكل هو المعول عليه .

---

(١) لم يحدد الدكتور من هم جماعة العلماء الذين يقصدهم .
(٢و٣) راجع ص ٢٧ ـ ٣٧ من مقدمة لدراسة بلاغة العرب .

وهو الذى يضفى على المضمون قوة وسحرا ، سواء كان المضمون يتضمن معلومات صحيحة أو خاطئة . وهو بذلك يدخل فى قضية اللفظ والمعنى. هذا والكتاب لم يعن بوضع خطة أو منهج جديد ، وانما هو محاولة مبكرة للخروج على نظام المدرسة الكلامية فى تناول البلاغة ، والاستفادة بما جد من حديث البلاغة عند الغربيين .

البلاغة الواضحة :

وبعد كتاب الدكتور احمد ضيف الذى أصدره سنة ١٩٢١ - ظهر فى مجال التأليف البلاغى فى العصر الحديث كتاب " البلاغة الواضحة " سنة ١٩٣٠ وقد قام بتأليفه الاستاذان : على الجارم ومصطفى أمين .. وهذا الكتاب كان - فيما وجدنا أيضا - أول ظاهرة عملية تطبيقية لدعوة التجديد البلاغى وعلى الرغم من أن هذا الكتاب لم يتناول صلب علم البلاغة بشيء من التعديل الجوهرى فقد أجاد العرض وأحسن اختيار الامثلة وشرحها بأسلوب معاصر قريب الى أفهام الدارسين وأكثر من الشواهد الادبية الجيدة . فهذا الكتاب عودة بعلم البلاغة الى المدرسة الادبية التى هجرها أكثر المؤلفين منذ عهد السكاكى الذى أصل المدرسة الكلامية وكان من أعلامها وورثها من بعده حتى العصر الحديث . والمؤلفان لم يدعيا أنهما أتيا بمنهج جديد فى علم البلاغة أو زادا شيئا ذا أهمية وانما عرضا علم البلاغة بطريقة عملية جديدة تشجع على الاقبال والدرس فقد نفضا عنه كل الأساليب العقيمة والمسائل الجدلية وركزا على اللباب والجوهر وعرضاه بأسلوب عصرى جميل مستساغ . وقالا فى المقدمة : (وأملنا أن يكون لعملنا هذا شأن فى احياء الأدب ، وتوجيه أذهان المعلمين والطلاب الى هذه الطريقة التى ابتكرناها فى دراسة البلاغة ، ولعلنا نكون قد وفقنا الى ماقصدنا اليه ، والله خير مستعان) .

وأكبر الظن أن هذا العمل فى حينه كان بداية طيبة واتجاها قيما نحو دراسة جديدة لعلم البلاغة .. وقد قررت وزارة المعارف المصرية آنذاك هذا الكتاب على طلاب المرحلة الثانوية ومدارس المعلمين .

ومما يلفت النظر أن الكاتبين الجليلين لم يتحدثا عن طريقتهما الجديدة في كتابهما الجديد .. ولم يقوما بوضع نظرية مسهبة لها .. وانما قاما بوضعها موضع التنفيذ دون صخب أو ضجيج وقدما الكتاب الذي أثبت أنه خير كتاب ألف في علم البلاغة حتى ذلك الوقت ـ وربما حتى اليوم ـ .

يبدأ الكتاب بمقدمة في : الفصاحة والبلاغة والأسلوب . فيتكلم عن الفصاحة كما وردت عند السابقين ولكن بعرض جميل شائق مقنع . ثم يتحدث عن البلاغة . . فيأتي بتعريف جديد ـ غير بعيد عن التعريف القديم ـ لكنه سهل العبارة واضح المعنى يقول : (أما البلاغة فهي تأدية المعنى الجليل واضحا بعبارة صحيحة فصيحة ، لها في النفس أثر خلاب ، مع ملاءمة كل كلام للموطن الذي يقال فيه ، والاشخاص الذين يخاطبون به)(١) ووصفه المعنى بالجليل فيه نظر ، لأن القدماء لم يشترطوا ذلك ، ولأن البليغ قد يتناول المعنى التافه والردىء فيرفع قدره ويعلي منزلته .

والواقع أن هذا التعريف قريب من تعريف الدكتور احمد ضيف في كتابه (مقدمة لدراسة بلاغة العرب) الذي سبقت الاشارة اليه ـ ولكن تعريف البلاغة الواضحة أشمل وأجمل .

ويعود الكتاب فيتحدث عن البلاغة بوصفها فنا في أسلوب شفاف رقيق فيقول : (فليست البلاغة قبل كل شيء الا فنا من الفنون يعتمد على صفاء الاستعداد الفطري ودقة ادراك الجمال ، وتبين الفروق الخفية بين صنوف الأساليب ، وللمرانة يد لا تجحد في تكوين الذوق الفني ، وتنشيط المواهب الفاترة ، ولابد للطالب الى جانب ذلك من قراءة طرائف الأدب ، والتملؤ من نميره الفياض ، ونقد الآثار الأدبية والموازنة بينها ، وأن يكون له من الثقة بنفسه ما يدفعه الى الحكم بحسن مايراه حسنا ، وبقبح ما يعده قبيحا .)(٢)

---

(١) ص ٨ البلاغة الواضحة ط ٢١
(٢) المصدر السابق .

ويستطرد الكتاب فى عرض مقارنة طريفة مختصرة بين البليغ والرسام ثم يتطرق الى عناصر البلاغة بأسلوب جميل وأمثلة وشواهد أكثر جمالا

ويتحدث الكتاب بعد ذلك عن الأسلوب وهو شيء جديد أضيف الى الفصاحة والبلاغة . . ويعرفه بأنه (المعنى المصوغ فى ألفاظ مؤلفة على صورة تكون أقرب لنيل الغرض المقصود من الكلام وأفعل فى نفوس سامعيه)(١) وهذا التعريف للأسلوب قريب من التعريف القديم لابن خلدون الذى يرى أن الأسلوب " يرجع الى صورة ذهنية للتراكيب المنتظمة كلية باعتبار انطباقها على تركيب خاص ، وتلك الصورة ينتزعها الذهن من أعيان التراكيب وأشخاصها ، ويصيرها فى الخيال كالقالب والمنوال . . .)(٢)

وعلى هذا المفهوم جرى الأستاذ الشايب فى تعريفه للأسلوب ، فهو عنده " معان مرتبة قبل أن تكون ألفاظا منسقة ، وهو يتكون فى العقل قبل أن ينطق به اللسان أو يجرى به القلم "(٣)

أما عبد القاهر فقد كان الأسلوب عنده : " الضرب من النظم والطريقة فيه "(٤) والاسلوب فى البلاغة الواضحة " يتنوع الى ثلاثة أنواع :-

(١) الاسلوب العلمى : وهو أهدأ الأساليب ، وأكثرها احتياجا الى المنطق السليم ، والفكر المستقيم ، وأبعدها عن الخيال الشعرى ، لأنه يخاطب العقل ، ويناجى الفكر ، ويشرح الحقائق العلمية التى لا تخلو من غموض وخفاء . وأظهر ميزات هذا الأسلوب (الوضوح) ولابد أن يبدو فيه أثر (القوة والجمال) . ثم يشرح هذا الكلام فى وضوح وايجاز .

---

(١) ص ١٢ المرجع السابق .
(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٣٦٨ ط ١
(٣) الأسلوب ص ٤٠ ط ٤
(٤) دلائل الأعجاز ص ٣٦١

(٢) الأسلوب الأدبي : و(الجمال) أبرز صفاته ، وأظهر مميزاته .. ويذهب الكاتب فيشرح جمال الأسلوب الأدبي بعرض مجموعة قيمة من الأمثلة والشواهد المريحة للنفس المغذية للعقل بأسلوب شائق جذاب ثم يقول في النهاية : (وخلاصة القول أن هذا الاسلوب يجب أن يكون (جميلا) رائعا بديع الخيال ثم (واضحا قويا) . ويظن الناشئون في صناعة الادب أنه كلما كثر المجاز ، وكثرت التشبيهات والأخيلة في هذا الأسلوب زاد حسنه ، وهذا خطأ بين ، فانه لا يذهب بجمال هذا الأسلوب أكثر من التكلف ، ولا يفسده شر من تعمد الصناعة ونعتقد أنه لا يعجبك قول الشاعر :

فأمطرت لؤلؤا من نرجس وسقت .. وردا وعضت على العناب بالبرد

هذا ومن السهل عليك أن تعرف أن الشعر والنثر الفني هما موطنا هذا الأسلوب ففيهما يزدهر ، وفيهما يبلغ قنة الفن والجمال) .(١)

(٣) الأسلوب الخطابي : (وهنا تبرز " قوة " المعاني والألفاظ ، و " قوة " الحجة والبرهان ، و " قوة " العقل الخصيب ، وهنا يتحدث الخطيب الى ارادة سامعيه لاثارة عزائمهم واستنهاض هممهم ، و " لجمال " هذا الاسلوب و " وضوحه " شأن كبير في تأثيره ووصوله الى قرارة النفوس ...)(٢) ويذهب الكتاب فيتحدث في أسلوب شائق واضح عن مميزات الخطيب ثم مميزات أسلوب الخطابة ويضرب مثالا بخطبة على بن أبي طالب رضي الله عنه لما أغار سفيان بن عوف الأسدي على الانبار وقتل عامله عليها . ويعلق على الخطبة تعليقا موجزا مقنعا ثم يقول :

---

(١) ص ١٥ المرجع نفسه .
(٢) ص ١٦ المرجع نفسه .

(ونرجو أن نكون قد وفقنا الى بيان أسرار البلاغة فى الكلام وأنواع أساليبه حتى يكون الطالب خبيرا بأفانين القول ، ومواطن استعمالها ، وشرائط تأديتها ، والله الموفق).(١)

ونلاحظ أن الكاتبين الجليلين على الجارم ومصطفى أمين قد استعملا فى كلامهما عن الأسلوب ألفاظ : القوة - الجمال - الوضوح . وهى كلمات وردت فى علم النفس الحديث ، وقد أحسنا تقسيمها على أنواع الأسلوب الثلاثة حسب مدلول كل لفظ منها - فجعلا الوضوح : السمة المميزة للأسلوب العلمى ، والجمال ، السمة المميزة للأسلوب الأدبى ، والقوة : السمة المميزة للأسلوب الخطابى . على أن كل أسلوب لا يستغنى عن اجتماع الثلاثة كل بنسبته . . فالوضوح فى الاسلوب العلمى لا يستغنى عن القوة والجمال والا صار جافا ضعيفا ، والجمال فى الأسلوب الأدبى لا يستغنى عن الوضوح والقوة والا صار مبهما فاترا والقوة فى الأسلوب الخطابى لا تستغنى عن الوضوح والجمال والا صارت غامضة باهتة . فاجتماع الثلاثة . . الوضوح والقوة والجمال - فى كل نوع من أنواع الاسلوب مهم . . غاية مافى الأمر أن كل أسلوب لـه سمته الأساسية - من هذه الصفات الثلاثة - التى يمتاز بها .

ومن الملاحظ أيضا أن كتاب البلاغة الواضحة أوجز الكلام عن " الاسلوب " فى ست صفحات فقط ص ١٢ - ١٧ فأفاد وأجاد . بينما سنرى فيما يأتى أن كتاب " الاسلوب " للأستاذ احمد الشايب استعرض هذا الموضوع فيما يقرب من مائتى صفحة ومع ذلك ففيه نظر .

ونعود الى تصفح كتاب " البلاغة الواضحة " حيث يتناول بعد ذلك - علم البيان - فيتحدث عن التشبيه وأركانه ، ثم أقسامه ، ثم تشبيه التمثيل ثم التشبيه الضمنى ، ثم أغراض التشبيه ، ثم التشبيه المقلوب ، ثم بلاغة التشبيه وبعض ما أثر منه عن العرب والمحدثين .(٢)

---

(١) ص ١٧ المرجع السابق .
(٢) ص ١٨ - ٦٨ المرجع السابق .

ونجده قد استعمل فى عرضه طريقة الاستنباط التطبيقية ، أى أنه يعرض الأمثلة والشواهد أولا ، ثم يشرحها ، ثم يستنبط القاعدة ، وأخيرا يضع لها نماذج وتمارين وتطبيقات . وللحق أقول : ان الكتاب قد أحسن هذه الطريقة وأجاد استعمالها .

وينتقل الكتاب بعد ذلك الى : الحقيقة والمجاز - فيبدأ بالمجاز اللغوى بنفس الطريقة الاستنباطية - ثم الاستعارة التصريحية والمكنية - ثم تقسيم الاستعارة الى أصلية وتبعية - ثم تقسيم الاستعارة الى مرشحة ومجردة ومطلقة - ثم الاستعارة التمثيلية - ثم بلاغة الاستعارة - ثم يتحدث بعد ذلك عن : المجاز المرسل وعلاقاته . . ثم المجاز العقلى . . ثم بلاغة المجاز المرسل والمجاز العقلى .(١)

ويتحدث الكتاب بعد ذلك عن : الكناية وأنواعها وبلاغتها بنفس الطريقة الاستنباطية البديعة فتستقر المعلومات فى النفس وترسخ فى العقل . . ثم يختم علم البيان بحديث قيم موجز - يعتمد على الشواهد والامثلة - عن : أثر علم البيان فى تأدية المعانى .(٢)

ثم ينتقل الى علم المعانى : وبنفس الطريقة الاستنباطية فيتحدث عن : تقسيم الكلام الى خبر وانشاء ثم يعقد فصلا للخبر يتحدث فيه عن : الغرض من القاء الخبر - ثم أضرب الخبر - ثم خروج الخبر عن مقتضى الظاهر . ثم يعقد فصلا للانشاء يتحدث فيه عن : تقسيمه الى طلبى وغير طلبى . . ثم يتحدث عن أنواع الطلبى فيتناول : الأمر - النهى - الاستفهام وأدواته - خروج بعض أدوات الاستفهام عن معانيها الأصلية - التمنى - النداء .(٣)

وينتقل الكتاب بعد ذلك الى : القصر : تعريفه - طرقه - طرفاه ، تقسيم القصر الى حقيقى واضافى .(٤)

---

(١) ص ٦٩ - ١٢٢ المرجع السابق .
(٢) ص ١٢٣ - ١٣٦ المرجع السابق .
(٣) ص ١٣٧ - ٢١٥ المرجع السابق .
(٤) ص ٢١٦ - ٢٢٦ المرجع السابق .

ثم يتحدث الكتاب عن: الفصل والوصل: مواضع الفصل .. ثم مواضع الوصل . واخيرا ينتقل فى علم المعانى الى الايجاز والاطناب والمساواة فيتحدث عن كل منهما بتركيز وايجاز[1] مع المحافظة على الطريقة الاستنباطية التى امتاز بها الكتاب .

بعد ذلك ينتقل الكتاب الى العلم الثالث من علوم البلاغة (علم البديع) فيتحدث عن: المحسنات اللفظية ويورد منها: الجناس الاقتباس ــ السجع ــ ثم يتحدث عن: المحسنات المعنوية ويورد منها: التورية ــ الطباق ــ المقابلة ــ حسن التعليل ــ تأكيد المدح بمايشبه الذم وعكسه ــ أسلوب الحكيم .[2]

وبعد: فهذا الكتاب "البلاغة الواضحة" الذى أستعرضناه استعراضا عاجلا مجملا كتاب قيم فى أسلوبه وطريقة عرضه .. وهو أول كتاب أخضع علم البلاغة لهذه الطريقة ذات العرض الجذاب .. وليس معنى ذلك أن هذا الكتاب وصل الى درجة الكمال المنشودة أو أنه انتهى الى نهاية مانريد لعلم البلاغة .. ولكنه نقلة طيبة من القديم حققت بعض التجديد اذ محصت علم البلاغة ونفضت عنه كثيرا من الشوائب وعرضته عرضا أفضل ونسقته تنسيقا أجمل وعادت به الى أحضان المدرسة الأدبية التى حرم منها منذ عهد بعيد . وليت هذا الكتاب يعاد وضعه فى مناهج التدريس فى المدارس ومعاهد المعلمين بعد حذف بعض الأبواب منه مثل: الاستعارة التصريحية التبعية ــ الفصل والوصل .. وان كان الكتاب قد تناولهما فى يسر وسهولة وايجاز . على أن لنا فى الفصل والوصل رأيا سنعود اليه فيما بعد ان شاء الله .

---

(١) ص ٢٢٧ ــ ٢٦٣ المرجع السابق .
(٢) ص ٢٦٤ ــ ٢٩٨ المرجع السابق .

ومع اعجابنا الشديد بهذا الكتاب بوصفه بداية عملية فى طريق التجديد البلاغى ، فان لنا عليه بعض المآخذ ، منها :

(١) نص فى ص ١٦٩ على أن (أنواع الانشاء غير الطلبى ليست من مباحث علم المعانى ولذلك نقتصر فيها على ماذكرنا ولا نطيل فيها البحث) . بينما كان الواجب أن يوضح ولو باشارة عابرة لماذا لم يعتبر الانشاء غير الطلبى من مباحث علم المعانى .

(٢) قسم المحسنات الى لفظية ومعنوية ولم يوضح الفرق بينهما ، ولماذا اعتبرنا السجع مثلا محسنا لفظيا ، بينما اعتبرنا التورية محسنا معنويا .

(٣) ترك أبوابا على قدر كبير من الاهمية مثل باب المسند اليه وباب المسند والحذف ، والتقديم ، وكان يمكن دراستها دراسة أدبية تبين مدى أصالتها فى البلاغة .

(٤) قصر فى أبحاث علم البديع اذ اقتصر منه على ألوان قليلة ، وترك ألوانا رائعة وكثيرة الدوران فى الكلام ، كالمبالغة ومراعاة النظير وغيرهما .

وقد حرص المؤلفان اتماما للفائدة على أن يصدرا ملحقا للبلاغة الواضحة يشتمل على حل جميع التمرينات التى تضمنها الكتاب ــ وما أكثرها ــ فجاء كتابهما " دليل البلاغة الواضحة " دليلا على اخلاصهما للعربية وحرصهما على معاونة الجيل الجديد من دارسى البلاغة على هضم مسائلها وحل تمارينها

يقول المؤلفان فى مقدمة دليل البلاغة : (وبعد ، فقد رأينا الحاجة دافعة الى خدمة كتابنا " البلاغة الواضحة " بالاجابة عن تمريناته ، لأن مافيه من نصوص الأدب الكثيرة ، وما فى مسائله وتطبيقاته من الجدة والابتكار ، قد يلجئ الطالب فى أول عهده بالبلاغة ، وبهذا الأسلوب الطريف منها ، الى الاستعانة بمن يأخذ بيده ويهديه الطريق السوى فى التفكير .

على أن اطلاع الطالب على نماذج كثيرة فى حل مسائل الأدب وشواهده يغرس فيه من غير شك ملكة البلاغة ، ويطبعه على الذوق العربى فى معالجة كثير من نصوصها ، ويبصره بأسرار الكلام البليغ ، ومافيه من ضروب الحسن ، وبدائع البيان) (١)

---

(١) ص ٣ المقدمة ــ دليل البلاغة ــ الطبعة الخامسة ١٩٦٦م .

وفى كتاب " مناهج بلاغية " يستعرض المؤلف كتب البلاغة فى العصر الحديث فيقول عن هذا الكتاب (ومن أهم الكتب المتداولة " البلاغة الواضحة " للأستاذين على الجارم ومصطفى أمين ، وهذا الكتاب حلقة الانتقال بالبلاغة من طابعها القديم المعتمد على تقرير القواعد وحفظ القوالب الى الاهتمام بالتحليل ، وقد اتبع المؤلفان أسلوبا تربويا جديدا ، يقوم على ذكر الأمثلة واستنباط القواعد وشرحها .. ولعل أهم مايمتاز به كتابهما البحث فى الأسلوب ، وهو بحث جديد فى البلاغة التى لم تخرج على ماخطه السكاكى وقرره القزوينى)[١]

ومثل ذلك قال د . حفنى شرف فى معرض حديثه عن المؤلفين فى البلاغة فى العصر الحديث (ومنهم أيضا المرحومان على الجارم ومصطفى أمين فى كتابهما " البلاغة الواضحة " الذى تكلما فيه عن علوم البلاغة الثلاثة ، وان كان يمتاز هذا الكتاب بأن فيه شيئا من التحرر والبعد عن العقلية المنطقية التى أصابت البلاغة والضيق الذهنى الذى أصاب علماءها ، فكانا يعرضان الشواهد للصورة البلاغية ثم يعقبان عليها بالتحليل الذى يؤدى الى استنتاج القاعدة ، وهذه الطريقة وذلك المنهج وان عرف عنه الاختصار فى القواعد والبعد عن الخلافات ، الا أن فيه اكثارا من الشواهد وتحليلها والكشف عن النكتة البلاغية فيها)[٢]

وقد شجع نجاح هذا الكتاب على صدور كتب أخرى مدرسية فى البلاغة تدور حوله وتتبع طريقته . ومازالت هذه الكتب .. مع تغييرات طفيفة ــ تتوالى على مدارسنا حتى اليوم .

أما الدكتور بدوى طبانة فنجده يعرض لهذا الكتاب بإسهاب ضمن حديثه عن البيان البلاغى فيقول : (ومن أنفس كتب هذه المدرسة فى القرن العشرين كتاب " البلاغة الواضحة " الذى ألفه الأستاذان مصطفى أمين وعلى الجارم .

---

(١) مناهج بلاغية د . احمد مطلوب ص ٣٥٥ و ٣٥٦
(٢) الصور البديعية : ط ١ ص ٣٥٥

وعلى الرغم من أن هـذا الكتاب قد ألف لغاية تعليمية مطابقا لمنهج وزارة المعارف لتدريس البلاغة فى مدارسها الثانوية ، فان مؤلفيه اتجها فيه كثيرا الى الأدب ، رجاء أن يجتلى الطلاب فيه محاسن العربية ، ويلمحوا مافى أساليبها من جلال وجمال ، ويدرسوا من أفانين القول وغروب التعبير مايهب لهم نعمة الذوق السليم ، ويربى فيهم ملكة النقد الصحيح .

وقد درس المؤلفان فى هذا الكتاب فنون البلاغة موزعة بين علومها الثلاثة فيبدأ الكتاب بمباحث علم البيان ، فمباحث علم المعانى فبعض فنون من علم البديع مقسمة الى محسنات لفظية ومحسنات معنوية .

والحقيقة أن هذا الكتاب كان مطلع عهد جديد فى كتابة البلاغة والتأليف فيها ، اذ اتجه الى استثارة الأذواق ، والتنبيه على مواطن الجمال فى النصوص الأدبية ، وذلك بعرض طائفة كبيرة من الأمثلة ، ثم دراسة هذه الأمثلة وبحثها بحثا جماليا ، يشرح أثرها فى النفس ، وفعلها فى الأدب ، ثم تلخيص القاعدة البلاغية فى كلمات قليلة ، واتباع ذلك بكثير من النصوص الأدبية ، ليتدرب الطلاب على دراستها واستخلاص مافيها من صفات الحسن البلاغى .
وكان هذا أول اتجاه للتخفف من سيطرة القاعدة البلاغية ، ولتقريب البلاغة من الأدب الذى جعلت لخدمته . وكان هذا فى الوقت نفسه أول تنبيه عملى للأذهان الى محاولة التحرر من المنهج المألوف فى دراسة البلاغة العربية ، ذلك المنهج الذى يعنى بحفظ القواعد والتعاريف والأقسام ، واستطاع المؤلفان الى حد كبير التهوين من هذا المنهج المأثور ، فاتجهت الأذهان الى البحث عن منهج جديد يصلح لبعث البلاغة وتحريرها من منهج المدرسة القديمة .

ولقد حاول كثيرون من المؤلفين لتلاميذ المدارس اقتفاء أثر مؤلفي " البلاغة الواضحة " فنجح كثير منهم في تقليد الطريقة دون أن تظهر شخصيتهم في منهج جديد ، أو موضوع جديد من الموضوعات التي تتجه البلاغة الى دراستها والفحص عنها .

ومن أجمل ما يمتاز به كتاب البلاغة الواضحة بحثه في " الأسلوب " الذى عرفه بأنه " المعنى المصوغ في الفاظ مؤلفة على صورة تكون أقرب لنيل الغرض المقصود من الكلام وأفعل في نفوس سامعيه " ثم بيان أنواع الأساليب وخصائص كل منها ......

ولقد كان هذا الكلام فيما أعلم أول كتابة في الأسلوب ، ومحاولة تقسيمه الى أنواع ، وشرح خصائص كل نوع منها ، وقد عنى بعض الدارسين بهذا الموضوع فيما بعد ، فزادوا في أنواع الأساليب ، وفصلوا القول في خصائص كل منها ....

ونستطيع أن نقول ان هذا الكتاب يمكن أن نعده حلقة اتصال بين ما استقرت عليه البلاغة ، ومايرجى أن يكون لها من بعث وحياة وازدهار)(١)

وهكذا بدأت بوادر التجديد واتجاهاته تتضح معالمها ، وتبرز خطوطها ، ممهدة الطريق لدعوات التجديد البلاغية .

---

(١) البيان العربي ص ٢٧٨ ـ ٢٨١ بتصرف .

الباب الثاني

(دعوات التجديد البلاغية)

ودعوات التجديد في العصر الحديث انما نعني بها تلك التي بدأت مع هذا القرن العشرين ، حيث بدأت النهضة العربية في العلوم والآداب تأخذ سبيلها وتشق طريقها بعد أن انفتح العرب على النهضة الغربية الأوربية واطلعوا على الكثير من علومها وآدابها ، فكان لذلك أثره في حفز الهمم العربية للنهضة بالعلوم والفنون والآداب وكان نصيب اللغة العربية وآدابها - خاصة الأدب والنقد - نصيبا وافرا في هذه النهضة الحديثة .

لكن البلاغة - كمهدنا بها منذ القرن السادس الهجري - لم تأخذ حظها في هذه النهضة وأن كانت لم تعدم أنصارا تحدثوا عنها ودعوا الى تجديدها .

وسوف يكون حديثنا في هذا الباب على النحو التالي :

الفصل الأول - بحوث في البلاغة وتجديدها .

الفصل الثاني - آراء في التجديد البلاغي .

الفصل الثالث - حركة الرسالة .

الفصل الأول

بحوث في البلاغة وتجديدها

كان كتاب " البلاغة الواضحة " وما أعقبه وتلاه من كتب مدرسية مماثلة مجرد بدايات ، الغرض منها تخليص البلاغة من براثن المدرسة الكلامية وتقريبها الى أفهام الدارسين ـ والتأثير فيهم باتباع وسلوك مسلك المدرسة الأدبية في ايراد الأمثلة والشواهد من الروائع الأدبية والاكثار منها بحيث يمكن صقل موهبة الدارسين .

ولكن هذه النقلة من طريقة المتكلمين الى طريقة المتأدبين لم تكن الا الخطوة الأولى على طريق تجديد البلاغة ، ولم تؤد الى النتيجة المطلوبة ، ولم تؤت ا ثمرة المرجوة .

كما أن هذه النقلة لاتعتبر ـ في رأينا ـ تجديدا ، وانما هي تغيير من حال الى حال ، ومن طريقة لأخرى ، خاصة وأن كلا من الطريقتين ـ الأدبية والكلامية ـ ليس غريبا على البلاغة ، ولاجديدا عليها .

اذن هي ـ كما قلت ـ بدايات ومحاولات لتجديد البلاغة والنهوض بها وبالطبع لم تقف هذه البدايات ، ولم تنته هذه المحاولات . فقد رأينا بعد ذلك محاولات أفضل تتمثل في دعوات صادقة لتجديد البلاغة وبحوث ومحاضرات قيمة في البلاغة وتجديدها ، كان لها أثرها في دفع موجة التجديد ، والاهتمام بقضية البلاغة .

وأهم هذه البحوث والمحاضرات

(١) البلاغة والفلسفة	للأستاذ أمين الخولي
(٢) البلاغة وعلم النفس	" " "
(٣) ثورة على علم البلاغة	" عبد العزيز البشرى
(٤) البلاغة العربية بين التطور والجمود	د. احمد بدوى
(٥) المسوغات العقلية للبلاغة	" أنيس المقدسى
(٦) البلاغة العربية وحاجتها الى التجديد	د. على العمارى
(٧) مفاهيم بلاغية	د. عبد الرزاق محيى الدين
(٨) تخطيط رسمي جديد للبلاغة	لجنة المعارف المصرية

البلاغة العربية وأثر الفلسفة فيها

كان من أوائل دعوات التجديد التي ارتفعت في أوائل هذا القرن العشرين هذا البحث الذى كتبه والقاه[1] الشيخ أمين الخولى عن الفلسفة وأثرها فى البلاغة العربية . وقد استهل بحثه بكلمات عن التجديد والتبديد قال : " تتجاوب اليوم أصداء الوادى بدعايات التجديد ، وأقوى هذه الدعايات وأجهرها صوتا دعاية التجديد الأدبى ، وهذا التجديد - فيما أومن أنا به - ليس الا متابعة الحياة من حيث عاقتها غفوة اجتماعية ، ومواصلة النماء من حيث وقفته عوامل الجمود وليس يستبين المجدد طريقه ولا يدرى من أين يبدأ جهاده ، الا اذا استجلى تاريخ مايعانى تنميته ، وعرف كيف ومن أين بدأت حياته ؟ ومتى ، ولم وقف به الجمود ؟ فاذا ما تبين المجدد طريق غده بتجارب أمسه ، عرف مايدع وما يأخذ ، واذ ذاك ينفى ويثبت عن بصيرة ، ويبتر مظاهر الجمود فى هدى وثقة كالطبيب كشفت له الأشعة عن دبيب العلة .

أما اذا مضى برغبة فى التجديد مبهمة ، وتقدم بجهالة للماضى وغفلة عنه ، يهدم ويحطم ، ويشمئز ويتهكم ، فذلكم - وقيتم شره - تبديد لا تجديد ".

بهذه المقدمة الصغيرة وضع الشيخ أمين قاعدة للتجديد ، فليس التجديد فوضى ولا انطلاقا من لا شيء ، ولكن - كما قال الشيخ الخولى وردد اكثر من مرة - أول التجديد قتل القديم فهما" فأصدق عمل المجدد أن يعرف أن وراءه تاريخا يستطيع أن يتعلم منه أشياء كثيرة ، ولذا رأيت أن أتصفح اليوم جانبا من التاريخ الأدبى بالبحث فى علاقة البلاغة العربية بالفلسفة ، وما لتلك فيها من أثر .

---

(١) القى هذا البحث فى الجمعية الجغرافية الملكية مساء ١٩٣١/٣/١٩ ثم نشر فى كتاب مناهج تجديد ص ١٤٣ - ١٧٦ .

وربما يكون تاريخ البلاغة قد تنوول ، لكن لم يتصد فيه لدرس هذه النقطة درسا وافيا مع مالها من الأهمية الكبرى فى فهم مابأيدينا من كتب البلاغة ونقدها . واذا كان للموضوع بالفلسفة صلة فانى أنتصح بنصيحة شيخ الفلاسفة سقراط التى كان يوجهها دائما الى طلبته مهيبا بهم أن " حددوا الالفاظ التى تستعملونها " وكذلك أفعل ".

ماهى الفلسفة : أما الفلسفة " فليست الا البحث الحر العميق ، ولا حاجة بى الى أكثر من هذا فى تعريفها ، والانسان وهو سيد الكون المنقب عن المعرفة قد كان موضع ذلك البحث من حيث عقله وشعوره ، وعواطفه وارادته ، فتوزعت البحث فى هذا فروع الفلسفة ، وكان المنطق ، والجمال ، والنفس ، والأخلاق ، وغيرها من الفروع ".

ماهى البلاغة : " وأما البلاغة فما هى - بايجاز - الا درس فن القول ، والبحث عن الجمال فيه ، كيف ، وبم يكون ؟ .

تلك هى الفلسفة والبلاغة بتحديد قصير .

الصلة بين البلاغة والفلسفة : يرى الخولى أن الصلة بين البلاغة والفلسفة صلة متينة اذ الجمال موضع العناية لكل منهما . فالفلسفة تحاول " فى بحثها عن الجمال أن تتعرف ماهو ؟ وكيف يحسه الانسان ويقع من نفسه ، وأى طرق أداء الانسان لهذا الشعور بالجمال أدق ؟ وكيف يترجم عن احساسه به ؟ وبم يقتدر على هذا الأداء وتلك الترجمة حتى يكون فنا حقيقيا صادقا . وهاتيك الابحاث الفلسفية كلها قريبة من البلاغة التى هى درس لفن الترجمة عن الاحساس بواسطة القول ، وبحث فى جمال الكلام . وبهذا نجد بين الفلسفة والبلاغة صلة ذاتية دائمة ، لها فى البلاغة أثرها .

البلاغة التي نبحث فيها: "الا أننا انما نبحث عن بلاغة قوم بعينهم ، لها زمانها ولها مكانها ، ولها ظروفها الخاصة . نبحث عن تلك البلاغة ذات العلوم الثلاثة — المعاني والبيان والبديع — المتداولة على النمط المعروف لنا المشتهر بيننا . نبحث عن تأثرها بفلسفة أولئك القوم في زمانهم وبيئتهم ، وملابسات حياتهم ، وفي هذا البحث لا يكفي القول بتلك الصلة العامة التي بين حقيقة الفلسفة وحقيقة البلاغة ".

حقيقة الفلسفة العربية : " والفلسفة العربية . أو بعبارة أدق فيما نريده . الفلسفة الاسلامية انما هي — كما نعرف — بناء أجنبي الدعامة ، أجنبي المادة الى حد ما . أسس بعد العناية بالترجمة والاطلاع على ثمار العقول في الحضارات التي سبقت المدنية الاسلامية ، ولا سيما الحضارة الاغريقية . . . فكان بين الفلسفة والدين ما كان من جذب ودفع ، استعان فيه رجال الدين بأسلحة الفلسفة نفسها فاقتبسوا المنطق وتمثلوه ، واعتمدوا عليه في أبحاثهم الاعتقادية ، وعرضوا لمسائل الفلسفة ومشاكلها على اختلافها . . . فقامت حركة فلسفية كلامية ، واتسعت حتى كان أكبر مدارس الفلسفة الاسلامية المدارس الكلامية . وهكذا صار أظهر الفلسفة في الاسلام كلاما . واستحال علم الكلام فلسفة ، حتى سار القول وشاع بأنه لا يجترئ على الخوض في علم الكلام الا فلسفي أو متفلسف . ومن هنا يتبين أننا حينما نقول : ان البلاغة قد تأثرت بالكلام ، لا نكون الا مقدرين أنها قد تأثرت بالفلسفة . . . وعلى ضوء هذا الايضاح نبحث عن أثر تلك الفلسفة الاسلامية في بلاغة اللغة العربية . . وأول ظاهرة سطحية نلمحها من الصلة بين الفلسفة والبلاغة هي :

أننا نرى البلاغة فى جميع أدوارها قد عاشت فى كنف رجال الفلسفة وتحت رعايتهم ، وجمهرة الاقلام التى خدمتها أقلام فلاسفة أو متفلسفين ، ولم يكد ذلك يتخلف فى عصر ما .

ففى دور نشأتها وتكونها نرى من رجالها سهل بن هارون المتوفى سنة ٢٢٠ هـ كان حكيما يتعاطى الفلسفة ، وأبا عثمان عمرو بن بحر الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ كان حكيما قرأ كتب الفلاسفة من اليونان والفرس والروم والهند ، وكان رأس فرقة فى الاعتزال نسبت اليه فسميت الجاحظية ، كما نجد قدامة بن جعفر المتوفى أواخر القرن الثالث الهجرى — أو أوائل الرابع — كان أحد الفلاسفة وممن يشار اليهم فى المنطق . . . . ثم نرى عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجانى المتوفى سنة ٤٧١ هـ كان متكلما على مذهب الأشعرى ، والزمخشرى الذى يقول أشياخنا عنه وعن صنوه السكاكى : " لولا الاعرجان لذهبت بلاغة القرآن " فالأعرج الأول أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشرى المتوفى سنة ٥٣٨ هـ . كان متكلما معتزليا قويا فى مذهبه مجاهرا به ، والأعرج الثانى هو أبو يعقوب يوسف بن أبى بكر محمد بن على السكاكى المتوفى سنة ٦٢٦ هـ . كان له النصيب الوافر فى علم الكلام .

ثم يبدأ دور التلخيص والشرح ، فالحواشى والتقارير ، فنرى من رجاله : العضد الايجى عبد الرحمن بن احمد المتوفى سنة ٧٥٦ هـ . كان اماما فى المعقولات ، له فى علم الكلام كتاب " المواقف " المشهور وغيره . ونجد السعد سعد الدين مسعود عمر التفتازانى المتوفى سنة ٧٩٢ هـ . صاحب الكتاب الظافر فى شرح التلخيص ، كان متكلما منطقيا له شرح العقائد ، والمقاصد فى الكلام ، وله شرح الشمسية فى المنطق . والسيد الشريف الجرجانى المتوفى سنة ٨١٦ كان نظارا فارسا فى البحث والجدل متكلما فيلسوفا له شرح حكمة العين ، وشرح كتاب المواقف فى الكلام .

كما نجد البسطامي والفناري والعصام وحفيده والسيالكوتي وغيرهم من أصحاب الشروح والحواشي ، والتعاليق في البلاغة لهذا الدور كلهم متكلمون ، بارعون في المعقول ، متفلسفون ، لهم في ذلك أكثر كثيرا مما لهم من الآثار في البلاغة . وكأن البلاغة كانت وديعة في يد المتفلسفين على مر الدهر ". والواقع أن الاستاذ الخولي قد لفت أنظارنا بشكل مثير ، ووضع أيدينا على أمر خطير ، ذلك هو وقوع بلاغتنا الحبيبة فريسة في يد الفلاسفة وعلماء الكلام ، فأغرقوها في البحث والجدل ، وحولوها من علم جميل ، يعلم الجمال ، ويطبعه في النفس ، ويمتع العقل والقلب والحس ، الى علم يثير الغثاء والصداع ، وينفر العقول والاسماع ويضيق به الدارسون ، وينفض عنه الراغبون ، بعد أن يخيب فيه أملهم ، وتضيق به صدورهم وعقولهم .

آثار الفلسفة في البلاغة : " هذه ظاهرة بدائية سطحية من صلة الفلسفة بالبلاغة ، وقد كان لها ولا شك أثرها في اشراب كتب البلاغة أبحاث الفلسفة اشرابا واضح الأثر فيما بأيدينا منها . نرى النزعة الجدلية تسيطر عليها حتى لتكاد تخرجها تماما عن الغرض الأدبي : فترتيب الابواب في تلك المؤلفات فلسفي ، وتنظيم مسائلها لعلل فلسفية ، وبيان المعاني البلاغية من خواص التراكيب وطرق الدلالة وأوجه الحسن فلسفي ..... ولعلنا لو جردنا ما في مختصر شرح السعد للتلخيص من هذا لخرجنا بموجز في الفلسفة له قيمته . أما اذا تتبعنا ما في الحواشي والتعاليق منه فانا ظافرون بمجموعة فلسفية وافية .....

وقد جارت تلك النزعة الفلسفية على الناحية الأدبية جورا تحسه حين تراهم فى المواطن الأدبية الحقيقية يدمجون القول ويجملون ، ان لم يفسدوا المعنى الأدبى ويشتطوا فى البعد عنه ...

تلك ظاهرة سطحية وجدناها فيما ذكرنا من تولى رجال الفلسفة التأليف فى البلاغة وغلبتهم فى هذا الميدان. لكن ليس ذلك كل ما نريد أن نقوله من أثر الفلسفة فى البلاغة ، ولا هو جوهره ، وانما هو أيسره وأظهر مايقع التنبيه اليه . ولو أمعنا النظر ومضينا فى التقصى لوجدنا تأثر البلاغة بالفلسفة وفروعها من المنطق والكلام قويا بعيد المدى فى نواح متعددة :

(١) قويا باديا فى نشأة البلاغة وظهورها .

(٢) قويا فى تطورها وسير دراستها .

(٣) قويا فى ضبط أبحاثها وتحديد دائرة درسها .

(٤) قويا فى تعيين غرضها وغايتها . وهذا ماتتولى بيانه نقطة نقطة ، ومسألة مسألة ، ثم نعود آخر الأمر فنعرض بنظرة شاملة لما كان لذلك التأثير من عائدة على البلاغة ، وماجر عليها من نفع أو ضرر " [1] ويذهب الأستاذ الخولى يستقصى هذه النقاط الأربع ، ويتحدث عنها بتفصيل ، ويسوق الحجج والبراهين ، وكنت أود أن أعرض البحث فى هذه النقاط الأربع كاملا لما فيها من حقائق ولفتات دقيقة جيدة [2] .

ولكنى أجتزئ منها أهم الحقائق واللفتات .

---

(١) مناهج تجديد ص ١٤٣ - ١٤٩ بتصرف .

(٢) انظر البحث فى هذه النقاط الأربع فى كتاب مناهج تجديد ص ١٤٩ - ١٧٥ .

(١) الفلسفة ونشأة البلاغة :

نجد للفلسفة تأثيرا فى نشأة البلاغة من جهتين :

أ - جهة منطقية أو فلسفية عامة .

ب - جهة كلامية أو فلسفية اسلامية خاصة .

فأما الجهة المنطقية فذلك : أن القوم أيام عنايتهم بالفلسفة قد ترجموا منطق أرسطو على أنه ثمانية كتب هى :

١ - المقولات : أو كما عربوا اسمها اليونانى " قاطيغورياس "

٢ - العبارة : أو القضايا التصديقية وأصنافها .

٣ - القياس : وصور انتاجه أو " أنالوطيقا الأولى "

٤ - البرهان : أو القياس من حيث مادته وهو " أنالوطيقا الثانية "

٥ - الجدل : أو طوبيقا .

٦ - السفسطة : أو سوفسطيا .

٧ - الخطابة : أو ريطوريقا .

٨ - الشعر : أو بويطيقا .

ووقف الخولى عند القسمين السابع والثامن وهما : الخطابة والشعر . وبين مابينهما وبين مابأيدينا من أبحاث بلاغتنا من صلات كثيرة .

وأما الناحية الثانية من نواحى تأثير الفلسفة فى البلاغة ، ناحية تأثير الفلسفة الخاصة أو الكلام ، فقد كان بعمل مباشر للمتكلمين أنفسهم ولفلسفتهم فى الميدان البلاغى ، كان بعناية لهم خاصة وجهوها الى تناول الابحاث البلاغية وخلق المصطلحات فيها .

ولقد أشار ابن تيمية فى كتابه الايمان الى هذا التأثير حينما تكلم عن منشأ اصطلاح البلغاء على كلمة المجاز ما عبارته : " .... وانما هذا اصطلاح حادث ، والغالب أنه كان من جهة المعتزلة ونحوهم من المتكلمين "

(٢) الفلسفة وتدرج البلاغة : أوسير دراستها فى عصر تكوينها .

وهنا نجد كذلك حظ الفلسفة قويا ، فروحها مازالت مسيطرة على درس البلاغة ، والتوسع فى أبحاثها مازال يجرى أكثر ما يجرى على رسوم بحث الفلسفة . وذلك أن هذا البحث قد اتجه اتجاهين مختلفين . فكانت هناك طريقتان لدراسة البلاغة ، لكل واحدة منهما مزاياها وخواصها وهاتان الطريقتان هما :

أ - طريقة المتكلمين   ب - طريقة الأدباء

فأما الطريقة الأولى فتمتاز بخاصة أهلها المتكلمين فى الجدل والمناقشة والتحديد اللفظى ، والعناية بالتعريف الصحيح ، والقاعدة المقررة ، والاقلال من الشواهد الأدبية ، وعدم العناية بالناحية الفنية فى خصائص التراكيب وتقدير المعانى الأدبية ، واستعمال المقاييس الحكمية الفلسفية المعتمدة على قواعد منطقية ، أو نظريات خلقية ، أو مقررات طبيعية فى الحكم الأدبى دون نظر الى معانى الجمال وقضايا الذوق . ونرى هذه الطريقة جلية فى نقد الشعر لقدامة حين يتكلم عن المديح فينظر الى مذهب أفلاطون فى أصول الفضائل الأربع وأمهاتها : من الحكمة والعفة والشجاعة والعدل ، ويرى أن القاصد لمدح الرجال بهذه الخصال مصيب ، والقاصد الى مدحهم بغيرها مخطئ .

وأما الطريقة الثانية وهى طريقة الأدباء فى درس البلاغة فتمتاز بالاكثار المسرف من الشواهد الأدبية نثرها وشعرها ، والاقلال من البحث فى التعارف والقواعد والاقسام ، وتعتمد فى النقد الأدبى على الذوق الفنى وحاسة الجمال أكثر من اعتمادها على تصحيح الاقسام وسلامة النظر المنطقى ولا ترجع فى ذلك الى أصول الفلسفة من خلفيات وغيرها .

ونرى هذا فى مثل كتابة أبى هلال العسكرى فى الصناعتين ، يسوق فى المقام الواحد عشرات الأمثلة والشواهد من القرآن والحديث وكلام العرب نثرا وشعرا ، ويعتمد فى النقد الأدبى على الذوق .

هذا وقد تحدثنا فى مكان سابق عن هاتين المدرستين حديثا وافيا وما يهمنى هنا هو أن أنقل رأى الخولى فى المدرسة الكلامية وأثرها ، فهو يرى أننا لو رحنا ننظر استبقاء المدرسين طوال حياة البلاغة لوجدنا أن المدرسة الكلامية كانت أوفر حظا عند المتقدمين ، كما أنها كانت الأرجح كفة عند المتأخرين ، ثم الغالبة المنفردة فى النهاية . ولا نرى إلا لمعا يسيرة من روح المدرسة الأدبية فى مثل كتابة أبى الفتح ضياء الدين بن الأثير فى كتابه " المثل السائر " أوغيره .

(٣) الفلسفة ومدى بحث البلاغة : أو تحديد دائرة بحثها . وقد رأينا فيما سلف تأثير المنطق فى نشأة البلاغة ، وفى طريقة درسها . وهنا نرى هذه الصلة تزداد توثقا وقوة ، فيكون للمنطق أثره الظاهر فى تحديد دائرة بحثها . هنا نرى السكاكى حين يؤلف كتاب (مفتاح العلوم) فى العلوم الأدبية يردف علوم البلاغة بالبحث المنطقى فى الحد والاستدلال ، معللا ذلك بقوله : " .. لما كان تمام علم المعانى بعلمى الحد والاستدلال لم أر بدا من التسمح بهما " . كما نرى مؤلفا آخر من أهل عصره هو القاضى زين الدين أبو عبد الله التنوخى أحد رجال القرن السابع الهجرى حين يؤلف كتابه " الاقصى القريب فى علم البيان "[1] يعتبر القواعد المنطقية فى القضايا وأنواعها مقدمات ضرورية للبحث البيانى ، ضرورة الأبحاث اللغوية والنحوية له ، فيقول فى مقدمته " ألفت هذا المختصر مبتدئا فيه بما يجب تقديمه من القواعد المنطقية ومعانى الأدوات العربية .. "

---

(١) مطبوع بمصر سنة ١٣٢٧ هـ .

ويندفع فى الكلام عن العلم وأقسامه والقضايا وأنواعها كلاما غير قصير ملخصا فيه من المنطق الشئ الكثير ثم يعتذر عن عدم الأسهاب والشرح وفى هذين المثالين ترى المنطق يحيط ببحث البلاغة وينزل ضيفا غير محتشم فى أول كتبها وآخرها : بل مازال بها حتى اعتبرت ميزانا مثله فوضحها السكاكى فى المفتاح بأنها " علم معيارى يحترز بالوقوف عليه من الخطأ فى مطابقة الكلام لتمام المراد منه "[1] . . . وهكذا تقفى بحث البلاغة على خطى بحث المنطق وجرى فى مضماره ويكاد لا يعدوه وترى ذلك بينا فيما يأتى :

تبدأ البلاغة ـ على آخر نظام لها ـ بالبحث فى المفردات وخصائصها وهو علم المعانى . ثم البحث فى المركبات ودلالتها وهو علم البيان . ثم تحسين ثانوى وهو علم البديع . وفى هذا كله لم يتعد البحث دائرة الجملة التى رأوها نظيرة القضية .

أما وراء بحث الجملة فلا تجد شيئا ، بل أن الأبحاث التى كان المرجو لها أن تتجاوز الجملة قد ردت اليها وألزمت حدودها فقط . فالبحث فى الايجاز والاطناب والمساواة مثلا كان يصح فيه النظر الى غرض الأديب كله وكيف تناوله ؟ وهل أسهب فى ذلك أو أوجز ؟ وقد رأينا فى أبحاث خطابة أرسطو السابقة بحث الايجاز والاطناب فى الجمل وفى الأسلوب. لكنهم لم ينظروا من ذلك الا الى الجملة أو ماهو كالجملة ، وراحوا يفاضلون بين جملة " القتل أنفى للقتل " وجملة " فى القصاص حياة " بعدد حروفها .

---

(١) المفتاح ص ٧٠ طبعة مصر سنه ١٣١٨ هـ

فهذا التضييق فى دائرة بحث البلاغة أثر تسويتها بالاستدلال ، ورجعها الى المنطق ، وأخذها بنظامه بعد ما اشتدت الصلة بينهما ، وزاد عليها ضغطه .

(٤) الفلسفة وغاية البلاغة : وفى هذا لا نعجب اذا رأينا البلاغة التى كانت تلك نشأتها التى سمعت ،وهذا نظام درسها الذى رأيت، وتلك حدود بحثها كما علمت ، لا تنتهى الا الى غرض كلامى اعتقادى ، أعنى الى غرض فلسفى خاص . وكذلك كان الأمر منذ العهد الأول ، ففى الطليعة رأينا عمرو بن عبيد يجعلها أداة لتقرير حجة الله فى عقول المتكلمين رغبة فى سرعة استجابتهم ونفى الشواغل عن قلوبهم. كما رأينا فى ذلك رجال المدرسة الأدبية كأبى هلال يصرح بأن البلاغة انما تدرس لأن اغفالها يؤدى الى عدم وقوع العلم باعجاز القرآن على وجه استدلالى تعليلى . . . كما نرى صاحب الطراز يقصر الغرض من البلاغة على مسألة الاعجاز فقط - كما نراه يعقد لبحث الاعجاز فصلا خاصا متمما لدرس البلاغة ويبدأ هذا الفصل بلوم المؤلفين فى البلاغة ممن لم يفرقوا الموضوع بالبحث مع أنه الغرض المقصود . . .

وهكذا مضى القوم على أن الغرض من البلاغة والغاية منها انما هى معرفة الاعجاز .

هل استفادت البلاغة من الفلسفة :

بعد أن بين الأستاذ الخولى نواحى التأثير المختلفة - عامة وخاصة - على البلاغة يجيب عن هذا السؤال فيقول :

أما عن تأثر البلاغة بالفلسفة فى نشأتها ، فذلك أمر له ما بعده ، وقد ظهر أثره الحقيقى بما تلاه من أدوار حياة البلاغة ، فقد عملت هذه الصلة بلا شك فى تكوين البلاغة وظهورها لما أمدتها به من أبحاث واصطلاحات وعناية رجال ،فكانت تلك ناحية الاستفادة ان عددناها .

ومن ناحية أخرى نرى أن هذه النشأة قد تركت فى البلاغة استعدادا للاتصال بالفلسفة فيما بعد ذلك من أيامها ، ففى طور التكون والدراسة رأينا المدرستين اللتين تولتا بحث البلاغة ، المدرسة الكلامية والمدرسة الأدبية ، وميزة كل واحدة منها وانتهاء الأمر بغلبة النزعة الفلسفية وظهور آثارها واضحة فى البلاغة ، وهنا نرى البلاغة وهى البحث فى الحسن القولى ـ ولهذا الغرض نفسه التمسها الكلاميون ـ نراها قد بعدت عن البحث فى هذا الحسن القولى ، أو قل تولته على نحو غير مبين له ، اذ تركت الاعتماد فى ذلك على الميزان الوحيد له ، والقياس الفرد فيه وهو الذوق الوجدانى واعتمدت على قضايا العقل ، وقياسات المنطق .

أبحاث ضرورية للبلاغة :

كان من أثر الفلسفة فى تحدد البلاغة وقصور بحثها أن حرمتها من أبحاث ضرورية للفن الأدبى ، ضرورية لصناع القول من الكتاب والشعراء ، ضرورية لجعلها بحثا فى الحسن القولى مؤديا ثمرته ، أبحاث نراها فى بلاغات اللغات الحية ويجب أن نتناولها بالدرس لنحقق وجود المدرسة الأدبية .

ومن تلك الأبحاث : البحث فى الأسلوب واختلافه ، وأوجه تفاوته ، ومزايا أنواعه المختلفة .

ومن ذلك : البحث فيما وراء المعنى الجزئى ـ تشبيه أو استعارة أو كناية ـ من معنى كلى وغرض يقصد اليه الأديب ، وكيف يرسم له صورة كاملة ، يراعى تناسب أجزائها وصلة تلك الأجزاء ، وكيف يبرز كل جزء من هذه الأجزاء ، فتكون وحدة درسنا القصيدة الكاملة ، أو القطعة النثرية بتمامها ، لا البيت المفرد ، والفقرة الواحدة .

ومن ذلك : البحث فى ايجاد المعانى كيف يكون ؟ وفى ترتيبها كيف يتم ؟ وفيما يناسب كل فن منها ومالا يناسب .

ومن ذلك : البحث فى فنون القول الأدبى نثرية وشعرية ، ودرسها فنا فنا ، وبيان مابه قوام كل فن منها وحسنه ، ومايلائمه من المعانى والتشبيهات والاستعارات والكنايات ومالا يلائم .

ومن ذلك : البحث فى فنون جديدة خلقتها الحياة بعد الرسائل والمقامات ، كالبحث فى المقالة التى هى أروج فنون القول النثرى مثلا . ولا تنسى الفن القصصى الذى طغى على الفنون الأدبية الأخرى ، وحرم منه أدبنا ، ولابد لأبنائنا الطامحين اليه بمعرفة أصوله ومناحى الحسن فيه .

ونحن فى الحق لسنا مبتدعين فى ذلك تماما بل نجد نواة مثل هذه الأبحاث فى الدراسة البلاغية القديمة ، كالذى كتبه الجاحظ فى بيانه عن صحة المعانى وفسادها ، ومناسبتها للسامعين كما نجد طرفا صالحا من ذلك الجديد المرجو فى نقد قدامة حين يتكلم عن نعت الوصف ، ونعت الهجاء ، ونعت الرثاء ، ونعت المديح ، ونعت التشبيه وما الى ذلك ، لكن فى اجمال وايجاز لم يتناوله أحد بعده بالبسط الى اليوم لكساد المدرسة الأدبية وسيطرة النزعة الجدلية وانتهاء البحث فى البلاغة الى ضروب من الخلاف والمناقشة تعقد لها مجالس المناظرة ، ويقعد لها المحكمون بين السعد التفتازانى والسيد الشريف ، حين يتناظران فى اجتماع الاستعارة التبعية والتمثيلية وعدم اجتماعهما (١) كأنهما يتناظران فى مشكل من أصول القوانين أو معضل من مسائل الفلسفة الى أن ينهزم السعد فيموت رحمه الله كمدا ، ضحية الفلسفة الزائفة فى

---

(١) هى مناظرة مشهورة جرت فى بلاط تيمورلنك سنة ٧٩١ هـ . اذ كان السيد قد اتصل بتيمور ، وارتحل معه الى ماوراء النهر . واشتغل بالتدريس هناك .

البلاغة المظلومة ولو أنه ليس آخر ضحايا هذه الفلسفة .

ويتوجه الأستاذ الخولى الى أبناء اللغة ودارسيها قائلا : " وانى لآمل أن يخرج قسم اللغة العربية بالجامعة المصرية أبحاثا ناضجة فى تلك الموضوعات التى أشرت اليها . . . حتى يكون للبلاغة أثرها فى فهم الجيد والردئ ، وصنع الجيد ، وتعود دراستها على صناع القول بالفائدة ، بل يحيى ذلك فى هذا البلد الناهض فنونا جديدة من الأدب ".(١) ويذهب الخولى بعد ذلك يتحدث عن أثر الفلسفة أو البلاغة الفلسفية فى الاعجاز ، ومانال البلاغة من قصر الفلسفة الكلامية اياها على بيان الاعجاز .

وهو حديث ليس بالقصير رأينا تأجيل عرضه الى الفصل الذى سنسوقه فى الباب الخامس عن قضية الاعجاز .

ثم يقول أخيرا : " ان البلاغة تتمنى أن لو لم يكن لها بالفلسفة تلك العلاقات السابقة . وحبذا لو لم يكن لها الا تلك العلاقة العامة التى أشرنا اليها أول المحاضرة ، وهى عناية الفلسفة والبلاغة بالجمال فتعمل البلاغة العمل الصادق فى درس الجمال القولى . . . وعلى هذا البيان والتحرير يجب أن نؤيد المدرسة الفنية ، ونؤثل تلك الابحاث الجديدة التى أشرت اليها من قبل ، ونهجر المدرسة العلمية فى دراسة البلاغة . ونمضى فى كل ذلك التجديد بقدم ثابتة لا نخشى خطرا ما لأنه : تجديد تاريخى وطيد الدعائم ". (٢)

خاتمة :

وفى نهاية هذا البحث القيم يضع الأستاذ الخولى خاتمة يلخص فيها القضايا التاريخية والقضايا الاصلاحية التى وردت فى هذا البحث بغرض الحث على تجديد البلاغة فيقول :

---

(١) مناهج تجديد ص ١٧٢ .

(٢) المرجع السابق ص ١٧٥ .

* أحببت أن أضع بين يدى معلمى البلاغة ومتعلميها فى أنحاء العالم العربى المختلفة مافى ذلك البحث من قضايا تاريخية وتجديدية ، بعبارات موجزة ، لفتا لأنظارهم اليها ، وحثالهم على نقدها واعمال الفكر فيها ، حتى اذا بدت لهم صحتها عملوا متكاتفين على تجديد درس البلاغة العربية انعاشا للأدب العربى ونقده ، وسعيا الى أن يجد فيه شباب الأقطار العربية طلبته الفنيـة ، وحاجته الوجدانية ، فلايصد عنه ويرميه بالجفاف والجمود ، وستجد فى هذه الخلاصة فهرسة علمية للموضوع : ـ

القضايا التاريخية :

(١) كانت جمهرة الذين تولوا البحث فى البلاغة على اختلاف العصور فلاسفة أو متفلسفين ، وكان لذلك أثره الظاهر فى كتبها .

(٢) قضايا مؤرخى الآداب العصريين فى تاريخ البلاغة قاصرة تارة وغير صحيحة

(٣) علم المنطق وعلم الكلام هما أهم العوامل فى نشأة البلاغة ، وقد أشار القدماء الى ذلك ، ولو أنها اشارة يسيرة .

(٤) للقدماء فى درس البلاغة طريقتان: كلامية وأدبية ، ولكل طريقة مزاياها ، وكتبها ، ورجالها .

(٥) نظرة تاريخية قصيرة فى نصيب كل مدرسة من الكتب والرجال ترينا غلبة المدرسة الكلامية وتفوقها .

(٦) صلة الفلسفة ـ ولاسيما المنطق ـ بعلم البلاغة قد سببت ضيق دائرة بحثها ، وحرمتها من أبحاث ضرورية .

(٧) صلة الفلسفة ـ ولاسيما علم الكلام ـ قد جعلت الغاية منها كلامية .

القضايا الاصلاحية :

(١) الدرس التاريخى يهدينا الى تجديد نطمئن اليه ، ونثق أن لاتبديد فيه

(٢) فى دراسة البلاغة بكتبها الأخيرة تقصير أدبى ودينى .

(٣) يجب ابعاد الطريقة الكلامية ـ أو العلمية ـ فى درس البلاغة ، واحياء الطريقة الأدبية وتنميتها .

(٤) مانحتاج اليه من الأبحاث الجديدة التى يجب ادخالها فى بلاغتنا .

هذا هو عرض سريع لهذا البحث القيم الذى يعتبر به الأستاذ الخولى من أوائل الدعاة الى تجديد البلاغة .

وهو يتفق معنا فى مفهومنا عن التجديد ، وهو أن نتناول بلاغتنا القديمة فنخلصها من دائها ـ ولكل قديم داؤه ـ ثم نضيف اليها مايقويها ويرد جمالها ورواءها ، ثم نكسوها أحدث الحلل وأبهاها حتى تصبح فى العصر الحديث فتنة للناظرين .

البلاغة وعلم النفس

بعد بحث البلاغة والفلسفة بثماني سنوات طالع الأستاذ الخولي بهذا البحث داعيا فيه الى تجديد البلاغة عن طريق امدادها بعلم النفس وارتكازها عليه في التحليل والتعليل . وقد بدأ البحث بخلاصة (١) صغيرة يقول فيها :

١ - عاودت وأعاود البحث في مسائل مفردة من البلاغة وتاريخها ، لأن حاجتنا العلمية اليوم انما هي الأبحاث الضيقة العميقة ، لا الواسعة الشاملة .

٢ - اتصلت البلاغة قديما بعلم النفس اتصالا وثيقا ، ولو لم يلمح القدماء هذه الصلة ، أو يرتبوا عليها أثرها .

٣ - نظرتنا المحدثة في صلة الأدب بالحياة ، وفي أثر الخبرة النفسية على العمل الفني ودقته ، تقضي علينا بأن نوثق أصل البلاغة - بل دراسات الأدب جميعا - بعلم النفس .

٤ - ومن سبيل ذلك أن نروض المتأدبين على المشاهد النفسية ،وأن نجعل من مقدمات البلاغة مقدمة نفسية خاصة ، وأن نثقف المتأدب " بعلم النفس الأدبي ".

٥ - لهذا الوصل الوثيق بين البلاغة وعلم النفس أثر قوي في اصلاح الحياة الأدبية ، وفي اصلاح دراسة البلاغة ، وفي تغيير الآراء في مسائل أدبية سياسية كاعجاز القرآن وتعليله ، ثم في تغيير أساس نظرنا في تفسير القرآن .

ولحكمة ما وربما من باب التجديد جعل الأستاذ الخولي هذه الخلاصة في مكان المقدمة من هذا البحث فخرج بذلك على التقليد الأدبي من جعل المقدمة في البداية ، والخلاصة في النهاية .

---

(١) مناهج تجديد ص ١٣٧ - ٢١٥ بتصرف .

صلة قديمة :

تحت هذا العنوان ذهب الأستاذ الخولى يتحدث عن صلة علم النفس بالفلسفة ، وصلته بالبلاغة وقدم هذه الصلة يقول :

" حينما تحدثت منذ أعوام عن البلاغة العربية وأثر الفلسفة فيها اكتفيت فى بيان الفلسفة بأنها : البحث الحر العميق فى هذا الكون كما اقتصرت فى بيان البلاغة على أنها : فن القول ، والبحث عن الجمال فيه ، كيف وبم يكون ؟ .

وقد كان من الفلسفة قديما - ولا يزال على اتصال بها حديثا - ذلك الفرع الذى يتولى دراسة المظاهر والخصائص المعنوية ، أو العقلية ، أو الروحية فى الانسان ، فيتولى شرح الاحساس والرغبات والانفعالات والميول والنزوع الانسانى ، وما الى ذلك من المظاهر الحيوية غير المادية فاذا مانظرنا النظرة الأولى الى البلاغة ، على هدى ذلك البيان القريب لها ، وجدنا محاولتها الفنية فى القول ليست الا تتبعا لمواقع رضا النفس ، وعناية بالتأثير فيها . ومن هنا تتصل بعلم النفس ، وتحتاج فى دراستها اليه . لكن ليس على هذا البيان الساذج وحده يقوم اتصال البلاغة بعلم النفس ، بل يتضح ذلك الاتصال بالنظر الدقيق ...

فالقدماء قسموا البلاغة الى تلك الفنون الثلاثة : المعانى والبيان والبديع ، ووضعوا لها أقساما وأبوابا ، ودونوا لها الأصول والقواعد ، وهم فى ذلك انما يعرفون بلاغة الكلام بأنها : مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته ...

ويشرحون هذا المقتضى بأنه : الاعتبار المناسب الذى يلاحظ . ويتحدثون عن انكار السامع لما يلقى اليه ، أو موافقته عليه ، أو خلو ذهنه . ويفرقون بين الذكى والغبى والمعاند ، كما يتكلمون عن رغبات المتكلم واتجاه نفسه لما يتحدث عنه من حب أو كره ، وتلذذ أو تألم ، وما لكل ذلك من أثر فى القول ....

وليس هذا فقط مظهر وصلهم البلاغة بالابحاث النفسية عندهم ، بل هم يعرضون لذلك كثيرا حين يتحدثون خلال أبواب البلاغة عن الأحوال النفسية وما تقتضيه ، وما يلائمها من مظاهر كلامية ، وخصائص أسلوبية ، اذ تراهم يخالفون بين أضرب الخبر باختلاف حال المخاطب ، ويتحدثون عما يلزم في كل ضرب من وسائل التقوية والتأكيد .

وهم يتكلمون عن الأمزجة الانسانية في الفصائل البشرية المختلفة ، وأثرها في صوغ العبارات ، فيفرقون بين المولدين والعرب ، ويرون أن بناء الكلام للمزاج العربي يخالف بناءه للمزاج الدخيل المستعرب كما في قصة بشار المشهورة عن بيته ، الشاهد المعروف :

بكرا صاحبي قبل الهجير   ان ذاك النجاح في التبكير

وقول خلف الأحمر له : لو قلت يا أبا معاذ ، مكان ان ذاك النجاح " بكرا فالنجاح " كان أحسن ، واجابة بشار له بقوله : انما بنيتها أعرابية وحشية ، فقلت ان ذاك النجاح ، كما يقول الأعراب البدويون ، ولو قلت بكرا فالنجاح ، كان هذا من كلام المولدين ، ولا يشبه ذلك الكلام ، ولا يدخل في معنى القصيدة .

والأقدمون هم الذين نسمعهم يتحدثون عن التخييل ولعبه بالنفس وعن التخييل حتى ليغلط المرء حسه .

وهم الذين يذكرون الابهام والوهم ويشرحونهما مبينين أثرهما في القول . وهم الذين يذكرون الغيرة وفعلها في النفس ، وأثرها في اخفاء أشياء ، وحذف أشياء عند القول .

وهم الذين يتحدثون عن التشويق وطلب الاصغاء ، ومواضع ذلك ووسائله ، والطرق القولية المثيرة له ، وعن الطمع والرغبة الملحة ، والاطماع والايئاس ، وعن السرور بخلف الظن ، وما الى ذلك .

وهم الذين شرحوا - فى اطالة - تنادى المعانى ، وأنواع الترابط بينها ، فيما يبينونه من جامع وهمى أو خيالى أو عقلى ، وحقائق تلك الحركات النفسية وفرق مابينها فى تعمق ، الى غير ذلك من مظاهر الاعتماد القوى على الخبرة بالنفس الانسانية ، اعتمادا يدل على العلاقة الوثيقة بين البلاغة وعلم النفس ، مع طالبلاغتهم تلك من ناحية فنية ضيقة المدى ، وناحية علمية فلسفية شديدة التركب والتعقد .

ولكنى رغم هذا الاتصال الوطيد بين البلاغة والنفس ، لم أر من القدماء من لمح هذا الارتباط فيما لمحوا من صلة البلاغة بمختلف العلوم والأبحاث ، مع أن علم النفس كان من معارفهم ، وبين أقسام فلسفتهم ".(١)

الفن والفلسفة :

وتحت هذا العنوان راح الأستاذ الخولى يشير الى بحثه السابق عن البلاغة والفلسفة ، وأن " الفن القولى تصله بالفلسفة وشائج قوية ، وقرابة متينة ، اذ الفن والفلسفة يخدمان معا فكرة الجمال والجميل" وأن "الفلسفة تعد الجمال شطرا من درسها الانسانى ، وتشعر أنها حين تتولى العقل بالدرس ، وتنظر فى منطقه ، لابد أن تتولى الوجدان الانسانى بالتعرف ، وتنظر فى موازينه ومقاييسه ، ومكان الجمال من الحياة البشرية "

" وان الفلسفة لتعد الجمال غاية من غايات الحياة الكاملة ، الخليقة بأن تنعت بأنها حياة انسانية ، حين يخلق الفن على اختلاف أساليبه من ناطقة وصامتة ، صور ذلك الجمال ومظاهره ومثله التى تحقق تلك الغاية الفلسفية " .

" وبتأثير هذه الفلسفة وذاك الفن تمس النفوس الراقية تلك الحياة المادية العاطلة من المستشرف الطامح ، وتزاولها مزاولة الانسان المترفع ،

---

(١) انظر مناهج تجديد ص ١٨٢ - ١٨٥ بتصرف .

الواسع الأفق ، الذى يدرك معنى الكرامة البشرية ، فيجد فى توفيرها ويحلم بحياة راغدة راقية ، يجاهد لتحقيقها بالعلم تارة وبالعمل طورا . وكذلك كان الفن والفلسفة عاملين قويين فى انهاض الأمم واثارة العناصر الحية الطامحة فيها . . . ويتلاقى الفن والفلسفة معا فى العمل لذلك ، حين تجد الفلسفة فى فهم الانسان ، وتفرد له منها قسطا برأسه ، وهو مالا يزال ينعت : بالفلسفة الانسانية وليست العبقرية الفنية فى أى صورة من صورها الا البصر بخفايا الحس البشرى ، والاقتدار على الاتصال بالوجدان ، ومداخلة العاطفة ، ومسايرة الأمل ، والتحليق مع الخيال ، والوقوع على مواطن الهوى ، ومكامن الرغبة ، التى احتوت النفس منها أسرارا باهرة ، وقوى رائعة " .

" وعلى هذا الأساس من علاقة الفن بالنفس الانسانية تظهر صلة الأدب بالنفس ، وتتجلى قوة تلك الصلة . واذا ما قلت الأدب فلا يخالن مشتبه أنى جاوزت حد عنوانى ، أو عدوت ما اليه قصدت ، من حديث عن البلاغة ، فان البلاغة من بين العلوم الأدبية هى روح الأدب ، والأدب مادتها ، تعلم صنعه ، وتبصر بنقده ، ولن تعدو البلاغة ذلك عند القدماء والمحدثين "

" فاذا ماتسامى الفن القولى فاتصل بالفلسفة ، وعمق فزادت بالنفس خبرته ، ودق فأفصح عن همسات الوجدان حديثه ، كان على البلاغة أن تقدر ذلك له ، وتمهد طريقه اليه ، وتعينه على الابداع فيه . اذ هى كما أسلفنا تعلم صنع ذلك ، أو تنقده وتقدره " . (١)

وهكذا ربط الأستاذ الخولى بين البلاغة وكل من الفلسفة الانسانية وعلم النفس ، ورأى أن هذا الربط يجب أن يكون واضحا عند تحديد البلاغة .

---

(١) المرجع السابق ص ١٨٩ - ١٩١ بتصرف .

مقدمة نفسية :

يرى الاستاذ الخولى أن البلاغة ـ وهذا مكانها فى الدراسة الادبية ـ قد انتهت الينا فى حال باعدت بينها وبين الروح الفنية وأشاعت فى أوصالها جفافا وذبولا ، وكستها خشونة وغبرة ، نفرت من درسها ، وعوقت عن الجدوى منه . وقد تعالت دعوتنا ودعوة الأدباء الى اصلاحها ، فاذا ما أردنا أن نخلصها من ذلك كله ، فأول العمل فى هذا السبيل أن نقيمها على ماتعتمد عليه الفنون الرفيعة كلها ، وما هو أصل أول فيها ، وما ذلك الأصل الا الاصل النفسى ".

و " الذى نريده من عمل المؤدبين فى سبيل هذه الغاية ، هو أن توثق الصلة بين ذلك الفن القولى ، والخبرة بالنفس ، ويدعم الأساس النفسى للفن ، وهذا فى درس البلاغة بخاصة ، بأن تقدم بين يدى الدرس البلاغى : مقدمة نفسية : هى أمس به والزم له مما اقتبس من أبحاث أصولية أو منطقية أو فلسفة طبيعية وغيرها مما أقحم فيه ، وحفلت به كتبه ، من أمثال أبحاث المقولات المختلفة فى تعاريف الفنون البلاغية ، وأبحاث الدلالات أول درس البيان ، وأبحاث المنطق وقضاياه فى النفى والاثبات والتوكيد من علم المعانى ، وأبحاث الفلسفة المختلفة فى الألوان والطعوم والماهيات والحقائق والنسب والصلات من درس التشبيه والفصل والوصل وغيرهما مما مضى القول فيه عند الحديث عن أثر الفلسفة فى البلاغة ".

ويعرض الخولى للمقدمة النفسية التى اقترحها ورآها أصلح من الابحاث فى المقولات والدلالات والمقدمات الأخرى ، ويصفها وصفا اجماليا ويرى : " أن تدرس فى هذه المقدمة القوى الانسانية بعامة ، وماله منها أثر فنى بخاصة ، فنعرف غير قليل عن الوجدان وعلاقته بمظاهر الشعور الأخرى من ناحية عمله الفنى .

ونعرف مثل ذلك عن الخيال ، والذاكرة ، والاحساس وعن الـذوق الذى طال ويطول التحدث عنه فى البلاغة ، بل فى سائر الفنون جميعا . كما يجب أن نعرف الكثير عن أمهات الخوالج الانسانية من حب وبغض وحزن وفرح وغيرة وانتقام ، وما الى ذلك مما هو مادة المعانى الأدبية الكبرى فى الآداب الانسانية كلها ، وعلى الخبرة بحركات النفس فيه واتجاهاتها ، يقوم النقد الفنى ذو الأساس ، بل ان البصر بذلك هو مادة النبوغ الفذ ، وسبيل خلود الآثار الأدبية للمنشئين والناقدين .

ثم نريد لندرك المعانى النفسية فى الشعور بالجمال ، والتأثر به ، وتقديره ، ليكون قولنا فى ذلك ، حينما نصنع مثله ،أوننقده قولا معتمدا على غير اللمحة الخاطفة ، والملاحظة السطحية ،والهاجس الطائر ، وبهذا لا يكون فننا لعبا بالألفاظ ، ولا خواطر متناثرة ، ولا رعاية لمشاكلات سطحية ، أو التماسات متكلفة ، كما لا يكون نقدنا فارغا معادا ، نضعه فى كل بيت ، ونلبسه لكل قصيدة ، بل يكون فننا عميقا مغذيا للروح ، محدثا عما تجده النفوس القوية الشديدة الاحساس ، فيسحرها أن تسمعه ، ويفتنها أن يترجم عنها أصدق ما استطاعت ، كما يكون نقدنا وزنا مقاييسه حقيقية اختبارية ، وتقديرات دقيقة ، تبتعثها خبرة لا يدعيها كل أفاق ، ولا يصطنعها كل عاطل ، ولا ينتحلها كل من قعدت به الهمة عن الجد فى الحياة ممن نشهدهم يطئون أسواق الأدب ونواديه ، ويختلسون صفة الناقد والمنشىء " .

" ولعله اذا ما استقر هذا فى نفوس من يزاولون الأدب ، ونفوس من يستمتعون به ، نستطيع القضاء على المنحط من صنوف القول الادبى "

" وما ان أشك فى أنه كلما اشتد وصلنا للأدب بالبيئة النفسية والجو الانسانى الحقيقى ، خلصنا من كثير ، بل من أكثر الآفات التى نشكو اعتداءها على الأدب ، وحياتها المتطفلة عليه ، وافسادها لأثره وحطها من قيمته . وحسبنا ذلك مغنما ، لو كان هو كل مانخرج به ". (١)

آثار هذه الصلة فى اصلاح البلاغة :

تحت هذا العنوان راح الأستاذ الخولى بتأييد من تلك المعرفة النفسية ينظر فى الاعتبارات البلاغية " لنقبل منها ما نقبل على أساس واضح ونرفض منها مانرفض عن فكرة صحيحة ، فنخلص دراسة البلاغة من تلك التعليلات الركيكة المزيفة ، التى لم تعتمد الا على نظر عقلى بعيد عن روح الفن ، أو قد اعتمدت من ذلك على باطل لا صحة له ، ولا قوة فيه ، كما نفهم بذلك مانبقى من تلك الاعتبارات ، فهما ذا عائدة على الذوق والتكوين الأدبى . . . والى القارئ من ذلك أمثلة يتبين فيها ما نقول :

نحن نقرأ - مثلا - فى بيان ميزة الأسلوب المعروف عندهم باسم " تأكيد المدح بما يشبه الذم " قولهم : ان سبب ذلك أن هذا الأسلوب كدعوى الشئ ببينة ، ويفسرون ذلك بأن القائل علق نقيض المدعى وهو اثبات شىء من العيب بالمحال ، فعدم العيب محقق .

كما نقرأ لهم وجها آخر لميزة هذا الأسلوب هو " أن الأصل فى مطلق الاستثناء الاتصال ، فذكر أداته قبل ذكر المستثنى يوهم اخراج شىء مما قبلها ، فاذا ما أوليت الأداة صفة مدح ، وتحول الاستثناء من الاتصال الى الانقطاع جاء التأكيد ، لما فيه من المدح على المدح ، والاشعار بأنه لم يجد صفة ذم يستثنيها ". (٢)

---

(١) المرجع السابق ص ١٩٢ - ١٩٥ بتصرف .

(٢) مواهب الفتاح للمغربى ج ٢ من شروح التلخيص ص ٣٨٩

هذا ما يقولونه ، ولو رجعنا الى أنفسنا لوجدنا أن التعليل الأول بالدعوى والدليل عليها ، تعليل فيه الغموض والابهام . . وفيه فوق ذلك أن الشعور بمعنى الاستدلال ، أو وجدان أثره فى الاثبات لا يلمح منه شىء فى نظم الكلام ، فلا يزال السامع يجد دعاوى مرسلة لم يتأيد منها شىء بشىء ، وما زعموه من أثر البيئة وتقوية الدعوى لا وجود له ، ولا يتبادر الى النفس من فعله أثر .

وليس التعليل النحوى الآخر بأحسن حظا من سابقه " الفقهى " فهذا الذى يذكرونه من الاتصال والانقطاع اعتباران نحويان ، لا يحسن المرء تذكرهما أو ملاحظة الفرق بينهما حينما يسمع هذا الاسلوب ، وليس كل من يجد أثر هذا الأسلوب فى نفسه قد درس الاتصال والانقطاع فى الاستثناء ، بل لعل معرفة المرء لهذا الاتصال والانقطاع يضعف معها شعوره بميزة هذا الأسلوب . ثم هم أنفسهم قد عد بعضهم فى هذا الوجه من التعليل تمحلا [1] . كما لاحظوا أن التعليل الأول انما أفاد التأكيد بأمر تخييلى .

ولعل السر النفسى لذلك فيما يظهر ، هو فى هذا الأسلوب من معنى المباغتة والمفاجأة التى تكسبه طرافة ، وتثير حوله تنبها . وسواء أكانت هذه الطرافة تقوم على اتصال الاستثناء أو يتحول معها منقطعا ، فان المباغتة هى الأصل ، لا ملاحظة الاستثناء وحالته .

وقد نجد آخر قولهم فى هذا المقام لمحة كخفق البرق نستخرج منها هذا المعنى النفسى ، لشعورنا به لا للفت عبارتهم اليه ، وتلك اللمحة هى قولهم : " تأكد المدح لكونه مدحا على مدح ، وان كان فيه نوع من الخلابة " . فما أحوج هذه الخلابة الى البيان ، لأنها روح التعليل ، وسر الحياة فى الأسلوب " .

---

(١) المرجع السابق .

ويعرض الأستاذ الخولي مثالا آخر كشاهد على صدق قوله وصحة رأيه : " ومن ذلك مثلا أنا نسمعهم يقولون " أطبق البلغاء على أن المجاز أبلغ من الحقيقة ، وأن الاستعارة أبلغ من التصريح بالتشبيه ، وأن التمثيل على سبيل الاستعارة أبلغ من التمثيل لا على سبيل الاستعارة وأن الكناية أبلغ من الافصاح بالذكر ".

يقولون هذا ثم لا يعللون شيئا منه كله الا بالفكرة السابقة فى تأكيد المدح بما يشبه الذم من قولهم : انه كدعوى الشىء ببينة ، ويعودون الى الاستدلال والتلازم ، والانفكاك ... الخ .

وشهد الله وأولوا الفن ، أن ليس شئ من ذلك الاستدلال ، ولا تلك البينة ولا هاتيكم الشهادة ، قد مر بخاطر القائل ، أو السامع ، أووجدته نفس أدبية ... ولعل الاعتبارات النفسية فى تداعى المعانى ، وتجاذب الصور ، ونحو هذا ، مما يكشف حسن هذه التعابير ، ويحسم ناحية القوة فيها دون برهان ولا ادعاء ، ولا مقاضاة أو احتجاج .

وكم انطوت كتب البلاغة على سخيف النكات التى لا تزاحم ، والتى هى ضرب من فكاهة الفقهاء ، ودعابة النفوس الراكدة ، وليست فى أصلها الا فروضا ذهنية ، واحتمالات عقلية لا غير ، قد نبههم اليها وأغراهم بمثلها طول إلفهم لهذه الفروض ، وتلك الاحتمالات البعيدة عن واقع الحياة ، ونضرة الفن ... ... ثم راحوا بهذا الفقر النفسى ، والجدب الوجدانى ، يعللون حسن التعابير ، وقوة الأساليب ، ويتبينون خصائصها ووجه حسنها ، فلم يكن من وراء ذلك الا ماحفلت به الكتب من سقيم الملاحظة ، وسمج النكتة التى يلمحها ، بل يتكلفها محدود الأفق ، قد بعد مابينه وبين الوجدان ، بقدر ماباعد بينه وبين الحياة الحافلة الشاعرة . ولا سبيل الى استئصال ذلك من الكتب فى هداية وتوفيق الا بالملاحظة النفسية الدقيقة الصادقة ".[1]

---

(١) مناهج تجديد ص ١٩٦ - ١٩٩ بتصرف .

وانتقل الأستاذ الخولى بعد ذلك فى بحثه هذا الى الحديث عن الاعجاز النفسى وهو حديث نختزنه ونحتفظ به للفصل الذى سيأتى قريبا فى " قضية الاعجاز ".

رد العمارى :

ويبدو أن بعض العلماء غضبوا من الأستاذ الخولى لتهجمه على القدماء واتهامهم بالقصور والتقصير والفقر النفسى ، فانبرى الدكتور العمارى يرد على الخولى هجومه وينقد بحثه . وقد بدأ بقوله :

" لعل علوم البلاغة أقل علوم العربية نصيبا من جهود الباحثين المعاصرين ، ولعلها كذلك أحوج هذه العلوم الى التجديد والتهذيب ولكننا نستطيع ان نقول - فى غير غض من عمل أحد - : ان الابحاث التى طالعنا بها هذا العصر فى هذه العلوم دون ماكنا نأمل من علمائه الأعلام .

ولقد شاع فى رسائل المعاصرين النعى على علماء البلاغة ورميهم بالجهل والتقصير أحيانا ، وهذه طريق لا تؤدى الى الغاية ، ولوأنهم اذ هدموا بنوا لكان الأمل قويا فى أن نظفر بشىء ، ومن حق أسلافنا علينا أن نزود عنهم ، وندفع ما يلحق بهم من ظلم وجمود ".(1)

ثم بدأ العمارى يعلق على بحث الخولى :

" قرأت رسالة للأستاذ الشيخ أمين الخولى المدرس بجامعة فؤاد الأول عنوانها :(البلاغة وعلم النفس) ، تحدث فيها عن صلة قديمة بين الابحاث البلاغية ومظاهر النفس الانسانية ، ولكنه نعى على الأسلاف أنهم لم يربطوا بينهما على أن علم النفس علم من العلوم (مع أنه كان من معارفهم) ورأى أن هذا الربط ضرورى فى الدرس وفى غير الدرس ...".

---

(1) نقلنا هذا المقال عن مخطوطة لمجموعة مقالات فى البلاغة بعنوان (قضايا بلاغية) د . العمارى ص ٦٨ .

وبعد أن يستعرض العماري رسالة الخولي بايجاز يعود ليرد " على هذين المثالين الوحيدين اللذين اعتمد عليهما الخولي في رسالته ، وادعى فيهما أن القدامى وقفوا عند تعليلات جافة ركيكة ، ولم ينظروا فيهما الى الأمر النفسي قط . وسنرى أن ماوصمهم به ليس صحيحا ، وأن ماذكر أنه وصل اليه هو هو الذى ذكره علماؤنا الأجلاء . قال : (نحن نقرأ مثلا في بيان ميزة الأسلوب المعروف عندهم باسم تأكيد المدح بما يشبه الذم قولهم : ان سبب ذلك أن هذا الأسلوب كدعوى الشيء ببينة ، ويفسرون ذلك بأن القائل علق نقيض المدعى وهو اثبات شيء من العيب بالمحال ... ... (الى أن يقول) :

ولعل السر النفسي لذلك فيما يظهر هو مافي هذا الأسلوب من معنى المباغتة والمفاجأة التي تكسبه طرافة وتثير حوله تنبها) .

وبعد أن عرض د . العماري المثال الأول ، والتعقيب عليه بأن السر النفسي فيه انما هو المباغتة والمفاجأة ، يرد على الخولي ذلك فيقول : " والذى نلاحظه هنا :

١ - أن المفاجأة التي تمدح بأنه وصل اليها انما مأتاها انقطاع الاستثناء ، وذلك أن النفس حين تسمع أول الكلام تنتظر أن يجيء آخره أليفا لأوله ، ويستقر فيها اطمئنان لذلك ، فاذا انقطع الاستثناء فوجئت بما لا تتوقعه .

٢ - أنهم ذكروا لهذا علة نفسية ، قال في المطول بعد أن ذكر التعليلين السابقين " مع مافيه من الخلابة وتأخيذ للقلوب " وفي هذه الكلمة الأخيرة (تأخيذ للقلوب) كل الرد على الباحث الفاضل المجدد .

ويلتفت د . العماري الى المثال الثاني فيقول :

أما المثال الثاني فحيث يقول : (ومن ذلك مثلا أنا نسمعهم يقولون أطبق البلغاء على أن المجاز أبلغ من الحقيقة ، وأن الاستعارة أبلغ من التصريح بالتشبيه ... الخ ثم يعللون شيئا من ذلك كله الا بالفكرة السابقة من تأكيد المدح بما يشبه الذم من قولهم : انه كدعوى الشيء ببينة) .

ولعلنا نقف طويلا متعجبين من جرأة أستاذ فى الجامعة ، ورئيس طائفة تدعى التجديد فى علوم البلاغة ، حين نعلم أن صاحب الصناعتين عقد فصلا للموازنة بين الحقيقة والمجاز ، ذكر فيه أكثر من أربعين مثالا ، وعلل لكل مثال بعلة ، وليس تأكيد المدح بما يشبه الذم واحدا من هذه العلل ، وأنه فى أول الفصل علل تعليلا عاما بأمر نفسى فقال :

" وفضل هذه الاستعارة وما شاكلها على الحقيقة أنها تفعل فى نفس السامع مالا تفعل الحقيقة " . فكيف يسوغ بعد هذا الأستاذ أمين فى العلم أن يطرح بهذا كله ليقول ان علماءنا لم يعرفوا تعليلا نفسيا واحدا وهل يرى أن الباحث لا يكون بارعا مجلاما الا اذا ادعى أن الأوائل لم يتنبهوا لما وصل اليه ؟ .

ويذهب د . العمارى بعد ذلك يعرض أمثلة أخرى للدلالة على أن أسلافنا كثيرا ماراعوا الأمور النفسية فى البلاغة ولم يقتصروا على تعليلات ركيكة جافة . ومن ذلك : ما كتبه ناشر كتاب " أسرار البلاغة " فى مقدمته (ينبغى لقارئ هذا الكتاب وصنوه دلائل الاعجاز أن يتأمل حق التأمل ما انفرد به الامام عبد القاهر من جعله علوم البلاغة - البيان والمعانى والبديع - من قبيل العلوم الطبيعية ، كعلم النفس ، وعلم الأخلاق ، وعلم الفلسفة العقلية ، لا مجرد مواصفات واصطلاحات . . .) . ثم يقول: وهذا كلام صريح فى أن علماءنا تنبهوا لهذا الذى أراد الأستاذ أن ينبهنا اليه ، بل جعلوه أصلا تؤلف فى ضوئه الكتب .

ويسوق د . العمارى شاهدا آخر للامام عبد القاهر فيقول :" قال الشيخ عبد القاهر يعلل بأمر نفسى هذا الامر الذى ادعى الاستاذ أنهم لم يذكروا له تعليلا نفسيا :

" وان أردت اعتبار ذلك - يعنى تأثير التمثيل فى النفس - فى الفن الذى هو أكرم واشرف - يقصد فن الوعظ - فقارن بين أن تقول : ان الذى يعظ ولا يتعظ يضر نفسه من حيث ينفع غيره . . وبين أن تذكر المثل على ماجاء فى الخبر من أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

مثل الذى يعلم الخير ولا يعمل به مثل السراج الذى يضىء للناس ويحرق نفسه ... الخ .

فأما القول فى العلة والسبب ، ولما كان من مثيل هذا التأثير وبيان جهته ومأتاه وما الذى أوجبه واقتضاه فغيرها ...

واذا بحثنا عن ذلك وجدنا له أسبابا وعللا كل منها يقتضى أن يفخم المعنى بالتمثيل وينبل ويشرف ويكرم ، فأول ذلك وأظهره أن أنس النفوس موقوف على أن تخرجها من خفى الى جلى ، وتأتيها بصريح بعد مكنى ، وأن تردها فى الشىء تعلمها اياه الى شىء آخر هى بشأنه أعلم ، وثقتها به فى المعرفة أحكم ، نحو أن تنقلها من العقل الى الاحساس ، وعما يعلم بالفكر الى ما يعلم بالاضطرار والطبع ، لأن العلم المستفاد من طرق الحواس أو المركوز فيها من جهة الطبع وعلى حد الضرورة يفضل المستفاد من جهة النظر والفكر فى القوة والاستحكام ، وبلوغ الثقة فيه غاية التمام كما قالوا " ليس الخبر كالمعاينة ولا الظن كاليقين " فلهذا يحصل بهذا العلم هذا الأنس أعنى الأنس من جهة الاستحكام والقوة ... " .

وفى آخر المقال يقول :

وبعد : فنحن لا يكفينا من معاصرينا أن يثلبوا الأقدمين ، وينوهوا بقصورهم وتقصيرهم ، ولكننا نريد أن يخرجوا لنا قواعد جديدة على الوضع الذى يريدونه ، وحينئذ نقول : انهم استدركوا على سابقيهم وأفادوا علوم البلاغة . أما أن نسمع ونقرأ أن البلاغة معقدة وأن النحو قاصر وأنه كان يجب أن يدرك الأقدمون صلة البلاغة بعلم النفس ، وصلتها بالفلسفة ، ثم لا نسمع ولا نقرأ غير هذا .

وما أحسن قول الشاعر :

تقولون أخطأنا فهاتوا صوابكم   وكونوا بناة قبل أن تهدموا الصرحا

والآن يحق لنا أن نتساءل :

هل هذه النزعة النفسية فى فهم الأدب ونقده وليدة العصر الحديث؟

وهل هناك خطر من التوسع فى استخدام البلاغة لعلم النفس ؟

أجاب على هذين السؤالين الأستاذ سيد قطب فى كتابه : النقد الأدبى - أصوله ومناهجه .

أما عن السؤال الأول فقد قال : " ربما يبدو أن النزعة النفسية فى فهم الأدب ونقده وليدة العصر الحديث ، وأنها وافدة علينا من الغرب حيث نمت الدراسات النفسية ، وبخاصة التحليلية ، نموا عظيما فى هذا القرن الأخير ، وأن الأدب العربى لم يعرف هذه النزعة من قبل .

وفى هذا الذى يبدو للنظارة المجلى صواب وخطأ يحسن تمييزهما :

ان استخدام علم النفس وما وصلت اليه الدراسات فيه من نظريات مرسومة ، وقواعد محدودة ، وطرائق خاصة لفهم الأدب ونقده ، هى أشياء مستحدثة بلا جدال ، والذين حاولوا أن ينتفعوا بها قد استمدوها من الغرب فعلا ، ولم يكن لها على هذا الوضع أصول فى ثقافتنا الأدبية العربية .

وأما تدخل الملاحظة النفسية بصفة عامة فى فهم الأدب ونقده فهى أقدم من ذلك كثيرا فى الأدب العربى ، لأنها عاصرته منذ صدر الاسلام ان لم يكن قبل ذلك ، وتمشت معه فى نموه حتى بدت فى هيئة قواعد ونظريات على يد عبد القاهر الجرجانى فى القرن الخامس الهجرى . ثم وقفت هناك . . وحقيقة أنها حين وجدت فى نقدنا الحديث لم يكن وجودها استئنافا لتلك الخطوات البعيدة ، انما كان ذلك ابتداء واستمدادا من الغرب . . . ولكن قد آن الأوان أن نلتفت الى هذه الجذور الأولى ولو من وجهة التسجيل والتسلسل التاريخى ".[1]

وأما عن السؤال الثانى فقد قال : " هناك خطر نلمحه من التوسع فى استخدام ذلك العلم - علم النفس - وهو أن يستحيل النقد الأدبى تحليلا نفسيا ، وأن يختنق الأدب فى هذا الجو

---

(١) النقد الأدبى - سيد قطب - ص ٢٠٠

فمن الواضح أن العمل الفنى الردىء كالعمل الجيد من ناحية الدلالة النفسية ، كلاهما يصلح شاهدا ، فاذا استحال النقد الأدبى الى دراسات تحليلية نفسية لم نتبين قيمة الجودة الفنية الكاملة ، لأن المجال لا يتسع للانتباه اليها وفرزها وتقدير قيمتها كما فى المنهج الفنى . وذلك خطر غير مباشر قد لا يلتفت اليه فى أول الامر ، ولكنه يؤدى الى توارى القيم الفنية ، وانغمارها فى لجة التحليلات النفسية .

وشىء شبيه بهذا قد وقع فى كتب البلاغة بعد عبد القاهر ، فقد كان المتبع فى أيامه أن تختلط قواعد البلاغة بالنقد الفنى ، وأن يستشهد على القاعدة البلاغية بالنصوص ، ثم تنقد هذه النصوص نقدا فنيا يبين الجمال والقبح فيها . وهذا هو المنهج الصحيح . ولكن البلاغة بعد ذلك استقلت على يد السكاكى وأمثاله فصارت القاعدة هى المقصودة أولا وأخيرا ، والقاعدة تثبت بالمثال الجيد كما تثبت بالمثال الردىء ، وعلى هذا أصبحت كتب البلاغة عند المتأخرين معرضا لنماذج فى غاية السخف والرداءة ، تذكر على أنها أمثلة لقواعد البلاغة ، ففسد الذوق فسادا عظيما" (١)

هذا هو رأى الاستاذ سيد قطب ، لكن الدكتور محمد خلف الله يرى أن علم النفس والأدب متداخلان بالضرورة تداخلا كبيرا وأن " اتصال النفس بالادب لم يجئ من علماء النفس وحدهم ، بل من رجال البحث الأدبى أيضا . فقد نظر هؤلاء فوجدوا ثروة من المعلومات ، ونتائج من الدرس تحمل طابع العلم الصحيح ، قد وضعت بين أيديهم ، ووجدوا أنهم أنفسهم وهم رجال الأدب لا يفتئون فى تاريخهم الطويل يتكلمون عن الخيال فى تقليده واختراعه ، وعن العاطفة فى صدقها وباطلها واضطرابها وهدوئها ، وعن الشخصية وظهورها أو عدم ظهورها فى القصيدة أو الكتاب وعن الرجل وصورته فى الأسلوب ، وعن القريحة وأثرها فى تصوير الأفكار ، وعن الحس وقوته فى ضروب التشبيه والمجاز ، وعن الذهن وجبروته فى الغوص على عميق المعانى ، وعن الشاعر وبيئته ،

---

(١) المصدر السابق - ص ١٩٧ .

وعن الكاتب وما حلل فى رواياته من مختلف عقد الحياة ، وعن أسباب أجادة هذا الشاعر فى فن ما ، وذلك فى فن آخر ، وعن الأحوال والظروف التى مربها منشئ الأدب وما كان لها من أثر فى نوع أسلوبه الكتابى ، ولهجة خطابته ، ونوع أوزانه وقوافيه "(١) .

ونحن نرى أن علم النفس على أهميته فى التحليل والتعليل لا يصح أن يطغى على مادة البلاغة ودراستها ، فما هو الا تمهيد لدراسة البلاغة ، والتمهيد لا يجوز أن يطغى على الموضوع. ولهذا فنحن مع ميلنا الى استخدام علم النفس فى البلاغة واحلاله محل القضايا المنطقية والمسائل الكلامية اذ هو أقرب الى النفس وأبعد عن الجدل نرى أن علم النفس بالنسبة للبلاغة خادم لا سيد وتابع لا متبوع فهو موظف لها ومعين على فهم أسرارها . وعلى هذا فيجب أن يكون استخدامنا له فى حدود معينة فلا نتركه يطغى على مسائل البلاغة ويتفشى فى منهجها ويسيطر على مباحثها وتتحول البلاغة الى دراسات تحليلية نفسية .

هذا خطر محتمل " وقد نبهنا اليه الاستاذ سيد قطب فيما أوردناه له من نقد . ولا شك أن علم النفس أقرب وشيجة الى علم البلاغة من علم الكلام وقضايا المنطق وسيكون له أثر جميل وجديد فى دراسة البلاغة ولكن على المجددين أن يكونوا حذرين فيستخدمونه بقدر ويستعملونه فى حدود فالشىء ان زاد عن حده انقلب الى ضده

ولقد حدث ذلك من قبل عندما دخلت قضايا المنطق وعلم الكلام ساحة البلاغة فلم تلبث أن طغت وسيطرت وحولت دراسة البلاغة الى منطق وافتراضات وجدل وكلام . ونود مخلصين ألا يتكرر هذا الخطأ وألا يلدغ المؤمن من جحر مرتين .

---

(١) من مقال : بعض التيارات الفكرية التى أثرت فى دراسة الأدب - مجلة آداب اسكندرية - المجلد الأول سنه ١٩٤٣ ص ٨٠ - ٨٨ .

ثورة على علوم البلاغة

ألقى هذه المحاضرة الأستاذ عبد العزيز البشرى فى قاعة المحاضرات بالجامعة الأمريكية . وكانت هذه المحاضرة فيما يبدو صدى لما لمسه البشرى من عجز البلاغة العربية بعلومها الثلاثة عن صنع القول الجيد أو خلق الأديب البليغ .

وفى بداية المحاضرة(١) ذكر البشرى أنه قضى فى الأزهر بضع سنين يدرس الفقه والنحو والبلاغة فى كتبها المعروفة يومئذ لأهل الأزهر ، ثم راوده سؤال شغله وأهمه حتى كاد فى بعض الأحيان يطلق عليه مذاهب تفكيره ، وكان يخشى أن يظهره لزملائه وأساتذته حتى لا يرموه بالجهل المطبق بما يعلم الناس جميعا بدليل أن أحدا لم يراجع فيه من بين الطلاب جميعا . هذا السؤال هو أنه : مادامت للبلاغة علوم مقررة ومعارف واضحة وقواعد مفصلة وقضايا محدودة مرسومة ، فقد أصبح من اليسير على كل من يجيد علمها ويحذق فهمها أن يجىء بالبليغ من القول اذا نظم أو نثر ، بل لتهيأ له بأن يجىء بأبلغ الكلام ، بل بما ينتهى منه الى حدود الاعجاز . وماله لا يصنع وقواعد البلاغة تشير بأوضح الاشارة اليه ، وتدل بأفصح العبارة عليه . ماذا على المرء اذا أرسل الكلام أن يخرجه مطابقا لمقتضى الحال ، ويجريه على أحكام الفصل والوصل ، ولا ينحرف به عن مقتضيات الايجاز والاطناب والمساواة ؟ وهذه أحوال التشبيه بين يديه فما يمنعه أن يصوغ الكلام على غرارها ، ويترسم فيه أجلى آثارها ؟ ولكن الواقع يأبى مع الأسف الا أن يزعجه عن الاستراحة الى هذا الفكر القديم والمنطق السليم ، فهؤلاء متقدمو الطلاب الذين درسوا علوم البلاغة فى أفحل كتبها وأعلاها مكانا ، لا حظ لأكثرهم فى فصاحة لسان ولا نصاعة بيان . ومن هؤلاء طالب كوم زمران .

---

(١) نشرت بمجلة الهلال عدد يناير سنة ١٩٣٨ ص ٢٦٥ - ٢٧٥ .
كما نشرها فى كتابه (المختار) .

وقبل أن نسترسل مع البشرى فى قصة طالب كوم زمران أحب أن أقف لأجيب على تساؤل البشرى الذى حمله فى نفسه حينا من الدهر وخشى أن يبوح به وأنا أعجب كيف غاب عن بال البشرى أن البلاغة قبل كل شىء انما هى : ملكة وفطرة وسليقة ، وأن دراسة علوم البلاغة بدون ذلك لا تخرج بليغا ولا تصنع قولا ينتهى الى حدود الاعجاز . وأن كل ما نطمع فيه من هذه العلوم هو أن تمكن الدارسين من التمييز بين الجميل والقبيح والجيد والردىء من الكلام ، فيرتفعون بالأسلوب العربى ولا يهبطون ، ويسمون بالأدب ولا يسفلون . أما البلاغة والبلغاء فذلك وقف على أصحاب الملكات الذين صقلوها بالدراسة والمرانة والخبرة . وها لنا نذهب بعيدا ان معاهد الفنون المختلفة وبها طلاب كثيرون ودراستهم فى هذه المعاهد ترتكز على الناحية العملية التطبيقية ـ وهو ما ننادى به فى تدريس البلاغة ـ ومع ذلك فكم فنانا خرجت هذه المعاهد ؟ انهم لا يكادون يعدون على أصابع اليد الواحدة . ان جميع الذين تخرجوا من هذه المعاهد يعرفون الفن الذى تخصصوا فيه ويميزون جيده من رديئه ، هذا حق ، ولكن أن ينبغوا فى تخصصهم الفنى فهذا شىء آخر . وكم خرجت معاهد وكليات الموسيقا من أعداد ملأت الميدان الفنى بعشرات الفرق ؟ كلهم اشتغلوا بتدريس الموسيقى أو تفرغوا للعزف فى فرقهم وفى التليفزيون والاذاعة . لقد ملئوا فراغا وشغلوا حيزا من ميدان الفن . هذا حق . ولكن كم منهم نبغ واصبح (موسيقارا) يشار اليه بالبنان ؟

ونعود الى قصة طالب كوم زمران ـ هكذا سماه البشرى ـ هذا الطالب الذى جاور البشرى فى خزانة جوائجه بالأزهر . فبعد أن فرغ هذا الطالب من درس كتاب السعد دعا البشرى وزملاءه ليسمعهم قصيدة رائعة من نظمه يهجو بها أهل بلدة كوم زمران المجاورة لبلدته ، فاستووا بين يديه وقد أرهفوا الآذان ، وجددوا الأذهان ، وعلقوا الأنفاس ، حرصا على المتاع بما لا يظفر به عامة الناس .

أما مطلع القصيدة فهو بمشيئة الله تعالى :

دع كوم زمران كى تنجو من العلل ... وتستريح أخى من كثرة الزلل

ومنها :

ان جاء ضيفهم قبل العشاء اذن ... تراهم باغتى فى غاية الطلل

فالبخل يشتق منهم ماعلى أحد ... منهم ثياب سوى البالى من الحلل

مافيهم عاقل يا ابن الكرام فقد ... جنوا جميعا وقاك الله من خبل

أما تمام التمام ومسك الختام فهو :

ستون بيتا قريضا لا تزيد سوى ... بيت به قد سألت العفو عن زللى

ويقول البشرى : ان هذه القصيدة قد نبهته الى أن درس علوم البلاغة على هذه الصورة ليس من شأنه أن يعلم البلاغة أو يطبع على ناصع البيان ، ويرى البشرى : أن عجز البلاغة عن الاعانة على صنع القول البليغ داء قديم هدى ابن خلدون الى وجه الصواب فى علاجه العملى حين قال : " ان اكتساب القدرة الفنية انما يكون بالممارسة الأدبية . . " وان لم يشرح ذلك نظريا فيفصل بين العلم والفن .

هل البيان أول ما دون من علوم البلاغة :

مرة أخرى يتساءل البشرى - وهذه المرة - عن تدوين علوم البلاغة وأيها أسبق ، ويورد قول ابن خلدون : " ان السبب فى اطلاق البيان على الأصناف الثلاثة أنه أول ما تكلم فيه الأقدمون ، ثم تلاحقت مسائل الفن واحدة بعد أخرى . . . الخ " وأخذ يشرح كلام ابن خلدون بقوله : (أما أن البيان كان أسبق الفنون الثلاثة الى التدوين فذلك أن الامام اللغوى الجليل القدر أبا عبيدة المتوفى سنة ٢٠٩ هـ . قد وضع رسالة فى البحث عن : " المجاز فى غريب القرآن " ولا شك فى أن غرضه كان دينيا محضا فان تبين الحقيقة من المجاز مما تتأثر به بالضرورة أحكام الشرع الكريم ، فاذا صح أن تقصى هذه المجازات تقصيا جزئيا دون العناية بنظمها فى قواعد كلية يستخرج منها الأحكام العامة ،

اذا صح أن يدعى هذا تدوينا فى علم البيان ، فلا نزاع فى أن رسالة أبى عبيدة هذه هى أول ما دون لا فى علم البيان فحسب بل فى علوم البلاغة على الاطلاق) .(١)

وهذا لا شك قول غريب من الأستاذ البشرى ، فكيف لم يدرك أن أبا عبيدة فى رسالته لم يقصد المجاز المقابل للحقيقة ، بل كان يقصد به — على مذهب القدماء — معنى التعبير وما يدل عليه أسلوب الكلام ، فالمراد بالمجاز عند أبى عبيدة تفسير المعنى وبيانه لا غير .

يقول ابن تيمية : " وأول من عرف أنه تكلم بلفظ المجاز أبو عبيدة معمر بن المثنى فى كتابه ، ولكنه لم يعن بالمجاز ما هو قسيم الحقيقة ، وانما عنى بمجاز الآية ما يعبر به عن الآية ".(٢) ويظهر ذلك بوضوح فى فاتحة كتابه اذ يقول أبو عبيدة : قال الله جل ثناؤه : " ان علينا جمعه وقرآنه " مجازه تأليف بعضه الى بعض ، ثم قال : " فاذا قرآناه فاتبع قرآنه " مجازه : فاذا ألفنا منه شيئا فضممناه اليك فخذ به واعمل به وضمه اليك . ويقول أبو عبيدة فى قوله تعالى : " وأجل مسمى عنده " مقدم ومؤخر مجازه وعنده أجل مسمى أى وقت مؤقت.(٣)

وهكذا يتبين لنا خطأ البشرى فى فهم نص ابن خلدون وفى فهم رسالة أبى عبيدة . وعلى كل فان معنى المجاز قديما وأسبق علوم البلاغة التى التدوين ليس مهمتنا فى هذا البحث فنكتفى بما أوردنا .

ويذهب البشرى بعد ذلك يتحدث عن أثر الجاحظ وعبد القاهر والسكاكى فى البلاغة العربية ، ويقابل بين عبد القاهر وبين السكاكى وكتب المتأخرين

---

(١) ص ٢٦٨ من مجلة الهلال .
(٢) كتاب الايمان ص ٧٥ .
(٣) مجاز القرآن ص ١٨٥ ج ١ .

ويظهر اعجابه بمنهج عبد القاهر وكيف أنه " يعمد الى المسألة من مسائل العلم فيضفى بين يديها المقدمات ويسبغ المقال فى التعليل لها أيما اسباغ ، ولا يزال يتيامن بالقول ويتياسر ، ويضرب فى مجازات الكلام جيئة وذهوبا ، ولا يبرح يفصل المعانى تفصيلا ، ويلون الحجج تلوينا ، حتى اذا ظن أنه أوفى من ذلك على الغاية ووقع بقارئه على الصميم ، راح يورد الشاهد فى اثر الشاهد ، جاهدا فى شحذ فطنتك وارهاف ذوقك ، ليتهيأ له أن يتدسس بك الى أطواء الكلام ، فتجس ما أخفت من الدقائق جسا وتستشعر ما أضمرت من المحاسن ذوقا محسا ، وكل أولئك يصنعه فى عبارة جزلة فخمة ، ويجلوه فى ديباجة مشرقة اللفظ متلاحمة النسج ... "

ويرى البشرى أن فضل عبد القاهر على البحث البلاغى لا يظهر الا اذا وازنا بين منهجه ومنهج المتأخرين فى كتبهم البلاغية . ويروح البشرى يصف هذه الكتب أو بالأخرى يهاجمها ، وينعتها " بأن عبارتها معقدة ، وملاك البحث فيها انما هو الجدل اللفظى والاعتساف فى بحوث فلسفية لا غناء لها فى صنعة بيان . بل أن من يريد أن يتخلص من فصاحة اللسان فليس عليه أكثر من أن يدرس هذه الكتب حق درسها ، ويديم النظر فيها ، ويقلب فى عبارتها لسانه وفكره " .

ويتساءل البشرى بعد ذلك : أليس لهذه الكتب من فائدة ؟ ويجيب على تساؤله فيقول : نعم لها فوائد كثيرة منها : أنها تفسح فى الملكات العامة ، وتطبع الطالب على الصبر فى البحث والتحقيق ، وتعوده الا يسيغ قضية من القضايا الا بعد أن يحركها بألوان الاختبار والامتحان . ثم يقول : ليكن لها هذا ، وليكن لها غير هذا أيضا ، ولكنها لا يمكن أن تلقن علوم البلاغة على أى حال فضلا عن أن تذيق الطالب البلاغة نفسها ، أو تريحه ريحها ، اللهم الا أن تكون بلاغة من طراز :

د ع كوم زمران كي تنجو من العلل . . . . . . وتستريح أخى من كثرة الزلل وهذا - بالطبع - حكم عام من البشرى لأن هناك من الكتب مايعين على تذوق البلاغة مثل " المثل السائر " و " الطراز " ولكنها للأسف لم توضع موضع الدرس فى معهد من معاهد التعليم .

البلاغة بين العلم والفن :

وتحدث البشرى عن البلاغة بين العلم والفن " فالفن ابن الطبع والغريزة والملكة ، وانما يدعو الى انشائه ومعالجته الحاجة تبعثها ضرورة أو تبعث اليها مجرد الرغبة فى الترفيه والتلذيذ أما العلم فمهمته بعد ذلك الملاحظة والتقييد والتسجيل .

فالبلاغة باعتبارها فنا هى أثر الملكة ومظهر قدرتها من نظم شعر رائع أو ارسال نثر بديع . أما البلاغة باعتبارها علما فهى عبارة ماخرج بالاستقراء للاحساس والأذواق من دواعى الحسن والقبح فى فنون الكلام . فالعالم بالفن غير المفتن ، وطالب كوم زمران لنا أن نعتبره عالما وليس فنانا .

ومما لا شك فيه أن أظهر مايظهر فيه التطور بالاتساع هو الفن الجميل ، وذلك لأن مرده فى الغاية الى الأذواق ، والأذواق شديدة التأثير بالكثير من أسباب الحياة ، ومن أعلها حظ الجماعات من الحضارة والتثقيف . واذا كان الأمر كذلك بالنسبة لهذه الفنون ، فان البلاغة العربية باعتبارها فنا أولا ، وباعتبارها فنا جميلا ثانيا مما يجوز عليه التغيير والتلوين ، ومما يتقبل النمو بحكم اطراد التقدم فى أسباب الحضارة واتساع الأفهام ورهافة الأذواق باتساع آفاق العلوم والفنون " .

أثر تقدم الحضارة فى البلاغة :

ومن رأى البشرى أنه بسبب تقدم الحضارة واتساع آفاق العلوم قد فطن النقدة ومتذوقو الأدب الى ألوان من البلاغة فى مأثورالعربية

لم يحتفل لها متقدمو نقدة الكلام أى احتفال . ومن أظهر ما أغفلوا الحديث عنه بلاغة الصورة ، وبلاغة القصص وما يتضمن من بارع الجدل وروائع الحوار .

ومرة أخرى أعجب من الاستاذ البشرى كيف لم يدرك أن بلاغة الصورة قد تناولها عبد القاهر -ولو فى بعض الأحيان - نظريا وتطبيقيا . أما نظريا فقد قال - مثلا - فى دلائل الاعجاز أثناء حديثه عن مزايا النظم بحسب المعانى والاغراض .
قال : " وانما سبيل هذه المعانى سبيل الأصباغ التى تعمل منها الصورة والنقوش فكما أنك ترى الرجل قد تهدى فى الأصباغ التى عمل منها الصورة والنقش فى ثوبه الذى نسج الى ضرب من التخير والتدبر فى أنفس الأصباغ وفى مواقعها ومقاديرها وكيفية مزجه لها وترتيبه اياها الى مالم يتهد اليه صاحبه ، فجاء نقشه من أجل ذلك أعجب وصورته أغرب ، كذلك حال الشاعر والشاعر ... ...
ويقول بعد ذلك ، واعلم أن من الكلام ما أنت ترى المزية فى نظمه الحسن كالاجزاء من الصبغ تتلاحق وينضم بعضها الى بعض حتى تكثر فى العين ، فأنت لذلك لا تكبر شأن صاحبه ، ولا تقضى له بالحذق والأستاذية وسعة الذرع ، وشدة المنة ، حتى تستوفى القطعة وتأتى على عدة أبيات وذلك ما كان من الشعر فى طبقة ما أنشدتك من أبيات البحترى "(١)

وأما عمليا فاننا نجد ذلك فى بعض تطبيقات عبد القاهر على نظرية النظم من ذلك - مثلا - قوله : وهل تشك اذا فكرت فى قوله تعالى : " وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى وغيض الماء وقضى الامر واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين " فتجلى لك منها الاعجاز ، ويبهرك الذى ترى وتسمع ، أنك لم تجد ما وجدت من المزية

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٧٠

الظاهرة ، والفضيلة الباهرة ، الا لأمر يرجع الى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض ، وأنه لم يعرض لها الحسن والشرف الا من حيث لاقت الأولى بالثانية والثالثة بالرابعة ؟ وهكذا ، الى أن تستقريها الى آخرها ، وأن الفضل تناتج ما بينها ، وحصل من مجموعها"(١)

وفى هذا يقول د. نايل : ان عبد القاهر قد " تناول القصيدة كوحدة وتناولها صورة وجملة فأبان عن ترابط أجزائها وترتيب عناصرها وتلاؤم معانيها كما نفعل نحن الآن تماما فى تحليل النص وبيان ترابطه فى وحدة عضوية ".(٢)

وأقول : ان أستاذى الدكتور نايل قد غالى بعض الشئ فى قوله هذا فان عبد القاهر لم يتناول القصيدة - كوحدة ، وان تناولها - أحيانا - صورة وجملة ، ولكن ليس كما نفعل نحن الآن تماما فى تحليل النص ، حيث ظهرت فى الدراسات الأدبية الحديثة (الوحدة العضوية)(٣) ومالها من خصائص ومواصفات ، وحيث أصبحت الصورة الأدبية فصلا يدرس وموضوعا له أهميته .

وأيضا فان عبد القاهر لم يشر الى الصورة الا اشارات خفيفة عابرة فى ثنايا حديثه عن تحقيق القول فى الفصاحة والبلاغة وعن مزايا النظم بحسب المعانى والأغراض ونحو ذلك ، ولم يفرد لها بابا ، ولا فصلا ، ولا حتى موضوعا خاصا يدور الحديث حوله ويرتكز عليه . ولا ذنب للامام عبد القاهر فى ذلك ، فعصره غير عصرنا ومن الظلم له أن نطلب منه فى عصره ما جد فى عصرنا ويكفى أن عبد القاهر أشار فى بعض حديثه الى الصورة وتناولها فى بعض المواقف.

---

(١) المرجع السابق ص ٣٦ ، ٣٧ .
(٢) نظرية العلاقات ص٤٨ .
(٣) المقصود بالوحدة العضوية : وحدة الموضوع ووحدة الجو النفسى . انظر الأضواء فى اللغة العربية ص ٢٠٩ .

وكان يجب أن يكون هذا حافزا لمن بعده أن يتلقفوا تلك الاشارات العابرة واللمحات الخاطفة ويستفيدوا بها فى تنمية الصورة وبعثها فى أدبنا وبلاغتنا . ولكأنى بلسان حال عبد القاهر يقول لنا : " فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ".

أما بلاغة القصص وما يتضمن من بارع الجدل ورائع الحوار ، فان كان القدماء قد أغفلوا الحديث عنها - كما يقول البشرى - فان ذلك لا يمنع من أن القصة كانت موجودة وأن أدبنا العربى حافل بكثير من القصص شعرا ونثرا ، والذين يقولون بأن القصة أدب جديد وافد ومستحدث اما جاهلون لم يطلعوا على أدبنا القديم ، واما مغرضون

والحقيقة أن الجديد فى القصة هو ماوضع لها من أصول وقواعد مثل : المقدمة والعرض والأحداث والعقدة والحل والنهاية أو الختام . أما القصة نفسها فهى موجودة ولها جذور فى أدبنا العربى القديم وهى قصص فى غاية الروعة والبلاغة والابداع . ولن أقول أن المقامات من الفن القصصى ، فهى بحسب ماورد من أصول وقواعد جديدة للقصة ليست الا حكايات فهى خالية من الأحداث غالبا وليس فيها عقدة ولا حل . ولكنى أذهب الى أبعد من ذلك الى العصر الجاهلى وصدر الاسلام ،

فبالنسبة للعصر الجاهلى نجد الشعر أغلب من النثر ولذلك أطلق عليه بعضهم (عصر الشعر) وبعض قصائد الشعر الجاهلى والاسلامى عبارة عن قصة لها بداية ونهاية وفيها الأحداث والعرض والحوار بل العقدة والحل أحيانا . ولكن اسم (القصة) لم يكن وقتها مألوفا أو شائعا وان كان موجودا فى اللغة ، ولكنه لم يطلق أو لم يؤلف اطلاقه على قصيدة مهما كانت تحمل من معالم القصة . فمثلا نجد للحطيئة قصيدة صغيرة لم يكن لها عنوان فى عصرها ولكن لما أراد بعض المؤلفين حديثا أن يضعوها ضمن النصوص التى تدرس فى

المدارس وضعوا لها عنوانا هو: (قصة كرم) للحطيئة[1] فما الذى دعاهم الى ذلك ؟ ان نظرة فاحصة لهذه القصيدة تجد فيها كل مقومات القصة الحديثة من بداية ونهاية وعرض وحدث وحوار وعقدة وحل فى أسلوب بارع بليغ ولأن القصة من الأساليب والفنون الحديثة التى ينادى كثير من المجددين باد خالها ضمن الدرس البلاغى فانى أعرض لك هذه القصيدة على سبيل المثال مطبقا عليها مقومات القصة الحديثة . يقول الحطيئة :

١ - وطاوى ثلاث عاصب البطن مرسل .. ببيداء لم يعرف بها ساكن رسما

٢ - أخى جفوة فيه من الانس وحشة .. يرى البؤس فيها من شراسته نعما

٣ - وأفرد فى شعب عجوزا ازاءها .. ثلاثة أشباح تخالهم بهما

٤ - حفاة عراة ما اغتذوا خبز ملة .. ولا عرفوا للبر مذ خلقوا طعما

---

٥ - رأى شبحا وسط الظلام فراعه .. فلما رأى ضيفا تشمر واهتما

٦ - فقال هيا رباه ضيف ولا قرى .. بحقك لا تحرمه تا الليلة اللحما

٧ - فقال ابنه لما رآه بحيرة .. أيا أبت اذبحنى ويسر له طعما

٨ - ولا تعتذر بالعدم عل الذى طرا .. يظن لنا مالا فيوسعنا ذما

٩ - فروى قليلا ثم أحجم برهة .. وان هو لم يذبح فتاه فقد هما

---

١٠ - وبيناهما عنت على البعد عانة .. قد انتظمت من خلف مسحلها نظما

١١ - عطاشا تريد الماء فانساب نحوها .. على أنه منها الى دمها أظما

١٢ - فأمهلها حتى تروت عطاشها .. فأرسل فيها من كنانته سهما

١٣ - فخرت نحوص ذات جحش سمينة .. قد اكتنزت لحما وقد طبقت شحما

١٤ - فيابشره اذ جرها نحو قومه .. ويابشرهم لما رأوا كلمها يدمى

---

١٥ - وباتوا كراما قد قضوا حق ضيفهم .. وما غرموا غرما وقد غنموا غنما

١٦ - وبات أبوهم من بشاشته أبا .. لضيفهم والأم من بشرها أما

---

(١) انظر كتاب الأدب والنصوص للصف الأول الثانوى .

لن أحدثك في هذه القصيدة عن بلاغة الأسلوب وروعة الصور الجزئية وخلابة الصورة الكلية ، ولا عن روعة البديع من جناس ومقابلة ومراعاة نظير ، ولا عن جمال الحذف وسحر الايجاز ولا عن الموسيقى الداخلية والخارجية التي تستولي على النفوس وتأخذ بمجامع القلوب والعقول ، بل لن أحدثك عن بارع الحوار ولا عن الناحية الانسانية والمواقف النبيلة ، لن أتحدث عن شيء من كل أولئك الذي ورد في هذه القصيدة الصغيرة . فقط سأشير في عجلة الى مقومات القصة الحديثة مطبقة على هذه الأبيات : ففي الأبيات ١ - ٤ نجد بداية القصة ونجد العرض أي عرض أشخاص القصة بدءا بالبطل وتثنية بأفراد أسرته وبيان حالته وحالتهم .

وفي الأبيات ٥ - ٩ نجد الحدث والحوار والعقدة في سبك وصياغة تكاد تصل الى حدود الاعجاز كما قال البشري .

وفي الأبيات ١٠ - ١٤ نجد الحل وما أعقبه من بشر وسعادة .

وفي البيتين الأخيرين نجد الختام العجيب الذي يترك أثرا في النفس لا يمحى بسهولة .

هذا من ناحية الشعر . أما من ناحية النثر فان هناك قصصا زخرت بها مجالس الخلفاء ، وسوامر الأمراء ، وملأت الكتب التي انحدرت الينا عن المؤلفين القدماء ، وما منع الناس أن يردوا شريعتها ، أو يجنوا أطايبها الا ما منيت به هذه الكتب من اضطراب الترتيب ، ورديء الطبع وتحريف الناسخين .(1) أما قصص القرآن فهو أعرف من أن أعرف به وأشهر من أن أتكلم فيه .

ولئن كان لي في ذلك حديث فهو حديث يتصل بالبلاغة والاعجاز ، ذلك هو بيان الفرق بين القصة القرآنية والقصة المؤلفة وهو فرق جوهري اذ الثانية افتعال أمور وأحداث يسكبها الخيال حتى ولو كانت من الواقع ، بينما الأولى عرض من واقع الحياة التي لا ريب فيها .

---

(1) قصص العرب ج ١ ص ٤ . وهو كتاب من أربعة أجزاء جمع فيه مؤلفوه كثيرا من شوارد ومتفرقات قصص العرب / دار أحياء التراث العربي ببيروت عام ١٣٨١هـ ط ٤

القصة المؤلفة تخضع لعاطفة صاحبها وفهمه للأشخاص وادراكه للأشياء وحكمه على القضايا ولذلك فهى أسلوب للتوجيه متأثر بألوان الرغبات. فالبون شاسع بين شطحات الخيال فى القصص الحر ، وبين الحق الثابت المستقر فى قصص القرآن .(١)

بلاغتنا قاصرة فما الوسيلة :

ونعود الى البشرى حيث نراه يجد أن هناك قصورا فى علوم البلاغة فى العصر الحاضر ذلك لأن سلفنا وجهوا كل عنايتهم الى النقد الجزئى ، أى نقد الكلمة أو نقد الجملة فى العبارة ، فاذا كان الكلام نظما جرى النقد للبيت مستقلا وأحيانا للبيت من حيث اتصاله بما قبله أو بما بعده ، أى النقد (بالقطاعى) على حد تعبير التجار .
أما نقد الكلام مجتمع الشمل وتناوله من حيث استواء الصورة واتصال المعانى واتساق الأقطار وتلاحم الأجزاء فذلك مالم يكن من نقده حظ جليل .

ويرى البشرى أن الوسيلة لتلافى هذا القصور هو تليين البلاغة وتمرينها حتى تصبح أشبه بالاسلوب النقدى القائم على التفطين والتذويق بحيث تطور مع تطور الأفهام والأذواق ، وعلى أن يوصل تعليمها فى المدارس والمعاهد بدرس الأدب نفسه ... .
فالواقع أنه مانضجت موهبة شاعر ولا كاتب قط بدرس علوم البلاغة ، ولكن بطول ترديد النظر وتقليب الذهن فى المأثور من روائع الأدب ... فاذا انفسحت مع هذا ملكة الكاتب أو الشاعر ، ورهفت فطنته بترسم مذاهب النقد الفنى فقد تمت نعمة الله عليه .

---

(١) اعجاز القرآن البيانى . للدكتور حفنى شرف ص ٢٩٢ بتصرف .

ثم ختم البشرى محاضرته بقوله : " وبعد فاذا أبينا الا الحرص على بقاء هذه العلوم على تلكم الصورة التى دفعها الينا السابقون فلا شك فى أن لها فى دار الآثار العربيه المكان الفسيح ".

وهكذا نجد البشرى من الداعين الى تجديد البلاغة ، وتجديدها فى رأيه هو : تليين البلاغة وتطويعها لتشمل النص جملة وتتناوله مجتمع الشمل وأن تصبح أشبه بالأسلوب النقدى القائم على التفطين والتذويق ، وأن يوصل درسها وتعليمها فى المدارس والمعاهد بدرس الأدب نفسه .

وهذه الأسس التى ذكرها البشرى لتجديد البلاغة ذكرها الخولى فى بحثيه السابقين ، وأضاف زيادة عليها استخدام علم النفس الأدبى فى التحليل البلاغى ، ووضع مقدمة نفسية تحل محل الدلالات والجامع وغيرها ، وادخال دراسة الأسلوب وعناصره وأنواعه .

البلاغة العربية بين التطور والجمود

كان هذا عنوان الندوة العلمية التى عقدت فى البرنامج الثانى باذاعة القاهرة[١] بين الدكاترة : محمد غنيمى هلال ، بدوى طبانة احمد بدوى . وقد نشر هذه الندوة الدكتور احمد بدوى فى كتابه : من النقد والأدب .[٢] وقال انه فصل فى الكتاب ما أجمله فى الندوة.

تحدث د . بدوى أول ما تحدث عن نشأة البلاغة وكيف أن رجال الدين أسهموا فى نشأتها خاصة المتكلمين والأصوليين ، وأن الشعراء المحدثين الذين ظهروا فى أوائل العصر العباسى قد خيل الى كثير منهم أن الأوائل استنفدوا المعانى وأنه لا سبيل الى ابتكار فيها ، ورأوا أن سبيلهم الى التجديد انما يكون فى الصياغة ، فمضوا يفتشون فى الشعر عن مظاهر الجمال التى كانت تأتى عند الشعراء السابقين من غير قصد ومن غير أن يعرفوا لها اسما من استعارة أو جناس أو طباق أو رد عجز على صدر ، ثم أخذوا يقصدون الى هذه الألوان قصدا فى أشعارهم ، واتخذوها مذهبا جديدا فى الشعر ، وعلى رأس هؤلاء بشار ومسلم وأبو تمام. ثم جاء ابن المعتز فصنف هذه الألوان والتمس لها أمثلة فى الشعر القديم . وعلى رأس طوائف الأدباء - كذلك - الكتاب الذين كانوا يتنافسون فى الأخذ بألوان الجمال فى القول .

وانتقل د . بدوى بعد ذلك الى الحديث عن صلة البلاغة بالنقد وأنها معيار من معايير النقد الأدبى ، وذلك لأن النقد يتناول النص من جميع نواحيه ، من ناحية لفظه ، ومن ناحية معناه ،

---

(١) أذيعت فى الساعة التاسعة من مساء الاحد ٢٤ يناير سنة ١٩٦٠

(٢) ج ٢ ص ١١٠ - ١١٧.

ومن ناحية تلاؤم اللفظ مع المعنى ، ومن ناحية صلة النص بقائله وبيئته وزمنه ، ومن ناحية تكون النص وترتيب أفكاره ، ومن ناحية مافى النص من عاطفة وخيال ، وملاءمة النص للزمان والمكان ، وما ينبغى أن يتبع فى كل غرض من أغراض القول .

والبلاغة تتكفل بدراسة بعض النواحى التى يريد النقد الأدبى أن يدرسها ، لأن البلاغة تعنى بدراسة المفردات من ناحية فصاحتها ، وبدراسة الجملة من حيث قوتها وجمالها فى علمى المعانى والبيان ، وبدراسة بعض ألوان الخيال المفسر الشارح للفكرة فى علم البيان ..

ويذهب د . بدوى يتحدث عن علم المعانى وعلم البديع وعلم البيان بمالاحد يد فيه ثم يقول :

ولا يضير علوم البلاغة أن تقف عند هذه الحدود (يقصد حدود الجملة والجملتين) فذلك ميدانها ، وهو ميدان شاسع الأرجاء ، لأنها تقف فى النص الأدبى عند كلماته تتبين سر اختيارها وعند جملة تبين سر تركيبها ، وليس ذلك بالعمل الهين .

<u>اتجاهات ثلاثة فى دراسة البلاغة :</u>

وانتقل د . بدوى الى الحديث عن دراسة البلاغة واتجاهاتها ، فقال : ان لها ثلاثة اتجاهات :

١ - الاتجاه الأدبى : وهو الذى يعنى بعرض الأمثلة وتذوقها ، ولا يعنى كثيرا بالحدود والتعريفات .

٢ - الاتجاه الفلسفى : وهو الذى يعنى بالتعريفات ، واخراج المحترزات ويناقش التعاريف حتى تصبح منطقية خالصة .

٣ - والاتجاه الثالث هو الذى يجمع بين الأمرين ، فيعنى بالتعريفات والأمثلة معا . وربما كان ذلك هو الاتجاه المصرى .

ومن الواضح أن د . بدوى متأثر فيما كتبه عن اتجاهات الدراسة البلاغية بما كتبه الشيخ أمين الخولى من قبل فى أبحاثه البلاغية التى عرضناها آنفا .

هل أدت البلاغة رسالتها :

يقول د . بدوى اذا كانت رسالة البلاغة تبصير الكتاب والشعراء وهدايتهم الى الرفيع من التعبير ، فانى أعترف أن الاهتداء الى فن من فنون البلاغة وهو علم البديع كان له أثر كبير جدا فى الشعر والنثر . فان طائفة كثيرة قد استخدموا ألوان البديع فى شعرهم بحذق ومهارة دون تكلف أو تعنت ، فجاء شعرهم غاية فى الجمال والابداع .

أما هؤلاء الذين أكثروا من البديع فى شعرهم بدون داع فقد عاد على شعرهم بالتكلف والارهاق واستغلق المعنى عندهم فى كثير من الأحيان كأبى تمام ، وعلماء البديع قد بحوا أصواتهم معلنين أن جمال البديع لا يكون طبيعيا الا اذا كان قليلا ولم يكن متكلفا .

أما اذا كانت رسالة البلاغة البحث عن أسرار الجمال فى المفرد والجملة والجملتين فيمكن القول بأنها وصلت فى ذلك الى مدى بعيد وان كان الأمر لا يزال محتاجا الى جهود وجهود للكشف عن باقى أسرار الجمال فى الأمور التى يحس القارئ بجمالها ثم لا يجد البلاغيين قد اهتدوا اليها . وعلوم البلاغة ترحب بهذه المكشوفات وتدعو للبحث وراء الأسرار المجهولة . وعلماء البلاغة أنفسهم يشعرون بأن أسرار الجمال لم يكشف عن كلها ، ولهذا قالوا : أن علوم البلاغة لم تنضج ولم تحترق ، وقرروا أنه فى كثير من الأحيان يجد القارئ لذة فى النص ثم لا يستطيع أن يذكر سببا لهذا الاحساس مما يدل على أن علماء البلاغة يدعون الى ادامة البحث وراء أسرار الجمال لأنهم لم يقولوا الكلمة النهائية فى كل مسائل البلاغة .

وان كان معنى رسالة البلاغة أنها كانت أداة فى أيدى النقاد يزنون بها النصوص الأدبية ، فقد أدت البلاغة رسالتها فى الأعصر الأولى الى مدى بعيد ، وما تركه الأقدمون من كتب شاهد على ذلك ، فانهم قد اتخذوا ماوصلوا اليه من قواعد وسيلة لقياس النصوص الأدبية وبيان جمالها ورداءتها ، وكان للمقاييس البلاغية شأنها فى تلك الأزمان .. أما فى عصرنا الحاضر فلا ينكر الدكتور بدوى أن المقاييس البلاغية قليلة الاستعمال فى أيدى النقاد . قد يكون ذلك لأن كثيرا من الأدب فى عصرنا الحاضر يتجه الى الافهام والاعتماد على التأثير من ناحية معناه أكثر من اعتماده على التأثير من ناحية لفظه وأسلوبه وعبارته .

ثم تساءل : هل الفنون التى شاعت فى وقتنا الحاضر كالقصة والرواية تتنافى مع الأسلوب البلاغى الذى يراد به التأثير فى نفس القارئ بعبارته ومعناه معا ؟ وأجاب : بأن الفنون لا تتنافى مطلقا مع الأسلوب البلاغى ، ولكنها السرعة التى تحول دون التريث والانتاج الفنى ذى الأسلوب البلاغى .

ولا ننسى ونحن فى هذا المقام أن السرعة التى تحدث عنها د . بدوى هى احدى البلايا الثلاث التى ذكرها الأستاذ الزيات فى كتابه " دفاع عن البلاغة " بل هى أولها وهذه البلايا الثلاث هى : السرعة ـ الصحافة ـ التطفل . وهى أسباب التنكر للبلاغة فى العصر الحديث .

واجبنا نحو البلاغة : يرى د . بدوى أن هناك أربعة واجبات نحو البلاغة هى :

١ - واجبنا نحو تدريس البلاغة .

٢ - واجبنا نحو التأليف فى البلاغة .

٣ - واجبنا نحو البلاغة نفسها .

٤ - واجبنا نحو تطبيق مسائل البلاغة فى النقد الأدبى .

(١) أما واجبنا نحو تدريس البلاغة : فهو وصل البلاغة بالحياة وذلك يكون بالتدرج فى ثلاث خطوات :

أ - أن نتلمس فى لغتنا الدارجة عبارات تصلح بعد جعلها معربة أن تكون أمثلة لمسائل البلاغة ، فاذا عرض على الطلبة هذه الاساليب كان من السهل عليهم أن يتذوقوا جمالها .

ومثل هذا الرأى قاله الدكتور حفنى شرف فى كتابه (التصوير البيانى) فهو يقول : " أن فى كلامنا العادى لألوانا بارعة بضروب التصوير البيانى وبغيرها من ألوان الخيال . فمثلا نحن نكنى عن شدة الزحام - ترش الملح مايتزلش - يمكن تحويل الفعل الاخير الى فعل صحيح وتصير الكناية غاية فى الروعة والجمال .
وكقولك لمن لم يفعل ماترجوه منه - قصرت رقبتنا - . . . . . . وفى الجملة معظم أمثالنا الشعبية تتحقق فيها تلك المزية ". (١)

ب - أن ننتقل من ذلك الى أدبنا الحديث شعره ونثره لنتبين فيه أمثلة للجمال البلاغى يستطيع الطالب أن يدرك أسراره .

جـ - ننتقل بعد ذلك الى رائع الأمثلة المتخيرة من الأدب القديم . ولا شك أنه بهذه الخطوات ينتقل الطالب للبلاغة انتقالا طبيعيا ويحس أن مسائل البلاغة ليست بعيدة عن حياته ، وأنها قريبة منه فى الحياة ، وبين يديه فى أدبه الحديث وموصولة بتراثه القديم .

(٢) وأما واجبنا نحو التأليف فى البلاغة : فهو ألا نقف فى التأليف البلاغى عند ذكر التعاريف والأمثلة بل لابد من الوقوف عند القاعدة والمثال لنبين أسرار الجمال وصلة ذلك بالنفس الانسانية . كما يجب فى التأليف البلاغى للناشئين أن يتبع خطوات تدريسها . . . ويحسن أن نترك الأمثلة التقليدية التى لا تصلح للعصر الحاضر من مثل جبان

---

(١) انظر التصوير البيانى ص ٥٢٧ ومابعدها .

الكلب وكثير الرماد ومهزول الفصيل ، كما يجب أن نبعد عن المنهج القديم فى التأليف البلاغى كمنهج التلخيص وشروحه ، وعن الالغاز وخلط مسائل البلاغة بالفلسفة .

(٣) أما واجبنا نحو البلاغة نفسها : فهو ألا نقف فى دراسة المفرد والجملة عند الحدود التى رسمها الأقدمون بل نبحث عن ألوان جديدة للجمال فى المفرد والجملة ، وقد فتح البلاغيون باب الاجتهاد فى البلاغة على مصراعيه ، وأن نعود الى بعض قواعد البلاغة لمعرفة مدى صحتها ووزن هذه القواعد بالمقاييس النفسية الانسانية وفى باب التشبيه مثلا مجال واسع للتهذيب . كما أن مسائل علم البديع يجب أن تتحرر ليحذف المتكلف من بين مسائله ومالا قيمة له فى تجميل النص .

(٤) أما فى تطبيق مسائل البلاغة على النصوص الأدبية كمقياس من مقاييس النقد الأدبى فيجب أن يعرض هذا التطبيق فى ثوب عصرى مستفيد من دراسة الذوق والفن والجمال ، معتمد على الدراسة النفسية ، مؤثر للشرح والتوضيح .

هذا الجزء الأخير من الندوة هو - فى رأى - أهم ماورد فيها ، فالواجبات الأربع التى ذكرها الدكتور بدوى أشبه بمنهج صغير جديد للبلاغة ، وهذا المنهج وأن كان مجملا ويحتاج الى كثير من التفصيل الا أنه جدير بالبحث والنظر . ويمكن أن يضم الى منهج الشايب ومنهج الخولى وسنتحدث عنهما فى الباب الثالث - عند النظر فى وضع منهج جديد البلاغة .

المسوغات العقلية للبلاغة

وهذا بحث آخر نشر فى مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق وكتبه الأستاذ أنيس المقدسى عضو المجمع . وهو بحث قيم ، فيه محاولة محمودة لضبط أنواع البديع ومباحث البيان تحت ضوابط عامة ومن ضوابطه مثلا : " العقل ينجذب عادة الى غير المعتاد " فيتخذ هذه الخاصة وسيلة الى معرفة سر الحسن فى الالتفات ، والقصر ، والتقديم ، والاستفهام . كما بين فى هذا البحث خصائص البلاغة فى الوضوح وجلاء المعنى ، وفى الايقاع وحسن التناسب

أجزاء الجملة وفى الاشارة أى المقدرة على اذكاء العواطف وتحريك القوى التخيلية والفكرية ، ثم الايماء أو الايحاء الى معان وراء المعانى القريبة .

وأهم مايعنينا فى هذا البحث هو ما اقترحه من أبواب جديدة تندرج تحتها الفصول البلاغية . وقد بوبها تبويبا منطقيا وهو شىء لم يفعله القدماء - كما يقول - وهذه الأبواب هى :-

١ - باب التعادل .
٢ - باب التواطؤ اللفظى .
٣ - باب التواطؤ المعنوى .
٤ - باب المغايرة .
٥ - باب الخروج عن المعتاد .
٦ - باب الايماء الى غرض .

أولا : (باب التعادل) .

ويراد به تماثل الفقرات فى الجمل وزنا وتركيبا . وقد يسمى : الازدواج وهو نوعان : عاطل ومقفى .

ويدخل تحت المعادل :

(١) التوازن : وهو أن يكون الكلام ذا فواصل متساوية الوزن . كالآية الكريمة : " وآتيناهما الكتاب المستبين وهديناهما الصراط المستقيم "

(٢) المماثلة : وهى أن تكون جميع الألفاظ فى الفقرات متساوية الوزن . نحو سهل خلائقه ، صعب عرائكه جم غرائبه ، فى الحكم والحكم .

أما المقفى فيدخل فيه مايلى :

(١) السجع : وهو معروف ، ويقوم على تقفية الفواصل .

(٢) التسميط : وهو أن يكون الكلام أربعة أجزاء ثلاثة منها على سجع والرابع مختلف . كهذا البيت .

هم القوم ، ان قالوا أصابوا ، وان دعوا
أجابوا ، وان أعطوا أطابوا ، وأجزلوا

(٣) الترصيع : أى مقابلة كل لفظة فى العبارة بمثلها فى الثانية وزنا ورويا . نحو ، يطبع الأسجاع بجواهر لفظه ، ويقرع الأسماع بزواجر وعظه .

(٤) التزاوج : أى ازدواج الفواصل المسجعة . نحو :
فانى مؤمل غمام غير جهام ، ومعمل حسام غير كهام .

ثانيا : (باب التواطؤ اللفظى)

وهو أن تكون الألفاظ على جرس واحد ، أو من أحرف متشابهة ، سواء اختلفت فى المعنى أم لم تختلف . وتقوم بلاغتها على تنبيه الذهن الى المعنى بمعارضة اللفظين المتجانسين وعلى مافيهما من حلاوة موسيقية ناشئة عن تجانس الحروف وتألفها . ويدخل فى هذا الباب :

(١) الجناس : وهو أنواع كثيرة منها : التام والمركب والملفق والمزيل والمصحف والمقلوب والمحرف واللاحق والمطرف والمتمم وغيرها . هذا ونرى أن المقدسى أكثر من أنواع الجناس مع أن المحدثين قصروا أنواع الجناس على نوعين فقط : تام وناقص واكتفوا بهما .

(٢) التورية : نحو قول الشاعر :

قالت وهبت لك السواك فقلت لا ولماك مالى حاجة بسواك

(٣) التصوير : أورد العجز على الصدر . نحو :

فأجبتها إن المنية منهل لابد أن أسقى بكأس المنهل

(٤) العكس : نحو :

فلولا دموعى كتمت الهوى ولولا الهوى لم يكن لى دموع

(٥) الجمع مع التفريق : أى الجمع بين شيئين فى حكم واحد ثم التفريق بينهما فى ذلك الحكم . نحو :

تشابه دمعانا غداة فراقنا مشابهة فى قصة دون قصة

فوجنتها تكسو المدامع حمرة ودمعى يكسو حمرة اللون وجنتى

(٦) المجاورة : تردد لفظين ووقوع كل منهما بجانب الآخر أو بقربه . نحو : انما يغفر العظيم العظيم .

(٧) الطى والنشر : كقوله

. . . . فلذا تروى وتردى ذا صدى . . وحديثا عن فتاة الحى حى

ويجوز أن يلحق بهذا الباب لزوم مالا يلزم وما الى ذلك من أنواع التجانس اللفظى . ونلاحظ أنه ذكر التورية والجمع مع التفريق والطى والنشر فى باب التواطؤ اللفظى مع أنهم من المحسنات المعنوية ، كما أن هذا البيت الذى ذكره ليس واضحا فيه وجه الطى والنشر .

ثالثا : (باب التواطؤ المعنوى)

ويتناول ماكان فيه مشابهة بين شيئين . ومن ذلك :

(١) التشبيه والتمثيل والاستعارة . وهى معروفة لا تحتاج الى شرح بل عليها يقوم علم البيان .

(٢) مراعاة النظير . كقوله تعالى : " والشمس والقمر بحسبان "

(٣) تجاهل العارف . كقول الشاعر :

سلاظبية الوادى وما الظبى مثلها وان كان مصقول الترائب أكحلا

أأنت أمرت الصبح أن يصدع الدجى وعلمت غصن البان أن يتميلا

رابعا : (باب المغايرة)

وهى عكس المشابهة ، ويراد بها الجمع بين المتضادات وأشباهها ويدخل فيه :

(١) المقابلة : بين مايوافق وما يخالف . كقولهم :

ما أحسن الدين والدنيا اذا اجتمعا . . وأقبح الكفر والافلاس بالرجل

(٢) المطابقة . أى الجمع بين لفظين متضادين . كقول البحترى :

ان أيامه من البيض بيض مارأين المفارق السود سودا

(٣) الطرد والعكس : كقوله

مودته تدوم لكل هول وهل كل مودته تدوم

(٤) التهكم . وهو ماكان ظاهره جدا وباطنه هزلا .

(٥) الاستفهام البيانى . نحو : أمصلحة الفرد أفضل من مصلحة الجمهور ؟

(٦) التغاير : أى مدح ماهو مذموم ، وذم ماهو ممدوح ، لغرض كقول ابن الفارض :

يهوى لذكر اسمه من لج فى عذلى سمعى وان كان عذلى فيه لم يلج

وهذا البيت أيضا غير واضح المراد .

(٧) السلب والايجاب : وهو أن تبنى الكلام على نفى شئ واثباته من جهة أخرى . كقولهم :

لا تعجب من المخطئ كيف أخطأ بل اعجب من المصيب كيف أصاب .

خامسا (باب الخروج عن المعتاد) وهو يشمل مايلى :-

(١) المجاز المرسل : أى تجسيم المجردات أو تفعيل مالا يفعل مثل :

مررت على المروءة وهى تبكى فبكاء المروءة أمر غير عادى .

ونحب أن نقول هنا : ان هذا المثال عن المروءة الذى أورده المقدسى ليس من قبيل المجاز المرسل وانما هو استعارة مكنية أو مجاز عقلى .

(٢) التجريد : أن يخاطب الانسان نفسه كأنها شئ مستقل عنه كقول المتنبى : كفى بك داء أن ترى الموت شافيا وحسب المنايا أن يكن أمانيا .

(٣) الالتفات : أو الانتقال المفاجئ من صورة الى صورة ، أو من ضمير الى ضمير . نحو : قل أمر ربى بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد . وهو كثير فى القرآن .

(٤) تقديم ما حقه التأخير وبالعكس . نحو : وربك فكبر ، عظيمة هى أعمالك يارب .

(٥) الغلو والمبالغة ، نحو :

أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم دجى الليل حتى نظم الجزع ثاقبه

ويدخل فى هذا الباب كثير من غرائب الصنعة البديعية كقصيدة الحريرى التى مطلعها :

يا خاطب الدنيا الدنيئة انها شرك الردى وقرارة الأكدار

دار متى ما أضحكت فى يومها أبكت غدا تبا لها من دار

فهى من بحر الكامل ولكنك تستطيع أن تسقط منها الجزئيين الأخيرين من كل بيت فيصبح من مجزوء الكامل وتتحول قافيتها الى حرف الدال . فتقول :

يا خاطب الدنيا الدنية انها شرك الردى
دار متى ما أضحكت فى يومها أبكت غدا

سادسا (باب الايماء الى غرض) ومما يدخل فيه :

(١) الكناية والتعريض . وهى معروفة لا تحتاج الى تبيان .

(٢) التوجيه : وهو أن يكون للكلام معنيان مختلفان يجوز اعتبار أحدهما . كقول المتنبى :

وما لك تعنى بالأسنة والقنا وجدك طعان بغير سنان

فقد يحمل على أن حسن طالعك يفعل ما لا تفعله الأسنة وهو مدح ، أو أنك رجل محظوظ لست من أهل الشجاعة والاقدام وهو ذم .

(٣) الاكتفاء : وهو أن يكون الكلام متعلقا بمحذوف مفهوم . كقول الشاعر :

لا يعلم الشوق الا ..... ولا الصبابة الا .....

أى الا من يكابد ذلك .

(٤) الاتفاق : كقول ابن الساعاتى يصف اقتحام صلاح الدين - واسمه يوسف - لبيت يعقوب - فى القدس - :

دعوا بيت يعقوب فقد جاء يوسف وهو يعنى دعوا الحصن

فقد جاء فاتحه . وقد وافق ذلك كون النبى يوسف هو ابن يعقوب فهو أولى ببيته من سواه .

(٥) الاشارات اللغوية والعلمية . وهو باب واسع .

(٦) الادماج : وهو أن يدمج الشاعر أو الكاتب غرضا له ضمن معنى آخر ليوهم السامع أنه لم يقصده وانما عرض فى كلامه تتمة للمعنى الرئيسى . كقول الشاعر :

أبى دهرنا اسعافنا فى نفوسنا　　وأسعفنا فيمن نحب ونكرم

فقلت له نعماك فيهم أتمها　　ودع أمرنا ان المهم المقدم

فهو أدمج شكواه فى تهنئة الممدوح وتلطف فى الطلب مع صيانة النفس والمدح هو المعنى الرئيسى والطلب هو المعنى الفرعى المدمج فيه .

(٧) التزييل : كقول النابغة :

ولست بمستبق أخا لا تلمه　　على شعث ، أى الرجال المهذب؟

فالمعنى مستوفى قبل العبارة الاستفهامية ولكن الشاعر ذيله بالاستفهام ليزيد المقصد ايضاحا .

(٨) التتميم : كالآية : " ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا "[(١)] فقوله على حبه تتميم للمعنى يزيده قوة وتوكيدا وفى الواقع ان هذا التبويب المقدسى مجهود طيب يشكر عليه مخططه . ويمكن أن يعتبر منهجا جديدا للبلاغة أو يستفاد به مع المناهج الأخرى التى أوردناها فى هذا الباب من بحثنا .

على أنه مما يلفت النظر أن هذا التبويب اهمل بعض المسائل البلاغية الهامة فلم يوردها فى تقسيماته مثل : مبحث الفصل والوصل ومبحث القصر ومبحث الايجاز والاطناب والمساواة . كما أهمل بحثا هاما من البحوث المستحدثة وهو بحث : الأسلوب .

هذا وقد علق الدكتور العمارى على هذا البحث ونقده فى مجلة الأزهر تحت عنوان " وفى البلاغة أيضا . . . " .

---

(١) مجلة المجمع العلمى العربى ـ المجلد الثلاثون ص ٣١ - ٤١ .

وفى المقدمة أثنى العمارى على البحث ومؤلفه واستعرض ما ورد فيه استعراضا سريعا مجملا . ثم قال :

" ان واجب البحث العلمى يقتضينا أن ننبه هنا الى أمور :

١ - كنت أفضل أن يكون عنوان البحث (المسوغات النفسية) فهذه الأمور التى ذكرها ليست مما يكون حكم العقل واضحا فيها ، وانما هى الصق بعواطف النفس وانفعالاتها .

٢ - تحدث فى فاتحة البحث عن إعراض أهل زماننا عن المحسنات البيانية وحسبانهم اياها من الطرق الرجعية ، وذكر أن البلاغة تحولت الى منهج الصناعة المتكلفة منذ القرن الرابع ، فأصبح البديع غاية منشودة لذاتها ، وأن التشدد فى هذا أتى بفعل انعكاسى هدفه هدم الزخارف البديعية ، وملاحظتنا هنا أنه لم يفرق بين المحسنات البديعية والمباحث البيانية ، فالأولى - حقيقة - هى التى أثقلت البيان العربى ، وهى التى برم بها الشعراء والكتاب فى عصرنا ، بل فى عصر الدولة العباسية نفسها ، وليس ماوجه من النقد لأبى تمام بالأمر المجهول . أما المباحث البيانية من مجاز واستعارة وكناية ، فما تزال تحتل من أدبنا بل ومن كل الآداب أسمى مكان ، وانا لنرى كتاب الصحف يعمدون كثيرا الى استعارات ومجازات تحتاج الى تأمل طويل .

٣ - ذكر تعريفات تبعد كثيرا عما نعرفه فى اصطلاح البلاغيين ، بل ان بعضها لا وجه له فيما أعتقد ، فهو يذكر المجاز المرسل ويمثل له بقول الشاعر " مررت على المروءة وهى تبكى " ، وهذا مجاز عقلى ، وما أظن أحدا جعله مجازا مرسلا . ولا يقال هنا انه أخطأ فى التمثيل فقط ، فانه لم يذكر غير هذا المثال ، فكأنه يعرف بالمثال .

ويعرف التجريد بأنه (أن يخاطب الانسان نفسه كأنها شيء مستقل عنه) وهذا فقط نوع واحد من أنواع كثيرة للتجريد ، وقد عرفه القدماء بقولهم : " وهو أن ينتزع من أمر ذى صفة أمرا آخر مثله فيها ، مبالغة لكمالها فيه ، وهو أقسام منها نحو قولهم : لى من فلان صديق حميم ، أى بلغ من الصداقة حدا صح معه أن يستخلص منه آخر مثله فيها ... الخ ".

وفى تعريف الالتفات رأيان : رأى للسكاكى ورأى للجمهور ، ولا ينطبق تعريفه هذا على واحد من الرأيين والالتفات عند الأقدمين هو : " التعبير عن معنى بطريق من الطرق الثلاثة - التكلم والخطاب والغيبة - بعد التعبير عنه بطريق آخر منها ، بشرط أن يكون التعبير الثانى على خلاف مقتضى الظاهر . ولا يشترط السكاكى أن يكون قد عبر عن المعنى بطريق من الطرق الثلاثة ، أو يكون مقتضى الظاهر التعبير عنه بطريق منها فعدل الى الآخر ، بل يكتفى بأن يعبر عن المعنى ابتداء بطريق وكان من حقه أن يعبر عنه بآخر . ولا ينطبق واحد من التعريفين على الآية ، ومجازها : وقل أقيموا ....

٤ - ويقول العمارى : لم يظهر لى دخل بعض الانواع فى ضوابطه ، فمثلا أدخل التورية تحت ضابط (التواطؤ اللفظى) ومثل بهذا البيت:

قالت وهبت لك السواك فقلت لا وساك ، مالى حاجة بسواك

والذى سوغ دخول هذا المثال مافيه من الجناس ، ولكن ليس بلازم فى التورية أن يكون فيها جناس . وهذه بعض أمثلتها : (الرحمن على العرش استوى) (والسماء بنيناها بأيد وانا لموسعون) ، وقول صلاح الدين الصفدى :

يا قلب صبرا على الفراق ولو روعته ممن تحب بالبين

وأنت ياد مع ان أبحت بما تخفيه وجدا سقطت من عينى

وكثير من أمثلة التورية بل أكثرها لا جناس فيه . كما أدخل فى باب التواطؤ

اللفظى (الطى والنشر) و (الجمع والتفريق) ، ولا أراهما داخلين فى هذا الباب .

وأعود فأكرر أننا فى مسيس الحاجة الى كثير من هذه الأبحاث .[١]

---

(١) قضايا بلاغية /د . عصارى ص ٧٥ - ٧٩

البلاغة العربية

وحاجتها الى التجديد

وهذا بحث آخر بين لنا فيه الدكتور العمارى بعض مساوئ البلاغة فى كتبها القديمة ، ودعا الى تجديدها ، وقدم بعض الاقتراحات من أجل النهوض بالبلاغة وتدريسها . يقول :

" فى العالم العربى اليوم يقظة فكرية تهدف الى التجديد فى شتى العلوم ، وربما جمح بعض قادة النهضة العلمية فحاول أن يهدم قديمنا ، ويستغنى بجديد الناس ، كما أن بعض العقول لا تزال تعيش فى ألفاف الماضى السحيق ، ولا غناء فى اصلاح مالم يقم على احترام النافع المفيد من القديم ، والأخذ بالنافع المفيد من الجديد . وهذا بحث لعله يعين على التهدى الى سواء المحجة ، حين ينظر الناظرون فى تجديد البلاغة العربية واصلاح مناهجها .

وان علوم البلاغة لفى شديد الحاجة الى من يجد أخلافها ، ويجلو صدأها ، ولكنها لا تظفر الا بالدعاوى العريضة الكاذبة . فبعض العلماء قنع بأن يجمع الأشتات ويضيف بعض النماذج ثم يدعى أنه فى البلاغة ألف ، وبعضهم يعمد الى الورق الصقيل والطبع الأنيق ليقال انه فى البلاغة جدد ، ولعل شر الثلاثة هؤلاء الذين يهدمون ولا يبنون ، ولو أنهم هدموا متبصرين لكان فيهم أمل ، ولكنهم يضربون معاولهم وهم مغمضو الجفون فعلينا اذا أردنا توطيد أركان الاصلاح العلمى وارساء قواعد العلوم على أسس ترضى الذهنية الجديدة ، أن نكشف موضع الداء الحقيقى ، ثم نعمل جاهدين على علاجه ، وبذلك نأخذ الطريق على من يريد الشر بهذه اللغة وعلومها .

وفى رأيى أن أول ما نبدأ به هو اصلاح المنهج ، واختيار الكاتب الدارس ، فليس يكفى فى التجديد أن نهدم قاعدة ونعيد بناءها على نحو جديد ، وانما العمل أولا فى خلق جيل جديد يدرس البلاغة على طريقة منتجة صالحة ، وحينئذ يخرج العالم الذى يستطيع التجديد على هدى وبصيرة .

ولم يعد خافيا على أحد أن الدراسة فى المعاهد المصرية على اختلاف ألوانها - فى البلاغة - ليست بذات غناء ، فاما دراسة قاعدة بلا تطبيق ، واما دراسة تطبيق بلا قاعدة ، ولابد للدراسة الصحيحة من الجمع بين القاعدة على مداها الواسع ، والتطبيق على أفقه الفسيح . كما لم يعد من الخفى أن الدراسة تدور كلها حول محور واحد لا تتعداه ، فمنذ لخص الخطيب القزوينى الجزء الثالث من كتاب (مفتاح العلوم) للسكاكى فى متنه (التلخيص) والدارسون يطوفون حوله تعليما وتأليفا ، فهم يضعون له الشروح ، ويؤلفون الحواشى على هذه الشروح ، ويكتبون التقارير على هذه الحواشى ، وبعضهم لخص التلخيص فى متن سماه (أقصى الأمانى) ، وقد أعقب عصر الخطيب عصور انحطاط أدبى ، وسيطرت الذهنية العلمية ، فكانت المؤلفات أشبه بالقوانين القضائية ، والنظريات الهندسية ، وكان الجدل اللفظى على أشده فى هذه المؤلفات ، وهو جدل جاف أشبه بشرح القوانين .

واذا نظرنا الى منهج الدراسة فى الأزهر مثلا ، وجدنا دراسة البلاغة تدور حول هذا المتن أيضا ، ففى المرحلة الأولى من الاقسام الثانوية يدرس كتاب " زهر الربيع " أو " المنهاج الواضح " وهما على طريقة التلخيص شواهد وقواعد ، وان كان المؤلف الثانى أوضح عبارة ، وأغنى نماذج . وفى المرحلة الثانية يدرس " مختصر السعد " وهو شرح على هذا المتن .

وفى كلية اللغة العربية يدرس " الايضاح " وهو كالشرح لهذا المتن وفى المرحلة الاخيرة يدرس جزء من " أسرار البلاغة " وفصل من " دلائل الاعجاز " ولكنها دراسة لا تتعدى الدائرة القزوينية فهم المدرس والطلاب أن يرجعوا هذه الفصول الأدبية الرائعة الى قواعد مضبوطة حتى يجوزوا بها الامتحان ... وليس الحال فى غير الأزهر بأفضل منها فى الأزهر ، فهناك يعطى الطالب قشورا لا تربى ذوقا ، ولا تعلم علما ، وانما هو التقصير والقصور .

أما الشواهد فى كتبنا فأمرها عجب من العجب ، فهى لم تتغير منذ عهد السكاكى والخطيب ، وأكثرها من الدرجة السادسة فى الجودة ، وكثير منها ساقط ردئ ، وهم العلماء منها اثبات القاعدة ، وربما وقفوا عند بيت يتيم ، وهو محتاج الى أليف . فقد استشهدوا بهذا البيت :

كما أبرقت قوما عطاشا غمامة ... فلما رأوها أقشعت وتجلت

فها هنا المشبه به ، واذا سألت : أين المشبه ؟ أجابك أكثر الشراح بأن بيت لا ثانى له . أما شرحهم حين يشرحون ، فقد يتعدى دائرة الحس الأدبى الى تحقيقات لفظية تذهب بجمال المعنى ومائه . كتب سعد الدين شرحا لهذا البيت :

حمامة جرعى حومة الجندل اسجعى ... فأنت بمرأى من سعاد ومسمع

قال : " فأنت بمرأى من سعاد ، أى بحيث تراك سعاد وتسمع صوتك ، يقال فلان بمرأى منى ومسمع ، أى بحيث أراه واسمع صوته . كذا فى الصحاح ، فظهر فساد ماقيل ان معناه أنت بموضع ترين منه سعاد وتسمعين كلامها ، وفساد ذلك مما يشهد به العقل والنقل ".

وقال البناني تعليقا على هذا " أما النقل فما نقل عن الصحاح وأما العقل فلأن المناسب أن يكون داعي الأمر بالتصويت سماع غير الصوت له ، لا سماع المصوت لصوت الغير ، ويخدشه أنه انما يكون ذلك اذا كان الغرض من التصويت اسماع الصوت ، وأما اذا كان الغرض اظهار النشاط كالبلابل تترنم بمشاهدة الأنوار والأزهار فلا ، وربما يؤيده أنه لم يقتصر في داعي الأمر بالتصويت على السماع بل ضم اليه الرؤية بل قدمها . وغاية مايمكن أن يقال : معنى شهادة العقل بفساده أنه يحكم بفساد توجيه يخالف النقل وعنه ضد وجه ".

وقوله اظهار النشاط لتلك الحمامة كما يدل عليه عبارة ابن يعقوب ونصها : أما اذا كان المقام مقام اظهار أن المأمور في موضع النشاط والطرب برؤية المحبوب وسماع كلامه ، كان المناسب : اسجعي أي اهتزي واطربي من شهود سعاد وسماع كلامها له .

وقوله : وربما يؤيده الخ ، أي لأنه لو كان الغرض سماع صوت لم يكن لذكر الرؤية وجه ، قال شيخنا الملوي في شرح ألفيته : قد يقال الغرض الأمر بفعل ما يرضي المحبوب أو يستعلقه ، ووقوع ذلك الفعل مع رؤيته وسماعه أتم و أقوى من وقوعه بدونهما . أهـ .

أي فالجمع بين رؤية الحمامة وسماع صوتها أتم وأقوى في طرب المحبوبة وانبساطها ورضاها . تأمل .

ووجه السيرافي الفساد عقلا بأن المحب اذا رأى المحبوب انفعل واندهش فيفسد عليه طريق الكلام ، والفساد نقلا بأن من لابتداء الغاية ، فابتداء الرؤية من سعاد فهي الرائية لا المرئية . أهـ .

وفيه أن من الابتدائية تدخل على المرئي أيضا ، نحو رأيت القوم من أولهم الى آخرهم . ووجه عبد الحكيم شهادة العقل بأنه لو كان كما زعم هذا القائل لكان المعنى اسجعي أيتها الحمامة فانك بمكان تسمعين فيه صوت سعاد مع أنه لا يحسن في نظر العقل

طلب التصويت عند سماع صوت المحبوب ، بل اللائق طلب الاصغاء عند سماع صوته ، فكان الواجب على هذا الزعم أن يقول : اسكتى وانصتى وأصغى . أهـ . وما مر عن ابن يعقوب والسيرافى يفيد أن سعاد محبوبة للحمامة كما أنها محبوبة لغيرها ولا مانع منه . وكتب أيضا قوله : والنقل مستغن عنه لأنه قد تبين فساده من جهة النقل بكلام الصحاح والتفريع عليه يظهر فساد الخ ، فكان الأولى أن يقول : والعقل يشهد أيضا بفساده ".

ويعبر العمارى عن سخطه على هذا الكلام والشرح الذى أورده السعد فيقول : " أشهد لقد مللت من كتابة هذا الشرح دون أن أعمل فكرا فى فهمه ، وهو بعد شرح لا نسيم فيه ولا روح ، ومادام الهدف من الشاهد هو تحقيق القاعدة ومادام الشرح على هذه الطريقة العلمية فلا يرجى من وراء ذلك خير . وليس أدل على اخفاق دراسة البلاغة من أن المتعلمين - والمعلمين أحيانا - لا يستطيعون فهم الأسرار البلاغية فى الكلام ، وهمهم أن يقولوا : ان فى هذه الفقرة تشبيها ، وفى تلك استعارة ، وقد حذف المسند اليه هنا للعلم به أو للخوف منه أو عليه .

ولما كانت هذه الأمور هينة سهلة فقد انصرف هم الطالب الى فهم عبارة الكتاب ، فيغرق فى خضم واسع من المناقشات اللفظية ، وبذلك أصبحنا - مثلا - ندرس كتاب السعد فى البلاغة ، ولا ندرس البلاغة فى كتاب السعد ، ومن عجب أن واضع المنهج هدف الى هذا ... كما أنه ليس أدل على اخفاق هذه الدراسة من أن الأزهر أنشأ شعبة مدتها ست سنوات لدراسة البلاغة وآداب اللغة ، وكان الهدف أن تخرج للناس جرجانيا آخر ، وسكاكيا ثانيا ، ومن نظامها ألا يتخرج الطالب حتى يقدم رسالة فى أحد هذين العلمين ، فرأينا جمهرتهم يطرقون أوسع البابين فيقدمون رسائلهم فى تراجم الشعراء وما إليها

ولم نر لواحد منهم - على كثرتهم - أى جهد فى خدمة البلاغة العربية ، وماذاك الا لأن دراسة البلاغة لم تنضج بعد ".

كيف نسمو بدراسة البلاغة :

يتحدث العمارى عن ذلك فيقول : " والسبيل للسمو بهذه الدراسة أن نترسم خطى الأسلاف ، ولا نقتصر على نهج واحد هو نهج السكاكى ومن جاءوا بعده ، ولهذا أحب أن ألمح الى طرائق المتقدمين فى دراستها .

ويمكن أن نعتبر السكاكى فاصلا بين عهدين ، فقد كان العلماء فى العهد الأول يتناولون البلاغة على أنها فن ، يبحثون فى الاساليب العربية ويخضعونها تحت مطرقة النقد ، ثم يصلون الى الهدف من الجودة أو الرداءة ، ولم يكن هدفهم استخراج قاعدة أو استنباط ضابط ، يتضح ذلك فيما كتبه الجاحظ والعسكرى والامام عبد القاهر والزمخشرى ، وما كتبه النقاد القدامى كعبد العزيز الجرجانى والآمدى وغيرهما . ولا نعدم فى هذا العهد ميلا الى التقعيد والتعقيد معا ، فقد كان علماء الكلام بصفة عامة ، والمعتزلة منهم بصفة خاصة ، يتناولون المسائل البلاغية محددين ضابطين ، ومن هنا نشأت المدرسة الكلامية بجانب المدرسة الأدبية ، وان كان أثر الثانية فى هذا العصر أقوى وأظهر ، فلما جاء السكاكى ، وكان صاحب فلسفة ومنطق حاول اخضاع البلاغة للقواعد ، كما خضع النحو ، وكما خضع الصرف وغيرهما من العلوم المقعدة ، فأشاع فيها الأبحاث الفلسفية ، وأجرى فى أوصالها الروح المنطقية ، وصبها فى قوالب ... ...

وجاء المتأخرون فتأثروا بالسكاكى أيما تأثر ، ووجدوا عنده ارضاء لذهنياتهم فنهجوا نهجه ، ونسجوا على منواله ، وذهبوا يدافعون عن آرائه ، ويتلمسون الصواب لأخطائه .

فاذا أردنا النهوض بالبلاغة فلا مندوحة من أن نأخذ بهاتين الطريقتين على أن نهذب الطريقة الثانية ، فنحذف من كتبها الأبحاث المنطقية والأبحاث الفلسفية وما اليها ، نستغنى عن بحث الدلالات ، وعن الجامع العقلى والوهمى والخيالى ، وعن الاطالة فى بحث التعاريف ومحترزات القيود ، ولا نحمل لمباحث الأصوليين هنا موضعا ، ثم يجب أن نستغنى عن الخلافات اللفظية ،كالخلاف فى الاستعارة هل هى مجاز عقلى أو لغوى ، وكالاختلاف فى المجاز العقلى بين السكاكى والجمهور ، فانه لا معنى لأن يبذل الطالب وقتا وجهدا فى خصومة عنيفة يطالع فيها حجج الفريقين ، ويتعب نفسه فى تفهم جدل الخصمين ، ثم يقال له أخيرا : (ان الخلاف لفظى) ، أويجد النتيجة لا تكافئ الجهد . ثم ندرس ـ على هذا الضوء ـ فى المرحلة الأولى من القسم الثانوى كتابا على طريقة التلخيص مع مراعاة اختيار شواهد جديدة جيدة ، ومع المحافظة على صورة القاعدة ومنهجها ، وفى المرحلة المتوسطة ندرس كتابا فيه جميع القوعد مبسطة مختصرة ، ويجب أن يكون ثلثاه نماذج عربية فصيحة ويكون هم المدرس شرح هذه الشواهد شرحا نقديا ، وربطها بقواعدها ، وهذا الدرس يعتبر اعادة لمادرس فى السنتين السابقتين ولا يعوقنا أن مثل هذا الكتاب لم يوضع بعد ، فما أهون وضعه اذا خلصت النيات .

أما فى المرحلة الأخيرة من هذا القسم فيدرس " الايضاح " ولكن بعد حذف ماأوجبنا حذفه سابقا ، وبعد شرح شواهده شرحا نقديا أدبيا ، والى هنا تقف الطريقة الكلامية ، ونبتدئ الطريقة الأدبية فى كلية اللغة العربية فندرس كتاب الطراز ، وكتابى عبد القاهر ، وليس هذا بالأمر الصعب بعد ما أعددنا الطالب فى الثانوى لهذه الدراسة .

ويجب أن ندرس مادة النقد الأدبي بجانب هذا على أنها مادة مستقلة ، فندرس الوساطة والموازنة ونتعرف على جهود المعاصرين في النقد "

" ولا يفوتني أن أنبه على ضرورة العناية بدراسة نشأة علوم البلاغة فانه من المخجل أن يكون مبلغ علم العالم في عبد القاهر أنه ألف في البلاغة وفي السكاكي أنه عالم له اسم رهيب مخيف .

وبعد فهذا رأي أطرحه أمام من تعنيهم نهضة البلاغة العربية وأدعوهم أن يطيلوا النظر فيه ، فانه سيجيء اليوم الذي يقول فيه التاريخ : لقد قال قصير " لو كان يطاع لقصير أمر" .
والله الهادي الى سواء السبيل " .(١)

ولا شك أن هذا التخطيط الدراسي الذي طرحه د . العماري لمنهج التدريس في المرحلة الثانوية بالأزهر وفي كلية اللغة العربية تخطيط له قيمته ، ولا شك أنه أفضل بكثير من المنهج القديم فيما لو تم وضع كتبه على الأساس الذي أشار اليه التخطيط .
ولكننا نعتقد أن هذا البحث وقد وضع في أواخر الثلاثينات لم يعد صالحا في الثمانينات ، كما أعتقد لو أن د . العماري كتب هذا البحث مرة أخرى هذه الأيام لأتى بتخطيط جديد آخر أحكم وأروع .

---

(١) من كتاب : قضايا بلاغية - د . العماري - ص ١٨ - ٢٣ .

مفاهيم بلاغية

وتحت هذا العنوان ألقى الدكتور عبد الرازق محيى الدين عضو مجمع اللغة العربية هذا البحث[1] حول بعض المفاهيم البلاغية وعدم فهمها واستغلاقها على الدارسين وعجز الأساتذة عن إيصالها الى عقولهم واقناعهم بها ، وكذلك الأمر بالنسبة للكتاب والشعراء والمحدثين .

وفى مقدمة هذا البحث ألقى الدكتور عبد الرازق باللوم على المشتغلين بالدراسات الأدبية والنقدية لأنهم لم يعطوا البلاغة حقها من الدراسة والبحث بعكس العلوم العربية الأخرى .

" فقد أدت معاودة النظر فى تاريخ الأدب العربى ومناهج دراسته من قبل الدارسين المحدثين الى تطوير وتحديد جعلا منه علما موسعا يختلف اختلافا كبيرا عما تسلمه الجيل المعاصر من الأجيال التى سبقته . كذلك علم اللغة - أى علم المعجمات - تناوله المحدثون بمراجعة ومعاودة نظر أدت فيما أدت الى تطوير بالغ فى وضع المعجمات وأسلوب تأليفها ، وما ينبغى أن تتوفر عليه من ضبط لمصادر الكلمة المفردة وتاريخ وضعها والتطورات التى رافقت استعمالها ونظير ذلك أيضا ما وقع لعلم النحو فقد تمت فى هذا العصر مراجعات لكتب أصوله ، ومناقشة الأحكام الواردة فيها ، ومحاولات فى التبسيط والتيسير والجمع والحذف ، والحاق باب بباب ، وفصل مجموعة عن مجموعة ، الأمر الذى يكشف عن عناية بالغة بقضاياه واهتمام بشأنها .

---

(١) مجلة مجمع اللغة العربية ج ٢٢ ص ١١٩ - ١٢٧ . وقد ألقى هذا البحث فى الجلسة السادسة للمجمع صباح السبت ١/٢/١٩٦٩م

أما علم البلاغة فقد استثنى من ذلك وظل على حاله لم يحدث فيه تغيير أو تطوير أو معاودة نظر بحيث يصبح أن يعد ذلك تجافيا أو اهمالا أو ظاهرة عجز فى جانب المعنيين بعلوم العربيـــة.
وكان نتيجـة لذلك أن انصرفت الهيئات الجمعية عن اعطائه حقه من الرعاية ومن العناية حتى ضاق الطلاب بدراسته ، وعجـــز الأساتذة عن تدريسه ، وابتهم أمره لدى الكتاب والشعراء المحدثين.

وليس ما قاله الدكتور عبد الرازق عن البلاغة وعدم العناية بها بصحيح ، فنحن اذا وافقناه على ضيق الطلاب بها وعجــز الاساتذة عن تدريسها وابتهام أمرها لدى الكتاب والشعراء المحدثين فانا لا نوافقه على عدم العناية بها فى السنوات الأخيرة قبل القاء هذه المحاضرة فى ١/٢/١٩٦٩م.فمنذ العشرينات ـ وما بعدها ـ من هذا القرن العشرين ، ارتفعت الأصوات بوجوب تجديد البلاغة ، وتوالت البحوث والمحاضرات ، وصدرت كتب ، ووضعت مناهج ، وأبدى كثير من المختصين آراءهم مما بيناه وسنبينه فى هذا البحث .
ولكن المسألة أن ذلك لم يثر الجهات المسئولة عن الأدب والثقافة ، اللهم الا لجنة المعارف المصرية التى سنورد تقريرها ومنهجهـا بعد قليل فى هذا الباب .
وتلك هى القضية : كيف نضع هذه المناهج التجديدية موضـــع التطبيق بعد غربلتها والتنسيق بين الأصلح منها
وأرى أن هذا واجب الجامعات العربية والمجامع اللغوية مجتمعة أولا ، وواجب وزارات التعليم والثقافة فى البلاد العربية مجتمعة أيضا ثانيا .

ونعود الى بحث الدكتور عبد الرزاق حيث أخذ يتحدث عن الوضوح والفهم فى الفصاحة والبلاغة فذكر أنهما كانتا قديما تستعملان بمعنى واحد . فالفصاحة كانت تستعمل بمعنى البلاغة، والبلاغة كانت تستعمل بمعنى الفصاحة ، والبيان يعنى أحدهما والاثنين معا أحيانا ، وربما قام مقامها الايضاح والبراعة والبديع، واستمر هذا التداخل فى مفهوم المصطلحين عهدا لا يقل عن مائتى عام . منذ أن تلمست أصول هذا العلم الى أن استقرت على يد البلاغيين فى القرن الخامس الهجرى فما يليه .

وأخيرا انتهى الأمر فى كلمة الفصاحة فأصبحت صفة للفظ المفرد وللألفاظ المؤلفة وهى تعنى فيهما الوضوح والظهور والابانة، ولتحقيق الوضوح اشترط خلوص المفردة من تنافر الحروف ومخالفة القياس الصرفى ومن الغرابة ، واشترط خلوص الكلام من ذلك ومن مخالفة القواعد النحوية المستقرة ومن التعقيد اللفظى والمعنوى . وكانت ما انتهت اليه كلمة البلاغة بلوغ القصد من التعبير والانتهاء الى الغاية مع شرط التوفر على فصاحة مفرداته وتراكيبه .

واشتراط الوضوح - كما يرى الدكتور عبد الرزاق - شرط متصل مفترض لا واقع له عند التطبيق على الروائع الأدبية ، وليس منتزعا من واقع ما عليه الفن البيانى .

" وذلك لأن أسمى آثارنا الأدبية من معلقات الجاهليين الى خطب الخلفاء الراشدين فرسائلهم فخطب الولاة وكتبهم الى شعر الاسلاميين جرير والحطيئة الى أعلام الشعر فى العصر العباسى كالبحترى وأبى تمام والمتنبى وأبى العلاء الى رسالة الغفران فمقايسات أبى حيان فمقامات الحريرى والبديع الى أسلوب الرافعى فالعقاد أحيانا ، كل أولئك ماكانت آثارهم بالوضوح الذى صوره البلاغيون للكلام الفصيح .

إن كثيرا منها لا يفهم الا بعد الشرح وبعد التنقير اللغوى بل أن قسطا منها يصعب أن تعبر صفحة أو سطرا منه دون التنقير - وهل التنقير الا البحث فى كتب اللغة - فهل ننفى عن هذه الكتب صفة الأدب العالى لأنها لم تتوفر على صفة الوضوح فى حين أردناها وصفا لهذا الأدب المتميز .

ولا نقصد أن يكون الغموض شرطا فى البيان الذى يبلغ درجة التميز والتفوق ، ولكن البيان المتميز فى أفضل الأحوال لن يكون فهمه فى متناول الناس كافة ،بل انه لن يكون حتى للممارسين له بهذه الدرجة من المواتاة . فلا بد من اشتراط الوضوح فى حدود معاناة أدبية وليس باليسر المتناهى الذى تغنى فيه عن البحث فى معنى المفردة وعن الخاصة البيانية التى وراء هذا التعبير" .

وقد رد الدكتور عباس حسن على ذلك بما يفيد أن البلاغيين لم يحددوا الوضوح بالكلام الجاهلى أو الاسلامى فى عصوره المختلفة ، وانما ضبطوا هذا الوضوح بمراعاة المقام ، بمعنى أن الواضح فى العصر الجاهلى قد يختلف عن الواضح فى العصر الاسلامى ، وقد يختلف عما بعده من العصور . فهذا هو ما يسمى الوضوح ، ووضعوا له فى كل باب من أبواب البلاغة ما يسمى بمراعاة المقام ، فالمقام فى عصرنا يختلف تمام الاختلاف عما سبقنا من القرون .(١)

ونعود الى الدكتور عبد الرزاق فى بحثه حيث يرى " أن التعريف التقليدى للبلاغة - بأنها : مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته - مع دقته وشموله يتصف بالغموض والابتهام ، وفى مفتاح العلوم وتلخيصه وشروحها محاولات مجهدة لتوضيحه ، ومع ذلك بقى العسر والغموض يصاحبه . وليس من مواتمات البلاغة أن يكون تعريفها على هذه الصورة من الغموض " .

---

(١) مجلة مجمع اللغة العربية ج ٢٢ ص ١٢٩ .

وهذا الرأى سبق وذكره الشيخ أمين الخولى فى كتابه " فن القول " اذ تعرض لتعريف البلاغة بتفصيل أكثر ورأى أن المنهج الفنى يستطيع أن ينتهى الى شىء أبين من ذلك وهو تعريف البلاغة بأنها " فنية القول " ثم بين ميزة هذا التعريف الجديد للبلاغة.(١)

وانتقل الدكتور بعد ذلك الى مفهوم آخر من مفاهيم البلاغة فى علم المعانى فقال : " ان فى مباحث علم المعانى قصورا فى استيفاء مقتضيات الأحوال فان الدراسة لها اتجهت الى حال المخاطبين عند تلقى الخبر أو الطلب ، وهى أحوال على تنوعها لا تفى بأحوال المتكلمين والمقتضيات التى تدفعهم على القول فان الباعث على القول ربما يكون احساسا داخليا أو نازعا ذاتيا لا يدخل فى تقدير قائله ما يكون عليه حال القارئ أو السامع ، ولا المواءمة مع تلك الحال ".

وهذا الرأى أيضا سبق وذكره الشيخ أمين الخولى فى نفس الكتاب بتفصيل أكثر وشرح أوفر(٢). كما أن الدكتور رجاء عيد يرى ذلك الرأى أيضا وهو أن الباعث على القول ربما يكون احساسا داخليا أو نازعا ذاتيا ويضرب لذلك مثلا بالمتنبى فى مطلع قصيدته التى يمدح بها كافورا :

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا وحسب المنايا أن يكن أمانيا

" فالمتنبى لا يقصد بالطبع افادة مخاطبه بأن الموت شاف له ، أو أن المنايا أمانيه ، وانما هى دفقة لا شعورية من أحاسيسه الممزقة نحو صديقه وأميره " سيف الدولة " الذى هجره ، ومن أمانيه التى تصوحت فى ولاية ظل يحلم بها ، وكان أمله أن يحققها له كافور. وهو يخاطب نفسه فى البيت التالى قائلا :

---

(١) انظر " فن القول " ص ١٩٦ - ١٩٩ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٠١ - ٢٠٦ .

تمنيتها لما تمنيت أن ترى　　　صديقا فأعيا أو عدوا مداجيا

ويظل فى حوار نفسى بينه وبين ذاته الى أكثر من خمسة عشر بيتا حتى ييين عن أمله الذى أشقاه ...... بل اننا نرى الشعر فى جوهره ليس افادة المخاطب بأنه عالم بمضمون خبره أو افادة مخاطبه بهذا المضمون بقدر ماهو تنفيس تلقائى لمشاعر نفسية حبيسة تجد انطلاقها فى هذا العالم السحرى الغامض ".[1]

وبعد أن تحدث الدكتور عبد الرزاق عن وقوف البلاغة عند حال المخاطب دون المتكلم رأى السبب فى ذلك " أن الدراسات البلاغية قد اهتدت بالقرآن الكريم وهو كتاب هداية وتبشير وانذار يضع فى اعتباره بالدرجة الأولى حال المخاطبين فى هدايته وتبشيره وانذاره ، وكذلك الأمر فى خطب الرسول والخلفاء والولاة وفى كثير من شعر الشعراء الأقدمين . ولذلك بحث دارسو البلاغة أكثر ما بحثوا خصائص أحوال المخاطبين . ولكنهم نصوا على أن الأحوال ومقتضياتها لا تقف عند حد ولم تستقص بعد فرخصوا بالاستزادة منها للآتين من بعدهم . ولكننا وقفنا حيث انتهوا ولم نستزد جديدا من الأحوال ومقتضياتها ".

ومثل هذا الكلام ذكره أيضا الشيخ أمين الخولى فى فن القول[2]، مما يدعونا الى الاعتقاد بأن الدكتور عبد الرزاق قد اطلع على هذا الكتاب وتأثر به .

على أننا نجد فى كلام الأقدمين أنفسهم مايشير الى اهتمامهم بحال المتكلم ومن ذلك قولهم فى تقديم الشعراء : " كفاك من الشعراء أربعة : زهير اذا رغب ، والنابغة اذا رهب ، والأعشى اذا طرب ، وجرير اذا غضب "[3] وهذه وما ماثلها ليست الا أحوال المتكلمين .

---

(١) فى البلاغة العربية ص ٦٤　　(٢) انظر ص ٢٠٦ وما بعدها .

(٣) العمدة ص ٩٥ .

وفى باب القصر والاختصاص كثيرا ما يشير الامام عبد القاهر الى حال المتكلم . من ذلك قوله : " اعلم أنك اذا قلت ، ماجاءنى الا زيد ، احتمل امرين : أحدهما أن تريد اختصاص زيد بالمجىء وان تنفيه عمن عداه . . . . . والثانى أن تريد الذى ذكرناه فى انما ". (١)

وقوله : " واعلم أن حكم غير فى جميع ماذكرنا حكم الا ، فاذا قلت : ماجاءنى غير زيد ، احتمل أن تريد نفى أن يكون قد جاء معه انسان آخر ، وأن تريد نفى ألا يكون قد جاء وجاء مكانه واحد آخر ". (٢) وقوله : (تريد) فى هذه العبارات وأمثالها انما هو اشارة لحال المتكلم ، والضمير فى (تريد) عائد اليه .

هذا الى أن أحوال المتكلم قد شاع الحديث عنها فى مواضع أخرى لعبد القاهر . من ذلك قوله : " والمراد بالكناية ههنا أن يريد المتكلم اثبات معنى من المعانى فلا يذكره باللفظ الموضوع له فى اللغة ولكن يجىء الى معنى هو تاليه وردفه فى الوجود ". (٣)

على أن غرض المخبر من خبره ـ كما هو معلوم ـ أحد أمرين : فائدة الخبر أو لازم الفائدة ، وهذا الثانى هو افادة المخاطب أن المتكلم عالم بالحكم . واذن فلازم الفائدة حالة من حالات المتكلم. (٤)

وكذلك فان الخبر قد يخرج عن هذين الغرضين الأصليين الى أغراض أخرى مثل : التحسر ، اظهار الضعف ، الفخر ، التوبيخ ، الاستعطاف وهذه وما ماثلها ليست الا أحوال المتكلم. (٥)

هذا وليس التأكيد محصورا فى الطلبى والانكارى من أضرب الخبر ـ كما يقولون ـ فان التأكيد يأتى لأغراض أخرى كثيرة منها :

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٢٦٠ ط بيروت
(٢) المرجع السابق ص ٢٦٨
(٣) المرجع السابق ص ٥٢
(٤) انظر ص ٢٣ من كتاب توضيح المعانى للدكتور العمارى .
(٥) المرجع السابق .

١ - شعور المتكلم أن المخاطب لا يطمئن الى خبره .

٢ - رغبة المتكلم فيما تضمنه الخبر .

٣ - قصده المبالغة فى تحقيق الخبر . (١)

وهذه الثلاثة أيضا من أحوال المتكلم . اذن فليست أحوال المخاطب وحدها هى التى اهتم بها علماء البلاغة ، وان كانت هى التى سلطت عليها الأضواء أكثر من أحوال المتكلم .

ونعود الى الدكتور عبد الرزاق حيث يتحدث فى بحثه بعد ذلك عما جد فى العصر الحديث " من فنون تعبيرية جديدة كالملحمة والقصة والرواية ، كما انتهى الينا مدد من الدراسات النفسية والحوافز الشعورية واللاشعورية لدى المتكلمين . لهذا لابد من استكمال الدراسات البلاغية لخصائص هذه الفنون ومعرفة مقتضيات القول فيها لتصوغ النقد الأدبى صياغة علمية ذات ضوابط وحدود ".

وأيضا هذا الكلام ليس جديدا بل تحدث عنه الأستاذ الخولى والأستاذ الشايب والأستاذ البشرى والدكتور طبانة وغيرهم . ويكاد العلماء المحدثون والنقاد يجمعون على ذلك . وهو أن البلاغة العربية يجب أن تخرج من نطاق الجملة والجملتين الى رحاب النص الكامل من شعر وقصة ومقال ... الخ .

ويقول الدكتور بعد ذلك : اننا أخذنا بعض القواعد البلاغية عن السابقين مأخذ التسليم دون أن نحاول مراجعتها أو عرضها على أذواقنا وذلك لثقتنا المطلقة فيهم ، مع أن فى هذه القواعد كثيرا من مظاهر التناقض والأمثلة على ذلك كثيرة . وقد أتى بمثال واحد على ذلك وهو تنكير المسند اليه :

" فنسمعهم يقولون : ان لتنكير المسند اليه خصائص كثيرة فهو يفيد الافراد فى قوله تعالى " وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى " ،

---

(١) المرجع السابق ص ٢٧ .

والتعظيم والتحقير فى قول الشاعر :

له حاجب عن كل أمر يشينه ... وليس له عن طالب العرف حاجب

والنوعية فى قوله تعالى : " وعلى أبصارهم غشاوة " والتكثير فى نحو : ان له لابلا وان له لغنما ، والتقليل نحو : " ورضوان من الله اكبر " والتعظيم والتكثير فى قوله تعالى : " وان يكذبوك فقد كذبت رسل " أى رسل ذوو عدد كبير وذوو آيات عظام .

هذا مايقولونه عن تنكير المسند اليه وماله من خصائص مختلفة قد تبدو متناقضة كالتعظيم والتحقير ، والتقليل والتكثير " .

هذا ماقاله صاحب البحث . والواقع أنه لا تناقض هنا لأن التعظيم والتحقير والتقليل والتكثير مستفاد من سياق الكلام وتسلسل التعبير لا من المعنى الوضعى للكلمة ولا من مجرد تنكيرها . ويكاد الدكتور نفسه يوافقنى فى ذلك اذ يقول بعد قولته السابقة : " ان الصورة الواحدة لا يمكن أن تؤدى الا غرضا واحدا أو أغراضا متقاربة غير متناقضة على الأقل ، فان أدت خواصا متعددة ومتناقضة فلا بد أن يعود ذلك الى شىء فى الجملة سواها والى ملابسات اتصلت بها وليس لها وحدها . وعلى هذا تكون الخواص المختلفة من صنع الجملة كلها أو من أثر الملابسات لها . وليس ما أورده البلاغيون من مفادات مختلفة آت من كون المسند اليه نكرة " .

ويذهب الدكتور بعد ذلك يستدل - بنفس الأمثلة التى ذكرها آنفا - على أن السياق والمقام هو الذى يحدد الغرض من التنكير وليس التنكير وحده . يقول : " فالتعظيم والتحقير اللذين نتلمسهما فى كلمتى حاجب من قول الشاعر :

له حاجب عن كل أمر يشينه ... وليس له عن طالب العرف حاجب

منشؤهما أسلوب التعبير وملابسة القول ، فالبيت فى مقام المدح وذلك باثبات شىء للممدوح ونفيه عنه ولا يتم المدح الا باختلاف بين مايثبت وما ينفى وحين تثبت الصفة للممدوح ثم تنفى عنه لابد أن يكون المثبت منها له أفضل صورها والمنفى منها عنه أهون صورها . فاذا ما نظرنا الى ماتعددت له كلمة حاجب فى الأول وهى مثبتة وجدناه : عن كل أمر يشينه . فالمدح يقتضى أن يكون حاجبا قويا عظيما ، واذا ما نظرنا الى ماتعددت له كلمة حاجب الثانية وهى منفية وجدناه عن طالب العرف . وحيث ان ما أثبت له كان بصورة معظمة فلابد أن يكون مانفى عنه بصورة محقرة . فتنكير المسند اليه لم يؤد هذه الخاصية بمفرده وانما أداها الأسلوب والمناسبة .

وكذلك التكثير فى قولنا : ان له لابلا وان له لغنما : فالتأكيد بان واللام وتكرار هذا التأكيد هو الذى هيأ فهم التكثير وليس ورود المسند اليه نكرة .

وكذلك التعظيم والتكثير فى قوله تعالى : " وان يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك " أى رسل ذوو عدد كثير وذوو آيات عظام . المقام مقام تسلية للرسول عليه السلام وحمل على الرضا والتجلد ولا تتأتى التسلية والتصبير عن طريق الناس بأفراد قليلين أو بجماعة لا خطر لها فلا بد أن يكون مضرب القدوة جماعة لها شأن وشأن عظيم " .

وللدكتور رجاء عيد فى ذلك رأى مماثل أيضا : " فالتعظيم والتحقير الذى أفاده تنكير المسند اليه فى قول الشاعر :

وللـه منى جانب لا أضيعـه ... وللهو منى والخلاعة جانب

لم يأت من التنكير فقط بل أتى من السياق . فـ " جانب " الأولى منسوبة الى الله وفيها تأكيد بالنفى " لاأضيعه " والذى يؤكد المعنى أكثر من قوله :

ثابت أو موجود مثلا مع مجيئه مقدما الأمر الذى يوحى بأهميته ، و " جانب " الثانية جاءت بلا تأكيد ويتداخل الشعور الدينى والاخلاقى لذكر الهو والخلاعة حتى يدفع الى القول بأنه للتحقير . ولو وجد البلاغيون البيت مثلا :

ولله منى الجانب المتثبت   وللهو منى والخلاعة جانب

لرأيتهم يسرعون الى القول بأن التعريف للتعظيم . وفى رأينا أن الذى دفع البلاغيين الى هذه المتاهات هو الرغبة فى تقنين مسائل بلاغية تعلو على التقنين ".(١)

وأخيرا يختتم الدكتور عبد الرزاق بحثه بقوله : " أيها السادة الزملاء : ان دارسى البلاغة من طلاب الثانويات والجامعات حين يواجهون بقائمة طويلة من الأغراض المتناقضة لشىء واحد يقعون موقع الحيرة ولا يملكون الا حفظها من غير وعى وتبين . لهذا أرى من الضرورى مراجعة ماورثناه من أحكام بلاغية بكثير من الفحص وازالة اللبس وتكملة مافات الأوائل جزاهم الله خيرا وكم ترك الأول للآخر ".

تعقيبات مجمعية على بحث " مفاهيم بلاغية " :

عقب على بحث الدكتور عبد الرزاق محيى الدين بعض من الاساتذة الذين حضروا جلسة المجمع . منهم الأساتذة عباس حسن وزكى المهندس وأنيس المقدسى ومحمد خلف الله ، وقد أعجبوا بهذا البحث ورأوا أنه فتح آفاقا جديدة فى ميدان البحث البلاغى جديرة بالاهتمام والتقدير .

وقد أشرنا فى ثنايا البحث الى تعليق الدكتور عباس حسن . وهناك مقتطفات من تلك التعليقات الأخرى :-

---

(١) فى البلاغة العربية ص ٣٧ .

الأستاذ زكي المهندس : أحب أن أضيف الى هذا أن للمرحوم الأستاذ احمد حسن الزيات كتابا ضخما في الدفاع عن البلاغة العربية . كذلك للمرحوم الأستاذ أمين الخولي كتاب " فن القول" وهي محاضرات ثمينة في البلاغة ألقاها في كلية الآداب .[١]

الأستاذ أنيس المقدسي : أوافق الاخوان الذين رأوا في محاضرة الدكتور عبد الرزاق محيي الدين أشياء جديدة وجوانب مفيدة . وأحب أن أضيف فكرة صغيرة تتعلق بمسألة الغموض والوضوح ، وأعتقد أن المقام الكتابي نوعان : المقام العلمي والمقام الأدبي . ففي المقام العلمي تكون الكلمات الفصيحة هي التي تؤدي المعنى المحدود الواضح الذي لا تعقيد فيه . أما المقام الأدبي فالفصاحة ليست في تأدية المعنى المحدود ولكن الكلمة قد تدل على معنى أو معاني المعاني . والبلاغة هي الوصول الى معاني المعاني في الأدب فقد يكون في هذا شيء من الغموض لا في اللفظ نفسه ولكن في التوصل الى هذه المعاني أي معاني المعاني .[٢]

الأستاذ محمد خلف الله : أعبر عن تقديري للبحث الدقيق الذي استمعنا اليه من الزميل الدكتور عبد الرزاق محيي الدين . ونحن في حاجة الى مثل هذه البحوث الدقيقة التي تتعرض لمفاهيم تراثنا العربي بالتحليل والتجديد في التفكير . وأعتقد أن الدعوة الى العناية بعلوم البلاغة العربية تجيء في حينها ... . والفنون الأدبية الحديثة وعلى الأخص القصص أصبحت تستلزم في نقدها وفي دراستها مفاهيم أخرى لم تكن لازمة ولا موجودة بهذا الشكل في كتابتنا النثرية القديمة ، وهذا يتصل به شيء كثير من سبب الانصراف عن درس البلاغة ، أو عدم الميل عند الكثيرين في العصر الحاضر على متابعة التراث العربي الأدبي الرفيع ومفاهيمه .

---

(١) مجلة المجمع ج ٢٢ ص ١٣٢ (٢) المرجع السابق ص ١٣٣ .

وهذا ما جعل الدراسة فى بعض الأقسام الجامعية التى كان واجبها أن تعنى بالدرس البلاغى تنصرف عنه شيئا ما ... .

فهذا كله حقيقة تجعلنا نلح فى ألا نهمل هذا التراث الذى يتصل الاتصال كله بالقرآن وبتراثنا العربى فى عصوره الطويلة ، وفى أن نزكى الدعوة للمتخصصين وللمهتمين بالدراسات العربية أن يهتموا به .

وأقول : إن هذه المحاضرة " مفاهيم بلاغية " التى ألقيت فى مجمع اللغة العربية ليست فى مستوى المجمع . وكنا نتوقع من أعضاء المجمع بحوثا ومحاضرات فى تجديد البلاغة على مستوى أعلا . فليس المهم أن ننقد بلاغتنا القديمة ونبرز بعض مساوئها بقدر مايهم أن نضع لبنات جديدة فى صرح تجديدها . ولا يكفى أن تتردد فى جنبات المجمع دعوات التجديد دون تجديد .

تخطيط رسمي جديد للبلاغة

وضعت لجنة المعارف[1] تخطيطا جديدا للبلاغة عند ما اجتمعت للنظر فى تيسير العلوم العربية ومنها البلاغة . وقد جاء هذا التخطيط ضمن التقرير[2] الذى كتبته اللجنة عن البلاغة وجاء فى أوله " ان العرب قد استطاعوا أن يستغنوا عن البلاغة ويعيشوا بدونها عصرا طويلا هو من أزهى عصور الحياة الأدبية وأروعها . وقد عدلت الأمم الحديثة فى تعليم لغاتها وآدابها عدولا تاما فلم يصبها من ذلك شر ما . ومع ذلك لم نعدل عنها ، ولم نطلب الغاءها ، وانما رددناها الى أصلها ، وجعلناها فصلا من فصول الأدب ، ووسيلة من وسائله ، والغينا منها ما لا صلة بينه وبين الحياة الأدبية ، وأضفنا اليها أبوابا بحث عنها القدماء من النقاد فى إجمال ، ويبحث عنها المحدثون فى كثير من التفصيل ، وقد أهملت فى البلاغة الرسمية اهمالا تاما " .

ورأت اللجنة أن التخطيط العام لأبواب البلاغة يجب أن يكون كما يلى :-

أ - معنى البلاغة - الغرض منها .

ب - الأسلوب : معناه ، اختلاف الأساليب باختلاف الكتاب والشعراء ، نماذج من أساليب مختلفة كابن المقفع والجاحظ وبديع الزمان وابن خلدون ، وبعض المحدثين الشعراء كبشار وأبى تمام وابن الرومى والبهاء زهير - الايجاز والاطناب والمساواة - الفرق بين الأسلوب الأدبى والأسلوب العلمى .

---

(١) كانت اللجنه مكونه من الاساتذة : طه حسين ، واحمد أمين ، وعلى الجارم وابراهيم مصطفى ، وعبد المجيد الشافعى ، ومحمد أبو بكر ابراهيم .

(٢) انظر التقرير فى صحيفة دار العلوم ، عدد اكتوبر ١٩٣٨ ص ٥٦ ومابعدها .

هـ - أهم الموضوعات الأدبية :

(١) الوصف : شروط جودته ، استعراض لوصف جيد ووصف غير جيد .

(٢) المقالة : معناها ، شروط جودتها ، نماذج منها .

(٣) القصص : معناه ، أنواعه ، شروط جودته ، نماذج منه .

(٤) الخطابة : معناها ، شروط جودتها ، نماذج منها .

(٥) تراجم الأشخاص : شروط جودتها ، نماذج منها .

و - الشعر والنثر والفرق بينهما :

الشعر : شرح لمعنى البيت والقصيدة والقافية ، الماهة بمعنى الوزن فى الشعر ، لغة الشعر ، خياله ، موضوعاته ،أوصاف الشعر الجيد .

النثر : لغته ، موضوعاته ، أوصاف النثر الجيد .

هـ - الكلمة :

بم تفضل كلمة كلمة فى الموضوع الواحد ، دقة استعمال الكلمة ، جمالها ، ملاءمتها لموضوعها ، دلالتها بالوضع وبالالتزام .

(ويراد بالدلالة بالوضع معنى الكلمة كما تدل عليه المعاجم ، والالتزام تأثر الكلمة بما حولها من معان وجو ونحو ذلك) .

و - الجملة :

تقسيمها الى خبر وانشاء ، وأغراضها البلاغية - التقديم والتأخير - الفصول " الفقر " معناها ، علاقة الفقر بالموضوع ، علاقة الفقر بعضها ببعض - وحدة الموضوع : فى الشعر ، فى المقالة ، فى الرواية - التشبيه والاستعارة : معناهما ، الفرق بينهما ، متى يحسنان - الكناية - نماذج كثيرة من التشبيه والاستعارة والكناية ونقدها - المحسنات البديعية : نماذج منها متى تحسن ، ومتى لا تحسن من ناحية الكم ومن ناحية الكيف .

ونلاحظ للوهلة الأولى أن هذا التخطيط ينطبق كثيرا على منهج الأستاذ الشايب فى كتابة " الأسلوب " . - كما سنرى فى الباب الثالث غير أن هذا التخطيط ورد فى التقرير مجملا بينما ورد فى كتاب الأسلوب مفصلا . وإذا كان هذا التخطيط قد صدر من اللجنة فى أول عام ١٩٣٨م . وصدر كتاب الأسلوب عام ١٩٣٩م ، فمن الواضح أن الأستاذ الشايب قد استفاد كثيرا من هذا التخطيط بالاضافة الى أبحاث الأستاذ الخولى فى البلاغة . وليس هذا بعيب نعيبه على الأستاذ الشايب وانما هى مجرد ملاحظة .

كما نلاحظ فى هذا التخطيط الغاء التقسيم القديم لعلوم البلاغة الثلاثة - المعانى والبيان والبديع - وبثها فى ثنايا أبواب وفصول التخطيط الجديد .

واذا نظرنا الى هذا المنهج - أو التخطيط - الذى اقترحته اللجنة فى البلاغة نجده يتضمن أنواعا ثلاثة :

(١) موضوعات هى مما دون فى مناهج البلاغة قديمها وحديثها وهى : معنى البلاغة - الايجاز والاطناب والمساواة - الجملة وتقسيمها الى خبر وانشاء - التقديم والتأخير - التشبيه والاستعارة والكناية - المحسنات البديعية .

(٢) مباحث من مناهج الأدب وهى : الخطابة - الشعر - النثر - تراجم الأشخاص .

(٣) أبواب قالت اللجنة انها قد " بحث عنها القدماء من النقاد فى اجمال وبحث عنها المحدثون فى كثير من التفصيل وهى : الأسلوب - الوصف - القصص - المقالة - الفصول - الفقر - وحدة الموضوع .(١)

---

(١) انظر نقد تقرير المعارف فى صحيفة دار العلوم عدد أكتوبر ١٩٣٨ ص ٥٨ . وما بعدها .

ونلاحظ فى النوعين الثانى والثالث أن التخطيط أدمج البلاغة فى مسائل الأدب وقد أشارت اللجنة الى ذلك فى المقدمة حيث قالت : "وقد رددناها الى أصلها ، وجعلناها فصلا من فصول الأدب ، ووسيلة من وسائله" ، ولا أدرى ان كان هذا الاجراء تعظيما للبلاغة أو استهانة بشأنها ، ولكن هذا الأجراء - على أى حال - ليس غريبا على البلاغة فأقوى أيامها وأفضل عهودها أيام كانت هى والأدب توأمين لا ينفصلان .

كانت تلك - فيما وجدنا - هى أهم البحوث والمحاضرات والتقارير التى عرضت للبلاغة وتحدثت عن تجديدها واشتملت على بعض مقترحات وخطط لتجديد البلاغة هى وان كانت صغيرة محلية ، الا أن لها أهميتها التى لا تنكر عندما نحاول أن نقدم على تجديد البلاغة .

وتتميما للفائدة رأينا أن نتبع هذا الفصل بفصل آخر نبين فيه آراء مجموعة من الأساتذة الذين مارسوا تدريس البلاغة فى الجامعات . ولا شك أن لهذه الآراء - مهما قل حجمها - قيمتها وتقديرها كما أن لها أثرها فى دفع عجلة التجديد البلاغى الى الأمام .

الفصل الثاني

آراء في تجديد البلاغة

دعوات التجديد البلاغية في العصر الحديث كانت ومازالت ترتفع بها الأصوات من جانب المهتمين بالبلاغة وباللغة العربية وتراثها . ونحن هنا ـ بعد أن استعرضنا البحوث التي كتبت والمحاضرات التي ألقيت في البلاغة وتجديدها ـ نعرض لآراء بعض أساتذة الجامعات الذين لهم دور ملموس في تدريس البلاغة ، لأنهم الأقدر من سواهم على معرفة حاجتها وتفهم مشكلاتها . واذا كان الطبيب يستطيع بالكشف على مريضه أن يحدد الداء ويعرف الدواء ، فانهم ـ ولا شك ـ يعرفون داءها ويستطيعون أن يصفوا دواءها . ولذلك رأينا ألا نهمل آراءهم حتى ولو كانت اشارات عابرة .

واننا في هذا الفصل ـ علاوة على ماأوردنا من بعض الآراء في ثنايا البحوث السابقة ـ سنعرض لآراء الأساتذة :

١ ـ د . احمد مطلوب
٢ ـ د . على عبد الرازق
٣ ـ د . بدوى طبانة
٤ ـ د . حفنى شرف
٥ ـ د . على العمارى
٦ ـ د . محمد نايل
٧ ـ د . كامل الخولى

(١) **الدكتور احمد مطلوب :**

يرى الدكتور مطلوب أن البلاغة العربية كانت فى القرن الماضى فنونا تحفظ وشروحا تدرس ، وحينما أطل فجر النهضة الحديثة واتصل العرب بالغرب ورأوا ماعندهم من مناهج أدبية التفتوا الى تراثهم يحيون مافيه النفع ويأخذون عن الغرب مافيه انارة السبيل ، ولم تمض سنوات حتى بدأ الأزهر الشريف يعيد النظر فى مناهجه ، وأخذت المعاهد والجامعات تقيم دراساتها على أسس علمية قوية ، وكان للبلاغة نصيب بما حدث للحياة الفكرية من تطور وتقدم فظهرت دراسات جديدة وضعت المعالم فى الطريق .

وقد تحدثت هذه الدراسات عن نشأة البلاغة وتطورها ، ورسمت صورة واضحة لها ولكنها تكاد تتفق فى أمرين :

الأول : اتخاذها المنهج التاريخى سبيلا لتصوير حياة البلاغة .

والآخر : اهمالها بعض البلاغيين الذين كانوا يصلون بين جيل وجيل أو مذهب ومذهب وعدم التفصيل فى البلاغة الحديثة التى يسعى اليها المجددون .(١)

ويرى د . مطلوب أن الأزهر الشريف هو أول من حمل لواء التجديد فى البلاغة وذلك بأن قيض الله له الأستاذ الامام محمد عبده - رحمه الله الذى أخذ يحيى كتب السلف النافعة وعلومهم ويقوم ما اعوج من مناهج التأليف وطرائق التدريس فقد انصرف الشيخ محمد عبده الى تدريس كتابى دلائل الاعجاز وأسرار البلاغة لعبد القاهر ، وبذلك فتح أذهان الطلبة وقوى مداركهم ومواهبهم ، لأنهم وجدوا فى تدريس الامام غير ما ألفوه . وبذلك كان الجامع الأزهر أول معهد من معاهد التعليم الاسلامى والعربى قرئ فيه دلائل الاعجاز وأسرار البلاغة - بعد الغفوة الطويلة - درسا لطلاب البلاغة ولأجله طبع الكتابان وانتشرا . . ويرى أنه بسبب ذلك قد تخرج فى الأزهر الشريف فى مطلع العصر الحديث جيل فيه عزم على البحث وفى روحه اندفاع الى التجديد .(٢)

---

(١) مناهج بلاغية - د . مطلوب - ص ٧

(٢) اتجاهات البلاغة العربيه / د . مطلوب / ص ١٨ .

وفى كتاب اتجاهات البلاغة العربية أجمل الدكتور مطلوب رأيه فى التخطيط العام للبلاغة العربية الجديدة . وهو يتمثل فى الغاء التقسيم الثلاثى لعلوم البلاغة ، واعتبار البلاغة فنا واحدا . وأن تتجاوز البلاغة مجال البحث فى الجملة والجملتين الى البحث فى الفقرة والقطعة الأدبية والأساليب المختلفة وتستعين بما ذكره القدماء كعبد القاهر وابن الأثير فى ذلك . أما مصطلحات البلاغة فينبغى تقليلها والاكتفاء بأهمها . فالمجاز مثلا لا حاجة الى تقسيمه الى أنواع كثيرة ، وانما نكتفى بتقسيمه الى لغوى وعقلى كما فعل الجرجانى ، أو نعتبره لغويا كله كما فعل السكاكى ونكتفى فى الاستعارة بمصطلحات قليلة ولتكن الاستعارة التصريحية والاستعارة المكنية ورد جميع الأنواع الأخرى الى هذين النوعين .

كما يجب أن نهتم فى بحث البلاغة بالناحية الأدبية وتخير الأمثلة والقطع الرائعة من القرآن الكريم وكلام العرب ، كما نهتم بتحليل الأمثلة تحليلا أدبيا يعتمد على الادراك والاحساس الفنى . ويجب أن نبعد ما أدخله القدماء فى البلاغة من الفلسفة والأصول والمنطق وعلم الكلام مستعينين ببعض الدراسات النفسية وما لها من أثر فى الفن الأدبى ، ولكن لا الى الحد الذى تتجاوز فيه البحث البلاغى فتطغى عليه كما طغى المنطق وعلم الكلام فأخرجها عن غايتها التى من أجلها بحثت . وبذلك نبعث فى البلاغة العربية الروح من جديد لتكون صالحة لنقد الأدب، وانشائه ، وتكون ملائمة للفن الأدبى المتطور .(١)

هذا رأى الدكتور مطلوب فى تجديد البلاغة . وهو يصلح منهجا صغيرا للتجديد له اعتباره وقدره بجانب المناهج الكبيرة التى سنوردها فى الباب الثالث من هذا البحث . وقد أعجبنى فى هذا المنهج دعوة وتحذير . أما الدعوة فهى الى نبذ ما أدخله القدماء فى البلاغة من الفلسفة والمنطق والأصول

---

(١) اتجاهات البلاغة العربية ص ٢٥ بتصرف.

وعلم الكلام ، وادخال ـ بدلا منها ـ بعض الدراسات النفسية لما لها من أثـر فـى الفـن الأدبـى .

وأما التحذيـر : فهو من أن تتجاوز تلك الدراسات النفسية مداها فى البحث البلاغى فتطغى عليه كما طغى المنطق والأصول وعلم الكلام من قبـل .

وهـذا التحذير ـ فى رأيى ـ مهم جدا . لأن الكثير من دعوات التجديد كما رأينا وكما سنرى ـ قد اقترحت ادخال الدراسات النفسية بدل المنطق والفلسفة وغير ذلك مما أغرق البلاغة وغطى عليها حتى عادت كتب البلاغة كتبا فـى المنطق والفلسفة اكثر منها كتبا فى البلاغة . فنحن والأمر كذلك نخشـى أن تتحول كتب البلاغة فى مرحلة التجديد الى كتب فى الدراسات النفسـية .

كما أعجبنى فى هذا المنهج أيضا دعوة د . مطلوب الى تقليل المصطلحات البلاغية والاكتفاء بأهمها . وهذه النقطة بالذات تشكل جانبا هاما من شكـوى الطلاب وانصرافهم عن الدرس البلاغى وضيقهم به . وما أورده من أمثلة جـديـر بالنظر والاهتمام . فلماذا لانقصر المجاز على قسميه اللغوى والعقلى أو نعتبره لغويا كله كما فعل السكاكى ونقطع أذناب الفروع والتقسيمات الأخـرى والمهم أن يستقر فى ذهن الطلاب المراد بلاغيا بالحقيقة والمجاز وأمثلة واضحة لكل منهمـا فيها ذوق وجمال . وكذلك الاستعارة: لاداعى للاستطراد فى فروعها وأقسامها بل نكتفى بالاستعارتين التصريحية والمكنية ونرد الأنواع الاخرى اليهما بل ونعمل على تبسيطهما قدر الامكان بحيث يفهم الطلاب الاستعارة ويقتنعون بها ويستطيعون تطبيقها فى أحاديثهم وكتابتهم الأدبية . أما بالنسبة للمتخصصين فى الكليات والدراسات العليا فلا مانع من الزيادة والتفصيل .

(٢) الدكتور علي عبد الرازق :

ان التقسيمات الكثيرة التى تناولت أبواب البلاغة وطفت على أبحاثها ورأى الدكتور مطلوب أنه لا داعى لها ، واقترح اختصارها قد نبه الدكتور على عبد الرازق أيضا اليها والى قسوتها وسخفها وعدم جدواها ، قال : " وقد كان بودنا لو تيسر لنا البحث فى سر هذه التقسيمات التى جاءوا بها فى باب التشبيه ، وجاءوا بمثلها فى باب الاستعارة ، فان استخراج أقسام شتى لشىء واحد وتنويعه الى أنواع وأجناس وتجزيئة الى أجزاء أمر ميسور لكل ناظر ، سهل على كل من شاء ، ولو أننا ذهبنا نستخرج للتشبيه أقساما كالتى استخرجوها لكان فى مقدورنا وفى مقدور كل أحد أن نبلغ بالأقسام مئات وألوف . فلنا أن نقسمه باعتبار وجهه مثلا الى ما يكون وجه الشبه فيه ذاتيا من ذاتيات المشبه أو المشبه به أوهما ، أويكون عرضيا كذلك ، والعرض اما أن يكون لازما أو متخلفا ، والمتخلف اما سريع الزوال أو بطيئه ، فينتج من ذلك خمسة عشر قسما فان شئت ضعفتها الى ضعفين وأضعاف وان شئت اختصرتها .
وعلى هذا الأسلوب يمكن أن يقسم التشبيه باعتبار كل ركن من أركانه ، وكذلك يمكن القول فيه باعتبار أداته ، ويمكن أن يعتبر فى التشبيه شىء آخر غير أركانه الأربعة يلحق بها انقسامات وتنوعات . . . . . وكذلك القول فى الاستعارة وتقسيماتها . . وما دامت مبانى التقسيم عندهم أمورا انتزاعية وشئونا اعتبارية فان لكل قادر شاء أن يعتبر وينتزع . اللهم الا أن يجعل الحكم فى ذلك للفائدة فلا يقبل من التقسيم الا ما كان اذا حظ من الفائدة والنفع وما كان داخلا تحت حدودها . . " (١)

---

(١) أمالى على عبد الرازق ص ٨١ و ٨٢ .

وفى الواقع ان هذا الضيق من تلك التقسيمات الكثيرة والفروع المتداخلة ليس قاصرا على المحدثين ، ولا ضاق به الجيل الجديد من الدارسين للبلاغة فقط ، فهذا هو سعد الدين التفتازاني - وهو أحد أقطاب المدرسة الكلامية - يعيب على السكاكي كثرة التقسيمات التى أوردها فى التشبيه ويفضل عليه منهج عبد القاهر فيقول : " واعلم أن أمثال هذه التقسيمات التى لا تتفرع على أقسامها أحكام متفاوتة قليلية الجدوى ، وكأن هذا ابتهاج من السكاكي باطلاعه على اصطلاحات المتكلمين ، فلله در الامام عبد القاهر واحاطته بأسرار كلام العرب وخواص تراكيب البلغاء ، فانه لم يزد فى هذا المقام على التكثير من أمثلة أنواع التشبيهات وتحقيق اللطائف المودعة فيها ".(1)

أجل ان هذه التقسيمات والتفريعات التى تناثرت هنا وهناك بكثرة هى من أهم الأسباب التى شوهت وجه البلاغة ، وحالت بين الدارسين والأدباء وبين هضمها وتفهمها واستعمالها فى النقد والأدب . فضاق بذلك مجال البلاغة وأصبحت على مر الأيام معزولة عن الحياة ، غريبة حتى بين أهلها .

---

(1) المطول ص ٣١٦ .

(٣) **الدكتور بدوى طبانة :**

يرى د . طبانة : أن البلاغة تشريع للأدب يضع قواعده ويحدد أصوله ويرسم طريقه ومنهجه ، واذا كان الأدب تعبيرا ممتازا فان البلاغة هى التى توضح معالم هذا التعبير الممتاز وتبرز عناصره لينتفع بها الأدباء حتى يستطيعوا أن يحققوا هدفهم الذى يرمون اليه من اقناع العقول أو التأثير فى العواطف والقلوب ... .

واذا كانت تلك هى حقيقة البلاغة فانها تتسع لدراسة فنون الأدب ورسم خطوطها ولا تقتصر على بعض الأجزاء القليلة من الفن الأدبى ، وانما ينبغى أن تحدد كل فن من فنون الأدب وتشرح مظاهر الاجادة وأسباب التوفيق فيه كما رسمت الطريق للكلمة المفردة وللجملة المركبة .

ثم ان علم البلاغة هو " علم الأسلوب " ولا شك أن الأساليب تختلف من موضوع الى موضوع كما تختلف من فن أدبى الى فن أدبى آخر . وهذا الأختلاف يوجب علينا أن ندرس خصائص كل فن ونوضحه ونحدد جوهره وغايته وموضوعه وشكله ونشرح ما ينبغى أن يتوافر فى كل منها . فللشعر أقسامه وفنونه وله معانيه وأخيلته وله صوره وأشكاله . وللنثر أبوابه القديمة من الخطب والأمثال والوصايا والرسائل والمقامات والجدل والمناظرات ، وأبوابه الجديدة من المقالة التى تختلف فى الموضوع والغاية ، والقصة التى ولدت فى هذا العصر ونفق سوقها واتسعت دائرتها وتعددت أنواعها كما تعددت مناهجها ، والمسرحية التى عظم شأنها فى الأدب العربى فى هذا الزمان وكل فن من هذه الفنون جدير بأن تحدد معالمه وأن تعرف مواضع الاصابة فيه .

والموضع الطبيعي لهذه الدراسة هو البلاغة التي تستقي قواعدها من أعمال الأدباء ومن أعمال النقاد ثم تصفيها وتجعل منها دستورا قابلا للتجدد بتجدد العصور وتطور الأذواق ، فلا يكون لهذا الدستور صفة الخلود الا اذا خلدت المقاييس التي أثبتها ووقف الأدباء في دائرتها لا يتجاوزونها وهيهات . . . فدخول مثل هذه الدراسات في البلاغة يتفق تماما مع طبيعتها التي تضع أصول الفن الأدبي ، وتلك الأصول هي الخلاصة العلمية المنظمة التي اهتدت اليها الأجيال بعد درس لجميع الظواهر الفنية في الأدب .

وبهذا تستطيع البلاغة أن تتفاعل مع الأدب وتتفاعل مع النقد الأدبي كما تتفاعل مع اللغة والبيئة وألوان الثقافة وفنون المعرفة التي تتصل بالأدب وتؤثر في الأديب . وهذا التفاعل هو الذي سيهيئ للبلاغة سبيل التجديد وسبيل الحياة.(١)

هذا ومن قرأ كتاب الأسلوب للشايب يرى بوضوح اتفاق وجهات النظر بينهما في تجديد علم البلاغة . الا أن الأستاذ الشايب قد فصل منهجه في كتابه الأسلوب ، بينما د . طبانة قد أجمل هذا المنهج في آخر كتابه : البيان العربي .

---

(١) البيان العربي ص ٣٢٥ - ٣٢٧ ط بيروت .

(٤) الدكتور حفني شرف :

يرى د . حفني شرف أنه يجب علينا أن نعيد النظر في قواعد البلاغة القديمة لتهذيبها مما أصابها من الخلافات والاعتراضات وتقديم المقدمات واستنتاج النتائج ، ونقلل من القواعد ونكثر من الشواهد ونكشف عن الجمال الذى اكتسب رفعة ومكانا . كما لا نفرض القاعدة على النص بل نتحسس سبب الحسن والجمال فيه ، ولا بأس بأن ندمج بعض الألوان التي تتشابه حتى لا نكثر التعريفات التي شوهت جمال البلاغة كما يجب ألا نقف في التأليف البلاغي عند ذكر التعاريف والأمثلة بل نبين أسرار الجمال وصلة ذلك بالنفس الانسانية ، كما يجب في التأليف البلاغي للناشئين أن نترك الأمثلة التقليدية التي لا تصلح للعصر الحاضر ولا نستعملها الا بالقدر الذى يؤدى الى فهم القديم ، لأنه لا جديد لمن لا قديم له ، كما ندع طريقة التلخيص وشروحه وخلط مسائل البلاغة بالفلسفة . ويجب علينا ألا نقف في دراسة المفرد والجملة عند الحدود التي رسمها الأقدمون ، بل نبحث عن ألوان جديدة للجمال في المفرد والجملة .

أما في تطبيق مسائل البلاغة على النصوص الأدبية كمقياس من مقاييس النقد الأدبي فيجب أن يعرض هذا التطبيق في ثوب عصري مستفيد من دراسة الذوق والفن والجمال معتمد على الدراسة النفسية مؤثر للشرح والتوضيح .

ويرى د . حفني أن الوقت قد حان لتجديد البلاغة العربية والنظر في قواعدها وتطبيقها من جديد ، ذلك لأن سنة التطور التي تشمل الحياة تدعونا حتما الى التفكير الناقد فيما بين أيدينا من قواعد بلاغية قد تحجرت وأصيبت بالجمود فلم تعد صالحة للنظر والقياس .

وهناك دوافع كثيرة متضافرة تلح على تجديد البلاغة أهمها :

أولا : طبيعة الأدب العربي أن يتجدد وأن تسرى فيه دماء الحياة، وقد واكبت قواعد البلاغة أدبنا العربي منذ ومن طويل . فقبل العصر العباسي كانت هناك نظرات في النقد وتعليقات على أنتاج الأدباء ، ومنذ أظل العصر العباسي حركات الترجمة التي نقلت الى العربية بلاغة أرسطو ، والعلماء مشغولون بتأصيل قواعد البلاغة ، وقد سارت البلاغة والنقد منذ العصر العباسي في تيارين مختلفين :

أحدهما : متأثر باليونانية وبلاغة أرسطو الى حد واضح .

والآخر : من وحي الذوق العربي الخالص .

ويرى د . حفنى أن البلاغة واكبت الأدب العربي ، ولكنها لم تؤثر التأثير الكافي في تصحيح الأدب كفن ، وشغلت بمسائل جزئية استهلكت طاقتها ، وبددت سلطانها وحسن قيامها على الأدب ، وأحسسنا نحن في العصر الحديث بعد الشقة بين الأدب والبلاغة لما سرى في حياة الأدب الجديد من تطور . الأثر الذي يحفز الهمة ويدعو الى اعادة النظر في البلاغة .

ثانيا : ينبغي أن يكون في الحسبان أن البلاغة سناد الأدب قوامة عليه ، واذا كانت نظرتنا اليوم الى الأدب تقدمية ، اذ أن أدبنا صورة لحياتنا الجديدة ، فنحن ننتظر من الأدب اليوم أن يدفعنا الى التطور ويزيد احساسنا بالحياة التقدمية التي نعيشها ، فكيف يلتفت الأدب الحديث الى البلاغة الجامدة يستوحيها ويصدر عنها ؟ ...

وقد جدت في فنون الأدب اليوم أشياء لم يرها أدبنا من قبل ولم يخض غمارها . فبأى مقياس نقوم ماجد على أدبنا من فنون ؟

ثالثا : أصبحت حياتنا خصبة ، والاتجاه الذي يسود الناس هو الاتجاه العلمي المتعمق ، وكان لزاما علينا أن نغير مقاييس البلاغة بروح من البحث الخصب المتعمق .

هذا مع ملاحظة أننا حين نكسب بلاغتنا روحا من الخصب والتعمق لانقصد أن ننحرف بها عن ميدانها الأصيل ، وهو الهيمنة على الأدب كفن ذوقي يقصد منه الاستمتاع الفني والدفع القوى الى السمو النفسي والوجداني . ونحن نرى مقدار ما أضافت فيه الأبحاث النفسية وما جد على حياتنا من علم نافع ، كعلم الجمال ، وأبحاث الذوق الفني ، وعلم النفس الأدبي ، وبحث الصلات الواسعة بين الفنون - الموسيقا والتصوير والشعر والنحت وكل الفنون المعبرة - هذا كله يدفعنا الى اعادة النظر في قواعد البلاغة والنقد على أساس متعمق خصب يستلهم هذه المنافع الفنية التي برزت في هذا العصر .

رابعا : ينبغي أن تحدد مهمة البلاغة الحديثة في ظل الأدب وقد يكون واضحا أن مهمة الأدب امتاع الذوق ، واعلاء الفكر ، بما يصور لنا من خوالج النفس السوية ، وومضات الفكر الباهر ، ولتكن البلاغة قواما أمينا يرسم الطريق للذوق الأصيل ، ويشرح المنهج للفكر المستنير.(١)

وبالتأمل فيما قاله د . حفني شرف نجده يتفق مع كثير من الآراء والخطط التي أوردناها ، والتي تدور حول تخلية كتب البلاغة القديمة مما شابها من مسائل علوم الكلام والمنطق والفلسفة ، وتقليل التقسيمات والفروع ، وتنقية الأمثلة والشواهد ، ثم الخروج بالبلاغة من نطاق الجملة والجملتين الى مجال النص الكامل . وبذلك تكون البلاغة كما يقول الدكتور : " قواما أمينا يرسم الطريق للذوق الأصيل ، ويشرح المنهج للفكر المستنير " .

---

(١) التصوير البياني ص ٥٣٠ - ٥٣٤ بتصرف .

(٥) الدكتور على العمارى :

يرى د . العمارى : أن علم البلاغة أشد حاجة للبحث والدرس والتجديد من علمى اللغة والنحو . ذلك أن المتقدمين عنوا بالنحو واللغة أكثر مما عنوا بعلوم البيان ، ووجد المتأخرون مجال البحث فيهما ممهدا فأكثروا من التأليف فى هذين العلمين ، وبخاصة علم النحو ، أما علوم البلاغة فسبيل البحث فيها وعر شائك ، وليس فى استطاعة كل من تحدثه نفسه أن يقول فى البيان قولا ، لأن هذه الناحية من الدرس لاتحتاج الى التحصيل وحده ، وانما تعتمد الى حد كبير على ذوق سليم وطبع مسعف .

الشكوى من اهمال البلاغة :

ولقد ظهرت الشكوى من الاهمال فى علوم البيان فى وقت مبكر ، فوجدنا عبد القاهر الجرجانى يتحدث فى أكثر من موضع عن التقصير فى تحصيل هذه العلوم حتى ليقول : " لاترى فى الدنيا علما قد جرى الأمر فيه بديئا وأخيرا على ماجرى عليه فى علم الفصاحة والبيان .. فانك اذا قرأت ماقاله العلماء فيه وجدت جملة أوكالة رمزا ووحيا ... وأما الأخير فهو أنا لم نر العقلاء قد رضوا من أنفسهم فى شىء من العلوم أن يحفظوا كلاما للأولين ويتدارسوه من غير أن يعرفوا له معنى الا علم الفصاحة ".(١)

ولم تكن الحال بعد عبد القاهر بأحسن منها قبله ، فهذا الامام أبو يعقوب السكاكى يشكو مر الشكوى من أن علم البيان مع ماله " من الشرف الظاهر والفضل الباهر ، لاترى علما لقى من الضيم مالقى ، ولامنى من سوم الخسف بما منى ".(٢) وان كانت شكوى السكاكى تختلف عن شكوى الشيخ عبد القاهر ، فالامام الجرجانى يشكو من غموض مسائل البيان عند المتقدمين ،

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٣٥٠ بتصرف

(٢) مفتاح العلوم ص ١٧٨ .

ومن التقليد والجمود ، وعدم الغوص على معانى الأوائل عند المتأخرين ، ويتألم لما يظهر فى بحوث البيان من فحش الخطأ ، والذهاب مع الظنون الفاسدة .
وأما السكاكى فشكواه من تفرق مسائل البيان ، وأن أحدا لم يمهد لها قواعد ، ولم يرتب لها شواهد ، وكل مسألة من هذه المسائل ذاهبة فى مجاهل علم من العلوم "علم تراه أيادى سبا ، فجزء حوته الدبور وجزء حوته الصبا".(١)

وشمر السكاكى لضبط متفرقاته ذيله ، واستنهض فى استخلاصها من الأيدى رجله وخيله ، ومن قبله جهد عبد القاهر فى تخليص العلم من الظنون الفاسدة ، وبالغ فى الابانة والتوضيح ، ولكن الشكوى مابرحت تظهر كلما تقدمنا مع العصور ، فقد عكف العلماء والمتعلمون على ماكتبه السكاكى ، يستظهرونه ويجادلون حول ألفاظه ، دون أن يفيدوا العلم بجديد . مما دعا سعد الدين التفتازانى أن يقول فى مقدمة شرحه "المختصر" عن علم البيان : "وان هذا الفن قد نضب اليوم ماؤه فصار جدالا بلا أثر ، وذهب رواؤه فعاد خلافا بلاثمر".

<u>بلاغتنا اليوم :</u>

ولسنا اليوم فى حال أحسن من عهد من هذه العهود الثلاثة فيما يتعلق بهذه العلوم ، فقد تغيرت الدنيا ، وتقدمت الدراسات وثبت بما لايدع مجالا للشك ، أن دراسة البلاغة على الطريقة المدرسية وتحصيلها على أنها قوانين جافة وقواعد مضبوطة لايفيد هذه العلوم ولا يفيد طلابها ، ولايمكن بحال أن يساعد على تنمية الملكة وتربية حاسة الادراك . بل ربما كان له أثر عكسى ، كما هو الحال فيما نشاهده من أذواق المتعمقين فى دراسة كتب البلاغة السكاكية . ومع كل هذا لانزال مصرين على أن يقضى الطلاب أعمارهم فى استظهار طائفة كبيرة من التعريفات ، وعدد لاحصر له من التقسيمات التى لاطائل وراءها .

---

(١) المفتاح ص ١٧٩ .

كيف نجدد بلاغتنا :

واذا كان لابد من دراسة البلاغة فى دائرة علمية ، فنحن فى حاجة الى من ينظر ويطيل النظر فى هذه الكتب القديمة ، ويعرضها لنا بأسلوب جديد ، وبطريقة جديدة أقرب الى روح الفن ، وأعود بالفائدة على الراغبين .(١) ويقول فى موضع آخر :

وعندنا أمران لا ثالث لهما : اما أن نضع ضوابط جديدة لهذه العلوم (علوم البلاغة) ... وهذه الضوابط الجديدة ـ على الرغم من الصيحات المتتابعة ـ لم نضعها . واما أن نصوغ هذه القواعد التى بين أيدينا صياغة جديدة ، ونلتمس لها من كتب النقد والأدب شواهد جديدة . وحينئذ نكون قد قاربنا حقا بين قواعد البلاغة وبين النقد الأدبى وصناعة الأدب .(٢)

وفى موضع ثالث يقول أيضا ، بعد أن عرض عرضا موجزا للمذهبين الأدبى والكلامى : نريد أن نحدد مواضع أقدامنا من دراسة البلاغة .. وقبل أن نحدد الوضع الذى نريده نلمح بشىء عن الطرق التى تسير عليها دراسة البلاغة عندنا . فالازهر والمعاهد التى تحذو حذوه لا تزال كلها تدور فى فلك السكاكى ، تدرس التلخيص والايضاح مشروحين على الطريقة القديمة ، أو على الطريقة الحديثة ، واذا كان قد جد شىء فى السنوات الأخيرة فانما هو لفتة ضعيفة الى كتب عبد القاهر ....

ورجال وزارة التربية والتعليم نظروا فى البلاغة الغربية فنقلوها الينا خطة ، فالطريقة من هناك والامثلة من هنا ، ولقد نقرأ الكتاب المرسوم بالبلاغة والنقد المقرر على الفرقة الأخيرة من المرحلة الثانوية فلا نجد فيه أثرا لقاعدة من القواعد ، ولقد جاء فى كثير من التلاميذ وهم أشبه بالضالين فى بيداء لا يعرفون منها مخرجا .

---

(١) قضايا بلاغيه : ص ٧٥-٧٦ (٢) المرجع السابق ص ١٢٢ .

نعم تعلم اللغة يكون أجدى لو كان بالممارسة ، فيخلى التلميذ ونفسه ليقرأ ويتحدث ويجد ويلحظ فيتذوق ويكتسب . ولكن كم من الوقت والجهد يحتاجه التلميذ ليصل بهذه الوسيلة الى غايته .
لو أن فى الوقت متسعا ، ولو أن التلميذ لا يدرس الا هذه المادة لقلنا : ان هذه أجدى طريقة ، ولكن اذا كانت العلوم الأخرى تملأ كل وقته ، واذا كانت المدة التى يقضيها فى دراسة البلاغة مدة وجيزة ، فكيف نتوهم أنه يتمكن من اكتساب الذوق وتكوين الملكة .

انى لا أدعو الى حشو ذهن الطالب بالقواعد والضوابط ، ولكن مع ذلك لا أرى أن يخرج من المرحلة الثانوية وهو يجهل قواعد البلاغة وضوابطها . وأبعد من ذلك فى الخيال ، وفى توهم أن تثمر دراسة البلاغة ، أن نترك الأمر للمدرس . نعم ، يرى بعض الذين قضوا أعمارهم فى دراسة البلاغة أن نترك الأمر للمدرس ، وفى ذلك يقول أحدهم : " ولعلى فى هذا المقام أجهر ببقية رأيى ، وهو ألا توضع كتب مقررة ، بل يترك كل مدرس ، وبخاصة فى هذه الدراسة الفنية الأدبية التى تتأثر باقليمها تأثيرا شديدا ، يترك كل مدرس ليضع بين يدى تلاميذه مراجع المذاكرة وتحصيل ما عرضه عليهم فى صورته التى عرضه بها ، وما أهون أن يهيئ لهم ذلك اذا ما يسرت له الجهات الادارية سبله ، وبذل قليل مما ننفقه ثمنا لهذه الكتب "(١) .

وما أشك أن هذا كلام يقوله رجل لم يختلط بأوساط المدرسين ، وقد يظن أن كثيرين منهم نوابغ يستطيعون أن يضعوا المنهج ويؤلفوا عليه المذكرات ويلقنوه بعد ذلك لتلاميذهم .

والخلاصة : أن على الذين يتمسكون بمنهج المتكلمين أن يتخلوا قليلا عن تعصبهم لهذا المنهج ،

---

(١) فن القول ـ أمين الخولى ـ ص ٢٣ .

وأن يلتفتوا الى الكتب الاخرى التى ألفت على منهج آخر ، فيأخذوا منها مايلطف هذا الجو الذى لا أجد له وصفا الا ما وصف به شعر أبى تمام ، فقد قالوا : ان أباتمام " استكره الألفاظ والمعانى ففسد شعره ، وذهبت طلاوته ، ونشف ماؤه ".

وعلى الذين يعيشون فى أجواء باريس أو لندن أن يدركوا أن لنا بلاغة عربية مهما قيل فيها فانه لاغنى لعربى عنها ، وأن الضوابط ليست عديمة الجدوى ، بل ربما كانت ضرورية فى بعض الأحايين . ويا حبذا لو تقاربت البلاغتان ، فكان منهما مزج طيب يبقى على تراثنا القديم ، ويسير بنا فى الطريق السوى ، ويعطى الدارس ذوقا وعلما (١).

وهكذا نجد الدكتور العمارى قد رفع صوته أكثر من مرة موضحا حاجة البلاغة الى التجديد وشارحا ظروفها وما صارت اليه فى العصر الحديث . كما نجده فى دعوته الى التجديد من أنصار تجديد القديم وتطعيمه بالمناسب والصالح من الجديد . فالجديد عنده يجب أن يقوم على أساس من القديم ، فمن لا قديم له لا جديد له والقديم عنده لا يصلح أساسا للجديد الا بعد تنقيته من طائفة كبيرة من التعريفات وعدد لا يكاد يحصى من التقسيمات واستبعاد مسائل الخلاف والجدل العقيم وغيره من آثار المدرسة الكلامية ،فهذا القديم ـ كما يقول ـ يجب أن " يعرض بأسلوب جديد ، وبطريقة جديدة أقرب الى روح الفن ، وأعود بالفائدة على الراغبين " . وبعد ذلك نضيف اليه مانشاء ومانراه صالحا من الجديد . " فياحبذا لو تقاربت البلاغتان ، فكان منهما مزج طيب ، يبقى على تراثنا ،ويسير بنا فى الطريق السوى ، ويعطى الدارس ذوقا وعلما ".

---

(١) قضايا بلاغية د . العمارى ـ ص ٥١ ـ ٥٣ .

(٦) الدكتور محمد نايل :

يرى د . نايل أن احياء البلاغة العربية وتجديدها يتطلب انقلابين عظيمين : أحدهما فى البلاغة نفسها ، والثانى فى الأدب ودراسته . أما الأول فيكون بثلاثة أمور :

أولا : ازالة الأبحاث الدخلية التى لا صلة لها بالبلاغة من منطق وفلسفة وغيرهما ، وابطال الآثار التى بنيت على هذا الدخيل من الامعان فى الحصر والتحديد والتقسيم ، واعادة تنظيم البلاغة على أسس تتصل بالذوق والجمال والتأثير .

ثانيا : تجنب العمق الفلسفى فى طرائق كشف الأسرار والنكات البلاغيه وتتبعها بكل سبيل ، لأن البلاغة فن جميل ، وطبيعة الفنون الجميلة لا تقبل كثرة العمق والتدقيق ، لأن ذلك يذهب بجمالها وروائها ، ثم الاستعاضة عن هذا العمق بالعرض الواسع لأساليب البيان الساحرة ، وأناشيده الخالدة ، فان البلاغة لا تحيا ولا تفلح فى طبع الأذواق وتنمية المواهب الا اذا رجعت الى حظيرة الأدب القوى الحى ، تستمد منه غذاءها ، وتستوعب من غيره ما يتسع لها جهدها .

ثالثا : احياء الكتب التى خلفها لنا العصر الأول ، فانها لا تزال الرائد الصادق والمرشد الموفق . تهدى الى السبيل القيم فى درس البلاغة وفهم أسرار العربية ولطائفها ، وانماء المواهب وصقلها فهى لا تزال شاهدا على صفاء تلك القرائح ، وسلامة هاتيك الأذواق وهى لا تزال الى اليوم تورق رونقا وجدة ، وتفيض حياة وقوة ، ولن تزال كذلك حتى يظفر الزمن بطفرة جديدة ، فيأتى بشىء يزاحمها فى هذا الميدان .(1)

---

(1) البلاغة بين عهدين ـ ص ٩ .

ومن هذا العرض ندرك مدى التوافق بين آراء الدكتور نايل وبين آراء الدكتور العمارى السابقة . غير أننا لا نرى أن احياء كتب التراث من التجديد . فاحياء الكتب التى خلفها لنا العصر الأول - وهو لا شك يقصد كتب عبد القاهر وأمثالها - شيء لا نمنعه ولا نعارضه ، بل نشجع عليه ونستحسنه ، ولكن أن تكون هذه الكتب هى مادة الدراسة فى الوقت الحاضر فهو ما نعترض عليه ونعارضه ، لأن ذلك عود بنا الى ما قبل عهد السكاكى ، وفرق بين عصرنا وذلك العصر البعيد ، وحتى عندما قام الامام الشيخ محمد عبده فى أوائل هذا القرن بتدريس كتابى الشيخ عبد القاهر فى الأزهر لم يكن ذلك تجديدا وانما كان احياء للتراث ، وربما كان عصر الشيخ محمد عبده على قربه مناسبا لتدريس هذه الكتب . أما اليوم وفى أواخر القرن العشرين ، وقد ارتفعت الأصوات هنا وهناك بتجديد البلاغة والاستفادة من العلوم الحديثة وطبع الدراسة والكتب بطابع حديث ، فلا أظن أن وضع تلك الكتب القديمة موضع التدريس لائق أو مجد .

كان هذا هو حديث د . نايل عن البلاغة وتعقيبنا عليه .

أما حديثه عن الانقلاب الثانى ، وهو الانقلاب الأدبى ، فانا نورده باختصار اتماما للفائدة ، ولأن الأدب والبلاغة صنوان وتوأمان :

فأما الانقلاب الأدبى فمتمم لهذا الانقلاب ، ومعين له على احداث الثمرة المرجوة ، والغاية المقصودة ، وأعنى به هنا أن يتجه الدرس الأدبى الى النقد الواسع والموازنة الخصبة بين الآثار الأدبية ،

فاننا نحس أن تاريخ الأدب طغى فى الدراسة على الأدب نفسه طغيانا شديدا حتى أوشك أن يمحو ذاته وشخصيته ، وعاد الأدب متخما بنظرياته وتراجمه التاريخية ، يتسع فيها ويسرف، فاذا جاء الى النصوص الأدبية مربها سراعا كأنه لم تكن هى الغاية ، حتى خلا من اللذة والمتعة التى كان يجب ألا تفارقه أبدا ، فحياة الأدب الصحيح فى أن يكون حظ التراث الأدبى فيه هو الغالب فى الدرس ، وأن يقف الدارس عند حسناته وسيئاته واحدة فواحدة مع النقد الحر والموازنة الواسعة ، فانه بذلك يصبح أدبا حقيقيا ممتعا خصبا ، يخرج الأديب والناقد ، ويعين البلاغة على مهمتها أبلغ عون وعلى أكمل وجه .(١)

---

(١) البلاغة بين عهدين - ص ١٠ .

(٧) الدكتور كامل الخولى :

يرى د . كامل أنه لكى تصبح البلاغة فنا جميلا يجب مراعاة خمسة أمور :-

١- يجب أن تتصل البلاغة العربية اتصالا وثيقا بالنبع القرآنى الفياض الزاخر بشتى الصور البلاغية ، ففى ذلك الاتصال امداد البلاغة بالماء الذى أبقى لها الرى والنماء وحفظ لها روح الفن وسحر الأدب ، ويوم أن حال المتأخرون بينها وبين هذا النبع وقصروها على مثلهم المرددة الموروثة جمدت وجف ماؤها وذهب رونقها وفقدت جمال الفن وروعة الأدب .

٢- اذا أردنا أن ندرس الصورة البيانية فيجب أن ندرسها لادراك أثرها الفنى الأدبى ، وذلك مثلما فعل عبد القاهر فى التمثيل والرمانى فى الاستعارة ، وبهذا النهج تتضح الصلة أمام الدارس بين دراسة البلاغة والأداء الجميل .

٣- يجب أن نكثر من الموازنات الأدبية فى البلاغة بين الصور المختلفة فى الأداء والخواص مع بيان الأثر النفسى للتعبير الأدبى ، وألا يكون همنا الى الضوابط الجافة ، والاسراف فى تمييز الحدود والرسوم ، والرد على الشبهات وتفصيل الاعتراضات حتى نستطيع أن نخلق جوا من الجمال يهيمن على فن البلاغة ويوحى الى من يدرسها بأنه يمارس فنا يعينه على ادراك الجمال فى الكلام الأدبى ويأخذ بيده الى التعبير الرائع الجميل .

٤- يجب أن نحيى منهج المدرسة الأدبية القديمة التى تتمثل فى نهج الخطابى وعبد القاهر فى دراسة النظم ، ودراسة عبد القاهر وأبى هلال للصورة البيانية ، فى ظل البيان المعجز والفيض الزاخر من شتى الصور بالحياة والجمال البيانى .

عسى أن يكون ذلك لافتا لنهج قويم فى دراسة البيان تمت معه البلاغة واكتملت أصولها .

٥ - يجب أن نجرد المباحث البلاغية من النحو الخالص الذى وضع بذوره عبد القاهر ، ومباحث المنطق كالدلالات والجامع وغيرهما ، وجميع المباحث الفلسفية التى وشحت بها الشروح ، واذا التمسنا أصول البحث البلاغى فى منابعه الأولى وعرضنا جوهره بالصورة التى يتقبلها العصر الذى نعيش فيه بلسان الأدب وذوق الناقد على نحو يقربه من الأدب والنقد ويدنيه من الفن والجمال نكون قد أسهمنا بحظ محدود فى بعث البلاغة وأحيائها.(١)

واذا أمعنا النظر فى رأى الدكتور كامل الخولى رأينا أنه أيضا من أنصار احياء التراث وبعث القديم ومن المعجبين بالمدرسة الأدبية القديمة ونهجها .

وهو أيضا يرى تخليص القديم من الضوابط الجافة والاسراف فى تمييز الحدود والرسوم والرد على الشبهات وتفصيل الاعتراضات وغير ذلك مما جعل كتب المدرسة الكلامية الموروثة (ضررها أكثر من نفعها) .

ولذلك فهو يرى أنه " اذا التمسنا أصول البحث البلاغى فى منابعه الأولى ، وعرضنا جوهره بالصورة التى يتقبلها العصر الذى نعيش فيه .... نكون قد أسهمنا بحظ محدود فى بعث البلاغة واحيائها ".

وأقول : انه لا يكفى بعث البلاغة واحياؤها ، فان هذا - كما قال - حظ محدود نعطيه لبلاغتنا ، ولكن لابد بعد احيائها من اضافة الجديد المناسب اليها ،

---

(١) أثر القرآن فى تطور البلاغة العربية ص ٢٣٨ - ٢٤٤ بتصرف.

حتى تستطيع أن تواكب الزمن وتأخذ مكانها اللائق بها بين علوم الأدب واللغة .

والجديد فى رأى الدكتور كامل أنه نبه الى نقطة أغفلتها الآراء السابقة ، ولا أظنها أغفلتها الا لبداهتها وأنها بالضرورة من أسس البلاغة وأسباب وجودها ، ذلك هو اتصال البلاغة اتصالا وثيقا بالنبع القرآنى ، فذلك أمر لا ريب فيه ولا جدال .

وأعود فأقول : ان هذه الآراء ، وماسبقها من بحوث ومحاضرات ، انما كانت بدايات طيبة وبوادر ملفتة ودعوات صادقة لتجديد البلاغة ، وكان لها ولا شك أثرها فى انعاش قضية البلاغة العربية ، واثارة انتباه المهتمين بشأنها الى وجوب تجريدها .

ومن أهم البدايات التى كان لها الأثر البالغ فى انعاش قضية البلاغة " حركة الرسالة " تلك المعركة البلاغية التى دارت على صفحات مجلة الرسالة ، وكان لها فى ذلك الوقت طنينها وصداها . وهى ماسنعرض له ان شاء الله فى الفصل القادم .

الباب الثانـي

الفصـل الثالـث

حركـة الرسالـة

تحدثنا فيما مضى عن أهم البحوث والمحاضرات في البلاغة وتجديدها وعرضنا آراء بعض الأساتذة الذين يشتغلون بتدريس البلاغة في الجامعات وما سبق ذلك من مبادرات ومحاولات . وقلنا ان ذلك كله انما كان بوادر وبدايات ومحاولات لها قيمتها في تجديد البلاغة والنهوض بها .

ومن أهم تلك البدايات "حركة الرسالة " تلك المعركه البلاغية التي قامت على صفحات مجلة الرسالة عام ١٩٤٦ وما بعده بين الدكتور على العمارى والاستاذ الخولى وغيرهما ، فآتت ثمارها ، وحركت قضية البلاغة من سباتها ، وكان من آثارها أن عكف الاستاذ أمين الخولى على كتابه (فن القول) الذى وضع فيه تخطيطا ومنهجا جديدا للبلاغة العربية . هذا بالاضافة الى كتاب دفاع عن البلاغة للاستاذ احمد حسن الزيات الذى كتبه فى مواجهة تلك الموجة التى تهاجم بلاغتنا ولغتنا ، وكان على رأس من ركبوا هذه الموجة سلامة موسى فى كتابه " البلاغة العصرية " .

وقبل أن نخوض فى غمار كل ذلك وغيره نعود الى حركة الرسالة التى حركت قضية البلاغة من سباتها ، وجعلتها حديث الرأى العام فى ذلك الحين - وسأعرض هنا هذه المعركة كما وردت فى أعداد مجلة الرسالة دون تدخل منى الا بقدر ما يقتضيه البحث وما يعن لنا من تعليق .

والذى حرك هذه المعركة البلاغية واشعل فتيلها هو الدكتور على العمارى وذلك أن الاستاذ أمين الخولى حينما بدأ القاء دروسه البلاغية فى كلية الآداب كان متشبعا بفكرة التجديد فى علوم اللغة العربية وخاصة البلاغة ،

فكانت محاضراته تتسم بحرية التفكير والخروج عن الطابع المتعارف عليه وقتئذ فى الدراسات البلاغية . لكنه ـ وقد كان فى مبدأ حياته التجديدية ـ ارتكب بعض الاخطاء وأملاها لطلابه ، فهال ذلك بعض العلماء ، وتصدى له العمارى ، والطنطاوى ، ودافع عن الشيخ امين الخولى الاستاذ المرحوم كامل شاهين ، ودارت بين الطرفين معركة بلاغية حامية الوطيس .

وقد بدأ الدكتور العمارى هجومه بمقالات عدة عنوانها : علوم البلاغة فى الجامعة .

واليك المقال الاول :

علـــوم البلاغـة فـى الجامعـــة

يحلـو لبعض المعاصرين أن يسموا أنفسهـم مجددين ، كل فيما يزاول من علم أو فـن ، ولعل هذا الادعاء عارض نفسي يعرض لكثيرين فى كل عصـر ولاسيما من يفرغون بالشهرة ، ويحبون أن يحمدوا بمالم يفعلـوا .

وتجديد هؤلاء عجب من العجب ، فما هو الا أن تعن فكرة فى رأس احدهم حتى يطير ، ويكاد يجن فرحا وغرورا ، ولو عرف قدر نفسه وتأنى قليـلا لادرك أنها خيل له ، وليس هو التجديد ، ولكنه قصور الفهم ، وضلال العقل ، وعمل الغرور . وربما اكتفى أحدهم بدرس كتاب أو كتابين فى المادة التى يريد أن يجدد فيها ، ثم بعد ذلك يشهد العالم على أن العلماء قصروا ، وانهم لـم يفهموا ، ولو أمعن الفهم ، ولو وسع دائرة اطلاعه لقد كان وجد فى كتب القـوم مايرد نزعته ، ويطفئ شهوتـــه .

وقد منيت علوم البلاغة فى هذا العصر بدعاة التجديد ، وهى فى شـديـد الحاجة الى من يجدد أخلافها ، ولكنها لا تظفر الا بالدعاوى المريضة الكاذبة ونستطيع أن نقول : ان التجديد فيها وقف بعد الامام الجليل الشيخ عبد القاهر الجرجانى ، وان مابذل بعد ذلك ليس الا محاولات بسيطة ان لمست بعض النواحى فى هذا الفن فانها لم تخلص الى اللباب . وان فى (دفاع عن البلاغة) للاستـاذ الزيات ، وفى مذكرات فى علوم البلاغة) لفضيلة الشيخ سليمان نوار ، وفى (التصوير الفنى للقرآن) للاستاذ سيد قطب ، أقول ان فى هذه الكتب لوثبات تبشر بخـيـر ، وهى بعد جديرة بالتقدير .

ويمكن أن ننظر فى محصول هذا العصر البلاغى فنجد بعض العلماء قنـــع بأن يجمع الاشتات ، ويؤلف المتفرقات ، ثم يدعى أنه فـى البلاغة ألـف ، وبعضهم يعمد الى الورق الصقيل ، والطبع الانيق ، ليقول انه فى البلاغة جـدد .

---

١ - مجلة الرسالة - العدد ٦٨٧ص٩٦٧ .

ولعل شر الثلاثة هؤلاء الذين يفترون على العلم ، ويكذبون على القدامى ، ويكثرون من ثلبهم وتنقصهم ، ليقال انهم وحدهم الذين عرفوا وقد جهل الناس ، ووصلوا وقد تخاذل العلماء .

بين يدى الآن مذكرات فى علم المعانى أملاها الأستاذ الشيخ امين الخولى على طلبته فى الجامعة المصرية ، وفيها كثير مما يستحق أن يناقش، ولكنى رأيت أن يشركنى القارئ فى هذا الأسلوب الذى يدرس به هؤلاء الأعلام.

وانما يعنينى هذا الأمر لأن البلاغة فن من الفنون قبل أن تكون علما من العلوم ، ومادامت فنا فهى تتطلب ماتتطلبه الفنون من حسن العرض وجمال التنسيق وخلق الذوق الأدبى فى المتعلمين ، ولهذا كانت حاجتها الى الاكثار من النماذج العربية الصحيحة الفصيحة ، ومن العرض المتأنق الجميل الحاجة القصوى . ولكن ماذا نقول حين نرى أستاذ البلاغة فى الجامعة المصرية يعرض هذا الفن ، كما يعرض واعظ العامة موعظته فى أسلوب عامى ركيك .

ولنقتصر الآن على عرض لثلاث آيات من كتاب الله الكريم :

١ - " وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم "

يشرحها الاستاذ هكذا . . . (وبعبارة أخرى يريد الله أن يقول : هوه محمد ده يطلع ايه ؟ محمد هذا والرسل من قبله مجرد سعاة بوسته . . . هوه مرسال زى المراسيل اللى قبله . . بيجى ويروح ويموت وينقتل . . . الخ فاذا حصل شئ من هذا يبقى خلاص انقطع ما بينكم وبين الله ؟ هو يعنفهم لا على نكوصهم عن محمد ، بل لنكوصهم من أجل موت محمد " ولذا يقول : أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم . . الخ انتهى بنصه وفصه !! .

صدقنى - أيها القارئ - أن هذه عبارته ، فهل هذا هو التجديد ؟!

هذا كلام يمكن أن نتصور صدوره من واعظ يلقى عظته على جماعة من البرابره

فيضطر الى أن ينحدر هذا الانحدار ، على أنى واثق من أن مثل هذا الواعظ يعف لسانه وذوقه عن هذا الهذيان .

ولكن ما الحيلة والرجل من كبار المجددين فى علوم البلاغة ، أليس التجديد هو مخالفة الأقدمين ؟ أليس التجديد هو البساطة والحذلقة ؟ وما المانع من أن يلقى على طلبة الجامعة أن محمدا وعيسى وموسى وابراهيم وجميع الرسل ليسوا الا " سعاة بوسته " ؟ ! وهل فى السنة البلاغيين أصدق وأبسط وأحسن من هذا التعبير الجميل الظريف الخفيف ؟ !

٢ - قال الله تعالى : "وما أنت بمسمع من فى القبور ان أنت الا نذير" وقال الشيخ نفعنا الله به وبعلمه آمين : (انت مش حا تسمع اللى فى القبور والحقيقة انه هوه مش قدام أموات ، وانما ناس ألواح وبهايم ، والقرآن بيقول له : انك حريص قوى على هدايتهم ، والاحسن انك ما تحرصشى كتير على هذه الهداية . قال له ذلك لأنه شاف انه كاد لفرط عنايته بأن يهتدى هؤلاء أن يخرج عن حده فينسى أن مهمته هى مجرد التبليغ هوه عمال يحرق فى دمه مع الناس دول ، ووفاؤه لمهمته هو الذى يحمله على الاسراف فى الالحاح ويهز فى هذه الألواح ، ويحاول أن يبعث فيهم نفحة من الهداية بأى ثمن . فقال له الله : يا أخى انت حارق نفسك ليه . . . انت مانتش حاجة أبدا الا نذير تنذر من ينذر ، وتخوف من يخاف ، وتعلم من يتعلم ، وتنبه من يتنبه ، ودول أموات . . فالأحسن أنك تريح نفسك) .

والله ما أدرى ماذا أقول ؟ وانى لخائف أن أقابل هذا الكلام بما هو جدير فيستثقل القراء كلماتى ، ولو أن فى الجامعة قوما يحاسبون المدرس لاتهموا هذا الأستاذ بتهم أقلها افساد أذواق التلاميذ .

على أن شرحه بعد ركاكته وتهافته ليس موافقا كل الموافقة لما تنطق به الآية ، وادراك ذلك سهل ميسور .

٣ - وقال عز وجل : " واذ قال الله ياعيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله ".

ويقول الشيخ : (الحوار فى هذه الآيات بين عيسى وبين الله حوار خيالى محض صور وقوعه بعد أن انتقل عيسى من هذا العالم الذى نحن فيه بدليل " فلما توفيتنى " وكأن الله يقول لهم : انتم بتقولوا عيسى ده اله ، وانه هوه اللى أمركم انكم تعبدوه ... تجيبه ؟ نسحبه ونسأله ؟ ثم صور بعد ذلك أنه لو قام وبعث الى الحياة لدار بينه وبين الله هذا الحوار : الناس البارد ين دول ... هل انت قلت لهم ياعيسى انك اله ؟ قوللهم ؟ قوللهم ياأخى) !!

بمثل هذه الأساليب البارعة الفاتنة يلقى مدرس البلاغة فى الجامعة فؤاد الأول وسيد المجددين كما يدعى ... يلقى دروسه .

ومن الانصاف أن نذكر أن الاستاذ الفاضل أدرك أخيرا ما فى هذه الأساليب من ضعف وسخافة ، فأشار على تلاميذه أن يمروا بالقلم على بعضها ، ولكنه بعد قلم خفيف ، ان مر على دفاترهم فلن يمر على أفكارهم وأذهانهم .

الشيخ على الطنطاوى يتهم الشيخ أمين الخولى بالكفر والالحاد

ماكادت المقالة الأولى للدكتور العمارى تنشر حتى تلقفها الشيخ على الطنطاوى واتهم الشيخ أمين بالكفر والالحاد . وفى ذلك يقول موجهاً حديثه الى الدكتور العمارى ... :

قرأت ماكتبت ياسيدى فى العدد ٦٨٧ ، فقل لى سألتك بالله : أأنت تجد أم تهزل ؟ وهل تنقل هذا الهذيان عن أستاذ فى الجامعة أم عن حشاش فى القهوة ؟ وهل هذه هى دروس الجامعة التى نرسل اليها أبناءنا ليغترفوا من علوم أساتذتها مايعودون به معلمين فى مدارسنا ؟ وهل هذا هو دين التجديد الذى بعث به نبى البلاغة فى آخر الزمان ؟

واذا نحن احتملنا الركاكة والعجز أفنحتمل الكفر من هذا الشيخ الذى يقرر أن الله قال لمحمد : ياأخى انت حارق نفسك ليه ؟ لقد عرفنا من جعل لله صاحبة وولدا ، ولكنا لم نعرف قبل اليوم من جعل لله أخا ! أفلا يرضى الشيخ الا أن يكون مجددا فى الشرك بالله ؟ تعالى الله عما يقول المشركون علوا كبيرا ؟ ولا يعجبه الا أن يفتح له الى جهنم باب خاص .

وماذا يقول صديقنا العميد الدكتور عزام وهو العالم البليغ المؤمن فى هذا الجهل والعى والكفر ؟

أما أنا فأقول : أعيدوا أولادنا الى باريز ليعلموا فيها العربية كما كانوا فان الجهل الذى يعودون به من باريز أهون من الكفر الذى يرجعون به من الشيخ أمين الخولى .

---

١ ـ مجلة الرسالة ـ العدد ٦٨٩ ص ١٠٣٩ .

الاستاذ كامل السيد شاهين يرد علـى
الاستاذ بين العمارى والطنطاوى

كان هـذا المقال بعنوان : علـوم البـلاغة بين القدماء والمحدثين "
وقد استهل المقال بقوله : مدرسة الرسالة لها طابعها الخاص فى الساحلة
والنقاش على هذا أسست ، وامتحنتها الأيام بضروب من المحن ، فثبتت على
الزعازع ، وانتصرت على الأغراض والأهواء ، يعلم ذلك من تابع الرسالة منـذ
مولدها الميمون الى حاضرها الزاهر ، فالرسال للجميع بلاتفضيل ولا ايثار ،
لأن البحث والدرس يلدان الحقيقة التى كانت نشدة أصحاب العقول ...

ثم يرد على العالمين الجليلين فيقول : فليسمح لى الزميلان الطنطـاوى
والعمارى أن ألفت نظرهما فى رفق الى مزالق ماكنت أحب لهما أن يتورطـا
فيها أو ينحدرا اليها .

فقد راع الأول أن يقول أستاذ البلاغة فى الجامعة : الله يقول لنبيـه
: ياأخى انت حارق نفسك ليه ؟ وراح يزعم أن هذا اشراك وكفر ، ويستعـدى
على الجامعة والجامعيين ، ويثير الناس ليتداركوا أبناءهم أن يجرفهم تيـار
الشرك والالحاد .

بالله هون عليك ياعلى فليس ثمة شرك ولا كفر وانت اخبر الناس بذلك وأدراهـم ،
ان هذه الكلمة قد فقدت حقيقتها فى أفواه الناس . ألم تسمع الفلاح يهز حماره
ويقول : ياأخى سر ، أفتراه قصد أخوة النسب أو الرضاع أو الآدمية .أو الحمارية
.. لا .. انما هى كلمة تحنن وتعطف . وشبيه بهذا قول السائق لحصانـه
: ياشيخ . والنظائر فى هذا أكثر من أن تحصى ، فلا ترع ولا تستنفر ، وابـق
على الجامعة والجامعيين ، ودع حديث الكفر والالحاد ، فقد جنت منه مصـر
ثمرا مرا فى دهر طويل كانت حرية أن تصرفه فيما يفيد ويغنى .

ثم اللغة العربية ليست لغة الايمان والاسلام ، فقد سبقت الايمان والتوحيد
بقرون طويلة . فأن أبيت الا أن تخرج لغة مؤمنة مسلمة موحدة فدونك فامنـع

---

١ - الرسالة - العدد ٦٩٢ ص ١١١٨ .

دراستها فى كلية اللغة و دار العلوم بمصر ودار العلوم ببغداد ،ثم ادعنا وانا ان شاء الله لمستجيبون .

وأما أنت ياعمارى فكنت بمنجاة من اللوم اذ عرضت للأسلوب الذى تدرس به البلاغة فى الجامعة ،فلكل امرئ فيما يحاول مذهب .

وراح الاستاذ شاهين يبرر ماحدث بأنها محاضرات ألقيت على طلبة صغار لم يتعدوا مرحلة التعليم الثانوى الا منذ قليل ، وأنه لا بأس أن يكون هذا الاسلوب أداة التعليم فى الجامعة ، وأن الأسلوب العامى مادام لم يكتب فى كتاب وانما يلقى فى درس فى حجرة فلا غبار عليه

وهذه كلها مبررات واهية ، وأعذار أقبح من الذنب .

هذا وقد شعر الأستاذ الخولى بخطئه ، وأحس ركاكة هذه الأساليب وضعفها ، فأشار على تلاميذه بشطبها . " ومن الانصاف أن نذكر أن الاستاذ الفاضل أدرك أخيرا مافى هذه الأساليب من ضعف وسخافة فأشار على تلاميذه أن يمروا بالقلم على بعضها ".(١) .

أما الشيخ على الطنطاوى فقد رجع عن اتهامه بالكفر والالحاد للشيخ الخولى وأصدر بذلك بيانا على صفحات الرسالة جاء فيه :" وأنا ماكتبت الذى كتبته لأنال من الشيخ أمين الخولى الأستاذ فى كلية الآداب ، وما بينى وبينه صلة ولا معرفة ولم أروجهه الا مرة واحدة منذ أسبوع ، فلا يعقل أن يكون قصدى تحقيره هو بالذات ، أو ذمه والقدح به . فاذا فهم أحد من الذى كتبته أننى أرمى الى هذا فأرجوا أن يصحح فهمه ، وأن يعلم أنى لا أبخس عالما قدره ، ولا أجحد فاضلا فضله " .

وهكذا نجد الطنطاوى انسحب من المعركة بعد مقاله الأول . أما العمارى فقد استمر فى المعركة .

---

١ ـ وردت العبارة فى آخر المقال الأول للدكتور العمارى .

العمارى يتصدى لآراء الخولى
في علمى البيان والمعانى

فى المقال الأول نقد العمارى أسلوب الخولى فى تدريسه البلاغة في الجامعة ولكنه هذه المرة ينقد آراء الشيخ أمين الخولى فى مذكراته فى علمى البيان والمعانى والتى كان يلقيها على طلاب كلية الآداب حينئذ .

وقد بدأ العمارى نقده للخولى فى علم البيان ، ورأى أن " الفكرة المتسلطة عليه فى هذا الفن أن يجعل لكل عبارة من عباراته منبعا لمعان نفسية يجب أن تثيرها فى نفس المتكلم أولا ، وفى نفس السامع ثانيا ، وهو لذلك يتكلف العنت ، ويركب الشطط فى تخريج النصوص الأدبية ، وهو لا يؤمن بالماديات الصرفة فى هذا الفن ، ويكاد ينكر المحسنات التى لا تثير لمعانى نفسية . ." فمثلا :

أ ـ فى قول ابن المعتز :

ولا زوردية تزهو بزرقتها	بين الرياض على حمر اليواقيت
كأنها فوق قامات ضعفن بها	أوائل النار فى أطراف كبريت

يقول الشيخ الخولى :

" المشبه : زهرة البنفسج قائمة على ساقها .

والمشبه به : أوائل النار فى أطراف كبريت .

واذا أردنا أن نحلل عملية التشبيه لقلنا انه شعر للبنفسج بجمال فترجم عنه ، ونحن نفهم أن الجميل قادر أن يلفت الى معنى وراء وجوده المادى ، لكن الشاعر لم يتخط الوجود المادى ، ونظر اليها على أنها زهرة لها حجمها الخاص ، ولونها الخاص ، وقال كلاما شرح به هذا الوضع المادى " كأوائل النار فى اطراف كبريت "."

وراح الأستاذ الخولى يبدى رأيه وملاحظاته على هذا التشبيه :

اولا : ماهو الشيء المعنوى الذى لفتت اليه الزهرة الجميلة ؟

لا شئ . زهرة البنفسج هذه يمكن أن نحسن أمامها بنوع من الانصراف

---

١ ـ الرسالة ـ العدد ٧٤٦ص ١١٦٤ .

٢ ـ الرسالة ـ العدد ٦٩٠ص ١٠٤٩-١٠٥١ .

عن التنبه واليقظه ، فاذا شبهتها بانسان حالم تكون قد تذوقت للون طعما خاصا من طعوم الحياة ، وبذلك تكون المادة قد أفلحت في ايجاد المعنى . . أما وصف اللون بلون آخر فلاشئ .

ثانيا ـ نلاحظ أن الشاعر نقلنا من جو فسيح الى جو خانق . فليست هنا قوة في الاحضار ، وانما هي غفلة وسوء تصرف .

علق أستاذنا العماري على هذا الشرح والتفسير قائلا :

قد يبدو هذا الكلام مقنعا ورائعا لأول وهلة ، ولكن يجب أن نتذكر حقيقتين الأولى :أنه يدرس التشبيه . ومعنى ذلك أن يقف عند تشبيه الشاعر هل أطاب أو أخطأ في الحاق هذا اللون بذاك . أما أن الشاعر لم يلتفت الى ما يبهجة البنفسج من المعاني في النفس ، والتفت الى شئ مادى بحت فهذا مالا دخل له في صحة التشبيه أو فساده .

الثانية :أن البيان يبحث عن الأساليب الفنية التى تؤدى بها المعانى ،ومادام يبحث عن الفن فهو يجده في المعانى البحتة ، ويجده كذلك في الماديات البحتة ، وليس أحدهما أولى من الآخر في ابراز الفن البيانى فيه . وعلى ذلك فهم علماء البلاغة ماورد من هذه الأمثلة .

ويستشهد الدكتور العمارى بكلام لعبد القاهر في هذا الموضوع :

" ولعلنا نأتى بالقول الفصل حين نسوق ماقاله امام البلاغيين الشيخ عبد القاهر الجرجانى في هذا الموضوع بعينه . . " وهكذا اذا استقريت التشبيهات وجدت التباعد بين الشيئين كلما كانت الى النفوس أعجب ، وكانت النفوس لها أطرب ، وكان مكانها الى أن تحدث الأريحية أقرب . وذلك أن موضع الاستحسان ومكان الاستظراف ، والمثير للدفين من الارتياح ، والمتألف للنافر من المسرة ، والمؤلف لأطراف البهجة ، أنك ترى بها الشيئين مثلين ، ومؤتلفين مختلفين ، وترى الصورة الواحدة في السماء والأرض وفى خلقة الانسان وخلال الروض وهكذا طرائف تنثال عليك اذا فصلت هذه الجملة ، وتتبعت هذه اللمحة ، ولذلك تجد تشبيه البنفسج في قوله :

ولا زوردية تزهو بزرقتها   بين الرياض على حمر اليواقيت

كأنها فوق قامات ضعفن بها   أوائل النار فى أطراف كبريت

أغرب وأعجب ، وأحق بالولوع وأجود من تشبيه النرجس بمداهن در حشوهن عقيق . لأنه اذ ذاك مشبه لنبات غض يرف ، وأوراق رطبة ترى الماء منها يشف ، بلهب نار مستول عليه اليبس ، وبلد فيه الكلف ، ومبنى الطباع وموضوع الجبلة على أن الشئ اذا ظهر من مكان لم يعتد ظهوره منه وخرج من موضع ليس بمعدن له ، كانت صبابة النفوس به أكثر ، وكان الشغف منها أجدر" (١) .

وبعد كلام عبد القاهر يعود العمارى الى توضيح رأيه وبيان وجهة نظره ، ان الشاعر أراد أن يبين زرق البنفسجة التى نفخر بها على اليواقيت الحمر ففكر فى شبيه لهذه الزرقة . وهنا يتفاضل الشعراء . . فمنهم من يكون قوى اللغة ، فسرعان مايقع على شبيه ولو كان نادر الحضور فى الذهن ، ومن هنا تجئ طرافته وجدته . . ومنهم البليد الذى لا يصل الى الشبيه الا بعد حين ، وربما لا يصل .

ويضرب العمارى مثلا لذلك بقصة جرير مع عدى بين الرقاع . . . وأنه اذا كان من الميسور لأستاذ البلاغة فى الجامعة أن يتهم الشيخ عبد القاهر فى ذوقه فأظن أنه ليس من الميسور أن يتهم جريرا الشاعر فاليه نسوق القصة التالية :

يحكى أن جريرا قال : أنشدنى عدى : عرف الديار توهما فاعتادها ، فلما بلغ الى قوله : تزجى أغن كأن ابرة روقه . . رحمته وقلت : قد وقع ، ماعساه يقول وهو أعرابى جلف جاف ؟ فلما قال : قلم أصاب من الدواة مدادها . استحالت الرحمة حسدا . قال صاحب الايضاح : فهل كانت الرحمة فى الأولى والحسد فى الثانية الا أنه رآه حين افتتح التشبيه قد ذكر مالا يحضر له فى أول الفكر شبه وحين أتمه صادفه قد ظفر بأقرب صفة من أبعد موصوف .

وأحب هنا أن أقرر ماقرره أستاذنا العمارى من أن طرفى التشبيه قد

---

١ - أسرار البلاغة ١٠٩ ، ١١٠

يكونان حسيين أو معنويين أو مختلفين ، وأن تشبيه المحسوس بالمحسوس قد يأتى أحيانا فى غاية الروعة والجمال . وأوائل النار فى أطراف كبريت منظر له روعته وجماله ، غير أننا ألفناه ، لكن الأطفال لم يألفوه بعد ، فهو بالنسبة اليهم وفى حقيقته ، منظر جميل جذاب خلاب ، وخاصة اذا كان فى المساء ، لذلك تراهم يتحينون الفرص لاختلاس علبة الكبريت ، والانزواء فى مكان ما ليلعبوا به ويشعلوا أعواده الواحد بعد الآخر . . واذا نظرت فى عيونهم عندئذ لوجدت السعادة والبهجة تشعان منها ، وهذه السعادة بمنظر الكبريت ليس وراءها ادراك معنى جميل رائق ، وانما هى سعادة ناتجة من هذا المشهد المحسوس الذى يراه الطفل أمامه . لذلك فان هذا التشبيه جميل ورائع على الرغم من أن المشبه به حسى لا معنوى .

ونعود الى الدكتور العمارى حيث يقول :

وماذا يقول الأستاذ فى قول الله تعالى : (والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم) ؟ لقد ذكر أن تشبيه زرقة البنفسج بأوائل النار فى أطراف الكبريت ليس شيئا ، لأنه ينقلنا من جو الزهر والجمال الى جو اللهب والاختناق ، ولم ينظر الى فنية التشبيه ، ولا الى ندرته . فهل يقول فى هذا التشبيه فى الآية الكريمة انه ليس شيئا - ايضا - لأن القمر سكنه فى السماء ، والعرجون فى الأرض ، والقمر من فصيلة الكواكب التى زين الله بها السماء ، والعرجون نوع من الحطب اليابس ، والقمر مثال الهداية والعلو ، والعرجون شئ تافه حقير لا تكاد تظهر له فائدة . . . ؟

وهل تخسر البلاغة القرآنية شيئا اذا وقف الأمر عند حد تشبيه القمر يحتضر فى آخر الشهر ، وحين يضعفه السير ، وينال منه السرى فندق وينحنى ويصفر . . بهذا العرجون الذى دق وانحنى واصفر ، ولا يلاحظ شئ وراء ذلك مما توحيه صورة العرجون ؟

ومن الممكن أن نتكلف جوا ملائما لكل من المشبه والمشبه به ، ولكن هل جو العرجون وبيئة العذق واضمحلاله ، يشبه جو القمر حين يبلغ آخر الشهر ؟

لا بد - اذن - أن نكون مع علماء البلاغة حين يرون أن ليس القصد الأول من التشبيه اثارة جو عام بين المشبه والمشبه به ، وأن التشبيه منبع لتداعي معان يجب أن نلتمس آثارها في النفس ، بل يكفي أن نقول - معهم - أن : التشبيه بالمحس المشاهد يحدث نوع اطمئنان في النفس ، وأن السامع قبل أن تذكر له التشبيه قد يكون المعنى عنده غامضا مضطربا ، أو موضعا للشك ، حتى اذا شبه له استقر المعنى في نفسه ، وكان أكثر اطمئنانا ، وأثبت يقينا .

فانك - كما يقول البلغاء - قد تبالغ في المعنى ، ولا تدع مزيدا في الاسراف ، فتدعي أنه بلغ نهايته ، فلا تبلغ من اقناع السامع ما تبلغ حين تشبه بشيء محس ، تثق عنده النفس ، ويطمئن اليه الخاطر . فأنت تقول مثلا : ان فلانا أخفق في عمله ، ولم يحظ منه بفائدة ، ولا عاد منه بعائدة . ولكن هذا كله يتضاءل أمام أن تقول : فلان كمن يخط على الماء .

ب - حين تسمع قول ابن الرومي :

كل امرئ مدح امرأ لنواله وأطال فيه فقد أطال هجاءه

تأخذك موجة من الشك في صحة هذا المعنى ، وتظهر عليك - بادئ ذي بدء - أمارات الاستغراب . ولكنك حين تسمع بعد ذلك :

لو لم يقدر فيه بعد المستقى عند الورود لما أطال رشاءه

وترى أنه شبه الممدوح بالبئر فيها الماء ، وكلما كان الماء أبعد احتاج المستقي الى أن يطيل الحبل الذي يرفع بواسطته الماء . . حينئذ تتبدد الشكوك من نفسك .

وانما سقت هذه الجملة من القول لأعجب من الأستاذ كيف ينكر على البلاغيين أن يجعلوا من أغراض التشبيه (بيان امكان المشبه) . . أي بيان أن المشبه أمر ممكن الوجود ، وذلك اذا كان أمرا غريبا يمكن أن ينازع فيه ويدعي امتناعه ، فيعلق على قول أبي الطيب المتنبي الذي استشهد به البلاغيون لهذا الغرض :

فان تفق الأنـــام وأنت منهم   فان المسك بعض دم الغزال

بقوله : كلامهم فى أن الغرض من هذا التشبيه بيان أن وجود المشبه ممكن ، مرفوض .. لأن الأديب لا يضع نفسه موضع المناقش ، ولكنه يفرض نفسه على الناس ، وكل ما هنالك أن الناس من طبيعتهم انكار هذا الامتياز ...

والمعنى فيه شئ من الغرابة فى أنه واحد منهم ، وفاق عليهم ، فقـال هذا لا غرابة فيه لأن له نظائر وشواهد ، و....

رد العمارى بأن هذا كلام غريب ، ووجه غرابته :

أنه ينفى الشئ ثم يثبته فى وقت واحد ، وسطر واحد ، فهو يرفض كـلام البيانيين فى الغرض من هذا التشبيه بدعوى أن الشعراء قوم متغطرسون ، ويفرضون أنفسهم على الناس ، وعلى الأذواق ، ولكنه يحس فى الوقت نفســه أن من طبائع الناس انكار مثل هذا الامتياز الذى ذكره المتنبى ، فالشاعـــر يقول لا غرابـــة .

وعلماء البيان لا يقصدون من بيان امكان المشبه أكثر من أن المتكلم يأتـــى بقضية تقرب الى الأذهان أن هذا جائز وممكن ، مادام شبيهه ممكنا وواقعا ..

عرض لى كل ذلك حين ابتدأت أقرأ (مذكرات الشيخ) فى علـــم البيان فما كدت أنتهى من السطور الأولى حتى وجدت فى فقرة واحدة أغلاطا اربعة وليست أغلاطا لغوية ، ولا أغلاطا نحوية حتى يمكن التسامح فيها خاصة أن الشيخ كثيرا مايلجأ الى العامية ، والى العامية الساذجة ، ولكنها أغـــلاط علمية ذات ضرر كبير على عقول الطلاب الذين يعدون أنفسهم ليدرسوا هـــذه البلاغة لأبنائنا .

قال الشيخ : (هم يقولون ان بعض التعابير أوضح من بعض ، فعلم البيان هو الذى يبين درجات هذا الوضوح ، فالجملة تتكون من أجزاء سليمة ، وهذا مايكفله علم النحو ، صالحة للسكنى ، وهذا مايكفله علم المعانى . هذه الجملة ذاتها يمكن أن تعرض عرضا متنوع الانماط ، وهذا مايكفله علم البيان) .

فأولا = ليست وظيفة علم البيان البحث فى درجات وضوح التعبيرات ، وأنه لا ينقص هذا العلم أن نقول : ان مباحثه تقتصر على معرفة أن كثير الرماد أوضح أو أقل وضوحا من مهزول الفصيل فى الدلالة على الكرم ، أو أن التشبيه والاستعارة مختلفان فى وضوح الدلالة . ولكن لهذا العلم أبحاثا كثيرة قد يكون البحث فى وضوح العبارات أيسرها .

ثانيا = قوله (الجملة تتكون من أجزاء سليمة ، وهذا مايكفله علم النحو) كلام فاسد ، ذلك أن النحو ـ وقد حددت وظائف العلوم تحديدا دقيقا ـ لا يبحث فى سلامة المفردات ، وانما يبحث فى ذلك علم الصرف ، أما وظيفة النحو فالبحث عن سلامة التركيب . هذا شئ يعرفه من له أدنى المام بموضوعات هذين العلمين .

ثالثا = كون الجملة (صالحة للسكنى) ليست وظيفة علم المعانى ، ذلك أن صاحب المعانى يعنيه ـ اذا اردنا أن نلجأ الى الاستعانة بالتشبيه ـ ان يعرف هل هذا البناء مطابق للمواصفات التى وضعها المهندسون أو غير مطابق ، كما يعنيه أن يعرف هل هو ملائم للمكان والبيئة اللذين وجد فيهما أو غير ملائم ؟

رابعا = قوله ان الجملة يمكن أن تعرض عرضا مختلفا ، كلام عليل ، وذلك أن الجملة نفسها لا تعرض ، وانما يعرض المعنى .

فاذا عبر شاعر عن طول الليل بقوله :

أضل النهار المستنير طريقه ... أم الدهر ليل كله ليس يبرح

وعبر آخر بقوله :

حدثونى عن النهار حديثا ... أوصفوه فقد نسيت النهارا

وعبر امرؤ القيس عنه بقوله :

فيالك من ليل كأن نجومه ... بكل مغار الفتل شدت بيذبل

فهذه التعبيرات ليست عرضا لجملة واحدة ، وانما هى عرض لمعنى واحد .

جـ ـ ينكر الأستاذ على علماء البيان جعلهم أداة التشبيه (ركنا) من

أركانه ، ويرى أن ذلك اغراق منهم فى الماديات ، ومتابعة مسرفة للتصوير العقلى أدى الى نسيان الناحية الأدبية فى التشبيه ، وهى أن أفضل التشبيه مايقوم على ايهام أن المشبه هو المشبه به ، وهذا لا يكون الا بحذف الأداة .

وهذا كلام عجيب حقا ، فهل جنى علماء البلاغة جناية كبيرة حين ارادوا أن يقعدوا البلاغة ، فوضعوا لها قواعد وضوابط ؟ ؛

التشبيه الحاق أمر بأمر ، وهو كذلك فى طبيعة اللغة ، واللغة قد وضعت أداة لهذا الالحاق ، فلا يمكن أبدا ـ مادام هناك تشبيه ـ أن يتخلى هذا الالحاق عن أداته ، والا فقد حقيقته ، والحمل لا يمكن الا أن يكون كذلك ، اذا أريد التشبيه .

تقول : محمد كريم فتحمل الكرم على محمد لأنه صفة له ، وتقول : محمد حاتم تريد تشبيهه به فى الكرم ، فلا يمكن ـ حينئذ ـ الا أن نلاحظ أن هنا أداة صححت حمل حاتم على محمد ، والا كنت حملت ذاتا على ذات أخرى ، وهذا مالا يصح بحال ، اذ هما ذاتان مختلفتان ، فليست أحداهما هى الأخرى

والأداة لابد منها فى التشبيه ، وقد تكون ظاهرة ـ وعليه أكثر تشبيهات القرآن الكريم ـ وقد تحذف ، ولكن لابد من ملاحظتها حتى يصح الحمل ـ كما ذكرنا ـ ومادامت بهذه المثابة فهى جزء لازم للتشبيه ، فلاغرو كانت ركنا من أركانه .

د ـ ولا أحب أن أختم قولى فيما كتبه الشيخ تعليقا على بعض مباحث البيان حتى أورد هذه الكلمة .

قلت : ان الفكرة التى سيطرت عليه حملته على أن يتكلف شططا فى تخريج الشواهد . وهذا مثال :

يعلق الشيخ على بيت بشار بن برد :

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا ... وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

فيقول : (التركيب يفهم على أنه صورة ملونة . . الغبار تكاثف حتى أظلم ، ووصل الى السواد القاتم ، وليس تشبيه مثار النقع بالليل لمحض القتام وانما

ملحوظ فيه أيضا الحيرة والظلام والخطورة والاضطراب ، فهو انما اختار ظلام الليل للحيرة والضلال ، وهذا هو ما يطلب في القتال بالسيوف فاذا أضفنا الى هذه الحالة النفسية لمن يقاتل بالسلاح الأبيض ، نجد أنه يعتقد أنه معرض للموت بشهاب ممزق ، ولذا قال في السيوف ليل تهاوى كواكبه) .

فهذا كلام يقوله من لا يحسب للعقول حسابا . فمن أين له أن بشارا لاحظ في تشبيه الغبار بالليل الحيرة والضلال ، بل ما جدوى اراد تهما هنا ؟ ! أن بشارا لو أراد أن رجال جيشه حائرون ضالون لكان ذمهم أشنع الذم ، ولكان قد وصفهم بالجبن والعماية في قتالهم ، ان الفارس الحق هو الذى يكون ثابت الجنان ، مهما اشتدت المعركة ، وحمى وطيس الحرب .

ومن أين للشيخ أن الشاعر أراد أن المقاتلة يتوهمون أنهم معرضون لشهاب ممزق ولذلك جاء ب (تهاوى كواكبه) ؟ !

أعتقد أنه لا ينبغى للناقد ، وللأستاذ في الجامعة ـ بخاصة ـ أن يترك لخياله العنان ، يقول ما يصح وما لا يصح ، ويحمل النص فوق ما يحتمل .

نعم ان في النصوص معانى ، وان لها ظلالا غير ما تفيده الألفاظ بحسب وضعها ، ولكن لا ينبغى أن تجمح الأقلام في خلق معان وظلال لا صلة للنص بها ، أولا يتخيل أن صاحب النص قصد اليها .

وقصة بيت بشار بسيطة . يريد الشاعر أن يمثل جماعة يقاتلون ـ تصويرا حسيا ـ وقد عقد الغبار فوق رءوسهم ظلاما ، ثم تصور الشاعر سيوفا تعلو وترسب ، وتجيء وتذهب ، وهي بيض لوامع مستطيلة تتلاقى وتتداخل ، ويقع بعضها في بعض ، فالتمس لهذه الصورة شبها فوجده في ليل مظلم تتساقط كواكبه .

وما أظنه خطر على باله شيء مما قال الأستاذ .

رد شاهين على المعارى :

يرى الأستاذ شاهين أن الأستاذ الخولى على صواب فى أن يجعل لكل عبارة من عبارات هذا الفن - علم البيان - منبعا لمعان نفسية .. ويقول :

" أى نعم ياعلى .. أأنت قرأت تعريف البلاغة ؟ وان الذى لا يختلف فيه اثنان هو أن البلاغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال . ولا أزيد بيانا ولا بسطا ، ولكن هذه المطابقة لا تكون الا بادراك المتكلم لنفسية السامع وما تحوى من ملابسات فهذا هو فحوى كلام الأستاذ الخولى . أفتمارى فى هذا ؟ اذن فهات تعريفك أنت لعلم البلاغة فانا لمنتظرون " . (١) .

ويرى الأستاذ شاهين أن الأستاذ الخولى على صواب أيضا فى نقده لبيت ابن المعتز : ولازوردية ... الخ ، وأنه لا وجه لاعتراض المعارى هذا الرأى بأن الفن يوجد فى المعانى كما يوجد فى الماديات .

وذلك أن " الماديات البحتة لا تأثير لها ، وانما التأثير لما يتعلق بها من المعانى . أفان قلت : ان تمثال الزهرة كالزهرة كنت مشبها تشبيها مصيبا مؤثرا ؟ لا . انه لا اعتبار الا لما يوجبه ويستلزمه هذا التشبيه من دقة الصناعة والمهارة فى المشابهة بين زهرة الورق أو الصلصال وأختها الطبيعية الحية .

ياسيدى : ان مثل هذا التشبيه فى البيتين فى خلوه من روح ، كمثل من يرى بقعا من دم قتيل أو طائر منثورة على الرمال ، ثم يسير فيجد خرزات حمر مستديرة فيفجأ السامع : أتدرى ؟ ان بقع الدم التى رأينا كهذه الخرزات ، احمرارها احمرارها ، واستدارتها استدارتها ، وحجمها حجمها ، وانتشارها على غير نظام انتشارها . أفيعجبك هذا ويكون تشبيها غريبا عجيبا مصيبا مستحقا للاطراء والثناء ؟ أحسب أن لا . ذلك أن السامع حين يذكر الدم تعتريه الرهبة والاشفاق والرثاء لصاحب الدم المطلول ، وحب التشفى ممن سفكه ، ولا يخطر له ببال أنه مستدير أحمر منثور على غير نظام .

فمثل هذا التشبيه عبث ولغو وشعبذة وسقوط بالقيم الفنية للشعر الى حد سخيف .

---

١ - الرسالة - العدد ٦٩٢ ص ١١١٨ و١١١٩ بتصرف .

كذلك يرى الأستاذ شاهين : أن الثقة بأذواق النقاد يجب أن لا تطرد ، وأن استشهادهم يجب أن يكون موضع نظر جديد ، وأن الاستشهاد بآرائهم يجب أن يعرض على محك التمحيص . ذلك " بأنهم ـ على جلالتهم ـ قد شطلهم ذوق العصر ، ولم تستقم فى أذواقهم اللغة غضة طرية عطلا من زينة وحلية ، وأثر البيئة أثر جليل فى الأذواق والعقول ، ومن ثم كانت تفاهة الاستشهادات والتخريجات ، وكان لجوءهم الى الفلسفة والناحية العقلية هربا من الناحية الذوقية ، فقاسوا بالشبر والقيراط ، واتخذوا المبالغة أساسا للتفضيل ، ولم تظهر لهم الزينة فى القوة والعذوبة والسلاسة والنغم ، فطلبوها بالصبغ والألوان والشعبذة اللفظية .

اذا ثبت هذا فاعفنى عافاك الله من استحسان البلاغيين وعدم استحسانهم ، فنحن نسأل الذواقين من أمراء البيان فطه حسين والزيات والعقاد . . . أولئك المحكمون نرضى حكومتهم . . فأما السعد والخطيب فلا نصيبهما . ولكن نقول غلبت عليهما شقوة العصر وفساد الذوق وقوة الفلسفة . . فكلام عبد القاهر فى أن التباعد كلما زاد كان موجبا لارتياح النفس ليس مطردا . وليس أدل على ذلك مما سقته لك من تشبيه الدم بالخرز الأحمر .

واذا ماكان لنا من تعليق على قول الأستاذ شاهين بأن نعفيه من استحسان البلاغيين أو عدم استحسانهم ، وأنه يسأل الذواقين من أمراء البيان أمثال طه حسين والزيات والعقاد ، " أولئك المحكمون نرضى حكومتهم " .

فانا نسوق له على سبيل المثال رأى العقاد فى المجددين الذين يرون الغاء علوم المعانى والبيان والبديع والانتقاص من علم وذوق القدماء اذ يقول :

" أن علوم البديع والمعانى والبيان خلاصة الملاحظات التى أدركها النقاد بالذوق والفهم ، واهتدوا بها الى مواضع البلاغة فيما وعوه من كلام الشعراء والكتاب ، وان الحذلقة كانت أكثر من الوعى الصادق والفهم الحسن عند من حاولوا فى العصر الحديث أن يبطلوا علوم البديع " . .

فلابد أن نفهم أن علوم البديع والمعانى والبيان لم توضع لتلغى ، أو لينصرف

عنها النظر فى الدراسة أو المطالعة .. ولقد وضعها الأقدمون وأدركوا من شأنها كل مايدركه المحدثون الآن من فوائدها ومآخذها ، بل أدركوا منها ـ على التحقيق ـ فوق مايدركه المتحذلقون الذين يجهلون البلاغة قواعد ومصطلحات ، كما يجهلونها معانى ومفهومات . فالعلوم التى عرفت باسم علوم البديع والبيان صحيحة لا عيب فيها ، وكل مايؤخذ عليها فانما يؤخذ على اساءة استعمالها كما ينبغي لها ، وكما أرادها واضعوها " (١) .

ونعود الى الاستاذ شاهين حيث أخذ يناقش الأستاذ العمارى فى قصة جرير فيقول :

وأما حسد جرير لعدى بن الرقاع عندما أنشد :

تزجى أغن كأنه ابرة روقه قلم أصاب من الدواة مدادها

فناحيته أنه أعرابى لا يعرف التحبير ولم يخبر من المدنية مايطوع له أن يعرف قراطيسها ومحابرها وأقلامها ، فظن جرير أنه لن يهتدى الى شئ يشبه به روق الأغن ، فلما أصاب حسده جرير ، ألا تراه يقول : " قلت قد وقع ، ماعساه يقول وهو أعرابى جلف جاف " . فأنت قد وقعت ياعلى فى سر حسد جرير ولم تدره ، فظننت أنه انما حسده لأنه كان تشبيها بارعا مصيبا له تأثيره وجماله وما هو بذاك .

---

١ ـ نشر رأى العقاد هذا فى عدد جريدة الأخبار الصادر فى ١٤ رمضان ١٣٨٣هـ

رد العماري على شاهين : (١)

اعترض العماري على تعريف شاهين للبلاغة بأنها : مطابقة الكلام لمقتضى الحال . وقال : ان أحدا من العلماء لم يعرف البلاغة هذا التعريف .. ويبدو أن الأستاذ شاهين يريد أن يجدد كما يجدد الشيخ أمين الخولي ، والتجديد سهل ميسور مادام قصارى المجدد أن يسوق قضايا مخطئة ، واليك ما أعرفه أنا ومايقوله العلماء في تعريف البلاغة .

ذكر يحيى بن حمزة صاحب الطراز : " أن البلاغة في وضع اللغة هي الوصول الى الشيء والانتهاء اليه . فيقال بلغت البلد أبلغه بلوغا . والاسم منه : البلاغة ، وسمى الكلام بليغا لأنه قد بلغ به جميع المحاسن كلها في ألفاظه ومعانيه .

وهو في مصطلح النظار من علماء البيان : عبارة عن الوصول الى المعاني البديعة بالألفاظ الحسنة ، وان شئت قلت هي عبارة عن حسن السبك مع جودة المعاني .

وصاحب الصناعتين : عرفها بقوله : كل ماتبلغ به المعنى قلب السامع فتمكنه من نفسه لتمكنه في نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن .

وللعلماء والأدباء تعاريف كثيرة للبلاغة ليس منها مطابقة الكلام لمقتضى الحال .. ونحن اذا سألنا طالبا صغيرا عن تعريف علم المعاني يقول : انه علم بقواعد وأصول يعرف بها مطابقة الكلام لمقتضى الحال . فاذا قلنا له : هل مطابقة الكلام لمقتضى الحال هي البلاغة ؟ يقول : لا . بل لابد من زيادة واضافة اليها فنقول كما قال بعض العلماء : مع فصاحته . وهذه عبارة مهمة جدا ومكملة للتعريف .

والطلاب الصغار يعرفون أن علوم البلاغة ثلاثة .. وأن لكل علم تعريفا خاصا ، ولا يصلح تعريف علم منها لأن يكون تعريفا للبلاغة . فهل يصر الاستاذ شاهين على أن هذا التعريف للبلاغة لا يختلف فيه اثنان ، أو يسلم معنا

---

١ - الرسالة - العدد ٦٩٤ ص ١١٦٦ و١١٦٧ .

أنه كباحث أراد النهوض فكبا .

على أني كنت أنقد الأستاذ في علم البيان وقلت في ـ هذا الفن ـ أقصده فهل يحتج بتعريف علم المعاني على كلام في علم البيان ؟

وينتقل الأستاذ العماري بعد ذلك الى نقطة أخرى وهي قضية المادية في التشبيه فهو يرى أن اللغة العربية مملوءة بالتشبيهات المحسة التي لا ترمي الى معان وراءها ، وقد عاب على الشيخ الخولي أن يعتبر جعل العلماء بيان حال المشبه من أغراض التشبيه (كلاما فارغا) ، وأن الأستاذ شاهين لما جاء يرد علينا هذا لم ينصف الشيخ أمين الخولي ولم ينصفنا فالعرب يقولون : أسود كحلك الغراب ، ويقولون : أحمر كالدم القاني ، ويقول امرؤ القيس :

ترى بعر الآرام في عرصاتها وقيعانها كأنه حب فلفل

ويقول الله سبحانه وتعالى : " وجفان كالجواب وقدور راسيات " أفلا تكون هذه التشبيهات مقبولة حتى نتلمس لها معاني وراءها .

ثم يعود الأستاذ العماري فيقرر أن التشبيه فن وهو يكون في الماديات البحتة كما يكون في المعنويات ، وتلمس المعاني وراء كل تشبيه تعنت وحذلقة . . . وهو لا يأخذ كلام المتقدمين قضايا مسلمة دائما ، كما لا يتهم أذواقهم ، بل يقبل منها المقبول ويرفض منها ما يتبين له أنه ضعيف واه ، وليس كلامهم الذي ساقه بالكلام الضعيف الواهي ، ولكنه حسن جميل ، يعتمد على الذوق قبل كل شيء ، فأنت حين تسمع ذكر المشبه تستشرف لما يجيء بعد وتخطر في ذهنك أكثر التشبيهات الغريبة ، فاذا أتى الشاعر أو الناثر بتشبيه بعيد نادر وقع في نفسك موقعا مناسبا ، وعرفت مقدار ما لقي الشاعر في استخراج هذا التشبيه .

ثم ينتقل العماري الى قصة جرير ويقرر أن الاعجاب والحسد من جرير ليس لمجرد أن الشاعر عدى بدوي والمشبه به حضري ، ولكن سر الاعجاب أن الشاعر استطاع أن يأتي بمشبه به موافق كل الموافقة للمشبه ثم كونه جاء

ـــن مكان بعيد لا ينتظر أن يهتدى اليــــه .

ويشرح الأستاذ العمارى ذلك فيقول : غزال صغير له قرن صغـــير فى طرفه سواد أراد الشاعر أن يلتمس له شبها ، وجرير حاضر ، فوقع فى نفسه أنه لا يمكن الاتيان بشبيه له لدقته وبعده عن الأفهام . فلمــا تهدى اليه الشاعر ووجده فى قلم لم يصب من المداد الا قليلا ، ووجد جرير أن الشبه تام بين المشبه والمشبه به حسد عديا على هذه القوة البيانية . أما أنه حسده على أنه أتى بشبيـه حضرى فمعنى ذلك أن جريرا كان يتوقع من الشاعر أن يهتدى لهذا التشبيه نفسه أو مثله من التشبيهات الحضرية ، وما أظن جريرا خطر على باله شئ من ذلك ، وهب أن شاعرا شبه شيئــا بدويا بشئ حضرى وكان التشبيه ضعيفا واهنا أكان يعجب ذلك جريرا ؟ لا ، وانما اعجابـــه لما ذكرنــا .

وسواء كان رأى الدكتور العمارى أصح أم رأى الأستاذ شاهين ، فــان النقد الحديث بعد ذلك بسنوات طويلة قال رأيه فى ذلك الموضوع ، وقرر أن التشبيه الحسى يجب أن يدل على ناحية معنوية تتصل بعاطفة الأديــب واحساسه .

فالأستاذ سيد قطب يرى أن ابن المعتز فى معظم تشبيهاته كان يفقـــد صلة الاتصال بالكون والحياة وهذا الاتصال هو أخص القيم الشعورية فـــى العمل الأدبى . فمثلا : قول ابن المعتز فى وصف الهلال :

انظر اليه كزورق ـــن فضة قد أثقلتــه حمولة من عنبر (١)

نراه قد فقد "صلة الاتصال بالكون لأنه لا يتجاوز رؤية البصر ، ولا يلمـــح وراءها أية رؤية شعوريــة من منظر الهلال والسماء والطبيعة ، انما هـــو جامد لا ايحاء له ولا ظل فى الحس ولا فى الشعور . . والخصوصية فى الشعور ومدى العمق والشمول فى الاتصال بالكون والحياة ، وصحة الشعور ، وصدق الاتصال هى أخص القيم الشعورية فى العمل الادبى" (٢) .

---

١ ـ هذا البيت نسبه الأستاذ عبد الكريم الخطيب الى ابن الرومى . انظر أعجاز القرآن جـ ١ ص ١٩٦ .

٢ ـ النقد الأدبى أصوله ومناهجه ـ سيد قطب ـ ص ٣٢ ط٣ .

والدكتور غنيمي هلال يقول وهو يتحدث عن مقاصد الصورة الأدبية في العصر الحديث : " وعلى الرغم من أن صور الشعر وظيفتها التمثيل الحسي للتجربة الشعرية الكلية ، ولما تشتمل عليه من مختلف الاحساسات والعواطف والأفكار الجزئية ، فانه لا يصح بحال الوقوف عند التشابه الحسي بين الاشياء من مرئيات أو مسموعات أو غيرها دون ربط التشابه بالشعور المسيطر على الشاعر في نقل تجربته ، وكلما كانت الصورة أكثر ارتباطا بذلك الشعور كانت أقوى صدقا ، وأعلى فنا . ولهذا كان مما يضعف الأصالة اقتصار الشاعر في تصوير شعوره على حدود الصور المبتذلة التي تقف عليها الحواس جميعا ، والتي هي صور تقليدية . . . ولكن أشد ما يضعف الصورة فنا هو أن يقف بها الشاعر عند حدود الحس مما تسميه البلاغة العربية القديمة " الجامع في كل " دون نظر الى ربط هذا التشابه الحسي بجوهر الشعور والفكرة في الموقف " (١) .

ومثل ذلك قال الأستاذ العقاد في الديوان : " واذا كان كدك في التشبيه أن تذكر شيئا أحمر ثم تذكر شيئين أو أشياء مثله في الاحمرار فما زدت على أن ذكرت أربعة أو خمسة أشياء حمراء بدل شئ واحد ، ولكن التشبيه أن تطبع في وجدان سامعك وفكره صورة واضحة مما انطبع في ذات نفسك ، وما ابتدع التشبيه لرسم الأشكال والألوان محسوسة بذاتها كما تراها ، وانما ابتدع لنقل الشعور بهذه الأشكال والألوان من نفس الى نفس . وبقوة الشعور وتيقظه وعمقه واتساع مداه ونفاذه الى صميم الأشياء يمتاز الشاعر على سواه ، ولهذا لا لغيره كان كلامه مطربا مؤثرا ، وكانت النفوس تواقة الى سماعه واستيعابه ، لأنه يزيد الحياة حياة كما تزيد المرآة النور نورا . وصفوة القول أن المحك الذى لا يخطئ في نقد الشعر هو ارجاعه الى مصدره ، فان كان لا يرجع الى مصدر أعمق من الحواس فذلك شعر القشور والطلاء ، وان كنت تلمح وراء الحواس شعورا حيا ووجدانا تعود اليه المحسات فذلك شعر الطبع والحقيقة الجوهرية " (٢) .

---

١ ـ النقد الادبي الحديث ـ د . غنيمي هلال ص ٤٥١ .

٢ ـ المرجع السابق ص ٤٥٣ .

ونعود فنقول : ان عصر ابن المعتز ـ غير عصرنا ـ له طابعه وتصوراته ، والتشبيه الحسى المجرد فى عصره كان مستساغا مقبولا ، بل ربما جاء جميلا أخاذا اذا كانت صورة المشبه به كذلك .

واذا كنا فى العصر الحديث نطمح الى تجديد البلاغة فليس معنى ذلك أننا ننكر علم القدماء وآراءهم ، ونجحد فضلهم ، ونؤاخذهم بما فعلوا ، فهم بذلوا جهودا كبيرة مشكورة لم نبذل بعضها بعد . ولكن لنا أن نرى ما يناسب عصرنا من نتاجهم ونأخذ به ، فنشكرهم على ما أخذنا ، ولا نلومهم على ما تركنا . فمن يدرى . . لو كانوا فى عصرنا لكان لهم رأى آخر .

معركة أخرى حول " القصر " :

عاد الأستاذ العماري الى مناقشة الأستاذ الخولي في علم المعاني والمناقشة هذه المرة حول "القصر" . يقول :

" انتهينا في المقال السابق من مناقشة آراء الأستاذ الخولي فيما يتعلق بعلم البيان ، وقد أغضينا عن أشياء استكثرنا على علم الأستاذ وفضله أن تكون من آرائه وتوجيهاته ، فنحن هنا لا ننقد الا ما يتأكد عندنا أنه من رأيه بمراجعة النسخ المختلفة لمذكرات الطلاب ، أو بأن يشيع الرأى في فصل من الفصول فيتكرر فيه مرات . ولقد علمنا بالحكمة المأثورة " ما استقصى كريم قط" فأنكرنا بعضا وأعرضنا عن بعض .

وحديثنا اليوم عن آرائه في باب القصر ، وهو باب تعرض منه لثورة عنيفة ، فقد مزقه الأستاذ اربا اربا ، ورمى بكل شلو منه في ناحية ، فذهب بقطعة الى علم النحو ، ومضى بثانية الى علم البيان ، أما سائره فأبقاه في علم المعاني ولكن بعد أن هاض جناحه ، وتحيف أطرافه .

ورأيه أن القصر الجدير بأن يبحث عند البلاغي هو القصر الادعائي أما القصر الذى يعبر عن الواقع فيجب أن يبقى في علم النحو ، لأنه يؤدى به أصل المعنى المراد فقط ، والبلاغي انما تعنيه المعاني الثانية ، وهي المعاني التي يومئ اليها الكلام وراء المعنى الأصلي : (القصر صيغة من صيغ التعبير العربية التي تحتاج اليها في أداء المعاني الاصلية ، وتأتي المرحلة الثانية وهي أن القصر الحقيقي مادام حقيقيا بمعنى أنه مطابق للواقع فهو مرحلة لا تتجاوز أصل المعنى وصحته ، أى أن معناه النحوى هو دائما معناه الوحيد ، ولا يخرج عنه الى أغراض أخرى . أما القصر الادعائي فبخلاف ذلك له وراء المعنى الأول لصيغة القصر معان أخرى يرمى اليها المتكلم ، ومن أجلها لجأ الى هذا الادعاء فأسقط من حسابه كل شئ غير المتكلم فيه وأثبت المعنى الذى عنده له) .

ثم يقول : (القصر الادعائي اذا توسعنا قليلا في فهمه وتطبيقه فاننا نستطيع

نقله من باب المعانى الى اسلوب من أساليب التعبير الأدبى ، فلانقصر المسألة على البحث اللفظى والدلالة على جزء المعنى الذى هو مطابقة الكلام لمقتضى الحال . اذن نخرج من باب القصر بأسلوب يدخل فى البيان لافى المعانى) .

ويذهب الأستاذ العمارى فى جولة حول الفرق بين النحو والبلاغة والحد الفاصل بينهما ، وعند ذكر المسند اليه وحذفه ، وعن حالات القصر المختلفة وأنها كلها تفيد التوكيد والتقوية وأن التوكيد من أوليات الأغراض البلاغية ، ثم بسط القول فى أدوات القصر ليقطع " كل حجة على من يتهم العلماء بأنهم ضيقوا دائرته ، وأنهم غفلوا عن مزاياه ، وأنهم وضعوا فى علوم البلاغة ما كان يجب أن يوضع فى علم النحو " . وبعد كل ذلك يرد على الأستاذ الخولى فى رأيه عن القصر الادعائى :

" أما الذهاب بالقصر الادعائى الى علم البيان فأمره اشد غرابة . ذلك أن علم البيان وضع ليحترز به عن التعقيد المعنوى ، فهو يبحث فى الجملة من حيث أداؤها للمعنى ، فينظر فى ألفاظها ومدلولاتها وتركيبها ، فمرجع مباحثه الى اللفظ التركيبى ومدى تأديته للمعنى ، فالتشبيه والمجاز والاستعارة والكناية كلها طرق يمكن البحث فى صورها من حيث دلالتها على ماسيقت له ، وليس كذلك القصر الادعائى ، فان المزية التى فيه ليس لها مظهر فى صورة الكلام وانما مظهرها فى اعتبار المتكلم ، فتناسى المتكلم لكل حالة غير الحالة المتكلم فيها أمر فى نفسه هو ، ولا مظهر له فى أجزاء تركيب الجملة ، وانما الجملة مشيرة له ، ففرق بين أن نقول : ماشوقى الا شاعر ، وبين أن نقول : شوقى بلبل غرد ثم سكت ، فأنت تبحث فى الثانية عن الكلمات وأدائها للمعنى ، وأما فى الأولى فأول مرجعك قصد المتكلم وغرضه ، والحال التى ألجأته الى هذا التعبير ، وهذا هو مبحث علم المعانى .

على أن العلماء قالوا : ان الجملة يمكن النظر اليها من جهات مختلفة فهى من حيث مطابقتها لمقتضى الحال تكون من مباحث المعانى ، ومن حيث

أداؤها للمعنى تدخل فى مباحث البيان . ولا شك أن القصر بجملته يلاحظ فيه الأحوال الداعية .

وقد يمكننا على هذا أن ننقل كثيرا من الأساليب الى علم البيان ، فالالتفات بأقسامه الكثيرة ، والتعبير بالخبر عن الانشاء ، والأسلوب الحكيم ، والتعبير عن الأمر بطريق الاستفهام ومايتصل به من المباحث الطويلة العريضة كل أولئك مما يمكن التلمس لها فتدخل فى مباحث البيان ، ولكن أهى غريبة عن علم المعانى ؟ أهناك داع الى هذا التمزيق ؟ لا .

<u>للحديث بقية :</u>

عاد الاستاذ العمارى يواصل حديثه عن القصر وينقد آراء الخولى فيه نقدا موضوعيا ، وقد صرف النظر عن الرد على الأستاذ شاهين وترك ذلك لقراء الرسالة .

يقول : يعيب علينا بعض الكاتبين أننا نستأنس بما كتبه المتقدمون فى مقالاتنا التى ننقد بها بعض آراء الجامعة فى البلاغة ، ويزعمون أن المتقدمين كانوا أصحاب أذواق مريضة ، ومن العجب أن حجة الكاتب على مايكتب هو ما ينقله عن بعض كتابنا المحدثين ، أفيحرم علينا أن نستضئ بامام البلاغة الشيخ عبد القاهر الجرجانى ، ويحل له أن يتكئ على مايقوله المحدثون ؟ . .

ثم انى كنت اعتزمت أن أرد على هذا الذى يجادلنى على صفحات " الرسالة " ولم أجد سبيلا أهدى الى الحق من أن أحتكم الى عقول قراء الرسالة ، وكثيرون منهم يفهمون هذه المسائل على وجوهها الصحيحة ، وهى بين أيديهم .

وعجيب أن نعيب على المتقدمين جهودهم فى خدمة علوم البلاغة ونحن لم نفعل شيئا " لقد ظل علماء البلاغة منذ القرن الثانى للهجرة الى أوائل القرن السابع وهم ينشئون هذه العلوم وينمونها ، حتى اكتملت على يد أبى يعقوب يوسف السكاكى ، فلما جاء من بعدهم من العلماء وقف بهم

الاجتهاد ، ولكنهم جاهدوا وجهدوا ، وخدموا هذه العلوم بمالا نرى موضعا لتفصيله الآن ، فماذا صنعنا نحن ؟ ملأنا أذهان التلاميذ ، وغرف الدراسة بالعيب على المتقدمين والنيل منهم ، والطعن فى كفاياتهم ، ولكن من غير أن نبنى قاعدة ، أو نهدم على بصيرة ، وانى لأرى مايتمثل به فى هذا الموضع المثل العربى : " أسمع جعجعة ولا أرى طحنا " .

وقد سمعت أن الشيخ أمين الخولى يريد أن يرد على مقالاتنا هذه التى يسميها " حركة الرسالة " بكتاب فى البلاغة يخرجه للناس ، وانا منتظرون بفارغ الصبر هذا الكتاب انتظار المتعطش الى التجديد فى هذه العلوم . وقد نكون أول من يرفع الصوت فى امتداحه اذا وجدنا فيه مايعدون به ، ولعله لا يكون صورة لهذه الرسائل الصغيرة التى أخرجها الشيخ ونقدنا بعضها .

ثم نعود الى مناقشته فى بعض مسائل القصر ، اتماما لما كنا بدأنا به :

<u>النفسيون والقصر الاضافى</u> :

لا يرتضى - الأستاذ الخولى - تعريف العلماء للقصر الاضافى ، فيطالعنا بتعريف آخر دعاه اليه - فيما نظن - رغبته فى أن يربط علوم البلاغة بعلم النفس وهو نوع من التجديد ، ووجد أنسب مايلصقه بالقصر الاضافى هذا الذى يسميه علماء النفس " تداعى المعانى " فما يمنع أن يكون القصر الاضافى نظر فيه إلى هذه الفكرة النفسية ؟

والذى حفظناه عن مشايخنا ، وقرأناه فى كتب العلماء ، أن القصر الاضافى يكون حين تتمثل صفتان فى ذهن ، فقد يعتقد اجتماعهما فى موصوف وأنت تريد أن تبين له خطأ هذا الاعتقاد فيكون قصر الافراد ، وقد يعتقد ثبوت احداهما دون الأخرى وأنت تريد أن تعكس عليه اعتقاده فيكون قصر القلب ، وقد يحار فى أمر الصفتين : فاذا أثبت له احداهما ونفيت الأخرى كان قصر التعيين . فمدار القصر الاضافى اذن على صفتين أو أكثر فى ذهن المخاطب وأمام بصيرته ، وله فيهما اعتقاد . لكن الشيخ يقول :

" وأساس القصر الاضافي مايقرره النفسيون ، ويسمونه تداعي المعاني ، أي أن المعاني يرتبط بعضها ببعض بطريقة الضدية أو المناقضة أو المنافاة أو التلازم أو التكامل . والقصر الاضافي قائم على افراد معنى من المعاني لا على أنه لا يوجد سواه في الموصوف ، ولكن على أساس أن تبعد سواه هذا عن تفكير المخاطب . أي أن هذا النوع حاجز بين الصفة التي تريد اثباتها للمتحدث عنه ، وبين ما يمكن أن يقفز الى ذهنه من الصفات عند ذكر هذه الصفة . فمثلا تقول : ما زيد الا رياضيا ، فعند ذكر كلمة رياضي يحدث تداع في المعاني فتجول في الذهن صفات أخرى نحو : مهندس ، فلكي ، موسيقي ، مخترع ، أديب . ولكن اذا قصرت وأتيت بالأسلوب على هذا النحو فقد أبعدت كل هذه الوجوه " .

وهذا كلام واضح وصريح في أن المقصود من القصر هو ابعاد ما عسى أن يجول بذهن المخاطب من الصفات التي تتصل بهذه الصفة المثبتة ، وكأن ليس عند المخاطب صفة ينكرها وأخرى يثبتها ، ويبنى على هذا ـ ولا شك ـ فساد هذا التقسيم الذي ذكره العلماء للقصر الاضافي .

وقبل أن نرد على الشيخ نحب أن نذكر له ولمن يعيب علينا استدلالنا بكلام المتقدمين ، أن الشيخ عبد القاهر رحمه الله ، تنبه لهذه الفكرة ، ولكنه لم يكن يعرف تداعي المعاني أو تناديها ، فلم يملأ الجو صياحا وضجيجا ، بل مر بذكر المسألة في بساطة وسهولة فقال في كتابه دلائل الاعجاز :

" واعلم أن قولنا في الخبر اذا أخر نحو ما زيد الا قائم ، أنك اختصصت القيام من بين الأوصاف التي يتوهم كون زيد عليها ونفيت ما عدا القيام عنه ، فانما نعني أنك نفيت عنه الأوصاف التي تنافي القيام نحو أن يكون جالسا أو مضطجعا أو متكئا أو ما شاكل ذلك ، ولم نرد أنك نفيت ما ليس من القيام بسبيل اذ لسنا ننفي عنه بقولنا : ما هو الا قائم ، أن يكون أسود أو ابيض أو طويلا أو قصيرا أو عالما أو جاهلا ، كما أنا اذا قلنا : ما قائم الا زيد ، لم نرد أنه ليس في الدنيا قائم سواه ، وانما نعني ما قائم حيث نحن وبحضرتنا

وما أشبه ذلك ".

ونلاحظ أن الشيخ عبد القاهر كان دقيقا كل الدقة فلم يقل ان هذا فى القصر الاضافى ، وانما ساقه على أنه فكرة عامة فى القصر ، وأمثلته صالحة لأن تكون قصرا حقيقيا (تحقيقيا أو ادعائيا) وأن تكون للقصر الاضافى ، ولكن بشرط أن يعين المخاطب فى ذهنه المثبت والمنفى .

ثم نرد على الأستاذ فنقول له : ارجع الى شواهد القصر الاضافى ، فسترشدك الى أن النزاع يكون فى شيئين ماثلين فى ذهن المخاطب ، ولنسق نحن جملة من الشواهد الفصيحة :

يقول الله تعالى : " انما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر " . " وما أنت بمسمع من فى القبور ان أنت الا نذير " ." ماهذا بشرا ان هذا الا ملك كريم " . ويقول صلى الله عليه وسلم : ليس الشديد بالصرعة انما الشديد من يملك نفسه عند الغضب "." انما أنا قاسم والله يعطى " وهكذا اذا تتبعنا الأمثلة التى مدح فيها بالمثبت والمنفى وجدنا أن كليهما معلوم للمخاطب ، وله فيه نظرة . فاذا كان المنفى عاما لم يكن من القصر الاضافى ، ولذلك يقول بعض العلماء ان قول الفطمش الضبى : الى الله أشكو لا الى الناس اننى أرى الأرض تبقى والأخلاء تذهب من القصر الحقيقى .

قسم رابع القصر :

انتهى العلماء منذ زمن بعيد من تقسيم القصر الاضافى ووقفوا عند قصر الافراد والقلب والتعيين ، باعتبار حال المخاطب فى اعتقاد الشركة أو العكس أو التردد ، ولكن الأستاذ يتنبه الى أن القسمة الفعلية كانت تقتضى قسما رابعا ، وذلك فى حال ما اذا كان المخاطب خالى الذهن ، وينعى على العلماء اهمالهم هذا القسم الرابع . يقول :" وعلى ذلك يتضح لنا أن اغفال الحالة الرابعة ، وهى حالة خلو الذهن ، فى باب القصر غير مبنى على نظر صحيح . . . فمثلا يجوز لك أن تقول لخالى الذهن تماما : لا اله الا الله ، اعتمادا على مايقدرونه فى علم النفس من أن الخطأ الأول يصعب اصلاحه

والصورة الأولى يعسر محوها ... أما نحن فنقول لهم : ان أسلوبكم يقتضي أن ترددوا مواقف المخاطب بين هذه الأحوال الأربعة ، فلم أغفلتم الحالة الرابعة ؟ "

ويرد الأستاذ العماري على السؤال قائلا : والذى نؤكده أن تقسيم العلماء مبني على نظر صحيح وأنه لا حالة رابعة هناك حتى نتهمهم بأنهم أغفلوها ، وأدنى نظر في طبيعة القصر الاضافي يرشدنا الى ذلك ، فلا يدفعه أن يكون المخاطب عارفا بالمثبت والمنفى ، فأنت تقول له : شوقي شاعر لا كاتب اذا كان يعرف هاتين الصفتين في شوقي فيثبتهما معا أو ينفى أحدهما أو يتردد فيهما ، أما اذا قلت له هذا القول وهو يجهل كل الجهل شاعرية شوقي وكتابته كان كلامك خلفا من القول ، وبعيدا عن اعتبار البلغاء ، فاذا اردت أن تلاحظ هذه العلة النفسية ، وأن تؤكد من بادئ الأمر ، رجعنا الى جهة أخرى ، وهي اخراج الكلام على مقتضى الظاهر ، ويقال حينئذ : ان المتكلم نزل المخاطب الخالي الذهن منزلة المنكر أو المتردد أو العكس ، ويرجع الأمر الى قسم من هذه الأقسام الثلاثة . والعلماء انما يذكرون المقاسم الأصلية ، أما الأمور المنزلة فيرجعونها الى مشابهاتها ، ومعروف ذلك عند من درس ، فهم يجعلون أضرب الخبر ثلاثة ، ثم ينزلون المنكر منزلة غير المنكر ، والعكس ، وهكذا . ولا يحق لنا أن نقول ان هذه أضرب أخر للخبر .

على أن المثال الذى ذكره الأستاذ (لا اله الا الله) لخالي الذهن لا يصح مطلقا أن نجعله من القصر الاضافي ، وانما القصر فيه حقيقي ، وهذه الأقسام الثلاثة كما هو معروف لا تتأتى في القصر الحقيقي .

<u>مرامي أخرى للقصر أهملها البلاغيون :</u>

العلماء قصروا في أغراض القصر ، وحصروها في النفي والاثبات وهو أمر يجب أن نؤاخذهم به .." والذى نأخذه على صاحب الايضاح ومن لف لفهم من البلاغيين أن شعورهم كان يجب أن يتسع حتى يشمل ما وراء القصر بانماط من أنواع القصر ، فكان يجب أن يوسعوا حسهم أكثر من ذلك ، فليس القصر للاثبات والنفي ، بل هو للتضييق والتحديد ... ولعله ثبت مما قلناه أن للقصر

مرامى أخرى وراء المعنى النحوى أهملها البلاغيون " .

وهذه الأغراض التى ذكرها ومثل لها هى غرضان :

التوهين : ومثل له بقوله تعالى " وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل "

والتأنيب : ومثل له بقوله تعالى على لسان عيسى عليه السلام :

" ماقلت لهم الا ماأمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم " .

عرض الخولى هذين المثالين وقال : اذا نظرنا الى المثال الأول وجدنا أن التعبير بكلمة رسول عنصر أساسى فى المعنى قصد به (التوهين) من شأن الرسول فى هذا المقام . " محمد ده يطلع أيه ؟ مرسال زى بقية المراسيل بيجى ويروح ، القصر هنا واضح فى أن المقصود به التوهين من أثر الرسول فى الدين ، ولذلك جاءت تسميته هنا برسول ، ولو قال ، نذير ، هاد ، سراج ، لقطع الطريق على هذا الغرض " .

واذا نظرنا الى المثال الثانى نجد " هذا التأنيب المؤلم مستفادا من وراء الألفاظ ، وهو هنا المرمى البلاغى للقصر ويدل عليه " .

وقال الأستاذ المعمارى :

قبل أن نرد على هذا الكلام المتداعى نذكر ماقاله العلماء فى أغراض القصر حتى ننفى عنهم تهمة أنهم ضيقوا حسهم أو قصروا :

قالوا من دواعى القصر :

١ ـ داعى القصر الحقيقى التحقيقى : بيان الواقع .

٢ ـ داعى القصر الادعائى : المبالغة وعدم الاكتراث بماعدا المقصور عليه .

٣ ـ الرد على المخاطب فى قصر القلب وقصر الافراد .

٤ ـ تعيين المبهم عند المخاطب فى قصر التعيين .

٥ ـ قد يقصد من القصر مجازاة الخصم .

٦ ـ التنبيه على أمر هو مقتضى الكلام والغرض منه ، وجعل القصر وسيلة اليه ، وذلك كثير فى انما .

٧ ـ تنزيل غير المنكر منزلة المنكر لاعتبار مناسب فيخاطب بأسلوب القصر (١)

أما ردنا على ماذكره الشيخ من أغراض فواضح أنه ليس القصد فى الآيات الأولى الحط من مقام الرسالة فى الدين ، وهل يريد الله سبحانه وتعالى أن يقول : ان محمدا ليس شيئا ؟ لا . ياشيخ المسألة أن الله يقول لهم : لا معنى لتعلق الدين بمحمد ـ أى بحياته ـ فان الرسل قبله ماتوا وسيموت هو مثلهم ، ولا ينتهى الدين الذى يدعون اليه بانتهائهم ، لأن مهمتهم الرسالة والتبليغ ، والرسالة ولوأنها أمر له قيمته وخطره لكن لا يجب أن يتعلق ايمان الناس بمدة حياة صاحبها ، فهو انما يدعو الى الله .
ولعل مما يدل على ذلك أن العرب لم يفهموا أن القصد التوهين من شأن الرسالة ، وهذا أبوبكر يستشهد بها يوم وفاة الرسول ، فهل كان يريد أن يقول لهم : ان محمدا ليس شيئا فى الدين ؟ مانظن ذلك ولا نرضى لمسلم أن يظنه .

وأما التأنيب فى الآية الثانية فليس مستفادا من القصر ، وانما هو مستفاد من السياق ، استفهام تعجبى ، واتخاذ آلهة من دون الله ، وهو صادر عن النبى ، وهو المدعى عليه ، أنه دعاهم الى عبادته وأمه " أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله " ؟ هذا كثير ومدعاة الى تأنيبهم ، أما القصر فلا يفيد التأنيب ، وهب عيسى عليه السلام لم يقل الا جملة القصر أكان يستفاد منها التأنيب ؟ وبذلك تسقط دعواه أن التوهين والتأنيب من اغراض القصر . ووقفنا عند الأغراض التى ذكرها المتقدمون ، ولا نزال فى انتظار الجديد .

هذا ولنا تعليق على ذلك ، فان كلا من التوهين والتأنيب يصلح غرضا من أغراض القصر ، ولكن فى غير ماورد من أمثلة . مثال ذلك :
ما أنت الا طالب : تقال للطالب المهمل ، والمراد منها التأنيب أو الحث على المذاكرة .

ما أنت الا مخلوق ، تقال لمن يتعاظم ، والمراد منها التوهين .

---

١ ـ مذكرات الشيخ سليمان نوار ص ١٨٨ .

قديمنـــا ... و ... جديــد الناس

وهذا بحث آخر للدكتور العمارى مكمل لبحوثه عن (علوم البلاغـــة في الجامعة) تحدث فيه عن التجديد في الفصل والوصل (١) يقول :

" وانما أفردته بعنوان خاص لأن أستاذ البلاغة في الجامعة قد أسـرف في التجنى على القديم حين عرض للباب الذى سنتناوله في هذا الحديـــث.

وذلك هو باب (الفصل والوصل). وهو باب لا يزال مغلقا على كثـــرة من طرقه من الباحثين ، قدامى ومحدثين . .

فقد أجهد الأقدمون فيه أنفسهم ، فجعلوا يؤسسون قواعده ، ويخرجون شواهده ، وجاء المحدثون المجددون فلم يعجبهم هذا الاتجاه من الأقدمين فسلك بعضهم مسالك أخرى ، منها مابني على نظر سليم ، ومنها ماحـــاد عن جادة البحث العلمى الاصيـــــل .

وقد كانت الفكرة عند القدامى في هـــذا الفصل أنه صعب المدخل وعـــر المسلك ، فانه لا يكاد يخلو كتاب من الكتب من الاشارة الى مافى هذا البحث من صعوبة .

قال الشيخ عبدالقاهر الجرجانى : (اعلم أن العلم بما ينبغى أن يصنـــع في الجمل من عطف بعضها على بعض ، أو ترك العطف فيها ، والمجئ بهـــا منثورة تستأنف واحدة منها بعد أخرى ، من أسرار البلاغة ، ومما لا يأتـــى لتمام الصواب فيه الا الأعراب الخلص ، والأقوام طبعوا على البلاغة ، وأوتـــوا فنا من المعرفة في ذوق الكلام هم بها أفراد ، وقد بلغ من قوة الأمر في ذلـــك أن جعلوه حدا للبلاغة ، فقد جاء عن بعضهم أنه سئل عنها ، فقال : معرفة الفصل من الوصل . وذاك لغموضه ودقة مسلكه وأنه لا يكمل لاحراز الفضيلـــة فيه أحد الا كمل لسائر معانى البلاغة) (٢) . وقال في موضع آخـــــر :

(واعلم أنه مامن علم من علوم البلاغة أنت تقول أنه فيه خفى غامض ودقيـــق صعب والا وعلم هذا الباب أغمض وأخفى وأدق وأصعب) (٣) .

---

١ ـ راجع : قضايا بلاغية للدكتور العمارى .ص١٠٤ .

٢ ـ دلائل الاعجاز ص ١٧٠ .

٣ ـ المصدر السابق ص١٧٨ .

فلما جاء أبو يعقوب السكاكي في القرن السابع الهجري كان سبيله الى فهم هذا البحث مما يزيده دقة وصعوبة ، فلم يلبث أن قال : (وانها جهات ارتباط الجمل - لمحك البلاغة ، ومنتقد البصيرة ، ومضمار النظار ، ومتفاضل الأنظار ، ومعيار قدر الفهم ، ومسبار غور الخاطر ، ومنجم صوابه وخطائه ، ومعجم جلائه وصدائه ، وهي التي اذا طبقت فيها المفصل شهدوا لك من البلاغة بالقدح المعلى ، وأن لك في ابداع وشيها اليد الطولى) (١) .

واذا قال عبد القاهر والسكاكي ما قالا فعلى من جاء بعدهما أن ينهج نهجهما ويسلك خطتهما . وقد كان . فما من عالم الا له الى ذلك اشارة حتى وصلنا في كتب المتأخرين الى أنه بحث : (تسكب فيه العبرات) .

هكذا صوره الأقدمون بصورة رهيبة مخيفة .

أما المحدثون فيطالعك حين تقرؤهم أمران :

الأول : أن أساتذتنا يعتمدون على المتقدمين ، وينهلون من معارفهم ويردون ، ثم تراهم ينسبون كثيرا من آراء القدامى الى أنفسهم . . . .

وقد كنت أحسب أن هذه الخلة اختص بها الناشئون من أصحاب الرسالات الدراسية التي يقدمونها لينالوا بها درجة علمية ، فاذا الأساتذة والطلاب في هذا المعنى سواء .

الثاني : لو قرأت ما كتبه المعاصرون - أو على وجه الدقة بعضهم - وفي هذا الفصل الذي تسكب فيه العبرات لخلصت من ذلك الى أنه فصل غير جدير بالنظر ، وما تحتاج في فهمه الا الى دقائق معدودة . فقد أخذوا يحذفون منه ، ويضيقون من دائرته ، ويرمون أكثر مباحثه الى علم النحو .

وأريد في هذه الكلمات أن أناقش جماعة منهم . ولأبدأ بأستاذ البلاغة في الجامعة المصرية الشيخ أمين الخولي :

ابتدأ فتابع القدامى في رأيهم من أن هذا المبحث من المباحث التي يحتاج السالك فيها الى قوى غير عادية حتى يسلكها . وعبارته :

(فالفصل والوصل من الصعوبات لأنهما ترجمة عن أشياء ليست مكتوبة بل

ملحوظة ، فهما ظاهرة من ظواهر الدقة فى العربية ، كما أنهما مظهر من مظاهر ميلها الى الاكتفاء والايجاز ، لأنه يستعمل أيضا فى بيان دلالات أخرى بين الأسطر ، وفى تضاعيف الكلام وراء الدلالة اللفظية الساذجة ، فكما اعتمدنا فى القراءة على الاعراب ،وكذلك اعتمدنا فى الكتابة على الترقيم ، وفى الكلام على الفصل والوصل) . (١) .

ونحن لا نناقش هذه المتابعة ، فهى عدوى سرت فى المؤلفين من قديم .

ثم ثنى الشيخ .. فرأى أن محاولة القدماء غير مجدية ، وأنه لذلك يجب أن يحاول محاولة جديدة تكون أجدى على العلم ، وأنفع للدارس .

قال : (وعلى ذلك فان المصلحة تقتضى بأن نشطب هذه المحاولة القديمة، ونحاول فهم الأمر على ضوء طبعى هو السياق والمعنى دون اللفظ) .

واذا سألت عن عيب (المحاولة القديمة) أجابك فى اجمال :

(ومع الأسف لم ينظر القدامى الى الفصل والوصل الا فى حيز الجملتين ، هذا الحيز الضيق ، ولم يتجاوزها الى الجمل . ولكنا سننظر الى الفقرة كلها ، والقصيدة مجتمعة ، والمقالة كاملة . كما أن القدماء ـ كما قال فضيلته ـ (ركبهم عفريت فقالوا : ان الباب ده باب الواو وبس ، فما السبب ؟) .

واذن فسيحدثنا الأستاذ عن هذا الفصل والوصل فى الفقرة الكاملة ، وسيشمل كلامه غير الواو من أحرف العطف ، وهذا حسن . فلننظر الى أى مدى تتحقق الأحلام ؟ . ان القدامى قعدوا هذا الباب على هذا النحو ، قالوا : ان الجملتين يفصلان فى مواضع ، ويوصلان فى مواضع ، وجعلوا مواضع الفصل هى :

١ ـ اذا كان للجملة محل اعرابى ، أو حكم لم يقصد ادخال الثانية فى واحد منهما .

٢ ـ اذا كانت الثانية من الأولى بمنزلة التوكيد أو البدل أو عطف البيان . وسموا ذلك (كمال الاتصال)

٣ ـ اذا اختلفت الجملتان فى الخبرية والانشائية ، أو لم يكن بينهما جامع . وسموا ذلك (كمال الانقطاع)

---

١ ـ نقلا عن كراسة من كراسات طلابه بكلية الآداب .

٤ ـ اذا كانت الثانية منزلة منزلة جواب لسؤال اقتضته الأولى . وسمـــوا ذلك (شبه كمال الاتصال) .

٥ ـ اذا أوهم العطف على جملة العطف على أخرى عطفا يفسد المعنى وسموا ذلك (شبه كمال الانقطاع) .

أمـا مواضـع الوصل فهـي :

١ ـ اذا قصد مشاركة الجملة الأولـى فى المحل أو فى الحكم الاعرابــي .

٢ ـ اذا اتفقت الجملتان فى الخبرية أو الانشائية وكان بينهما جامع وسموا ذلك (التوسط بين الكمالين) .

٣ ـ اذا أدى الفصل الى ايهام غير المقصود . وسموا ذلك (كمال الانقطـاع مـع الايهام) .

هذا مجمل ماارتآه القدامى . فجاء الأستاذ الخولى ، فرأى أن يحـذف من هذه القواعد كل ماله صلة بالنحو ، لأن البلاغة انما تبحث فى الجائـز ، فاذا كان الفصل واجبا ، أو اذا كان الوصل واجبا ، فهذا بحث نحوى لابلاغى وعبارته : (وحيث يوجد الجواز يكون عمل البلاغة لأن البلاغة ترجيح أحد الجائزين عن طريق الاحساس والذوق ، واذا كان لابد من الواو فان البلاغة تنسحب) .

وهذا نظر حسن ، واتجاه حميد ، ولكننا اذا جئنا عند التطبيق رأينـا المسألة قد التوت ، والطريق قد اعوجت . قال (شبه كمال الانقطاع هـذا بحث لادخل للبلاغة فيه ، لأن مبناه على الايهام ، ومادامت المسألة دخل فيها الايهام فهى من صميم النحو، لأن الايهام هو افهام غير المراد ، أى هـو فساد المعنى ، والبلاغى انما يفرض أن اللفظ قد أفاد المعنى ، ثم يبدأ عمله بالمفاضلة بين اعتبارين) .

ثم يتكلم الأستاذ بافصاح أكثر حين يعرض للمثال الذى مثل به القدامـى للعطف الموهم ، أو لشبه كمال الانقطاع ، وهو :

وتظن سلمى أننى أبغى بهـا ... بدلا أراهـا فى الضلال تهيـم

ويقول : (وأداروا الكلام فى المسألة على العطف الموهم ، فقالوا : ان

الجملة الثانية بمنزلة المنقطعة عن الأولى لكون عطفها عليها موهما لعطفها على غيرها . أى أنه لم يعطف (أراها) فى البيت على (تظن) لئلا يتوهم السامع أنه معطوف على (أبغى) لقربه منه ، مع أنه ليس بمراد . ولا تدخل مسألة الفصل هنا فى البلاغة ، لأنه أمر ليس فيه احتمالات ، وليس له وجه آخر ، ولا حيلة فيه ، أى انه أمر نحوى) .

وبهذا البيان استطاع أستاذ البلاغة فى الجامعة أن يريحنا من مسألة ذات خطر من مسائل الفصل والوصل ، ويلقى بها بعيدا عن حظيرة علم المعانى ، لتدخل فى حظيرة علم النحو .

غير أننا مانلبث أن نرى هذا البريق ليس الا سرابا خادعا ، وأن هذه المسألة لوجمل الشيخ أمين وألف مثله يدفعونها بأيديهم وأرجلهم لتخرج عن بابها الذى ألفته ، وموضعها الذى نشأت فيه ما استطاعوا .

فنحن نقول : ان اللغة العربية فيها من الايهام ، مالا يكاد يحصى ، والقرينة - بعد - وسيلة من وسائل رفع الايهام ، ولسنا نمثل الا بهذا البيت نفسه على الوضع الذى جاء عليه ، والذى ظن الأستاذ أن البيت فيه سليم معافى .

فنظرة عابرة ترينا أن البيت - مع الفصل - فيه ايهامان لا ايهام واحد ، فجملة (أراها) تصلح أن تكون حالا من فاعل (أبغى) ، وتصلح أن تكون خبرا ثانيا لـ (أن) ، وكلاهما مما يفسد به المعنى ، ولكن البيت صحيح .

وقد قالوا فى قوله تعالى :" واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم انما نحن مستهزئون ، الله يستهزئ بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون " ان جملة (الله يستهزئ بهم) يصح عطفها على الجملة المصدرة بالشرط ، لكنها لم تعطف عليها لئلا يتوهم عطفها على (قالوا) هذا العطف الذى يفسد المعنى . فالنحو لا يمنع العطف مع الايهام بل يجوزه ، وهو لا يعنيه الا صحة التركيب ، وصحة المعنى ، ولو على ضعف .

أما البلاغة فوظيفتها تجميل المعنى وتحسينه ، ورفع ما عساه يشوك طريقه اليه .

ومن عجب أن الأستاذ الخولى قال كلاما شبيها بهذا حين تحدث عن اختصاص الواو بهذا الباب . قال : (ان الواو قصدت ، وكانت اصل هذا الباب ، لأن هناك اعتبارات يصح الاتيان فيها بالواو أو عدمها مع بقاء أصل المعنى ، ولو على نوع من الضعف ، أو عدم التأثير ، فهذا بلاغى . وأما لورفعت الواو ففسد المعنى أو تغير ، فهذا لا يدخل فى البحث البلاغى) .

وبدهى أن الايهام لا يفسد المعنى ، لأن السامع يستطيع أن يفهم المراد ، ولو بعد التوهم . وتعبيرهم بكلمة (ايهام) - وهى الدلالة الضعيفة - دليل واضح على أن هذا أمر عارض لا يفسد المعنى ، ولا يغيره ، ولكن يجعل عليه سحابة رقيقة بيضاء ، تخفيه بعض الخفاء ، ثم لا تلبث أن تزول عنه .

وكل من يستطيع أن يفهم معانى الكلام لا يغم عليه أن جملة (أراها) اذا عطفت لا يمكن عطفها على جملة : (أبغى بها) .

وكذلك لا يمكن أن يقر فى ذهن فاهم أن جملة (الله يستهزئ بهم) معطوفة على جملة (انا معكم) والا كانت من قول الكافرين ، وهذا محال . ولذلك صح العطف فى قوله تعالى : (فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) فقوله (ولا يستقدمون) معطوف على مجموع الشرط والجزاء ، لا على الجواب ، اذ لا معنى لقولنا : اذا جاء أجلهم لا يستقدمون . ومع ذلك ربما توهم السامع فى بدء الأمر أنه معطوف على جملة الجزاء .

ولا أظننا نحتاج بعد ذلك أن نقيم دليلا على أن (الايهام) لا يمنع العطف .

مرة أخرى مع الفصل والوصل

مرة أخرى يعود الدكتور العمارى الى دخول المعركة البلاغية دفاعا عن الفصل والوصل ، وذودا عن علمائنا القدامى وتراثهم . يقول :

لم ينصفنا من يظن أننا ندافع عن القديم لأنه قديم ، وننافح عن السابقين من علمائنا تعصبا لهم ، ونأخذ الطريق على المحدثين استهانة بهم وبآرائهم ، فما الى ذلك قصدنا ، وكيف ؟ وقد جاء فى بعض ماكتبناه أن كشفنا عن بعض عيوب كتبنا القديمة ، ودعونا الى التخلى عن هذه العيوب ، واراحة الدارسين من همومها وأثقالها . (١) .

وأحيانا نتمسك بالقديم مرغمين ، لأننا نتلفت حولنا فلا نجد فى جديد الناس مايغنى غناءه ويسد مسده ، فلا نستطيع أن نوافق على هدم القديم ، وليس بين أيدينا صالح ترتكز عليه بلاغتنا العربية .

والفكرة عندنا لا تزال كما كانت عند أسلافنا : يقول أبو العباس محمد بن يزيد المبرد : (وليس لقدم العهد بفضل القائل ، ولا لحدثان عهد يهتضم المصيب، ولكن يعطى كل مايستحق) . (٢)

ويقول أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينورى : (ولا نظرت الى المتقدم فيهم بعين الجلالة لتقدمه ، ولا المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره ، بل نظرت بعين العدل الى الفريقين ، وأعطيت كلا حقه ، ووفرت عليه حظه ، فانى رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ، ويرذل الشعر الرصين ولا عيب له عنده الا أنه قيل فى زمانه . ولم يقصر الله الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوما دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده ، وجعل كل قديم منهم حديثا فى عصره . . . فكل من أتى بحسن من فعل أو قول ذكرناه له ، وأثنينا عليه به ، ولم يضعه عندنا تأخر قائله ، ولا حداثة سنه ، كما أن الردئ اذا ورد علينا للمتقدم أو الشريف لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه) . (٣)

---

١ ـ انظر رأى د . العمارى فى الفصل السابق (آراء في تجديد البلاغة) الجزء الاخير من المقال .

٢ ـ الكامل جـ ١ ص ١٨ ط التجارية .

٣ ـ الشعر والشعراء جـ ١ ص٧ .

ثم نمضي الى القصر :

قد انتهى الحديث في المقال السابق الى هدم نظرية (الايهام) والاتكاء عليه لجعله وسيلة الى اخراج بحث (شبه كمال الانقطاع) من البحث البلاغي ، وبينما أن الايهام لا يمنع العطف نحويا ، وانما يمنعه بلاغيا .

ونحب أن نضيف في هذا الحديث أن علماءنا كانوا متنبهين الى هذه الفكرة فقد ذكروا أن الايهام يوجد في كل من كمال الاتصال وشبهه ، وأن صاحب التلخيص انما اقتصر على ذكره مع كمال الانقطاع لكثرته فيه ، بل قالوا انه يكون في الأقسام كلها . قال ابن السبكي في عروس الأفراح : " ولك أن تقول : الايهام كما يدفع الفصل بين الجملتين اللتين بينهما كمال الانقطاع ، يدفعه بين اللتين بينهما كمال الاتصال ، وكذا غيره من الأقسام السابقة واللاحقة فليعتبره الناظر ، والايهام مشروط بألا يعارضه ايهام آخر " .

ثم نراهم يحاولون أن يخرجوا من دائرة البلاغة - أيضا - بحث (كمال الانقطاع) وبحث كمال الاتصال ، ويعتمدون على أن العطف أساسه المغايرة والمناسبة .

فنحن لا نعطف الا شيئين متغايرين متناسبين ، والمغايرة الا يكون المعطوف نفس المعطوف عليه ، ولا جزأه . وتقول جاء زيد نفسه ، أو جاء زيد زيد ، فلا تحتاج للعطف اذ لا مغايرة فيها ، بخلاف ما اذا قلت : جاء زيد وابنه ، فالعطف لازم هنا لوجود المغايرة . وكذلك تباين الشيئين يمنع من أن نضع بينهما علاقة وصل لأنهما غير صالحين للاتصال . ومن المتفق عليه أن كمال الانقطاع اختلاف السياق ، فهما كلامان ليست بينهما وحدة ، فليس معقولا أن يتصلا . وعلى ذلك فليس هذا الموضع محل بحث بلاغي لأنه وجه واحد لا يمكن العدول عنه .

وأما كمال الاتصال وهو توكيد ومؤكد ، أو بدل ومبدل منه ، أو بيان ومبين ، فهو باب وحده . ذلك أن الاتحاد فيه في السياق تام ، فطبيعي أنه سياق واحد فلا داعي للوصل فيه ، اذ أغنى عن ذلك شدة الاتصال .

هذا موجز مقالة أستاذنا في الجامعة . وخلاصته أن الباحث في الفصل

والوصل يجب علية أن يطرح عنه بعيدا هذين الموضعين ، لأن الفصل فيهما واجب ، والبلاغة انما تبحث في الجائز .

ولست واجدا شيئا من العناء في الرد على هذا ، فان العطف جائز بين الخبر والانشاء ، وقد نقل عن سيبويه جواز : جاء زيد ومن عمرو ، ولا خلاف عندهم في جواز هذا العطف في نحو قوله تعالى :" وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل " .

وأما كمال الاتصال فبحسبنا أن نقول لهذا الشيخ : ان هذه التوابع ليست توابع اصطلاحية ، ولذلك نرى علماءنا في غاية الدقة حين قالوا في كل واحد منها (فوزانه وزان كذا) من توكيد أو بدل أو بيان . على أننا نرى النص الأدبي الواحد يكون بيانا فيعطف مرة ولا يعطف أخرى :

قال تعالى في سورة البقرة :" واذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم ... " .

وقال عز وجل في سورة ابراهيم :" واذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم اذ نجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم ... " .

ولعل من العجب أن يقول هذا الباحث في قوله تعالى : (أمدكم بما تعلمون أمدكم بأنعام وبنين) : (كان يمكن أن يعطف فيقول : وأمدكم) .

يالله ... تحلونه عاما وتحرمونه عاما .

بقي عند الشيخ شبه كمال الاتصال وهو أولى الأقسام عنده بأن يخرج عن البحث البلاغي .. (المسألة ـ اذن ـ ليست مسألة سؤال وجواب واستئناف وبتاع ، ومن المؤسف أن يقع فيه عبد القاهر نفسه) وانما المسألة ـ عنده ـ أن هناك كلامين لمتكلمين مختلفين حقيقة أو حكما ، ومادام الأمر كذلك فالفصل واجب ، لأنه لا يعطف كلام شخص على كلام شخص آخر .

واذا أراد أي دارس أن يفهم هذا الباب كله من أوله الى آخره ، فما عليه ـ بحسب زعم أستاذ البلاغة ـ الا أن يفهم هاتين الكلمتين : (اذا كان الخطاب

بين متعددين حقيقة فهذا أول مواضع الفصل ، وهو أسلوب الحوار - ولم يعطنا الشيخ فكرة عن أسلوب الحوار هذا - والأصل فى الحوار أن يكون بين شخصين ، وقد يقع لى مثل حالتين مختلفتين لشخص واحد ، فالحوار الذى نقصده هنا هو الذى يقع بين متعددين حقيقة أو حكما . حقيقة هذا أول مواضع الفصل حكما : هذا أول الكلام فى الفصل والوصل . والأصل فيه أنه حيثما وجد التقابل بين كلامين فهو أول مواضع الفصل ، وحيثما وجد تكامل بينهما كان ذلك أول مواضع الوصل ، واذا حدث اللبس أو التردد بين هذين الطرفين دخل عمل علم البلاغة ، وتعدد السياق اعتبار يدخل فيه شبه كمال الانقطاع . وأما فى كمال الانقطاع فاما أن يتعدد السياق ، واما أن يتحد ، فاذا تعدد السياق فهما كلامان ، واذا وجدت بينهما مناسبة فالفصل . واذا اتحد فاما أن يتعدد المتكلمان حقيقة أو اعتبارا ، وحينئذ نستغنى عن الوصل ونفصل ، واما أن يتحد المتكلم بالجملتين ، وحينئذ يجب الوصل) .

وبهذا البيان اللطيف وبهذا التقعيد الرائع نخلص من هذا الباب الذى كانت (تسكب فيه العبرات) .

والحق أنى - الى هنا - وقفت ، ولست بمستطيع أن ازيد بيانا أو ايضاحا ولعل فى العلماء المتعمقين فى دراسة البلاغة من يستطيع أن يفهمنا هذه القاعدة الجديدة لهذا الباب المسكين !!

••

اقـــــتراح فـــى بـــاب الفصل والوصل

الحوار الساخن الذى أداره الدكتور العمارى بينه وبين الأستاذ الخولـــى فى باب الفصل والوصل ـ على ما فيه من فائدة علمية ومتعة نفسية ـ لم يصـــل بنا الى وضع نستريح اليه فى دراسة هذا الباب المهم .

ونحن فى العصر الحديث لا يعنينا كثيرا أن ينتقل باب الفصل والوصل كلـه أو بعضه الى علم النحو أو يبقى فى عرينه البلاغة ، بقدر ما يعنينا أن نهيئ هذا الباب العلمى الهام بحيث يصبح فى متناول الدارسين ، قريبا الى أفهامهـــم خفيفا على عقولهم وأذهانهم ، وبحيث يمكن أن يطبق ويستعمل فى الكتابـــة الأدبية والعلمية .

أما أن يكون كل تجديدنا أن ننقل منه جزءا أو أجزاء الى علم النحو فهـــذا ليس ـ أبدا ـ حلا للمشكلة ، انما نقل لها من مكان لآخر فقط لا غير .

واذا كان باب (الفصل والوصل) يدور ويرتكز على "الواو" ذكرا وحـــذفا فلماذا لا نستغنى عن هذا الباب ونستبدله ببحث صغير يتلخص فـــى :

مقدمة : تشتمل على جزأين :

أ ـ حديث موجز عن الواو بين المفردات ، وما يفيده استعمالها حينذاك مع التمثيل .

ب ـ حديث موجز عن الواو بين الجمل ، وما يدخل فى هذا من اعتبارات وحالات بايجاز .

الفصل الاول : حالات يجب فيها استعمال الواو ـ مع التمثيل .

الفصل الثانى : حالات يمتنع فيها استعمال الواو ـ مع التمثيل .

خاتمـــــة : يذكر فيها بعض حالات جواز استعمال الواو ، وتفضيل ذلك ان كان هناك أفضلية .

ويجب ملاحظة ما يأتـــى :

١ ـ الأمثلة لكل حالة تكون كافية للافهام والقياس عليها .

٢ - الشرح يكون فى الهامش وهو لمن يطلب المزيد من الفهم والتعمق .

٣ - الهامش يجب أن يخلو من الخلافات والتعقيدات ، وأن يكون بأسلوب العصر .

٤ - تتراوح الأمثلة بين الحديث والقديم ، وتكون جميلة واضحة ، تضيف الى الدارس ثروة لغوية ، وتؤثر فى ذوقه واحساسه بالجمال .

هذا ونرجو أن يتوفر لنا من الوقت والجهد والتوفيق مايمكننا أن نضع هذا البحث قريبا ان شاء اللـــه .

تجديد البلاغة فى الجامعة :

وهذا مقال آخر يتحدث فيه العمارى عن تجديد البلاغة فى الجامعة كما يتحدث عن كتابى الأسلوب وفن القول (١) :

" قلت فيما سبق ان رجال الجامعة لم يصنعوا شيئا فى تجديد البلاغة العربية ، غير أن ملؤوا غرف الدراسة ، وأذهان الطلاب بالطعن على المتقدمين والتنويه بقصورهم وتقصيرهم ، فلننظر فيما بين أيدينا من كتب لنرى مصداق ذلك .

فى سنة ١٩٣١ ألقى فضيلة الأستاذ الشيخ أمين الخولى محاضرة فى الجمعية الجغرافية الملكية ، وسماها " بحثا تاريخيا تجديديا " تحدث فيها عن صلة الفلسفة بالبلاغة ، وتكلم طويلا عن نشأة البلاغة وتطورها والمدارس التى احتضنتها ، ثم تحدث عن الدراسة فى كلية الآداب ودعا الى تجديد البلاغة تجديدا شاملا . وكان مما قاله :

(وهى - يعنى الكلية - فى اخلاص المجدد المستنير بالتاريخ تستطيع أن تختط طريق الدرس الفنى ، وتجعله واضح المعالم ، مغايرا لطريق البلاغة التى سميناها البلاغة العلمية ، كما عزمت على أن تتلافى ماكان من أثر الفلسفة فى تحديد البلاغة وقصور بحثها ، لأن الزامها حدود دراسة الجملة قد حرمها من أبحاث ضرورية للفن الأدبى ، أبحاث نراها فى بلاغات اللغات الحية ، ويجب أن نتناولها بالدرس ، ومن تلك الأبحاث : الأسلوب ، واختلافه ، وأوجه تفاوته ، ومزايا أنواعه المختلفة ، ومن ذلك البحث فيما وراء المعنى الجزئى : تشبيه - استعارة - كناية - من معنى كلى وغرض يقصد اليه الأديب ...الخ).

أبحاث كثيرة يدعو الأستاذ الى تناولها بالدرس وبذلك يجدد البلاغة العربية .

ظفر فى فم الأمانى حلو ليتمنه لنا قلامة ظفر

وتمضى خمسة عشر عاما كان يمكن أن ترى فيها أثرا لهذه الدعوة ، ولكننا نفاجأ فى سنة ١٩٤٦ بكتاب للشيخ أمين يسميه " فن القول " .

ويقول فى الصفحة الرابعة منه " انى أحس احساسا قويا عنيفا بحاجة

---

١ - قضايا بلاغية ص ١٠١ د . العمارى .

حياتنا الأدبية واللغوية الى دراسات كثيرة واسعة لم نقم بها ، ولا هيأنا السبيل لا تمامها ، ولواستطعنا أن نعرف بها ونقنع بضرورتها وندفع اليها ونقوم بمحاولات أولية فيها ، لنخلق الجيل الذى يقوم بها ويتمها ، فذلك خير مانسدى لعصرنا ، وجل مانؤدى به واجبنا .

ولن أظن لحظة أننا قد أوفينا فى ذلك على الأمل المرجو ، والمثل المنشود أبدا ، لأن الميدان خال بل مقفر . وسنرى فى البلاغة التى نزاول درسها هنا مثلا لذلك بينا " .

واذن فالشيخ أمين لم يصنع شيئا فى هذه المدة الطويلة ، ولم يصنع غيره كذلك ، لأن الميدان " خال مقفر " فهل يكون هذا الكتاب الذى يخرجه هو العمل المرجو فى تجديد البلاغة ؟ هذه محاضرات القاها فى معهد الدراسات العليا ، وقد وصلنى منها ١٢٠ صفحة ، وباقيها فى المطبعة كما أظن ، وكان من حق الشيخ علينا أن ننتظر حتى يتم طبع المحاضرات ، ولكنا نقول هنا كلمة ولا يزال الباب مفتوحا : مائة وعشرون صفحة هى مقدمة لعمل تجديدى فى البلاغة ، فماذا تناول فيها ، تحدث فى أربع عشرة صفحة عن التفسير الحيوى والاجتماعى لفكرة انشاء المعهد ، ثم التفت الى ما كان نشره من محاضرات ومقالات فأعاد نشرها بشىء من البسط والاسهاب فتكلم عن نشأة البلاغة وعن منهج دراستها عندنا وعند غيرنا ، وتحدث عن اللغة العامية واللغة الفصحى ومشكلات اللغة الفصحى . كل ذلك فى هذا العدد الضخم من الصفحات اعتبره مقدمة لكتابه . أليس ذلك حسنا ؟ لقد ذكروا أن أحد الرجاز أتى نصر بن سيار والى خراسان ، ومدحه بأرجوزة تشبيبها مائة بيت ومديحها عشرة أبيات ، فقال نصر : والله ماتركت كلمة عذبة ولا معنى لطيفا الا وقد شغلته عن مديحى بتشبيبك . وانا أرجو ألا يكون كتاب " فن القول " كهذه الأرجوزة .

لكن جزءا من دعوة الشيخ أمين قد تحقق ، فقد أخرج الأستاذ أحمد الشايب كتاب " الأسلوب " وتكلم فيه عن كل المباحث التى دعا الشيخ الى

تناولها ، فهل هذا الكتاب عمل تجديدى ؟ لننظر (١) . . . .

ومهما يكن من شئ فلا زلنا عند رأينا من أن الجامعيين تركوا البلاغة العربية كما كانت على عهد السكاكى ، واذا كانوا صنعوا فانهم لم يزيدوا على أن رجعوا الى كتب البلاغة قبل السكاكى ، وكتب النقد الأدبى فاغترفوا منها ، وهذا عمل يشاركهم فيه كثير من أبناء دار العلوم ومن أبناء كلية اللغة العربية بالأزهر . فأين هو التجديد يارئيس الامناء ؟" .

والآن وبعد أن استعرضنا هذه المعركة البلاغية . . . وهى فى الحقيقة كانت دافعا قويا لاثارة قضية تجديد البلاغة العربية . . أقول نستطيع الآن أن نتساءل : لماذا لم يتصد الأستاذ أمين الخولى ويرد بنفسه على تلك المقالات التى كتبها الدكتور العمارى ونقد فيها أسلوب الخولى وآراءه فى بعض مسائل البيان والمعانى ؟ ولماذا ترك هذه المهمة للأستاذ كامل شاهين الذى تطوع لنزول المعركة والدفاع عنه ؟

وفيما يبدو أن الأستاذ الخولى كان مشغولا فى ذلك الوقت بتأليف كتابه ـ فن القول ـ الذى أراد به الرد على " حركة الرسالة " كما سماها .

وقد أشار الى ذلك الدكتور العمارى حينما قال : " وقد سمعت أن فضيلة الأستاذ الشيخ أمين الخولى يريد أن يرد على مقالاتنا هذه التى يسميها " حركة الرسالة " بكتاب فى البلاغة يخرجه للناس وانا منتظرون بفارغ الصبر هذا الكتاب انتظار المتعطش الى التجديد فى هذه العلوم " (٢) .

ولكن الأستاذ الخولى تأخر كثيرا فى اصدار هذا الكتاب وحدثنا الدكتور العمارى عن ذلك فى احدى مقالاته فقال :

أبحاث كثيرة يدعو الأستاذ الخولى الى تناولها بالدرس ، وبذلك يجدد البلاغة العربية .

ظفر فى فم الأمانى حلو   ليت منه لنا قلامة ظفر

---

١ ـ انظر : كتاب الأسلوب فى الميزان . من هذا البحث .

٢ ـ الرسالة ـ العدد ٧٠١ ص ١٣٥٩ .

وتمضى خمسة عشر عاما كان يمكن أن ترى فيها أثرا لهذه الدعوة ، ولكننا نفاجأ فى عام ١٩٤٦ بكتاب للشيخ أمين يسميه " فن القول " .

واذا كان الشيخ أمين الخولى قد تأخر كل هذا الوقت ، فان أحد أمنائه قد بادر وأصدر كتاب " الأسلوب " قبل ذلك بحوالى ثمانية أعوام . . متضمنا كثيرا من آرائه وأفكاره فى تجديد البلاغة .

ولذلك فنحن مراعاة للترتيب الزمنى نتناول بالحديث والبحث أولا كتاب " الاسلوب " لمؤلفه الأستاذ احمد الشايب الأستاذ بكلية الآداب فى ذلك الحين .

وهذا الكتاب ـ فيما وجدنا ـ هو أول محاولة لوضع منهج جديد متكامل للبلاغة العربية . فهل وفق الأستاذ الشايب فى هذه المهمة الجديدة الشاقة . هذا ما سنحاول أن نعرفه فى الصفحات القادمة .

الباب الثالث

مناهج جديدة للبلاغـــة

الفصل الأول : منهج الشايب .

الفصل الثانى : منهـج الخولـى .

الفصل الثالث: المنهج المدرسي الحديث.

الفصل الرابع : رأى الباحث فى تدريس البلاغة .

الفصل الأول

منهج الأستاذ الشايب وكتابه " الأسلوب "

أعجب بكتاب " البلاغة الواضحة " كثيرون من عشاق البلاغة والأدب لطرافته وجدته .. ويبدو أن الأستاذ أمين الخولي كان ضمن المعجبين به وخاصة بالبحث الجديد الموجز عن " الأسلوب " الذى أضافه الكتاب الى الفصاحة والبلاغة .. بالاضافة الى ماقرأه الأستاذ الخولي واطلع عليه من الأدب الغربي الحديث وفيه يأخذ " الأسلوب " حظا وافرا من العناية والدرس. وفى سنة ١٩٣١ أصدر الخولى بحثا عن : (البلاغة العربية وأثر الفلسفة فيها) . وكان من رأيه فى هذا البحث أن الفلسفة أساءت الى البلاغة اساءة بالغة فقد كانت سببا فى تضييق دائرة بحثها .. وحرمتها من أبحاث ضرورية .. كما جعلت الغاية منها كلامية (١) .. ثم قال : اننا نحتاج الى أبحاث جديدة يجب ادخالها فى بلاغتنا وذلك مثل البحث فى " الأسلوب " واختلافه وأوجه تفاوته وأنواعه المختلفة والبحث فى فنون القول الأدبى نثره وشعره ... وماطرأ من فنون جديدة خلقتها الحياة بعد الرسائل والمقامات كالبحث فى المقالة التى هى أروج فنون القول النثرى والفن القصصى الذى طغى على الفنون الأدبية الأخرى . (٢) ودعا الى تجديد البحث فى البلاغة على أساس جديد .

---

(١) أنظر مناهج تجديد ص ١٧٠ - ١٧١ .

(٢) المرجع السابق ص ١٧٥ - ١٧٦ .

ويبدو أنه كان لهذه الدعوة من الأستاذ الخولى أثر ما .. فقد طلع علينا الأستاذ الشايب بكتابه (الأسلوب) داعيا فيه الى نهج جديد فى البلاغة .. يقول فى مقدمة كتابه - الطبعة الأولى - : (أما بعد فهذه فصول فى الأسلوب مهدت لها ببيان ماينبغى أن نسلكه فى درس البلاغة العربية حتى تساير الدراسات الأدبية الأخرى فى عصرنا الحديث. وقد رأيت نشرها لتكون فاتحة لتناول ماتضمنت من مسائل ، ومقدمة لدراسات أوفى وأكمل ينهض بها الباحثون.) (١)

ويقول فى مقدمة الطبعة الرابعة (٢) : (أريد بهذه المقدمة أن أبيّن فى اجمال هذا المنهج الجديد لعلم البلاغة العربية ، وهو منهج أجملته فى كتاب (الأسلوب) منذ ظهرت طبعته الأولى فى سنة ١٩٣٩م، ودرّسته فى كليتي الآداب ودار العلوم بجامعة القاهرة.

ويقوم هذا المنهج على ملاحظة أن الدراسة النظرية للبلاغة العربية انتهت عند المتقدمين الى علوم المعانى والبيان والبديع ،يدرسون فى الأول الجملة منفصلة أو متصلة ، ويدرسون فى الأخيرين الصورة بسيطة أو مركبة من تشبيه ومجاز وكناية وحسن تعليل ، مع توابع أخرى فى علم البديع ، وهذه الدراسات على خطرها لا تستوعب أصول البلاغة كما يجب أن تكون ، لتساير الأدب الانشائى فى أساليبه وفنونه.

لذلك أشرنا فى هذا الكتاب الى أن علم البلاغة العربية يجب أن يوضع وضعا جديدا يلائم ما انتهت اليه الحركة الأدبية فى ناحيتيها :

---

(١) ص ٤ الأسلوب ط ٤.

(٢) ط ٤ سنة ١٩٥٦ مكتبة النهضة المصرية.

العلمية والانشائية. ورأينا أن يدخل علم البلاغة في بابين أو كتابين : الأول : باب الأسلوب أو كتابه - ويتناول دراسة : الحروف ، والكلمات ، والجمل ، والصور ، والفقرات ، والعبارات ، على أن تدرس درسا مفصلا دقيقا يعتمد على علوم الصوت ، والنفس ، والموسيقا وما اليها مما يقوم الأسلوب على أنه صورة فنية أدبية. وفي هذا الباب أو الكتاب تدخل موضوعات المعاني والبيان والبديع - لا على أنها علوم مستقلة - بل على أنها فصول في باب الأسلوب يتناول بحوثها كما يتناول غيرها .

أما الباب أو الكتاب الثاني : فيدرس الفنون الأدبية وقوانينها شعرا ونثرا ، يدرس أصول المقالة ، والخطابة ، والرسالة ، والجدل ، والوصف ، والرثاء ، والقصة ، والملحمة ، والتمثيلية ، والتأريخ ، والتأليف الى غيرها من هذه الفنون الأدبية التي زخرت بها الآداب العالمية ، وشرعت قواعدها ، ولم تحظ في بلاغتنا النظرية الا باشارات خاطفة لا تغني شيئا ، ولعل ذلك هو مادعا قدمائنا الى القول بأن البلاغة علم لم ينضج ولم يحترق كغيره .

هذا المنهج يرد عليك مجملا في هذا الكتاب حين أعجلني الزمن عن تفصيله وعسى أن يهب لي الله من الوقت والجهد ماييسر عليّ وضع (أصول البلاغة) فان أمكن ذلك . والا فقد رسمت الخطة وأجملتها ودعوت اليها من عهد بعيد .

منى ان تكن حقا تكن أحسن المنى والا فقد عشنا بها زمنا رغدا

والله الهادي لأقوم سبيل .) (١)

---

(١) ص ٤٤ ، ٥ الأسلوب ط ٤ .

وأمام هذه المقدمة أجدني أقف متأملا مشدودا تراودني خواطر وأفكار عدة .. فالأستاذ الشايب يقول انه وضع منهجا جديدا لعلم البلاغة العربية وأنه أجمله في هذا الكتاب .. وأنظر في صفحات الكتاب فأجدها قد تجاوزت مائتي صفحة .. ترى كم مائة أخرى من الصفحات يحتاجها ليفصل لنا هذا المنهج تفصيلا !!

ويقول الأستاذ الشايب : (ورأينا أن يدخل علم البلاغة في بابين أو كتابين : الأول : باب الأسلوب أو كتابه : ويتناول دراسة : الحروف والكلمات والجمل والصور والفقرات والعبارات على أن تدرس درسا مفصلا دقيقا يعتمد على علوم : الصوت والنفس والموسيقا وما اليها ....) ، ونسى المؤلف أن يذكر أيضا علوم القرآن واللغة والأدب والنقد فهي أمس بالبلاغة وأكثر تداخلا معها .. وندمج كل ذلك في مزيج نسميه بعد الخلط والمزج " الأسلوب ".

ومن البديهي أن من العلوم ما يحتاج بعضها الى بعض .. فعلوم الجبر والحساب والهندسة علوم مستقلة ولكنها متعاونة يساند بعضها بعضا. وكذلك الشأن في علوم الطبيعة والكيمياء والفيزياء .. وفي علمي التاريخ والجغرافيا .. وليس من شك في أن البلاغة - كذلك - تحتاج الى بعض العلوم التي تعاون في تذوقها وتفهمها .. كما أن بعض العلوم - أيضا - في حاجة اليها . وقد سبق وأشرنا - في التمهيد لهذا البحث - الى أن البلاغة درجت ونمت في أحضان علوم القرآن واللغة والنقد والأدب وأنها حين استقلت بشخصيتها لم تقطع ما بينها وبين هذه العلوم من رحم .. بل ظل بين هذه العلوم وبين البلاغة ما يمكن أن نسميه بالتبادل الثقافي .. وهو أمر لا غنى عنه لكل علم من هذه العلوم وليس للبلاغة وحدها . واذا كان

المؤلف يريد أن يضم علوم الصوت والنفس والموسيقا وما اليها الى تلك الباقة من علوم العربية وأن تصبح عضوا فى جماعتها فذلك أمر مفهوم وميسور .. بل انه ليسرنا أن تكون تلك العلوم مجتمعة واجهة جميلة فعّالة تساعد فى ابراز البلاغة فى اطار أكثر اشراقا وأروع حسنا .. أما أن تدمج هذه العلوم فى البلاغة وتصبح من أقسامها وفى صلب منهجها فهذا أمر يحتاج الى نظر.

ويقول المؤلف : (أما الباب أو الكتاب الثانى : فيدرس الفنون الأدبية وقوانينها شعرا ونثرا يدرس أصول المقالة والخطابة والرسالة والجدل (أى الحوار) والوصف والرثاء والقصة والملحمة والتمثيلية والتأريخ والتأليف الى غيرها من هذه الفنون الأدبية ......)

وأجدنى أتساءل : أليست هذه الفنون " الأدبية " تابعة لعلم الأدب وقد شملها فى العصر الحديث وأصبحت ضمن دروسه وفنونه ؟ واذن فليست شيئا جديدا .. وهل من التجديد أن ننقلها من علم الأدب ونجعلها فى علم البلاغة ؟ ومعنى ذلك فى رأيى أننا نعود بالبلاغة الى عهد نشأتها حيث كانت مختلطة بمسائل النقد والأدب . فهل بعد أن استقلت بشخصيتها وبلغت أشدها يجوز لنا أن نردها الى عهد الطفولة أو مايشبهه ؟ وهل يعتبر ذلك تجديدا ؟!

كانت هذه بعض خواطرى وأفكارى بعد أن قرأت المقدمة .. ولكن لماذا التسرع .. لعلنى على خطأ .. ولعل المؤلف أورد فى منهجه المجمل ماهو جدير بالنظر والتقدير . لذا فلنستمر ولنتوغل بتأمل فى كتابه " الأسلوب " ، أول كتاب تضمن أول منهج جديد لعلم البلاغة فى العصر الحديث .

مقدمات :

قسم الأستاذ الشايب كتابه الى خمسة أبواب ، وعلى الرغم من أن للكتاب مقدمة عرضناها وعلّقنا عليها فى الصفحات السابقة فان المؤلف جعل الباب الأول من كتابه بعنوان (مقدمات) . واشتمل هذا الباب على خمسة فصول ، هى :

أ ـ البلاغة بين العلوم الأدبية .

ب ـ التعريف بالبلاغة .

جـ ـ علوم البلاغة .

د ـ البلاغة بين العلم والفن .

هـ ـ موضوع علم البلاغة .

أ ـ البلاغة بين العلوم الأدبية :

في الفصل الأول يتحدث المؤلف عن العامية والفصحى ويقول ان (اللغة العامية هى لغة الحياة العامة ، والتعاون الاجتماعي اللازم لسير الحياة السريعة ونظامها المطرد الشامل ، وذلك لسهولتها وشيوعها ......)

وأن (هذه اللغة العامية العربية تختلف باختلاف الأقطار والأقاليم ..) و (معنى هذا أن العامية توشك أن تكون هى اللغة القومية لكل قطر من أقطار الشرق العربي ...) و (لذلك نشأت هذه الدراسات الحديثة التى تعنى بالعامية ..) و (مع ذلك لا تعد العامية لغة رسمية ولا يعد أدبها أدبا رسميا يدرس على أنه مقرر يحتذ به المتعلمون ..) .

ويسوق لذلك الأسباب .. ثم يقول:(وليس معنى هذا خلو العامية من الألفاظ الصحيحة أو المعانى القيّمة ، كلا ، فاللغة العامية هى الفصحى طرأت عليها أخطاء ، ودخلت عليها تراكيب ، لم تستطع أن تمحو صوابها كله ، كذلك نجد فيها فنونا أدبية من النثر والنظم ـ كالجدل والحكم والأمثال والأغانى والمواويل والأزجال ـ تجعلها معرضا لكثير من المعانى والموضوعات الأدبية القيّمة ، ولكنها من الأدب الشعبي على أية حال) . (١)

وكان بودى أن أناقش هذا الكلام لولا أنه بعيد عن موضوع بحثي فلنكتف بعرضه الموجز ولنتطرق الى مابعده .

---

(١) ص ٩-١١ الأسلوب .

يتحدث المؤلف بعد ذلك عن اللغة الفصحى .. وأنها لغة الأدب الرسمي .. ويضرب مثالا للأدب بقول المتنبي :

من الحلم أن تستعمل الجهل دونه ... اذا اتسعت فى الحلم طرق المظالم
وأن ترد الماء الذى شطره دم ... فتسقى اذا لم يسق من لم يزاحم
ومن عرف الأيام معرفتى بها ... وبالناس روّى رمحه غير راحم
فلا هو مرحوم اذا ظفروا به ... ولا فى الردى الجارى عليه بآثم

ويستخلص من هذه الأبيات عناصر الأدب وهى : العاطفة - الفكرة - الخيال - الأسلوب . ويقول : (الأدب ينحل الى هذه العناصر الرئيسية الأربعة ، وهذا التحليل نفسه يتوافر فى النثر كما توافر فى النظم على اختلاف فى الدرجة تبعا لاختلاف طبيعة الفنون فيهما ، ومن هنا نستطيع أن نعرّف الأدب بأنه الكلام الذى يعبر عن العقل والعاطفة) .

هذا وموضوع عناصر الأدب الأربعة وتعريف المؤلف للأدب سبق وتحدث عنه فى كتابه " أصول النقد الأدبي " .

ويدخل المؤلف بعد ذلك فى حديث طويل يتناول فيه اختلاف الأمزجة بين الشعراء والكتاب وبين المنشىء والقارىء ويمهد للكلام على نشأة النقد الأدبى ثم يعرّفه بأنه (بيان قيمة النص الأدبى ودرجته الفنية) وهو كلام سبق وذكره أيضا فى كتابه " أصول النقد الأدبى" . ثم يضع قول المتنبى السالف الذكر موضع النقد .. ثم يستطرد فى الحديث عن النقد وأن الأدب سابق والنقد لاحق ويتطرق الى الفرق بين النقد والأدب ثم كيف كان النقد الأدبى من أهم العوامل فى ايجاد البلاغة .. وكيف أنهما عاشا مختلطين لم ينفصلا الا بعد جهد عنيف .. ثم يتطرق الى الفرق بين النقد والبلاغة .. ثم يتحدث عن تاريخ الأدب وأهميته

وأن له وجهين : علم وأدب . ثم يستخلص النتائج الآتية :

(١) الأدب فن خالص ، وهو من الفنون الجميلة .... وتاريخ الأدب يجمع بين الناحية الفنية والناحية العلمية .

(٢) النقد الأدبى جزء من تاريخ الأدب أو هو أداته الأساسية .

(٣) علم البلاغة نافع للأديب والناقد والمؤرخ ولكل كاتب أو متكلم أو خطيب أو مدرس . فانه ينير السبيل أمام هؤلاء جميعا .

وبعد أن ينتهى المؤلف من استخلاص هذه النتائج يذهب يتحدث عن حاجة البلاغة الى علوم أخرى فيقول : (هناك علوم أدبية أخرى لابد للأديب من الالمام بها الماما كافيا ليقى نفسه شر الأخطاء فى التعبير : اللغة ، والصرف والنحو ، والعروض) ، ويتحدث عن كل علم من هذه العلوم مبيّنا أهميتها وأثرها .. ومبيّنا مكانة البلاغة بينها .. وأن الأديب فى حاجة الى الثقافة العامة والأخذ من كل فن بطرف .. وهذه الثقافة تتناول الفلسفة والتاريخ والدين والقانون والفنون الجميلة وغيرها .. وذكر أن ابن الأثير عقد فى صدر كتابه المثل السائر فصلا فى آلات علم البيان وأدواته يحسن الرجوع اليه . (١)

ونقول : ان هذه المقدمة فى (البلاغة بين العلوم الأدبية) مقدمة طيبة ، توضح مكانة البلاغة بين هذه العلوم التى يجب أن يلم بها دارس البلاغة ، حتى يسلم له **أسلوبه** ، وتصح عبارته وتراكيبه ، وعلى البلاغة بعد ذلك أن تجعل هذا الأسلوب جميلا أخّاذا .

---

(١) الأسلوب : ص ١١ - ١٨ بتصرف .

ب ـ التعريف بالبلاغـــة :

اعتمد المؤلف تعريف البلاغة المشهور فى كتب البلاغة وهو : مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته . . وقال : ان هذا التعريف لا اعتراض لنا عليه فى جملته . وقابل بين هذا التعريف وتعريـــف الأستاذ جينونج Genung " البلاغة فن تطبيق الكلام المناسـب للموضوع وللحالة على حاجة القارئ أو السامع " . . وقال : ان الحدود واحدة فى جوهرها وان لوحظ فى الأخير هذه الناحيــــة العلمية فى صراحة واضحة (١) . ولم يوضّـح المؤلف هذه الملاحظة العلمية الصريحة الواضحة وكأنه يلمّح الى أن تعريف جينونج أفضل .. بينما بقليل من التأمل نجد أن تعريفه خال من اشتراط الفصاحة فى الكلام . . ولعل هذا راجع الى أن لغته غير لغتنا التى تمتـــاز بأنها الفصحى .

ويتساءل المؤلف بعد ذلك : كيف فهم علماء البلاغــــة عندنا معنى المطابقة أولا ؟ وما الوسائل التى اعتمدوا عليهـا فـى دروس البلاغـة لتحقيق هذه المطابقة ثانيا ؟ وما هذه العلـــوم البلاغيـة ثالثا ؟

ويستطرد بعد ذلك كأنه يجيب على ماسبق فيقول : (اذا وقفنا عند هذه المسائل التى انتهت اليها أبحاثهم رأيناهـــم يذكرون أن خطاب الذكى يخالف خطاب الغبى ، وخـــطاب الموقن غير خطاب المتردد ، وعلى هذا الأساس غالبا تقـــوم

---

(١) ص ٢٠ الأسلوب .

المطابقة ، لتغذية " قوة الادراك " ، ووسيلة ذلك التصرف فى الجملة وعناصرها ، خبرا وانشاء ، فصلا ووصلا ، تعريفا وتنكيرا ، ذكرا وحذفا ، ثم الاختلاف بين التشبيه والمجاز والكناية ، مما لا يتجاوز كله دراسة الجملة والصورة دراسة قاصرة . ومعنى ذلك أمور ثلاثة :

١) غاية البلاغة فيما يبدو من هذه الدراسة العلمية يغلب عليها الاتجاه الى القوة الفكرية واقناع العقل اقناعا جزئيا قائما على ذكائه أو بلادته وعلى شكه أو انكاره .

٢) ووسيلة ذلك الصورة - التى تختصر علم البيان وقسما من البديع - والجملة الخبرية والانشائية ، وقد درستا من بعض النواحى لا غير .

٣) وعلم المعانى هو الكفيل بدراسة الجملة عندهم ، كما أن البيان يدرس الصورة تشبيها ومجازا وكناية . وأما البديع فقد عدوه شيئا ثانويا لا دخل له فى صميم البلاغة لأنه قائم على دراسة طرق التحسين الذى يلحق بالكلام كالسجع والجناس والمقابلة وما الى ذلك) . (١)

ولا نجد فى هذا الكلام جديدا سوى استعمال المؤلف تعبير " قوة الادراك " بدل كلمة " العقل " ، ويقول ان المطابقة تقوم لتغذيتها ووسيلة ذلك التصرف فى الجملة وعناصرها . . وهو كلام غامض الى حد ما .

---

(١) ص ٢٠ - ٢١ .

والمؤلف يرى أن دراسة الجملة والصورة دراسة قاصرة ..
ونحن نرى أن علم البيان لم يقصر فى دراسة الجملة أو الصورة ..
ولعله أراد أن دراسة الجملة والصورة وحدهما لا يكفى بل لا بد من تجاوزهما الى الفقرة والعبارة والنص بكامله .

ويقول : ان غاية البلاغة يغلب عليها الاتجاه الى القوة الفكرية واقناع العقل اقناعا جزئيا .. ووسيلة ذلك الصورة . بينما الحقيقة أن الصورة خيالية فهى لا تقنع العقل بل تقنع العاطفة والوجدان .

ويتحدث المؤلف بعد ذلك عن غاية البلاغة ووسيلتها فيقول : (أما عن غاية البلاغة ، فليس المراد من الكلام وقفا على تغذية الفكر وحده ، فهناك قوى نفسية أخرى تعنى البلاغة بها لتغذيها وتهذبها ، من ذلك " قوة الانفعال " و " قوة الارادة "... وأما عن الوسيلة فلم تكن اللغة العربية محصورة فى الصورة والجملة وحدهما ، فهناك الحرف والكلمة والعبارة والأسلوب عامة ، وهناك الفنون الأدبية المختلفة شعرا ونثرا كالخطابة والرسالة والوصف والجدل وغيرها مما أهملته هذه الدراسة أو العلوم البلاغية) .

ونفهم من هذا القول أن البلاغة عند المؤلف تمتد غايتها وتتسع حتى تشمل قوة الادراك والانفعال والارادة فى الانسان . وأن وسيلة البلاغة قاصرة لأنها تعتمد على الجملة والصورة فقط .

وأورد هنا رأى الدكتور شوقى ضيف عندما تكلم عن أسباب وقوف أسلافنا عند الكلمة والجملة والصورة .. فقد أرجع ذلك الى أسباب منها :

١- أنهم قصدوا بقواعدهم البلاغية تعليل بلاغة العبارة القرآنية وما تحمل من خصائص تعبيرية وصور بيانية واستوفوا تصوير ذلك تصويرا دقيقا رائعا .

٢- طبيعة شعرنا القديم فقد كان فى جملته وجدانيا غنائيا يجرى فى أسلوب عام واحد سواء فى معانيه أو فى صوره وأخيلته أو فى صيغه وتعبيره .. وتعارف الشعراء على أن كل بيت فى القصيدة وحدة مستقلة ، وهذه الوحدة هى أساس البلاغة والجمال الفنى .

لذلك لم توجد فى محيط الشعراء ولا فى محيط البلاغيين نظرة شاملة عامة للقصيدة ، بل ظلت نظرتهم تنصب على الجزئيات وأفراد الأبيات والعبارات .. ولذلك رسخ فى نفوس البلاغيين والنقاد أن محور البلاغة والبراعة البيت المفرد المسور بالقافية وكادوا لا يتجاوزونه فى قواعدهم النقدية والبلاغية الا ببعض نظرات طائرة أو عبارة عابرة .

ويستطرد الدكتور ضيف مبيّنا ماطرأ على الشعر والنثر فى العصر الحديث فيقول : (أما نحن فنختلف عنهم من هذه الوجهة اختلافا واضحا اذ استحدثنا فى مجال الشعر أساليب وفنونا جديدة من الشعر القصصي والمسرحي ، ومن الشعر الغنائي الوجدانى بماصنعناه فيه من شعر رومانسى ذاتى ومن شعر واقعي اجتماعي ، ومن شعر رمزى ، وماابتكرنا فيه من أنماط تتصل بالشكل على نحو ماهو معروف فى الشعر المرسل والشعر الحر .

أما فى مجال النثر فان تجديدنا كان أبعد عمقا اذ استحدثنا المقالة بجميع صورها السياسية والأدبية والاجتماعية ، واستحدثنا القصة والأقصوصة والمسرحية وحتى الخطابة نفذنا فيها الى نمط جديد من الخطابة

القضائية . وهذا التطور الواسع لأدبنا فى شكله ومضمونه وأساليبه وفنونه حرى أن يقابله تطور فى بلاغتنا بحيث تصور فنوننا الشعرية والنثرية وأساليبها المتنوعة وبحيث تكون صورة صادقة لحياتنا الأدبية الحديثة) . (١)

وقد أوردت هذا الكلام لأفسر به ذاك وأوضح به ما يقصده الأستاذ الشايب من وسيلة البلاغة .

ويبدو أن المؤلف متأثر الى حد كبير بآراء الأستاذ جينونج فى المطابقة وربط البلاغة بعلم النفس لذلك نجده يقول : (لنفهم المطابقة لمقتضى الحال فهما عميقا شاملا يجب أن نقيمه - من حيث الغاية والوسيلة - على طبيعة النفس الانسانية ومواهبها من ناحية، وعلى الأدب؛ أسلوبه وفنونه المختلفة من ناحية أخرى) . ثم يتلو ذلك بقوله : (علم النفس ينفعنا هنا ، ويتعاون مع النقد الأدبى والبلاغة فى تفسير مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، وفى بيان موضوع الدراسة البلاغية بيانا مفصلا منظما ، فكيف نوضح ذلك ؟) (٢)

ويستخدم الكاتب من علم النفس القوى المعنوية الثلاثة ويحدثنا عنها على أنها مجال المطابقة الفسيح وهى : قوة الادراك - قوة الانفعال - قوة الارادة .

قوة الادراك = هى قوة الفهم والفكر والعقل فى الانسان - ويناسبها الأسلوب العلمي .

قوة الانفعال = هى قوة العاطفة والتخيل فى الانسان - ويناسبها الأسلوب الأدبى .

---

(١) البلاغة تطور وتاريخ ص ٣٧٦-٣٧٨ ط٢ .
(٢) الأسلوب ص ٢١ .

قوة الارادة = وهى نتاج مجموع الأمرين السابقين - وهى تناسب الخطابة التى تعتمد على الاقناع والتأثير معا فى أسلوبها . (١)

وأنا أرى أن هذه الأمور تدرس فى علم الأدب والنقد . . بل ان الأدب فى العصر الحديث تناولها وضمها الى أبوابه . . وليس فى ضمها الى البلاغة من فائدة الا زيادة فى التقسيمات والتفريعات. والمؤلف بعد أن تحدث باسهاب عن قوة الادراك والانفعال والارادة قال فى النهاية : (وقد رأيت أنها جميعا تندرج تحت هذا المعنى العام لكلمة الأدب) . (٢)

وانى لأتساءل : ماجدوى كل ذلك لعلم البلاغة؟ وما الجديد الذى أضافه فأفاد ؟ .. ان من واجب الأديب والبليغ أن يطلع على كثير من العلوم الأخرى ومنها علم النفس .. لأن ذلك يفيده على وجه الاجمال .. ولكن أن يصبح علم النفس قسما من أقسام البلاغة .. أو عاملا من عوامل تربية الذوق البلاغى .. فهذا يبعد بنا عن دائرة تجديد البلاغة الذى نرجو أن يكون فى صميم موضوعها وموجزا ومختصرا وواضحا .. ليساعد الدارسين ويفيدهم .

ثم ماقيمة هذه التعبيرات التى نقلناها عن علم النفس أو اقتبسناها منه .. وهو بالتالى - علم النفس - مقتبس عن الغرب ..

---

(١) الأسلوب ص ٢٢ و ٢٣ .

(٢) ص ٢٤ .

أليست :

قوة الادراك هى "التفكير" أى الفهم والعقل .

وقوة الانفعال هى "التصوير" وهو أثر العاطفةوالخيال .

وقوة الارادة هى أثر الادراك والانفعال وتتمثل فـــى "التعبير" أى الأسلوب والصياغـــة .

فما الزيادة التى أفدناها واقتبسناها من علم النفس الحديث .. ان هى الا أسماء استعرناها .. وعندنا مايعوضنا عنها ويفضلها .. أم أن التجديد احلال أسماء مكان أخرى .. بينما الموضـــوع والجوهر هو هو لم يتغير !! أم أننا اذا لم نقتبس من الغـــرب لا نكون مجددين ؟!

جـ - في علوم البلاغـــة :

يتحدث المؤلف فى هذا الفصل (١) عن البلاغة مـــن الوجهة الفنية وأنها فى حاجة الى علوم مساعدة أهمهـــا : النحو والمنطق .

فالنحو : مهمته فى استقامة تركيب الجملة بصرف النظـــر عن مقتضى الحال . ومهمة البلاغة بعد ذلك مراعاة هذا المقتضى وكسوة العبارة بالجمال .

وبعد شيء من الشرح لماسبق يقول المؤلف : (وهـــذا الذى ذكرناه هنا هو ما ألم به الأستاذ عبدالقاهر الجرجانى فى

---

(١) ص ٢٦-٢٩ الأسلوب.

معرض القول فى نظم الكلام وتأليفه ......) . ويقول فى الهامش: (ويلاحظ أن نظم الكلام يقابل الأسلوب ولكننا آثرنا الثانية لخفتها وشيوعها) . (١) والسؤال : ما الجديد فى ذلك اذن ؟!

ويتحدث المؤلف بعد ذلك عن المنطق - وهو العلم الذى اشتكت منه البلاغة مر الشكوى - فيقول : (وأما المنطق فانه يعلمنا طرق التفكير الصحيح ، ويشرح لنا خواص الفكرة الصحيحة فى ذاتها ، لا يعنيه بعد ذلك أكانت مفهومة للناس أم لا ، فعلى البلاغة بعد تسلم هذه الأفكار الصحيحة أن تقوم بجهد فنى خطير فتبسط الأفكار وتحسن ترتيبها وعرضها وأداءها بعبارة واضحة جميلة ....) .

اذن فالبلاغة هى التى تفيد المنطق وليس العكس . واذا أقررنا بأن علم النحو مهم ومهم جدا لعلم البلاغة فما أهمية المنطق ؟ .

ويذهب المؤلف يستشهد بكلام بشر بن المعتمر " ومن أراد معنى كريما فليلتمس له لفظا كريما .... الخ) . وقد تساءلت ما مناسبة هذا الاستشهاد ؟ وقلت لعله أراد أن مهمة البلاغة أن تلتمس للمنطق ألفاظا كريمة .. ويقول بعد ذلك: (وخلاصة هذا الفصل أن هنا مسألتين يجب أن تتوافرا فى الكلام البليغ هما : الصحة والمناسبة . فالأولى من وحى المنطق والنحو،

---

(١) ص ٢٧ الأسلوب .

والثانية هى الميزة التى يختص بها الفن البلاغى الجميـــل) .

وفى النهاية يقول : (.. ان كلا من النحو والمنطق علم مستقل لا يدخل فى صميم البلاغة ولكنه يمهد لها . . .)

وأستطيع أن ألخص هذا الفصل كله فى ثلاثة أسطـر أو ثلاث عبارات هى :

النحو : يصحح العبارة

المنطق : يصحح الفكـرة

البلاغــة : تعطى الجمال والوضوح والقـوة.

ولا اعتراض لنا على ذلك .. ولكن أين الجديد فيه ؟!

د ـ البلاغـة بين العلم والفــن :

استغرق الحديث فى هذا الفصل ست صفحـــات .(١)

ويتلخص فى أن :

أصول البلاغة وقواعدها هى : علم البلاغة، تطبيقها عمليا بانشاء الكلام البليغ هو فن البلاغـة . وبعد شرح لهذا الكـلام يقول : (وانما نذكر فى هذا الفصل صلة البلاغة بكل من العلـم والفن مع الاشارة الى فوائدها فى كل ناحية من هذه النواحـــى متوخين الايجاز مادام كافيا) . ويذهب بعد قليل فيتساءل : ألا

---

(١) ص ٣٠-٣٥ الأسلوب .

يستطيع الانسان أن يكون بليغا دون أن يدرس قواعد البلاغـــة؟ . ويستطرد مجيبا بتفصيل عن هذا السؤال مبينا فائدة قواعد البلاغـة للموهبين وغير الموهوبين . . وأن مسائل البلاغة شديدة الصلـــــة بأصول النقد الأدبى من حيث الارشاد والافادة حتى تسمى أحيانا البلاغة النقدية .

ثم يعقد صلة بين الفن العملى النافع وبين البلاغة مـــــن ناحيتين : من حيث طبيعتهما ومن حيث غايتهما ، ثم يخلص الى أن البلاغة أشد ماتكون صلة بالفن الجميل لأنها فى الحقيقة أحد هـذه الفنون كالرسم والتصوير . . . . الخ .

ثم يتحدث عن : القدرة على التعبير وكيف أنها هبة طبيعية ولكنها متفاوتة الدرجات بين الناس وفى الأحوال المختلفة . ويرى أن طالب البلاغة كغيره من طلاب الفنون الأخرى لا يكتفى بالموهبـــة بل يحاول دائما صقلها ليصل الى مستوى النبوغ والابتكـــار .

ويرى المؤلف أن الأسلوب البلاغى معرض لأخطاء يقع فيهـــا الطالب منها : التهاون - الثقة العمياء - الشغف بالمحسنـات - تكلف الاغراب والمبالغة . ثم يتحدث عن فكرة شائعة بين الفنيين كثيرا مايتشبث بها طلاب البلاغة وهى أن قواعد الفن وقوانينه تطغى على حرية الطالب وتحد من كفايته .. ويعلّق الكاتب على ذلك مدافعا هذا الوهم الذى شاع بين الطلاب . وأخيـرا يقـول : ان البلاغـة تسيطر على ميزات الفنون الجميلة الأخرى وتمتاز بهذا الافصـــاح الواضـح .

ويختم الفصل بقوله : هذا وقد درسنا هذا الموضوع دراسة مفصّلة فى كتابنا (أصول النقد الأدبى) فيحسن الرجوع اليـــه .

هـ - موضوع علم البلاغـــة :

يقدم الكاتب لهذا الفصل (١) بقوله : (رأينا أن البلاغـة العربية انتهت فى أبحاثها الى علمين أساسيين ، المعانـــى والبيان ، وجعلت البديع ملحقا بهما ، كما لاحظنا أن مباحث هذه العلوم لا تخرج فى جملتها عن دراسة الجملة والصورة لتغذية قـوة الادراك النفسية . وسنرى هنا كما بيّنا من قبل ، أن موضـوع البلاغة أعم من ذلك وأشمل ، وأنه لا حاجة بنا مطلقا الى هـــذه الأسماء العلمية -كالمعانى والبيان والبديع- التى تطلق علـــى نقط جزئية لا تستوجب هذه العنوانات .)

ومن هذه المقدمة ندرك أن هذا الفصل من الاهمية بمكـــان . فسنرى فيه أن موضوع البلاغة أعم وأشمل من تلك الجزئيـــات : المعانى والبيان والبديع .. وان كنا لا نقره ولا نتفق معه على أنهـا جزئيات أو عناويـن .

ويتناول الكاتب بعد ذلك موضوع البلاغة فيقول : (يعـرف موضوع البلاغة بالرجوع الى أهم خواصها وهى مطابقة الكـــلام لمقتضى الحال) ويشير فى الهامش الى أن هذا الكلام من كتاب الاستاذ

---

(١) ص ٣٦-٣٩ الأسلوب .

جينونج .

ويستطرد قائلا ان أبحاث علم البلاغة تدور حول هذه المسألة وبيان ما يناسب وما لا يناسب ، لأن ما يحسن فى خطاب جماعة أو فى حال ما ، قد لا يحسن مع جماعة أو فى حال أخرى .. فالمسألة هى بيان الأنسب (لذلك يعترضنا دائما هذان السؤالان : ماذا نقول ؟ وكيف نقول ؟

والاجابة عن السؤال الاول تتناول القواعد الخاصة بمادة الكلام البليغ من حيث موضوعاته ، وأفكاره ، وعواطفه ، وأخيلته . كما أن الاجابة عن السؤال الثانى تقوم على طريقة التعبير عن هذه المادة وأدائها .) . . .

ثم بعد حديث قصير عن التعبير واختلاف الأسلوب وارتباط ذلك بالفكرة والموضوع .. يحصر موضوع البلاغة فى بابين أو كتابين - كما سبق وذكر فى المقدمة : الأسلوب ، والفنون الأدبية .

(١) الأسلوب : وفى هذا القسم من علم البلاغة ندرس القواعد التى اذا اتبعت كان التعبير بليغا أى واضحا مؤثرا ، فندرس : الكلمة والصورة والجملة والفقرة والعبارة ، والأسلوب من حيث أنواعه وعناصره وصفاته ومقوماته وموسيقاه ، وقد يجد الطالب فى هذا الدرس شيئا من التفاصيل المحتاجة الى أناة وصبر لكنها خطيرة النتائج فى فن البيان .

وفى هذا القسم نضع البلاغة العربية ، فعلم المعانى يدخل كله فى بحث الجملة ، وعلم البيان وأغلب البديع يدخل فى باب الصورة ، وتبقى المباحث الأخرى مهملة . . . نعم انك واجد

بلاشك في كتب الأقدمين كالصناعتين ودلائل الاعجاز وأسرار البلاغة والمثل السائر مباحث قيّمة تتصل بالعبارة من الناحية الفنية العامة ولكنها غير مستوفاة .

(٢) الفنون الأدبية : وقد تسمى قسم الابتكار . وهنا ندرس مادة الكلام من حيث اختيارها وتقسيمها وتنسيقها ومايلائم كل فن من الفنون الأدبية ، وقواعد هذه الفنون ، كالقصة والمقالة والوصف والرسالة والمناظرة والتاريخ. وليلاحظ أن الدراسة هنا شكلية كذلك ، فهى لا تخلق المادة للطالب ولا تمده له الأفكار والآراء ، فذلك من عمل الطالب وقراءته الخاصة وتجاربه الحيوية ، وعلى البلاغة أن تشير فقط الى مايتبع في تأليف المعاني وتنظيم الفنون .

وهنا أشير الى مسألة هى نتيجة لما أسلفنا ، تلك أن علم البلاغة يميل في جملته الى الناحية الشكلية أو الأسلوبية ، فهو لن يعرض لقيمة الفكرة بل لملاءمتها ، ولا يخلقها لكن ينسقها .. .

ويقول الكاتب : كما لاحظنا قصور علوم البلاغة عندنا في قسم الأساليب ، كذلك نجدها قاصرة في قسم الفنون الأدبية .

وبالموازنة بين أبحاث البلاغة كما دونتها الكتب العربية الأخيرة ، وبين موضوعها كما يجب أن يكون نستطيع أن نقرر النتائج الآتية :

١) ان نصف البلاغة النظرية مفقودة في اللغة العربية ، أكثره في قسم الفنون الأدبية ، وباقيه في باب الأسلوب . على أن ماترجم من خطابة أرسطو وشعره انما نقل على أنه فلسفة لا أدب ، وكانت الترجمة قاصرة فلم تفد كثيرا .

٢) ان شطرا من الاسلوب قد درس تحت عنوان المعاني والبيان والبديع ، وهو شطر على خطورته يعوزه التنسيق ، ولا حاجة بنا الآن الى هذه الأسماء التى تسمى علوما خاصا لأنها فصول بلاغية يسيرة .

٣) ان البلاغة العربية فى حاجة الى وضع علمى جديد يشمل هذه الأبواب والفنون التى أشرنا اليها ، ويصل بينها وبين الطبيعة الانسانية وملابساتها الزمانية والمكانية ، حتى يخدم الأدب ، وذلك كله غير البحث التاريخى الذى يفرد له درس خاص .

٤) ان الأدباء هم أولى الناس بدرس البلاغة حتى يخلصوها من أساليب الفلاسفة ومذاهبهم وألغازهم فذلك هو الذى أفسد بلاغتنا وحولها أبحاثا لفظية عقيمة أشبه بالرياضة والكيمياء .

وأخيرا يختم هذا الفصل بقوله :

ولست أدعي أنى أفعل شيئا من ذلك فى هذه الفصول وحسبي أمران :

الأول : هذه الاشارة الى مايجب أن ننهض به .

الثانى : أنى تناولت الأسلوب من بعض نواحيه العامة ، فاتخذت هذا الدرس فاتحة لمواصلة البحث علّنا ننتهى الى وضع علم البلاغة العربية .

وبعد الانتهاء من عرض هذا الفصل عرضا موجزا نستطيع القول بأن هذا الفصل الخامس من أهم الفصول فى الباب الأول حيث يحدد فيه المؤلف خلاصة منهجه الجديد للبلاغة اذ يحصر موضوع البلاغة فى قسمين رئيسيين هما :

(١) الأسلوب .
(٢) الفنون الأدبية.

وفى القسم الاول = الأسلوب : يرى المؤلف ان ندرس :

أ- الكلمة والصورة والجملة والفقرة والعبارة .

ب - الاسلوب : أنواعه - عناصره - صفاته - مقوماته - موسيقاه .

جـ - المعانى والبيان والبديع .. على ان يدخل علم المعانى كله

فى بحث الجملة ، وعلم البيان واغلب البديع فى باب الصورة .

أما القسم الثانى = الفنون الادبية : ويمكن ان نسميه قسم الابتكار ، فندرس فيه :

أ) مادة الكلام من حيث اختيارها وتقسيمها وتنسيقها .

ب) قواعد الفنون الادبية كالقصة والمقالة والوصف والرسالة والمناظرة والتاريخ .

وبنظرة متأملة الى هذا المنهج نجد رأيا جديدا فى تكوين علم البلاغة من جديد يستحق النظر والتقدير ، كما نجد هناك أيضا ما يستحق التعليق .

فالقسم الثانى - فنون أدبية .. وهى تسمية المؤلف نفسه .. بينما المنهج من أجل البلاغة - فهل يريد أن يدمج فنون الادب بفنون البلاغة ؟ وهل يعتبر هذا تجديدا ؟ وقد ذكرنا من قبل أن البلاغة كانت فى أول أمرها مختلطة بالنقد الأدبى ثم استقلت عنه بعد أن استقلت أبحاثها وتكونت شخصيتها ومع ذلك ظلّت على صلة به وتلتقى معه فى كثير من المسائل

والتطبيقات .. فما حاجتنا الى ادماجهما مرة أخـــــرى ؟ .
وهناك أيضا شيء يستحق السؤال .. ففى(أ)من القسم الثانى وضع المنهج لدراسة : مادة الكلام من حيث اختيارها وتقسيمها ..... الخ . بينما(أ)أيضا من القسم الأول نجد فيه : الكلمة والجملة والفقرة والعبارة والسؤال الآن : ما الفرق بيـــــن أ فى القسم الأول .. و أ فى القسم الثانى ؟ وهل مادة الكلام شىء آخر غير الحرف والكلمة والجملة والعبارة ؟ هذه أمور كـان جديرا بالمؤلـف أن يوضحها .. ولكن يبدو أنه كان متأثـــــرا بأسلوب وأفكار جينونج فلم يلتفت الى هذه النقاط ولم يوضحها .
وأيضا لم يوضح قوله : (وليلاحظ أن الدراسة هنا شكليـــــة كذلك ، فهى لا تخلق المادة للطالب ولا تعدله الآراء والافكار ، وعلى البلاغـة أن تشير فقط الى مايتبع فى تأليف المعانـى ...) . فهـل يريد بقوله .. شكلية .. الدراسة النظرية دون التطبيـق ؟ وأن التطبيق يوكل الى الطالب ؟ هذا منهج جديد كان جديرا بالمؤلف أن يكتبه بأسلوب علمى محدد الألفاظ دقيق المعـنى .

ويقـول المؤلف فى رقم (١) من استنتاجاته : (ان نصف البلاغة النظرية مفقود فى اللغة العربية ، أكثره فى قسم الفنون الادبية وباقيه فى الاسلوب) ويبدو أنه يقصد بكلمة مفقـــــود متفرقا حتى يستقيم المعنى .

ويقـول : (على أن ماترجم من خطابة أرسطـو وشعـــــره انما نقل على أنه فلسفة لا أدب) . وأنا أقف أمام هذا الكلام متعجبا .. فأى مطلع على ماترجم من خطابة أرسطو سيجد فيه

أبحاثا بلاغية كثيرة وخاصة في الكتاب الثالث .. فمثلا اذا نظرنا لما يعد من مقدمة البلاغة عندنا نجده تكلّم عن الفصاحة وعن الغرابة والغريب في الفصل الثالث وعن العبارات الفخمة في الفصل العاشر. ومن أبحاث المعاني : نجده تكلّم عن استعمال المشترك والمترادف والجمع والافراد ف ٥ (١) ، واستعمال الجمع في مكان المفرد ف ٦ ، وتكلّم عن الايجاز والاطناب وفي الاسلوب ف ٩ و ١٢ . ومن أبحاث البيان : نجده تكلّم عن استعمال الاستعارة وشروط الاستعارة الجيدة والاستعارات غير المطابقة ف ٢ ، وفائدة الاستعارة في الكلام ف ١٠ ، وبين التشبيه وكيف ينضبط وذكر علاقاته بالاستعارة كما ذكر الفروق بينهما ف ٤ ، وساق شواهد على التشبيه الحسن من أقوال أدباء وخطباء اغريقيين كهوميروس وأفلاطون وبيريكليس ود يموستين ف ٣ ، وأشار كذلك الى الكناية ف ٣ . ومن أبحاث البديع : نجده ذكر التقسيم والجمع في المعاني ف ٦ ، والمبالغة والاغراق ف ١٠ ، كما ذكر الاتزان في الشعر وفي النثر والفرق بينهما ف ٨ ، كما أشار الى السجع والجناس اشارات متفرقة .

وله الى جانب ذلك أبحاث متفرقة في الاسلوب - ولعل هذه الأبحاث هي التي تأثر بها المؤلف في كتابه " الأسلوب " - فقد تحدث أرسطو عن الأسلوب وقيمته ووضوحه وصفاته الخاصة ف ١٠ ، والشروط العامة للأسلوب وفتور الأسلوب وسلامته وشروط

---

(١) ف ٥ : أي الفصل الخامس ، وهكذا كل ف تأتي بعد ذلك .

ذلك ف ٣ و ١٢ ، وشرح ثراء الأسلوب وبسطته ووسائط ذلك ف ٦ ، كما بين الأسلوب الكتابى والأسلوب الخطابى والأسلوب الشعرى والأسلوب النثرى ف ١٢ ، وتحدث عن اختلاف الأسلوب باختلاف الموضوعات وغير ذلك . (١)

هذه الأبحاث البلاغية الكثيرة التى اشتمل عليها كتاب الخطابة تدل على أنه كتاب أدبى فى المقام الاول وبلاغى فى المقام الثانى .. ويبدو أن العناية الفائقة بفلسفة أرسطو وقت ترجمة هذا الكتاب جعلت بعضهم يحسبونه كتابا فى الفلسفة .

ونعود فنقول : ان ماورد فى هذا الفصل من رأى جديد فى وضع علم البلاغة وتكوينه على أساس خطة جديدة رأى يستحق النظر والبحث . وهو وان كان ورد هنا مجملا فاننا نتطلع الى تفصيله فيما يأتى من فصول الكتاب .

---

(١) مناهج تجديد ص ١٥٢ و ١٥٤ أمين الخولى / . والخطابة (الترجمة العربية القديمة لأرسطو) د . عبد الرحمن بدوى سنة ١٩٥٩ م .

التعريف بالأسلوب

يرى الاستاذ الشايب أن البلاغة هى الأسلوب .. وهو هنا فى الباب الثانى من كتابه يعرّفنا بالأسلوب كما يراه ويقصده .

وقد قسم الحديث عن الأسلوب الى ثلاثة فصول ، هى :

أ ـ حد الأسلوب .

ب ـ تكوين الأسلوب .

جـ ـ عناصر الأسلوب .

أ ـ حد الأسلوب :

يرى الاستاذ الشايب ان لكلمة " الأسلوب " وجهين :

الاول : ان الناس ربما قصروا كلمة الاسلوب على الادب وحده دون سواه وانه يدل على العنصر اللفظى الذى يتألف من الكلمات فالجمل فالعبارات .. والواقع ان هذه الكلمة يرجع الفضل فى نظامها اللغوى الظاهر الى نظام آخر معنوى انتظم وتألف فى نفس الكاتب أو المتكلم فكان بذلك أسلوبا معنويا .. ومعنى هذا : أن الاسلوب فى حقيقته معان مرتبة قبل ان يكون ألفاظا منسّقة ، وهو يتكون فى العقل قبل أن ينطق به اللسان أو يجرى به القلم . فهذا وجه .

وليس هذا الوجه بجديد فقد عرفنا حكما قديمة تتحدث عن هذا المعنى أذكر منها : (العقل بتفكيره يدبر ، واللسان بحسن منطقه يعبر) ، (لولا العقل لما أمكن الكلام ، ولولا اللسان ماعرف مافى الجنان) ، ومن هذا القبيل قول على بن أبى طالب كرّم الله وجهه : " المرءُ مخبوءٌ تحت لسانه ، حتى اذا نطق أفصح عن عظمته أو نقصانه " ولعل هذه الاقوال وأمثالها هى مادعت بعض العلماء الى القول بأن شخصية الانسان يدل عليها أسلوبه وكلامه .

ومن هذا القبيل قول الامام عبدالقاهر : " لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ولفظه معناه ، ولا يكون لفظه أسبق الى سمعك من معناه الى قلبك .

وقولهم : يدخل فى الأذن بلا اذن ، فهذا مما لا يشك العاقل فى أنه يرجع الى دلالة المعنى ....". (١)

والوجه الثانى : أن كلمة أسلوب صارت هذه الايام حقا مشتركا بين مختلف العلوم والفنون .. لذلك يستعملها الادباء والموسيقون والرسامون وغيرهم .. (لهذا كان اطلاقها على هذا العنصر اللفظى ضرورة اقتضاها التعليم أولا ، ولانه هو مظهر العناصر الاخرى ومعرضها ثانيا) .

ونستخلص من ذلك أن الاسلوب نوعان : خاص وعام . الاول خاص بالادب دون سواه ، والثانى عام يطلق على طريقة كل علم وفن فى المنهج والأداء . وليس فى هذا جديد .

ويتساءل المؤلف بعد ذلك .. (فما الأسلوب ؟) :

ويجيب : (فى لسان العرب يقال للسطر من النخيل أسلوب، وكل طريق ممتد فهو أسلوب ، والاسلوب الطريق ، والوجه ، والمذهب. يقال أنتم فى أسلوب سوء ، ويجمع على أساليب ، والاسلوب الطريق تأخذ فيه ، والاسلوب الفن يقال أخذ فلان فى أساليب من القول أى أفانين منه .)

ويخلص من ذلك فيقول : هذه المعانى التى نقلناها عن ابن منظور قسمان : قسم حسى ، وقسم معنوى .. ويذهب يعرّف كل قسم بما لا يخرج عن الكلام السابق . ثم يقول : (على أن هذه المعانى كلها تنتهى بنا

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٢٠٦ ط دار المعارف ببيروت . وانظر كذلك ط ٣٠.

عند فكرة اذا أردنا استعمالها فى باب الادب كانت ملائمة ، فالاسلوب: هو فن من الكلام يكون قصصا أو حوارا ، تشبيها أو مجازا أو كناية ، تقريرا أو حكما وأمثالا . . .)

وانى لأتساءل : أهذا تعريف للاسلوب أم ماذا ؟ وقوله : (هذه المعانى كلها تنتهى بنا عند فكرة اذا أردنا استعمالها فى باب الادب كانت ملائمة) فماذا يكون اذا أردنا استعمالها فى باب البلاغة وهو المهم ؟ ولكن المؤلف لا يجيب عن هذا السؤال ويستمر فى كتابه يتحدث عن الاسلوب الادبى .

وينتقل المؤلف بعد ذلك الى تعريف الاسلوب عند ابن خلدون فيقول : (واذا تركنا لسان العرب الى مقدمة ابن خلدون رأيناه يتناول الاسلوب فى فصل صناعة الشعر ووجه تعلمه حيث يقول : " ولنذكر هنا سلوك الاسلوب عند أهل هذه الصناعة - صناعة الشعر - وما يريدون بها فى اطلاقهم ، فاعلم أنها عبارة عندهم عن المنوال الذى ينسج فيه التراكيب ، أو القالب الذى يفرغ فيه ، ولا يرجع الى الكلام باعتبار افادته أصل المعنى الذى هو وظيفة الاعراب ، ولا باعتبار افادته كمال المعنى من خواص التركيب الذى هو وظيفة البلاغة والبيان ، ولا باعتبار الوزن كما استعمله العرب فيه الذى هو وظيفة العروض، فهذه العلوم الثلاثة خارجة عن هذه الصناعة الشعرية، وانما يرجع الى صورة ذهنية للتراكيب المنتظمة كلية باعتبار انطباقها على تركيب خاص وتلك الصورة ينتزعها الذهن من أعيان التراكيب وأشخاصها، ويصيرها فى الخيال كالقالب أو المنوال ، ثم ينتقى التراكيب الصحيحة

عند العرب باعتبار الاعراب والبيان فيرصها فيه رصا كما يفعله البنّاء فى القالب أو النسّاج فى المنوال حتى يتسع القالب بحصول التراكيب الوافية بمقصود الكلام ، ويقع على الصورة الصحيحة باعتبار ملكة اللسان العربى فيه ، فان لكل فن من الكلام أساليب تختص به ، وتوجد فيه على أنحاء مختلفة ، فسؤال الطلول فى الشعر يكون بخطاب الطلول كقوله : (يا دارمية بالعلياء فالسند) ويكون باستدعاء الصحب للوقوف والسؤال كقوله : (قفا نسأل الدار التى خف أهلها) أو باستبكاء الصحب على الطلول كقوله : (قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل) وأمثال ذلك كثير فى سائر فنون الكلام ومذاهبه ، وتنتظم التراكيب فيه بالجمل وغير الجمل انشائية وخبرية ، اسمية وفعلية ، متفقة وغير متفقة ، مفصولة وموصولة على ماهو شأن التراكيب فى الكلام العربى ، فى مكان كل كلمة من الأخرى يعرّفك فيه (كذا) ماتستفيده بالارتياض فى أشعار العرب من القالب الكلى المجرد فى الذهن من التراكيب المعينة التى ينطبق ذلك القالب على جميعها . وهذه القوالب كما تكون فى المنظوم تكون فى المنثور فان العرب استعملوا كلامهم فى كلا الفنين وجاءوا به مفصّلا فى النوعين ففى الشعر بالقطع الموزونة والقوافى المقيدة واستقلال الكلام فى كل قطعة وفى المنثور يعتبرون الموازنة والتشابه بين القطع وقد يقيدونه بالأسجاع وقد يرسلونه وكل واحدة من هذه معروفة فى لسان العرب ".

ومع احترامى لابن خلدون ومقدمته فان تعريفه هذا للاسلوب قد استنفد غرضه فى عصره ، ولم يعد صالحا للعرض فى العصر الحديث .

ويذكرنى هذا بتعريف الأسلوب عند " بوفون " حيث عرضه فى يسر ووضوح .. ففى عام ١٧٥٣م دعا المجمع اللغوى الفرنسى بوفون حيث ألقى محاضرة قيمة فى المجمع عرض فيها بعض خواطره وأفكاره عن الاسلوب فعرّفه بأنه : عبارة عن النظام والحركة التى يضعها المرء فى أفكاره ، فاذا ربطت هذه الافكار بدقة وضمت صار الاسلوب شيئا قويا موجزا ، أما اذا تركت تتتابع فى بطء ولا تأتلف الا بفضل رباط الكلمات مهما كانت أنيقة فان الاسلوب يكون مسهبا رخوا مملا . (١)

وهذا التعريف للأسلوب عند بوفون يذكرنى بتعريف الأسلوب فى صدر هذا الفصل حيث عرّفه المؤلف بأنه : معان مرتبة قبل أن يكون ألفاظا منسّقة وهو يتكون فى العقل قبل أن ينطق به اللسان . ولو أنه عاد بعد ذلك فاعتبر الناحية الشكلية فى الأسلوب فقال بعد أن علّق على تعريف الأسلوب عند ابن خلدون وبعد أن استخلص منه نتائج قيّمة : (والذى يعنينا هنا أن الأسلوب منذ القدم كان يلحظ فى معناه ناحية شكلية خاصة هى طريقة الأداء أو طريقة التعبير التى يسلكها الأديب لتصوير ما فى نفسه أو لنقله الى سواه بهذه العبارات اللغوية ، ولا يزال هذا هو تعريف الأسلوب الى اليوم ، فهو طريقة الكتابة أو طريقة الانشاء ، أو طريقة اختيار الألفاظ وتأليفها للتعبير بها عن المعانى قصد الايضاح والتأثير ، أو " الضرب من النظم والطريقة فيه ". هذا تعريف الأسلوب الأدبى بمعناه العام .)

---

(١) راجع رأى بوفون فى مجلة الرسالة عدد ٦١٧ ص ٤٤٦ ومابعدها .

ويشير المؤلف في الهامش الى أن هذا التعريف هو ماورد في دلائل الاعجاز لعبد القاهر الجرجاني ص ٣٦١ وكتاب جينونج ص ١٦ .

ويذهب المؤلف بعد ذلك يتحدث مرة أخرى حديثا مسهبا عن الأسلوب وكيف يختلف في صوغ العبارات كما يختلف في اختيار الافكار ويضرب لذلك أمثلة ثم يخرج من ذلك بقوله : (ان الأسلوب هو طريقة التفكير والتصوير والتعبير) ثم يقول : (والحق أن هذا التعريف الأخير يتناول عناصر الأسلوب كلها ، ويقوم على أساس الصلة بينهما وان كان العنصر اللفظي مظهر الفكرة والصورة لأنه الجانب الحسي لهما زيادة عما يتوافر له من جمال خاص) .

ثم يقول : (وأعود مرة ثانية الى تعريف الأسلوب فقد غمّ الأمر على بعض الدارسين بصدد ذلك ..)

وأنا أقول : لاعجب أن يغم أمر الأسلوب على الدارسين اذا كان مجرد تعريفه بهذا الكم وهذه الكيفية .

ولنتابع ماقاله بعد ذلك : (أعود لأقول : ان تعريف الأسلوب ينصب بداهة على هذا العنصر اللفظي فهو الصورة اللفظية التي يعبر بها عن المعاني أو نظم الكلام وتأليفه لأداء الأفكار وعرض الخيال ، أو هو العبارات اللفظية المنسقة لأداء المعاني . الا أننا - حين نريد الايضاح والتقسيم - مضطرون الى ملاحظة أمرين :

أولهما : وحدة النص الادبي الذى لا يمكن الفصل بين عناصره فاللفظ لا يتصور أبدا بدون سائر العناصر الادبية كما أنها لا تبدو بغير اللفظ .

ثانيهما : أن الفرق بين الاسلوب العلمي والادبي مثلا لا يمكن

الا بملاحظة ماوراء اللفظ من فكرة أو عاطفة أو خيال ، لذلك كان هناك فرق بين تعريف الأسلوب وتحليله وتقسيمه ، .. هو فرق أساسه وجهة النظر فقط ، وان كان النص الادبى وحدة لا تتجزأ .

وبهذا ينتهى الفصل الأول من الباب الثانى وهو فى حد الأسلوب أى تعريفه .. فأى هذه التعريفات نعتمد ؟ وأى تلك الحدود نختار ؟

ونستطيع أن نقول تلخيصا لما قرأناه وعرضناه أن الأسلوب هو : المعانى المرتبة فى الذهن قبل أن تكون ألفاظا منسقة ، أو هو الألفاظ المنسقة وطريقة ترتيبها للمعانى وتعبيرها عنها ، أو هما معا . وهذا الاخير هو ما نختاره ونميل اليه .

ب - تكوين الأسلوب :

يرى الأستاذ الشايب أن تكوين الأسلوب يختلف بين الطالب المبتدىء والأديب .. فالطالب يبدأ بتعلم الحروف وتأليف الكلمات ثم الجمل مفصولة وموصولة حسب مقتضيات المعانى ثم طرائق المجاز ثم أنواع الأساليب منثورة ومنظومة ومعنى هذا أنه يبدأ بالألفاظ وينتهى الى الفنون الأدبية .

أما الكاتب المنتهى فانه يسير فى طرائق عكسية فيبدأ باختيار الفن وينتهى بالألفاظ عكس التلميذ الناشىء .

(وسواء عنينا بحال الطالب أم الكاتب ، فان تكوين الأسلوب أهم المظاهر لبراعة الكاتب ، وأوضح معرض لقوة الادراك ويقظة

الشعور وجمال الذوق ،لذلك كان الكاتب الأمين ذو الطبع الأدبي الصادق ،منصرفا الى تخير الكلمات الفصيحة الدقيقة المعنى ، المتلائمة مع أخواتها ، حتى تطمئن عناصر العبارة فى موضعها دون اكراه ، وحتى يجمع الأسلوب بين وضوح التفكير وجمال التصوير) .

ويذكرني قول المؤلف هذا بتعريف بوفون السابق للأسلوب بأنه : (عبارة عن النظام والحركة التى يضعها المرء فى أفكاره ، فاذا ربطت هذه الأفكار بدقة وضمت صار الأسلوب شيئا قويا موجزا ، أما اذا تركت تتتابع فى بطء ولا تأتلف الا بفضل رباط الكلمات مهما كانت أنيقة فان الأسلوب يكون مسهبا رخوا مملا) .

ويرى المؤلف أنه : (يمكن للكاتب أن يلزم نفسه بأمرين اثنين ليوفر لنفسه الفوز بحسن التعبير ..

الأول : الحرص الشديد على الدقة سواء فى أداء الفكرة أو صوغ الخيال..

الثاني : التصرف السديد فى بناء الجمل والعبارات ..... حتى تكون العبارة صورة صادقة لما فى نفسه من المعانى ومافى وجدانه من تصور وموسيقا .)

وأجدنى أتساءل .. مامكونات الاسلوب التى تضمنها هذا الفصل والذى عنوانه : تكوين الأسلوب ؟ أهى الحروف والكلمات والجمل والفقرات .. أم طرائق المجاز والتشبيه والاستعارة والكناية والمطابقة وحسن التعليل .. أم أنواع الاساليب القصصية أو الجدلية أو التقريرية أو الوصفية منثورة ومنظومة .. أم كل ذلك مماورد ذكره فى هذا الفصل ؟..!! كان من الممكن بل من المهم أن يوضح لنا المؤلف بالتحديد : مم يتكون الاسلوب . وهو الذى يدعو الى الوضوح والقوة فى الاسلوب .

وان كان من الممكن أن نلمح من خلال كلامه أن الاسلوب يتكـون من (تخير الكلمات الفصيحة الدقيقة المعنى ، المتلائمة مع أخواتهـا ، حتى تطمئن عناصر العبارة فى موضعها دون اكراه ..) .

وحتى لو كان الامر كذلك .. فما الجديد فى تكوين الأسلـوب ؟ ثم لو كان الامر كذلك - أى أن الاسلوب يتكون من اختيار الكلمـات الفصيحة الملائمة - فهل هو بالنسبة للطالب المبتدى أو للكاتـب المنتهى ؟ انه يقول : لذلك كان الكاتب الامين ذو الطبع الصادق منصرفا الى تخير الكلمات . . . الخ ، فهو اذن يقصد الكاتـب . . مع أنه ذكر منذ قليل أن الكاتب يسير - فى تكوين أسلوبه - فى طريـق عكسية فهو يبدأ باختيار الفن وينتهى بالالفاظ عكس الطالب الناشىء !!

جـ - عناصر الأسلـوب :

كان الفصل السابق فى تكوين الاسلوب ، وهذا الفصل فى عناصر الاسلوب (١) . ومن المعلوم أن الاسلوب يتكون من عناصـر الاسلوب . . أما كان الاجدر أن يكون هذان الفصلان فصلا واحـدا لارتباطهما الشديد اذ ما جدوى الاطالة والتفريع .

يتحدث المؤلف فى هذا الفصل عن الاسلوب العلمـى والاسلوب الادبى .. وأن الاسلوب العلمى يتكون من عنصريـن أساسيين هما : الافكار والعبارات . وساق لذلك جزءا من مقـال

---

(١) ص٥٠ الاسلوب .

علق في كتاب نزهة القارئ لأحمد السكندرى عن " الشمس " حيث يقول : (الشمس كوكب مضيء بذاته ، وهى أعظم الكواكب المرئية لنا منظرا ، وأسطعها ضوءا ، وأغزرها حرارة ، وأجزلها نفعا للأرض التى نسكنها ، والشمس كرة متأججة نارا ، حرارتها أشد من حرارة أى ساعور أرضى ، ويبلغ ثقلها ثلثمائة وزن من ثقل الأرض ، وهى أكبر منها جرما بثلثمائة ألف وألف ألف مرة ...) .

ثم قال : ان الكاتب كان حريصا على ايثار الحقائق القيمة الدقيقة بعبارة واضحة . ثم أتبع ذلك بقطعة أخرى عن " الشمس " أيضا من أسواق الذهب لأحمد شوقى ، وبين كيف أن الكاتب لجأ الى الخيال يصور به عاطفته وانفعاله فى أسلوب يمتاز بالقوة والجمال : (سل الشمس من رفعها نارا ، ونصبها منارا ، وضربها دينارا ؟ ومن علقها فى الجو ساعة ، يدب عقرباها الى يوم الساعة .....) .

وقال ان هذا النص يختلف عن سابقه مع اتحاد موضوعهما ، فالاول وقف عند الحقائق التفصيلية الدقيقة كالاعداد والمقاييس ، والثانى تصورها أشياء جميلة لاعجابه بها . وبذلك ينحل الاسلوب الادبى الى عناصر ثلاث : الافكار والصور والعبارات . . وعنصر العاطفة هام فى الاسلوب الادبى يحس دون أن يشرح أو يعرض عرضا مباشرا .

وأعود فأقول : ما الجديد فى كل ذلك ؟ ثم اننا مازلنا نتحدث فى مجال الادب وأساليبه المختلفة بعيدا عن صلب البلاغة .

ثم - وهو الأهم - نحن لا نوافق المؤلف على أن الاسلوبين العلمى والادبى هما عناصر الاسلوب .. بل هما " أنواع الاسلوب " وذلك أمر معروف فى كتب النقد والادب.

ولعل هذا هو ما حدا بالمؤلف أن يقول بعد ذلك :

(وأما اذا وقفنا عند الجانب اللفظى فقط فيمكن أن نعتبر العناصر هى : الكلمة والجملة والصورة والفقرة والعبارة . . .) . أى أننا نرجع الى الفصل السابق .. ألم أكن على حق حين قلت : ان هذا الفصل والذى قبله كان يجب أن يكونا فصلا واحدا .. ؟!

الأسلوب والموضوع

يذكر المؤلف فى هذا الباب (١) ومايليه أسباب اختلاف الاساليب، ومظاهر هذا الاختلاف ، ويقول : (ونعنى بالاساليب هنا هذه العبارات اللفظية التى هى المظهر لطريقتى التفكير والتصوير كماسبق ، وانما يرجع اختلاف الاساليب الى سببين رئيسيين :-

الاول : الموضوع ، والثانى : الاديب) ...

ثم يقول : (فالموضوع هو السبب الاول الذى يقوم عليه اختلاف الاساليب ، ويراد بالموضوع الفن الذى يختاره الكاتب ليعبر به عما فى نفسه ، علما أو أدبا ، نظما أو نثرا ، مقالة أو قصة أو رسالة أو خطابة . . فلكل فن منها أسلوبه الخاص الذى يلائم طبيعته .) ...

ثم يقول : (ونفرد هذا الباب للكلام فى السبب الاول وهو

---

(١) الاسلوب : الباب الثالث ص ٥٤ .

الموضوع ؛ فنلاحظ أن ؛ الاسلوب من حيث الموضوع : علمي و أدبي ، والادبي : شعر ونثر ، والشعر ؛ حماسة ونسيب ومدح ورثاء .... الخ والنثر : مقالة ، قصة ، خطابة ، رسالة ..... الخ .

ونذكر في الفصول التالية خواص كل أسلوب ، ومايميزه من سواه ، بناء على اختلاف هذه الفنون ....) .

ويذهب الكاتب بعد ذلك فيتناول في خمس وستين صفحة من ص٥٦ الى ص ١٢١ الحديث عن الاسلوب وموضوعاته . وجعل ذلك في أربعة فصول .

في الفصل الاول : تحدث عن الاسلوب العلمي والاسلوب الادبي والفرق بينهما مع شواهد وأمثلة لكل منهما . وهذا الحديث عن الاسلوبين العلمي والادبي حديث معاد مكرر .. غير أنه هنا وفي هذا الفصل جنح الى الاطناب والاستطراد .. وعلى الرغم من ذلك لم يأت بجديد فيهما .

الفصل الثاني : تحدث فيه عن أسلوب الشعر . ففرق بين الشعر والنثر ، وتناول خصائص الشعر فتحدث عن : الوزن ، القافية ، الكلمات ، الصور ، التراكيب والعبارات .

الفصل الثالث : في اختلاف أساليب الشعر . وذكر أن أساس الاختلاف هو اختلاف الانفعالات وطبيعتها ، وأورد كلاما لعلماء النفس في تفسير الانفعالات وصلتها بالغرائز . . . وأن درجة الانفعال تختلف قوة وضعفا . . وأن الاسلوب نفسه يختلف باختلاف معناه الوجداني فالعبارة التي تصور الغضب أو السخط

أقوى من تلك التى تعبر عن الحزن أو الخوف أو الوله أو الخذلان .
ومعنى هذا أن أسلوب الحماسة أو الوعيد أقوى من أسلوب النسيب أو الاعتذار أو الرثاء . ويستمر المؤلف فى حديثه على هذا المنوال .. ثم يتحدث عن بعض أغراض الشعر مبينا فوارق الاسلوب بينها .. فيتكلم عن الحماسة ، والنسيب ، والرثاء ، والمدح ، والهجاء ، والوصف .
الفصل الرابع : فى اختلاف أساليب النثر . وقد تحدث فى هذا الفصل عن : النثر العلمى ومقوماته ، ثم عن أساليب : المقالة ، والتاريخ ، والسيرة ، والمناظرة والجدل ، والتأليف . ثم يتحدث عن النثر الادبى وأساليبه فى : الوصف ، والرواية ، والمقامة ، والرسالة ، والخطابة .

وقد أجملنا الحديث عن هذا الباب - مع طوله - لأن الحديث فيه جرى فى أمور معروفة مشهورة فى كتب الادب . فالشعر وأنواعه ، والنثر وأنواعه ، وأسلوب كل نوع وما يلائمه ، أمور قتلها القدماء بحثا وتفصيلا ، وان كنا لا ننكر أن المؤلف جدد فى العرض والسرد واعتمد أحيانا على التحليل النفسى والتدليل المنطقى (١) .

ومما يلاحظ أنه جعل المقالة فى جانب النثر العلمى وقصرها عليه مع أن المقالة فى اللغة العربية نشأت أصلا فى أحضان النثر الادبى ثم تطاولت الى النثر العلمى .

ونعود فنقول : هل كل هذا الحشد لفنون الادب وأساليبه هو المنهاج الجديد للبلاغة ؟!

---

(١) أنظر على سبيل المثال (المقالة) ص ٩٤ الأسلوب .

الأسلوب والأديب

يرى الاستاذ الشايب أن الأسلوب كما يختلف باختـــــلاف الموضوع ، يختلف أيضا باختلاف الاديب . وقد أدار حديثه فـــى هذا الباب الرابع (١) من كتابه على أربعة فصول ، هى :

أ) تمهيد .

ب) الاسلوب والشخصية .

جـ) دلالة الاسلوب على الشخصية .

د) أثر الشخصية فى اختلاف الاساليب .

---

(١) الأسلوب : ص ١٢١ - ١٨٥ .

أ ـ تمهيد :

فى هذا التمهيد يؤكد الاستاذ الشايب ماقرره سابقا من أن الاسلوب يختلف باختلاف الموضوع ، ثم يبين كيف تختلف الاساليب أيضا تبعا لاختلاف المنشئين .. فالموضوع يكون واحدا ولكن تختلف الاشخاص فيختلف الاسلوب تبعا لذلك .. اذ نرى لكل منهم طابعا خاصا فى تفكيره وتعبيره وتصويره .. وقد يصح لنا بعد ذلك أن نقول مع القائلين : " الاسلوب هو الاديب ".

ثم يذهب المؤلف يشرح ويفصل هذا الكلام ويبين كيف أن الانسان يعرض له من الحالات والدواعى مايجعله ينشىء مقالة أو قصيدة أو بحثا علميا أو خطبة .. (وهكذا تتشكل النفس أشكالا شتى ، فتصدر عنها فنون متباينة ، لكل أسلوبه الخاص وغايته الممتازة ، فالشخص واحد والفن مختلف . (١))

هذا بالنسبة للموضوع .. (فاذا أردنا بيان ذلك بالنسبة للاديب عكسنا الوضع فالفن واحد ، ولكن الاشخاص يتعددون . وبذلك نجد لهؤلاء الادباء آثارهم المتباينة فى تكييف الاسلوب تبعا لما يمتاز به كل أديب ... (١))

ويأخذ المؤلف فى توضيح وشرح هذا الكلام وكيف أن الاديب فى حدود هذا الفن ، ومع التزام خواصه الادبية العامة .. يطبع الاسلوب

---

(١) ص ١٢٢ .

طابعا آخر ممتازا ، وخاصا به هو ، بحيث لا يتوافر لصاحبه فى نفس الفن أو الموضوع ، (وبذلك يتحقق للاسلوب ميزتان ، ميزة عامة من من حيث هو خطابة أو شعر أو كتابة ، وميزة خاصة من حيث هو أثر لأديب ممتاز (١)) ...

(على أن هذه الميزات ـ أو الشخصية الادبية ـ لا تكون فردية فقط ، بل تكون كذلك اجتماعية .. فنجد العصر الواحد من العصور الادبية له طوابع عامة شائعة بين أدبائه ، منها تتكون ميزاته الادبية ، أو شخصيته الاسلوبية التى يخالف بها سائر العصور . ونجد الشعب الواحد له خواصه الادبية التى تفرقه من آخر يوافقه فى لغته ، وجنس أدبه . (١)) .

ويذهب المؤلف يدلل على صحة هذه النظرية فيقارن بين أدب العصر الجاهلي وأدب العصر العباسي وأدب العصر الحديث .

ثم يقول فى النهاية : (نعم ، نجدنا الآن أمام دعوة لتحقيق الوحدة العربية الثقافية أو الادبية ، وعندى أن هذه الوحدة ستتم بسرعة بتأثير المطبعة والاذاعة ، وتقارب مناهج التعليم ، وكثرة البحوث العلمية ، ولكن ذلك لن يمحو أبدا مظاهر الأدب الاقليمية الا اذا اتحدت مواهب هذه الشعوب العربية وبيئاتهم (٢) .)

---

(١) ص ١٢٣ .

(٢) ص ١٢٥ .

ب ـ الاسلوب والشخصية :

الأسلوب هو الشخصية ، والشخصية هى الاسلوب . ذلك رأى الاستاذ الشايب ، ورأى كثيرين غيره من القدماء والمحدثين .

ويدخل المؤلف الى هذا الموضوع بسؤال يطرحه ويجيب عنه ، فيقول : (كيف يختلف الاسلوب فى الموضوع الادبى الواحد ؟ ذلك راجع الى اختلاف الاشخاص الذين يتناولون الموضوع ، أو اختلاف الشخصيات . ما الشخصية ؟ وماعناصرها ؟ وكيف تختلف باختلاف الافراد ؟ وما مظاهر هذا الاختلاف فى الادب ؟ ذلك ما نحاول بيانه فى هذا الفصل ومايليه .) .

ونلاحظ أن هذه الاسئلة قد أجاب عنها تقريبا فيمامضى اذا استثنينا تعريف الشخصية التى يقول عنها : (الشخصية (١) مايميز الفرد من سواه ، أو هى مجموع الصفات الجسمية والعقلية والخلقية التى يتصف بها الانسان ، أو هى الميزات التى تفرق الشخص من الآخر خيّرة كانت أو شريرة (٢) .....)

(والناس يختلفون فى الشخصية بين قوى وضعيف ، نابه وخامل ، ثابت ومنقلب (٣) ...) ، (والادب معرض لظهور الشخصية واضحة (٣) ......) ويشرح ذلك ثم يقول : (ونتيجة ذلك أن

---

(١) فى علم النفس : جـ٣ ص ٣٧٠ .

(٢) ص ١٢٦ الاسلوب .

(٣) ص ١٢٧و ١٢٨ .

الاديب حين يعبر عن شخصيته تعبيرا صادقا يصف تجاربها ونزعاتها ، ومزاجها ، وطريقة اتصالها بالحياة - ينتهى به الامر الى أسلوب أدبى ممتاز فى طريقة التفكير والتصوير والتعبير ، هو أسلوبه المشتق من نفسه هو ; من عقله ، وعواطفه ، وخياله ، ولغته ، تلك العناصر التى لا تتوافر لغيره من الادباء. ومن ذلك تكثر الاساليب بعدد الكتاب والمنشئين(١)».

وبالنظر فى هذا الكلام الذى اقتبسه من علم النفس لا نجد جديدا ونتساءل ماصلة هذا بالبلاغة .. أيريد المؤلف أن يقول : ان ذلك داخل فى مراعاة مقتضى الحال .. وأن الاسلوب يختلف باختلاف الموضوع وباختلاف الاديب والمنشىء ؟! ان كان ذلك .. فانا نزيد على هذا أن الاسلوب يختلف أيضا باختلاف المخاطبين ومراعاة أحوالهم وطبقاتهم .. وليس فى كل ذلك جديد . وان كان يريد أن الاسلوب هو الشخصية بمعنى أنه يدل عليها ويرسم ملامحها فقد تحدثنا عن ذلك آنفا حينما كنا نتحدث فى حد الاسلوب .. فقد أوردنا هناك حكما وعبارات للقدماء تدل على ذلك أذكر منها .. قول على بن أبى طالب كرّم الله وجهه : " المرء مخبوء تحت لسانه ، حتى اذا نطق أفصح عن عظمته أو نقصانه" والمراد بالنطق هنا أسلوبه فى الكلام وطريقته فيه . ويروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن رجلا أعرابيا دخل عليه فى حلة جديدة قشيبة فأعجب به عمر واستقبله وكرّمه ثم سأله عن حاجته فاذا بالاعرابى يكلمه بكلام السوقة فأخذ عمر ودهش وقال : لقد أعجبتنى حين رأيتك ثم زهدتك حين كلمتنى .. وهذه الحادثة هى الاخرى -على اختلاف

---

(١) ص ١٢٧ و ١٢٨ .

رواياتها ـ تدل على أن أسلوب الرجل أهم من مظهره .. وأن أسلوب الانسان هو مخبره وحقيقة شخصيته .. وأن الانسان اذا تكلم رسم شخصيته الحقيقية فى كلامه وأسلوبه دون أن يقصد أو يتكلف. ولهذا كان للسان ـ وهو أداة الاسلوب ـ عند القدماء شأن وخطر .. ولهذا ورد عنهم مثل قول زهير بن أبى سلمى :

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق الا صورة اللحم والدم

وقولهم : وقع اللسان أشد من وقع السنان. وما ورد فى تاريخ الادب من أن جماعة من العرب دخلوا على عمر بن عبد العزيز فتقدمهم غلام حديث السن .. فقال له عمر : تأخر ياغلام فان فيهم من هو أولى منك. فقال الغلام : لو كان بالسّن لكان فينا من هو أولى منك بمجلسك هذا يا أمير المؤمنين .. "المرء بأصغريه قلبه ولسانه". الى غير ذلك مما ورد عن القدماء .. وينبىء بأن اللسان والبيان معرض لآراء صاحبه وأفكاره وصورة لعقله وخلقه .. فاذا أردت أن تعرف شخصية انسان فاستمع جيدا الى حديثه وأسلوبه.

والآن .. اذا كان كل ذلك ورد عن أجدادنا القدماء .. وكان معروفا لديهم منذ العصر الجاهلي .. فما الجديد الذى أتى به علم النفس عن .. الأسلوب والشخصية .. ولماذا لجأ المؤلف الى علم النفس الحديث ليستمد منه هذه الافكار بينما تراث آبائه وأجداده يتضمن مثل ذلك ويزيد ..!!

ثم بعد كل ذلك نتساءل : كيف يمكن أن نكوّن من :-
الأسلوب والموضوع ، الاسلوب والاديب ، الاسلوب والشخصية ـ

منهجا جديدا للبلاغة ؟ أنا ألمح صلة بعيدة هناك بين هذه الامور وبين البلاغة ولكن المؤلف لم يشر اليها من قريب أو بعيد . ونستطيع القول بأن هذه الامور داخلة فى نطاق : مراعاة مقتضى الحال .

وبعد أن أطنب المؤلف فى الحديث عن "الاسلوب والشخصية" .. وكيف أن لكل شخصية أدبية أسلوبها الخاص .. يذهب فيضرب الامثال ببعض الادباء واختلاف شخصياتهم وبالتالى أساليبهم .. فيذكر : الجاحظ ، وابن خلدون ، وطه حسين ، وأحمد أمين ، ويقارن بين المعرى والشريف الرضى .

ثم يقول : (ومهما يكن من تأثير الوراثة أو التربية فى تكوين الشخصية ، فانا نستطيع هنا أن نذكر بعض عناصر الشخصية وماقد يكون لها من أثر فى الاسلوب ..) ويشير فى الهامش الى أن هذا الكلام هو أيضا من علم النفس .

أما هذه العناصر التى ذكرها للشخصية فهى :

(١) الطبع : فالرقيق الطبع ترق ألفاظه ، وتسهل فقره ، وتلين عباراته . والخشن الجافى تجزل ألفاظه ، وتوجز جمله ، وتقوى تعابيره . اذ كانت الطبائع تجذب اليها من التراكيب والالفاظ مايلائمها رقة وجفاء ، كما نجده عند المتنبى والبحترى ، وعند جرير والفرزدق ، والعقاد والمازنى . قال القاضى الجرجانى فى ذلك : " وقد كان القوم يختلفون فى ذلك ، وتتباين فيه أحوالهم ، فيرق شعر أحدهم ويصلب شعر الآخر ، ويسهل لفظ أحدهم ويتوعر منطق غيره ، وانما ذلك بحسب اختلاف الطبائع وتركيب الخلق ،

فان سلامة اللفظ تتبع سلامة الطبع ، ودماثة الكلام بقدر دماثة الخلق ، وأنت تجد ذلك ظاهرا فى أهل عصرك وأبناء زمانك ، وترى الجافى الجلف منهم كزّ الالفاظ ، معقد الكلام ، وعر الخطاب ، حتى انك ربما وجدت ألفاظه فى صوته ونغمته ، وفى جرسه ولهجته ." (١)

وانى لأتساءل .. اذا كان القاضى الجرجانى قد تحدث عن الطبع وأثره فى الشخصية ، فمافضل علم النفس الحديث ؟! ولماذا لا نقولها صراحة : أن علم النفس الحديث استمد أكثر بنوده من الادب العربى القديم ؟..!!

(٢) أثر البيئة : فابن البادية المقيم فى الفلاة حيث يرى الجدب الغالب ، والطبيعة القاحلة الجرداء ، والجبال الشم ، والصخور الجامدة ، والوعول الممتنعة ، لن يكون كابن الحاضرة المترفة الخصبة ، يلقى العيش رقيقا ، والملبس ناعما ، والمزارع ناضرة ، والاخوان ظرفاء ، اذ أن ذلك يطبع الذوق والشعور بطابعه ، فلا يقع اللسان الا على كفائه من العبارات . فما كان عدى بن زيد والمنخل اليشكرى كطرفة بن العبد والحارث اليشكرى . ويقول الجرجانى فى أعقاب كلامه السابق : " من شأن البداوة أن تحدث بعض ذلك ، ولأجله قال النبى صلى الله عليه وسلم : من بدا جفا . ولذلك تجد شعر عدى وهو جاهلى ، أسلس من شعر الفرزدق ورجز رؤبة ، وهما آهلان ، لملازمة عدى الحاضرة ، وايطانه الريف ، وبعده عن جلافة البدو وجفاء الأعراب.

---

(١) الوساطة ص ٣٢.

فلما ضرب الاسلام بجرانه ، واتسعت ممالك العرب وكثرت الحواضر، ونزعت البوادى الى القرى ، ونشأ التأدب والتظرف ، اختار الناس من الكلام ألينه ، وأسهله ، وتجاوزوا الحد فى طلب التسهيل حتى تسمحوا ببعض اللحن ، وحتى خالطتهم الركاكة والعجمة ، وأعانهم على ذلك لين الحضارة وسهولة طباع الاخلاق ، فانتقلت العادة ، وتغير الرسم ، وانتسخت هذه السنة ، واحتذوا بشعرهم هذا المثال ، وترققوا ما أمكن ، وكسوا معانيهم ألطف ماسنح من الالفاظ ، فصارت اذا قيست بذلك الكلام الأولتبين فيها اللين ، فيظن ضعفا ، فاذا أفرد عاد ذلك اللين صفاء ورونقا ، وصار ماتخيلته ضعفا ، رشاقة ولطفا ..."

وهكذا نجد أن القاضى الجرجانى كما تحدث فى الوساطة عن الطبع وأثره فى الاسلوب - تحدث كذلك عن : أثر البيئة .

ويستشهد المؤلف على أثر البيئة فى الافراد واستحالتهم بما روى من أن شاعرا بدويا قدم حاضرة عامرة فأكرمه صاحبها فمدحه بهذين البيتين :

أنت كالدّلو لاعدمناك دلو ... من كثير العطا ، قليل الذنوب

أنت كالكلب فى حفاظك للودّ ... وكالتيس فى قراع الخطوب

فهمّ بعض أعوان الأمير بقتله ، فقال الامير : خلّ عنه ، فذلك ماوصل اليه علمه ومشهوده ، ولقد توسمت فيه الذكاء فليقم بيننا زمنا ، وقد لا نعدم منه شاعرا مجيدا . فما أقام بضع سنين فى سعة عيش وبسطة حال حتى قال الشعر الرقيق ونسبت اليه الأبيات :

يامن حوى ورد الرياض بخده ... وحكى قضيب الخيزران بقدّه
دع عنك ذا السيف الذى جردته ... عيناك أمضى من مضارب حدّه
كل السيوف قواطع ان جردت ... وحسام لحظك قاطع فى غمده
ان رمت تقتلنى فأنت مخير ... من ذا يعارض سيدا فى عبده

وقد ورد أن هذه القصة للشاعر على بن الجهم فى مدح المتوكل .. وأن المتوكل بعد سماعه البيتين غضب على الشاعر وكاد يأمر بقتله لولا أن اقترح وزيره أن يحبسه عامين فى الرصافة ليتغير ذوقه البدوى الى حضرى ففعل .. وبعد سنتين جئ به ليمدح المتوكل فألقى بين يديه قصيدة رائعة قال فى أولها :

عيون المها بين الرصافة والجسر ... جلبن الهوى من حيث أدرى ولا أدرى
سلمن وأسلمن القلوب كأنما ... نشك بأطراف المثقفة السمر
أعدن لى الشوق القديم ولم أكن ... سلوت ولكن زدن جمرا على جمر
خليلىّ ما أحلى الهوى وأمره ... لو أن الهوى مما ينهنه بالزجر

الى أن قال فى آخر القصيدة :

ومن قال ان البحر والقطر أشبها ... نداه فقد أثنى على القطر البحر (١)

ومهما يشك فى صحة هذه القصة التى تعددت رواياتها ، فليس من شك أن هناك جماعة من الأدباء والشعراء تغيرت آثارهم لما تغيرت عليهم آثار البيئة.

---

(١) أنوار الربيع جـ ٤ ص ٧٦.

(٣) الثقافة والتربية : فالمهذب المثقف يكون أعمق تفكيرا ، وأحسن ترتيبا للمعانى ، وأحرص على جمال التصوير ، وصفاء التعبير، وبذلك تغزر معانيه، وتهذب عباراته، ويتوافر له الملاءمة بين الالفاظ والمعانى . والجاهل الذى لم تصقله التربية ، أو لم يزود بثقافة كافية، يقف عند حدود الطبع ، ويتوجه فى الغالب الى جمال اللفظ واشراق الديباجة، لعلها تعوض عليه مافاته من ابتكار المعانى والغوص وراء الافكار . ولذلك وجد فى الادب العربى طبقات من كتاب العصر العباسى بلغوا بالترسل مكانة مهذبة ، وتأثر شعرهم بذلك التهذيب والصقل، كما يقول ابن رشيق : " والكتاب أرق الناس فى الشعر طبعا ، وأملحهم تصنيعا ، وأحلاهم ألفاظا ، وألطفهم معانى ، وأقدرهم على تصرف ، وأبعدهم من تكلف (١) " .

والعجيب أن المؤلف يستشهد بكلام ابن رشيق فى العمدة على أثر الثقافة والتربية ، كما استشهد من قبل بكلام القاضى الجرجانى فى الوساطة على أثر كل من الطبع والبيئة .. اذن فالمؤلف يعلم جيدا أن القدماء سبقوا الى هذه الأمور وعرفوها جيدا .. ومع ذلك لم يفكروا أو يقترحوا جعلها من علوم البلاغة .

(٤) الابتكار : فمن الادباء من يلتفت الى نفسه، ويثق ، ويحاول أن يفتح بها أو فيها آفاقا من التفكير أو الشعور ، أو التخيل، ليعرضها كما هى فى أقوى أحوالها أو أوضح خواصها دون تحرج أو تكلف، ثم

---

(١) العمدة : جـ ٢ ص ٨٤ .

يطوع أساليب اللغة لطريقة تفكيره وتصويره، فاذا به شيء جديد وشخصية ممتازة وقد يلقى انكارا وعنتا، ولكن مادام مذهبه قويا خليقا بالبقاء فان الثورة عليه لا تكون الا فترة تجتازها النفوس لقبول الجديد واقراره، ثم يصبح سبيلا معبدة مسلوكة، وقانونا متبعا محبوبا. وقد لقى أسلوب الجاحظ انكارا ولكنه عاد مدرسة المتأدبين..

والآن أحب أن أقف وقفة وأجمع شتات ما تقدم من عناصر الشخصية كما ذكرها علم النفس الحديث متغاضيا عن ورود ذكرها في كتب علمائنا الاقدمين. هذه العناصر هي باختصار:

١- الطبع ٢- أثر البيئة ٣- الثقافة والتربية ٤- الابتكار.

وبعد استعراض المؤلف لهذه العناصر والافاضة فيها يقول: ومما سبق يمكن ذكر الملاحظات الآتية:

أولا: أن أسلوب الكاتب أو الشاعر أو الخطيب نتيجة طبيعية لمواهبه، وصورة لشخصيته هو، واذن، لا يمكن أن يكون صادقا، قويا، ممتازا، الا اذا استمده من نفسه وصاغه بلغته وعباراته، دون تقليد سواه من الأدباء..... فالذاتية هي أساس تكوين الاسلوب، والمقلد يفنى في غيره ويصبح شخصية منكرة.....

ثانيا: قد يبدو لبعض الناس التردد في أن الاسلوب صورة صادقة لصاحبه حين يرون حسان بن ثابت شجاعا في شعره جبانا في عمله، والبحترى جميل الذوق في أسلوبه قذرا رثّ الثياب، والمتنبى كريما في قوله بخيلا في حياته. وهذا من غير شك تناقض واضح يعرض ماقيل هنا للرد والتجريح. ولكن الشيء الجدير بالنظر أن هذه النصوص الادبية

التى تعد مظهرا قويا لميزات الاديب وسماته قد صدرت عنه فى حالة نفسية خاصة هى حال الانفعال والتنبه العاطفى وسلطان الوجدان على العقل ، فيقول مايشاء بوحى الساعة ، حتى اذا ثاب الى عقله عاش بطبيعته العاقلة الاصيلة دون الشاعرة الطارئة ، وربما أنكرت حياته الثانية حياته الاولى مما يعد شبيها بانقسام الشخصية (١) . . . . . .

ونحن اذا عولنا على كلام المؤلف هذا وماورد فى علم النفس فسنجد أن الادب أو الاسلوب ليس دائما هو الشخصية ، مما يتناقض فعلا مع كلامه السابق بأن : " الاسلوب هو الاديب " وأن " الاسلوب هو الشخصية " .

ولعل المؤلف يريد أن يقول : ان الذين يقولون ان الاسلوب هو الشخصية لا يريدون أن أخلاق الشاعر تظهر فى شعره .. وانما يريدون أن مزاج الشاعر يعبر عنه أسلوبه .. فنعرف أنه رقيق العاطفة أو عنيف الانفعال .. وهكذا ..

لكن هذا لا يحل الاشكال اذ أن مزاج الشاعر وانفعالاته ماهى الا جزء من شخصيته .. وهنا أجدنى أتمثل قول الله تعالى عن الشعراء : " ألم ترأنهم فى كل واد يهيمون وأنهم يقولون مالا يفعلون "

ثالثا : ان بيان هذه الصلة بين الاديب وأسلوبه وتوضيح جوانبها يقتضينا أن نتناولها من وجهين :

الاول : أن نعرض النصوص الادبية لجماعة من الكتاب أو الخطباء أو الشعراء أو المؤلفين ، ونحاول تعرف شخصياتهم المتباينة استنباطا من هذه النصوص.

---

(١) فى علم النفس جـ ٣ ص ١٦٤ .

والثانى : أن نفرض أننا نعرف هذه الشخصيات ثم نتبين مظاهرها المختلفة فى الاسلوب : ألفاظه وتراكيبه وصورها البيانية. وهذا ما نحاوله فى الفصلين التاليين.

أى أن المؤلف يريد أن يبحث فى : دلالة الاسلوب على الشخصية، وأثر الشخصية فى الاسلوب . وعلى الرغم من أن المؤلف تحدث عن ذلك سابقا وأفاض فيه .. فانه يصر على تناوله ثانية بافاضة أكثر فى الفصلين القادمين.

جـ دلالة الاسلوب على الشخصية :

لا يسعنا هنا أن نستعرض هذا الفصل بحذافيره .. فهو من باب تحصيل الحاصل .. ولكننا نجمله ونعرف به ونبدى رأينا فيه . ويبدو أن المؤلف فى هذا الفصل أراد أن يضع (دلالة الاسلوب على الشخصية) موضع التطبيق بعد أن سبق ووضعه موضع الدراسة النظرية . لذلك ذهب يوازن بين بعض الادباء وبعض ملتمسا الفروق الفردية لكل أديب.

ففى الشعر : ساق ثلاثة قصائد لأبى تمام والبحترى والمتنبى وكلها فى غرض واحد هو العتاب . فأبوتمام يعاتب محمد بن عبد الملك الزيات ، والبحترى يعاتب الفتح بن خاقان ، والمتنبى يعاتب سيف الدولة الحمدانى . وموازنة المؤلف بين هؤلاء الثلاثة موازنة أدبية محضة لا تكاد تلمح فيها شيئا من البلاغة ـ. وكان جديرا بها أن تكون فى كتاب نقد أو أدب . ودليلا على صدق قولنا نعرض لبعض

هذه الموازنة . يقول المؤلف :

(موضوع القصائد واحد ، هو العتاب ، والاصل فيه تصوير الوفاء والبقيا على ماضى الصداقة ، ثم الاسف والاستنكار لما حدث . لهذا كان موقفا دقيقا يحتاج الى براعة .... ومع هذا فقد وقف كل من هوءلاء الثلاثة موقفا أدبيا يدل على شخصية واضحة ممتازة .

(١) فأبوتمام : كان واقفا فى منتصف الطريق لم يقرب من صاحبه جدا ولم يبعد عنه كذلك وأخذ يعرض عليه الامر مستأذنا ، راضيا بما يقع، مشيرا الى ايثاره على سواه وهم كثير، معنيا بنفسه وبفنه يصنعه بدقة واتقان ، يوسط عقله بينه وبين صديقه . واذا كان لابد من ذكر ميزاته الشخصية كما تشير هذه الابيات، فأبوتمام انسان ذكى حذر، يعتد بقلبه فيبخل به ، ويؤمن بعقله فيعتمد عليه ، مخلص لنفسه وفنه أكثر من عنايته بالناس ، يرضى بما يكون ، ويقتصد فى اتصاله بالحياة، قوى الطبع مؤمن بالقضاء .) (١)

وأجدنى أتساءل أين الميزات الشخصية التى أشار اليها المؤلف ؟ ان معظمها صفات عامة تنطبق على كثيرين .. وعلى سبيل المثال : قوله : مخلص لنفسه وفنه . هل نفهم من ذلك أن الشاعرين الآخرين .. البحترى والمتنبى .. ليسا كذلك ؟! وكذلك قوله : قوى الطبع مؤمن بالقضاء .. فمن المسلم به أن كلا من البحترى والمتنبى قوى الطبع ومؤمن بالقضاء كذلك .

---

(١) الاسلوب : ص ١٤٠ .

(٢) وأما أبوعبادة البحترى (فقد تقدم الى صاحبه يكاد يحتضنه ، ويلقى بنفسه بين يديه ، لولا براءته من الذنوب ، واعتزازه بأن الحق فى جانبه ، قد ملك عليه الاسف والطمع نفسه ، فعجب أن يرنق ورده ، وصمم على البقاء حيث كان ، واثقا من ظهور الحق ومعاودة الصفاء . البحترى اذن رقيق الطبع ، جميل الذوق ، لين الجانب وفى ، حسن الظن بالايام ، بارع ، شديد الاتصال بالحياة ، قريب المثال ، طبيعى الفن ، متفائل ، ليس فى حذر أبى تمام ، ولا سخط المتنبى .

(٣) وأبوالطيب شىء آخر فقد نفر من صاحبه ساخطا ، متوعدا ، متعاليا ، يرميه بالغفلة والتحيز ، معتزا بنفسه فخورا بخلقه وفنه ، مزدريا الرؤساء والشعراء ، ولاهم ظهره غير مباليهم اذ لم يحسنوا تقديره ولم يدركوا مكانته ، واذن فهو يودعهم نادمين . وسبب ذلك دالة له على سيف الدولة ، وعرفانه مكانة نفسه ، وهذه السماحة التى خضع لها أمير بنى حمدان . فالمتنبى جافى الطبع ، طموح ، مغرور ، بعيد الأمل ، قليل الوسائل ، ساخط على الحياة والأحياء ، يؤمن بالقوة ، ويعتز بها ، يثق بشعره الى أبعد حد ، ولا يرى نفسه دون الملوك ، ولا من طراز الناس .

ولعل البحترى أرق الثلاثة وأرضاهم ، والمتنبى أجفاهم وأسخطهم ، وأبوتمام أوسطهم وأشدهم حذرا واحتياطا . وقد سئل الشريف الرضى عنهم فقال : " أما أبوتمام فخطيب منبر ، وأما البحترى فواصف جؤذر ، وأما المتنبى فقائد عسكر (١) " .) (٢)

---

(١) المثل السائر ص ٣١٥ .
(٢) الاسلوب ص ١٤٠ و ١٤١ .

وهكذا نجد أن هذه الموازنة بين الشعراء الثلاثة موازنة أدبية نقدية وهى قليل من كثير مما ورد فى كتب السابقين مثل : الموازنة بين شعر أبى تمام والبحترى للآمدى ، والوساطة بين المتنبى وخصومه للقاضى الجرجانى ، والعمدة لابن رشيق .

وكما فعل المؤلف فى أسلوب الشعر ووازن بين ثلاثة شعراء مستشفا شخصية كل شاعر من أسلوبه .. فعل ذلك فى الخطابة : فأورد ثلاث خطب لعلى بن أبى طالب، ومعاوية، وزياد . وهذه الخطب الثلاثة تدور حول الحكومة الاسلامية واقرارها بعد الثورة التى انتهت بمقتل عثمان بن عفان رضى الله عنه ، والنزاع بين على ومعاوية ، ونشأة الاحزاب السياسية وعناية معاوية وأعوانه باقرار الحكم فى البيت الأموى .

فأما على : فقد كان شجاعا قوى البأس ، ذكى الفؤاد ، واسع العلم ، شديد الايمان ، متحرجا فى الدين ، حدبا على المسلمين ، حزينا على حقه المسلوب ، صريحا فى القول ، غلبت نزعته الدينية على كياسته السياسية حتى غلب على أمره بعكس معاوية .

وأما معاوية : فهو شخصية سياسية حليمة، عملية مرنة، تصطنع الأناة ، وتبرر الوسائل فى سبيل الغايات ، لم يتشبث بتحرج على وسرعة غضبه ، اعتمد على قوة عقله أكثر من قلبه ، تلمسه حريرا ولكنك تلبسه شوكا وقتادا .

أما زياد : فهو - كهتلر وموسولينى ومصطفى كمال - حازم الرأى ، صارم العزيمة ، ذكى عملى ، اذا اقتنع بالرأى فرضه ، حاد الذكاء واللسان ، منظم التفكير حسن التدبير .

ويمكن تلخيص ذلك فى أن عليا شجاع ساخط ، ومعاوية سياسى بارع ، وزيادا حاكم حازم . (١)

وكما فعل المؤلف في الشعر ، وفى الخطابة، فعل فى :ـ الكتابة، والتأليف .

ونعود فنقول : ان هذه الموازنات مكانها ومجالها النقد والادب فهل يريد المؤلف أن يعيد البلاغة اليهما ويمزجها فيهما ، كما كان الحال منذ قرون ؟ ..!!

د ـ أثر الشخصية فى اختلاف الأساليب :

هذا الموضوع مكمل للموضوع السابق ومرتبط به أشد الارتباط، فهو نقيضه ومقابله . ففى الفصل السابق جرى الحديث على (دلالة الاسلوب على الشخصية) وفى هذا الفصل يجرى الحديث على (أثر الشخصية فى الاسلوب) . أى أن الاسلوب يتأثر بشخصية صاحبه .. وبالتالى يدل عليها .. وهذه مسألة معروفة فى الدراسات الادبية قديما وحديثا . وكان الأولى أن يتقدم هذا الفصل على سابقه .. لأن أثر الشخصية فى الأسلوب يأتى أولا .. ثم يستدل بالأسلوب على الشخصية بعد ذلك .

يقول المؤلف : (وأما فى هذا الفصل فالمراد بيان آثار هذه الشخصية فى الأسلوب . ومعنى ذلك أننا نفترض معرفتنا شخصيات

---

(١) الأسلوب ص ١٤٥و ١٤٦ بتصرف .

جماعة من الأدباء كتابا ، وشعراء ، وخطباء ، ثم نلتمس مظاهر هذه الميزات الفردية فيما ينشئون من نصوص أدبية ، ونقصر الكلام فى هذا على نواح ثلاثة : -

الأولى : من حيث الألفاظ - حين يختلف الأدباء فى الألفاظ والجمل ،والفقر والعبارات .

الثانية : من حيث المعانى - كالمطابقة بين اللفظ والمعنى ، أو ترجيح جانب اللفظ على جانب المعنى - وعكسه .

الثالثة : من حيث الصنعة - حيث يعمد الادباء الى الاسلوب الطبعى أو المصنوع صنعة بديعية . قوامها السجع والجناس والمطابقة ونحو ذلك .) (١)

ومعنى هذا -كما يقول المؤلف - أن الاسلوب يتأثر بشخصية صاحبه فى هذه الامور الثلاثة : اللفظ - المعنى - الصنعة .

ويذهب المؤلف يتحدث عن هذه الامور الثلاثة .. أو النواحى الثلاثة كما يسميها المؤلف .. فيبدأ بالحديث عن .. الناحية الأولى .. وهى : (تتناول الاختلاف فى الالفاظ ، والجمل ، والفقر ،والعبارات، والمراد بالالفاظ ، الكلمات المفردة التى تتألف منها الجمل ، وهى : أسماء ، وأفعال ، وحروف ، ولكنها مع ذلك ذات خواص متباينة ، كأن تكون دقيقة محدودة أو مبهمة مشتركة ، اصطلاحية علمية أو فنية

---

(١) الأسلوب ص ١٥٧ .

عامة، رقيقة أو خشنة ، عامية أو فصحى ، موسيقية رشيقة ، أو عادية جافة ، لونية أو صوتية الى نحو ذلك . (١))

ولا شك أن حشد هذه الالوان للكلمات المفردة جهد طيب ، ولعله عرض جديد لها ، ولكن كنت أود أن يشرح المؤلف غرضه من قوله : لونية أو صوتية ، فمعناهما مبهم ، ويحتاج الى توضيح . على أن هذه الالوان المختلفة للكلمات المفردة قد يفيدنا فى درس البلاغة عند الحديث عن الاسلوب وعناصره .

وأما عن الجملة فيقول المؤلف : (وتتألف الجملة من الألفاظ لتؤدى فكرة واحدة تامة ، وتكون الجملة اسمية أو فعلية ، خبرية أو انشائية ، طويلة أو قصيرة، جزلة أو رقيقة ، تامة العناصر أو مختصرة، مثبتة أو منفية ، أصلية أو فرعية وغير ذلك (٢)) .

وهذا العرض للجملة ليس فى قوة عرض الكلمات المفردة، وليس فيه من جديد ، ولعله أراد به أن يعبر الى الفقرة فهى الجديد الذى لم تتناوله البلاغة بالبحث المستفيض كما فعلت مع الكلمة والجملة .

وعن الفقرة يقول المؤلف : (والفقرة عدة جمل متصلة تكون فصلا من المقالة ، وهى تقوم على الصلات بين الجمل ، وتنوعها ، وربطها معا ، ففيها الفصل والوصل ، والايجاز والاطناب والمساواة ، وفيها الرابطة اللفظية والمعنوية التى تصلها بماقبلها ومابعدها . وتكون بسيطة سهلة أو معقدة مضطربة ، وهى تختلف بحسب موقعها

---

(١) الأسلوب ص ١٥٧ و ١٥٨ .
(٢) الاسلوب ص ١٥٨ .

من الموضوع مقدمة أو نتيجة أو غرضا) (١) .

هذا فقط ماورد عن " الفقرة " . . وكنت أتوقع أن يعنى بها المؤلف أشد العناية لأنها الجديد الذى نتحمس لادخالها ضمن الدراسة البلاغية فكان عليه أن يبين صلتها بالبلاغة أو وجود البلاغة فيها أو حتى يشير الى ذلك . ولا أعتبر قوله : ففيها الفصل والوصل والايجاز والاطناب والمساواة من هذه الاشارة لان القدماء قتلوا هذه المسائل بحثا . . فالفصل والوصل يكون بين جملتين فأكثر . . أى ما يمكن أن يسمى بالفقرة . . وكذلك الايجاز والاطناب والمساواة . . بل ان الايجاز والمساواة قد يتحقق كل منهما فى جملة واحدة .

وأما العبارة فيقول المؤلف : (هى العنصر اللفظى من الأسلوب ، أو هى هذا الأسلوب اللفظى الذى يقابل الاسلوب العقلى والصورى ، والعبارات تقوم على هذه العناصر المذكورة قبلا ثم تتأثر بمنهج البحث وبالموضوع وبمزاج الكاتب وذوقه وطبيعته كلها . والأدباء يختلفون فى ذلك كله تبعا لأذواقهم وطبائعهم وثقافتهم وبيئاتهم فترى الموضوع الواحد من الفن الادبى يتوارد عليه أصحابه فاذا كل طراز بعينه فى اختيار الكلمات وصوغ التراكيب والعبارات التى تمثل نفسه وخلقه ودرجة انفعاله) . (٢)

وهذا الكلام مكرر أكثر من مرة فى مواضع مختلفة من هذا الكتاب .

---

(١) الاسلوب ص ١٥٨ .

(٢) المرجع السابق .

بالاضافة الى أن لا جديد فيه فهو قديم ورد فى كتب السابقين . .
وهاهو ذا المؤلف نفسه يستشهد على قوله بكلام لابن الأثير حيث يقول : " اعلم أن الألفاظ تجرى من السمع مجرى الاشخاص من البصر ، فالالفاظ الجزلة تتخيل فى السمع كأشخاص عليها مهابة ووقار ، والالفاظ الرقيقة تتخيل كأشخاص ذوى دماثة ولين أخلاق ، ولطافة مزاج . ولذلك نرى ألفاظ أبى تمام كأنها رجال قد ركبوا خيولهم واستلأموا سلاحهم وتأهبوا للطراد ، وترى ألفاظ البحترى كأنها نساء حسان عليهن غلائل مصبغات وقد تحلين بأصناف الحلى". (١)

واذا كان الامر كذلك فما الجديد فى " العبارة " الذى نضيفه الى البلاغة ونحن نخلع عنها القديم ونلبسها ثوبا عصريا جديدا ؟!

ويذهب المؤلف بعد ذلك يستعرض الفروق - مرة أخرى - بين الشعراء الثلاثة : أبى تمام والبحترى والمتنبى . ثم يسوق أبياتا لكل منهم - مغايرة للابيات التى ذكرها آنفا - ويعلق على كل منها بما يوضح شخصية الشاعر من أبياته .. أو .. أثر الشاعر فى الابيات .

وبعد الشعراء . . انتقل الى الكتّاب .. وقال : انهم يفترقون فى التعبير كذلك . . وتحدث عن الجاحظ ، والبديع ، وابن خلدون . . الذين تحدث عنهم وعن صفاتهم الشخصية فى الفصل السابق .

---

(١) المثل السائر ص ٦٩ .

(فالجاحظ يتحرى دقة الالفاظ ليحسن الوصف ، ويردد الجمل ليستكمل معانيه ويؤكدها ، ويلجأ الى الازدواج والتقسيم الموسيقى دون التزام السجع ، ويستخدم الاعتراض داعيا أو محترسا ، ويطنب وراء الافكار والصور ، ويكثر من المقابلة والتقسيم .

ولكن البديع يتخير جزل الالفاظ والتراكيب ، ويكثر من الصور البيانية التى هى تكرار صورى للفكرة الواحدة ، يكثر من البديع طباقا وجناسا ، يقتبس لغة الشعر ليوشي بها نثره ، سجعه قصير ، وعبارته جزلة ايجازية اذا قيست بعبارة الجاحظ السمحة المبسوطة . فالرجلان يمثلان مدرستين مختلفتين فى التفكير والتصوير والتعبير .

وابن خلدون دقيق الكلمات بسيط العبارات تشيع فيها المصطلحات العلمية والفنية ، رتيب الاسلوب لا ينوعه ، لا يسلم من الركاكة والجفاء ، لا يتراءى فيه الجمال والبراعة ، معنى بالمعنى أكثر من اللفظ ، نزعته تقريرية ، فهو من طراز آخر .

واذا كان لابد من اختصار ذلك كله فالجاحظ فى أسلوبه جميل ، والبديع قوى ، وابن خلدون واضح) (١) .

ولسنا فى حاجة الى القول بأنه لا جديد فى هذا الكلام .. اللهم الا جمال العرض والموازنة . كما نعود ونقول : هذا الكلام مجاله فى الدراسات النقدية والموازنات الادبية . ولنتساءل على سبيل المثال : هل كتاب الموازنة للآمدى أو الوساطة للقاضى الجرجانى

---

(١) الاسلوب ص ١٦١ ، ١٦٢ .

من كتب البلاغة أم من كتب النقد ؟! مع ملاحظة أن البلاغة أيام هذين الكتابين كانت ماتزال مندمجة - ولو الى حد ما - فى النقد والادب ومع ذلك فلم يقل أحد بأنهما من كتب البلاغة .

وبعد الشعراء .. والكتاب .. راح المؤلف يتحدث عن الخطباء .. فذكر منهم زيادا والحجاج ووازن بينهما مبينا أثر كل منهما فى أسلوبه .. ثم وازن باقتضاب بين : سعد زغلول ، ومصطفى النحاس ، ومكرم عبيد . وبذلك ينتهى حديث المؤلف عن : الناحية الاولى .. وهى من حيث الالفاظ حين يختلف الادباء فى الالفاظ والجمل والفقر والعبارات .

وقد عرضنا لما يهمنا فى بحثنا ، وأوجزنا للباقى أو أشرنا اليه مما لاضرورة الى ذكره وتفصيله .

أما الناحية الثانية فهى من حيث المعانى : وهنا يتحدث المؤلف عن هذه القضية الكبيرة ، أو المعركة العنيفة ، بين أنصار اللفظ ، وأنصار المعنى . ثم يذكر بعضا من أنصار كل منهما فيقول :

(وكان أبو تمام من أسبق الشعراء وأظهرهم فى ذلك - أى الاهتمام بالمعنى - ثم ابن الرومى ، والمتنبى ، وأبو العلاء فى ذخيرته الفلسفية - اللزوميات - وكان من ذلك ، ولاسيما عند شعراء الصنعة ، أن ضعفت روعة اللفظ وسلاسته ، وبدت عليه الجفوة العلمية أو الكلفة البديعية . وبجانب هؤلاء بقى آخرون محتفظين بالطبع السمح والديباجة السهلة الجميلة كالبحترى ، وأبى العتاهية ،

والعباس بن الأحنف ، وظهرت لهم مقطوعات بالغت فى السهولة حتى عادت باردة سخيفة) (١) .

وأنا أتساءل : أليست -اللزوميات- من قبيل الصنعة اللفظية؟!
وكان من أثر هذه المعركة بين اللفظ والمعنى (أن نشطت حركة النقد ، وانتصر جماعة لكل فريق ، واختلف الباحثون حول هذه المسألة : أين تقع البلاغة ، أفى اللفظ أم فى المعنى أم فيهما معا ؟ وأى هذين الفريقين من الشعراء أظفر بعمود الشعر ، وأجدر بالاحترام ؟ وخلاصة مايحتج به أنصار اللفظ (٢) أن المعانى معروفة للناس سهلة الادراك ، يكفى أن تكون صحيحة ، ولكن البراعة البيانية انما هى فى الالفاظ وصوغ العبارات. وأما أنصار المعانى (٣) فيقولون : ان المعنى هو المقصود بالأداء ، وهو مجال الابتكار ، وحسن التصور ، واللفظ تابعه فى ذلك فجماله من جماله .

ويدور جهد عبد القاهر الجرجانى على أن البلاغة فى الأسلوب تنتهى الى نظم الكلام وفق حاجة المعنى ، وبذلك تتحقق المطابقة بينهما ، ويكتسب اللفظ حسنه بصدق أدائه .

---

(١) الأسلوب ص ١٧٢ .

(٢) راجع مقدمة ابن خلدون ص ٨٥٦ ، والصناعتين ص ٥٥ .

(٣) راجع دلائل الاعجاز ص ٤٠ ، ٧٠ ، ٣٠٧ ، ٣٢٠ طبعة المنار.

ولكنك عرفت أن هذه المسألة قد فصل فيها الآن ، وأن البلاغة تقوم على حسن التعبير ، كما ترتكز على قيمة التفكير (١) (٢) .

وعلى الرغم من ذلك فقد وجد من الأدباء : من يؤثر اللفظ على المعنى فيجعله غايته ومتجه عنايته ، ومن يؤثر المعنى على اللفظ فيعنى بعمقه وتركزه وجدته . وذهب المؤلف يضرب أمثلة لذلك وهو كلام مكرر معاد . والمؤلف نفسه يقول : (وكتب النقد والبلاغة ملأى بهذه النماذج) (٣) .

وقضية اللفظ والمعنى قضية كثر تناولها فى الكتب القديمة . من ذلك على سبيل المثال زيادة على ماورد فى الهامش : العمدة جـ ١ ص ٨٢ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ١٧٢ - المثل السائر ص ١٣٧ - الصناعتين ص ١٣٣ ، ١٤١ - نقد الشعر لقدامة ص ٥٥ . هذا عدا كثير من الكتب الحديثة تناولت هذا الموضوع كذلك . وكنا نود أن يدلى المؤلف - وهو بصدد تجديد البلاغة - برأى جديد فى قضية اللفظ والمعنى .. ولكنه لم يقدم لنا الا رأيه الذى نشره فى مجلة دار العلوم حيث يقول : (ولكنك عرفت أن هذه المسألة قد فصل فيها الآن ، وأن البلاغة تقوم على حسن التعبير ، كما ترتكز على قيمة التفكير) أى المطابقة بين اللفظ والمعنى والاهتمام

---

(١) صحيفة دار العلوم - العدد ٢ من السنة الثانية ص ٣٠ للمؤلف، وفيض الخاطر لأحمد أمين ص ١٣ .

(٢) الاسلوب ص ١٧٣ .

(٣) الاسلوب ص ١٧٦ .

بكليهما معا .. فهل هذا رأى جديد لم يسبق اليه !!

لقد أشار كثير من علمائنا القدامى الى هذا المعنى ورأوا أن اللفظ والمعنى صنوان وتوأمان . يقول ابن رشيق : " اللفظ جسم وروحه المعنى ، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم ، يضعف بضعفه ، ويقوى بقوته ...." (١) . ويقول ابن الأثير : " اعلم أن العرب كما كانت تعتنى بالالفاظ فتصلحها وتهذبها فان المعانى أقوى عندها وأكرم عليها وأشرف قدرا فى نفوسها . فأول ذلك عنايتها بالالفاظ لانها لما كانت عنوان معانيها وطريقا الى اظهار أغراضها أصلحوها وزينوها وبالغوا فى تحسينها ليكون ذلك أوقع لها فى النفس وأذهب بها فى الدلالة على القصد ... فاذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظهم وحسنوها ورققوا حواشيها وصقلوا أطرافها فلا تظن أن العناية اذ ذاك انما هى بالالفاظ فقط، بل هى خدمة منهم للمعانى ..." (٢) .

وقد أورد المؤلف بعض هذه الشواهد فى كتابه .

وينتقل المؤلف بعد ذلك الى قضية أخرى أو مسألة تمس اللفظ والمعنى ألا وهى : الايجاز والاطناب والمساواة . ويقول : (وقد وردت هذه الالفاظ فى كتب البلاغة أوصافا للعبارة وعناصرها من حيث ماتؤدى من معان ، فاذا قصر اللفظ عن المعنى كان ايجازا ،

---

(١) العمدة جـ ١ ص ٨٢ .

(٢) المثل السائر ص ١٣٧ .

وان طال لفائدة كان اطنابا ، وان تساويا كان مساواة أو تقديرا . ولرجال البلاغة كلام كثير فى هذه الاقسام ، وفيما يدخل تحتها من فروع لا حاجة بنا الى تكرارها هنا . ويمكن الرجوع اليها فى المثل السائر (١) وسواه . وقد تناولتها كتب البلاغة - غالبا - فى سياق الجمل والفقر .) (٢) .

وبعد ايراد أمثلة وشواهد مختصرة لكل من الايجاز والاطناب والمساواة يقول عطفا على كلامه السابق : (ولكنا نشير هنا الى هذه الاوصاف من ناحيتها العامة التى تبدو فى العبارة اللفظية لمقال أو خطبة أو رسالة أو وصف أو قصيدة ، وفى مقدار مايصل بينها وبين الأغراض والمعانى كلها مجتمعة ، فمن الكتاب من يؤثر الايجاز حتى يصل الى التوقيعات والاشارات ، ومنهم من يسهب ويطيل كما فى الخطب والمقالات الصحفية غالبا ، ومنهم من يساوى ، ويغلب ذلك فى الرسائل والمقالات العلمية .) (٣) .

ويمكن أن نفهم من هذا الكلام أن المؤلف يشير الى تطبيق أوصاف الايجاز والاطناب والمساواة فى النص الادبى كله ، كما طبق من قبل فى الجمل والفقر . وهو أمر نرحب به وندعو مع المؤلف اليه .

---

(١) ص ٩١ ومابعدها .

(٢) الأسلوب ص ١٧٦ .

(٣) الأسلوب ص ١٧٧ .

أما ان كان يريد القول بان الايجاز والاطناب والمساواة أثر من آثار الشخصية فى اختلاف الاساليب فانا مع موافقتنا اياه فى ذلك لا نرى فيه أى جديد .

وأما . . الناحية الثالثة . . من أثر الشخصية فى اختلاف الاساليب فهى : (ناحية الصنعة البديعية ، والتكلف المقصود ، طمعا فى زخرفة الاساليب ، وتوشيتها بالسجع والجناس والمطابقة والاستعارة ونحوها من عناصر التحسين اللفظى والمعنوى . وقد كانت هذه المحسنات ترد فى الشعر القديم قليلة وعفوا دون تكلف ،استجابة لقوة المعنى وصدق تصويره . كقول أبى ذؤيب الهذلى مستعيرا :

واذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع

وقول حيان بن ربيعة الطائى فى التجنيس :

لقد علم القبائل أن قومى لهم حد اذا لبس الحديد

وقول زهير فى المطابقة :

ليث بعثر يصطاد الرجال اذا ما الليث كذب عن أقرانه صدقا

" فلما أفضى الشعر الى المحدثين ، رأوا مواقع تلك الابيات من الغرابة فى البديع ، فمن محسن ومسيء ، ومحمود ومذموم ، ومقتصد ومفرط (١) " . وقد قيل ان : " أول من فتق البديع من المحدثين بشار بن برد وابن هرمة وهو ساقة العرب ، وآخر من يستشهد بشعره ، ثم أتبعهما مقتديا بهما كلثوم بن عمر العتابى ، ومنصور النمرى ،

---

(١) الوساطة ص ٣٨ .

ومسلم بن الوليد ، وأبونواس ، واتبع هؤلاء حبيب الطائى ، والوليد البحترى ، وعبدالله بن المعتز فانتهى علم البديع والصنعة اليه ، وختم به "(١).

والذى يعنينا هنا - فى الشعر - أن هؤلاء الشعراء اختلفوا فى مقدار عنايتهم بالصنعة البديعية فاختلفت أساليبهم فى النظم تبعا لذلك ...) (٢)

وكلام المؤلف عن الصنعة البديعية ليس فيه جديد كذلك فقد تحدث عنه أمثال الآمدى وابن رشيق اللذين استشهد بهما المؤلف. ويبدو أن كل مايريده هو اثبات أن الصنعة البديعية أثر من آثار الشخصية فى اختلاف الاساليب ولكن طول الحديث وكثرة الاستطراد يبعد بالقارئ عن ادراك ذلك الا اذا عاد وقلب الصفحات الكثيرة السابقة ليصل ما انقطع من تسلسل الحديث .

ويذهب المؤلف بعد ذلك فيضرب أمثلة مرة أخرى فى الصنعة البديعية لكل من أبى تمام والبحترى وابن المعتز وابن الوليد محللا أثر الصنعة كل فى شعره . فأبوتمام أشد الشعراء تعلقا بالبديع وأكثرهم تكلفا له ..... وأما البحترى وابن المعتز فقد غلب عليهما الطبع السمح وسهولة الاسلوب وعدم الكد وراء المعانى العميقة والالفاظ الغريبة ..... وبين هذين الطرفين تضع مسلم بن الوليد فقد جمع بين الصنعة المعتدلة وتجويد الشعر والبطء فى صنعته حتى

---

(١) العمدة جـ١ ص ٨٥.

(٢) الاسلوب ص ١٧٨، ١٧٩.

سموه زهير المولدين (١)

وكما تحدث المؤلف عن الصنعة فى الشعر - تحدث عنها فى النثر . . فـ (هذه الصنعة البديعية قد انتهت الى غايتها المقبولة على يد كتاب القرن الرابع الهجرى ، أمثال بديع الزمان والخوارزمى والصاحب بن عباد وابن العميد ، هؤلاء الذين عرفوا بالسجع والجناس والطباق واقتباس لغة الشعر أو تضمين معانيه ، وقد استطاعوا الاحاطتهم اللغوية وقدرتهم الادبية أن يجعلوا أساليبهم مقبولة ويخففوا آثار هذه الصناعة ، الا أن كثيرا ممن خلفهم على هذا الفن - وبخاصة بعد سقوط بغداد وفى عصر المماليك - لم يظفروا بمكانة السابقين فى اللغة والادب ، ثم غلوا فى البديع فأضافوا الى ماسبق التورية والاستخدام والتلميح للحوادث الشهيرة ، ثم التصحيف الذى كان مجال البراعة عند المتكلفين . وقد نشأ عن ذلك فساد الاساليب وركتها والتضحية بالمعانى فى سبيل الالفاظ) (٢)

ونحن مع تقديرنا للمؤلف - اذ استطاع أن يختصر فى أقل من صفحة تاريخ الصنعة البديعية فى النثر - نتساءل مرة أخرى ما الجديد فى ذلك الذى يمكن اعتباره اضافة جديدة الى البلاغة فى كتاب يدعو الى منهج جديد لها .

ولعل الجديد هو قول المؤلف فى آخر هذا الفصل الرابع من الباب الرابع : (ومثل هذه الصنعة بقيت الى أول العصر الحديث

---

(١) العمدة جـ ١ ص ٨٥ .
(٢) الاسلوب ص ١٨٢ .

حين تشبث بها قوم من الكتاب ظانين أنها مظهر البراعة. فلما هبت هذه النهضة ، وحملت الثقافة والسرعة الناس على العناية بالمعاني والموضوعات ، انهزمت هذه الصنعة ولم تستطع مجاراة هذا التيار المعنوى الدافع ، فتحررت الاساليب بالتدريج وألقت عن كواهلها هذه السخافات اللفظية ، وأخذت ترقى مستجيبة للرقى العقلي والذوقي حتى بلغت الآن منزلة رفيعة لعلها لم تظفر بها قبل الآن .) (١)

ولكنى أعود فأسأل : أين المنهج الجديد للبلاغة .. فقد قرأنا حتى الآن واستعرضنا أربعة أبواب من الكتاب .. ولم يبق الا الباب الخامس وهو فى صفات الاسلوب .. ولعل هذا الباب الخامس أولى الأبواب بأن يقتصر عليه الكتاب . والله أعلم .

---

(١) الأسلوب ص ١٨٤ .

صفات الأسلوب

هذا الموضوع هو الأخير فى هذا الكتاب .. وهو أهم ماتضمنه الكتاب - فى رأيى - ويتكون من أربعة فصول تتناول صفات الاسلوب التى يرى المؤلف أن تضاف الى منهج البلاغة - ومع أن هذه الصفات مقتبسة من علم النفس .. وتحدث عنها (جينونج) .. فانها صالحة للاندماج وتفيد دارس البلاغة فى انشائه للاساليب .

(ويمكن ارجاع هذه الصفات الى ثلاثة قياسا على الغايات التى يقصد اليها المنشئون :

أولا : الوضوح لقصد الافهام

ثانيا : القوة لقصد التأثير

ثالثا : الجمال لقصد الامتاع (أو السرور) .

ويذهب المؤلف بعد ذلك يتناول كل صفة بشىء من التفصيل .

أولا : وضوح الأسلوب :

والمصدر الاول للوضوح هو عقل الاديب ... (لذلك كان الوضوح صفة عقلية قبل كل شيء. وبعد ذلك يأتي التعبير اللغوى الذى يتطلب من المنشيء ثروة لغوية وقدرة على التصرف فى التراكيب والعبارات لتلائم أفكاره وطريقة تفكيره ، فلا يرضى عن كلمة أو جملة تبعث الابهام أو الاشتراك ، ولا يشعر الناس بأن عبارته فى حاجة الى أن تفهم . ولن يجوز فى فن البلاغة هذا القانون الذى ارتجله أبوتمام حين قال : ولم لا تفهم مايقال ؟ جوابا لمن قال له : لم لا تقول مايفهم ؟ لان البلاغة قائمة على العناية بالقراء والسامعين ، ومطابقة الكلام لمقتضى الحال ، فاذا بدا الاسلوب بعد ذلك غامضا توجه الطعن الى منشئه ، ورمى اما بعدم فهمه مايقول ، واما بعجزه عن التعبير عما يفهم) (١) .

وتحقيق الوضوح فى الأسلوب يستلزم أمرين :
أحدهما متصل بالافكار نفسها وهو (الدقة) ، والثانى متصل بالقارىء وهو (الجلاء) ، وهأنذا ألخصهما فيما يأتى :

أ - الدقة أو وضوح الفكرة :

يقوم وضوح الفكرة ودقتها على لغة الكاتب ، وكلماته المفردة التى يؤثرها ، لانها أدل من سواها على مايريد . ويذكر المؤلف

---

(١) الاسلوب ص ١٨٦ .

بعض القوانين التى تساعد فى تحقيق الدقة وتحديد الأفكـــار، وهى :

(١) اختيار الكلمات المعينة غير المشتركة بين معان ، والتى تدل على الفكرة الكاملة . . . . وقد وقع جرير فيما يسمى الاشتراك حتى ذهب الناس كل مذهب فيما يعنى ، وذلك قوله :

لو كنت أعلم أن آخر عهدكم يوم الرحيل فعلت مالم أفعل

فماذا كان يفعل ؟ أيبكى أم يهيم على وجهه ، أم يمنعهم المسير ، أم يدفع اليهم شيئا يذكرونه به أم ماذا ؟ (١) . ويدلى المؤلف هنا برأى طيب حيث يقول : ومن يدرى فلعل فى هذا الابهـــام بلاغة أرادها جرير ولم يفطن اليها النقاد . . وعندى أن المراد بهذا التركيب هو مجرد التهويل دون ارادة شىء بعينـــــه ، فهو يريد بذل آخر جهده فى التحفى بأحبته ، وليس بـــلازم أن يفهم التعبير فهما حرفيا .

(٢) يحسن بالاديب الاستعانة بالعناصر الشارحة ، أو المقيـــدة ، أو المخيلة ، كالنعت، والمضاف اليه ، والحال ، والتمييـــز ، والاستثناء . فذلك من عوامل ايضاح المعانى وتحديدهـــا . كقوله : شوقى شاعرا أحسن منه ناثرا ، وليلة نابغية ، نهر النيل من أطول أنهار الدنيا .

(٣) ومما يساعد فى وضوح الفكرة استعمال الكلمات المتقابلة المتضادة المعانى ، اذ كانت مقابلة الاضداد مما يزيد فى كل منهما وبيان

---

(١) راجع الصناعتين ص ٣٢ .

خواصه ، وشرط ذلك عدم الغلو فيه ، والا عاد صنعة بديعية تفسد الاسلوب. كقولك : طول النهار من قصر الليل ، لا نقض ولا ابرام ، وكقول الشاعر :

متى أردت الدنيا نباهة خامل   فلا ترتقب الا خمول نبيه

(٤) البعد عن الغريب الوحشى ، والعمد الى لغة الناس وما يستطيعون ادراكه ، وذلك يختلف باختلاف العصور وطبقات الناس. . . . .
واذا أردت أمثلة للاغراب فارجع الى الصناعتين (١) .

(٥) ثم المصطلحات العلمية والفنية والاجتماعية والتاريخية التى وضعت لمعان خاصة محددة ، لتكون بين الكتاب والقراء علامات واضحة وروابط عقلية مشتركة .

والذى يخشى من هذه القوانين التى ذكرها المؤلف لوضوح الفكرة هو أن ينهمك البليغ فى تحرى الدقة فيعود الاسلوب بذلك جافا أشبه بالصكوك التجارية أو القانونية ، خاليا من الروح الفنية ، تقرؤه محكما دقيقا ولكنك تشعر بعقم وملالة .

وهذا ما لحظه ابن قتيبة (٢) على قول لبيد بن ربيعة :

ماعاتب الحرّ الكريم كنفسه   والمرء يصلحه الجليس الصالح

فقال : " هو جيد المعنى والسبك وان كان قليل الماء والرونق " ، وعقب المؤلف على ذلك فقال : ان ذلك راجع الى أن البيت قد استأثر به العقل

---

(١) راجع الصناعتين ص ٢٦ .
(٢) الشعر والشعراء ص ٤ طبعة الخانجى .

دون العاطفة ، فذهبت روعته ، وضاع جماله الأسلوبي .

ب - الجلاء أو وضوح التراكيب :

بعد أن يتوافر للكاتب دقة الفكرة ووضوحها ، تكون خطوته الثانية مطابقة الاسلوب لادراك القارىء ، وهي تبدو في صور شتى من الرقة والجزالة أو السهولة والصعوبة حسب المعاني التي تؤديها العبارات . . . .

والقانون الاساسي لتحقيق هذا الجلاء هو تحري البساطة في صوغ العبارات ومجانبة التعقيد ، مع الاحتفاظ بسموها وقوتها . وهذا القانون نفسه متصل بالتكوين المنطقي والنحوي للأسلوب ، هذا التكوين الذي يسلك الكلمات والجمل والعبارات في نظام لفظي هو صورة لنظام عقلي وتفكير منطقي مطرد .

ويسوق المؤلف بعد ذلك بعض القواعد التي تفيد في تكوين التراكيب الواضحة ، وتتلخص في :

(١) لابد للبليغ من ذوق نحوي شديد ، يحسن التأليف بين الكلمات لتدل على معنى دقيق معين ، وتسلم من هذين العدوين اللذين يفسدان الكلام ، وهما : اللبس ثم الغموض كما في بيت جرير السابق ، وكقول المتنبي :

وأظلم أهل الظلم من بات حاسدا   لمن بات في نعمائه يتقلب

فعود الضمير في نعمائه على من الاولى يختلف في المعنى اذا عاد على من الثانية . وهذا هو (الاشتراك) الذي سبق

وذكره المؤلف فى رقم (١) عند حديثه آنفا عن وضوح الفكرة .

(٢) الوثوق من أن العناصر التركيبية التى يرتبط بعضها ببعض فى المعنى -كأصل وتابع أو معنى وضده - قد ركبت بنظام دقيق وتأليف منسق بحيث لا يتعب القارئ فى تبين هذه الصلات بين الأجزاء فينصرف عن المعنى ويجهد عقله فى غير نفع .

(٣) بعد ذلك تأتى مراعاة الجمل معا وما يكون بينها من فصل أو وصل ، وما يربطها من حروف العلة أو الحال أو الاستثناء .

(٤) وما يتصل بذلك الاطناب والمساواة والايجاز . ولسنا نريد هنا فرض أحد هذه الاوصاف على العبارة ، لأن كل صفة منها تكون أوفى بالغرض فى مقام دون سواها . فالشعر تكفى فيه الكلمة الموجزة واللمحة الخاطفة أحيانا لان طبيعته الايجاز والرمز ، والاسلوب العلمى تلائمه المساواة ، ويكون الاطناب أحيانا فى الخطب والمقالات السياسية والاجتماعية ، ولعل أسلوب الصحافة الآن أميل الى ذلك .

وانى لأتساءل : هل طبيعة الشعر الايجاز والرمز ؟!

أليست القصيدة مجالا واسعا للاطناب والاستطراد والتصوير والتذييل

انه لمن النادر أن يكون لفظ البيت مساويا للمعنى بله الايجاز !!

أما الرمز فهو ليس من الكثرة فى الشعر بحيث يكون وصفا عاما له .

وعلى العموم فان هذا الفصل الاول من صفات الاسلوب تناول بشكل واضح ودقيق الوصف الاول للاسلوب وهو (الوضوح) وبين أن

هذا الوصف يجب أن يكون متوفرا فى الفكرة أولا ثم فى الاسلوب ثانيا وهو أمر ـ لا شك ـ يجب أن يتصف به البليغ .

ثانيا : قوة الأسلوب :

نلاحظ أن القوة صفة نفسية، تنبع أول أمرها من نفس الاديب الذى يجب أن يكون نفسه متأثرا منفعلا اذا شاء من قرائه حماسة وانفعالا ، وهى لذلك صفة العاطفة والارادة والاخلاق قبل أن تكون صفة الاسلوب . . . .

واذا كان الغرض من الوضوح هو الاقتصاد المباشر فى اجهاد مواهب القارئ ، فان الغرض من القوة الاقتصاد غير المباشر بايقاظ عقله وعواطفه وأخيلته لتدرك المعانى بقوة وتحظى بمتعة جديدة . . .

وهناك قاعدتان لتحقيق القوة الاسلوبية هما :

قوة الصورة ، قوة التركيب

* أما قوة الصورة . . فيراد بها أن تتجاوز الصورة بالعقل معناها الحرفى الى معنى أو معان أخرى مجازية أو غيرها ، وذلك يكون بالتمثيل والكناية والاستعارة من كل مايفتح أمام القارئ آفاقا من التفكير أو التخييل . من ذلك قول بشار :

اذا أنت لم تشرب مرارا على القذى ظمئت وأى الناس تصفو مشاربه

فيمكن أن نفهم من هذا البيت معانى ثلاثا بهذا الترتيب : أولها هذا المعنى الحرفى الساذج وهو أن يحتمل الانسان شرب الماء على قذاه

أحيانا لانه لايضمن صفاءه دائما . ثانيها : احتمال الصديق على مابه من عيب فلم يسلم انسان من العيوب وهذا المعنى هو المناسب لأن بشارا كان يعاتب . وثالثها وهو الأخير : احتمال السقوط فى الحياة وتحمل عنت الدهر فالفوز المطلق غير المحتوم .

على أن مثل هذه الصور الخيالية ، والعبارات البيانيـــة ، تبين لنا كيف يتصور الاديب الاشياء ويتناولها بعقله وخياله ، وتجعلنا نشعر بشعوره ونتحد معه ولو لحظات (١) .

وهنا يتبادر الى ذهنى سؤال أو خاطر كنت أود أن يوضحـه المؤلف . . وهو : هل الصورة الخيالية جزء من العبارات البيانيـة .. وبتعبير آخر : هل الصورة جزء من الاسلوب . . المفهوم من كـلام المؤلف أن قوة الأسلوب تتحقق أولا بقوة الصورة فهل معنى ذلك أن الصورة جزء من الاسلوب ؟ وأن الاسلوب أعم والصورة أخص ؟

وقد دفعنى ذلك أن أرجع البصر كرتين لأرى ماذا قال القدماء والمحدثون فى ذلك . . أى فى الاسلوب والصورة ومدى الارتبـاط بينهما :

يرى المحدثون وعلى رأسهم الزيات أن الاسلوب يشتمل علـى عناصر منها الصورة . . أى أن الاسلوب شامل لها وهى جزء منـه . . فـ (الاسلوب ليس هو المعنى وحده ولا اللفظ وحده وانما هو مركـب فنى من عناصر مختلفة يستمدها الفنان من ذهنه ومن نفسه ومن ذوقه ،

---

(١) الاسلوب ص ١٩٥ .

تلك العناصر هي الافكار والصور والعواطف ثم الالفاظ المركبةوالمحسنات المختلفة . والمراد بالصور ابراز المعنى العقلي أو الحسي في صورة محسة) (١) .

أما الاستاذ الشايب فنجده يعتد بالشكل اعتدادا كليًّا وأن العنصر اللفظي هو مظهر الفكرة والصورة والجانب الحسي لهما . . فـ (الذي يعنينا أن الاسلوب منذ القدم كان يلحظ في معناه ناحية شكلية خاصة هي طريقة الاداء ، أو طريقة التعبير التي يسلكها الاديب لتصوير مافي نفسه أو لنقله الى سواه بهذه العبارات اللغوية . . . فهو طريقة الكتابة ، أو طريقة الانشاء ، أو طريقة اختيار الالفاظ وتأليفها للتعبير بها عن المعاني قصد الايضاح والتأثير . . ان الاسلوب هو طريقة التفكير والتصوير والتعبير . . وهذا التعريف الاخير يتناول عناصر الاسلوب كلها ويقوم على أساس الصلة بينها وان كان العنصر اللفظي مظهر الفكرة والصورة لانه الجانب الحسي لهما) (٢)

وعلى الرغم من أن الاستاذ الشايب يعتد بالشكل ويعتبر العنصر اللفظي هو مظهر - مجرد مظهر - للفكرة والصورة نجده يعود فيعتبر الصورة جزءًا من الاسلوب . . ليس هذا فحسب بل العاطفة كذلك جزء من الاسلوب وعنصر من عناصره . . فـ (العاطفة في الادب عنصر أسلوبي يحس دون أن يشرح أو يعرض عرضا مباشرا صريحا) (٣) .

---

(١) دفاع عن البلاغة ص ٧٦ و ٧٧ .
(٢) الاسلوب ص ٤٤ و ٤٦ .
(٣) الاسلوب ص ٥٣ .

أما الاسلوب عند القدماء فنجد الامام عبدالقاهر عرفه بأنه : الضرب من النظم والطريقة فيه (١). و (أهم العناصر عنده التي تجعل الصورة الادبية هو النظم .. هو التصرف فى التراكيب تصرفا حاذقا ماهرا يجعلها تستحق اسم الصورة، فالنظم الاصيل عنده هو الذى يرشح الكلام لاستحقاق اسم الصورة .. هو ذلك الذى تضع فيه اليد على وجوه التصرف والصنعة فترى الناظم قد عرف ونكر وقدم وأخر وفصل ووصل وأظهر وأضمر، وتراك تسائله لم قدم ماقدم، ولم أنكر ولم يعرف، ولم وصل بالفاء دون ثم مثلا ؟

فمثلاقول ابراهيم بن العباس :

فلو اذ نبا دهر وأنكر صاحب   وسلط أعداء وغاب نصير

فان الشاعر أراد بتنكير الدهر والصاحب أن يحقرهما ويرميهما بالغدر والخيانة . واذ قد دل التنكير على هذا الغرض الذى أراده الشاعر فقد أصبح التنكير عنصرا فى الصورة لأنه أدى غرضا أراد الشاعر ابرازه فى هذه الصورة) . (٢)

والفرق الاساسى بين الصورة عند المحدثين وعند عبد القاهر هو أن الخيال يعتبر الركن الأصيل عند المحدثين فى الاسلوب الادبى بينما هو ليس كذلك عند عبدالقاهر، فاللمسات الدقيقة فى صناعة النظم لها من الروعة والسحر مايفوق الخيال أحيانا . ان جمال النظم قد يبلغ بالحقيقة مرتبة لا يصل اليها الخيال . (٣)

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٣٦١ .
(٢) نظرية العلاقات - د . نايل ص ٥١ .
(٣) نظرية العلاقات - د . نايل ص ٥٢ .

ونفهم من ذلك أن عبد القاهر لا يعتبر الصورة عنصرا من عناصر الاسلوب وان كان الاسلوب صانعها ومكونها .

ونعود الى المؤلف فنراه يقدم لنا بعض الوسائل التى تحقق للبليغ قوة التعبير . وكان الاولى أن يذكر هذه الوسائل عند حديثه عن قوة التركيب التى ستأتى عقب حديثه عن قوة الصورة ؛ علما بأن هذه الوسائل سبق وذكرها فى أكثر من موضع من هذا الكتاب.

وهذه الوسائل هى : (١)

أولا : استعمال الكلمات المألوفة المحددة المعنى ، العربية ، فذلك يفيد فى وضوح الافكار والصور كما يفيد فى قوتها واستقرارها فى العقول .

ثانيا : استخدام الكلمات الوصفية التى تفيد فى جمال الاسلوب وفى قوته معا ، ويراد بالكلمات الوصفية تلك التى تصور مشاهد أو حوادث تلفت النظر وتروع الفؤاد وتثير الاعجاب ، كقول بديع الزمان فى المقامة الأسدية :

" فاذا السبع فى فروة الموت ، قد طلع من غابه ، منتفخا فى اهابه ، كاشرا عن أنيابه ، بطرف قد ملئ صلفا ، وأنف قد حشى أنفا ، وصدر لا يبرحه القلب ، ولا يسكنه الرعب " .

ثالثا : الاستعمال المجازى للكلمات ، أو وصفها بنعوت غريبة تؤدى معنى المبالغة المقبولة والايجاز الطريف ، وتفتح للقارئ مجال

---

(١) الاسلوب ص١٩٥ و١٩٦ و ١٩٧ باختصار .

التفكير والتخييل ، ومن هذا الاخير قولهم : ليلة نابغيـــة ، ورأس كليب ، وثالثة الأثافى .

رابعا : التحاشى عن الكلمات الضعيفة ، والحشو الفارغ ، والعناصر الثانوية فى العبارات ، ثم الاكتفاء بأركان الكلام حتى يتـــرك لها المجال لتبعث آثارها دون عائق . وأكثر مايبدو ذلك فى الخطابة والجدل والمناظرة وفى الشعر والنثر الادبـى .

* أما قوة التركيب فتتم بالوسائل الآتيـــة :

(١) تقديم الكلمة أو تأخيرها بالنسبة الى موضعها الطبيعى دلالة على القصر أو التفخـيم ، أو حسن الذوق واللياقة ، أو الاهمية مطلقا ، مثل : اياك نستعين ، على الأخلاق خطوا الملك وأبنو ، لا الـه الا الله .

(٢) من أسباب القوة الطباق البديعى الذى مر ذكره فى الوضوح لأن المقابلة نوع من التحدى بين المعانى والمنافسة فى الظهور وهذه قوة للمعانى . مثل : فليضحكوا قليلا وليبكوا كثـيرا .

(٣) لما كانت القوة تستلزم السرعة فى أكثر الأحيان ، كان الايجاز لازما فى العبارة عامة وفى التراكيب خاصة ، لذلك نجد تراكيـب الخطابة مقتضبة سريعة كأنها أوامر ونذر صارمة ، كذلك الحوار التمثيلى ، والجدل الادبى ، لما تتطلب من سرعة الأداء .

وأجدني أتساءل مرة أخرى : هل الخطابة حقا مقتضبة سريعة حتى لو كانت أوامر ونذرا ؟! ان المعروف عن الخطابة وهي التي تتطلب قوة الاسلوب أنها مجال واسع للاطناب والتأكيد والاستطراد وضرب الأمثلة .. وفي خطب علي بن أبي طالب قديما ومصطفى كامل حديثا وغيرهما خير دليل على ذلك .

ولماذا أذهب بعيدا .. ان المؤلف نفسه يقول في نفس الكتاب عند حديثه عن الخطابة (١) :

(وعلى هذا الأساس من طبيعة الفن الخطابي نستطيع تمييز أسلوبه بما يلي :

١- الصفة العامة للاسلوب الخطابي هي القوة ، ومصدرها الاول انفعال الخطيب ، وقوة عقيدته ويقينه بما يقول ، ثم تظهر في عباراته المسجوعة أو المزدوجة وكلماته المؤثرة الجزلة لتكون موسيقا قوية على تفاوت في ذلك ، يقول زياد في مطلع خطابته : " أما بعد فان الجهالة الجهلاء ، والضلالة العمياء ..... "

٢- التكرار المعنوي جائز في الخطابة لتثبيت الافكار في الأذهان ..... ولكن لا بد من تغيير العبارات كما رأيت في المثال السابق اذ الفكرة الواحدة وردت في عدة جمل ، كما رأيت عند علي ، وكقول زياد : " أتكونون كمن طرفت عينيه الدنيا ، وسدت مسامعه الشهوات ، واختار الفانية على الباقية ؟ " .

---

(١) الاسلوب ص ١١٨ .

ثالثا : جمال الأسلوب :

الجمال صفة لازمة للاساليب الادبية مادام الاديب معنيا بامتاع القراء واحترام أذواقهم .. وليس من جمال الاسلوب فى شىء هذه المحسنات البديعية والصور الخيالية التى يصطنعها الكتاب عمدا ويأتون بها تكلفا دون أن تستدعيها طبيعة المعانى أو يحتاج اليها الخيال ليصور بها عاطفة صادقة وانفعالا قويا .

والجمال صفة نفسية تصدر عن خيال الاديب وذوقه ، فالخيال المصور يدرك مافى المعانى من عمق ومايتصل بها من أسرار جميلة ادراكا حادا رائعا ، والذوق يختار أصفى العبارات وأليقها بهذا الخيال الجميل .

والجمال صفة سلبية و ايجابية ، تكون بخلو الاسلوب من التنافر والخشونة التى تؤذى الحس والذوق ، ثم بجعله - أى الاسلوب - صادحا بجمال الذوق والخيال .

الناحية السلبية : ويراد بها أن تكون العبارة خالية من أسباب الاضطراب الصوتى والخشونة القاسية التى لا تنم عن عاطفة أو خيال ، وبذلك نجد الكلمات والجمل مطردة متناسقة الحروف والكلمات .

الناحية الايجابية : ماسبق كان عملا سلبيا يراد به اعداد الاسلوب لقبول العنصر الايجابى للجمال . وهو مايمكن تسميته بالتناسب أو مطابقة اللفظ للمعنى (١) .

---

(١) راجع الاسلوب ص ١٩٩ - ٢٠٢ .

تداخل صفات الأسلوب وتعادلها :

مماسبق اتضح أن صفات الاسلوب هي : الوضوح - القوة - الجمال .
وهذه الصفات لا يستغني بعضها عن بعض في الاسلوب ، فهي أشبه بنغمات الموسيقا وأدواتها التي لا بد من تعاونها وتآلفها لتكوين نغمة عامة تلائم الدور الملحن موضوعا وغاية، كذلك لا بد من تآزر هذه الصفات وتناسقها حتى يكون الاسلوب متزنا كاملا يغذى العقل والشعور ويرضى نواحي النفس الانسانية معبرا عنها أو موءثرا فيها .

وأساس النجاح ألا يسمح الاديب لصفة بالحياة على فناء الأخرى ، بل لا بد من توفيرها جميعا ، وحفظ التوازن بينها بدرجة تجعل الاسلوب قائما بواجبه خير قيام . وذلك لا يكلف الاديب أكثر من يقظة نفسية، وبراعة أسلوبية ، وصدق في الأداء (١) .

هذا وقد ورد مثل هذا الكلام في ص ٢٥ من الكتاب نفسه فليراجع . وبعد : فان هذا الفصل الاخير هو أليق ماورد بالكتاب لضمه الى منهج البلاغة حيث ان دراسة صفات الاسلوب (الوضوح - القوة - الجمال) تفيد دارس البلاغة ، وتوقظ احساسه ، وتلفت انتباهه وهو ينشىء الاسلوب الى مايجب أن يراعيه من وضوح التفكير وقوة التصوير وجمال التعبير ، ومابين هذه الصفات الثلاثة من اشتراك ضروري وتعاون لازم مع ظهور أحدهما على أخويه حسب مقتضى الحال .

---

(١) راجع الاسلوب ص ٢٠٣ ، ٢٠٤ .

عودة الى " بوفون " :

سبق وتحدثنا عن " بوفون " حينما تناولنا تعريف الأسلوب في هذا الكتاب وقلنا ان بوفون عرف الاسلوب بأنه عبارة : عن النظام والحركة التي يضعها المرء في أفكاره، فاذا ربطت هذه الافكار بدقة وضمت صار الاسلوب شيئا قويا موجزا .

ومن يقرأ حديث بوفون عن الاسلوب ، والذى ترجمه د . أحمد بدوى (١) ، يدرك تماما أن بوفون قد بين الاسلوب من جميع نواحيه وألفاظه ومعانيه وعواطفه وأخيلته ، ورسم الطريقة المثلى للكتابة الجيدة والاسلوب الممتاز، وبين أن حفظ القواعد واستيعابها لا يمكن أن يحل محل الموهبة لانه لابد منها حتى يصبح العمل الفنى قريبا من الكمال . وبين كذلك أنه لابد لكل عمل أدبى من خطة يتبعها الكاتب قبل الكتابة والا أصبح العمل الادبى فوضى لا حدود لها .

ولقد حدد بوفون - في خطبته أمام المجمع الفرنسى - الملامح الاساسية والخطوات التي يجب على الاديب اتباعها حتى ينال أسلوبه رصانة وجلالا ونبلا . هذه الخطوات هى :

* امتلاك ناصية الموضوع امتلاكا تاما ، والتفكير فيه تفكيرا كافيا ، بحيث يرى الكاتب بوضوح نظام عناصره وتتابعها ، ويجعل منها سلسلة متصلة كل نقطة فيها تمثل فكرة .

* على الاديب أن يوجه قلمه ليعالج الموضوع بالتوالى ، وأن يعنى

---

(١) راجع بوفون وحديثه عن الاسلوب في مجلة الرسالة/العدد ٦١٨ العام الثالث عشر ص ٤٧٤ و ٤٧٥ .

بالعناصر عناية متساوية، وألا يضع عنصرا فى مكان غير مكانـــه المحدد له والذى يجب أن يشغله .

* اذا ضم الى ذلك ، الموهبة والرقة والذوق فى اختيار التعبيرات حاز الاسلوب نبلا .

* واذا ضم الى ذلك أيضا : الاحتراس من أول انفعال ، والاحتقار لكل ماليس فيه سوى البريق ، والنفور الدائم من الابهـــام والسخرية نال الاسلوب رصانة وجلالا .

* وأخيرا اذا كتب الانسان كما يفكر ، واذا كان مقتنعا بما يريد أن يقنع به سواه ، أنتج ذلك صدق الاسلوب وبالتالى اقناع الغير .

وفى هذا البحث أيضا ميز بوفون بين نوعين من الجماهيـر :

الأول : وهو القسم الاعظم من الناس . . وهؤلاء تجب لاثارتهـم واقناعهم نغمة حادة مؤثرة واشارات معبرة وكلمات سريعة رنانة .

الثانى : وهو العدد القليل ومن هم على شاكلة أعضاء المجمع الفرنسى . . هؤلاء تقدم اليهم الافكار والحجج والبراهين، وينبغى لمـن يقدمها أن يعرف كيف يبرزها وكيف يلونها وينسقهـا . . ولا يكفيه أبدا أن يقرع الاذن أو يشغل العين ، بل يجب أن يحرك الروح ويلمس القلب والعقل .

وهذا الذى قاله بوفون فى القرن الثامن عشر قريب جدا مما سطره بشر بن المعتمر فى صحيفته المشهورة حين قال :

(وينبغى للمتكلم أن يعرف أقدار المعانى ، ويوازن بينهـا

وبين أقدار المستمعين ، وبين أقدار الحالات ، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما ، ولكل حال من ذلك مقاما ، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعانى ، ويقسم أقدار المعانى على أقدار المقامات ، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات) . (١)

وأخيرا فكتاب الأسلوب كتاب يستحق النظر والدراسة فهو مفيد - لا شك فى ذلك - للطلاب والدارسين .. ولكن هل ندرسه على أنه بلاغة .. أم أدب.

أعتقد أن الجواب على ذلك بات مفهوما بعد كل الآراء والتعليقات التى ذكرناها على أبواب الكتاب وفصوله . والتى سنجملها ضمن حديثنا القادم عن :

كتاب " الأسلوب " فى الميزان .

---

(١) البيان والتبيين جـ ١ ص ١٣٩ .

كتاب الأسلوب في الميـــــزان

(أ) هذا الكتاب أجمل فيه الاستاذ الشايب المنهج الجديد لعلم البلاغة العربية ـ كما يقول في المقدمة ص ٣ - ويرى أن هـــذا المنهج يتطلب دخول علم البلاغة في بابين أو كتابين :

الأول : باب الاسلوب أو كتابه . . ويتناول دراسة الحـــروف والكلمات والجمل والصور والفقرات والعبارات . على أن تدرس درسا مفصلا دقيقا يعتمد على علوم : الصوت والنفس والموسيقا وما " اليها " مما يقوم الاسلوب على أنه صورة أدبية فنية. وهذا الكلام معناه أن ندخل في علم البلاغة جزءا . أو أجزاء من كل علم من هذه العلوم مستعين بها على دراسة الحروف والكلمـــات والجمل . . . الخ ، وهذه العلوم ليست فقط هي : الصـــوت والنفس والموسيقا . . بل هناك أيضا وما " اليها " أي علـــوم أخرى لم يحددها المؤلف وقد تكون كثيرة . . هذا بخــــلاف علوم : النحو والفقه واللغة والادب والنقد . . ولا مانع أيضا من : المنطق . . وغيره وغيره . وهذا الحشد من العلوم ـ ان تحقق أو أمكن مزجه بعلم البلاغة ـ يصيب البلاغة بالتخمة . . ويصيب الدارسين بالدوار . فهل هذا هو المنهج الجديد المجمـــل الذى بشرنا بـه المؤلف في مقدمة كتابه ؟! نعم لا يكـــون البليغ بليغا حتى يلم بهذه العلوم ويطوف بها قبل أو مـــع دراسته للبلاغة . . ولكن أن تكون البلاغة ـ ذاتها ـ خليطا من

هذه العلوم فهو أمر غير مستساغ ويحتاج الى نظر .

أما الباب أو الكتاب الثانى : فيدرس الفنون الادبية وقوانينها شعرا ونثرا ، يدرس أصول المقالة والخطابة والرسالة والجدل والوصف والرثاء والقصة والملحمة والتمثيلية والتأريخ والتأليف الى غيرها من هذه الفنون الادبية التى زخرت بها الآداب العالمية وشرعت قواعدها ، ولم تحظ فى بلاغتنا النظرية الا باشارات خاطفة لا تغنى شيئا .

وهذا الباب الثانى : قلنا - وقال المؤلف نفسه كذلك - أنها فنون أدبية ، فهى تدخل - بل قد دخلت بالفعل - فى دراسة الأدب . وليس من التجديد أن نعود بالبلاغة الى أحضان الأدب والنقد فننثرها فيهما ونمزجها بهما كما كانت منذ قرون . ان هذه الفنون الادبية موجودة فعلا . . ووضعت موضع الدراسة والتدريس . . فهى ليست جديدة علينا . . فهل المطلوب أن ننزع عنها عنوانها القديم " دراسات أدبية" ونضع بدلا عنه العنوان الجديد " دراسات بلاغية " . وما جدوى ذلك ؟!

ولأن هذه الفنون الادبية فى غنى عن التعريف . . نجد المؤلف اقتصر فى كتابه على الباب الأول: " الأسلوب " .

(٢) الباب الأول من الكتاب كله مقدمات سطحية وتمهيدية لم تدخل فى صلب الموضوع اللهم الا حديثه عن تعريف البلاغة فقد اعتمد التعريف القائم وهو : مطابقة الكلام لمقتضى الحال . . ودار حول هذا

التعريف مقارنا بينه وبين تعريف جينونج - كما تحدث عن المطابقة فى ضوء علم النفس وتطرق الى القوى المعنوية الثلاثة : قوة الادراك وقوة الانفعال وقوة الارادة .

وقد علقت على ذلك فى مكانه .. وبينت أن هذه القوى المعنوية الثلاثة تندرج تحت المعنى العام لكلمة أدب - وهذا تعبير المؤلف نفسه - وتساءلت : ماقيمة هذه العناوين التى نقلناها عن علم النفس أو اقتبسناها منه .. أليست قوة الادراك هى "التفكير" ، وقوة الانفعال هى "التصوير" ، وقوة الارادة - كما يقولون - تتمثل فى "التعبير" . والتفكير والتصوير والتعبير .. عناصر الاسلوب الادبى فى دراستنا الادبية .

فما الزيادة التى أفدناها واقتبسناها من علم النفس الحديث ؟! ان هى الا أسماء استعرناها ، وعندنا مايعوضها ويفضلها .. أم أن التجديد احلال أسماء مكان أخرى .. بينما الموضوع والجوهر هو هو لم يتغير !!

وكذلك حديثه عن موضوع علم البلاغة فى الفصل الخامس من الباب الاول ، فقد ذكر فيه خلاصة منهجه الجديد للبلاغة حيث حصر موضوع البلاغة فى قسمين رئيسيين هما : (١) الاسلوب ، (٢) الفنون الادبية . وبنظرة متأملة الى هذا المنهج نجد رأيا جديدا فى تكوين علم البلاغة من جديد وهو رأى جدير بالنظر والتقدير .

(٣) الباب الثانى من الكتاب فى التعريف بالأسلوب . وأهم مافيه

الفصل الاول حيث تحدث فى حد الاسلوب وبين معناه العام والخاص ـ فكلمة " أسلوب " كما تصدق على التركيب الكلامى أو على طريقة التعبير . . تصدق كذلك على طريقة ووسائل كل فن من الفنون .. فللرسم أسلوبه وللموسيقا أسلوبها وللتمثيل أسلوبه وهكذا .

واذا كان الامر كذلك فكيف يقترح المؤلف الغاء اسم " البلاغة " واحلال كلمة " الاسلوب " مكانها حتى ولو كانت عنده أخف نطقا وأجمل رنينا وأكثر شيوعا .. !! ان الوضع الذى نفهمه ونستسيغه أن يندرج " الأسلوب " بمعناه الخاص تحت علم البلاغة ويصبح فرعا من فروعها مثل : المعانى والبيان والبديع .. ان كلمة "الأسلوب"، وباعتراف المؤلف " صارت هذه الأيام حقا مشتركا بين مختلف العلوم والفنون " .. فكيف ـ والحال هذه ـ نجعلها عنوانا جديدا لعلم البلاغة .. بينما كلمة " البلاغة " لا تصدق من بين كل الفنون الا على هذا العلم الخاص بها . ثم هل التجديد تجديد ألفاظ أم تجديد مضمون .. !!

(٤) الباب الثالث والباب الرابع يتحدثان عن الأسلوب والموضوع ، والأسلوب والأديب . وهو حديث أدبى وأولى به كتب الأدب كما بينا .

(٥) أما الباب الخامس والأخير فيتناول " صفات الأسلوب " وهذا الباب ـ كما ذكرنا ـ أهم ما تضمنه الكتاب ـ فى رأينا ـ اذ يصلح للاندماج فى دروس البلاغة ويفيد الدارسين فى انشاء الأساليب. ومن رأينا أن صفات الأسلوب ـ الوضوح والقوة والجمال ـ تعرض

للدرس عند الكلام في البلاغة عن مقتضى الحال .

فالأسلوب الأدبي : يجب أن تلازمه صفة الجمال بكل خصائصه ومقوماته ولا يستغني في الوقت ذاته عن القوة والوضوح .

والأسلوب العلمي : تلازمه صفة الوضوح بكل خصائصه ومقوماته ولا يستغني في الوقت ذاته عن القوة والجمال .

وأسلوب الخطابة : تلازمه صفة القوة بكل خصائصها ومقوماتها ولا يستغني في الوقت ذاته عن الوضوح والجمال .

ان دراسة هذه الصفات الأسلوبية وتتبع خواص كل منها توسع مدارك الأديب وتلفت انتباه البليغ الى أمور في الأسلوب يجب مراعاتها ، وحسن تطبيقها ينتج .. أو على الأقل يساهم في تربية الذوق وانتاج أو تكوين الأسلوب البليغ .

ولا أقول ان صفات الاسلوب هذه جديدة .. استحدثها المؤلف .. أو اخترعها علم النفس الحديث .. فهي صفات أشار اليها القدماء كما ورد في ثنايا هذا الكتاب .. وتحدث عنها كتاب " البلاغة الواضحة " الذى أشرت اليه من قبل .. ولكن فضل المؤلف هنا .. أنه عرضها في ايضاح وتفصيل ودقة وعناية وألقى عليها من الأضواء ما جعلها مشرقة جذابة .

واذا كان من طبيعة كل رأى جديد أو فكر حديث ينشر في كتاب أو مقال أن يتعرض للمعارضة والهجوم أو الموافقة والتأييد فان هذا هو ما حدث لكتاب " الأسلو[illegible]

فبينما يرى د . طبانة أن كتاب الاسلوب يعد مدرسة جديدة في تناول البلاغة العربية بما انبه اليه من مجالات الدراسة البلاغية . . يرى أستاذى الدكتور على العمارى أنه كتاب وصفى لا يغني ولا يفيد وليس فيه جديد .

رأى د . العمارى :

يرى الدكتور العمارى أن دعوة الشيخ أمين الخولى قد تحققت، فلقد أخرج الاستاذ أحمد الشايب كتابه " الاسلوب " وتكلم فيه عن كل المباحث التى دعا الشيخ أمين الى تناولها .

ويتساءل الدكتور العمارى فى بداية مقاله : (هل هذا الكتاب عمل تجديدى ؟) ثم يوضح أنه لا جديد فيه وأن الاستاذ الشايب قد عمد الى جهات ثلاث اختطف منها كتابه :

فهو أولا : ترسم خطى أرسطو فى خطابته ، فقد تحدث هذا عن الاسلوب ، وقيمته ووضوحه ، وصفاته الخاصة ، والشروط العامة للاسلوب ، وفتور الأسلوب ، وسلامته ، وشروط ذلك ، وشرح ثراء الأسلوب وبساطته ووسائط ذلك ، كما بين الاسلوب الكتابى ، والأسلوب الخطابى ، والاسلوب الشعرى والنثرى ، وتحدث عن اختلاف الاسلوب باختلاف الموضوعات وغير ذلك .

وثانيا : سطا على أبحاث المتقدمين من أمثال عبد القاهر ، والجاحظ ، وقدامة ، وابن رشيق ، والآمدى ، وصاحب المثل السائر ، والقلقشندى ، فاختطفها اختطافا . وحسبك أن ترجع الى ماكتبه

صاحب العمدة عن فنون الشعر، وما كتبه قدامة فى نعت الوصف ونعت الهجاء ونعت الرثاء ونعت المديح ونعت التشبيه ؛ ثم تقرأ كلام الاستاذ الشايب فسوف تعتقد أن المسألة كما يقولون " حذو القذة بالقذة ".

وأما عبد القاهر فقد كتب كتابا خاصا فى " النظم " الذى يسميه الاستاذ الشايب " الأسلوب " قال : للخفة والشيوع. والجاحظ كتب عن صحة المعانى وفسادها ومناسبتها للالفاظ.

وثالثا : أن الغربيين - كما يقول الشيخ أمين - يعنون فى البلاغة بدراسة الاسلوب .. ويقول غير مرة ان هذه الابحاث التى يدعو اليها - وهى قوام كتاب الاستاذ الشايب - مما عنى به الغربيون عناية تامة ويخص بالذكر كتاب الاسلوب الايطالى للباريني.

ولا نستبعد بل اننا لنوقن أن الاستاذ الشايب نظر طويلا فى البلاغة الغربية وأخذ عنها. واذن فهل لنا أن نقول كما قال بعض النقاد الظرفاء " لو قيل لكل معنى فى شعر حميد بن ثور ارجع الى صاحبك لما بقى فى يده شىء". وأعتقد أننا لو حذفنا منه هذه الابحاث لبقى الكتاب أبيض مغسولا على أنه فوق ذلك كتاب وصفى وعمل البلاغة انما هو وضع القوانين التى اذا ترسمها الاديب استطاع أن ينشىء.

وهذا الكتاب فى أكثر مباحثه أشد صلة بأدب اللغة منه بالبلاغة وان ذكر مؤلفه أنه وضعه فى البلاغة وقدم له بأبحاث فيها (١).

---

(١) راجع رأى الدكتور العمارى فى الرسالة/ العدد ٧٠٣ المقال السادس - علوم البلاغة فى الجامعة.

وليسمح لى الدكتور العمارى أن أعلق على نقده هذا لكتاب الأسلوب. فأنا معه فى أن هذا الكتاب خلاصة آراء عربية قديمة وغربية حديثة.. وأن مؤلفه جمع مواد الكتاب من هنا وهناك. ولكن أيقدح ذلك فى عمل المؤلف اذا كان غرضه من ذلك الوصول الى وضع منهج جديد لعلم البلاغة ؟

ان الكاتب كما يقول د. طه حسين (مهما يسرف فى حب الجديد والتهالك عليه فهو لن ينشئ من لا شئ ، وهو لن يستطيع أن يقطع الصلة بينه وبين القديم الذى غذاه وأنشأه.، فهو بطبيعة الحال يمثل الجديد الذى يصبو اليه ، ويمثل القديم الذى نشأ منه) (١)

(والعمل الفنى بحق كما يقول "اليوت" ماهو الا ذلك الذى ينتمى الى تراث الأمة الأدبى من ناحية، ولا ينتمى اليه من حيث هو عمل "جديد" يضيف على هذا التراث ويعدل فيه ويجد نظرتنا اليه) (٢).

وكنت أفضل لو أن فضيلة الدكتور العمارى ناقش المؤلف فى موضوع الكتاب وفى جدوى الخطة أو المنهج الجديد الذى وضعه للبلاغة.

على أن الدكتور العمارى قد أشار الى ذلك فعلا فى آخر مقاله - وان كانت اشارة مقتضبة - حيث قال : (على أنه فوق ذلك كتاب وصفى، وعمل البلاغة انما هو وضع القوانين التى اذا ترسمها الاديب استطاع أن

---

(١) حديث الأربعاء جـ٢ ص ١١٩ ط ١.

(٢) النقد الموضوعى : سمير سرحان ص ٤.

ينشيء . وهذا الكتاب فى أكثر مباحثه أشد صلة بأدب اللغة منه بالبلاغة، وان ذكر مؤلفه أنه وضعه فى البلاغة وقدم له بأبحاث فيها .) .

وهذا النقد هو ما أتفق فيه تماما مع الدكتور العمارى ، فبعد دراستى لكتاب (الاسلوب) خرجت منه بهذه النتيجة، وقد ذكرتها بالتفصيل أثناء عرضى للكتاب وفى تعليقى عليه .

والحقيقة أن الاستاذ الشايب لم يأت من عنده بجديد ، كما لم يتحدث فى صلب البلاغة ، ولكن الفصل الاخير من الكتاب فى " صفات الاسلوب " يستحق النظر والبحث فى وضعه موضع الدراسة البلاغية .

وعلى العموم فان كتاب (الأسلوب) كان محاولة طيبة من الاستاذ الشايب - رحمه الله - لتطوير البلاغة ، وهو وان لم يفد افادة جازمة فى الناحية البلاغية فانه قد أضاف - ولا شك - رصيدا طيبا الى الدراسات الادبية فى العصر الحديث . وكما يقولون : من أخطأ فله أجر ومن أصاب فله أجران .

رأى د . طبانة :

يرى الدكتور طبانة " أن كتاب الاسلوب يحتاج الى كتاب آخر يحقق ماننشده من التوضيح والسعة والشمول ، حتى يكون أصلا يعتمد فى الدراسات البلاغية الحديثة ويفتح مجالاتها على مصراعيها ، فان مظهر السعة فى كتاب " الاسلوب " الذى بين أيدينا هو ما حشد فيه من العنوانات الكبيرة، وتلك الابواب المتعددة ، والفصول الكثيرة التى تنتظمها تلك الابواب. أما الدراسة فلم تف بما يحقق هذه الغاية،

بل جاءت مقتضبة لم تتسع لها صفحات الكتاب القليلة نسبيا ، فى حين أن ما أثاره المؤلف من موضوعات يقتضى أن يكون كل فصل من الفصول بابا ، وأن يكون كل باب من أبوابه كتابا ، وحينئذ يكون هذا البحث الجديد فى البلاغة العربية الثمرة المشتهاة لتلك الجهود الكثيرة التى بذلها المؤلف ، والعقلية الكبيرة التى يتمتع بها .

على أن هذه الملاحظة لا تنفى أن كتاب " الأسلوب " يعد مدرسة جديدة فى تناول البلاغة العربية ، بما نبه اليه من مجالات الدراسة البلاغية وآفاقها الواسعة التى تسمح بالتجديد ، ولا تقف عند غاية معروفة لا تتعداها .

ويمكن أن ننظر الى هذا الكتاب على أنه منهج يرسم أصول البحث البلاغى ومياديـنه " (١) .

وأجدنى أقف متعجبا أمام رأى د . طبانة وأتساءل : أهو مدح أم ذم ؟! لقد كان الدكتور العمارى واضح الخطة فى رأيه ، وكان هجومه على الكتاب وتجريده من الأصالة والابتكار ، هجوما واضحا ، لا مواربة فيه ولا غموض ولا خفاء . أما د . طبانة فقد خلط المدح بالهجاء فهو يرى (أن كتاب الأسلوب يحتاج الى كتاب آخر يحقق ماننشده من التوضيح والسعة والشمول ، حتى يكون أصلا يعتمد فى الدراسات البلاغية الحديثة ، ويفتح مجالاتها على مصراعيها ، فان مظهر السعة فى كتاب الأسلوب هو ما حشد فيه من العنوانات الكبيرة وتلك الأبواب

---

(١) البيان العربى - ص ٣٠٨ ط ٥ دار العودة ببيروت .

المتعددة والفصول الكثيرة التى تنتظمها تلك الابواب. أما الدراسة فلم تف بما يحقق الغاية، بل جاءت مقتضبة لم تتسع لها صفحات الكتاب القليلة ...).

فقوله : ان كتاب الاسلوب يحتاج الى كتاب آخر ... الخ معناه بصراحة أن هذا الكتاب لم يفد ولم يحقق الغاية منه. وهو بذلك يتفق مع قول الدكتور العمارى : انه كتاب وصفى ، وعمل البلاغة انما هو وضع القوانين.

ويرى د. طبانة : أن صفحات الكتاب قليلة نسبيا، ومع ذلك حشدت فيه العنوانات الكبيرة والابواب المتعددة والفصول الكثيرة.

ومعنى ذلك - بصراحة أيضا - أن تخطيط الكتاب فاشل، وخطته قاصرة لم تؤت ثمارها ، ولذلك يقول د. طبانة عقب ذلك : (أما الدراسة فلم تف بما يحقق الغاية، بل جاءت مقتضبة لم تتسع لها صفحات الكتاب القليلة ...).

وكنا نقبل من د. طبانة هذا الكلام لو أن صفحات الكتاب عددها عشرون أو ثلاثون أو خمسون أو تسعون، ولكن عدد صفحات الكتاب يربو على المائتين.

ويرى د. طبانة أن (ما أثاره المؤلف من موضوعات يقتضى أن يكون كل فصل من الفصول بابا ، وكل باب من الأبواب كتابا ، وحينئذ يكون هذا البحث الجديد فى البلاغة العربية الثمرة المشتهاة لتلك الجهود الكثيرة التى بذلها المؤلف والعقلية الكبيرة التى يتمتع بها).

ولا ندرى ان كان د. طبانة بكلامه هذا يمدح أم يسخر، فان مؤلف كتاب الأسلوب " يتمتع بعقلية كبيرة" - هذا عظيم - ، " وبذل جهوداكثيرة " - وهذا أعظم - ومع ذلك لم يكن بحثه الجديد فى البلاغة هو الثمرة المشتهاة !! والعجيب أنه لن يكون كذلك، الا اذا صار كل فصل من فصول كتابه بابا ،وكل باب كتابا !! واذا عرفنا أن الكتاب يشتمل على خمسة أبواب فمعنى ذلك أن مافيه من معلومات وصفية يجب أن تتمطى بصلبها وتردف أعجازا وتنوء بكلكل لتصبح فى خمسة كتب ضخمة ، فان كتاب الأسلوب وهو مائتا صفحة يعتبر عند د. طبانة قليلا وضئيلا . فاذن يجب أن يكون كل كتاب من الكتب الخمسة ألف صفحة على الأقل كلها كتب وصفية على غرار " الأسلوب " . وحينئذ ، حينئذ فقط، يؤتى البحث ثماره ...!!!

واذا كان هذا البحث - كما يرى د. طبانة - لم يؤت ثماره لأن تخطيط الكتاب فاشل وخطته قاصرة ، فكيف اذن يقول بعد ذلك : (ان كتاب " الأسلوب " يعد مدرسة جديدة فى تناول البلاغة العربية ...) ، اذ كيف يكون الكتاب قاصرا لم يؤت ثماره ثم يعد مدرسة جديدة ؟!

وأخيرا نقول : ان كتاب " الأسلوب " كتاب قيم - رغم ماتعرض له من نقد - وهو جهد مشكور من الاستاذ الشايب - رحمه الله - ويكفى أنه أول كتاب حاول وضع منهج جديد متكامل للبلاغة العربية يجمع بين خلاصة القديم والجديد . وان كان لم يحقق كل مانصبو اليه . لكنه فتح الباب الى بلاغة عربية جديدة .

الفصل الثاني

((منهج الخولي))

في تجديد البلاغة

الشيخ أمين الخولى . . و . . التجديد

تتبعت حياة الشيخ أمين الخولى ونتاجه الفكرى . . وتعمقت فيما قـال وكتب . . فوجدتنى أمام شخصية عملاقة لا يملك من يعرفها الا أن يعجب بها وبما صدر عنها من آراء وأفكار . . خصوصا وأن آراءه وأفكاره كانت متجهة كلها الى التجديد . بل انى على كثرة ما قرأت عن المنادين بالتجديد فى علوم العربية عامة والبلاغة خاصة . . لم أجد فيهم من احرز قصب السبق غيره . فعلى حين نادى الجميع بالتجديد ودعوا اليه . . اقتصروا على تلك الدعوة . . ولم يتجاوزوها الى وضع منهج أو تقرير خطة لتحقيق ما يدعون اليه من تجديد . . اللهم الا قليلا مما سنبينه فى مكانه من هذا البحث .

أما الشيخ أمين فقد أمسك بالمقص وتجرأ -عن خبرة ودراية- فقص من القديم ما لا يصلح واستبعده . . وقص من الجديد مايصلح وضمه الى ما يصلح من القديم فى تفصيل دقيق جميل . وهو لا يفعل ذلك اعتباطا . . وانما يقنعك فى كل خطوة يخطوها بأن هذه جراحة مطلوبة واجراء ضرورى تقتضيه الحياة ويفرضه التطور . . ويبين لك وجهة نظره و مزايا كل خطوة يضعها فى المنهج الجديد . . فاذا بك تسير معه خطوة خطوة وتسلم فى النهاية بأن هذا أفضل تجديد ممكن فى الوقت الحاضر على الأقل . ولذلك لا أعتقد أننا نبالغ اونتسرع فى الحكم اذا قلنا : ان الشيخ أمين الخولى هو رائد التجديد البلاغى فى العصر الحديث .

لقد " كان - الخولى - صاحب رسالة . . وكانت رسالته دعوة حارة وصادقة الى التجديد والاصلاح . . كان ينشد تجديدا شاملا فى المظهر والمخبر . . كان يؤمن بالاصلاح ايمانا جازما . . ويريد به أن يستوعب مظاهر حياتنا على اختلافها ، فينصب على العادات والتقاليد ويشمل الانظمة والقوانين والفكر واللغة . نادى

باصلاح الاسرة ، وكتب فى اصلاح الازهر ، ورسم سبلا فى اصلاح النحو وتطوير اللغة ، وكان يمقت الجمود الزائف والتقليد الاعمى ، ويرى أن الدين متين ، وأن الشريعة سمحة ، وقد قبلا ويقبلان كل تجديد واصلاح لا يتعارض مع الاصول الكبرى والمبادىء المقررة . أما مجرد محاكاة الغرب ، والافتتان ببدعه ومستحدثاته فلم يكن أقل تحاملا على ذلك من حملته على السلبية الجامدة التى تؤدى الى الفناء . كان يهدف الى اصلاح من صميمنا ، ويربط حاضرنا بماضينا ، ويبقى على معالم الحضارة الاسلامية التى تعتمد على أصول تختلف كل الاختلاف عن الحضارة الغربية" . (١)

و" كان لأمين الخولى مدرسة رغم أنه لا يكتب الا قليلا . . كل من جلس بين يديه يتلقى العلم عليه ارتبط به ارتباط المسحور بالساحر مهما باعدت بينهما الأيام ، أو باعدت بينهما مناهج العلم وغايات الحياة . من عرفه لا يمكن أن ينساه . . وأنا عرفته وأجللته من أعمق الاعماق لا لعلمه وقوة عقله فحسب ولكن لأن شباب فكره أثبت لجيلنا أن القديم يمكن أن يتجدد بماء الحياة فيطاول أحدث الحديث" (٢)

و يقول الدكتور شكرى عياد : " كنا نخرج من دروس أستاذنا أمين الخولى ونحن نشعر أن عقولنا قد مخضت مخضا . . لقد تبخرت كثير من المسلمات الباهتة من أذهاننا كما يتبخر الضباب تحت شمس قوية وتبينا فجأة أن المنظر الذى كان يبدو لنا أنه الحقيقة ليس فى الواقع الا غلالة من نسيج واه ، وأن تحته حيوات كثيرة لم نكن نشعر بوجودها ولكنها تتنفس وتنمو وتضرب بجذورها فى الارض . كانت تثار

---

(١) مع أمين الخولى : د . ابراهيم مدكور - مجلة مجمع اللغة العربية جـ ٢٢ ص : ٢٣٩ - ٢٤١ .

(٢) ملحق الاهرام - الجمعة ١١/٣/١٩٦٦م . د . لويس عوض .

أسئلة فتوضع مشكلات فتقترح حلول ، والعقل الذى ألهب عقولنا بشوق المعرفة يسير معنا أو يسير خلفنا ، كالقائد فى ساقة الجيش ، لأن الاستاذ لم يكن يؤمن بأن المعرفة تلقين ، بل كان يؤمن بأنها اكتساب . بل قل انه كان يؤمن بأن المعرفة حرية ، عمل انسانى مجيد لا تكتمل الكرامة الانسانية ولا يصح المجتمع الانسانى بدون السعى اليه . ولهذا كان درسه أكثر من ساعة علم ، كان تجربة عقلية . وربما تحمس فى المناقشة حتى ليوشك أن يحتد . فقد كان مع أناة رأيه وصرامة منطقه ينفعل بالفكرة انفعال المؤمن برسالته . وكان منا - أول الأمر - من تنفرهم هذه الحدة ، ولكننا لا نلبث أن نتبين أن استاذنا يتقبل مناقشاتنا بل يدعونا اليها ، ولا يطالبنا الا بوضوح التفكير واستقامة المنطق . و نتخرج ونعد رسائلنا الجامعية فيكون من تلاميذه من يخالفونه أشد المخالفة فى رأى من الآراء ، وقد يتحمسون مثل تحمسه ويظل مابين الاستاذ وتلاميذه - مع ذلك - ودا كله ، واحتراما كله" . (١)

والواقع أن الشيخ أمين الخولى كان من فئة العلماء المجتهدين المصلحين الذين يتفحصون العلوم بدقة ويسعون فى اصلاحها - اذا كانت تحتاج الى اصلاح - وقد رأى أن علوم العربية وخاصة البلاغة فى حاجة ماسة الى التجديد والتطوير فلم يأل جهدا فى ذلك ووضع مناهج متطورة للنحو والبلاغة والتفسير والادب فى كتابه " مناهج تجديد " ثم أخذ منهاج البلاغة خاصة وركز عليه وزاد فيه وعدل منه وضمن ذلك المنهج البلاغى الجديد كتابه " فن القول" .

وقد لقى الخولى من مجابهة المحافظين هجوما واستنكارا شديدين ولكنه لم يتوقف وظل ينادى بآرائه وأفكاره التجديدية .

---

(١) مناهج تجديد ص ٧ .

يقول الاستاذ زكى المهندس نائب رئيس المجمع اللغوى بالقاهرة :

" من قديم قسم العلماء الى طائفتين اثنتين . طائفة تأخذ العلم وتعطيه كما أخذته لا تستطيع أن تغير فيه أو تبدل منه . مثل هؤلاء العلماء يتناولون العلم ولا سيما العلم القديم الموروث فى شيء كثير من القداسة ويقبلون كل ما فيه فى اذعان تام وتسليم مطلق . مثل هؤلاء العلماء هم الذين نصفهم أحيانا بأنهم نسخ أخرى من الكتب التى بين أيدينا ، ونشبههم أحيانا أخرى بموسوعات حية متحركة ، أو بآلات تسجيل تسجل كل مايلقى اليها لا تزيد فيه حرفا ولا تنقص منه حرفا . لو اقتصر العلم على مثل هؤلاء العلماء لنضبت الحياة الفكرية ، وتصلبت شرايين العلم ، ووقف دولاب الحضارة ، ورجع العالم القهقرى آلافا من السنين .

غير أنه من حسن حظ العلم والفكر والحضارة أن هناك طائفة أخرى من العلماء أشبه ما تكون بالنحل يقع على مختلف الزهور يمتص رحيقها ثم يخرجه للناس عسلا شهيا . مثل هؤلاء العلماء يتناولون العلم قديمه وحديثه بالبحث والنقد والتحليل فيأخذون منه الصحيح ويردون الفاسد ويصححون الخاطىء ، ثم يخرجونه للناس علما جديدا يرضى العقول والقلوب .

ولقد كان فقيدنا طيب اللهثراه من بين هؤلاء العلماء .. بل كان منهم فى الصدارة . ان مؤلفاته الكثيرة المبسوطة بين أيدينا ، وان محاضراته فى كلية الآداب ، وان بحوثه فى مجلة الأدب ، وان مذكراته فى لجنة الاصول فى المجمع .. كل أولئك يشهد بأن أمين الخولى كان عالما مجددا مبدعا خلاقا .. كان يرى أن باب الاجتهاد فى اللغة والأدب والدين مفتوح على مصراعيه على شرط أن يكون المجتهد مؤهلا لذلك .. كان يعنى بالقديم عناية فائقة ولكنه لم يقف به عند الاطلال البالية والرسوم الدارسة بل استطاع أن ينتزع منها مادة بنى بها قصورا بل وناطحات سحاب " . (١)

(١) مجلة مجمع اللغة العربية جـ ٢٢ ص ٣٣٠ .

الأستاذ الخولى يتحدث عن نفسه :

صور الاستاذ الخولى الفترة الهامة من حياته والتى بدأ فيها صراعه مع التجديد فقال : " دخلت كلية الآداب أواخر عام ١٩٢٨م ، والجو كله منتعش ومنعش ، يهفو الى الجديد ، ويشعر بثقل الوقوف الجامد لدراسة العربية وعلومها منذ المئات من السنين ، وقد قامت المعركة الكبرى بين المتشبثين بهذه الحياة ، يحاولون بثها فى تلك الدراسات وكتبها ورجالها ، وبين المتوقفين فى ذلك كله ، المناضلين دون أيسره ..

بدأت المعركة فى الجامعة ، بل فى كلية الآداب دون غيرها ، وتطاير شررها ، وانتشرت شظاياها على المعاهد التى تدرس اللغة ، كدار العلوم ، والقضاء الشرعى .

كنت اثر عودتى من أوروبا قد عدت الى مكانى فى مدرسة القضاء ، أدرّس فى تخصصها وقسمها الجديد - الذى أرادوا به اعادتها بعد الغاء - مواد من الثقافة الاسلامية ، فاذا هذا الشرر وتلك الشظايا ، تفزع القائمين بتدريس العربية وآدابها ، وتنفرهم عن مكانهم ، وتلزمنى أن أنقل الى تلاميذ مدرسة القضاء الجديدة ، أنباء هذا التجديد الادبى ، الذى دوت معركته فى الآفاق واشتركت فيها دور القضاء .

وكنت - كما تقضى الحياة - متصلا بأنباء هذه المعركة وأنا فى أوربا ، حيث تفيض الدنيا جدة وتوثبا ، لكنى كنت أقف منها موقف غير المحارب ، الذى لا يكره انتصار المهاجمين فيها ، ولا ييتئس بهزيمة المعاندين المدافعين ، دون أن تذرو ريح الهزيمة المثل القديمة ، ولا تنسف هياكل آثارها ، لأن فى هذا القديم أصلا من حياة ، لقى بها الدنيا يوم جاءها ، وقبل أن تشله عوادى الزمن ، فهو صالح

المتابعة النماء ، من حيث عوقته عوامل الجمود ..

وذ هبت بهذا الشعور ، أحدث تلاميذى فى مدرسة القضاء عن التجديد الأدبى حديث المؤمن به ، الذى يراه ناموس الوجود ، كما يرى أن فى القديـــم ما لا يزال صالحا للتقوى به ، والبناء عليه .

ثم شاءت الأقدار أن أدع مدرسة القضاء الى كلية الآداب بجامعة فـؤاد ، لأمضى فى هذا الدرس الأدبى ، فدخلت ميدان التجديد الاول ، على خبرة به ، ورأى ثابت عنه ، وخطة بينة فيه ، أدرت عليها عملى فى درس البلاغة وسواهـــا .

وكان طلبة الحقوق ـ اذ ذاك ـ يتلقون دراسة فى كلية الآداب ، يراضـون فيها على القدرة الكلامية فى عملهم بالقضاء والمحاماة ، ويمرنون على الخطابة ، وجو هذه الدراسة وهدفها ، يقضيان باتخاذ طريقة عملية ، ذات أثر ايجابـــى قريب ، بعيدة كل البعد عن المحاولات النظرية ، فكان هذا أول ما ألزمنى الخروج عن المألوف فى درس البلاغة ، ومنعنى الاعتماد على كتبها .

ثم كانت الدراسة لطلبة قسم اللغة العربية ، فى هذا الجو المتجدد ، الذى أشرت اليه ، وبعد معاناة لهذا الاتجاه العملى ، فكانت ثانية ما ألزمنى الخروج عن المألوف فى درس البلاغة ، ومنعنى الاعتماد على كتبها ، وكان الخروج على هدى من تلك الخطة التى وصفت آنفا" . (١)

---

(١) ص ٧ و ٨ و ٩ فن القول ـ بتصرف .

الشيخ امين بين القديم والجديد :

كان التجديد والتفكير فى التجديد هوالشغل الشاغل للشيخ امين الخولى وكان عمله بالجامعة فى كلية الآداب قسم اللغة العربية مجالا فسيحا للدراسة والبحث والتجديد .. وكان حماسه للقديم وللتراث لا يقل عن حماسه للتجديد والتطوير مما كان يسبب الحيرة والتعجب أحيانا لمن لا يعرفه .

يقول د .شكرى عياد : " وكان أشد مايحيرنا أول ما بدأنانختلف الى دروس الاستاذ هو ذلك السؤال الذى كنا نردده بيننا وبين أنفسنا : من أى الفريقين هو أمحافظ أم مجدد ؟ ذلك أنه كان يبدو لنا أحيانا محافظا صلبا ، فى محافظته ، وأحيانا أخرى مجددا متطرفافى تجديده . كان يعلمنا " أن أول التجديد قتل القديم فهما" ، فنفهم من ذلك أنه يحتز بالتراث القديم ويتهم المجددين بالمسارعة الى نبذه على غير بصيرة .

ثم كنا نسمعه يتحدثعن مطالب الحياة المتجددة وارتباط اللغة بالحياة ، ومكان الفن القولى من الحياة ومن اللغة ، ويرتب النتائج على المقدمات حتى يصل الى آراء تحسبه لأجلها من غلاة المجددين ، بل من الثائرين ، ثم لم نزل حتى فهمنا أن التجديد والمحافظة يلتقيان فى مزاج الاستاذ وتفكيره ويتلازمان[1] .

والواقع أن محاولة التوفيق بين تراث الماضى وثقافة الحاضر من أهم القضايا التى تواجهنا فى حياتنا الفكرية والثقافية " فمن الماضى تتكون الشخصية الفريدة التى تتميز بها أمة من أمة ، ومن الحاضر تستمد عناصر البقاء والدوام فى معترك الحياة ، فالأمة العربية بما قد ورثته عن الاسلاف من عوامل ، أهمها اللغة والعقيدة

---

(١) مناهج تجديد ص ٨ .

ومواضعات العرف ، استطاعت الصمود في دوامات هذا العصر الجارفة العنيفة بمقدار ما استطاعت أن تساير حضارة العصر في وسائله وتصوراته ، وانها لتقع بين ماضيها وحاضرها في مأزق حرج ، فاذا هي اقتصرت من جهة على فكر الماضي وطرائق عيشه ووجهة نظره جرفها الحاضر في تياره لأن له من الوسائل المادية مالا قبل لها بدفعه وإذا هي اقتصرت من جهة أخرى على الحاضر وعلمه وفنه وسائر معالمه ضاعت ملامح شخصيتها وانطمست فرديتها ولم يعد لها وجود الا كما يكون لقطرة الماء في البحر المتجانس وجود متميز خاص . فهل من سبيل الى التقاء الطرفين في ركب واحد يزيل مابينهما من تباين وتضاد ، ويوءلف بينهما في نسيج ثقافي متسق منسجم يكون هو ما نطلق عليه اسم : الثقافة العربية المعاصرة ؟ (١)

هذا هو ما حاول الشيخ امين الخولي أن يفعله فقد نظر في كل من القديم والجديد نظرات متأملة متأنية يختار من كل منهما أفضله وأصلحه وينسق بينهما بخبرة وذكاء . . وقد واتته الظروف المناسبة حين اشتغل بتدريس البلاغة في كلية الآداب فأعمل " ذهنه الاصولى وذوقه الادبى في نصوص الادب . وذهنه الاصولى مجتهد يأنف من التقليد ، وذوقه الادبى حر يستند الى ممارسة فنية جريئة بالنسبة لعصره ، ومن هنا ينكر الاستاذ خضوع البلاغة العربية القديمة لمناهج التحليل المنطقية والكلامية ويعمل على أن يوءصل لها أصولا جديدة تجعلها فن القول الذى يقوم الى جانب الفنون الأخرى من سمعية وبصرية . وتدعوه " واقعيته المثالية " و " تجديده المحافظ " الى نفض التراث البلاغى القديم ليميز ما يصلح منه لهذا العصر ومطالبه من الفن القولى ، فيتبين آثار " مدرسة أدبية " تقرب من مفهومنا لوظيفة البلاغة ، فيوجه العناية الى آثار هذه المدرسة للانتفاع بصالح ماتركت في بناء صرح البلاغة الجديدة " . (٢)

---

(١) من مقدمة وجهة نظر / د . زكى نجيب محمود .

(٢) مناهج تجديد ص ٩ .

أجل لقد استطاع الخولى أن يهضم القديم ويقدمه فى صورة جديدة تتفق ومتطلبات العصر وتواكب ركب التقدم العلمى . ولا بأس أنه استعان فى ذلك بدراسة الجديد واختيار مايصلح منه لتجديد القديم . وفى ذلك يقول الخولى : " طفقت أتعرف معالم الدراسة الفنية الحديثة بعامة ، والادبى منها بخاصة ، وأرجع الى كل مايجدى فى ذلك من عمل الغربيين وكتبهم ، وأوازن بينه وبين صنيع اسلافنا وأبناء عصرنا فى هذا كله . وكانت نظرتى الى القديم - تلك النظرة غير اليائسة - دافعة الى التأمل الناقد فيه ، والى العناية بتاريخ هذه البلاغة ، أسائله عن خطوات سيرها ، ومنعرجات طريقها ، أستعين بذلك على تبين عقدها ، وتفهم مشكلاتها ، ومعرفة أوجه الحاجة الى الاصلاح فيها .. وبذلك كانت الطريقة التاريخية ، مع الاستفادة بالحديث ، منهج درسى للبلاغة فى الجامعة وجعلت أقف الوقفة المتأنية عند الجانب من جوانب حياتها ، أتولاه ببحث مفرد ينشر ، أو بدرس طويل ، وان لم يخرج عنه شئ مكتوب . فأخرجت رسائل مفردة : عن " البلاغة والفلسفة " سنة ١٩٣١ ، وعن " مصر فى تاريخ البلاغة " سنة ١٩٣٤ ، وعن " البلاغة وعلم النفس " سنة ١٩٣٩ . كما كتبت مادة (بلاغة) كتابة مستقلة فى الترجمة العربية لدائرة المعارف الاسلامية سنة ١٩٣٨ فوضعت المعالم الكبرى لما انتهيت اليه من الرأى فى التغيير .

مضيت فى هذا الدرس المتأنى أمس مسائل البلاغة مسّا رفيقا جريئا معا ، أقابل فيه القديم بالجديد ، فأنقد القديم وأنفى غثه ، و أضم سمينه الى صالح الجديد وتلك خطة لا تدوم فى دراسة جامعية أساسها التجدد ، وحياتها فى نماء متصل ولذا قاربت أن أفرغ من النظر فى القديم ، بعد ما ضممت خياره الى الجديد ، فألفت منهما نسقا كاملا ، يرجى أن يكون دستور البلاغة فى درسها " . (١)

---

(١) فن القول / ص ٩ و ١٠ .

اذن فان التجديد عند الخولى ينطلق من القديم ويرتكز عليه . وهـذه هى الأصالة فى التجديد . فالقديم تراث عزيز لا يجوز أبدا أن نهمله أو نستهين به مهما تقدمت الأيام وتغيرت الحياة .. ولذلك دعا الخولى الى حماية التـراث ورأى أن على الدولة واجبا مقدسا وهو اصدار تشريعات لحماية هذا التراث ، والانتفاع به ، واقترح أن تصدر الدولة هذه التشريعات :.

أولا : تشريع يوجب التبليغ عما فى حوزة الافراد أوالهيئات غير الحكومية من تلـك المخطوطات فى دقة تضمن عدم بقاء شئ من ذلك مجهولا للدوائر العلمية .

ثانيا : تشريع يعطى الدولة حق تصوير النادر من هذا التراث ليمكن الدارسـون الاستفادة به وليصان من الفقدان والضياع .

ثالثا : تشريع يمكن الدولة من الاستيلاء على النادر النفيس من المخطوطات مـع تعويض أصحابها لتكون مادة للتاريخ والاستفادة العلمية معا .

رابعا : تشريع يمنع خروج هذه المخطوطات من مصر ويعد اخراجها تهريبا ويدبر لمقاومته . (١)

ومن هذا نجد الشيخ الخولى أصيلا فى تجديده خبيرا فى ميدانه ،غير دخيل ولا متطفل ،فهو دارس لعلوم العربية والدين متعمق فى درسها .. وهو أيضا مطلع على جديد البلاغة والأدب فى الغرب .. فكأنما توفرت له بذلك شروط الاجتهاد فى مجال التجديد .

" وليس يستبين المجدد طريقه ،ولا يدرى من أين يبدأ جهاده الا اذا استجلى تاريخ ما يعانى تنميته ،وعرف كيف ومن أين بدأت حياته ؟ ولم وقف بـه الجمود ؟ فاذا ما تبين المجدد طريق غده بتجارب أمسه ،عرف ما يدع وما يأخذ ،

---

(١) تشريعات ينبغى أن تصدر / مجلة الأدب عدد مارس سنة ١٩٥٦ .

وان ذاك ينفى ويثبت عن بصيرة ، ويبتر مظاهر الجمود فى هدى وثقة ، كالطبيب كشفت له الأشعة عن دبيب العلة" . (١)

والأستاذ الخولى بوصفه باحثا فى الأدب العربى عامة والبلاغة خاصة كتب محاضرات قيمة فى تاريخ البلاغة بدأ القاءها فى كلية الآداب جامعة القاهرة سنة ١٩٣٠ ولم ينشر منها شىء حتى صدرت الطبعة الاولى من كتاب (مناهج تجديد فى النحو والبلاغة والتفسير والأدب) فى سبتمبر سنة ١٩٦١ حيث جمع الدكتور شكرى محمد عياد هذه المحاضرات وأصدرها فى هذا الكتاب. وقد استغرقت محاضرات الخولى عن البلاغة فى هذا الكتاب من صفحة ٨٧ الى صفحة ٢٦٨ واشتملت على البحوث الآتية :

١ - من تاريخ البلاغة بين يدى تجديدها .

٢ - البلاغة وأثر الفلسفة فيها .

٣ - البلاغة وعلم النفس .

٤ - مصر فى تاريخ البلاغة .

٥ - البلاغة بصورة عامة .

وهى بحوث قيمة ومفيدة لدارسى البلاغة عامة ، ولمن يطمحون الى تجديدها خاصة .

ولكن الاستاذ الخولى أصدر بنفسه سنة ١٩٤٧-١٣٦٦ هـ كتابه " فن القول" . وهو خاص بالبلاغة وتجديدها .

---

(١) البلاغة العربية وأثر الفلسفة فيها ص ١ .

الغرض من تجديد البلاغـــــة :

في كتاب " مناهج تجديد " يتحدث الخولى عن التجديد في مجال الادب ويقرر أن التجديد الأدبى يرمى الى غرضين : قريب وبعيد .

فالغرض القريب : هو تسهيل دراسة المواد الأدبية ، وتقليل مايبذل فيها من جهد ووقت ، مع تحقيق المطلوب من دراستها تحقيقا عمليا . بحيث يمكن كل دارس لها أن يظفر فى وقت مناسب ، وبجهد محتمل ، بما يستطيع معه استعمال اللغة فى حياته ، ذلك الاستعمال الذى تطلب من أجله اللغات .

وهذا الغرض يحققه : المنهج الصالح ، والكتاب المنظم ، والمعلم الكفء .

وأما الغرض البعيد : من التجديد فى علوم الأدب : فهو أن تكون هـــذه الدراسات الأدبية مادة من مواد النهوض الاجتماعى ، تتصل بمشاعـــر الأمـــة ، وترضى كرامتها الشخصية ، وتساير حاجتها الفنية المتجددة ....
ولا يتحقق هذا الغرض الا بتغيير قد يمس - أولا بد أن يمس - الأصول أو الأســس البعيدة ، ويدخر له العزم والجد ، حتى تصير اللغة ناحية من كيان الأمة وجانبا من وجودها العملى .

وهذا المطلب شاق غير يسير فى جوانب مختلفة من العلوم العربية ، الا انه أقل مشقة فى البلاغة ودرسها ، لمرونة فى فطرتها ، وقابلية فى منهجهـــا ، الذى يعتمد على الذوق والوجدان ، ويصل أبحاثها بالفن والجمال ، مهما تخف ذلك اتجاهات ضالة ، وأعمال خاطئة ، ثم الى هذا كله أمر آخر يضيق الخلــف ، ويقلل المشادة بين الواقفين والسائرين ، هو أن الاقدميين أنفسهم قد صرحـــوا : أن البلاغة من العلوم التى لم تنضج دراستها .

واذا كان الأمر كذلك ، فانى أرى أن نعمد رأسا الى تحقيق الفـــرض البعيد فى تجديد البلاغة العربية ، تجديدا يمس الأصول والأسس فيغيرها ، وينفى فيها ويثبت ، ويخالف مقررات كبرى - وبخاصة فى البلاغة المتفلسفة - ويضيف اضافات جديدة حتى نصل البلاغة بالحياة ، ونمكنها من التأثير الصالح فيها ، واذا تم ذلك كان تسهيل الدرس أمرا هينا يسير التحقيق ، فلنا اذ ذاك أن نؤلف من الكتب ما نشاء ، ونعرض الموضوعات ، ونتناول المسائل كما نشاء ، بعد مـا استطعنا التحكم فى الأصول الكبرى ...

على أنى حينما أحاول ذلك أنتفع أولا بكل ما يستطاع الانتفاع به مـــن القديم ، وأتجنب الاندفاع المضيع للجهد والوقت ، والمفرق للقوى فى غير ضرورة (١) .

مايستجيب له التراث القديم من التغيير والتجديد :

وبناء على الغرضين السابقين - القريب والبعيد - يرى الخولى أن التراث القديم يمكن أن يستجيب للتغيير والتجديد فى نطاق ما يأتى :

١) من حيث وصل البلاغة بالحياة الأدبية ، وجعلها دراسة ذات جدوى عملية ، يكفى أن نأخذ برأى القدماء حينما كان أبوهلال العسكرى يقول : ان صاحب العربية يستطيع بعلم البلاغة أن يفرق بين كلام جيد وآخـــر ردئ ، ولفظ حسن وآخر قبيح ، كما يستطيع أن يصنع قصيدة وينشئ رسالة وبهذا تحكم حاجة الحياة الأدبية ، وينتفع بكل ما يجد فى تلك الحياة من نافع ، ونخدم الفنون القولية الرائجة .

٢) من حيث اخضاع البلاغة للمنهج الأدبى الفنى فى الدراسة ، يكفى أن نحيى

---

(١) مناهج تجديد ص ٢٦٤ و ٢٦٥ . وانظر ايضا فن القول ص ١٨ - ٢٠ .

منهج بحث رسوم المدرسة الأدبية الاولى ، وآثارها وكتبها ، وبهذا نحتكم الى كل ما فى دراسة الفنون من أساليب مجربة ومناهج مستحدثة ونهمل بتاتا تلك الدراسة الفلسفية المستعجمة . وفيماينبغى من تغيير وراء ذلك ننتفع بما قرروا من عدم نضج البلاغة لنقرر ما يلى :

٣) قد وضع العلماء هذه البلاغة فى قسم المركبات من العلوم الادبية وقصروها على دراسة الجملة وأجزائها فحسب ، لا نرى من أبحاثها شيئا يزيد على ذلك . وقدموا مقدمة عامة للفصاحة والبلاغة ذكروا فيها شيئا عن فصاحة الكلمة المفردة ، والعمل الادبى فى الجملة وجزئها لا غير ، فتلك لا تعطى الا معنى أدبيا جزئيا ، ووراء ذلك الفقرة المنثورة ، والقطعة المنظومة ، تأتلف من جمل عدة ومعان جزئية مختلفة ، ثم وراء ذلك كله العمل الأدبى الكامل ، قصيدة أو مقالة أو رسالة أو خطبة ، يحتاج ذلك كله الى النظر البلاغى .

وعلى هذا نبدأ البحث البلاغى المستوفى من اللفظة المفردة ، ولا نحده بالجملة ، بل نمده الى الفقرة والعمل الفنى الكامل ، فنبحث فيها الأسلوب واختلافه ، وأوجه تفاوته ، ومزايا أنواعه المختلفة ، وننظر النظرة الشاملة الجامعة فى الأثر الادبى كله .

٤) قصر القدماء البحث البلاغى على الألفاظ من حيث أداؤها للمعانى الجزئية بالجملة الواحدة أو الجمل المتصلة فى معنى واحد ، ولم يجاوزوا ذلك .

فعلم المعانى : تعرف به أحوال اللفظ العربى من حيث مطابقته لمقتضى الحال .

وعلم البيان : يعرف به ايراد المعنى الواحد بتراكيب مختلفة . والمعنى

هو تشبيه أو مجاز أو استعارة أو كناية لا غير .. أما المعانى الأدبية والاغراض الفنية التى هى روح الفن القولى ومظهر عظمة الأديب وأثر ثقافته وشخصيته فلم ينظروا فيها . ولا بد أن نفرد المعانى بالبحث المستقل بعد بحث الألفاظ مفردة وجملا وفقرا ..

٥) وإذا اتسع البحث البلاغى فشمل مع الألفاظ المعانى جزئية وكلية ، وشمل مع الجملة اللفظة المفردة ، ثم جاوزهما الى الفقر والقطع الأدبية والاساليب فقد صار التقسيم القديم للبلاغة الى المعانى والبيان والبديع لا أساس له ولا غناء فيه ، ولزم أن يوضع التقسيم على أساس غير الاول ؛ كأن تقتصر على كلمة "البلاغة" وصفا لجمال الكلمة والكلام ، ونوفر كلمة الفصاحة ، ونقسم الدرس الى بلاغة الألفاظ ، وبلاغة المعانى .

وفى بلاغة الالفاظ نبحث عنها من حيث ان تلك الالفاظ أصوات ذات جرس ، ثم من حيث هى دوال على المعانى مفهمة لها ، ونبحث ذلك فى المفرد ، والجملة ، والفقرة ، والقطعة . ونقسم المعانى بما يناسبها حتى ننتهى الى دراسة فنون القول الأدبى المنظوم والمنثور فنا فنا ، وما به قوام كل فن وحسنه ، متخطين الفنون القديمة من المقامة والرسالة والخطبة الى الفنون الحديثة من المقالة والقصة على اختلاف أنواعها .

وحين نستبعد ما حشدته طريقة العجم وأهل الفلسفة فى البلاغة من مقدمات منطقية واستطرادات فلسفية مختلفة ، نضم الى البلاغة مقدمات جديدة لا بد منها لدراسة فنية تقوم على الاحساس بالجمال والتعبير عنه ، دراسة تتصل بالحياة ، وتحدث عن خلجات النفوس ، وأسرار القلوب ، وتسعد آمال الجماعة وأمانيها ، كما هو شأن الفن الصحيح فى الحياة الجادة .

وبذلك :

٦) نضم الى البلاغة مقدمة فنية ، نعرف الدارس فيها بمعنى " الفن" وطبيعته ونشأته ، وغايته ، وأقسامه ، متحرين فى ذلك بيان الفن القولى بخاصة .

ثم :

٧) نضم الى تلك البلاغة مقدمة نفسية لا بد منها مادام شأن الفن الأدبى ما أسلفنا ، وما دمنا نريد وصل الفن بالحياة ، فنعرف الدارس بالقوى الانسانية ذات الأثر فى حياته الأدبية ، والوجدان ، والذوق ، والخيال ، ونزيد فهمه للاعتبارات التى أجملها القدماء تحت كلمة " مقتضى الحال" وذكروا منها فى أسباب الحذف والذكر والتقديم والتأخير اعتبارات نفسية محضة . كما تلم المقدمة النفسية بدراسة أمهات العواطف الانسانية التى هى مادة المعانى الأدبية ، ومثار الفنون القولية نثرا وشعرا ، وهى فى الجملة دنيا الأدب والفنون جميعا .

وأخيرا يقرر الخولى أن تلك هى معالم التجديد البلاغى فى اجمال ، وأنه اذا أفسح الله له فى الأجل سيكمل كتاب" فن القول" مثلا مبتدأ للدراسة البلاغية على تلك الاصول . (١)

---

(١) مناهج تجديد : ص ٢٦٤ - ٢٦٨ .

الشيخ امين الخولى و .. فن القول :

فى كتاب " فن القول " وضع الشيخ امين الخولى عصارة خبرته وتجاربه فى مجال البلاغة ، وأوضح معالم التجديد التى توصل اليها ، واقترح المنهج والخطة التى يجب أن تتبع لنصل الى بلاغة جديدة تواكب العصر وتساير النهضة .

ونحن اذ نركز على هذا الكتاب ونضعه على بساط البحث فانما يرجع ذلك لما لمسناه من أهمية هذا الكتاب وجدية ما ورد فيه .. فهو " توجيه منهجى شامل يستطيع أن يخلق فى البيئة الأدبية - لو أن فيها خصوبة - مدرسة بلاغية ، ويستطيع أن يمنحها المعرفة ، بعد أن يمنحها عافية الفكر والضمير ، ويجعلها قادرة على فهم الدور الخطير الذى تلعبه اللغة ، ويلعبه الفن على مسرح الحركات التقدمية والنهضات الجماعية " . (١)

لقد توصل أمين الخولى الى أن " البلاغة ليست كما قال القدماء ، وليست احترازا عن الخطأ ، ولا تجنبا للتعقيد المعنوى ، ولا ادراكا لوجوه التحسين ، وانما هى : مادة من مواد النهوض الاجتماعى ، تتصل بمشاعر الأمة ، وترضى كرامتها الشخصية ، وتساير حاجتها الفنية المتجددة " . (٢) . و " ان البلاغة أداة فعالة فى نهضة الخلق والسياسة ، وفى خلق الاحساس بالكرامة والقومية ، وفى رفع المدارك الى مستويات الحق والخير والجمال " . (٣)

هذا بعض ما ورد فى " فن القول " عن البلاغة وهو كلام جديد جدير

---

(١) فن القول ص ٢٥ .

(٢) فن القول ص ٢٧ .

(٣) فن القول ص ٢٨ .

بالنظر والتأمل . وأول مايلفت نظرنا فى كتاب " فن القول " أن النصف الاول من الكتاب بل أكثر من النصف عبارة عن تمهيد للدخول الى المنهج البلاغى المقترح . وقد يتبادر الى الذهن أن تمهيدا يستغرق أكثر من نصف الكتاب ، وأكثر من مائة صفحة هو ضرب من الاطالة والتفريط . وأنا أقول : هو كذلك فى الاحوال العادية ، ولكنه فى هذا الكتاب كان ضرورة ملحة ، لأن هذا التمهيد هو مقدمات أساسية لدراسة المناهج القديمة والحديثة وعوامل التأثير فيها ، بحيث يصبح القارئ على دراية تامة بظروف تكوين كل منهج ، وكيف أن منهج أى علم انما يأتى صدى لظروف الحياة الاجتماعية ، فهو يفرض نفسه فرضا ، وتقتضيه الحياة الاجتماعية والبيئة العلمية اقتضاء . وكأن الشيخ امين يفترض فينا - نحن المتلقين عنه - أننا نحن الذين سنضع هذا المنهج الجديد للبلاغة أو على الأقل نشاركه فى وضعه . خاصة وأنه كان يلقى هذه المحاضرات على طلاب معهد الدراسات العليا الذين هم فى الأصل نخبة من مدرسى اللغة العربية بالمدارس الثانوية .

الخطــة اجمالا وتفصيــلا

أما الخطة اجمالا فقد رأى أنها تتلخص فيما يأتى :

أ ـ المادة : منهجها ، ومباحثها .

ب ـ المعلم : تفقهه فيها ، وزيادة علمه بها .

جـ ـ العرض : عرضها للناشئين عرضا يكسبهم المقدرة الكاملة فيها .

د ـ الكتاب : الذى يتحقق به هذا العرض المكسب لهذه المقدرة .

تلك هى الخطة اجمالا . . وذلك الاجمال يحتاج الى التفصيل الآتى :

أولا : فى المادة ومباحثها :

نصف تصور القدماء لها ، وتنظيمهم لمسائلها ، و منهج دراستهم لها ، وأسلوب بحثهم لقضاياها ، وغايتهم المرجوة من درسها فى رأيهم . مستعينين فى ذلك بنظرة تاريخية تمكننا من القول الدقيق فى هذه النواحى الأربع :

١) صورة المادة .

٢) مدى أبحاثهم فيها .

٣) منهجهم فى بحثها .

٤) غايتهم من درسها .

وبعد بيان هذه النواحى ، نعرضها للنقد واحدة واحدة ، مستضيئين فى ذلك بما عرفت الدنيا بعد عهدهم ، وما تطلبته حاجة الحيــاة ومرافق النهوض ، لنرى هل تحقق المادة بصورتها المعروفة لهم ، وفى دائرة بحثها التى حددوها بها ، وعلى المنهج الذى التزموه فى درسها والغاية التى رجوها منها . . . هل يتحقق بذلك كله ما يرجى اليوم من هذه الدراسة ، ويفى بطلبة الأمة ؟ .

وعلى هدى من هذه الدراسة نستطيع أن ننتهى الى رأى فى تقدير قيمتها ، وفيما نزيد أو ننقص منها ، والصورة الأخيرة التى نرى أن تكــون عليها . (١)

---

(١) فن القول ص ٢١ بتصرف .

والواقع أن دراسة المادة - مادة البلاغة - ومباحثها أهم المسائل الأربعة التي وردت في اجمال الخطة، ولعله لهذا السبب سيعود بعد الحديث عن المسائل الثلاثة الباقية الى تناولها بشرح أكبر وتفصيل أدق حيث يتحدث عن : صورة مادة البلاغة عند القدماء والمحدثين، ثم أبحاثهم فيهما، ثم منهجهم في بحثها، ثم غايتهم منها .

ثانيا : المعلم : تفقهه في المادة، وزيادة علمه بها :

يرى الاستاذ الخولي أن المعلم يجب أن يتمكن من مادته، ويطلع على كل جديد فيها، كما يجب أن يراض على العمل التطبيقي في مسائل يدرسها في وضعها الاول ويمرن على تصويرها الجديد مع ارشاده الى المصادر المسعفة . ولا يبقى في سبيل تفقه المعلم في المادة الا رغبته الصادقة في الاستزادة، وهبه النفسي لهذا التفقه، وقد هيئت له سبله، ويسرت وسائله، وجرب كسبه الشخصي فيها . وكل ما بعد ذلك فهو عمله المستقل، وجهده الشخصي ان شاء أن يستزيد فان لم يشأ هو ذلك، فلن تفلح قوة في حمله عليها، ولو ألفت له كتب الدنيا، وقدمت اليه خلاصات درس العالم كله . (١)

والواقع أن المعلم العربي مهضوم بصورة عامة من الناحيتين الأدبية والمادية مما لا يحمله على ترقية المادة والاستزادة منها، وتنويع الدرس، وتشويق العرض . . وذلك أمر جوهري في تأخر التعليم وعدم تحقيق الغرض المطلوب منه . . كما أنه سبب في انصراف المثقفين عن مجال التدريس والتعليم وهو أمر خطير يجب المبادرة لعلاجه .

ثالثا : العرض الصالح على التلاميذ، والاخراج المحقق للفائدة :

يرى الأستاذ الخولي أن المادة اذا ما صورت صورة صحيحة، وامتدت حدودها الى مدى يكمل نقصها، ويعدها للوفاء بحاجة الحياة، ويصحح منهج درسها تصحيحا يلائم طبيعتها الفنية أو العملية أو العقلية، ويوجهها الى الغاية

---

(١) فن القول ص ٢٣ بتصرف .

الجديرة اليوم بأن تطلب . ثم ريض المدرس بعد ذلك على العمل الشخصي والثراء الفني في المادة ،فأصبح قادرا على كسب الحقائق فيها ، مستطيعا الزيادة على المعروف قبل الآن منها ،مضطلعا بالجرأة الواثقة على حذف ما لا خير من بقائه بين أبحاثها ،وهو مطمئن الى صحة ما يفعل ،اطمئنان الطبيب المجرب حين يبضع أو يبتر .

اذا ما كانت تلك حال المادة في ذاتها ،ومقدار تمكن المدرس من التصرف فيها ،فقد هان عليه وهو المجرب المختبر ،أن يأخذ من طبيعة المادة ومنهجها الذي ارتضى لها ،الصورة الجميلة التي يعرضها على تلاميذه ، فتكشف عن مفاتن هذه المادة المدروسة ومحاسنها ،وتغري النشء بالعناية الواجبة بها ،والاقبال المحب عليها . (١)

واذا ما تم هذا الذي رجونا من حال المادة ،وحال المعلم ،وصورة العرض ،فقد هان أمر ما بعده مما عددناه في عناصر الخطة ،وهو :

<u>رابعا :</u> الكتاب الذي يتحقق به هذا العرض المفيد :

الكتب القديمة لها قيمتها من حيث هي مصادر ومراجع في دراستنا ، ويجب أن نكون على بصيرة بمواضع الفائدة منها فيما نحاوله من زيادة أو نقص .

وأما ما ألف من الكتب المتأخرة على غرار هذه الكتب ،وكان اختصارا لها وعرضا نظيف الطبع والورق لما فيها ،فله ما لها من قيمة ،ولنا عليه ما لنا عليها من قوة متصرفة ،ومقدرة ناقدة .

وأما ما ألف بعد ذلك من كتب حاولت أن تستحدث وتتصرف ،وتزيد وتنقص ،فلنا منها موقف أخص من الموقف السابق ،نستعين فيه بالذي اطمأننا اليه وارتضيناه من منهج بحث وخطة عرض ،فان كان فيها من ذلك شيء أبقيناه وانتفعنا به ،وان كان فيه من غير ذلك شيء استغنينا عنه ،وألقيناه القاءنا

---

(١) فن القول ص٢٤ .

لما قيله ما فى الكتب السابقة ، ومثال ذلك - كما يرى الاستاذ الخولى - ما فى أيدى تلاميذ الثانوى اليوم من كتب فى البيان ، فان فيها محاولات متجددة كما أن فيها الى جانب ذلك آثارا من الوهن ، لحقتها بحكم ظروف الانتقال التى ظهرت فيها .

ومن رأى الاستاذ الخولى فى الكتب المدرسية أن المدرسين المطرسين هم وحدهم أصحاب الحق كله فى وضعها ، ومن غير المصلحة أن يضع غيرهم شيئا من هذه الكتب ، لأن لهم بتجاربهم الطويلة ، وخبرتهم المزاولة لأحوال التلاميذ ، ما يعينهم أفضل الاعانة على التأليف لهم ، وتجنب السقطات التى يقع فيها من يؤلف لهم من غير مدرسيهم .

بل من رأى الاستاذ الخولى - أيضا - ألا توضع كتب مقررة ، بل يترك كل مدرس - وبخاصة فى هذه الدراسة الفنية الأدبية ، التى تتأثر باقليمها وبيئتها تأثرا شديدا - يترك كل مدرس ليضع بين يدى تلامذته مراجع لمذاكرة وتحصيل ما عرضه عليهم فى صورته التى عرضه بها ، وما أهون ذلك اذا ما يسرت له الجهات الادارية سبله ، وسيكون لهذا أثر فى تحقيق ما أراده المدرس من نتيجة فى تلامذته ، تسقط به معذرته حين يقيد بالكتاب ، ويظهر ابداعه حين يعفى من هذا التقييد .

ويبدى الاستاذ الخولى اقتناعه بما يقوله أنصار التقنين غير المنصوص ، بل أصحاب التقنين المنصوص كذلك ، حينما يقدرون أن الاهمية كلها أو جلها للقاضى المطبق ، لا للقانون مدونا أو غير مدون ، فيقولون : (أعطنى قاضيا ولا تعطنى قانونا) ، وكذلك أقول : (أعطنى مدرسا ولا تعطنى بعد ذلك شيئا) ، حتى المنهج التفصيلى لا أريده . (١)

وهذا الرأى الأخير - الذى ذكره الخولى - رأى خطير ، فان الاعتماد على المدرس فقط دون المنهج والكتاب قد يؤدى الى الاختلاط والاضطراب فى تدريس البلاغة ومناهجها حيث لن يكون هناك ضابط ولا رابط .

---

(١) فن القول ص ٢٥ - ٢٩ بتصرف .

ثم من أين لنا العدد الكافى من أساتذة البلاغة المتمكنين القادرين المباقرة الذين يمكن الاعتماد عليهم اعتمادا مطلقا ويفوض اليهم الأمر فى درس البلاغة ؟ علما بأن معظم أساتذة البلاغة فى المدارس ليس لديهم المقدرة الكافية لتدريسها برغم وجود المنهج والكتاب .

وفى ذلك يقول الدكتور العمارى : " . . . وأبعد من ذلك فى الخيال وفى توهم أن تتحرر دراسة البلاغة ، أن نترك الأمر للمدرس . نعم ، يرى بعض الذين قضوا أعمارهم فى دراسة البلاغة أن نترك الأمر للمدرس ، ويقول : (ولعلى فى هذا المقام أجهر ببقية رأيى ، وهو ألا توضع كتب مقررة ، بل يترك كل مدرس ، وبخاصة فى هذه الدراسة الفنية الأدبية التى تتأثر باقليمها أوبيئتها تأثرا شديدا ، يترك كل مدرس ليضع بين يدى تلاميذه مراجع المذاكرة وتحصيل ما عرضه عليهم فى صورته التى عرضه بها ، وما أهون أن يهيىء لهم ذلك اذا ما يسرت له الجهات الادارية سبله ، وبذل قليل مما تنفقه ثمنا لهذه الكتب) . (١)

وما أشك أن هذا كلام يقوله رجل لم يختلط بأوساط المدرسين ، وقد يظن أن كثيرين منهم نوابغ يستطيعون أن يضعوا المنهج ويؤلفوا عليه المذكرات ويلقنوه بعد ذلك لتلاميذهم" (٢)

ونعود الى خطة الشيخ امين الخولى فى تجديد البلاغة فنجده بعد أن عرض خطته اجمالا وتفصيلا - كما أوضحنا فى الصفحات الماضية - يعود الى القسم الاول منها . وهو المادة ، فيخصه بالنظر والبحث . ويبدو أنه عندما تحدث

---

(١) فن القول : ص ٢٣ .

(٢) قضايا بلاغية ص ٥٣ .

عن المادة أولا .. انما تحدث عنها على وجه العموم .. أما الآن فانه يتناول مادة البلاغة بالذات ، ويبحثها بحثا دقيقا ناقدا يحيط بنواحيها الأربعة التى نص عليها من قبل . وهى :

١ — صورة مادة البلاغة عند القدماء والمحدثين .

٢ — دائرة أبحاثهم فيها .

٣ — منهجهم فى بحثها .

٤ — غايتهم منها .

وقد قصد من ذلك أن يرسم الصورة كاملة وواضحة لمنهج فن القول ، أو منهج البلاغة الجديد ، حتى يكون تجديده مبنيا على أسس متينة ، ومرتكزا على دعائم ثابتة ، فهى مقدمات تؤدى بالضرورة الى النتائج المطلوبة فى تجديد البلاغة .

أولا : (صورة البلاغة)

====

تناول الأستاذ الخولى صورة البلاغة العربية عند القدماء ، ثم وازن بينها وبين صورة البلاغة عند المحدثين ، ليوضح لنا الفروق بينهما ، ويعرفنا مواطن الصواب والخطأ فى كل منهما ، كى نصل بذلك الى صورة جديدة للبلاغة تجمع بين فضائل الماضى ومحاسن الحاضر .

١ — صورة البلاغة عند القدماء :

========================

عندما نلتمس هذه الصورة القديمة للبلاغة نعرف أنه قد تطاول عليها العمر ، وتمادى الزمن ، ولكنا سنقصد من ذلك الى آخر ما استقر عليه

الأمر وثبت ، وهو : متن التلخيص ، الذى هو خلاصة القسم الثالث من كتاب مفتاح العلوم للسكاكى ، ثم ما كتب على هذا المتن من شروح وحواش ، كشرحى التفتازانى المطول والمختصر ، وغير ذلك من شروح تجمعها النسخة المطبوعة المتداولة باسم • " شروح التلخيص " ، ومنها كتاب الايضاح الذى كتبه الخطيب القزوينى ايضاحا وتيسيرا لمتنه التلخيص • ومن هذه الاصول نحدث عن الصورة القديمة للبلاغة عند اسلافنا • وهى صورة تتنوع الى نوعين : صورة افرادية ، وصورة تركيبية •

الصورة الافرادية (١)

====================

لهذه الصورة خطوط عديدة ، أوضحها : تعريف البلاغة • فهم يقولون : ان البلاغة تكون فى المتكلم والكلام فقط ، دون المفرد ، فاذا ما عرضوا لتعريف البلاغة فى الكلام ، لاحظوا أن للمتقدمين رسوما واهية (٢) ، وكان الرسم القوى عندهم ، هو البلاغة فى الكلام مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته •• وقدموا بين يدى ذلك قولهم فى الفصاحة التى تكون فى المفرد والكلام والمتكلم جميعا دون البلاغة •

ومن خطوط هذه الصورة — أيضا — حديثهم عن الحال ، ومقتضى الحال ، وقولهم فى حصر هذه المقتضيات ، فاذا ما ضممت الى ذلك

---

١ — راجع الصورة الافرادية للبلاغة عند القدماء ص ٣٢ — ٣٧ فن القول •

٢ — عروس الأفراح — شروح التلخيص ١ : ١٢٣ الطبعة الثانية سنة ١٣٤٢ هـ مطبعة السعادة بالقاهرة •

قولهم فى الاعتبارات التى تحصر أبحاث هذه البلاغة ، ووجه هذا الانحصار بدت لك صورتها فى ذهنهم جلية الملامح .

فالحال : هو الأمر الداعى للمتكلم الى أن يعتبر مع الكلام الذى يؤدى به أصل المراد خصوصية ما .. والحال : هو المقام أيضا ، لا يتغايران الا بالاعتبار . أى أنهما متحدان بالذات ، وكل منهما هو الأمر الداعى الى ايراد الكلام مكيفا بكيفية مخصوصة ، ولا يتغايران الا بحسب اعتبار المعتبر وتوهمه " وهذا الاعتبار الذى يتوهمه المتوهم ، هو أن يتخيل أن ذلك الأمر الداعى الى ملاحظة الخصوصية زمان أو مكان ، أى لا بد له من زمان ومكان يقع فيهما ، وهو مطابق للزمان الذى يقع فيه ، وللمكان الذى يقع فيه ، أى أنه بقدرهما ، لا يزيد عليهما ولا ينقص عنهما ، فباعتبار مطابقة هذا الأمر الداعى للزمان ، يتوهم أنه زمان ، وهو ليس فى الحقيقة زمانا ، فيسمى لهذا التوهم حالا ، لأن الحال من أسماء الزمن المستقبل والماضى وباعتبار مطابقة هذا الأمر الداعى الى اعتبار الخصوصية مطابقا للمكان الذى يقع فيه ، أى بقدره لا يزيد عنه ولا ينقص ، يتوهم أنه مكان ، فيسمى بهذا التوهم مقاما ، والمقام من أسماء الأمكنة كالمجلس والمضجع ، وانما اختاروا من أسماء الزمان لفظ الحال ، لأن المتكلم بالكلام البليغ من شعر وخطابة ، كان يتكلم بهذا الكلام فى حال وجود الاعتبار الذى لاحظه ، لا بعده ولا قبله ، كما كان البليغ يسوق شعره أو خطابته وهو قائم فيمن يتحدث اليهم ، فأطلق المقامات على الاعتبارات التى يلاحظها .

وقد يفسرون وجه اختيار " الحال " و " المقام " بغير هذا التفسير ، فيجعلون الحال : ما عليه الانسان من الصفات ، لا أحد الأزمنة الثلاثة ،

ويسمى الأمر الداعى الى اعتبار خصوصيته فى الكلام بالحال ، لأنه مما يتغير ويتبدل ، كالحال الذى عليه الانسان من غضب أو رضاء ، أو سمى ذلك الأمر الداعى بالحال ، لأنه صفة ، وحال من أحوال الانسان .

وأما المقام على هذا التفسير الثانى غير الناظر الى أنه اسم مكان — كما سبق — فهو الرتبة ، وانما سمى الأمر الداعى الى اعتبار خصوصية فى الكلام مقاما ، لأن مراتب الكلام تتفاوت بالأحوال ، كما أن مراتب الرجال ودرجاتهم تتفاوت بالمقامات (١) ، والحال أو المقام كانكار المتكلم أو تردده ، وله مقتضى ، هو ما يسمونه مقتضى الحال أو مقتضى المقام ، هو التأكيد للمنكر مثلا .

وانما وقفنا هذه الوقفة عند كلامهم فى الحال أو المقام ، ومقتضى الحال أو المقام ، لأنه لباب نظرتهم للبلاغة ، والخط الأصلى فى صورتها عندهم ، ومنه تتضح نظرتهم الى هذا الفن ودرسه .

وهم يشيرون الى ضبط مقتضيات الأحوال وحصرها ، فتفهم من هذا الضبط والحصر صورة البحث البلاغى عندهم ، ومن هنا تقرأ مثل قول القزوينى فى تلخيصه : " فمقام كل من التنكير والاطلاق والتقديم والذكر ، يباين مقام خلافه ، ومقام الفصل يباين مقام الوصل ، ومقام الايجاز يباين مقام خلافه ، وكذا خطاب الذكى مع خطاب الغبى ، ولكل كلمة مع صاحبتها مقام " . (٢)

---

١ — حاشية الدسوقى — شروح ١ : ١٢٥ و ١٢٦ .
٢ — المصدر السابق ١ : ١٢٦ .

فنجد أنهم قد استخلصوا منه ضبط مقتضيات الأحوال وحصرها ، وأنهـــا أقســـام ثلاثـــة :

١ ـ مايتعلق بأجزاء الجملة ، واليه يشير قوله : " فمقام كل من التنكيـــر والاطلاق والتقديم والذكر يباين مقام خلافه " .

٢ ـ مايتعلق بالجملتين فصاعدا ، واليه يشير قوله : " ومقام الفصل يبايـــن مقام الوصل " .

٣ ـ مالا يختص بشيء من ذلك بل يتعلق بهما معا ، واليه يشير قولـــه : " ومقام الايجاز يباين مقام خلافه ... الى قوله ... ولكل كلمـــة مع صاحبتها مقام " .

وبهذا تدرك الاعتبارات التى رأوها محققة للبلاغة ، أو تدرك ما نظـــروا فى بلاغته من الجملة والجملتين ، كما سمعت من صريح قولهم فى الضبط والحصر ، وكان هذا هو الذى جرى عليه عملهم فعلا فى الدرس والتأليف ، لا يعدونـــه ولا يخالفونه ، فأيد فعلهم قولهم ، وحال ذلك كله دون الفهم الطليـــق من نص القزوينى السابق .

على أنه وان يكن فى هذه الصورة شيء من التظليل المبهم ، فاســـمع من قولهم ما يزيدها جلاء حين يقولون : (١)

ان البلاغة فى الكلام مرجعها الـــى :

١ ـ الاحتراز عن الخطأ فى تأدية المعنى المراد .

٢ ـ تمييز الكلام الفصيح عن غيره .

وليبينوا ويحققوا هذين الأمرين ، يرون أن الأمر الثانى منهما قد أعانـــت

---

١ ـ التلخيص وشرح السعد المختصر . شروح ١ : ١٤٤ بتصرف .

عليه ومكنت منه دراسات لغوية أدبية سابقة ، أو هو مما يستعان فيه بالحس فحسب .

ثم يبقى بعد ذلك شيء من الغرض الثاني يحتاج في تحقيقه وتحقيق الغرض الأول الى دراسة خاصة ، وذلك قولهم :

ان الثاني ، وهو تمييز الفصيح من غيره ، بعضه يبين في علم متن اللغة ، أو علم التصريف أو علم النحو ، أو يدرك بالحس ، وهذا الجانب من تمييز الفصيح هو ما عدا التعقيد المعنوى ، الذى اعتبروه في الفصاحة حين عرفوها في الكلام بأنها : خلوصه من ضعف التأليف وتنافر الكلمات والتعقيد مع فصاحة الكلمات .

فيأخذون من الثاني — أى تمييز الفصيح — هذا التعقيد المعنوى ، ويضمونه الى الأول ، وهو الاحتراز عن الخطأ في تأدية المعنى المراد ، ويقولون : انهما هما المحتاجان الى دراسة خاصة ، لأن مرجع البلاغة فيما عدا هذين ، بعضه مبين في علوم معروفة ، وبعضه مدرك بالحس ، فلم يبق الا هذان الأمران .

واذا كان الأمر كذلك .. فقد وضحت الصورة العامة للبلاغة عندهم بأنها البحث عما يعرف به التعقيد المعنوى ، والخطأ في تأدية المعنى المراد ، وقد أدركت قبل الآن أنهم يعملون لتلافى هذا في الجملة او الجملتين فقط .

فالبحث الذى يحترز به عن التعقيد المعنوى — الذى بقى من شئون الفصاحة — هو علم البيان .

والبحث الذى يحترز به عن الخطأ في تأدية المعنى المراد ، هو علم المعانى .

وما يعرف به وجوه التحسين التابعة لهذين ، والثانوية بعدهما ، هو علم البديع .

ويسمى الجميع " علم البلاغة " . (١)

وكثير من الناس يسمى الجميع " علم البيان ".

وبعضهم يسمى الجميع " البديع " ، وبعضهم يسمى الأول علم المعانى والثانى والثالث — أى البيان والبديع — "علم البيان" . (٢)

ومن كل هذا ترى أن الصورة الافرادية للبلاغة عند القدماء يخططها قولهم : انها البحث عما يحترز به عن التعقيد المعنوى ، وعن الخطأ فى تأدية المعنى المراد ، وذلك فى الجملة والجملتين . ولنزدها ابانة بعرض الصورة الثانية ، وهى :

الصورة التركيبية (٣)

ونقصد بها الصورة التى نرى بها البلاغة مصنفة مع غيرها من علوم العربية لنستبين بذلك ارتباطها بما يسبقها من دراسات عربية لغوية ، وما يتلوها من تلك الدراسات .

وحصر علوم العربية أو علوم الأدب وتصنيفها مما اختلف كذلك مع الزمن ،

---

١ — مختصر السعد — شروح ١ : ٤٩ .

٢ — مختصر السعد — شروح ١ : ١٥١ .

٣ — انظر ص ٣٧ وما بعدها — فن القول .

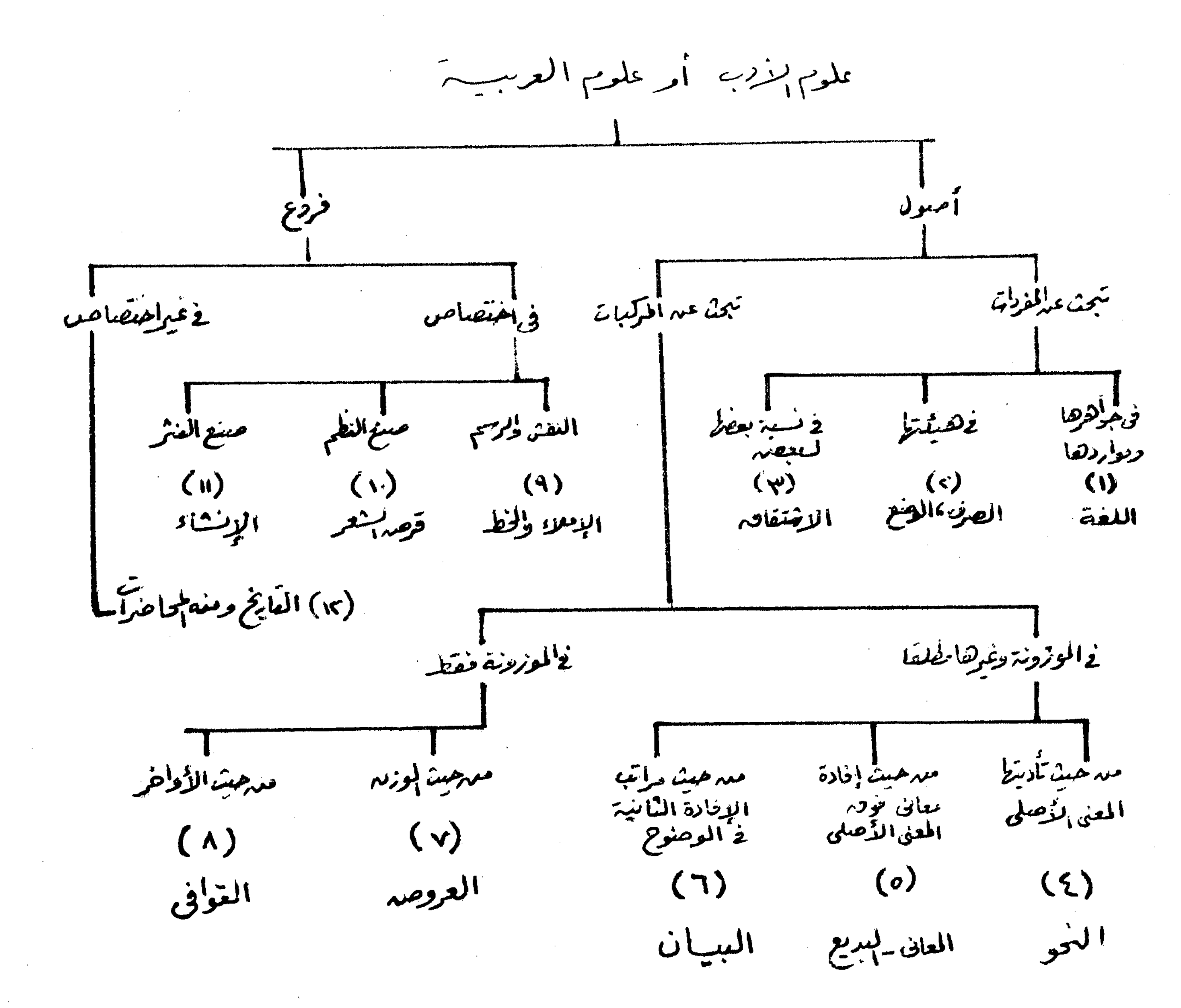
وتغير بتوالي القرون ، فنرى مثلا : أن أبا البركات عبد الرحمن بن محمد الأنباري — ت ٥٧٧ هـ ، يعدها ثمانية علوم ، ويزيد عليها هو اثنين يقول انه وضعهما ، فتكون هذه العلوم عشرة . (١)

ثم اذا بالسبكي ينقل عن الزمخشري المتوفى قريبا من عصر ابن الانباري أن هذه العلوم اثنا عشر علما (٢) ، وهو أكثر ما اشتهر عن هذا التقسيم . ونرى من عد هذه العلوم وتقسيمها صورة في كتاب : الدر النضيد ، من مجموعة الحفيد ، للحفيد الهروي : احمد بن يحيى بن محمد المتوفى سنة ٩٠٦ هـ (٣) . كما نجد من ذلك صورة في كتاب : كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي الهندي من أهل القرن الثاني عشر الهجري (٤) . كما نجد اجمالا من ذلك في حاشية الخضري على ابن عقيل في النحو (٥) .

في هذه المصادر ونحوها نجد فكرا عن احصاء علوم العربية ، أو علوم الأدب وتنسيقها ، فتلمح تدرجها مع الزمن ، ونستطيع أن نصور الصورة الأخيرة التي استقر عليها رأي القدماء في جدول على النحو الآتي :

---

١ — نزهة الألبا في طبقات الأدبا — ص ١١٧ ط ١٢٩٤ هـ .
٢ — عروس الأفراح ١ : ٥١ شروح التلخيص .
٣ — الدر النضيد : ص ٤ وما بعدها ط الخانجي ١٣٢٢ هـ .
٤ — كشاف اصطلاحات الفنون / ج ١ ص ١٧ ط الآستانة ١٣١٧ هـ .
٥ — حاشية الخضري / ج ١ ص ١٠ ط الشرقية ١٣٢٠ هـ .



علوم الأدب أو علوم العربية
أصول
فروع
تبحث عن المفردات
تبحث عن المركبات
في جواهرها وموادها
(١)
اللغة
في هيئتها
(٢)
الصرف، الوضع
في نسبة بعضها لبعض
(٣)
الاشتقاق
في الموزونة وغيرها مطلقا
في الموزونة فقط
من حيث تأدية المعنى الأصلي
(٤)
النحو
من حيث إفادة معاني غير المعنى الأصلي
(٥)
المعاني - البديع
من حيث مراتب الإفادة الثانية في الوضوح
(٦)
البيان
من حيث الوزن
(٧)
العروض
من حيث الأواخر
(٨)
القوافي
في اختصاص
في غير اختصاص
النقش والرسم
(٩)
الإملاء والخط
صنع النظم
(١٠)
قرض الشعر
صنع النثر
(١١)
الإنشاء
(١٢) التاريخ ومنه المحاضرات

والنظر فى هذا الجدول نتبين موقع البلاغة ومنزلتها بين علوم العربية ، وأنها من أبحاث الأصول فيها ، تتلو النحو ، وتبحث فى المركبات موزونة وغير موزونة من حيث افادتها معانى فوق المعنى الأصلى ، ومن حيث مراتب هذه الافادة الثانية ، وأنها تتألف من علمين أصليين هما : المعانى والبيان والبديع تابع لهما .

ونستطيع اذا ما تأملنا فى هذه الصورة البلاغية عند القدماء ، بعد تصورها فى وضعيها الافرادى والتركيبى ، أن نشعر بأنها صورة وجه معروق بادى العظام ، شاحب ، يسير الحظ من الحيوية والنضرة ، ويزداد شعورنا بقلة حيوية هذه الصورة وعدم جمالها ، اذا ما سمعنا حديث غيرهم عن هذه البلاغة ودرسها وصورة ذلك عندهم . فكيف صور الغربيون البلاغة ؟ ..

ب — صورة البلاغة عند المحدثين (١)

====================

الصورة الافرادية : (٢)

====================

١ — يسوق المؤلف قطعتين ادبيتين ، هما وصف لشىء واحد ، وقد صيغتا من كلمات واحدة ، ثم يقول . ان التفريق بين هاتين القطعتين

---

١ — راجع صورة البلاغة عند المحدثين ص ٤٠ وما بعدها — فن القول .

٢ — هذه الفقرات وما بعدها عن الصورة الافرادية مترجمة من الفاتحة والفصل الأول من كتاب (الأسلوب الايطالى) للباريني .

ليس بشيء ، ولكنه كل شيء ، وليس يجب أن تكون نقادا أو أديبا لتدرك أن واحدة منهما أفضل من الأخرى وقد أشار الكاتب الى رجحان الثانية ، وهزال الأولى وضعفها .

ب — ثم عرض معنى للكتابة فيه ، هو : وصف البهجة التى تغلب على طبيعة العصافير . وذكر لأداء هذا المعنى صورا مختلفة ، من بينها صورة لكاتب كبير . ثم قال : " وكل أحد يرى أن خير هذه الأوضاع ، هو الذى صاغه فلان ، على حين أن سائر الأوضاع الأخرى قد استعملت فيها قواعد النحو وتركيب الكلام ذاتها التى استعملها فلان هذا " .

ثم خلص من هذه الأمثلة التى أوردها ، والتى اقترحها ، الى أن معرفة اختيار أحسن وضع للتعبير ، وأفضل الصور لايضاح غرض ، وأداء معنى ، انما تعتمد على حسن وجمال الوضع الأجمل ، والصورة الأفضل .

والعلم الذى يعلم الكلام الأفضل ، والكتابة الأحسن ، هو : " علم البلاغة " .

هذه صورة فردية من الصور التى تعرض بها أبحاث البلاغة دون تعريف بالرسم أو الحد ، ويمكن عرض هذه الصورة مع ملاحظة أخص مما سبق فى معنى حسن التعبير ، وفضل الصورة عند هؤلاء المحدثين كما يأتى :

١ — يعرفون اجمالا بالفنون الجميلة ، ويوردون أمثلة لأقسامها المختلفة ، ويعدون هذا الأدب ، نثره وشعره ، من الفنون الجميلة .

٢ — ثم يقولون : انه ليس كل قول يعد عملا فنيا خاصا ، بل القول الفنى انما هو قول ممتاز . وهكذا تجد الكثيرين جدا يعرفون قواعد

النحو أعجب المعرفة ، ويكتبون كتابة صحيحة ، لكنها غير فنية ،
كما نجد مثل ذلك في أي فن آخر .

ففي التصوير مثلا ، نجد أن درس التخطيط والتلوين ، شيء
غير تصوير لوحة جميلة ، كما نجد في لوحتين مصورتين تمثلان شيئا
واحدا ، أن احدى هاتين اللوحتين انما هي لطخة حبر على
ورق لا غير ، على حين أن الثانية عمل متفوق جميل .

٣ — ومن هنا يحتاج فن القول الى ما يمكننا من الوصول الى قوة الأسلوب
وادراك جمال القول .
والدرس المختص ببحث الأسلوب ، وتعليم الكتابة الفنية ، يسمى
" البلاغة " كما يسمى كذلك " فن القول " .

وهكذا تعرض الصورة الفردية للبلاغة ، دون تورط في تحديد ولا تقسيم
ولا تسمية أجزاء علوم .... الخ .

الصورة التركيبية :
===================

نقل الأستاذ أمين الخولي صورتين تركيبيتين للبلاغة عند المحدثين :
الصورة التركيبية الأولى : البلاغة بين سائر المعارف اللغوية .
وفي هذه الصورة :

١ — يبينون أننا نعرف القواعد التي بها تترابط الحروف فتكون المقاطع ،
ومن المقاطع تتكون الكلمات ، وهي صناعة النطق والرسم ..

ثم نعرف القواعد التي بها تقويم الكلمات ، من حيث سهولتها وعذوبتها في

قوالبها الصحيحة ، وهو درس الصرف .. ثم نعرف قواعد تنظيم الكلام وكيف نركب الجمل والفقر دون غلط وهو درس النحو .. وبما درسناه من كل أولئك القواعد نعرف كيف نؤلف الكلام صحيحا .

٢ — لكن الكتابة بغير خطأ ليست الكتابة الجيدة .. ولو كانت الكتابة الجيدة تكفى فيها قواعد علوم اللغة لا استطاع كل منا كتابة الروائع الأدبية التى نقرؤها لعظماء الكتاب .ولكن الأمر ليس كذلك ..
فلا تكفى القواعد النحوية واللغوية لاخراج الكتابة الجيدة .. نعم ان القواعد لازمة ، لكنها ليست كافية ، اذ تستطيع أن تقول عن الكثير من أوضاع التعبير انه صحيح ، لكن واحدا من هذه الأوضاع هو الذى تقرر أنه الأفضل والأبلغ .

وبهذا الصنيع ترون تدرج الدرس اللغوى فى خطوات أبحاثه المختلفة حتى ينتهى الى الصحة ، ثم يجىء البحث عن الأفضل والأحسن أو الابلغ .وهو درس البلاغة أو فن القول .

ونحن نرى أن هذا الكلام الذى أورده الأستاذ الخولى عن الصورة التركيبية الأولى عند المحدثين ، لا يفترق كثيرا عن الصورة التركيبية عند القدماء ، من حيث ان مراعاة قواعد النحو والصرف وغيرهما من علوم العربية أمر لازم ، لكنه ليس كافيا للوصول الى الأبلغ من القول .

الصورة التركيبية الثانية : فن القول بين الفنون الجميلة :

==========================

وهذه الصورة تتضح من خلال أقوال المحدثين عن الفن ، فهم يقولون :

١ — تتصل أصول الفن فى ظلمات الزمن .. حينما بدأ الانسان يستخدم حاجات مادية وعندما استطاع فى بعض الأحيان أن يستعمل ذكاءه ومواهبه استعمالا طليقا حول التفاته الى بعض المطالب السامية ، فبدأ الفن يتحول ، حتى صار شيئا نبيلا جميلا ضروريا للحياة الانسانية ، وكان هدفه الخاص : اظهار الجميل .

٢ — والفنون الجميلة خمسة : التصوير ،والنحت ، والعمارة ، والموسيقى والأدب . وتدعى الفنون الثلاثة الأولى الفنون التجسيمية أو التشكيلية كما تدعى الفنون البصرية ، ويدعى الفنان الأخيران الفنون المعنوية أو السمعية .

٣ — وتستعين الفنون جميعا فى اظهار الجميل بوسائط مادية : اللون ، والرخام ، والحجر ، كما تستخدم الموسيقى الصوت ، ويستخدم الأدب الكلمة ، فاذا ما دعيت الموسيقى فن الصوت ، دعى الأدب فن الكلمة .

٤ — والأنواع الخمسة تؤلف مجتمعة ما يسمى " الفن " دون غير ذلك من الأسماء ، فقطعة أدبية ، وقصر مشيد ، ولوحة فذة ، ولحن رائع ، لأشخاص مشهورين فى كل نوع من هذه الأنواع ، هى الأعمال الفنية التى تعد أسمى وأنبل وأنقى مقدرة للروح الانسانية ، الشاعر والمصور والمثال عظماء حقا ، يبدعون الشعر والصورة والتمثال لرغبتهم فى ابداع الجميل والمفيد ، ولأن فى قرارة أرواحهم من العظمة والسمو مالا يمكن الدلالة عليه بخير من هذا الصنيع . قال ليوناردو دافينشى : " كم من مصور خلد مثال الجمال الالهى ،

حين فنيت سريعا وتبددت الأمثلة الطبيعية لذلك الجمال ، فظل عمل المصور أقوم من طبيعته الموحية المعلمة " .

هذا شيء من قول المحدثين عن الفن والفنون المختلفة ، وأهمية فن الكلمة بينها ، وأما عن علاقة ما بين أقسام هذه الفنون المختلفة ، فمن قولهم في ذلك :

١ — ان ثلاثة الفنون التجسيمية بينها قرابة قوية ، وهي تتعاون وتشترك في الحياة ، فالتصوير والنحت يزينان ويجملان العمائر التي يخرجها فن العمارة .

٢ — وكذلك الموسيقى والأدب فنان شقيقان ، ولدا في وقت واحد ، وكانا قديما متحدين .. ويذكرون هنا مظاهر هذا الاتحاد في حياة القدماء من اليونانيين والرومان ، وحياة مختلف الأمم الغربية في العصور الوسطى ، وهو من وادي ما يقوله ابن خلدون : من أن الغناء في الصدر الأول كان من أجزاء الأدب ، وكان الكتاب والفضلاء يأخذون أنفسهم به ، حرصا على تحصيل أساليب الشعر وفنونه .

وهكذا يبدو فن القول ، أو فن الكلمة ، بين مجموعة الفنون الجميلة صنوا للموسيقى ، وشقيقا لفن الصوت .

ويعلق الأستاذ الخولي على كل ما تقدم مبديا وجهة نظره فيقول :

" أفلا ترون هذه الصورة للبلاغة ، أنضر وجها ، وأبهى قسمات ، من تلك الصورة التي عرضها حديث الأقدمين عنها في رسوم وتقسيمات رفضوا بها الرسوم الأدبية وعدوها واهية ، ليقيموا مكانها قولهم في المطابقة والمقتضى ، وليحدثوا عن التعقيد المعنوي ، والخطأ في تأدية

المعنى المراد ، دون طموح الى شيء وراء ذلك ؟ أحسب أن نعم"[1].

نظـــــرة أخــــــرى :ـ

نفهم من كلام الأستاذ الخولى السابق أن المحدثين من الفهميين كانـــوا أقرب الى السهولة والتيسير ، وأبعد عن التعقيد والجدل ، فى تصويرهـــم للبلاغة ... وأنهم اعتبروا البلاغة من الفنون الجميلة التى تقوم على الـــذوق والحس والجمال .

كما نفهم أن هذا الحكم انما اعتبره الأستاذ بناء على الموازنة التى قـــام بها بين ما قاله المحدثون ، وبين آخر ما استقر عليه الأمر وثبت ، وهـــو متن التلخيص وما تبعه من شروح كبيرة ومختصرة وهوامش .

ولو أن الأستاذ الخولى ـ مع احترامى لعقله وعلمه ـ رجع الـــى الوراء قليلا ، الى ما قبل السكاكى ومتن التلخيص ، لوجد صورة البلاغة عنـــد القدماء ـ فردية وتركيبية ـ لا تختلف كثيرا عنها عند المحدثين .

فأبو هلال العسكرى ـ مثلا ـ لم يقسم البلاغة الى علومها الثلاثـــة ، ولم يتعرض للحال ومقتضاه كما تعرض له شراح التلخيص ، ولم يقتصر فى بحثـــه البلاغى على الجملة والجملتين فقط ، وانما كان ـ كالمحدثين ـ أقرب الـــى السهولة وأبعد عن التعقيد ، وقد قال كلاما يشبه قول المحدثين الى حـــد كبير ، من ذلك قوله : ان صاحب العربية " اذا لم يفرق بين كلام جيـــد

---

١ ـ فن القـــول ص ٤٥ .

وآخر ردىء ، ولفظ حسن وآخر قبيح ، وشعر نادر وآخر بارد ، بان جهله وظهر نقصه " ٠٠ وأنه ٠٠ " اذا أراد أن يصنع قصيدة أو ينشىء رسالة وقد فاته هذا العلم — أى البلاغة — مزج الصفو بالكدر ، واستعمل الوحشى العكر ، فجعل نفسه مهزأة للجاهل وعبرة للعاقل ٠٠٠ لما فاته هذا العلم ، وتخلف عن هذا الفن " ٠ (١)

وهذه الكلمة الأخيرة (تخلف عن هذا الفن) الا توحى بان العسكرى كان يعتبر البلاغة (فنا) ؟ ويؤكد ذلك قوله عن البلاغة أنها : " كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع فتمكنه فى نفسه كتمكنه فى نفسك ، مع صورة مقبولة ومعرض حسن " ٠ (٢)

" وكان عبد القاهر الجرجانى يرى البلاغة والأدب فنا كالتصوير والنقش فيقول : " وانما سبيل هذه المعانى سبيل الأصباغ التى تعمل منها الصور والنقوش ، فكما أنك ترى الرجل قد تهدى فى الأصباغ التى عمل منها الصورة والنقش فى ثوبه الذى نسج الى ضرب من التخير والتدبر فى أنفس الأصباغ وفى مواقعها ومقاديرها وكيفية مزجه لها وترتيبه اياها الى مالم يتهد اليه صاحبه ، فجاء نقشه من أجل ذلك أعجب وصورته أغرب ، كذلك حال الشعر والشاعر " ٠ (٣)

---

١ — الصناعتين ص ٨ و ٩ ٠
٢ — الصناعتين ص ١٦ ٠
٣ — دلائل الاعجاز ص ٧٠ ٠

ومن قبل العسكرى وعبد القاهر .. كان الجاحظ يقول عن الشعر انه :
" صناعة وضرب من الصبغ وجنس من التصوير ". (١)

بل ان السكاكى نفسه ــ الذى أقام الأستاذ الخولى الموازنة بين القديم والحديث على أساس كتابه الذى استقر عليه الأمر وثبت ــ كانت له لمحات فنية من حين لآخر ، مثل قوله عن التشبيه : " وان الانسان اذا مهر فيه ملك زمام التدرب فى فنون السحر البيانى " (٢) . فاعتبر البيان فنا له جماله وسحره .

بل ان الأستاذ الخولى نفسه ذكر أثناء حديثه عن الموسيقى والأدب وأنهما شقيقان .. ذكر أن هذا " من وادى ما يقوله ابن خلدون من أن الغناء فى الصدر الأول كان من أجزاء الأدب ، وكان الكتاب والفضلاء يأخذون أنفسهم به حرصا على تحصيل أساليب الشعر وفنونه ". (٣)

وعلى هذا فان لى نظرة أخرى فى صورة البلاغة عند القدماء ، نظرة تخالف نظرة الأستاذ الخولى التى اعتمد فى استخراجها على المدرسة الكلامية فى البلاغة التى شاعت واستقرت بعد القرن السادس الهجرى فجاءت صورة البلاغة معروقة الوجه شاحبة بادية العظام يسيرة الحظ من الحيوية والنضرة .

---

١ ــ الحيوان جـ ٣ ص ٤١ .
٢ ــ المفتاح ص ١٥٧ .
٣ ــ فن القول ص ٤٥ .

أما نظرتي الى صورة البلاغة عند القدماء فاني أعتمد في استخراجها وتكوينها على المدرسة الأدبية التي عاشت وانتعشت في عهد الازدهار وكان من أعلامها : العسكري وعبد القاهر وابن المعتز وكذلك الجاحظ — رغم أنه من أعلام المتكلمين — هؤلاء الأعلام الذين أعطوا البلاغة العذوبة والحسن والجمال ٠ ولذلك فان صورة البلاغة التي أراها عند هؤلاء صورة وجه يشع بالبهاء والحسن وقوام مياس يموج بالحيوية والنضرة ٠ ولا أذهب بعيدا اذا ما قلت : ان المحدثين من الغربيين اطلعوا على صورة البلاغة العربية في عهد المدرسة الأدبية فتأثروا بها وكتبوا على ضوئها ٠

ولكن ٠٠ احقاقا للحق ٠٠ أعود فأقول : لابد من التسليم بأن الأستاذ الخولي صحيح النظرة صائب الحكم ٠٠ فان الصورة الحالية للبلاغة العربية هي الصورة التي أنتجتها المدرسة الكلامية والتي ما زالت منذ القرن السادس الهجري شائعة ومستقرة في مدارسنا ومعاهدنا وكلياتنا حتى اليوم ٠٠ وهذه الصورة الباقية لدينا والمستعملة في دراستنا للبلاغة هي التي يجب أن تقوم الموازنة بينها وبين صورة البلاغة عند المحدثين كما فعل الأستاذ الخولي ٠٠

فقط أردت أن أقول : ان المحدثين ليسوا أفضل منا وأننا لو عدنا الى تراثنا لوجدنا صورة البلاغة المشرقة التي يعرضها المحدثون ٠

بل ليس من المستبعد أن يكونوا أخذوا الخطوط الأصلية لصورة بلاغتهم من تراثنا ٠٠ بينما وقفنا نحن ازاء هذا التراث جامدين لا نعرف كيف نستفيد منه ٠٠

====

ثانيا : دائرة بحث البلاغة

يرى الأستاذ الخولى أن أول التجديد قتل القديم بحثا ، ولا شك أن المقارنة بين القديم والجديد يزيدنا قدرة على القبول والرفض ، وبعد أن عرفنا صورة البلاغة عند كل من القدماء والمحدثين ، فانه من المفيد أن نعرف كذلك أفق البحث البلاغى ودائرته عند كل منهما .

ولذلك فان هذا الفصل يدور حول :

١ — دائرة البحث البلاغى عند القدماء .

٢ — دائرة البحث البلاغى عند المحدثين .

دائرة البحث البلاغى عند القدماء :—

المصادر التى اعتمد عليها الأستاذ الخولى فى هذا البحث هى أيضا شروح التلخيص التى اعتمد عليها فى البحث السابق ، لأنها التى استقر عليها الأمر وثبت — كما أوضحنا من قبل — ومن هذه المصادر نجد أن القدماء قد ضبطوا أبحاث البلاغة بأنها : مقدمة وثلاثة فنون .

وقد عللوا هذا الانحصار بأن المذكور اما من قبيل المقاصد فى هذا الفن أو لا ، الثانى : أى ما ليس من المقاصد فى البلاغة هو المقدمة ، والأول : أى ما هو من المقاصد فى البلاغة ، ان كان الغرض منه الاحتراز عن الخطأ فى تأدية المعنى المراد فهو الأول — أى المعانى

وان لم يكن الغرض منه الاحتراز عن الخطأ فى تأدية المعنى المراد ، فان كان الغرض منه الاحتراز عن التعقيد المعنوى فهو اذن الفن الثانى — أى البيان — والا فهو الثالث — أى البديع — وهو عندهم من توابع البلاغة ، وبه تعرف وجوه تحسين الكلام . (١)

ثم مالبثوا أن سلكوا مثل هذا السبيل فى ضبط مباحث كل فرع من هذه الفروع الثلاثة ، بل فى ضبط المقدمة نفسها ، فقالوا : ان هذه المقدمة مقدمة علم ، تشمل ما يتوقف عليه الشروع فيه ، وهو هنا معنى الفصاحة والبلاغة ، وانحصار علم البلاغة فى علمى البيان والمعانى ، وما يلائم ذلك ، ولا يخفى وجه ارتباط المقاصد بذلك . (٢)

وقد عرفوا علم المعانى بأنه : علم يعرف به أحوال اللفظ العربى التى بها يطابق مقتضى الحال . ثم حصروا بنظرتهم العقلية المقصود من هذا العلم فى ثمانية أبواب :

١ — أحوال الاسناد الخبرى
٢ — أحوال المسند اليه
٣ — أحوال المسند
٤ — أحوال متعلقات الفعل
٥ — القصر
٦ — الانشاء

---

١ — شروح التلخيص ١ : ٦٦ ، ١٠٥

٢ — الشروح ١ : ٦٩ ، ٧٠

٧ ـ الفصل والوصل

٨ ـ الايجاز والاطناب والمساواة .

وبينوا وجه انضباطه عقلا بهذه الأبواب دون غيرها ، بأن الكلام اما خبر أو انشاء لا محالة .. والخبر لابد له من مسند اليه ومسند واسناد ، والمسند قد يكون له متعلقات اذا كان فعلا أو فى معناه ، وكل من الاسناد والتعلق اما بقصر أو بغير قصر ، وكل جملة قرنت بأخرى اما معطوفة عليها أو غير معطوفة .. والكلام البليغ اما زائد على أصل المراد لفائدة أو غير زائد .

هذا هو الوجه العقلى لانحصار علم المعانى فى هذه الأبواب الثمانية وان كانوا يوهنون قوة هذا الوجه ، اذ يلحظون : أن ما ذكر من القصر ، والفصل والوصل ، والايجاز ومقابليه ، انما هو من أحوال الجملة ، مثل التأكيد والتقديم والتأخير وغير ذلك ، ولا يردون على هذا التوهين بأكثر من أن هذه الأبواب من القصر والفصل والايجاز .. الخ ، انما أفردت بأبواب خاصة لكثرة تشعبها وصعوبة أمرها بكثرة مباحثها . (١) .

وفى كل فقد انحصر العلم أخيرا فى هذه الأبواب الثمانية ، سواء أكان الملحظ فى هذا الحصر قويا ملزما ، أم كان ضعيفا اعتباريا .

---

١ ـ الشروح ١ : ١٧٢ و ١٧٣ .

وعرفوا علم البيـــــان بأنه : علم يعرف به ايراد المعنى الواحد — المدلول عليه بكلام مطابق لمقتضى الحال — بطرق مختلفة فى وضوح الدلالة عليه . ثم حصروا أبحاث هذا العلم فى أبواب ثلاثة معينة كذلك ، هـــى التشبيه والمجاز والكناية — وصلوا الى هذا الحصر من ملحظ عقلى ، أخذوه — من مسألة قدموها بين يدى البحث فى علم البيان ، وهى مسألة الدلالات ، التى تطرقوا اليها من ورود الدلالة فى تعريف العلم ، عند قولهم : " .... طرق مختلفة فى وضوح الدلالة عليه " .. فوصلوا الى هذا الحصر بقولهـــم : ان ايراد المعنى الواحد بطرق مختلفة — كما فى تعريف البيان — انمـــا يتأتى بدلالتى التضمن والالتزام ، لا بدلالة المطابقة ، ولفظ كل مـــن دلالتى التضمن والالتزام ، ان قامت القرينة على عدم ارادة ما وضع له منـــه ، فالمجاز ، وان لم تقم القرينه على ارادة ما وضع له منه ، فالكنايـــة .. الى هنا خرجوا ببحثى المجاز والكناية ... ثم لاحظوا أن من المجاز ما يبنى علـى التشبيه وهو الاستعارة ، ثم لما كان فى التشبيه مباحث كثيرة وفوائـــد جمة ، لم يجعل مقدمة لبحث الاستعارة ، بل جعل مقصدا برأسه . (١)

وبهذا كملت البلاغة ، وبقى البديع تابعا لها ، يعنى بوجوه أخـــرى، تورث الكلام حسنا وقبولا ، بعد رعاية مقتضى الحال ، ووضوح الدلالـــة عليه .

وقد حصروا — كعادتهم — باعتبار ما ، أبحاث البديع ، فجعلـــوا وجوه تحسين الكلام ضربين : معنوى راجع الى تحسين المعنى أولا وبالذات ،

---

١ — شـــروح التلخيص ٣ : ٢٩٠ .

وان كان قد يفيد بعضها تحسين اللفظ أيضا ، كما في المشاكلة التي هي : ذكر شيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته ، فان الغرض فيها معنوى وان صحبه حسن اللفظ لما فيه من ايهام المجانسة . والضرب الثاني : لفظي راجع الى تحسين اللفظ أولا وبالذات ، وان كان قد يفيد تحسين المعنى أيضا ، لأنه كلما عبر عن معنى بلفظ حسن استحسن معناه تبعا ، وان شئت قلت كذلك في التحسين المعنوى أيضا : انه يتبعه تحسين اللفظ دائما ، لأنه كلما أفيد باللفظ معنى حسن ، تبعه حسن اللفظ الدال عليه . (١)

هذه هي دائرة البحث عند القدماء . ولو نظرنا نظرة شاملة الى هذه الدائرة وتحديدها لوجدنا ما يأتي :

ا — أن دائرة بحث هذه البلاغة مقصورة على الجملة : كما رأينا هذا فيما مضى من صورتها ، ومن قولهم في ضبط موضوعات البحث وتحديده ، سواء في ذلك علم المعاني أو البيان ، فالأول يبحث في أجزاء الجملة ، أو في جملة ترتبط بأخرى ، وأبواب البيان الثلاثة — التشبيه والمجاز والكناية لا تجاوز ذلك في حقيقة الأمر ، وان جاوزته فالى مكملات الجملة ، أو الى جمل تؤدى معنى واحدا وتجتمع في جملة ، كالذى ترى في آية تمثيل الحياة الدنيا — يونس ٢٣ — (٢) فانها تشبيه تمثيل شمل عشر جمل ، ولكنها جميعا تكمل معنى يجتمع في جملة واحدة .

---

١ — شروح التلخيص ٤ : ٢٨٥ .

٢ — قوله تعالى : " انما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى اذا =

ب — أن دائرة بحث هذه البلاغة محدودة بالألفاظ : فعلم المعاني : يعرف به أحوال اللفظ العربي ..... والبيان : علم يعرف به ايراد المعنى الواحد بطرق تعبير مختلفة .. الخ ، والبديع : تحسين تابع لهما . وأما العنصر الثاني من عناصر الأدب وفن الكلمة ، وهو المعاني ، — مهما يكن الرأي في أمر الألفاظ والمعاني — فان البلاغيين لا يعرضون له بالبحث الخاص ولا تسمع لهم قولا مفردا في شأن من شئونه .

تلك ملاحظة عامة على تحديدهم للبحث البلاغي ، وسنرى أولئك الباحثين الآخرين في البلاغة لا يتكلفون في تنظيمها الضابط النظري الذي يرد الأبحاث الى كيت وكيت ، وانما يردون ذلك الى حاجة العمل الأدبي وطبيعة الفن القولي . (١)

دائرة البحث البلاغي عند المحدثين :—

==================================

وهي دائرة تحددها عندهم طبيعة العمل الأدبي ، والأدوار التي يمر بها ذلك العمل ، والمراحل التي يشعر قارئ القول الفني أن مبدعه قد قطعها ، حتى انتهى الى اخراج ذلك الأثر وتقديمه لقارئه .

= أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون " .

١ — انظر دائرة بحث البلاغة عند القدماء ص ٤٧ — ٥٣ فن القول .

الأيجاد ، والترتيب ، والتعبير .... تلك هى المراحل الثلاثة التى يدور الدرس المحدث فى فن القول عليها ، وتتحدد بها دائرة بحثه ، وهى ما يدرك كل قارئ متأمل أن كل متفنن قد مر بها لا محالة حتى أنجز عمله الأدبى .

أجل .. كل متفنن يمر بتلك الأدوار ، سواء فى ذلك المروّى صاحب الحوليات ، يعطى كل جانب من هاتيك الجوانب حظه من العناية ، فيتريث حتى يوجد من الأفكار والاحساسات والأخيلة كل ما يتصل بموضوعه ويلائمه ، ثم يتأنى فى ترتيب ذلك وتأليف صورته ، واضعا كل خط واشارة منها فى مكانه ، فاذا ما عبر عن ذلك كله ، محا وأثبت ، وتخير وتنوق ، فمر بتلك الأدوار متميز الخطا متمهلا . وقد يمر بها آخر على غير هذه الصفات كلها ، فهو عجل متسرع ، يكتب أول ما يتبادر له من الخواطر والمعانى ، ويخرج ما يلوح له من الصور ، فى غير دقة ولا تمييز ، ويعبر بما يسبق الى قلمه أو لسانه فى غير تذوق ولا تخير ، فيمر بتلك الأدوار معجلا مرتبكا ، متداخل الخطا ، قاصر النظرة ، سطحى الفن .

اذن .. تلك الأدوار الثلاثة هى خطوات العمل الفنى ، سواء أمر بها المتفنن متعجلا مقصرا ، أم متأنيا متريثا ، ملهما مستوحيا ، أو متدبرا متفكرا .

ثم هم ينظرون فى تفاصيل هذه الخطوات وما تقوم به ، فيدركون فى ذلك جوانب دقيقة ، بعضها مما لم نعرض له ذلك العرض الفاحص للعمل الفنى وهى حركات نفسية وعقلية وعملية .

فهم يرون أن " الأيجاد " وهو ظفر بأفكار واحساسات وأخيلة ،

يقوم على أشياء ، منها : الارادة ، والملاحظة ، والقراءة ، والتأمل ، والاخلاص .. الخ .

ولنقف عند كل واحد من تلك الأشياء وقفة قصيرة .

الارادة :—

========

في العمل الأدبي ، لابد قبل كل شيء من الارادة ، لأنها شرط أول لكل عمل ، والعمل الفني في حقيقته نفسي داخلي ، يقوم على الوجدان المواتي ، ويتولى الترجمة عما تجده النفس ، ومثل هذا لا يتحقق منه شيء اذا لم يقم على ارادة صادقة دافعة قوية .

والعمل الفني انما ينجح ويتم بقدر ما يتم له من الارادة الدافعة ، فان لم تكن تلك الارادة موفورة ، فليس الا الاضطراب والتخاذل والجهد الذي لا يجدي ولا يفيد .

ومهما يكن الرأي الفلسفي في حرية الارادة وجبريتها ، فان الفن لا يكون فنا جديرا بهذا الاسم الا اذا انبعث عن ارادة طليقة ، تعبر عما تجد النفس من وقع الأشياء حسنا وقبحا ، وبقدر ما تفقد الارادة من تلك الطلاقة يفقد الفن من قيمته .

الملاحظة :—

============

اذا وجدت الارادة ، وصح العزم على أن تكون متفننا ، فقد حق عليك أن تكون يقظا كل اليقظة لوقع الأشياء على وجدانك ، لتكتسب بذلك مادة الفن ، فتكون ملاحظتك لما حولك من أشخاص وأشياء وأحداث و ... هي الطريق الواضحة ،

والسبيل الميسرة لاكتساب المعانى الأدبية .. وما أصدق الذين يقولون :
اننا نقوم كل حين بما هو طريق لكسب المعرفة بالأشياء ، ولا ينقصنا الا الاستفادة
المنتبهة لذلك .

نعم .. فان حواسنا لا تستريح أبدا ، بل تلقاها دائما أضواء وألوان
وروائح وطعوم وأصوات وحركات ، تملأ يقظتنا ، وتتراءى فى نومنا ، لكننا
لا ندرك فى وضوح الا قليلا منها ، ولا نذكر الا أقواها وألذها ، وأقل
من القليل منها ما يبدو واضحا فى أذهاننا ، وما نتذكره عند الحاجة اليه ،
حينما يصبح موضوع عملنا الأدبى ومادته .

وهكذا تكون الملاحظة والنظرة الدقيقة أقرب سبل الايجاد الأدبى
المستقل غير المقلد ، بل المبتكر الخلاق ، اذا أحسنا الانتفاع بما نلحظه .

القـــراءة :ـ

اذا كانت الملاحظة تعرفنا ما حولنا من الكون الذى تناله حواسنا ،
فان وراء ذلك من أنحاء الدنيا ما لا تناله تلك الحواس ، واذا كانت الملاحظة
تعرف عصرنا فى الحياة ، فقبل ذلك عصور وعصور حوت من الحقائق ما نحتاج
الى معرفته ، واذا ما كانت الملاحظة تقتضينا مقدرة خاصة على التفهم والتمعن
فان لنا قبل احراز هذه المقدرة أن نستعين بما عرف الآخرون قبلنا وحولنا
وكذلك تعوض علينا القراءة كل ما لا تنيله ايانا الملاحظة .

وتعد القراءة بحق من أهم طرق الايجاد الأدبى ، ومقومة فعالة
للطرائق الأخرى من طرق الايجاد ، تسددها وتزيدها عمقا .

وجلىّ أن القراءة التى تحقق هذه الغاية ، انما هى القراءة العميقة ، المسايرة للكاتب مسايرة تستشف خواطره وحركات نفسه ، لا تلكم القراءة التى تعبر جمله وأسطره .

التأمـــــل :ـ

==============

اذا كانت الارادة هى التهيؤ النفسى لكسب المعانى الأدبية ، وعنهـا تبعث الملاحظة مظاهر الوجود حولنا ، ثم تمدنا القراءة بما عدا ذلـك زمانا ومكانا ، فذلك كله ليس الا أيسر الايجاد وأقربه . ووراء ذلك ما هـو أعمق وأقوم من كل أولئك ، اذ به يكتسب العمل الفنى قوته وقدرته علـى الحياة ، بل صلاحيته للخلود .. ذلكم هو التأمـل والتمعن ، الذى يمضى الى ما وراء الظواهر المدركة بالملاحظة ، ويذهب الى اللباب ، وينـال الصميم ، ويفسر مظاهر الوجود ، وظواهر الحوادث ، وسمات الأشخاص .. وهكذا تكون الملاحظة ادراكا خارجيا ، والتأمل استبطانا داخليا واستشفافا روحيا .. وما أكثر الذين يقصّون أو يصفون أو يشبهون أو يتخيلون ، فـلا يعدون المظاهر المادية ، والأشكال الخارجية ، والحجوم والألوان والمقادير ، ويعطون فى ذلك ما يحكى الحديث التعليمى عن الأشياء ، ولا يمسون شيئـا من تلك الايحاءات المعنوية ، ولا يفهمون شيئا من دلالة الماديات على المعانى ، ولا يعون شيئا من واقع الألوان والأوضاع والأقدار ، الا ما يعيه من يكيـل ويزن ، ويبيع ويبتاع ، لا من يستوحى ويستشف ، ويجد ويشعر ، ويتـذوق ويتلقى ، ويحس ويفهم ، ويترجم ويعبر ويفسر ، ويلقى النفوس الانسانيـة الشفافة بما تحب وتريد التعبير عنه .

ويذكر المحدثون سوى ذلك أمورا أخرى معينة على الايجاد ، ومبينة له ، حسبنا منها ما وصفناه في شيء من الاجمال يدلك على روح بحثهم في هذه الخطا .

ويذكر المحدثون في دائرة بحثهم البلاغي الخطوة الثانية بعد الايجاد وهي : " الترتيب " ويذكرون لها مثل تلك الأعمال ، وهاتيك الخطوات التي ذكرنا في الايجاد ، فيتحدثون عن : الاختيار والنظام والوضع ٠٠ وما الى ذلك ، وهي خطوات نتولاها بالشرح حين يستقر رأينا على خطتنا في الدرس البلاغي ، والمنهج الذي نختاره له ، والموضوعات التي نتصدى لها .

فاذا كانت الخطوة الثالثة ـ وهي : التعبير ـ عرضوا للبحث في : الفصاحة أو الابانة ، ثم الصور البيانية ، ثم صنوف الأساليب . وتحت كل واحدة من هذه النواحي الكبرى أبحاث جزئية نسوق شيئا منها .

ففي الفصاحة والابانة :ـ

====================

يتحدثون عن : الوضوح ، والمطابقة ، والتناسق ، والطلاوة ، ويذكرون الآراء والمذاهب الأدبية في ذلك ٠٠ كما يتحدثون عن أحوال الكلمة من حيث أثرها في الفن القولي ، وما ينبغي أن يلاحظه الأديب في تلك الأحوال ، فيبحثون في العامي والدخيل والمهمل والملحون والمستحدث وما الى ذلك من أعراض حياة الكلمات ، الى جانب حديثهم عن اللغة واللهجات .

وفي الصورة البيانية :ـ

====================== يلمون بكثير من المصطلحات التي عرفها بياننا ، في اتجاه فني أدبي ، يلائم ما عرفنا من ميلهم في هذا البحث ،

فيذكرون مثلا : المجاز المرسل اللغوى ، والمجاز العقلى الاسنادى ، — والاستعارة ، والكناية .. الخ ، ويذكرون من ذلك تفاصيل قد تلتقى مع ما نعرفه منها فى أصله ، وان اختلف التناول ولون البحث .

وفى أوضاع القول وصنوف الأساليب :

==========================

يعرضون للبحث فى النثر والشعر وخصائصهما ، والفنون المختلفة لكل من النثر والشعر ، كالنثر القصصى ، والخطابى ، والايضاحى ، والشعر الحماسى ، والغنائى ، والتعليمى ، والدرامى .. الخ .

ومن هذا وما ماثله نجد تخطيطهم للعام للبلاغة فى اجمال هو :

١ — مقدمات عن فن القول بين الفنون ، وتقسيم درس البلاغة على حسب طبيعة العمل الأدبى .

٢ — بحث خطوات العمل الأدبى من ايجاد وترتيب وتعبير ، حتى تكون الخطوة الأخيرة وهى التعبير ، فيزيدونها اهتماما .

٣ — بحث الكلمة ، وصور البيان ، وفنون القول ، ثم الأساليب ... فاذا البلاغة عندهم بخاصة وبعامة هى :

درس الأساليب ، أو هى : علم الأسلوب .

تلكم دائرة البحث البلاغى عندهم ، نستطيع بالموازنة بينها وبين ما عند قومنا أن نتبين نواحى الفرق .. ولعل أول ما نلحظه فى هذا البحث ودائرته .. أنه :—

* لا يقف عند الجملة ، بل يتصل بالعمل الفنى الأدبى كله ، وينظر فى فنون القول وأوضاعه نثرا وشعرا ، وفى الأساليب المختلفة ، بل

يعد البلاغة علم أسلوب .

* لا يقف عند بحث الألفاظ ، بل يبحثون عن الايجاد وطرائقه ، والترتيب وخطواته ، كما ينظرون فى الفنون الأدبية نظرة تعنى بالمعانى حين تنظر الى الألفاظ .

وبهذا ندرك اختلاف حدود البحث البلاغى عند الأقدمين والمحدثين اختلافا جوهريا ، ننظر بعده فى أمرنا ، وما يمكن أن نفعله على هدى هذا البيان ، ثم على هدى ملاحظة أننا انما نعلّم البلاغة لنصل الى غاية أدبية ... هذا ولا شك أن هذه المقارنات تزيدنا بصرا بما تحتاج اليه بلاغتنا من زيادة عليها ، أو استغناء عن شىء منها . (١)

وبعد هذه الجولة فى الموازنة بين :

ا — صورة البلاغة عندنا وعند المحدثين .

ب — دائرة البحث البلاغى " " " .

نأتى الى القسم الثالث من هذه الدراسة المقارنة وهى :-

---

١ — فن القول : ص ٥٣ — ٦٣ بتصرف . دائرة البحث المحدث وقد اعتمد الأستاذ الخولى فى دائرة البحث المحدث على كتاب الأسلوب الايطالى للباريتى

ثالثـــا : منهج درس البلاغـــة
عند القدماء والمحدثين
=============

ا ــ منهج القدمـــــاء : (١)
==================

الواقع ان الأستاذ الخولى فى هذا القسم من البحث أفاض وأفاض فــى الحديث عن البيئات البلاغية وأثرها فى المناهج التى اتبعت فى دراســـة البلاغة العربية ، وقد صال وجال وتفرع واستطرد .. وتحدث عن الدراسات الاصطلاحية ومتى بدأت ، والشعوبية وأثرها . والحالة الاجتماعيـــــة وأثرها فى اللغة والأسباب والمسببات لكل ذلك .. حتى لتكاد تضل وأنــت تلاحقه .. ولكنا هنا سنحاول بعد القراءة الشاملة والفحص الدقيـــــق أن نقدم الخلاصة الشافية اللازمة لنا فى بحثنا وندع ما عدا ذلك .

ومنهج القدماء فى البلاغة يستبين ويتضح اذا استحضرنا ما ذكرنــاه سابقا من أن البلاغة العربية نمت فى أحضان مدرستين كان لكل منهما طابعه الخاص فى البحث والدراسة ـ

الأولـــى : المدرسة الكلاميـــة .

والثانيـــة : المدرسة الأدبيـــة .

وهاتان المدرستان أشار اليهما صاحب الصناعتين فى قوله : " وليس الغـــرض فى هذا الكتاب سلوك مذهب المتكلمين ، وانما قصدت فيه مقصد صنـــاع

---

١ ــ راجــع فن القول ص ٦٥ ــ ١٠٤ .

الكلام من الشعراء والكتاب " . (١)

وجاء السيوطى بعد ذلك فسمى الأولى بلاغة العجم ، وسمى الثانية بلاغة العرب والبلغاء ، وذلك حين ترجم لنفسه قائلا : " ورزقت التبحر فى سبعة علوم : التفسير والحديث والفقه والنحو والمعانى والبيان والبديع على طريقة العرب البلغاء لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة " . (٢)

والواقع أن وجود هاتين المدرستين فى حياة البلاغة العربية كان نتيجة وجود بيئات وعناصر مختلفة دخلت ميدان البحث البلاغى ـ من ذلك :

١ ـ المتكلمون :ـ

============ أصحاب الصناعة اللاهوتية ، فى بحثهم للقرآن من حيث اعجازه وايحاؤه وفهم العقائد منه وما الى ذلك من مباحثهم .. والمتكلمون ـ كما نعرف ـ مهمتهم جدلية برهانية ، تقوم على الاستدلال ، وتبتغى الاثبات ، وتناظر مخالفين وخصوما ، وقد استعانوا عليها بالأبحاث الفلسفية ، وتسلحوا لها بالمنطق وصاغوا عليه مباحثهم .. مثل هؤلاء ان عرضوا لشىء من القول فى الفن الأدبى ، كان تعرضهم له على أساس درسهم ، ومنهج تناولهم المنطقى الاستدلالى ، النظرى الجدلى ، العقلى التحديدى .

وهكذا ندرك أن هذه البيئة الكلامية ترجح جانب المنهج النظرى العقلى الفلسفى بعيدا عن روح العمل الفنى .

---

١ ـ الصناعتين ص ٨ ط الاستانة .

٢ ـ حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ج ١ ص ١٥٥ .

٢ ـ الأصوليـــــون :

============ أصحاب الصناعة القانونية في فهمهم للشــــرع الاسلامي من القرآن ، واستخراج أصول التشريع من عباراته . وهم يقدمـــون بين يدى علمهم في أصول الفقه مقدمة واسعة الرحاب يسمونها المبـــادئ اللغوية ، يلمون فيها بأبحاث لغوية ، صرفية ، اشتقاقية ، نحويــــة ، بيانية .. ومن حيث الناحية البلاغية بخاصة ، فان هؤلاء الأصوليـــــين قد عرضوا في مبادئهم اللغوية ، للبحث في الحقيقة والمجاز والتشـــبيه والكناية وما الى ذلك من أبحاث علم البيان .. كما تحدثوا عن أشـــياء مما يتصل ببحث أجزاء الجملة في علم المعاني ، ففي حديثهم عن العمـــوم والخصوص ، عرضوا للتفكير والتعريف ، واستغراق المفرد ، واســـتغراق الجمع ، والحصر ، ونحوه .. كما تحدثوا عما يمت الى هذه المباحــث اللفظية بصلة قوية من القول في الترادف ، والاشتراك ، والتواطـــؤ .. وليس هذا فحسب بل ان تعرضهم للمسائل البلاغية .. من المعاني والبيـان ، قد انتهى بهم الى تناول نواح لم يستوفها أصحاب البلاغة أنفسهم ، مـــن نحو كلامهم في الجمع بين الحقيقة والمجاز ، وعموم المجاز ، وأن المجـاز أولى من الاشتراك ، وأن للمجاز أمارات يستدل بها عليه ، الى جانـــب قولهم في علاقات المجاز ... الخ .

وتلك الأبحاث البلاغية في المدرسة الأصولية ، هي التي جعلت السكاكي يشير الى استئثار علم أصول الفقه ، بأبحاث علمي المعاني والبيان ، ويقـول : بل تصفح معظم أبواب أصول الفقه ، لترى من أي علم هي ؟ ومـــن يتولاهـــا ؟ . (١)

---

١ ـ ص ١٩٩ مفتاح العلوم ط ١ الحلبي .

وهؤلاء الأصوليون انما غايتهم من هذا الدرس كله أن يخدموا الجانب العملى من الاجتهاد فى استخراج الأحكام ، واستعمال القياس فى ذلك ، على أساس من التنظيم المنطقى فى هذا الاستنباط ، وذلك القياس ، فهم أدنى الى الأسلوب العقلى المنطقى ، يلونون به مباحثهم ، ويستمدون منه نظراتهم ، ويتضح ذلك جليا فيما توسعوا فيه من أبحاث العلة فى باب القياس .

كما أنهم الى جانب هذا تأثروا بالفلسفة فى نواح كثيرة ، اضطرهم البحث الى تناولها والتعرض لها ، حين تحدثوا عن الحاكم ومن هو ؟ ونظروا الى القبح والحسن للأشياء والأفعال ، فكان هذا الاتصال بالمعانى والأغراض الفلسفية عاملا قويا فى سيطرة المنهج العقلى النظرى ، وتحكم الأسلوب المنطقى فى تفكيرهم ودراستهم ، وبهذا كله تأثر تناولهم للبلاغة وأبحاثها ومسائلها ، وكانت بيئتهم بطبيعة عملها ، وما ثار فى جوها ، عاملا مرجحا للمنهج الاستدلالى العقلى فى درس البلاغة .

على أن هناك بيئة أخرى كان لها أثرها البالغ فى حياة البلاغة العربية وهى البيئة الأدبية التى حاولت أن تتخلص من تلك الناحية النظرية فى دراسة البلاغة وقد تميزت هذه البيئة بمجافاتها للأحكام النظرية والعقلية المنطقية الاستدلالية التى جارت على العمل الفنى للبلاغة . وأكثر هؤلاء من الكتاب الذين قيل عنهم منذ القدم : ان الكتاب دهاقين الكلام ، وعرف عندهم من علم الأدب ما ليس عند غيرهم ، حتى قال الجاحظ : " طلبت علم الشعر عند الأصمعى فوجدته لا يحسن غريبه ، فرجعت الى الأخفش فوجدته لا يتقن الا اعرابه ، فعطفت على أبى عبيدة فوجدته لا يتقن الا ما اتصل بالأخبار ، وتعلق بالأيام والأنساب ، فلم أظفر

بما أردت الا عند أدباء الكتاب ، كالحسن بن وهب ، ومحمد بن عبد الملك الزيات ". (١)

والذى يعنينا هنا ـ والحديث عن منهج الدرس ـ أن عمل الكتاب فى بحث البلاغة كان أبعد فى جملته عن المنزع النظرى والخطة التعليمية ، كما أن ثقافة هؤلاء الكتاب كانت فى جملتها أيضا ثقافة أدبية المادة ، فنية الاتجاه ، عملية الهدف ، وذلك أنهم كانوا أقل اتصالا من غيرهم ان لم يكونوا أبعد تماما ، عن البيئة الحكمية النظرية ، والوجهة المنطقية الفلسفية ، وكان عملهم دائما : اما مشجعا على منهج مخالف للمنهج الفلسفى المنطقى الكلامى تماما ، أو مبعدا عنه بعدا مختلف النسبة ، باختلاف الظروف والعوامل . فكانوا يؤيدون المنهج الأدبى ، ويشجعونه فى صراعه مع المنهج العلمى النظرى .

ونتيجة لوجود هاتين البيئتين انقسم البحث البلاغى فى منهجه الى مذهبين أو على حد قول المحدثين الى مدرستين :

الأولى : المدرسة الكلامية : ومنهجها نظرى عقلى منطقى فلسفى .

والثانية : المدرسة الأدبية : ومنهجها عملى فنى يعتمد على الممارسة وكثرة الاتصال بالآثار الأدبية .

---

١ ـ البيان والتبيين ج ١ ص ١٠٥ .

ب ـ منهج المحدثين : (١)

حين نتحدث عن منهج درس البلاغة عند غيرنا ، فبحسبنا أن نصف أسلوب الدرس البلاغى الذى يؤثره الغربيون جملة ، والطريقة التى بها يتناولون هذه الأبحاث ، ويعلمون هذه المادة الأدبية • ومن المعلوم أن اللغات الغربية تتصل بحياة أهلها اتصالا وثيقا ، وأن لغة الحديث العادى هى لغة الأدب المتأنق المتفنن ، هى هى فى أصولها وجوهرها ، لا تفترق الا بما يفرق بين الأساليب المختلفة من خصائص ومميزات ولا تتفاوت الا بما تتفاوت به شخصية المتكلم وثقافته وأناقته ، والشخص هو الأسلوب ، أو الأسلوب هو الشخص •

واذا ما كانت تلك منزلة لغتهم فى الحياة ، وصلة حياتهم باللغة ، فان من الطبيعى أن تعتمد طريقة تعليمهم على استعمال اللغة ومزاولتها ، وممارسة التحدث بها مباشرة ، وتناول فنونها فعلا ، ويقصد المتعلم والمعلم الى غرض عملى مباشر ، غير نظرى ولا علمى ، فلا اعتماد على الكتب والشروح ، ولا حاجة إلى القواعد والضوابط ، ولا عناية بالشرح والتقسيم والتفريع ، بل هى المعاطاة تكسب الملكة ، وتروض القوى ، وتلك كلها مقومات ما سميناه : المنهج الأدبى أو العملى فى دراسة البلاغة •

فاذا ما وضعنا فى الاعتبار ـ بالاضافة الى ماسبق ـ أن لديهم حركة ناهضة متجددة فى شئون التربية وطرائقها ، والنفس الانسانية ورياضتها ،

---

١ ـ انظر منهج المحدثين ـ فن القول ص ١٠٤ ـ ١٠٨ بتصرف •

فقد آذن ذلك كله بأن نجد المنهج الأدبى فى درس بلاغتهم واضح المعالم، متميز القسمات، سليم الأساس . وكذلك نلمح من ترتيب دراستهم لهذه الأسلوبيات، أو لعناصر الأدب، مظاهر جلية، منها ما يأتى :

١ ـ الصلة الوثقى بين البلاغة والفنون :

فهم يضعون فن الكلمة الى جانب غيره من فنون النغمة واللون وسواهما، ويقدرون القرابة النسبية فى تلك الاخوّة المعقودة بين الأدب والموسيقى، اللذين ينظرون اليهما على أنهما شقيقان .

ويحتاج الحديث فى هذا الى الالمام بنواح للدرس : من علم الجمال وأصوله، وحقيقة الفن وشئونه، بعضها تسعف عليه ثقافتهم الأدبية، وبعضها يعرضون له فى الدرس البلاغى، فتجد لتلك الصلة بين البلاغة والفنون آثارا واضحة فى تنسيق أبحاثها، وفى تناول مسائلها، وتقرير الآراء والأحكام فيها .

هذا وقد ذكر الباحث من قبل فى مثل هذه المناسبة، ما لاحظه عبد القاهر الجرجانى من تلك الشركة الفنية بين فن الكلمة وفن اللون " (١) وما ذكره ابن خلدون من أن الغناء فى الصدر الأول كان من أجزاء الأدب، وكان الكتاب والفضلاء يأخذون أنفسهم به حرصا على تحصيل أساليب الشعر وفنونه (٢) .

---

١ ـ دلائل الاعجاز ص ٧٠ .

٢ ـ فن القول ص ٤٥ .

وعلى هذا فالصلة الوثقى ـ التى تحدث عنها الأستاذ الخولــــــى ـ بين البلاغة والفنون ، وكون البلاغة شقيقة الموسيقى ، ليست من بدع المحدثين فقد سبقهم الى ذلك قدماؤنا من أهل البلاغة والأدب ، أصحاب المدرســة الأدبية قبل أن تطغى عليها المدرسة الكلامية على نحو ما أشرنا من قبل .

٢ ـ تنســـيق العناصر الأدبيـــة :ـ

==============================

فهم ينزلون البلاغة منزلها المشيد بين جوانب تلك الدراسة ، بحيث يؤلف منها مجموعة متحدة الأسس ، متسقة الطابع ، لا نبوة فيها ولا جفوة ، فلا تلمح فيها شيئا من التكلف أو التمحل ، يشعرك فى قوة أو ضعف ، أن هذا الدرس البلاغى شيء يختلف فى كثير أو قليل عن غيره من مناحى الدراسة الأدبية الناقـــدة المتذوقة المتفننة .

فمن ذلك فى توزيعهم الدرس ، وتناول مسائله ، أنهم ـ مثـــلا ـ يصدرون القول بالبحث فى طبيعة الأدب وحدوده ، الى جانب الحديث عـــن الفن والفنون ، ويبحثون عن الغاية من الأدب ، فيصلونها بالعمل البلاغـــى وصلا وثيقا ، فاذا ما تناولوا الأبحاث البلاغية فانما يفعلون ذلك كله فى سبيل تحقيق الغاية الأدبية . فالوضوح والتأثير هدف الدارس الذى يسعى اليه ، فيتحدث عن طرائق الايضاح ، ونقاء التعبير ، ويلم من أجل ذلك بألـــوان من النظر اللغوى والفنى ، تنتظم صنوفا من الحديث عن صور التعبيــــر التجوزيـــة ، من حيث هى وسيلة لذلك ، لا من حيث هى قواعد ومباحث تختبر فيها القوة المتعلمة ، وترتبط بمختلف المعارف الحكمية .. وفى هـــذا البحث يلمون بأشياء مما هو عندنا من علم البيان ، وأشياء مما هو من البديـــع ، فهو جلوة تلك الأضواء الأدبية الفنية الباهرة ، يتكلمون عن البليغ الفاخـــر

البارع ، ومظاهر تلك البراعة ، وهذا التفوق فى الشكل والصورة ، أو فى المعنى والغرض ، فيصفون براعة الفكر وبراعة الاخراج فى مختلف الفنون الأدبية .

ومن ذلك يكون البحث فى الأسلوب وألوان التأليف الأدبى المختلفة وخصائصها ، وموازين تقديرها فنا فنا ، ولونا لونا .. وبذلك يبدأ البحث البلاغى عن الكلمة المفردة ، وينتهى الى الأثر الأدبى كله ، فى ظلال أدبية ، وتناول مثمر ، وروح ذوق قوية ، لا يعوق شيئا من ذلك قتام من صعوبة تحقيق لفظ ، أو تحديد اصطلاح ، أو ضبط منطق فلسفى لمعنى فى قوالب نظرية جدلية . (١)

وأقول : ان هذه الدراسة المقارنة ـ التى قدمها الأستاذ الخولى عن منهج البلاغة عندنا وعندهم ـ دراسة جيدة ، وهى لا شك مجدية حين نعانى تطوير بلاغتنا وننظر فى تجديدها .

ولكن .. لفت نظرى بشدة وأنا أعانى هذه القراءة وأدرس هذا القول .. أن لبه وأساسه موجود عندنا ومثبوت فى تراثنا .. فـ (تنسيق العناصر الأدبية تنسيقا ينزل البلاغة منزلها المشيد بين جوانب تلك الدراسة ، ويؤلف منها مجموعة متحدة الأسس ، متسقة الطابع ، لا نبوة فيها ولا جفوة) (٢) أمر ورد فى المدرسة الأدبية ، حيث كانت البلاغة مختلطة بالنقد والأدب ،

---

١ ـ فن القول ص ١٠٦ و ١٠٧ .

٢ ـ فن القول ص ١٠٦ .

وكانت البلاغة والنقد والأدب مجموعة متحدة الأسس ، متسقة الطابع ، لا نبوة فيها ولا جفوة .

وأما أنهم يلمون فى هذا البحث (بأشياء مما هو عندنا من علم البيان ، وأشياء مما هو من البديع — ويتكلمون عن البليغ الفاخر البارع ، ومظاهر تلك البراعة ..) (١)

فانه من الواضح أنهم يستعيرون منا بعض بحوث بلاغتنا ويأخذون بعضا من البيان والبديع .... كما يقتبسون بعضا من كلام قدمائنا عن براعة البلغاء وقدرتهم ومظاهر تلك البراعة فى تخير اللفظ المناسب للمعنى الحسن أو (براعة الفكر وبراعة الاخراج) بتعبيرهم الحديث . ونظرة فى تراثنا نجد ذلك منثور هنا وهناك .. ففى صحيفة بشر بن المعتمر تقرأ — على سبيل المثال — " فكل عين وغرة من الكلام لفظ شريف ومعنى بديع ، والتعقيد هو الذى يستهلك معانيك ، ويشين ألفاظك ، ومن أراغ معنى كريما فليلتمس له لفظا كريما ، فان حق المعنى الشريف اللفظ الشريف .... "

ويقول أيضا : " وينبغى للمتكلم أن يعرف أقدار المعانى ، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين ، وبين أقدار الحالات ، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما ، ولكل حالة مقاما ... " . (٢) ونقرأ للجاحظ أيضا : " وكلام الناس فى طبقات ، كما أن الناس أنفسهم فى طبقات ، فمن الكلام الجزل والسخيف والمليح والحسن والقبيح والخفيف والثقيل ، وكله عربى .. " (٣)

---

١ — فن القول ص ١٠٧ .

٢ — راجع نص صحيفة بشر فى البيان والتبيين حـ ١ ص ١٠٤ — ١٠٧ . أو العمدة لابن رشيق حـ ١ ص ٢١٢ — ٢١٤ .

٣ — البيان والتبيين حـ ١ ص ١٤٤ .

ومن الملاحظ أن الجاحظ لم يختر فى كتابته أسلوب التعريف والتحديد رغم أنه كان من أئمة المتكلمين ، وانما اختار أسلوب الأديب البليغ الذى ينطلق مع عقله وذوقه وفطرته ، فكان يستعرض النصوص الأدبية ويشرحها مستهدفا الوصول الى مواطن الجمال فيها .

وفى ذلك يقول الدكتور شوقى ضيف : (ان الجاحظ قد ألم فى كتابته بالصور البيانية المختلفة وكثير من فنون البديع ، غير أنه لم يسق ذلك فى تعريفات وتحديدات ، فقد كان مشغولا بايراد النماذج البلاغية ، وقلما عنى بتوضيح دلالة المثال على القاعدة البلاغية التى يقررها ..) . (١) وغير ذلك كثير فى تراثنا لو ذهبنا نستقصيه .

أليس ذلك هو فرق ما بيننا وبينهم ؟ هم اعتمدوا الطريقة الأدبية أو المدرسة الأدبية وزادوا عليها ونقوا فيها ، ونحن تركناها الى الطريقة الكلامية التى أدت بنا الى طريق مسدود . فاذا جئنا اليوم واقتبسنا منهم بعض طرائقهم فى بحث البلاغة ودرسها قلنا أن نقول : " هذه بضاعتنا ردت الينا " .

ونعود الى المظهر الثالث من منهج المحدثين :

---

١ — البلاغة تطور وتاريخ ص ٥٦ .

٣ ـ ربط هذا الدرس بالثروة الأدبية للغة المدروسة :

وهذا الربط لا ينتهى عند التزامهم ايراد الشاهد الفنى الأدبى ، دون صنع المثل الذى يساير القاعدة ، ويجارى الضابط .. ولا ينتهى عند اكثارهم من هذه الشواهد بل يمضى الى الوقفة الطويلة عند قطعة أدبية تورد بجملتها ، لينظر فيها نظرة متذوقة ، يشار عندها الى ما لصاحب هذه القطعة من روائع أدبية أخرى فى مثل هذا الصنيع ، من تشبيه خاص ، أو صورة تعبيرية موفقة .. وكذلك يمتد القول الى اشارات تاريخية تربط هذا الفن الأدبى فى اللغة المدروسة بأصوله فى الأدب أو الآداب التى كان لها تأثير واتصال بأدب تلك اللغة فأنت تجد مع الشاهد الأوربى الحديث أو المتوسط نظيره أو أصله اليونانى ، أو تقليد هذا اليونانى فى اللاتينية ، وما الى ذلك من بيان يجلو الفكرة الأدبية واضحة بتماسكها ، قوية بتكاملها ، قد بدت الفروق الزمنية فى حياتها ، وتمثلت مسايرتها للوجود ، وارتباطها بالحياة ، بعد ما لفتت الى ذلك الفكرة العامة عن طبيعة الأدب وغايته ، وأعان عليه واقع اللغة فى الحياة وتحكمها فيها . (١)

ونفهم من هذا أن المحدثين يزيدون عن مدرستنا الأدبية فى أنهم يوردون الأثر الأدبى بجملته ، ويضيفون اليه ما لصاحب الأثر الأدبى من روائع أدبية أخرى ، وينظرون فى كل ذلك نظرة متذوقة .. ولا يكتفون بذلك بل تمتد نظرتهم الى اشارات تاريخية تربط هذا الفن الأدبى بنظيره أو بأصوله

---

١ ـ فن القول ص ١٠٧ و ١٠٨ .

ان وجدت في الآداب الأخرى التى كان لها صلة بتلك اللغة .. أى أنها دراسة مقارنة للقطعة الأدبية التى يوردونها فى دراستهم البلاغية . وهى فى الحق طريقة مشبعة فى الدراسة الأدبية تملأ الدارس بالفهم العميق والنظرة الشاملة حبذا لو اتجهنا اليها وأدخلناها على دراستنا البلاغية ونحن بصدد تطويرها وتجديدها .

٤ ـ اقامة الدرس على أساس وجدانى ذوقى :ـ

فليس يبدأ القول فى العمل الفنى بتعريفه وتحديده ، ولا بوصفه وعرضه ، ولا بسوق الأمثلة له ، وحمل السامع على استخراج عناصر القاعدة أو أجزاء الفكرة ـ وهذا هو ما يحدث فى خطة الدرس ومنهجه عندنا حاليا ـ بل يعتمد الدرس على أصل عام فى التدريب على الفنون ، وذلك الأصل هو : ايقاظ قوة الملاحظة الفنية والتنبه الوجدانى فى الدارس ، تنبها يجعله يشهد المثل الفنية ، والصور البارعة ، التى جادت بها فطر موهوبة ، وخلقتها نفوس حساسة صافية ، يشهدها المتكلم ، ويلتفت منها الى ما تسعفه عليه فطرته ، ويتنبه له وجدانه ، وتستشفه موهبته .. فيبدأ بالتمييز والحكم لا بالتلقين والالزام .

وقد رأيتم مثلا لذلك فيما سبق من وصف صورة البلاغة عند الغربيين ، وكيف يدعون الدارس يدرك وحده طبيعة الدرس البلاغى ، بأن يعرضوا عليه قطعتين أدبيتين هما وصف لشىء واحد مثلا ، وقد صيغتا من كلمات واحدة ، ليقدر ما به الفرق بينهما .. الخ .

كما رأيتهم يطلبون اليه التعبير عن معنى واحد بصور مختلفة ، منها

صورة تكون أتق عنده وأحسن في تقديره .

وهكذا يتأيد المنهج الفني في طريقة الدراسة نفسها ، بعد الذي تهيأ به ذلك من صلة بالفنون الأخرى ، وتنسيق للأبحاث بين الدراسات الأدبية ، وربط لها بالثروة الأدبية للغة المدروسة ، على نحو ما أشرنا اليه آنفا ، فيأتلف من ذلك منهج أدبي سليم غير مشوب .

رابعا : غاية البلاغة .. أمس واليوم

١ — غاية البلاغة عند القدماء :—

يرى الأستاذ الخولي أن هناك قاعدة عامة تشمل غاية البلاغة في كل أمة .

وهي أن : " غاية البلاغة في أمة ، تتصل بغاية تلك الأمة في حياتها ، وتتجه نحو هدف تلك الجماعة في وجودها .. " وعلى هذا الأساس بحث في غاية البلاغة أمس واليوم ..

ففي العصر الجاهلي كانت الحياة صراعا ماديا عريانا ، حماته مغاوير بهم ، أو مقاويل لسن ، تعتد هم القبيلة بعض ما تناضل به ، فتفرح بنبوغ الشاعر فيها ، وتحتفل لذلك .. في هذه الحياة الجاهلية كانت الاجادة القولية والتفوق الفني ، يبتغى التماسا للفلج والغلب ، وكسبا للقوة التي هي غاية الحياة حينئذ ، والباعث الأعظم على أعمال هذه الجماعة وأفرادها وبهذا كانت تلك القوة غاية البلاغة .

أما فى العصر الاسلامى فقد كانت الدعوة الاسلامية تدور على تلك المعجزة القولية ، وهى القرآن الكريم .. كما يعتمد الكفاح بين المعسكر الاسلامى الجديد ، وما حوله من معسكرات قديمة على ما كان يعتمد عليه قبل ذلك من أسلحة وخطط : فللرسول شعراؤه ، ولخصومه شعراؤهم والمدح والهجاء بين الجانبين متصل ، فكان الفن القولى قوة فى الدعوة الدينية ، كما هو قوة فى النضال الدنيوى .

ومع انتصار الاسلام وانتشاره وتقدم الزمن ، صارت الغاية من البلاغة هى معرفة اعجاز القرآن الكريم .. وان كان هناك غرض آخر ذكره أبو هلال العسكرى (١)، وهو معرفة الجيد من الردىء فى الكلام ، والقدرة على صنع قصيدة أو انشاء رسالة . وهكذا نجد الغاية من البلاغة أمس عند قدمائنا تراوحت بين : القوة ، ومعرفة الاعجاز ، وتمييز الجيد من الردىء من الكلام وبالتالى القدرة على صنع كلام جيد شعرا أو نثرا . (٢)

ويهمنى هنا أن أذكر غرضا آخر ، كنت أحب ألا يغفله الأستاذ الخولى لأهميته ، فهو يتعلق بالناحية النفسية الوجدانية ، وهى ناحية كثر حديث المحدثين حولها ، واهتمامهم بها ، هذا الغرض أو تلك الغاية هى : الامتاع ، واثارة الطرب والاحساس بالجمال فى نفوس السامعين أو القارئين .. وليس يغيب عنا ما كان يدور فى أسواق الجاهلية ، كسوق عكاظ ، ومجنة ،

---

١ ـ انظر الصناعتين ص ٢ و ٣ .

٢ ـ فن القول ص ١٤٦ ـ ١٥٠ بتصرف .

وذى المجاز ، من تنافس بين الشعراء فى اثارة الاعجاب والطرب بما يقولون وما كان يصدره المحكمون من أحكام بالحسن والأفضلية لهذا أو ذاك .. وعلى مر الأيام تطور هذا الامتاع ، وزادوا من وسائله ، فكانوا يختارون القطع الشعرية الجميلة يلحنونها ويغنونها .. وما زال هذا الامتاع للقول الفنى غرضا مصاحبا حتى عصرنا الحاضر ، تقام له المؤتمرات الشعرية والحفلات والندوات الأدبية فى مختلف البلاد العربية ، وقد وصل بهم الأمر الى أن اختاروا أميرا للشعراء كان شعره غاية فى الامتاع واثارة الاحساس بالجمال .

والأستاذ الخولى يرى أن غاية البلاغة اليوم تقلصت وهانت فقد أصبحت مجرد مادة من مواد درس العربية ، التى يطالب باجتياز الامتحان فيها ممن يبتغى حمل هذه الاجازة الممكنة من العمل .

ب ـ غاية البلاغة عند المحدثين :ـ (١)

==============================

والبلاغة عند المحدثين لها غايتان : ١ ـ عملية حيوية
٢ ـ فنية تذوقية .

فأما الأولى :

========== فهى ما يحققه فن القول من مصالح فى حياتنا ، اذ هو ألزم تلك الفنون وأجداها ، وليس فينا من لا يستعمله فى صورة ما ، ليحقق به غرضا حيويا ، يكون القول الحسن وصلته ووسيلته ، فليس فى الناس من يستغنى عن بيان يقربه من نفس من يعامله ، أو طلب يرفعه الى ذى شأن

---

١ ـ فن القول ص ١٥٠ ـ ١٥٦ بتصرف .

حاكم ، ليرفع عنه ظلما ، أو يحقق له أملا ، أو يقضى له عملا .. وتلك وما اليها مواطن تحوج فيها الحياة الى القول المتفنن ، يقال أو يكتب ، وبدونه تتعطل تلك المصالح أو تتعقد ، ومن هنا كانت دراسة البلاغة جد لازمة وضرورية للناس جميعا ، سواء الموهوبون منهم ذوو الحس الفنى والقدرة البيانية ، وغير الموهوبين ، فهم كذلك لابد لهم من هذا الدرس ، ليصقلوا فطرتهم ، ويروضوا طبائعهم ، كى يعطوا ما يستطيعون اعطاءه من كتابة مقبولة نوعا ما ، أو قول أنيق الى حد ما ، يستعينون به على ما لا بد منه فى حياتهم .

تلك هى الغاية العملية للبلاغة ، يتحقق بها لكل دارس نصيب من الاجادة القولية ، ليرفعوا مستوى حياتهم ، ويحققوا من منافعهم ما يتوقف على الابانة والأداء الحسن .. ذلك هو الجانب العملى من غاية البلاغة فى حياة الانسان الفرد .

وان لهذه الغاية العملية فى حياة الجماعة لمجالا أفسح ، وفائدة أبعد ، يجعلها لك أن تقدر أن الجماعة ليست الا كثرة يربطها شعور نفسى مشترك ، وهذا الشعور النفسى المشترك : من أمل ورجاء وثقة بالغد ، أو ألم وضيق وشكوى من عجز ، أو بهجة وسرور بعزة أو نصر ، وما الى ذلك مما يهز مشاعر الجماعة ، ويمسك عليها كيانها ، ويدفعها لغدها .
وجلاء هذا الشعور المشترك ، وحسن تبادله بين نفوس أهلها ، لا سبيل اليه أقرب ولا أوضح من قول مبين ، وبيان متفنن .. وتلك حاجة حيوية اسبق من المتعة بالخير والجمال والحق ، وآصل من هذا التذوق الكمالى على ما لهذه المتعة وذاك التذوق من اثر بعيد فى الحياة العاملة والقوى الجادة .

ولا ننسى أن حياة الأمة في تدبير سياستها ، وفي شورى نيابتها ، وفي تطبيق قانونها ، وتسيير قضائها ، تحتاج الى هذه الابانة القولية، حاجة عملية ماسة ، ومادية قريبة ، هي أيضا من الغاية العملية الأولى لتلك البلاغة .

والظاهر أن الأستاذ الخولي خلط هنا بين البلاغة والأدب واللغة ، فاعتبر الحديث المادي اليومي بين الأشخاص وبعضهم ،وأن كتابة الطلبات والرسائل والشكاوى ، كل هذا يدخل تحت باب البلاغة ،وغاية من غاياتها .

ولئن سلمنا بأن كلا من المحامي ، وممثل الشعب في البرلمان ،وخطيب الحزب السياسي كل واحد من هؤلاء في حاجة الى البلاغة ، وهي غاية عملية حيوية بالنسبة له .. فاننا لا نسلم بأن حديث التخاطب المادي بين الأفراد يستلزم البلاغة ، ويتطلب أن يكون بليغا ، بل تكفي فيه اللغة المعبرة الصحيحة .. وكذلك كاتب الطلبات والرسائل والشكاوى وما شاكلها ، وان كان هؤلاء بالذات يحسن أن يلموا بشيء من الأدب ومعرفة جيد الكلام من رديئه ، ولكن أن تكون البلاغة غاية عملية لهم فهذا كثير ومستبعد الا ان كان هؤلاء الكتاب موظفين في ديوان ملكي أو جهة حكومية هامة أو في مجال الاعلام .

وأما الثانية :—
=============

وهي الغاية الفنية المعنوية ، فقد عرفت مدى ما في الأدب من امتاع روحي ، ورضا نفسي ، يجده الشاعر بالجمال ،

فيحس الرغبة المتملكة فى التعبير عنه واشراك الآخرين فيه ، كما يجده أولئك الآخرون حين يأتيهم صوت المتفنن بيانا ناطقا عما وجدوه وعيوابه ، واحسوه فأرادوا العبارة عنه ، لكنها امتنعت عليهم ، ولم تستطعها طبيعتهم ذات الحظ المحدود من الهبة الفنية . وهذه المتعة الروحية ذات جانبين :

أحدهما = التعبير عن الاحساس بالجمال ، حين تسعف الفطرة المواتية الشخص الموهوب شاعرا أو ناثرا .

ثانيهما = التذوق الناقد لفن هذا المعبر ، والشعور الصحيح الدقيق بقيمته الفنية ، تذوقا وشعورا يعين على كشف كنوز متجددة من الجمال ، فى تلك الآثار الناثرة أو الشاعرة ، فيكون درس البلاغة وصلة للتمتع العالى بلذة معنوية روحية .

فغاية البلاغة عند غيرنا : اما عملية حيوية ، واما فنية متمتعة بالتعبير عن الجميل أو بالنقد المتذوق لروائع الأداء الفنى للشعور بالحسن . وهى فى جملتها ترجع الى ما كان يقول القدماء : " صناعة الجيد ، أو ادراك الجيد " . الا أن هذا الادراك للجيد ليس هو النقد صناعة واحترافا ، أو رياضة وتمليط ، بل هو استمتاع روحى ، وتلذذ وجدانى يسعد النفس ، ويرفع مستوى الحياة .

=======

بلاغة اليوم ..

أو .. فن القول .

=========================

من أجل تقييم الرأى فى البلاغة واصلاحها ، على أساس من الواقع المجرب ، المنتفع بخبرة من حولنا من الأمم ، المستفيد من التقدم الانسانى ، والرقى الاجتماعى .. من أجل ذلك قدمنا ما سلف من مقارنات لصورة البلاغة ، ودائرة بحثها ، ومنهج درسها ، وغاية هذا الدرس ، عند الأقدمين ـ على ما اشتهر عندهم وغلب فى تناولهم من صنيع مدرسة المتكلمين فيهم ـ ، وعند المحدثين من أمم الغرب فى جملة أمرهم ولباب رأيهم .

وبهذه المقارنات رجوت أن تكشف المقابلة عن أوجه من الفروق الجلية ، تقنع الناظر بالحاجة الحقة الى التغيير والتعديل .. ولعل مما يزيد الاقدام فى هذا الميدان ما أشرنا اليه ـ غير مرة ـ من اقرار القدماء أنفسهم ، أن ـ البيان من علومهم التى لم تنضج ولم تحترق (١) ، فهو بشهادتهم محتاج الى الانضاج ، حاجة قد قرروها وان لم يحاولوا تحقيقها ، وسلموا بها وان لم يلتمسوا اتمامها . وتلك منهم ـ فيما أرى ـ وصاة للخالفين ، يرضى أولئك السلف أن تتحقق .

واذا ما كانت مقارناتنا السابقة ، قد كشفت عن نواحى هذا التغيير ، وقدمت عناصر ذلك التجديد ، فانا نعرض هنا لنتائج المقارنات فى نواحيها

---

١ ـ الجلال السيوطى ـ كتاب الأشباه والنظائر ـ حـ ١ ص ٥ و ٦ ط الهند .

المختلفة ، فنتناولها واحدة واحدة ، نعرض مجمل ما انتهت اليه في مكانها ، لننظر فيما يحقق الوجه الأفضل ، والمثل الأكمل في تلك الناحية ، بتنحية المعوّق ، وتكملة الناقص ، وتنمية المتوقف ، وزيادة المستحدث ، فاذا ما أتممنا ذلك في تلك النواحي الأربع ، التي أدرنا عليها المقارنة ، كملت لنا الفكرة عن " بلاغة اليوم " .

ونبدأ بعرض نواحي المقارنة واحدة واحدة ، لنرى نتائج تلك المقارنة :

ا ـ في الصورة وجمالها .

ب ـ في الدائرة وسعتها

ج ـ في المنهج وتصحيحه

د ـ في الغاية وحيويتها .

=========

أولا : فى صورة البلاغة ..

انتهت بنا المقارنة بين صورة البلاغة عند القدماء ، وصورتها عند المحدثين ، الى النتائج الآتية : (١)

فى القديم	فى الحديث
بدت صورتها على أنها : بحث يحترز به عن التعقيد المعنوى ، وعن الخطأ فى تأدية المعنى المراد ،	بدت صورتها على أنها : الدرس الذى يعلم الأحسن والأجمل من الكلام .
تقع فى تنسيق العلوم الأدبية بعد النحو ، وتعنى بالمعانى الثانوية بعد المعنى الأول الأصلى ، وبمراتب الافادة لتلك المعانى الثانية .	هى فى ترتيب المعارف والثقافات : فن من الفنون الجميلة ، أساسه القول الممتاز ، وأداته الكلمة .. وفى تدرج الدرس اللغوى تكون مرحلة من الحسن تجىء بعد الصحة .
ضيقة الحدود ، قائمة على المعقول من منطق وفلسفة .. فكانت صورة ذلك كله معروقة الوجه .	درس فنى ، شقيق الموسيقى ، وصنو سائر أفراد الأسرة الفنية ، من سمعية وبصرية ، فبدت صورتها

١ ـ انظر فن القول ص ١٧٣ ـ ١٨١ .

بادية العظام شاحبة يسيرة الحظ من الحيوية والنضرة .	لذلك كله أنضر وجهها ، وأبهى قسمات ، اذ هى تعبير عن الاحساس بالجمال ، تتصل من ذلك بأرقى وأنبل وأصفى ما تستطيعه الروح الانسانية .

يرى الأستاذ الخولى أنه بالنظر فى المقارنة السابقة ، يبدو تقابل الصورتين وتتراءيان لنا واضحتى التخالف والتضاد ، يزيد ما بينهما من فرق بذهاب الثانية صعدا فى مدارج الفن والجمال ، ومضى الأولى نزلا فى جفاف النظريات ، وجفوة الفلسفيات ، ونسيان الفنيات . فماذا ينبغى أن نعمل لاكساب بلاغتنا تلك الصورة المحببة .

أول العمل فى هذا السبيل ـ كما يقول القدماء ـ : تخلية ، وثانيه تحلية .

فالتخلية : تخليص هذه البلاغة من مظاهر الجمود ، وظواهر الجفاف ، وأسباب الذبول .. فاذا ما تم لنا ذلك ، صلحت بعده للتحلية ، بأسباب الحسن ، ووسائل التأثير .

وعلى هذين النوعين نقسم عملنا فى تجميل صورة البلاغة ، بادئين بـ :

التخلية :ـ

==============

يرى الأستاذ الخولى أنه يجب أن نقرب بين الفن والبلاغة . ومن أجل

ذلك لابد أن نكشف ما يسود جو شعورنا ، ويكون حياتنا ، من جفوة ونفور من الفن والفنون ، اذ اقتضت هذه الجفوة أسباب متعددة ، منها ما هو سياسى ، وما هو اقتصادى ، وما هو دينى عام ، كنظرة التدين الى منزلة الحياة الدنيا من الحياة الآخرة ، وما هو دينى خاص ، كنظرة التصوف الزاهدة الى مباهج الكون ومحاسن العالم ، وأضفى ذلك كله على الحياة الاسلامية ظلالا من السآمة والملل ، وألوانا داكنة ، فانصرف قومنا فى العصور الوسطى من تاريخهم ، حتى قريب من عصرنا هذا ، عن الدنيا ، وحرموا زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق .

وحسبنا فيما نبتغى من تنقية الجو ، وتصفية الشعور ، أن نقرر أن المتعة الفنية ، التى أشرنا اليها فى غاية البلاغة ، مما لا بأس به ، ولا شر فيه ، بل هى مما تستقيم به الحياة وتقوى ، وترتقى وتكرم ، وان كان لابد لنا من أن نحتج لشىء من هذا أو نؤيده ، فلقد يكفى فى ذلك ، أن هذا الفن القولى هو جمال اللسان ، الذى يقال عنه : ان الرسول عليه السلام سئل : فيم الجمال ؟ فقال : فى اللسان (١) ، وما بنا أن نخرج هذا أو نتعقبه ، فان الاسلام هو صاحب المعجزة القولية ، التى نشرت دعوته ، وأيدت دولته ، وفى سبيل اعجازها التمسوا ذلك الدرس البلاغى .

ومن التخلية أيضا : أن نزيل من الأذهان ما فى استعمالهم للعلم والفن من تداخل وعدم تميز ، لنقرر بذلك معنى الفن وحقيقته فى مكانه الصحيح من صنوف المعارف الانسانية ، ونشعر بالجانب الوجدانى والمعنى

---

١ — البيان والتبيين : حـ ١ ص ١٨٤ .

الجميل فيه ، فنشعر من اطلاقه على ذلك الدرس البلاغى بروح واستروا ح ، ينقلنا الى عالمه ، ويحيينا فى دنياه ، ويحول بينه وبين أعاصير النظر العقلى ، فلا تختنق زهراته ، ولا تصوح ورقاته ، ويغرينا بالتذوق الأدبى الذى يرفع ويضع ، ويأخذ ويدع ، من صور التعبير ، وأساليب القول .

والذى نشير اليه من عدم التمييز فى استعمال العلم والفن ، هو ما نجده فى صنيع الأقدمين ، اذ يسوون — أو يكادون — فى اطلاق الفن والعلم ، فيتحدثون عن مبادئ العلم أو مبادئ الفن ، ويسمون عددا من دراستهم علما ، كما يسمونها حينا فنا ، ما يجدون فى ذلك كبير فرق .

أما فى العصر الحديث فلقد وضح الفرق بين العلم والفن ، ونسقت المعارف تنسيقا يفرق بين ذلك . فيخص " الفن " بما هو تطبيق لحقائق نظرية ، وقضايا علمية ، مما يمكن من عمل يدوى . فاذا ما وصف الفن بالجميل فقد أريد به ذلك النشاط الوجدانى الذى يختص بالتعبير عن الشعور بالحسن ، سواء كان من الفنون السمعية كالموسيقا والأدب ، أو البصرية كالعمارة والنحت ..

وأحسب أنه بازالة هذا التداخل فى الاستعمال ، نهيئ الأرواح لتمثل تلك البلاغة ، وجدانية الوجود ، حسناء المعارف ، وضاءة القسمات .

التحليـــــــــة :—

============== فى هذه التحلية يجب أولا أن نظل مخلصين لقديمنا ما استطعنا ، حسنى الظن به ما وجدنا الى ذلك سبيلا ، فنلتمس

خيره ، ونجلو ما فيه من محاسن ، قبل أن نلتمس لهذه البلاغة زيا غريبا ، أو سمتا دخيلا ، أو زينة من تطرية الآخرين .. ولقد كنا حدثنا فى المنهج عن مدرسة أدبية للبلاغة ، ان غلبت على أمرها فى الحياة التعليمية ، فانها لم تحرم مكانها فى عالم التصنيف ، وقد قام بها نفر من الكتاب وغيرهم ، وخلفوا فيها آثارا ، نحسن الى أنفسنا والى ماضينا ، حين نطلب ما فيها من تفنن أو تذوق وتنبه وتطلع ، فنبتغى ذلك لنحييه فى درسنا اليوم .

واذا ما ظفرنا من هذا القديم بكل ما فيه من حلية ورواء ، تقدمنا الى اتمام ذلك بما يكمله من : التحلية بالجديد ... تحلية ترسى أصول هذا التفنن ، وتزيد صورة البلاغة وضاءة وسنا .

وأول التحلية بالجديد ما يتعلق بتعريف البلاغة اذ يرى الأستاذ الخولى أن التعريف القديم يجب أن يحل محله تعريف جديد يكون تعبيرا عن الاحساس بالجمال .. وذلك التعريف فى رأيه أن : البلاغة هى " فن القول " فيكون هذا التعريف ، وهاتيك التسمية ، لفتا متصلا الى الصورة المحببة ، والمنهج المرجو ، وصرفا مستمرا عما نحرص على ابعاده من الصور القديمة للبلاغة ، والطريقة غير الصالحة فى تناولها .. ثم هى مع ذلك تحمل دلالة لغوية قريبة على المعنى الحسن المراد من البلاغة قديما وحديثا ، لما فى مادة الفن من المعانى ، فمنها التزيين ، يقال : فن الشىء فنا زيّنه ، ومنها التنويع مع اشعار بمعنى الحسن ، يقال : افتن فى الحديث : أخذ فى فنون وأساليب حسنة من الكلام ، وهى مما نحسن فيه من حسن القول وجمال الكلام ، بل دلالتها عليه أقرب من دلالة البلوغ والانتهاء الذى أخذوا منه اسم البلاغة .. ثم فى هذه التسمية

بفن القول ، تأثير نفسى فى اعداد الطالب وتوجيه قواه ، ومثل هذا لا يستهان به فى ميدان التعليم والتلقين ، اذ يصل الطالب بجو الجمال والفن الذى تمنحه الحياة من نشاطها الكثير ، ويغرى هذا الوصل بأساليب الفن وطرائقه ، ويبرئ من الخلط فى المنهج والتناول ، فتستقر بمعونة ذلك أصول التفنين الذى يراد تحقيقه فى هذه البلاغة .

ثم ان هذه التسمية مما ارتضاه المحدثون علما على هذه الدراسة ، فهى ليست بدعا من الرأى ، ولا غريبا من التسمية .

هذا قولنا هنا فى التعريف ، من حيث أثره فى تجميل الصورة ، وتأييد أهداف التجديد فى البلاغة . وأما الموازنة بين هذا التعريف وتعريفات الأقدمين على اختلاف العصور ، فموضع التعرض له سنلم به قريبا عند الحديث عن : المبادئ من فن القول .

أما ثانى ما تحلّى به صورة البلاغة من الجديد فهو :

" مقدمة فنية " تصل طالب هذه المادة بأطراف من " علم الجمال " وأصول التفنن ، فتنتظم خلاصة القول فى الفن ، وأصوله ، ومكانه فى المعرفة الانسانية ، وصلته بما سواه من ألوان المعرفة ، كالفلسفة والعلم ، واجمالات عن الجمال ما هو ؟ وبأى شئ يكون ؟ وفى أى شئ ؟ وهل يستطاع قياسه ؟ وبم ؟ وكيف ؟ مع التعرض الخاص للجمال اللسانى فى هذا كله ، واعتبار ما عداه من فنون الجمال الأخرى وسيلة لفهمه هو ، واللفت اليه لفتا يقوم على أساس ، ويعتمد على درس وخبرة ومعرفة ، مما يزود أصحاب الدراسة الأدبية بما يقدرهم على القول الناقد ، والحكم الصادق ،

فى تناول دقيق ، وادراك عميق ، وحكم سليم .

ومثل هذه المقدمة لا يكون النقد الأدبى ، والتذوق الفنى ، محاولات مبهمة ، ولا أحكاما مطلقة ، بعبارات غامضة ، كالتى ألفناها فى قول الأقدمين والمحدثين ، وصفا لرجال الفن القولى وآثارهم فيه ، مثل قولهم عن الرجال : انهم سحرة مغلقون ، أو مهرة بارعون .. وقولهم عن الذوق : انه سر روحانى ، وسحر وفتنة و .. و .. ، وقولهم فى وصف الآثار : انها رائعة ومعجزة ، وبارعة وباهرة ، أو متينة ورصينة ، دون أن يستطيعوا لذلك بيانا ، أو يجدوا شيئا من الايضاح .. أما حين يلم الدارسون بمثل أبحاث تلك المقدمة الفنية ، فانهم يوفون من ذلك على ما يوجهون به وجدان المتذوق ، ويقولون فى ذلك ما يكشف الستر عن هذا الحسن ، ويذيع السر عن هذا الاعجاز .

والخلاصة أنه لكى نكسب بلاغتنا الصورة الجميلة فعلينا أن نزيل الجفوة التى بيننا وبين الفن ، ونحدد المفاهيم التى تفرق بين العلم والفن ، ونعرف البلاغة بأنها فن القول ، ونضع تلك المقدمة الفنية للبحث البلاغى ـ بتلك الأمور كلها تصبح صورة بلاغتنا أنضر وجها ، وأبهى قسمات ، من تلك الصورة القديمة .

ويرى الأستاذ الخولى أن هذا وحده ليس يكفى ، بل ان حسن الصورة يتم حين يتحقق الاصلاح المنشود فى سائر النواحى البلاغية ، من دائرة بحث ، ومنهج ، ورعاية غاية . وان نظرنا فى بقية مناحى المقارنة يعتبر عملا فى تحسين الصورة العامة .

فلنمض الى تحقيق نتائج المقارنة فى :

ثانيـــا : دائرة البحث وسـعتها

انتهت المقارنة بين دائرة البحث البلاغى عند القدماء ، ودائرته عند المحدثين الى ما يأتـــى (١) :

فى القديـــم	فى الحديـــث
جعلوا من البحث مقدمة "ليست من المقاصد فى هذا الفن" ثم من المقاصد ما يعرف به وجه الاحتراز عن الخطأ فى تأدية المعنى المراد ، وهو علم المعانى . وما يحتـــرز به عن التعقيد المعنوى ، وهـــو البيان . ومنها تابع تعرف به وجـوه التحسين الثانوية وهو البديع . وحصروا أبحاث علم المعانى فـى أحوال طرفى الجملة ، والجملة . وحصروا أبحاث البيان فى المجاز والكناية ، والتشبيه مقدمة لفهـم الاستعارة ، لكن كثرة مباحثـه	تتسع دائرة البحث لكل ما تشملـه طبيعة الفن القولى وعمل الأديب فيه . وتقسم خطوات عمل الأديب الـى : ايجاد ، وترتيب ، وتعبير . وتبحث كل خطوة من هذه الخطوات ، كمـا يجب أن يكون البحث الذى تتطلبـه المعرفة الفنية ، فيشمل هذا البحث الالمام بمعارف انسانيه تتصل بالحياة الوجدانية ، ويشمل الفن القولى فـى بسائطه ومركباته ، فتبحث المعانى ، وتبحث الألفاظ . مفردات وجمـل وأساليب ، وتبحث صور التعبير الـتى يصورها أصحاب الفن القولى ، وتبحـث

١ ـ انظر فن القـــول ص ١٨٢ ـ ١٨٨ .

وفوائده جملته كالمقصد ، وان كان مقدمة في المعنى .	فنون الأدب نظما ونثرا ، فنا فنا .
والبديع تابع يعنى بوجوه حسن اما لفظى واما معنوى ، فكانت محسناته قسمين .	وهكذا لا يحد هذه الدائرة الا طبيعة العمل الأدبى . وتدخل فيها دراسات مظاهر النشاط الفنى ، وأسباب وضوح القول وتأثيره .

==========

وبالنظر والموازنة بين هاتين الدائرتين نجد أن بلاغتنا وقفت عند بحث الجملة ، وأهملت بحث المعانى ، ولم تنظر الى العمل الأدبى بجملته ، ولم تعن بالنظر فى الفنون القولية .. الخ ، فهى فى حاجة الى سعة شاملة ، وبسطة وافرة ، لتستطيع الوفاء بمثل تلك الأبحاث ، وما يتصل بها ، مما هو ضرورى لدقة الدرس ، ومسايرته درجة التقدم الانسانى .

والأمر فى ذلك يحتاج الى تخلية وتحلية أيضا .

فأما التخلية :

========== فمنها : ابعاد الملاحظ والاعتبارات التى حددوا على أساسها بحثهم ، وابطال غير الصحيح منها ..

ففى المقدمة — مثلا — نرى أنهم وضعوها خارجا ، وبحثوا فيها فى فصاحة الكلمة والكلام والمتكلم ، وبلاغة الكلام والمتكلم ، ودرجات البلاغة ... الخ .

لأن مثل هذه الأبحاث فى قولهم ، ليست من المقاصد فى هذا الفن ،

وهو قول نخالفهم فيه مخالفة تامة ، اذ أن الكلمة المفردة هى العنصر الأساسى فى عمل فنى أداته الكلمة ، فالبحث فيها وفيما يتألف منها من صميم المقاصد فى هذا الفن •

ثم ملحظهم فى حصر أبحاث علم المعانى ، فى الخبرية والانشائية ، ليس بملحظ ذى قيمة ولا جدوى ، فهم أنفسهم قد شعروا بوهيه ، حين خصوا به الشطر الكبير من مباحث علم المعانى ، ثم عادوا يقولون : " ولا وجه لتخصيص هذا الكلام بالخبر ، لأن الانشاء لابد له أيضا مما ذكر ٠٠" (١)

على أن هذا التقسيم الثنائى للكلام الى خبر وانشاء مما لا يتفقون عليه ، ومنهم من يجعل القسمة غير هذه ، على ما يبين فى موضعه • (٢)

ثم ملحظهم فى ضبط أبحاث البيان : فى الحقيقة والمجاز ، ملحظ لا قيمة ولا أصل له ، وانما الاعتبار القيم فى مثل هذا الأثر لتلك الصور البيانية فى المعانى هو ادراك مالها من قوة الايضاح والتأثير ، وهو ما لا يتم الا بمعرفة المنطق اللغوى والأدبى ، والبصر بالمؤثرات فى النفس الانسانية •

ثم نلاحظ أن تقديرهم للبديع تقدير جائر ، فقد سمعنا فيما سلف من قول الأقدمين أنفسهم : " ان الحق الذى لا ينازع فيه منصف ، أن البديع لا يشترط فيه التطبيق ، ولا وضوح الدلالة ، وأن كل واحد من تطبيق الكلام على مقتضى الحال ، ومن الايراد بطرق مختلفة ، ومن وجوه التحسين ،

---

١ — شرح السعد وحاشية الدسوقى من شروح التلخيص ١ : ١٧٠ •

٢ — السبكى فى شرحه للتلخيص من الشروح ١ : ١٧٢ •

قد يوجد دون الآخرين "(١) .. فنستطيع أن نقول والحال على ما وصفنا : ان المحسنات البديعية ليست أمورا تابعة للمعانى والبيان ، ولا ثانوية يسيرة الأهمية ، بل هى وجوه توجد وحدها ، وعلى هذا الاعتبار نستطيع النظر فى هذه المحسنات نظرا متفننا منعما ، لندرك أثرها فى العبارة ، وننزلها فى درسنا المنزلة المناسبة لهذا الأثر . فما كان منها قويا عددناه من صور التعبير ، وضممناه الى أشباهه مما عد فى البيان ، وما كان دون ذلك أهمية جعلناه فى المكان الممثل لهذه الأهمية .

كما أن ما يكون من المحسنات تكلفا وتصنعا سيىء الأثر أهملناه وأبعدناه .

وسيرد تفصيل لذلك فى تنسيق الأبحاث بعد .

ومن التخلية أيضا :

================== الغاء تقسيمهم الثلاثى لفروع البلاغة جملة ، وهى المعانى والبيان والبديع ، وهذا التقسيم فى الحقيقة ثنائى ، فالبديع ليس الا تابعا ، وانما نلغى هذا التقسيم الثنائى لأسباب فى نقدهم هم لهذا القديم ، ثم لأسباب فى النظرة الجديدة .

فأما ما فى القديم من ذلك ، فهى أنهم يديرون هذا التقسيم على اعتبارات ضعيفة ، قد وهنوا من أمرها فى قديمهم ، فملحظهم فى هذا التقسيم أن علم المعانى يبحث فى المركبات الموزونة وغيرها عن افادتها لمعان فوق المعنى الأصلى ، وعلم البيان يبحث فى مراتب هذه الافادة الثانية فى الوضوح ، فثانى البحثين يترتب على الأول ، وهم يقدمون المعانى على

---

١ — عروس الأفراح بشروح التلخيص ٤ : ٢٨٤

البيان ، لأنه بمنزلة المفرد من المركب ، اذ أن رعاية المطابقة لمقتضى الحال ، وهى مرجع علم المعانى ، معتبرة فى علم البيان مع زيادة شىء آخر ، وهو ايراد المعنى الواحد فى طرق مختلفة (١) . وهذا الاعتبار هو الذى رأيت نقضه آنفا فيما أوردنا من عبارة السبكى ، وما دام الأمر كذلك ، فالدائرة المرسومة للبحث على هذا الأساس ، لا قوة لها ولا أصل ، فلا وجه اليوم لالتزام حدودها ، والتقيد بها .

هذا الى أننا نلحظ اليوم من الاعتبارات ما يحوجنا الى رفع قيود هذا التحديد .. من ذلك ما عرفت من أن أبحاث المقدمة — فيما نقدر — انما هى من المقاصد والعناصر الجوهرية ، فى فن أداته الكلمة ، فنحن نريد ادخالها فى الأبحاث الأصلية ، وذلك تغيير للتحديد .

واذا ما ألغينا هذا التقسيم الثلاثى ، وذكرت أننا منذ قريب فى تحلية صورة البلاغة ، قد حرصنا على الدقة فى التفريق بين استعمال كلمتى : " الفن " و " العلم " ، وحرصنا على استعمال كلمة " الفن " فى هذه الدراسة وفروعها ، واستبعاد كلمة " العلم " فى تسميتها وتسمية فروعها ، فقد بطل أن لدرس البلاغة أقساما ، وأن تلك الأقسام تسمى علوما .

والمرحوم احمد مصطفى المراغى يوافق الأستاذ الخولى على عدم صحة هذا التقسيم ويقول : " لا نعلم أحدا سبق السكاكى الى قسمة علوم الفصاحة

---

١ — السعد التفتازانى : الشرح المختصر للتلخيص ص ١٥ حـ ١ ط الآستانة .

الأقسام الثلاثة المعروفة ، ولا نرى لهذا التقسيم وجها صحيحا ، ولا مستندا من رواية ولا دراية ، فليس هناك جهة للتمايز تفصل كل علم عن قسيميه ، ولا في أغراض كل علم ، ولا في موضوعه ، ما يجعله وحدة مستقلة عن العلمين الآخرين في بحوثه ومسائله ، حتى يمكن الناظر أن يقتنع بوجاهة هذا التقسيم ، ويبرهن على صحته . " (١)

لكن الأستاذ العقاد رحمه الله كان له رأى آخر ، فهو يرى ،

" ان علوم البديع والمعانى والبيان خلاصة الملاحظات التى أدركها النقاد بالذوق والفهم ، واهتدوا بها الى مواضع البلاغة فيما وعوه من كلام الشعراء والكتاب ، وان الحذلقة كانت أكثر من الوعى الصادق ، والفهم الحسن ، عند من حاولوا فى العصر الحديث أن يبطلوا علوم البديع .. فلا بد أن نفهم أن علوم البديع والمعانى والبيان لم توضع لتلغى ، أو لينصرف عنها النظر فى الدراسة أو المطالعة .... ولقد وضعها الأقدمون وأدركوا من شأنها كل ما يدركه المحدثون الآن من فوائدها ومآخذها ، بل أدركوا منها ـ على التحقيق ـ فوق ما يدركه المتحذلقون الذين يجهلون البلاغة قواعد ومصطلحات ، كما يجهلونها معانى ومفهومات ... فالعلوم التى عرفت باسم علوم البديع والمعانى والبيان صحيحة لا عيب فيها ، وكل ما يؤخذ عليها فإنما يؤخذ على اساءة استعمالها كما ينبغى لها ، وكما أرادها واضعوها . (٢)

---

١ ـ تاريخ علوم البلاغة ص ١١٢ .

٢ ـ نشر هذا الرأى فى عدد جريدة الأخبار الصادر فى ١٤ رمضان ١٣٨٣ هـ .

ونعود الى الأستاذ الخولى الذى يرى أن علوم البلاغة الثلاثة باطلة ويجب أن تلغى ، وأن من يقول الآن " علوم البلاغة " أو " العلوم البلاغية " أو نحو ذلك ، يخطىء فى طبيعة هذا الدرس ، وفى تحديده ، خطأ يشوه صورة الفن ، ويضيق دائرة بحثه ، وهو مالا يرضاه صاحب ذوق أدبى ، يجد وقع مايقول ، ويبصر بروعة الفن الأدبى الجميل .. تلك هى التخلية فى دائرة البحث البلاغى .

وأما التحلية : فبأشياء ، منها :
================

توسعة دائرة البحث وبسط أفقه ، فلا يقصر على الجملة ، بل نمد البحث بعد الجملة الى الفقرة الأدبية ، ثم الى القطعة الكاملة من الشعر أو النثر ، ننظر اليها نظرتنا الى كلٍّ متماسك ، وهيكل متواصل الأجزاء نقدر تناسقه ، وجمال أجزائه ، وحسن ائتلافه ، ونتحدث فيما لابد منه فى هذه النظرات من شئون فنية .

واذا ما مددنا البحث فى أوله فدخل بحث اللفظة المفردة فى المقاصد ، كما قدمنا ، وبسطناه فى نهايته فشمل ما بعد الجملة من العمل الأدبى كله ، فقد بدا لك أننا مضطرون الى الغاء التقسيم الثلاثى أو الثنائى ، والنظر فى نظام آخر لهذه الابحاث ، نعرضه فيما يلى عند تنسيق مباحث فن القول .

ومن التحلية أيضا : افراد مكان من هذه الدائرة الفسيحة
====================== لبحث المعانى الأدبية .. فى حقيقتها ، ومميزتها ، وفى ايجادها وترتيبها ، على نحو ما وصفنا بعضه فى صنيع المحدثين ، وهو مالم تعن المدرسة الكلامية بشىء منه .. والمدرسة الأدبية فى البلاغة لم تصب من ذلك الكافى المرضى ، فهذا ابن الاثير فى مثله السائر يقسم الصناعة قسمين : الصناعة اللفظية ، والصناعة المعنوية ، ولكنه يعنى بالصناعة اللفظية السجع ، والتجنيس ، والترصيع ، ولزوم

مالا يلزم ، وما الى ذلك من أمور لفظية صوتية .. ويعنى بالصناعة المعنوية ، التشبيه ، والاستعارة ، والتجريد ، والالتفات ، وما يتصل بذلك من صور فى التعبير تؤدى بها المعانى .

أما البحث فى المعانى بما هو روح العمل الأدبي ولبابه ، بحثا خاصا بها ، من حيث هى مدلولات ومفاهيم وأغراض ، فلا نجد فيه الا شذرات متفرقة عند الأولين من أهل الدراسة الأدبية فى البلاغة ، كبشر بن المعتمر ، والجاحظ ، وأضرابهما ، من الذين نظروا فى هذا البحث قبل أن يستكمل ويتسع السعة التامة التى وصل اليها فى ظل المدرسة الكلامية العلمية .

وفى كل حال سنحيى فى بحثنا للمعانى وغيرها ما تريده ، رسوم المدرسة الأدبية ، وننتفع بكل ما يستطاع الانتفاع به فى ذلك التغيير ، من تراثنا القديم .

ومن التحلية أيضا : تخصيص مكان من هذه الدائرة الواسعة لبحث الفنون الأدبية .. فندرس فى فن القول تقسيم الناس قديما وحديثا لهذه الفنون نثرا ونظما ، والفكرة فى هذا التقسيم ، ونبين خصائص هذه الفنون واحدا واحدا ، ومقوماتها التي يكمل بها جمالها الفنى فى ألفاظها وصياغتها ومعانيها وأغراضها ، مستعينين فى ذلك بيسير ما خلفت المدرسة الأدبية العربية فى هذا الميدان من نظرات واشارات ، ثم نضم الى ذلك كل ما دلت الثقافة العلمية والفنية الحديثة ، على صلته بهذه الفنون وميزاتها ، ونفى بحق الأدب فى فنون لم تزدهر فى البيئة العربية ، ولم تعرف معرفتها اليوم ، كفن القصة والمقالة ، وما الى ذلك من فنون مستحدثة .

ثم من التحلية كذلك : تمييز مكان فى هذه الدائرة لدرس الأساليب :

لا نقف فى ذلك عند قليل ما ألم به القدماء فى هذا ، ولا نكتفى بتكملته الحدثة ، بل نجعل هذا الدرس وسيلة للاشراف على آفاق أدبية

ونقدية ومذاهب في ذلك ، ومدارس في الفن القولى نعرف بها ، ونبين أهدافها وخصائصها .. ففى الأساليب نتحدث بعد المعروف الشائع عن الفكاهة والتهكم وما اليهما ، من حيث هى عوالم فنية ، ونزعات أدبية ، كما ندرس الرمز الفنى ، والرمزية الأدبية ، لا في حدودها الساذجة التى أشير الى أثارة منها في الكناية ، بل من حيث هى ضروب من الفن ، تتصل بموجهات نفسية ونحوها ، وترمى الى أهداف أدبية اجتماعية وما اليها من كريمات الغايات ، التى تضطلع الفنون اليوم بالوفاء بها ، في حياة الناس أفرادا وأممـا .

تلك هى أمهات التحلية التى نعمل لتدعيم الدرس البلاغى بها ، تحقيقا لنتائج المقارنة ، التى ظهرت في مقابلة دائرتى البحث قديما وحديثا .

والآن نتحدث عن نتائج المقارنة فى :

ثالثـا : في المنهج وتصحيحه (١)

في القديم

مستوى الحياة العقلية لم يحسن التفريق التام بين الحكم الفني الوجداني بالحسن أو القبح ، والحكم العقلي بالصواب أو الخطأ .

الوضع الاجتماعي للغة يغير منهج التفكير في أبحاثها وأسلوب دراستها ، فاذا ما اتصلت بالحياة اتصالا تاما ، كان التفكير في أبحاثها عمليا وجدانيا وعلمت بطريق الممارسة ، واذا ما انفصلت عن الحياة كان التفكير فيها نظريا عقليا ، وعلمت بطريق المدارسة . وقد مرت بلاغتنا بهذه الأدوار المختلفة فعلمت حينا عن طريق الممارسة والتلقي ومخالطة أهل اللغة واحتكم فيها الى الذوق والوجدان . ثم علمت بطريق المدارسة ، واستحال الاحتكام فيها الى النظر العقلي والضبط المنطقي .

المدرسة الكلامية هي التي سيطرت أخيرا في حياة البلاغة ، وهي المدرسة التي تتبع الطريقة الثانية ــ

في الحديث

المستوى العقلي الحديث تنبه الى الفرق الواضح بين صنوف الحكم ، من عقلي ، وفني ، وخلقي ، لدقة بحثه في مسألة المعرفة ، وعنايته بمنطق المادة .

الوضع الاجتماعي للغات الحية ، واتصالها بحياة أهلها اتصالا قويا ، جعلها تعلم بطريق الممارسة قبل كل شيء ، وجعل التفكير فيها عمليا اجتماعيا صحيح المنهج ، وجعل الدرس الأدبي فيها فنيا وجدانيا حقا .

منهج درس فن القول عندهم فني محض ، تبدو فيه ظواهر واضحة من : الوصل الوثيق بين الأدب وسائر الفنون ، وتنسيق الدراسات اللغوية والأدبية تنسيقا سليم الأساس ، يكون لفن القول فيه مكانه المتميز ، وربط هذا الدرس بالتراث الأدبي للغة المدروسة قديما وحديثا ، واقامة الدرس كله على أسس فنية صحيحة

---

١ ــ انظر فن القول ص ١٨٨ ــ ٢٠٨ بتصرف .

طريقة المدرسة العقلية ـ فخلف ذلك فى مباحث بلاغتنا آثارا ، لا تزال هى الواضحة ، كاقتباس الظواهر الفلسفية المنطقية فى تعاريفها ، وتقاسيمها ، وضوابط بحثها ، مما أخل بالظواهر الفنية الأدبية .	مستفيدة من التقدم العقلى والاجتماعى العام فى ألوان الحياة كلها .

وبالنظر الى هذه المقارنة فى المنهج عندنا وعندهم ، تتضح لنا حاجة البحث البلاغى عندنا الى عمل غير يسير ، لاضطراب أساسه باضطراب أساليب البحث القديم ، وعدم التفريق بين صنوف الأحكام التى تختلف بها صنوف المعارف والحقائق .. ولهذا اتخذ البحث البلاغى خطة غير سديدة ، ولا سليمة فى التناول والحكم والبحث والتصنيف ، فبعد ما تبين لنا ذلك كله ، نستطيع فى اطمئنان ان نتقدم الى تخليصه من تلك الآثار ، ثم امداده بما يحمى حيويته ، ويؤهله لمسايرة الحياة اليوم ، والاستجابة لحاجة الشعوب الناهضة المتجددة فى الشرق .. وذلك يحوجنا ـ كما سبق ـ الى تخلية ، ثم تحلية .

فمن التخلية : ازالة التداخل المضطرب فى دراسة مواد ثقافتنا على اختلافها ، لنزيل مثل ذلك التداخل بين دراسة مواد العربية ، فلا نخلط البلاغة بغيرها من تلك المواد : .. ونحن نشعر بهذا التداخل فى الثقافة الاسلامية تفكيرا وتأليفا ، فنجد التعرض المستفيض المسرف لمسائل علم فى دراسة غيره ، فالمسائل النحوية والحكمية مثلا يتعرض لها فى الفقه ، مع اختلاف المناهج فى النحو عنها فى الحكمية ، وفيهما عما فى الفقه ، لكن توسعهم فى الشروح والحواشى والتقارير ، بعد تركيزهم المتون واجمالها ، فسح المجال لهذا التداخل . ولا نتوسع فى شرح هذه الظاهرة وتعليلها ،

فانما مهدنا بها للقول فيما يعنينا من هذا التداخل فى درس البلاغة ، اذ اختلطت فيها الدراسات المختلفة ، فمن مقدمات حكمية ، وأبحاث منطقية ، الى دراسات خلقية ، وأخرى طبيعية أو الهية ، على ما أشرنا اليه فى المنهج الكلامى لدراستها . (١) ونلفت هنا الى تخلية التفكير البلاغى ، والتأليف البلاغى من هذا التداخل ، ازالة للاضطراب الناجم عنه .. كما نشير الى ما فى البلاغة من تداخل آخر بينها وبين مواد العربية الأخرى ، كالنحو مثلا ، فان هذا التداخل أيضا قد ترك أثره فيها ، واختلط البحثان فى غير موضع ، وكان من ذلك أن ضمر البحث البلاغى وعجف أحيانا ، فقصر عن المعنى الأدبى الخاص به ، وأن تضخم وتزيد أحيانا ، فجار على المعنى الأدبى .

وأنت واجد المثل للضمور فى مثل قول البلاغيين فى أحوال المسند اليه : ان تعريفه بالاضمار : لأن المقام للتكلم أو الخطاب أو الغيبة ، وبالعلمية : لاحضاره بعينه فى ذهن السامع ابتداء باسم مختص به ، وباللام لكذا ، وبالاضافة لكذا ، مما لا تجد فيه شيئا جديدا الا شرح المعنى النحوى الأول ، دون عناية بما وراء ذلك من معنى بلاغى خاص .

ثم أنت واجد المثل للتضخم والتزيد ، فى صنيعهم بباب الفصل والوصل مثلا ، اذ أوردوا فيه أحوالا وتقسيمات ، كان المرجو أن تكون أدبية الملحظ ، كعدهم من أحوال الفصل " شبه كمال الانقطاع " الذى يمثلون له بقول الشاعر :

وتظن سلمى أننى أبغى بها بدلا ، أراها فى الضلال تهيم

فان العطف فى " أراها " كما يبدو جليا ، يؤدى الى فساد المعنى الأول ، ونقض ما أراده القائل ، فليس المانع منه بلاغيا ، بل هو نحوى صرف ، يدور الأمر فيه على الصحة واستقامة المعنى ، لا على اعتبار تال لما به أداء المعنى الأول ، كما هو الشأن فى البلاغة . ولعلنا نعود الى هذا قريبا حين نتخذ باب الفصل والوصل مثلا لتطور درسنا من البلاغة الى فن القول .

---

١ — انظر ص ٨٥ وما بعدها — فن القول .

والى هنا بدا أن التداخل المضطرب بين الدراسات المختلفة فى البلاغة قد أفسد منهجها ، كما أن التداخل بينها وبين مواد العربية نفسها قد أضر بها ، فحق علينا تصحيحا للمنهج ، واصلاحا للبحث ، أن نخلى الدرس من التداخل بين المواد .

ومن التخلية أيضا : ازالة الاضطراب الناجم عن عدم تمثل الأقدمين ـ ولا سيما المتكلمين ـ للمنهج البلاغى الملائم : فقد تداخلت المناهج العقلية والنقلية والفلسفية والشرعية فى تناولهم للبلاغة ، وترك هذا الاضطراب أثره فى درس البلاغيين للشئون الفنية ، وبيانهم لها ، ولفتهم الى قيمها ومزاياها ، فكان لفتا غير كاشف ، وبيانا غير مبين ، ولا جدوى منه على موهبة دارسى ، ان لم يكن فيه افساد لها واخماد ، وهاك من ذلك ما يتجلى به اضطراب المناهج وتداخلها المفسد فى تناولهم :

ختم القوم علم البيان بفصل وازنوا فيه بين صور التعبير التى تولوها بالشرح فى هذا العلم وأداروه عليها ، فقالوا : "أطبق البلغاء على أن المجاز والكناية أبلغ من الحقيقة والتصريح ، لأن الانتقال فيهما من الملزوم الى اللازم ، فهو كدعوى الشيء ببينة " ، فكان وجه فضل تعبير على تعبير ، أنه انتقال من الملزوم الى اللازم ، وكان وجه بيانهم لهذا الحسن أنه كدعوى الشيء ببينة ، وأنت واجد فى هاتين الخطوتين منهجين مختلفين ، لقضية لها منهج ثالث غيرهما .. فالمنهجان المختلفان هما : المنهج العقلى المنطقى ، فى الملزوم واللازم ، وأن وجود أحدهما يقتضى وجود الثانى ، لامتناع انفكاك الملزوم عن اللازم ... ثم المنهج الشرعى أو النقلى ، فى البينة على الدعوى ، والشهادة والرواية ـ كما تعرف ـ حجج نقلية ، على حين أن المسألة المتناولة ـ وهى حسن التعبير وامتيازه ـ مسألة أدبية ، فمنهجها وجدانى فنى ، لا يغنى فيه واحد من المنهجين السابقين .فقضية هذا اللزوم العقلى الذى لا انفكاك فيه بين الملزوم واللازم ، هى قضية اللزوم الأدبى ـ ان كان هناك ما يسمى لزوما ـ لأن ما فى المعانى الأدبية انما هو اتصال عملى ، وارتباط واقعى ، وملحظ نفسى عام .

وأما حكاية الدعوى والبينة وما اليها ، فحسبي وحسبك أن نقدر أن ما يجده القاضي من شهادة الشاهد ، وما يجده السامع من رواية الراوى ، وأثرهما في نفسه ، هو في الحق والحس شيء ليس أبدا من صنف ما يجده المتأثر بالفن القولى من أثر نفسي ، وأين هذا الحق أو الباطل من ذلك الحسن أو القبح ؟ شتان بين مشرق ومغرب .

وان يكن فينا من لا يزال يختلط عليه مثل هذا ، فلعله يهديه من قول القدماء أنفسهم ، ما شعر به المتكلمون في عصور مختلفة ، وشعر به المؤمنون أنفسهم ، من أن البراهين العقلية على العقائد لا تفيد يقينا ، ولا تكسب اعتقادا ، فصرحوا بأن استدلال القرآن ، خير وأجدى من استدلال اليونان . ففي هذا معقد ما نشير اليه من فرق بين أثر النظر العقلي ، ووقع اللحظ الفني ، وهو أصل لبيان أن الحقائق المختلفة انما تتناول بأساليب مختلفة ، ومناهج مناسبة . ومن أجل هذا دعونا الى تخلية الميدان البلاغي من آثار الاضطراب الذى بثه فيه اضطراب المناهج ، وتناول الفنيات بما لا ينالها .

ثم من التخلية أيضا : ابعاد الأبحاث التي أقحمها في البلاغة اضطراب المنهج ، واختلاط المناهج :

وما نحاول هنا أن نحصى هذه الأبحاث ، ولكنا نشير اليها على سبيل التمثيل :

ا — فمن تلك الأبحاث المقحمة : البحث " في الصدق والكذب " الذى ينبه اليه في فصل خاص بين يدى علم المعاني ، وهو بحث لم يعد له اليوم مكان بين فصول دراسة فنية أدبية .

ب — ومنها : بحث واو الحال ، والرابط في جملة الحال ، الذى يفرد له تذنيب بعد الفصل والوصل ، فانه نحوى في جوهره ولبابه ، ولا مكان له في الدرس الفني .

ج — ومنها : مقدمتهم في الدلالات ، التي يقحمونها بين يدى علم البيان ،

وهي مقدمة منطقية ، لا ينفع علمها فى ادراك صور البيان التعبيرية ،
ولا يضر جهلها ، بل تضر معرفتها حين تصرف عن تحرير المنهج .

د ـ ومنها : وقفتهم عند أنواع الجامع فى باب الفصل والوصل ، وبيانهم للعقلى والوهمى والخيالى ، وشرحهم القوى الانسانية ،وتعرضهم لغير ذلك من معارف ليست فى شئ من هذه البلاغة .

تلكم هى كبريات خطوات التخلية فى تحرير المنهج ، نفسح المجال لما يتلوها من :

التحلية

واجل هذه التحلية وأحسنها أثرا : تمثل المنهج الفنى تمثلا واضحا ، والتزامه فى هذا الدرس التزاما صادقا ، يعتمد على الذوق المسعف ، والروح الحرة ، والرغبة الصادقة فى تجديد هذه الدراسة .
وأسوق اليك مثلا مما يوجه اليه المنهج الفنى ، ويبدو بها فرق ما بين النظرتين ، وأثر المنهجين :

١ ـ تعريف البلاغة :

ولنعتمد التعريف الذى استقر عليه الدرس المنظم أخيرا ، وهو : مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته ،وهو ما يحوزه البيان للحال والمقتضى والمطابقة فاذا هم يكدون فى بيان هذا كله ، وشرح ان هناك دواعى تدعوا المتكلم الى أن يعتبر مع الكلام الذى يؤدى به أصل المعنى خصوصية ما ، وهذه الخصوصيات هى الاعتبارات المناسبة ، التى يرتفع شأن الكلام فى الحسن الذاتى والقبول بمطابقتها ، وينحط بعدم مطابقتها ، ثم هذه الاعتبارات المناسبة انما هى أمور اعتبرها المتكلم مناسبة بحسب السليقة ، او بحسب تتبع التراكيب .
وهكذا لم يعط التعريف شيئا الا بشرح كاد مكدود .

واذا كان هذا هو التعريف الذى استقر عليه الدرس البلاغى أخيرا ، فهل يستطيع المنهج الفنى أن ينتهى الى شىء أبين من ذلك ؟ انه يعرف البلاغة بأنها " فنية القول " ، والقول الفنى : هو الكلام المعبر عن احساس الانسان بالحسن ، فكأنه بتلك القولة القصيرة يذكر جنس الحسن فى الكلام ، وهو كمال تعبيره ، ثم يبين مجال هذا التعبير ، فيخصه بأنه التعبير عن الاحساس بالحسن ، فيعين موضوعات هذا القول ، ويشير بذلك الى ما به كمال التعبير ، فانما التعبير الكامل أو الفنى عن الحسن ، هو الذى ينقل اليك الاحساس بهذا الحسن ، فتشعر مع قائله بما وجد من حسن موفور أو منقوص ، ولا ينقل التعبير هذا الاحساس الا اذا كان فى أصله عند القائل احساسا ، وكان فى وقعه عند السامع مشاركة واضحة فى هذا الاحساس ، وتلك معان جهدوا فى النص عليها ، ولكن لم تحملها تعريفاتهم .

٢ — المتكلم والمتفنن :

==================

قرر القدماء من علماء المدرسة الكلامية أن قصد المخبر بخبره هو : افادة المخاطب الحكم ، أو افادته كون المخبر عالما بالحكم ، ويسمى الأول : فائدة الخبر ، والثانى : لازمها .

تسمع هذا وقد سمعت قبله قولهم : ان البلاغة وارتفاع شأن الكلام فى الحسن ، انما هى فى الاعتبارات التى تعتبر مع الكلام ، الذى يؤدى به أصل المعنى المراد ، فتسألهم : اذا كان هناك معنى مراد ، ثم اعتبارات زائدة عليه ، فأين هذا كله فيما ذكرتم أنه كل قصد المتكلم من خبره ؟ وهل الكلام غير البليغ ولا الحسن لا يحقق هذا القصد ، وهو افادة الحكم .. الخ ؟ واذا كانت افادة الحكم أو افادة العلم به ، هى كل قصد المخبر بخبره ، فأين عمل البليغ وأثره ؟ وكيف هم يتم تقييمون كلام البليغ بتحقيق هذا القصد ؟

تلك وما اليها وقفات يقتضيها منهج القوم فى تناول الموضوع ، وردهم

الأمر كله الى اعتبارات عقلية ، وضوابط ذهنية ، لا تقدر شيئا من عمل المتفنن .. ولو جنبت المسألة كل بحث ودرس ، ورددتها الى قريب الملاحظة ، لوجدت أن الناس حين يتحدثون كل يوم ، وفى كل شأن ، يخبرون ليفيدوا ، وأما حين يتحدثون فى أحيان خلصة حديثا مرويا متأنقا ، فانما يتحدثون ليؤثروا فى النفوس ويحركوها ، وذلك القصد الأخير هو ولا شك ما ينبغى أن يتحدث عنه أصحاب البلاغة ، وأن يقيسوا به مقادير الكلام وأقدارها ، ولكن كتب البلاغة الكلامية لا تعنى به فيما سمعت من قول أصحابها .

أما فى المنهج الأدبى فالأمر منته الى مثل هذا الذى يجد الناس ، عن طريق الوجدان الدقيق ، والنظر الفنى ، اذ أن هذا الفن ليس الا تعبيرا عن الاحساس بالحسن ، والقصد فيه شىء غير افادة الحكم ، أو افادة معرفته وهو ما مضى قولنا فيه من عمل ومتعة (١) . وبهذا وحده قول المتفنن وصوغ المتأدب ، وتعرف الاعتبارات المناسبة ، والخصوصيات الزائدة على أصل المعنى المراد .

ومن هنا تدرك عدوان المنهج غير الصحح ، على أصول قوية ، وأسس أصلية للعمل الأدبى ، حين يسوى بين المتكلم والمتفنن .

٣ — المتكلم والمخاطب :—

عنى البلغاء القدامى بالمخاطب عناية فائقة دون المتكلم ، فجعلوا قصد المخبر بخبره هو افادة المخاطب .. الخ ، ثم رأوا أنه مادام القصد هو افادة المخاطب ، فينبغى أن يقتصر من التركيب على قدر الحاجة ، ثم يلى ذلك بيانهم لحال المخاطب ، فراحوا يقولون : ان كان المخاطب خالى الذهن من الحكم فكذا ، وان كان مترددا فيه طالبا له فكذا .... الخ .

---

١ — انظر فن القول ص ٩٩ .

هذا كلامهم فى اعتبار حال المخاطب ، ولكن العلامة السعد يقول :
(فالجملة الخبرية كثيرا ما تورد لأغراض أخرى غير افادة الحكم أو لازمه ، مثل : التحسر والتحزن فى قوله تعالى حكاية عن امرأة عمران " رب انى وضعتها أنثى " وما أشبه ذلك) . (١)
فهذا اشعار منهم بأن الجملة الخبرية تكون مقصودة لغرض خاص بالمتكلم لا بالمخاطب ، كالتحسر والتحزن ، ولوضممنا الى ذلك مالهم من وقفات لا صلة لحال المتكلم لشعرنا بما فى هذا الاقتصار على أحوال المخاطب من قصور .

ذلك أنك مثلا تراهم يقولون فى تعريف المسند اليه بالعلمية : انه يكون للاستلذاذ ، والتبرك ، والتفاؤل ، والتطير ، وهى وما اليها أحوال للمتكلم لا للمخاطب ، ولها أثرها فى صوغ التعبير وصنعه ، لكنهم حين تحدثوا عن الأحوال وتقديرها ، لم يشيروا الا الى حال المخاطب . وهذا أثر من آثار المنهج غير المستقيم ، حين يأخذ بظواهر النظر ، ولا يتتبع الاعتبارات الأدبية .

٤ ـ الأحوال والأضرب :

وفى ضبط هذه الأحوال نقرأ قولهم : ان كان المخاطب خالى الذهن من الحكم والتردد فيه ، استغنى المتكلم عن مؤكدات الحكم ، وان كان مترددا فيه طالبا له ، حسن تقويته بمؤكد ، وان كان منكرا وجب توكيده بحسب الانكار : وهذه هى الأضرب الثلاثة التى سموها أضرب الخبر .. ووصفوها بالابتدائية ، والطلبية ، والانكارية .. تراهم يضبطونها ضبطا عقليا حكميا اثباتيا انكاريا ، وذلك اذا نظروا الى ظواهر الحال .. أما حين ينظرون الى خوافيه ، أو خلاف مقتضى الظاهر ، كما يقولون ، فانهم

---

١ ـ مختصر السعد / شروح التلخيص حـ ٢ ص ١٩٣ .

يظلون أيضا يحكمون فى هذه البواطن بتلك الضوابط العقلية المنطقية : من انكار ، وتسليم ، وتردد ذهنى ، وقبول عقلى ، فيجعلون غير السائل كالسائل ، وغير المنكر كالمنكر ، ويجعلون المنكر كغير المنكر ، ويجرون النفى على مثل ما أجروا عليه الاثبات ، من أحوال ذهنية عقلية ، واعتبارات ومعان منطقية ، لحال المخاطب وحده ، وكل هذه ليست الا آثار المنهج الفلسفى الكلامى فى تناول الأمور البلاغية .

ويعلق الأستاذ الخولى على ذلك قائلا : فلنقل معهم مؤقتا ان المسألة ذهنية وعقلية ، فهل انتهت الاعتبارات العقلية عند الانكار ، والتردد ، وخلو الذهن ؟ .
ألم يذكروا هم أنفسهم قبل ذلك الموضع بقليل ، اعتبارات عقلية أخرى ، حين يقولون مثلا : ومقام خطاب الذكى يباين مقام خطاب الغبى ، فان الذكى يناسبه من الاعتبارات اللطيفة ، والمعانى الدقيقة ، ما لا يناسب الغبى .
فما لهم لم يستوفوا الاعتبارات العقلية ، ويبينوا ما يناسبها ؟ .

ولكن هل الفن القولى فى حياة الناس هو خطاب عقولهم ورياضة أذهانهم ، وآفاقهم هى هذه الآفاق العقلية التى وقف الأقدمون عندها ؟ لعلك توقن أنه بغير هذا كله يلتمس القول الفنى فهو استهواء واسترضاء وتأثير واجتذاب واستنفار واهاجة و .... مما هو من الحالات النفسية غير العقلية ، بل من الحالات التى ينوم فيها العقل ليوقظ غيره ، ولا يعنى فيه بتحويل الناس من الانكار الى التسليم ومن الجهل الى اكتساب المعارف واستفادة الأحكام . فيما وقف القوم عنده من العقليات — ولم يستوفوه — ليس من صميم العمل الأدبى فى شئ ، ولا هو الذى تضبط به أحوال المخاطب ، ويقاس الكلام على قدرها ، ويحدد بحاجتها .

وبعد أن طال الكلام فى هذه التحلية .. وهى : تمثل المنهج الفنى تمثلا واضحا ، والتزامه فى هذا الدرس التزاما صادقا .. نأتى الى تحلية أخرى هامة للمنهج البلاغى وهى :

أن يقدم بين يدى هذا الدرس " مقدمة نفسية " : فقد بان لك أن الأمر فى هذا الفن القولى ، ليس أمر المنطق العقلى الاستنباطى الفلسفى ، بل هو ألوان أخرى من المنطق العاطفى النفسى ، المتصل بحياة الانسان الوجدانية ، ونشاطه الذوقى ، وادراكه للحسن ، وانفعاله به ، وترجمته عنه . واذا كان الأمر كذلك .. فقد حق على الأديب والناقد أن يعرف من أمر النفس الانسانية ما يبصره بأسرارها ، ويكشف له عن خفاياها ، ما دام الفن ليس الا تعبيرا عن خلجاتها .

ولذلك يجب أن نقتبس لدراسة فن القول مقدمة نفسية ، تبصر فى جملتها بالحياة الوجدانية ، والعواطف الانسانية التى تسيطر على الحياة البشرية وتوجهها ، وليست المعانى الأدبية ، والمحاولات الفنية فى صورها المختلفة ، الا نفثات منها ، وومضات لها ، فبهذه المعارف النفسية تعمق معانى الأديب وتسمو ، وتدق أحكام الناقد وتصدق ، بل تصان الحياة الأدبية من تطاول المتطاولين ، وعبث الجاهلين ، فلا يكون فننا القولى لعبا بالألفاظ ، ولا تعلقا بمشاكلات سطحية ، ولا يكون نقدنا كلاما معادا ، وعبارات مرددة جوفاء خاوية ، ويكون الأدب كما ينبغى أن يكون فى حياة الفرد والجمع نشاطا وجدانيا ، مسعدا على الحياة الكريمة .

ونتقدم بعد ذلك لتحقيق نتائج المقارنة فى :

رابعا : الغايـــة وحيويتهـــا (١)

فى القديـــم	فى الحديـــث
كانت الغاية من درس البلاغة العربية حيوية فى العصر الجاهلى وصدر الاسلام ، فكانت القوة والغلبة والتفوق غاية الاجادة القولية . ثم مازجها الغرض الدينى ، فكانت معرفة اعجاز القرآن من غاياتها . ثم خلصت الدارسة للمعنى الدينى ، وان خالطها غرض آخر وهو معرفة الجيد من الردىء فى الكلام (٢) .	لفن القول غايتان : عمليـة ، وفنية ، فالغاية العملية هـى : تحقيق مصالح حيوية للأفراد والجماعات . والغاية الفنية : هى الامتاع بالتعبير عن الاحساس بالجمال ، أو بالتذوق الناقد لروائع الأداء الفنى المترجم عن الشعور بالحسن . (٣)

ويبدو من هذه المقابلة أن أفق الدرس القديم فى أرحب عهوده كان أضيق من الأفق الحديث ، لاختلاف النظرتين الى الحياة .. ونحسب

---

١ ـ انظر فن القـــول ص ٢٠٩ ـ ٢١٣ .

٢ ـ انظر فن القـــول ص ١٤٦ ـ ١٤٩ .

٣ ـ انظر فن القـــول ص ١٥٤ ـ ١٥٦ .

أننا اليوم فى حاجة شديدة لبسط هذا الأفق الى المدى الذى بلغه المحدثون فى نظرتهم للحياة وخبرتهم بها ... وبسط هذا الأفق يحتاج الى مثل ما مضى من تخلية ، وتحلية ، ثم لعلنا نجد كل واحدة منهما : معنوية نفسية تارة ، ومادية عملية طورا .

فأما التخلية المعنوية : فبأن نحرر أنفسنا من الرجعية الفنية ، التى تدين بأن كل خير فى الدنيا قد تقضى ، وأن العصور الذهبية قد فاتت ، فالمعانى الأدبية القيمة قد ذهب بها فحول القدماء ، والأساليب القويمة قد انفردت بها أقلامهم وألسنتهم ، والصور البيانية المشرقة قد استنفدها الذاهبون الأولون ، فما بقى لمن بعدهم شئ ، ولم يدعوا مجالا لقائل ولا ناقد وما ترك الأول للآخر شيئا ، حتى لنسمع اليوم من يحرمنا الحق فى الحكم الأدبى والبيان لشئ من ذلك بعد عبد القاهر ، فيقول فى جمود : " وليس بعد كلام الشيخ كلام " . لكن الحياة تقول فى اصرار : انها قد تحركت وتطورت وتغيرت قرابة ألف عام ، منذ جاءها هذا الشيخ ..

وليس يجب حين نحطم هذه الرجعية الفنية أن ننكر ما للقدماء من علم وفضل ، ولكن نقول : ان الانسان قد ارتقى وجدانه وعقله ، وان لسعة عقله وعمق معارفه أثرا بل آثارا فى وجدانه وحسه ، وذوقه وفنه .

فلنحرر أنفسنا من هذه الأمسية الأدبية ، ولنخلصها من هاتيك الرجعية الفنية ، لتتجدد وتتذوق ، وتحكم وتتبين ، غير مقلدة ولا جامدة .

هذا رأى الأستاذ الخولى .. ولكن أحب أن أقول : ان هذه الرجعية الفنية التى تحدث عنها الأستاذ ربما وجدت فى فترة من فترات حياتنا ولكنها لم تلبث طويلا ، بل حل محلها رغبة جارفة فى التقدم والتطور شملت جميع مرافق حياتنا ، ومن بينها الفنون والآداب ، وجميع العلوم نالها القليل أو الكثير من هذا التطور ، الا البلاغة — موضوع بحثنا — والتى أرجو أن تنال نصيبها من هذا التقدم والرقى .

تلك كانت التخلية المعنوية ..

وأما التخلية العملية : فبأن نحرر دراستنا من آثار الدراسة القديمة الضيقة الأفق .. فلا نلتزم المقررات الأدبية ، والأحكام النقدية ، فنستحسن ما استحسنوا ، ونستهجن ما استهجنوا ، لفضل السبق والتقدم ، وهكذا سنرفض أحكاما شائعة ، وأمثلة دائرة ، ونستبعد صورا رائجة ، فليس أعذب الشعر أكذبه ، وليس خير المدح ما كان بالفضائل الأربع ، وليس خير المعانى ما وصل اليه الذهن بالكد ، وليس التصنع الزخرفى عملا فنيا ، ولسنا نقبل تشبيه البعر بالفلفل ، ولا البنفسج بالنار فى الكبريت ، ولا المرأة بالدعص والقضيب ، مهما يرد هذا فيما عدوه من عيون الشعر ، ومعلق القصائد . ولا سبيل هنا الى سرد كل ما نريد رفضه ، بل نقول فى اجمال جامع : ان لحياتهم بوضعها الاجتماعى ، واضطرابها السياسى ، ومستواها العلمى ، وحالها الخلقى ، ما تخالفه حياتنا اليوم فى الاستقرار الاجتماعى ، والنظام السياسى ، والتقدم العلمى ، والوضع الخلقى ، ولكل أولئك فعله بالذوق ، وأثره فى الفن .

ومن التخلية العملية أيضا : ألا نلزم دراستنا الطابع الدينى ، الذى لزمها يوم كانت غايتها معرفة اعجاز القرآن .

ويقول الأستاذ الخولى فى ذلك . نحن لا نلتزم رأيا بعينه فى الاعجاز ، ونرى الحياة الدينية نفسها قد اكتفت من ذلك بما قيل ، فلا حاجة بها الى جديد فيه ، وان جدت بها تلك الحاجة ، التمستها بنفسها على المنهج الذى تختاره ، وأعفتنا من هذا التناول ، وبذلك لا نقف أمام الاعتبارات الاعتقادية التى تحد الدرس ، وتكف من نشاطه .

ولا تحسبن عدم اتخاذ هذا الطابع الدينى فى الدرس ، وعدم الوقوف عند الغاية الدينية فيه ، يتضمن شيئا من عدم تقدير الفن القرآنى ، كلا بل نحن حين نرفض التزام الرجوع فى مثلنا وأمثلتنا الى الأدب القديم ، نحرص حرصا عظيما على الرجوع فى مثل هذا الى القرآن وفنه العالى . وكل ما هنالك

أننا فى سبيل تحرير النفس والذوق ، ورد الحرية الى الوجدان ، نؤثر أن نصل الى مثل هذا التقدير للقرآن ، عن طريق درس خالص من التقليد ، متحرر من التحديد والتقييد .

هذا رأى الأستاذ الخولى .. وكنت أحب أن يوضح رأيه أكثر ، ويبين كيف يمكن أن نصل الى مثل هذا التقدير للقرآن عن طريق درس خالص من التقليد .... ثم كيف يغيب عن بال الأستاذ أن اتصال البلاغة بالنهج القرآنى حفظ لها حياتها وأمدها بأسباب الروعة والخصب والنماء .. " ويوم أن حال المتأخرون بينها وبين هذا النبع ، وقصروها على شلهم المرددة الموروثة جمدت وجف ماؤها ، وذهب رونقها ، وفقدت جمال الفن ، وروعة الأدب "(١)

وعلى كل لنا عودة الى هذا الموضوع حينما نتحدث عن : قضية الاعجاز .

تلك كانت التخلية : المعنوية النفسية ، والعملية المادية .

وأما التحلية المعنوية :
======================

فبأن نشعر بعظمة الغاية التى نلتمس من أجلها الدرس الأدبى وحيويتها ، وأنها تحقيق لضرب من نشاط الفرد والجمع يحقق نتائج عملية ونفسية ، تسعد بها الحياة سعادتها بغيرها من ألوان النشاط العلمى والعملى ، لأن لكل جانب من جوانب حياة الواحد والأمة قوى ، تعمل لتحقيق حاجته ، وتوفير كماله الحيوى ، والجانب الوجدانى من جوانب الحياة التى يحقق

---

١ — أثر القرآن فى تطور البلاغة العربية / د . كامل الخولى ص ٢٣٨ .

التغنن حاجتها ، ويد نيها من كمالها ، والقول الفنى أكثر صنوف الفنـــون شيوعا فى الناس ، ولزوما لهم ، واسعادا لجمهرتهم ، وهم أكثر حاجـــة اليه ، وأنسأبه ، كما يكشف ذلك الواقع ، وتؤيده نواميس التجمع .

ومن التحلية المعنوية أيضا : أن نثق بأن فى الثقافة العلمية والفنيـــة لهذا العصر ، ما ينبغى أن يلتمس : تسديدا للنظر الفنى ، وارهافـــا للذوق الأدبى ، وأن درس هولاء المحدثين للحياة الانسانية من نواحيهـــا المختلفة ، أو درسهم لجوانب الكون ، ومحاولتهم فى تفسير ذلك وتفهمـــه ، قد أوفت على أشياء ، أمست من ثقافة الأديب ، التى لا مفر له اليـــوم من الالمام بها . وبعد ذلك تأتـــى :

التحليـــة العمليـــة : بأن نزود ثقافتنا الأدبية بما يجـــدى عليها من دراسات فنية لها اليوم تقدمها :

كمعرفة قدر من أصول الموسيقى وفلسفتها ، والاتصال بالمذاهب الفنيـــة المحدثة فى سائر الفنون ، ومعرفة وجهات أصحابها ، وفصل الحياة بهـــا .. هذا وما اليه ، مما يكمل الشخصية الأدبية المصرية ، ويجعلها جديـــرة بأن ترضى ذوق العصر فى أدبها ، وتترجم عنه فى نقدهـــا .

ولئن كنت فى هذه التحلية المعنوية والعملية قد شارفت آفاقا ليســـت من مألوف الدرس الأدبى عندنا حتى اليوم ، فلا بدع أن يكون ذلك استشرافـــا لغاية سامية ، كالغاية الجليلة التى نريد لفن القول أن يحققها .

وفى التحلية العملية الأخيرة التى يراها الأستاذ الخولى ضرورية وهامـــة وهى أن نزود ثقافتنا الأدبية بما يجدى عليها من دراسات فنية لها اليـــوم تقدمهـــا .

كنت أحب ـ لأهمية هذا الزاد الجديد ـ أن يوضح الأســـتاذ رأيه بتطبيق بعض الأمثلة على الأقل ، ولا يكتفى بقوله مثـــلا :

" كمعرفة قدر من أصول الموسيقى وفلسفتها .. " .. فما هو هذا القدر المقترح ؟ وهل للموسيقى فلسفة ؟ .. ان الذى نعرفه أن أصول الموسيقى تتلخص عندنا فى النغمات الشرقية مثل : الرست ، والنهاوند ، والبياتى ، والسيكة ، والدوكة ، والصبا ، الى غير ذلك من النغمات الكثيرة التى تصل الى أكثر من ستين نغمة . فهل يريد الأستاذ أن ندرس هذه النغمات ونحللها الى درجاتها الصوتية ومساحة كل صوت حسب النوتة الموسيقية ؟ ان ذلك يفيد الموسيقيين والمطربين لا شك ، ولكن بماذا يفيد الأدباء ؟

ولعله يقول : أنا أقصد أصول الموسيقى — عندهم — عند المحدثين من الغربيين .. وأقول : ان أصول الموسيقى هناك تتلخص فى : السلم الكبير (الميجير) ، والسلم الصغير (المينير) بالاضافة الى النوتة الموسيقية التى استحدثوها وأصبحت لغة الكتابة الموسيقية فى العالم ، وقد وضعوا لهذه النوتة خطوطا ومسافات ترمز الى درجات الصوت ، كما وضعوا رموزا أخرى للوحدات الزمنية للصوت ، مثل : الروند ، والبلانش ، والنوار ، وغير ذلك مما يتضح فى دراسة النوتة الموسيقية . فهل يقصد الأستاذ الخولى شيئا من ذلك ؟ وما جدواه غير اضاعة الوقت فى تخصص آخر غير الأدب فى الوسيلة والأداة ، وان كان يلتقى معه فى الغاية .

ولو أن الأستاذ الخولى قال : " كممارسة قدر من التذوق الموسيقى " لهان الأمر ووضح ، فالتذوق للموسيقى ولأى لون من ألوان الفن لا شك مما يساعد الأديب ويسمو بعاطفته وأحاسيسه .

ولكأن القدماء من أعلام المدرسة الأدبية حينما قالوا : ان الأدب والموسيقى شقيقان ، انما كانوا يقصدون ذلك والاستاذ الخولى ما زال يشير فى غير موضع الى أهمية الذوق والتذوق فى الفنون بعامة وفى البلاغة والأدب بخاصة .. وها هو ذا يعود الى الذوق بعد هذه الجولة فى المقارنة بين القديم والحديث ، فيتحدث عنه تحت عنوان :

.. وشىء ليس فى الكتب

يقول : الآن فرغنا من عرض نتائج المقارنات ، وبيان كيفية تحقيقها ، فألممنا

بأصول التفيير العام والخاص لبحث البلاغة ، تفييرا صير البلاغة " فن القـول "

لكنا اذ نمسك القلم عند هذه المرحلة نشعر بأن فوق ذلك الذى قلناه كله شيئا ، هو الأساس الأول ، والعامل الأقوى ، واليه المنتهى ، وعنه المصدر ، فى ذلك التعبير كله ، وهو شيء لا سبيل الى تلقينه وتعليمه ، والتبصير بمصادره ومراجعه ، لأنه شيء ليس فى الكتب ، كما قال القدماء ، ولا هو مما يكسبه من حرم أصله ، ذلكم هو " الذوق " (١) ..

والآن وقد بسطنا فى التخليات ما سندع ، وبينا فى التحليات ما ستأخذ ، وأدركنا ما عليه المعتمد فى ذلك كله ، نتقدم فى اطمئنان للحديث عن :

مباحث فـن القـول

أخيرا وبعد هذه التمهيدات الطويلة التى كان لابد منها لنعرف ونقدر وجهة نظر الأستاذ الخولى فى التجديد ، وكيف استنتجها وتوصل اليها ... فدرسنا معه كلا من : صورة البلاغة ، ودائرة بحثها ، ومناهجها ، وغاياتها ، وأثر الحياة الاجتماعية والبيئات الثقافية فى كل ذلك قديما وحديثا ... ثم قارنا بين كل ذلك قديما وحديثا ، وخرجنا من هذه المقارنات بما رآه الأستاذ الخولى من تخلية وتحلية ، وعرفنا المراد بكل منهما ، وضرب لنا الأستاذ بعض الأمثلة ، وان لم يعن بتطبيقها ..

بعد كل ذلك أصبحنا مهيئين لتلقى وتفهم الخطة الجديدة التى وضعها الأستاذ الخولى لنصل الى بلاغة جديدة ... وهذه الخطة تتلخص فى المباحث الآتيـه :ـ

---

١ — ص ٢١٣ فن القـول .

١ — المبـــادئ : وهى فى اصطلاح القدماء اسم لما يقدمونه بين يدى العلم من تعريف له ، وبيان لموضوعه ، وغايته ، ومكانه فى دائرة المعارف الانسانية، وما هو من ذلك بسبب .

٢ — المقدمـــات : وهى مقتبسات من دراسات أخرى ، تمهيد هذا الدرس ، وتنير سبيله ، ومنها : المقدمة الفنية ، والمقدمة النفسية .

٣ — الأبحـــاث : وهى لب الدرس وصميمه، وسنديرها على اعتبارات فنية من طبيعة العمل الأدبى ، غير متقيدين بالتقسيم القديم المعروف ، ولا مبتدئين من بدئه ، ولا منتهين عند نهايته ، على ما سترى بعد ، فنبحث الألفاظ والمعانى ، لأنها عنصر العمل الأدبى ، وسنبحث عن الكلمة ، فالجملة ، فالفقرة ، فالصور البيانية ، فالقطعة الأدبية ، فالأساليب ، ففنون النثر والشعر ... الخ .

واليك تفصيل ذلك كله :

خطة فن القول (١)

أولا : المبادئ :

التعريف بفن القول — غايته — صلته بغيره من الدراسات — صلته

---

١ — راجع خطة فن القول ص ٢١٥ — ٢٢٣ .

بالدراسة الأدبية : بالأدب — بالنقد الأدبي — بتاريخ الأدب .

ثانيـــا : المقدمـــات :

======

ا — المقدمة الفنيـــــة :

=================

الفن — حقيقته — الفن بين المعارف الانسانية :
الفن والفلسفة ، الفن والعلم ، الفن والجمال ... قبسات مـــــن
علم الجمال عن بيانه ، وفيم يكون ، وبم يقدر ، والآراء في ذلـــك
قديما وحديثا .

وفي هذه المقدمة مجال فسيح لاقتراح دراسات أخرى من مختلـــف
الفنون تمد الثقافة الأدبية بما يجعلها ملائمة للعصر .. وتلك خطـــوط
كبرى ندع تفصيلها الدقيق للتطبيق ، ثم لتفكير من يفكر .

ب — المقدمة النفســـية :

=====================

القوى الانسانية المختلفة : وصلة بعضها ببعض ، والآراء فيها قديمـــا
وحديثا ، ونواحي اتصال هذه القوى المختلفة بالعمل الفني ، وتأثيرها
فيه .

وكذلك الحياة الوجدانية : مقوماتها — أغراضها — رياضتهـــا —
صلتها بجوانب الحياة الأخرى — العواطف والمشاعر الانسانية ، وما تمد
به العمل الفني ولا سيما الأدبي .. الخ وما يتصل بذلك ، ممـــا
أفضل ألا أتولاه أنا بالتفصيل ، وأوثر أن أتركه لمتفرغ لدرس النفـــس
يكتب هذه المقدمة النفسية .

ثالثـــا : الأبحـــاث :

=======

أولا = في الكلمـــــة :

=================

ا — من حيث هي عنصر لغوي : حسن اللفظة من حيث جرسهـــا

الصوتى — حسن الكلمة من حيث أداؤها لمعناها — أمثلة للنوعين وبيان الفرق بينهما — الضابط لحسن الجرس الصوتى هو حس الأذن للأصوات — لكل لغة ذوق صوتى خاص تنتظم أصوله قواعد الصرف — ائتلاف الكلمة فى الجملة كائتلاف الحروف فى الكلمة .

الصوت والمعنى : تناسبهما — الجزالة والرقة ، ومواضع كل ، وأنهما أثر لتناسب المعنى مع الصوت — ضبط ذلك بالحس الفنى .

زيادة حسن أداء الكلام لمعناه بالرنين الصوتى وتأثيره : الجناس ، والسجع ، الترصيع ، والتصريع ، ورد العجز على الصدر ، ولزوم ما لا يلزم ... الخ . درجة الحسن فى هذه المحسنات ومنشؤه ، واتصاله بالمعنى دائما ، فاذا فقد ذلك الاتصال فسد .

ب — من حيث هى جزء الجملة : حسن دلالة الكلمة على معناها فى الجملة .. وتتأثر هذه الدلالة بثلاثة أشياء :

الوضع : كما يسميه القدماء — ثم الاستعمال : وما يتركه من أثر فى مفهومها — ثم نظم الجملة : وأثره فى هذه الدلالة .

واليك توضيح كل منها :—

١ — الوضع اللغوى : اعطاؤه الكلمة مادتها وصيغتها — تعيينه معناها ، وما تصلح له من موضع فى الجملة — ليست كل كلمة ، تصلح لكل موضع فى الجملة — نظم الجملة فى العربية وأمهات النظرات الأدبية فيه .

الوضع يهيىء للكلمة — فوق ما سبق — خصائص أدبية تؤثر فى دلالتها : بيان ذلك فى استعمال النكرة واستعمال المعرفة — خصائص التنكير فى جزء الجملة — ركنا كان الجزء أو مكملا — خصائص التعريف فى جزء الجملة .

تفاوت أنواع التعريف المختلفة فى التعيين والدلالة — الاعتبارات الأدبية التى يؤثر بها الأديب معرفا على معرف . الضمير : أصل وضعه اللغوى وأثره البلاغى — وضع المضمر موضع المظهر وبالعكس ، وأثر ذلك فى

الكلام — تلوين الخطاب بالمخالفة بين أنواع الضمائر :

الالتفات وأثره فى الكلام .

العلم — اسم الاشارة — الاسم الموصول — المعرف بأل — المعرف بالاضافة — الأصل الوضعى لكل واحد منها ، وبيان الأثر الأدبى الخاص به فى الاستعمال ، والمواطن التى يحسن فيها .

تعريف طرفى الجملة وأثره فى المعنى : " القصر بالتعريف " .

الفعل والاسم ومعناهما فى الوضع اللغوى — الأثر الأدبى لهذا فى معنى الجملة الأسمية والجملة الفعلية — وضع احدى صيغ الفعل مكان الأخرى ، كالمضى مكان المضارعة ، وأثر ذلك فى المعنى .

أضرب من مخالفة الوضع اللغوى : كالتوسع ، والتغليب ، والتعبير عن المثنى بالواحد .. وما الى هذا ، وأثره فى المعنى .

٢ — الاستعمال : الظواهر الاجتماعية المفسرة لأحواله ، نصيب الكلمات منه .

تغير الاستعمال قلة وكثرة ، وتأثير ذلك فى دلالة الكلمة ووضعها .

قلة حظ الكلمة من الاستعمال تضعف دلالتها على معناها فتصير غريبة ، أمثلة لذلك ، اختلاف الغرابة باختلاف الأعصر وأمثلة لذلك ، ضبط معنى الغرابة باعتبار أدبى ، مراعاة حاجات الحياة الأدبية وظروفها عند الحكم بالغرابة .

كثرة الاستعمال الأدبى لبعض أوضاع الكلمة تجعلها أفضل من أوضاعها الأخرى : أمثلة لحسن استعمال الصيغ الفعلية من مادة ، دون الصيغ الاسمية والعكس — فضل بعض صيغ الأفعال على بعض — حسن استعمال المفرد دون الجمع والعكس ، أمثلة لذلك ، وبيان سببه .

الاستعمال : يوسع بمعونة القرائن دلالة بعض الكلمات ، أمثلة لذلك فيما يلى :

أدوات الاستفهام : وما قد تؤديه من المعانى وراء طلب الفهم ، تذوق الأمثلة

المؤيدة لذلك ، وتقدير أثرها في المعنى ".

أدوات النداء : وما قد تؤديه من المعاني وراء طلب الاقبال ، تذوق الأمثلة المؤيدة لذلك ، وتقدير أثره في المعنى .

أدوات النهي : وما قد تؤديه من المعاني وراء طلب الترك ، تذوق الأمثلة المؤيدة لذلك ، وتقدير أثره في المعنى .

الاستعمال : يوسع بمعونة القرائن دلالة الصيغ ، أمثلة ذلك في صيغة الأمر ، وما قد تحتمله من المعاني وراء طلب الفعل .. صيغ الاخبار ، وصيغ الانشاء ، ودلالة احداهما على الأخرى ، وأثر تبادلهما في الاستعمال ، وأمثلة ذلك .

اختصاص : بيئة من البيئات باستعمال كلمة ، يعطيها عند هذه البيئة دلالة غير دلالتها اللغوية الأولى ، أثر العرف والاصطلاح في ذلك ، وأمثلة لما يزيدانه في دلالة الكلمة ، الاستعانة بذلك على توسيع اللغات للوفاء بحاجة العلوم والفنون والأعمال ، وحاجات الحياة المختلفة للجماعة .

الاكثار من استعمال الكلمة : يمكنها من أداء معنى أوسع ، هو من معناها الأول بسبب ، وهذا هو التجوز اللغوي — النظر في سعة اللغة بالمجاز ، والفرق بين المجاز اللغوي والمجاز الأدبي — الصلات بين المعاني هي التي تساعد على هذا الأثر للاستعمال (وهي " العلاقة" في قولهم) — أثر الاستعمال المجازي في الدلالة ، وقيمته الأدبية .

أثر المركز الاجتماعي للبيئة المستعملة للكلمة عليها : رفعة وضعة ، وكرامة وابتذالا — أمثلة لذلك — اختلافه باختلاف الأعصر في الكلمة الواحدة الانتفاع بهذا في الفن القولي — اللغة اليومية ولغة الأدب : الفرق بينهما — اثر الاستعمال في قوة الكلمة وفتورها ، وعمقها وسطحيتها — الحال النفسية للفرد والجماعة ، متكلمين ومخاطبين — وأثرها في مدلول الكلمات حسن الانتفاع بذلك في الفنون الأدبية .

====

٣ — النظم أو تأليف الجمـــل :

بعض مواضع الكلمة فى الجملة واجب نحويا ، وبعضها جائز يمكن تغييره ، أمثلة ذلك — الأحوال الواجبة لا بحث للفن فيها الا من حيث تكشف خصائص اللغة العامة — أحوال الكلمة الجائزة فى الجملة هى موضع البحث البلاغى يفاضل بينها — ليس كل ما جاز نحويا كان بليغا ، أمثلة ذلك — يفسر ايثار الأديب حالا من أحوال الكلمة فى الجملة على حال أخرى فيما يلى :

التقديم والتأخيـــر : الجائزان ، وما تتأثر به دلالة الكلمة اذا ما قدمت فى الجملة ، وما تتأثر به دلالتها حين تؤخر — التخصيص بالتقديم ، والقصر بالتقديم ، والفرق بينهما .

الحذف والذكـــر : الجائزان ، وما تتأثر به دلالة الكلمة حين تذكر وقد أمكن حذفها أو العكس — رجوع الحذف والذكر حينا الى نفسية المتكلم ، وحينا الى نفسية السامع ، وآنا للموضوع الفنى المتناول ، أمثلة لذلك .

يكون جزء الجملة جملة ، ولذلك أثره فى المعنى — تتقابل معانى أجزاء الجملة أو الجمل ، فيكون لذلك أثر فى حسن الكلام (وهو الطباق).

ثانيـــا — فى الجملـــة :
=================

ربط جزأى الجملة بالاسناد — اسناد الشيء لغير من صدر منه (المجاز العقلـــى) — ما يراعى فى ذلك من الاعتبارات الأدبية ، وأثره فى المعنى — بعد هذا الاسناد عن الجو الدينى الذى أحيط به عند القدماء .

يدخل المؤكد على الجملة كلها ، ولهذا أثر يفترق عند ادخالـــه على جزء منها — الاعتبارات المقتضية لتوكيد الجملة .

يكون توكيد المعنى بغير المؤكد الحرفى : كالاقتسام فى الكلام ، والقول بالموجب ، والتعليق ... الخ

القصر بالأدوات : (انما ، ما و الا) وأثره فى توكيد الجملة الاعتبارات الأدبية التى تلحظ عند استعمال كل أداة وشاهد ذلك .

ادخال أدوات الشرط : على الجملة وأثره — ما يلحظ من الاعتبارات الأدبية فى استعمال كل أداة من أدوات الشرط .

ايجاز الجملة واطنابها : وما يضبط ذلك أدبيا — أسباب ذلك أنواع الايجاز فى الجملة ، وأنواع الاطناب فيها .

ثالثا = فى الفقرة :

==========================

الترقيم اللفظى لجمل الفقرة (الفصل والوصل) ، الضوابط الفنية لذلك .

ايجاز الفقرة واطنابها : مقتضياته — وضابطه .

الفقرة فى العمل الأدبى جزء من صورة متناسقة فنية الخلق .

رابعا = فى صور التعبير :

==========================

(أ) اختلاف صور التعبير يحدث تأثيرا وقوة ، بيان ذلك والدلالة على التأثير والقوة فى الأمثلة المسوقة — قوة الابانة تكون بالايضاح المعلن ، أو بالتظليل المؤثر — ايضاح ذلك بالأمثلة ، وبيان ناحية القوة فى أمثلة الصنفين — اختيار كل صنف لمقامه المناسب يختلف باختلاف الموضوع ، وحال المتكلم ، وحال السامع ، من حيث الاعتبارات الفنية — تكون صورة التعبير من جملة واحدة ، وقد تكون بفقرة من عدة جمل ، أمثلة ذلك .

(ب) صور الايضاح المعلن :

التشبيه : العمل الفنى فيه — الأثر الأدبى له — أغراضه ، أنواعه ، وما يتحقق من الأثر فى كل نوع — الشواهد الأدبية الكافية لذلك كله .

الاستعارة : ربطها بالتجوز ، وأثر الاستعمال (على ما مضى في درس الاستعمال) — العمل الفني في أنواع الاستعارة المختلفة — بيان تفاوته فيها .

الأثر الفني للاستعارات المختلفة من تصريحية ومكنية — الشواهد الأدبية الكافية لذلك .

الكناية الموضحة : العمل الفني فيها — أثرها الأدبي — الشواهد الأدبية الكافية لذلك .

التجريد : العمل الفني فيه — أثره الأدبي — الشواهد الأدبية الكافية لذلك .

القلب : العمل الفني فيه — أثره الأدبي — الشواهد الأدبية الكافيةلذلك .

أسلوب الحكيم : " " — " " — " " " "

المبالغة : " " فيها — " " — " " " "

تأكيد المدح بما

يشبه الذم : " " فيه — " " — " " " "

التدبيج : " " " — " " — " " " "

التهييج ،

والالهاب : " " " " — " " — " " " "

التهكم (بجملة) : " " — " " — " " " "

الفكاهة (في جملة) : " فيها - أثرها " — " " " "

التجاهل : " " فيه — أثره " — " " " "

(ج) صور التعبير المظللة :

الرمز والايحاء (بجملة) : العمل الفني فيه ، الأثر الأدبي له ، الشواهد الأدبية الكافية .

الالغاز : العمل الفني فيه ، الأثر الأدبي له ، الشواهد الأدبية الكافية .

التورية : " " فيها ، " " لها ، " " "

الاستخدام : " " فيه ، " " له ، " " " .

الاتساع : " " " ، " " " ، " " " .

خامسـا — في القطعة الأدبيـة :

ا) — عناصر العمل الأدبي : الآراء في ذلك — ايثار القول الفني منها . علاقة ما بين اللفظ والمعنى في العمل الأدبي ، مع الاشارة الى ما تقدم كالتناسب ، وما وراء ذلك مما يلحظ من هذه العلاقة .

ب) — الصناعة المعنوية (مباحث المعاني الأدبيـة) :
خصائص المعاني الأدبية المميزة لها عن غيرها من المعاني — مصادر ايجاد المعاني الأدبية ، وطرائق هذا الايجاد تفصيلا — الأدب والثقافة العامة والخاصة — الرياضة الأدبية وطرقها قديما وحديثا في تفصيل — ترتيب المعاني الأدبية — العوامل الأدبية والنفسية في ذلك واختلافها في المتفننين ، وأثرها في فنهم — عرض المعاني الأدبية واخراجها ، واختلاف الأدباء في ذلك وأثره .

جـ) — الفنون الأدبية المختلفـة :
أقسام العمل الأدبي قديما وحديثا ، واختيار الفني من التقسيم .
خصائص الشعر : في عباراته ، ومعانيه ، وموضوعاته ، وخصائص كل فن من فنونه .
خصائص النثر : في عباراته ، ومعانيه ، وموضوعاته ، وخصائص كل فن من فنونه .

سادسـا : في الأساليـب :

الأساليب الفنية في الأدب وما سواه من الفنون ، دلالتها على شخصية المتفنن — الاعتبارات النفسية والأدبية التي يقوم بها تميز الأسلوب .

الأساليب الأدبية : من حيث هى طراز فى الاخراج والعرض تميز عمل الأديب ، مثل الأسلوب الرمزى ، والفكاهى ، والتهكى ، فى عمل أدبى كامل ـ مقومات مثل هذا الصنيع ، وميزاته ، مع الاشارة الى الروائع الفنية من كل طراز .

=============

وأخيرا .. وبعد هذا العرض المستفيض يقول الأستاذ الخولى :

تلكم هى خطة فن القول ، وتنسيق بحوثه ، لا تقول انها فى صورتها الأخيرة ، بل نقول انها تخطيط لمحاولة ، نأمل أن تظل أبد الدهر ـ لو أمكن ذلك ـ رهن التغيير والتعديل ، وهدف التجديد والتحسين . يضيف اليها ، ويحذف منها ، وينسقها ، من تهيأت له القدرة الصادقة على ذلك ، وكانت له فيه بصيرة خبيرة ، ليظل هذا الدرس من الفن القولى صدى لحياة أهله ، وسبيلا لتحقيق غاياتهم فى الحياة الوجدانية الراقية .

فن القول فى الميزان

=========================

حينما نريد أن نتكلم عن " فن القول " للأستاذ الخولى .. فلابد أن نرجع البصر سريعا الى كتاب " الأسلوب " للأستاذ الشايب .. فهما الكتابان اللذان تجرأ كل منهما ووضع منهجا جديدا متكاملا للبلاغة .

وبنظرة فاحصة نجد أن العلاقة بين الكتابين شديدة ، والأفكار متشابهة ، فالأستاذ الشايب متأثر بدعوة الأستاذ الخولى ومحاضراته فى تجديد البلاغة ـ وقد سبق وقلنا رأينا فى كتاب الأسلوب ، وأن الفصل الأخير منه عن الأسلوب هو الذى يمكن الاستفادة به فى تجديد البلاغة .

أما كتاب " فن القول " فانه ملئ بالارشادات والتوجيهات والتحليلات والمقارنات التى يحتاج اليها من يتصدى لتجديد البلاغة .. وقد سرد الأستاذ الخولى فى آخر كتابه خطة مجملة ومفصلة لتصوره الذى استقر عليه فى تجديد البلاغة .. وهذه الصورة التى استقر عليها ليست هى الصورة الأخيرة للبلاغة أو فن القول — كما يقول — وانما هى تخطيط لمحاولة يود أن تظل أبد الدهر — لو أمكن — رهن التغيير والتبديل والاضافة والتحسين ممن تهيأت لهم القدرة الصادقة على ذلك .

والواقع أن هذه الخطة تحتاج الى لجنة كبيرة من كبار المتخصصين لتطبيقها والافادة منها وتعديل ما يستحق التعديل فيها . فقد تنصل الأستاذ الخولى من مهمة التطبيق ، وتركها لمن يأتى بعده من المهتمين بشئون البلاغة . فالمقدمة الفنية — مثلا — وضع خطوطها ، وترك تطبيقها لتفكير من يفكر (١) ، والمقدمة النفسية — كذلك — أثر أن يتركها لمتفرغ لدرس النفس يدرس علم النفس ، وقال : ولى من الثقة بمعونة أصحاب الدراسة النفسية ما يطمئننى على تحقيق هذا الرجاء (٢) .

ويقول فى آخر الكتاب : (وكنت هممت بأن أفرد كتابا مستقلا من كتب هذا المؤلف ، بباب من الأبواب الكبار فى هذا الدرس ، كباب الفصل والوصل ، وقد أشار القدماء بأهميته ، ودعاه التجديد باب ترقيم الجمل فى الفقرة ، والفقرة فى القطعة ، فأتولاه ببيان مفصل ، عن التخلية فيه ، والاستغناء عما لا يجدى ، ثم التحلية له والاكمال بما يحقق الغاية .. لكن رئى أخيرا الاكتفاء بما سبق من بيان وتمثيل وهدى ، يصح أن يترك الدارسون بعده ليجربوا قواهم فى ذلك التغيير ... الخ) . (٣)

---

١ — انظر ص ٢١٦ فن القول .
٢ — انظر المرجع السابق .
٣ — انظر ص ٢٢٤ فن القول .

ونحن — بفضل الله وقوته — سنحاول فى المستقبل القريب — ان شاء الله — أن نساهم فى تطبيق هذا المنهج ٠٠أو جزء منه ٠ حسب ما يتاح لنا ٠٠فان هذا المنهج على جدته وطرافته منهج نظرى قاصر ٠ وتحتاج كثير من مباحثه الى الايضاح والتطبيق ٠ حتى لكأن الخطة فهرس لعناوين كلية وجزئية ٠٠٠٠ان هذا المنهج على قصوره واقتصاره على الناحية النظرية جدير بالعناية والتطبيق ٠ وهو على أى حال خير من بقاء البلاغة على وضعها الحالى ٠ ولن تخسر علوم البلاغة الثلاثة كثيرا بالغاء اسمها وتقسيمها مادامت داخلة بطريقة أو بأخرى فى مباحث المنهج الجديد ٠

واذا ما كان لنا من رأى فهو أن هذه المباحث تحتاج الى اختصار وتركيز فهى عند التطبيق — فيما يبدو — طويلة وكثيرة على دارس البلاغة ٠

كما أن الاحتفاظ باسم (البلاغة) كعلم على هذا العلم الجليل وفنه أمر هام ٠٠ ولا يمكن أن يقوم عنوان " فن القول " مقامها ٠٠وان صلح تعريفا لها ٠ خاصة وأن هذا العنوان يصلح عنوانا لدراسة الأدب كذلك ٠

هذا والأستاذ الشايب هو أيضا — كما أوضحنا من قبل — كان قد اقترح أن يبدل اسم البلاغة بالأسلوب ٠ وقلنا هناك ان كلمة الأسلوب تصلح كذلك لأكثر من موضوع ٠ فلكل علم أسلوبه ٠ ولكل فن أسلوبه ٠

أما كلمة البلاغة فما زال لها رونقها وبريقها واختصاصها بهذا الفن وحده دون سواه ٠

وأخيرا أقول : ان كتاب " فن القول " له وزنه وقيمته فى مجال تجديد البلاغة ٠ وما ورد فيه من خطة ومنهج يجب أن يوضع موضع الاعتبار لصالح بلاغتنا الحبيبة ٠ حيث لم نجد حتى الآن من تقدم بوضع خطة أفضل ٠٠ وقد يظهر فى المستقبل القريب أو البعيد من يستطيع تعديل هذه الخطة أو يأتى بأفضل منها ٠٠ ولكن حتى ذلك الحين يجب أن نهتم بخطة " فن القول " ونستفيد منها ٠

الفصل الثالث

المنهج المدرسي الحديث في البلاغة

البلاغة فى مدارسـنا

جرت محاولات عديدة لاحياء دراسة البلاغة فى المدارس الثانوية ، والنهوض بهذه المادة الهامة من مواد اللغة العربية . فوضعت مناهج جديدة ، وألفت كتب جديدة لهذا الغرض .

ولا شك أن المناهج والكتب الجديدة فى مادة البلاغة أفضل من القديم الذى لم تعد تستسيغه عقول الجيل الجديد وأذواقهم ، فهى خطوة أو خطوات على طريق تجديد البلاغة والنهوض بها ، بعد الخطوة الأولى التى بدأ بهـا كتاب البلاغة الواضحة كما أوضحنا ذلك من قبل .

ولكن الى أى مدى من التجديد وصلت هذه المناهج المدرسية للبلاغة وكتبها ؟ وهل استطاعت أن تصل الى عقول الدارسين وتؤثر فى أذواقهم ؟ هذا ما نحاول الاجابة عنه فى هذا الفصل من البحث .

ومن أجل ذلك فاننا نستعرض هنا أحدث منهج للبلاغة وضع سنة ١٣٩٨ هـ — ١٩٧٨ م ضمن مناهج التعليم للمرحلة الثانوية (١) بالمملكة العربية السعودية ، وقام بوضعه ادارة المناهج والبحوث بوزارة المعارف والرئاسة العامة لتعليم البنات .

وغايتنا من ذلك تقييم عملية تطوير البلاغة فى موقعها العملى حيث تدرس للجيل الجديد نظريا وتطبيقيا وأثر ذلك فى أجيالنا وحياتنا الثقافية .

---

١ — ص ١١٤ — ١٢٠ منهج المرحلة الثانوية ط ٢ .

ونحب أن نقول فى بادئ الأمر ان هذه الجهود فى ترقيـــــة درس البلاغة وتطويره جهود مشكورة ، أصابها التوفيق أو جانبهـــا ، وصادفها الصواب أو أخطأها ، فما زالت البلاغة فى حاجة الى مثــل هذه الجهود المشكورة من اللجان التعليمية والعلماء المتخصصين .

======

منهج النقد والبلاغة للمرحلة الثانوية

وفى مقدمة هذا المنهج نجد أهدافا وتوجيهات نعرض صورة منها :

ا ـ الغاية من تدريس البلاغة والنقد :ـ

١ ـ اعداد الطالب على وجه يمكنه من الوقوف على أسرار الاعجاز فى القرآن الكريم وادراك جماله .

٢ ـ اقداره على تذوق جمال الحديث النبوى والجيد من كلام العرب شعرا ونثرا .

٣ ـ تعريف الطلاب بصفات الأسلوب العربى الجميل وتدريبهم على الاستفادة منها فى تقويم تعبيرهم .

٤ ـ تنمية الذوق الفنى لدى الطلاب وتمكينهم من الاستمتاع بما يقرؤون من الآثار الأدبية الجميلة .

٥ ـ ادراك الخصائص الفنية للنص الأدبى ومعرفة ما يدل عليه من نفسية الأديب ، وما يتركه من أثر فى نفس السامع أو القارئ ، وتقويم النص تقويما فنيا .

٦ ـ تكوين ملكة النقد بالتعرف على مواطن القوة أو الضعف فى النصوص الأدبية .

ب ـ ولتحقيق هذه الأهداف تعتمد الوسائل والتوجيهات الآتية :ـ

١ ـ الاعتماد فى تدريس هذه المادة على الاكثار من ايراد الآيات القرآنية والأحاديث النبوية واختيار النصوص الأدبية البليغة الجميلة .

٢ ـ يتوخى فى النصوص والشواهد الأدبية أن تكون هادفة نافعة متفقة مع أهداف التربية التى ترعى الدين والخلق .

٣ ـ تجلية الصورة البيانية بذكر نواحي الجمال فيها وتأثيرها في النفس وعدم الاقتصار على ذكر التسميات الاصطلاحية كاجراء الاستعارة بالطريقة المعهودة •

٤ ـ استنباط القواعد البلاغية والتعريفات بالاعتماد على مناقشة النصوص وتذوقها وعدم الاقتصار على سردها وتقريرها •

٥ ـ يراعى في تقويم النص والحكم عليه الوضوح والدقة ، وتتجنب العبارات العامة التقليدية التي تصلح لكل نص •

٦ ـ الاكثار من التطبيقات على نصوص جميلة ، ووجوب اشراك الطلبة في الكشف عن أسرار الجمال وتذوق النص • ويجب أن تصدر أحكامهم النقدية معتمدة على دراستهم للنص الأدبي نفسه للتأكد من نمو قدرتهم النقدية وتمكنهم من مادة البلاغة •

٧ ـ الحرص على تدريب الطالب دوما على صياغة الكلام الجيد تطبيقا لما يدرسه من فنون البلاغة وأساليبها •

٨ ـ يستعان على ايضاح موضوعات هذه المادة بالكتابات المشرقة المناسبة والأمثلة التحليلية الجميلة التي يوردها أئمة هذا العلم من أمثال عبد القاهر الجرجاني والآمدي •

وبالتأمل والنظر نجد أنها توجيهات قيمة سديدة ولكن هل يوجد العدد الكافي من المدرسين الأكفاء الذين يستطيعون أن ينفذوا هذه التوجيهات كما يجب وكما ينبغي •

المنهـــــــج

١ — نماذج من الكلام البليغ يعرف الطالب من خلالها تعريفا اجماليـــا بالبلاغة وعلومها وأهميتها ووظيفتها فى ايضاح الفكرة وابرازهـــا فى ثوب جميل .

٢ — كلمة موجزة عن الفصاحة والبلاغة .

٣ — علم البيـــان : ويدرس منه فى الصف الأول :

أ — التشــــبيه :

تعريفه — أركانه (استيفاؤها أو نقص بعضها) .

أنواعه — التشبيه البليغ — التشبيه التمثيلى — التشـــبيه الضمنى — التشبيه المقلوب .

أغراضه — كلمة عن جمال التشبيه وقيمته البيانية — عرض نمـاذج من التشبيهات الجيدة والمعيبة والموازنة بينهما .

ب — كلمة موجزة عن الحقيقة والمجاز .

ج — الاســتعارة :

تعريفها — الاستعارة التصريحية — الاستعارة المكنية — كلمـة عن جمال الاستعارة وقيمتها الفنية — عرض نماذج عن الاستعـارات الجميلة والرديئة والموازنة بينها .

ويدرس من علم البيـــان للصف الثانى :

الاستعارة التمثيلية — المجاز المرسل ، ويقتصر على أشهر علاقاته .

د — الكنـــاية :

تعريفها — أنواعها — الكناية عن الصفة — الكناية عن الموصـوف الكناية عن النسبة — عرض نماذج من الكنايات المأثورة والمستعملـة غير المبتذلة .

٤ — علم المعانى : ويدرس منه فى الصف الأول :—

ا — الخبر : أضرابه وأغراضه بايجاز .

ب — الانشاء : تقسيمه الى طلبى وغير طلبى .

الانشاء الطلبى :

الأمر :	معناه الحقيقى ،	وصيغه ،	وأهم المعانى التى يخرج اليها	
النهى :	"	"	" " " " "	
الاستفهام :	"	"	" " " " "	
التمنى :	"	"	" " " " "	

ويدرس من المعانى فى الصف الثانى :—

ا — الذكر والحذف .

ب — القصر : تعريفه — طرقه — أنواعه : قصر الصفة على الموصوف ، قصر الموصوف على الصفة ، القصر الحقيقى ، القصر الاضافى .

جـ — الفصل والوصل :

(ويدرس بايجاز من مواضع الفصل ما يأتى) :

كمال الاتصال — كمال الانقطاع — شبه كمال الاتصال .

(ويدرس بايجاز من مواضع الوصل ما يأتى) :

الاشتراك فى الحكم الاعرابى — الاتفاق خبرا أو انشاء — الاختلاف خبرا أو انشاء .

د — كلمة عامة عن أثر علم المعانى فى بلاغة الكلام .

٥ — علم البديع : — ويدرس منه للصف الأول :

ا — الجناس — الطباق والمقابلة — التورية — السجع .

ب — كلمة عامة عن جمال هذه المحسنات والتنبيه الى أن الاكثار منها عيب يورث الكلام تكلفا .

جـ ـ الموازنة بين نماذج جيدة منها وأخرى رديئة .

ويدرس من البديع للصف الثاني :
حسن التعليل ـ أسلوب الحكيم ـ الاقتباس ـ تأكيد المدح بما يشبه الذم .

٦ ـ النقد : ويدرس منه للصف الثاني :
ا ـ عرض موجز لتاريخ النقد والبلاغة يشتمل على ما يأتي :
معنى النقد ووظيفة كل من النقد والبلاغة والترابط بينهما وتداخل مباحثه مع مباحث البلاغة ـ بذور النقد والملاحظات البلاغية في الجاهلية وصدر الاسلام ـ أثر القرآن الكريم في تغيير مفاهيم العرب الفنية واحداث طريقة جديدة في التعبير متأثرة بالبيان القرآني ـ بيان أن علوم البلاغة نشأت للكشف عن اعجاز القرآن الكريم ـ نمو البلاغة والنقد وازدهارهما ـ تأثر النقد العربي بمباحث النقد الغربي في العصر الحديث .
ب ـ نماذج من أمهات كتب البلاغة والنقد العربية تتمشى مع العرض التاريخي السابق تتخذ أساسا لدراسة تذوقية توضح منهج العرب قديما وحديثا في النقد الأدبي .

ويدرس منه في الصف الثالث :ـ
تعريف النقد ـ وظيفته وغايته .
فنون الأدب :ـ
١ ـ الشعر : طبيعته ـ أنواعه ـ عناصره ـ بنية القصيدة العربية .
٢ ـ النثر : الفرق بينه وبين الشعر ـ أنواعه :
المقال ـ الخطابة ـ المحاضرة والحديث الاذاعي ـ القصة ـ المسرحية .
تذوق النص الأدبي .

========

المنهج المدرسي في الميــــــزان :ـ

===================

وبالتأمل والنظر نجد أنه لا جديد في هذا المنهج الا دراسة النقــــد وما يتبعه من فنون الأدب الحديثة من مقال وقصة .. الخ . أما باقـــــي المنهج الخاص بالبلاغة فهو يسير على الطريقة القديمة من تقسيم البلاغـــــة الى علومها الثلاثة ، غير أنه درس هذه العلوم في ايجاز ، وعني بوضـــع أمثلة جديدة في الكتاب ، واستعمل الطريقة الاستنباطية في تحصيل القواعد .

أما الأسلوب — مع أهميته — فقد أشارت اليه التوجيهات ، ولكـــن المنهج أغفله . وقد رأيت في كتاب " الأساس في النقد والبلاغة " للصـــف الثاني الثانوي (١) فصلا عن الأسلوب وعناصره ، وقد اختفى هذا الفصـــل من الكتب التي استحدثت بعد ذلك .

أما كتاب النقد والبلاغة لمعاهد اعداد المعلمين فهو قريب من هذا المنهج الا أنه اختصر اختصارا مخلا بحيث لا يفيد طلاب المعلمين مع أنهم أولـــــى بالتعمق في دراسة البلاغة وأحرى باجادتها واتقانها .

وغاية القول إن منهج البلاغة في المدارس الثانوية ودور المعلميـــــن منهج قديم وان وضع حديثا وتناولته يد التنسيق والتشذيب وهو لا ولم يحقـــق الغرض الذي نصبو اليه من تخريج جيل يتذوق البلاغة ويجيدها . ولعـــل من أسباب فشله أن الشرح والتحليل في كل درس لم يستطع أن يبين وجه الجمال البياني وأن يوصله الى القلوب قبل العقول . كما أن الوقت المخصص لمـــادة البلاغة لا يكفي مطلقا ولا يعطي فرصة لبسط موضوعات المنهج واعطائها حقهـــا من الشرح والتطبيق فالوقت المخصص للبلاغة في الصف الأول الثانـــــوي

---

١ — طبعت وزارة المعارف السعودية هذا الكتاب سنة ١٣٨٦ هـ ط ٣ وقررت تدريسه في المدارس الثانوية .

حصة واحدة فقط فى الأسبوع وحصتان لكل من الصف الثانى أدبى والثالث أدبى . ولا نصيب للقسم العلمى فى الصفين الأخيرين مع أنه الأكثر عددا ..

هذا الى أن كثيرا من أساتذة اللغة العربية فى وزارة المعارف — وخاصة حديثى التخرج — لا يجيدون تدريس البلاغة ولا يتذوقونها وبالتالى لا يستطيعون اقناع الطلاب بها .

ولكل هذه الأسباب فان العملية التعليمية للبلاغة العربية فى مدارسنا قد فشلت . وعلى المتخصصين والمهتمين بشئون البلاغة الا يغفلوا هذه الأسباب وهم بصدد تجديد البلاغة والنهوض بها . والله الموفق .

========

الفصل الرابع

==================

رأى جديد فى تدريس البلاغة

===============================

لاح لى بعد كثرة ما قرأت واطلعت على بحوث ومناهج وآراء فى تجديد البلاغة أن هناك رأيا لم يطرح بعد ، وأن درس البلاغة اليوم فى حاجة الى علاج سريع يخرج به من نطاق السكاكى والقزوينى ، ويساعد الدارسين على استيعاب البلاغة فنا وعلما ، ويقنعهم بها ، ويشعرهم بجمالها .

فالدارسون اليوم لا يستفيدون من درس البلاغة ، ولا يستقر فى أذهانهم منها الا أخلاط من التعريفات والتخريجات والمحترزات ورديء الأمثلة ثم كثير من التقسيمات والتفريعات والنقاش والجدل . وهكذا يتخرجون وفى ذاكرتهم صورة مشوهة عن البلاغة .

ومادة هذا شأنها ، وتلك حالها ، أنى لها أن تورق وتزدهر ؟ وكيف لها أن تمد ظلالها عبر العصور وهى من الأهمية بمكان عظيم ؟ وأين الخلف الذى يحمل عن السلف رسالة البلاغة الى الأجيال القادمة ؟

واذا كان هذا الخلف لا يستسيغ دروس البلاغة ولا مناهجها ، أفنتركهم فى ضلالهم يعمهون ؟ أم نقدم لهم علاجا سريعا مؤقتا حتى يستقر أولو الأمر على منهج جديد وخطة سديدة للبلاغة العربية ؟

ولقد أمعنت النظر فيما يفعلون بدرس البلاغة . فوجدتهم يعلمون الطالب أول ما يعلمونه — الفصاحة بأنها خلو اللفظ من تنافر الحروف والغرابة ومخالفة القياس ويضربون لكل منها أمثلة ركيكة تصيب النفس بالضيق والكدر .

وقلت لنفسى : أهذا هو أول ما ينطبع فى ذهن الطالب عن الفصاحة والبلاغة ؟ وتساءلت : لماذا يعرف القدماء الفصاحة تعريفا سلبيا فيقولون هى خلو اللفظ من ... ويتركون التعريف الايجابى فلا يذكرون عنه شيئا .. أما كان التعريف الايجابى للفصاحة أولى وأجمل وأوقع فى النفس من التعريف السلبى ؟

ان التعريف السلبى للفصاحة قد أدى بالقدماء الى استعمال أمثلة فى غاية السوء والرداءة يفاجأ بها الطالب فى أول درس البلاغة فتترك فى ذهنه

انطباط سيئا ما كان أغنانا عنه لو أنهم لجأوا الى التعريف الايجابى .

فهذا هو الخطيب القزوينى فى كتابه الايضاح — وهو الذى تدور حوله دراسة البلاغة حتى اليوم — يبدأ بمقدمة فى الكشف عن معنى الفصاحة والبلاغة ثم يقول : (أما فصاحة المفرد فهى خلوصه من تنافر الحروف والغرابة ومخالفة القياس اللغوى . فالمتنافر : منه ما تكون الكلمة بسببه متناهية فى الثقل على اللسان وعسر النطق بها كما روى أن أعرابيا سئل عن ناقته فقال : تركتها ترعى الهمخع ، ومنه ما هو دون ذلك كلفظ مستشزرات فى قول امرىء القيس :

غدائره مستشزرات الى العلا) (١)

ويذهب القزوينى بعد ذلك يتحدث عن الغرابة فيقول : (والغرابة أن تكون الكلمة وحشية لا يظهر معناها فيحتاج فى معرفتها الى من ينقر عنها فى كتب اللغة المبسوطة كما روى عيسى بن عمر النحوى أنه سقط عن حمار فاجتمع عليه الناس فقال : مالكم تكأكأتم على تكأكؤكم على ذى جنة افرنقعوا عنى أى اجتمعتم تنحوا ، أو يخرج لها وجه بعيد كما فى قول العجاج :

وفاحما ومرسنا مسرجا

فانه لم يعرف ما أراد بقوله مسرجا حتى اختلف فى تخريجه ..) (٢)

ثم يعرف القزوينى فصاحة الكلام تعريفا سلبيا أيضا فيقول :

(وأما فصاحة الكلام فهى خلوصه من ضعف التأليف وتنافر الكلمات والتعقيد مع فصاحتها . فالضعف كما فى قولنا : ضرب غلامه زيدا فان رجوع الضمير الى المفعول المتأخر لفظا ممتنع عند الجمهور لئلا يلزم رجوعه الى ما هو متأخر لفظا ورتبة وقيل يجوز لقول الشاعر :

جزى ربه عنى عدى بن حاتم جزاء الكلاب العاويات وقد فعل

---

١ — الايضاح ص ٤ .

٢ — المرجع السابق .

وأجيب عنه بأن الضمير لمصدر جزى أى رب الجزاء كما فى قوله تعالى :
" اعدلوا هو أقرب للتقوى " أى العدل .

والتنافر : منه ما تكون الكلمات بسببه متناهية فى الثقل على اللسان وعسر النطق بها كما فى البيت الذى أنشده الجاحظ :

وقبر حرب بمكان قفر   وليس قرب قبر حرب قبر

ومنه ما دون ذلك كما فى قول أبى تمام :

كريم متى ما أمدحه أمدحه والورى   معى واذا مالمته لمته وحدى

فان فى قوله أمدحه ثقلا ما لما بين الحاء والهاء من تنافر .

والتعقيد : أن لا يكون الكلام ظاهر الدلالة على المراد به . وله سببان :
أحدهما ما يرجع الى التعقيد اللفظى .... كقول الفرزدق :

وما مثله فى الناس الا مملكا   أبو أمه حى أبوه يقاربه

كان حقه أن يقول : وما مثله فى الناس حى يقاربه الا مملك أبو أمه أبوه)(١) وهكذا نجد القزوينى يعد بنا عن الفصاحة الى ضدها ، وبدل أن يحدثنا فى البداية عن جمال الفصاحة وأثرها فى النفس ويضرب لذلك أمثلة مضيئة مشرقة يحدثنا عن أضداد الفصاحة من التنافر والغرابة والتعقيد ويضرب لها — بالطبع — أمثلة معتمة موحشة .

هذا ولم أجد من مؤلفى كتب البلاغة من لجأ الى التعريف الايجابى الا اثنين ، أولهما : الأستاذان على الجارم ومصطفى أمين فى كتابهما (البلاغة الواضحة) فقد عرفا الكلام الفصيح بأنه : ما كان واضح المعنى ،

---

١ — ص ٤ و ٥ المرجع السابق .

سهل اللفظ ، جيد السبك . ولهذا وجب أن تكون كل كلمة فيه جارية على القياس الصرفي ، بينة في معناها ، مفهومة عذبة سلسة .

ولكنهما لم يأتيا بأمثلة وشواهد على ذلك التعريف الايجابي بل عادا بعد ذلك الى التعريف السلبي وأمثلته . (١)

وثانيهما : الدكتور العمارى فى كتابه (البيان) فقد رأى أن الفصاحة تتحقق بثلاثة أمور : الوضوح والصواب والخفة .

أما الوضوح : فهو الصفة الأولى التى يتحقق بها البيان . فاللفظ الغريب الحوشى ، والعبارة المعقدة الكزة ، بعيدان كل البعد عن البلاغة ، ولذلك اشترط علماء البلاغة فى فصاحة الكلمة أن تكون مألوفة كثيرة الدوران على الألسنة . وقوله : أن تكون الكلمة مألوفة كثيرة الدوران على الألسنة تعريف ايجابى يقابل خلو الكلمة من الغرابة . وفى فصاحة الكلام تحدث عن التعقيد اللفظى والمعنوى ولكنه أتى بأمثلة للكلام الجيد الخالص من التعقيد مثل :

قول شوقي : المحسنون هم اللباب وسائر الناس النفاية

وقول المتنبى : من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت ايلام

ومن النثر قول الحجاج بن يوسف : (اللهم أرنى الهدى هدى فأتبعه ، وأرنى الغى غيا فأجتنبه ، ولا تكلنى الى نفسى فأضل ضلالا بعيدا ..)

ومن الاستعارات الجميلة قول الحجاج أيضا : (انى لأرى رؤوسا قد أينعت وحان قطافها وانى لصاحبها) . وقول الشاعر :

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا فلا ديننا يبقى ولا ما نرقع

---

١ — انظر مقدمة البلاغة الواضحة ص ٥ وما بعدها ط ٢١ .

أما الصواب : فبأن تكون الكلمة جارية على نظام تأليف الكلمات العربية ، ويعبر عنها علماء البلاغة بألا تكون مخالفة للقياس .

فالصواب عنده تعريف ايجابى مقابل للتعريف السلبى وهو عدم مخالفة القياس .

وكما يشترط الوضوح والصواب فى الكلمة كذلك يشترط كل منهما فى التراكيب .

وليس الصواب وحده كافيا فى تحقيق البيان الجيد ، بل لا بد من أمور تضاف الى الصواب والى الوضوح . من تلك الأمور :

أولا : خفة الكلمة فى النطق ، وخفة التركيب .

ثانيا : تناسب الألفاظ مع المعانى .

ثالثا : جمال المعانى (١) .

هذا ما وجدته من التعريف الايجابى للفصاحة وللكلام الجيد . والأمر بعد ذلك يحتاج الى نظر جديد ورأى سديد .

وقد عرضت - فيما عرضت - فى هذا البحث لعناصر الأسلوب الثلاثة : الوضوح - القوة - الجمال - ذكرها كتاب البلاغة الواضحة فى ايجاز واقتضاب وذكرها كتاب الأسلوب فى اسهاب واطناب ، وهذه العناصر الثلاثة (الوضوح - القوة - الجمال) أرى أن تكون الأساس الجديد فى درس البلاغة بوجه عام ، على أن نسلك بها الطريقة الكلية ، فنبدأ من الكل وننتهى بالجزء . أى نبدأ من النص كله ، ثم نتدرج الى فقراته ، ثم الى عباراته وجمله ، ثم الى الكلمة . وكل خطوة من هذه الخطوات نطبق فيها العناصر الثلاثة (الوضوح - القوة - الجمال) .

وسواء كان النص شعرا أو نثرا فاننا يجب أن ننظر اليه فى أول الأمر على أنه جسم واحد وكيان متحد .

---

١ - انظر مقدمة كتاب (البيان) للدكتور العمارى .

ثم نطبق عليه العناصر الثلاثة :

الوضوح : والمراد به هنا أن تكون الكلمات والعبارات جارية فى سهولة وجلاء ، حتى تكون ثوبا شفافا للمعنى المقصود ، دون أن تكون مثارا للظنون ، ومجالا للتوجيه والتأويل ، ويستثنى من هذا بالطبع الأدب الرمزى حيث يجنح الى الغموض والاخفاء . (١)

والوضوح وحده هو صفة الكلام العادى ، فاذا ما انضمت اليه القوة صار فصيحا .

القوة : والمراد بها هنا رصانة الحجة ، وقوة الرأى ، والسيطرة ، والاقناع وجذب انتباه القارئ او السامع ، واستقطاب تفكيره بحيث يهتم بالنص ويدع ما عداه مدة قراءته أو سماعه على الأقل .

فاذا لم يستطع النص أن يؤثر هذا التأثير فقد انتفت عنه صفة القوة وان توفرت له صفة الوضوح .

والصواب شرط أساسى فى قوة الكلام ومظهر من مظاهرها وهو أن يكون أسلوب النص موافقا لقواعد النحو والصرف غير مخالف للسماع والقياس .

الجمال : والمراد به هنا سطوع البيان ، واشراق الديباجة ، وسلامة الذوق فى الصياغة والتركيب ، وروعة التأثير فى التصوير والتعبير ، وحسن تقرير المعنى فى الأفهام من أقرب وجوه الكلام .

فاذا توفرت فى النص هذه العناصر الثلاثة حكمنا له بالبلاغة والجودة وينتاقص هذا الحكم بقدر ما ينتفى من العناصر .

وما صنعناه فى النص نصنعه فى الفقرات والعبارات غير أننا هنا نتحدث أيضا عن الصورة والخيال والعاطفة والبديع ، وحتى الصورة البيانية يمكن أن نطبق عليها الوضوح والقوة والجمال ، وعلى قدر ما تحرز الصورة من

---

١ — انظر : الصورة الأدبية — د . مصطفى ناصف — ص ١٦٦ .

هذه العناصر الثلاثة يعلو شأنها ويسمو قدرها .

ونتدرج من ذلك الى الجملة والكلمة فننظر اليهما مجتمعتين لأن الكلمة وحدها لا قيمة لها ، ولا شك أن للكلمة قيمتها واعتبارها فى الوضوح والقوة والجمال ولكن ذلك لا يظهر الا فى نطاق الجملة ، غير أن هذه العناصر الثلاثة يتغير — الى حد ما — معناها ومفهومها عند استعمالها فى هذا الجزء الأخير .

فالوضوح هنا : هو كون الكلمة مألوفة مشهورة فى معناها بحيث لا تسبب غموضا أو ابهاما لمعنى الجملة .

والقوة هنا : أن تكون الكلمة فى جملتها فى مكانها الصحيح ، متمكنة بين أقرانها ، متضامنة معهم فى ابراز المعنى المراد . فاذا ما تسببت الكلمة بوضعها داخل الجملة فى خلل أو لبس انتفت عنها صفة القوة وان توفرت لها صفة الوضوح .

والصواب شرط أساسى أيضا فى قوة الكلمة وهو هنا : أن تكون الكلمة صحيحة لغة واستعمالا .

والجمال : وهو فى الكلمة أن يكون لها ايحاء نفسى . ووقع موسيقى يبدو ذلك منها أولا ، ثم بتناسقها مع زميلاتها فى الجملة ثانيا .

هذا ويمكن أن نعمم هذه العناصر الثلاثة فى دروس البلاغة بوجه عام — كما قلت سابقا — وأن نجعل كل المباحث البلاغية تدرس فى ضوئها . فمقتضى الحال مثلا يمكن أن يدرس فى ضوء : الوضوح والقوة والجمال . وكذلك الصور البيانية من تشبيه واستعارة وكناية . وأيضا فى الحذف والتقديم والقصر ، وفى الايجاز والاطناب والمساواة ، الى غير ذلك من مباحث البلاغة .

وفى الأسلوب : نجد العناصر الثلاثة متميزة مميزة ، فالاسلوب العلمى يتوفر فيه الوضوح والقوة فقط فاذا توفر عنصر الجمال أيضا فهو الأسلوب الأدبى .

والخلاصة : أن البلاغة هي الكلام الجيد الذي توفرت فيه عناصر الوضوح والقوة والجمال . وأن الفصاحة هي الكلام الجيد الذي توفر فيه عنصرا الوضوح والقوة فقط . أما الوضوح وحده فيمكن أن يتوفر في الكلام العادي الذي لا يعتبر فصيحا ولا بليغا .

هذه فكرة مبدئية يمكن أن تتطور بالمدارسة والممارسة ، وهي تتلخص فيما يأتي :

١ — هجر الأساليب المنطقية الفلسفية وترك التعريفات السلبية وأمثلتها ومحترزاتها والاكتفاء بوضع الضروري منها في الهامش ، ووضع تعريفات ايجابية بدلا عنها وتكون أمثلتها نصوصا أدبية رائعة يتوفر فيها الوضوح والقوة والجمال حتى يتطبع الطالب بهذه النصوص وتترك في نفسه أثرا حسنا ويرى البلاغة على حقيقتها .

" فالبلاغة فن قبل أن تكون علما ، ومرجعها الى الذوق قبل أن يكون الى العقل والمنطق ، ومجالها الأدب لا الفلسفة ، وثمرتها تكوين الملكات لا حفظ القواعد ، وغايتها تمييز جيد الكلام من رديئه ، وليست تحقيق أساليب العلماء وتخريجها " . (١)

٢ — جعل العناصر الثلاثة (الوضوح — القوة — الجمال) أساسا لدرس البلاغة بوجه عام .

٣ — استعمال الطريقة الكلية في تطبيق هذه العناصر ، فنبدأ بالنص وننتهي بالجملة والكلمة .

٤ — مزج القواعد البلاغية المبسطة بالتطبيق الشفوي والتحريري ، ويكون التقدير ووضع الدرجات على أساس الأداء الفني لا التحصيل القاعدي .

ولا أستطيع القول بأني وضعت للبلاغة خطة حديثة أو منهجا جديدا ، ان هي الا — كما قلت — فكرة مبدئية يمكن أن تنمو وتتطور اذا لاقت القبول والاستحسان .

وهي في رأيي علاج سريع مؤقت لدرس البلاغة اليوم . والله الموفق .

---

١ — من مقدمة كتاب (توضيح المعاني في البلاغة) للدكتور العماري .

الباب الرابع

((البلاغة بين الدفاع والهجوم))

الفصل الاول : دفاع عن البلاغة .

الفصل الثاني : هجوم على البلاغة .

الباب الرابع
الفصل الأول

دفاع عن البلاغة

لم يكن ما عانته البلاغة العربية من أسباب الجمود والتأخر ينحصر في طغيان المدرسة الكلامية بمنطقها وجدلها ، ولا في تحديد المنهج البلاغي وربطه بالكلمة والجملة . وانما هناك أسباب أخرى جدت في العصر الحديث ، وكان لها كبير الأثر في تعطيل البلاغة والتنكر لها . وهذه الأسباب قد كشف عنها ونبه اليها الأستاذ أحمد حسن الزيات في كتابه " دفاع عن البلاغة " ، وتتلخص في :-

السرعة - الصحافة - التطفل .

ووجدت البلاغة نفسها في موقف لاتحسد عليه ، فالأسباب والمعوقات تعددت وتشابكت وضربت بينها وبين الناس والحياة حجابا مستورا .

وفوق كل ذلك منيت البلاغة بأعداء ألداء ، أجادوا الهجوم عليها ، والانتقاص منها بدعوى الاصلاح والتجديد . وفي الوقت الذي كان يجب فيه أن تلقى البلاغة من يؤازرها ، ويقف الى جانبها ، ويأخذ بيدها ، اذا بها تجد هجوما خبيثا ومجابهة شديدة من بعض الأدباء والمثقفين أجانب ووطنيين .

وقد تصدى بعض الفضلاء من العلماء والأدباء للدفاع عن البلاغة وبيان قيمتها وأهميتها . .

يقول د . احمد بدوي ردا على من عاب على البلاغة وقوفها عند حدود الجملة والجملتين : (ولا يضير علوم البلاغة أن تقف عند هذه الحدود - أى حدود الجملة والجملتين - فذلك ميدانها ، وهو ميدان شاسع الأرجاء لانها تقف في النص الأدبي عند كلماته تتبين سر اختيارها ، وعند جمله تبين سر تركيبها ، وليس ذلك بالعمل الهين) (١) .

والدكتور احمد بدوي يرى أن البلاغة قد أدت رسالتها خصوصا فيما مضى ، فاذا كانت رساله البلاغة تبصير الكتاب الشعراء وهدايتهم الى الرفيع من التعبير ، فاني أعترف -أى د . بدوي- أن الاهتداء الى فن من فنون البلاغة وهو علم البديع كان له أثر كبير جدا في الشعر والنثر .

---

(١) من النقد والأدب - د . بدوي - ص ١١٢

فان طائفة كثيرة قد استخدموا ألوان البديع فى شعرهم بحذق ومهارة دون تكلف أو تعنت فجاء شعرهم غاية فى الجمال والابداع . أما هؤلاء الذين أكثروا من البديع فى شعرهم بالتكلف والارهاق ، واستغلق المعنى عندهم فى كثير من الأحيان كأبى تمام ، وعلماء البديع قد بحوا أصواتهم معلنين أن جمال البديع لا يكون طبيعيا الا اذا كان قليلا ولم يكن متكلفا .

أما اذا كانت رسالة البلاغة البحث عن أسرار الجمال فى المفرد والجملة والجملتين فيمكن القول بأنها وصلت فى ذلك الى مدى بعيد . وأن كان الأمر لا يزال محتاجا الى جهود وجهود للكشف عن باقى أسرار الجمال فى الأمور التى يحس القارىء بجمالها ثم لا يجد البلاغيين قد اهتدوا اليها . وعلوم البلاغة ترحب بهذه المكشوفات وتدعو الى البحث وراء الأسرار المجهولة .

وان كان معنى رسالة البلاغة أنها كانت أداة فى أيدى النقاد يزنون بها النصوص الأدبية ، فقد أدت البلاغة رسالتها فى الأعصر الأولى الى مدى بعيد ، وما تركه الأقدمون من كتب شاهد على ذلك ، فانهم قد اتخذوا ما وصلوا اليه من قواعد وسيلة لقياس النصوص الأدبية وبيان جمالها ورداءتها ، وكان للمقاييس البلاغية شأنها فى تلك الأزمان .

أما فى عصرنا الحاضر فلا ينكر الدكتور بدوى أن المقاييس البلاغية قليلة الاستعمال فى أيدى النقاد . وقد يكون ذلك لأن كثيرا من الأدب فى عصرنا الحاضر يتجه الى الافهام والاعتماد على التأثير من ناحية معناه أكثر من اعتماده على التأثير من ناحية لفظه وأسلوبه وعبارته .

ويرى الدكتور بدوى أن الفنون التى شاعت فى وقتنا الحاضر كالقصة والرواية لا تتنافى مطلقا مع الاسلوب البلاغى ، ولكنها السرعة التى تحول دون التريث والانتاج الفنى ذى الأسلوب البليغ.(1)

ولا ننسى أن السرعة التى تحدث عنها د. بدوى هى احدى البلايا الثلاث التى ذكرها الاستاذ الزيات فى كتابه " دفاع عن البلاغة " . بل أولها وهى أسباب التنكر للبلاغة فى العصر الحديث .

---

(1) المرجع السابق ص ١١٤

ومن الذين دافعوا عن البلاغة وتحمس الأستاذ العقاد ، فقد رد على من عابوا التقسيم الثلاثى لعلوم البلاغة ورأوا أنه وقف بها عن التطور والتوسع فقال : ان علوم البديع والمعانى والبيان خلاصة الملاحظات التى أدركها النقاد بالذوق والفهم ، واهتدوا بها الى مواضع البلاغة فيما وعوه من كلام الشعراء والكتاب . وان الحذلقة كانت أكثر من الوعى الصادق والفهم الحسن عند من حاولوا فى العصر الحديث أن يبطلوا علوم البديع .

ويرى العقاد أن تدرس نصوص الأدب فى مدارسنا على قواعد البلاغة العربية ، ولكن باعتبار البلاغة ذوقا ومفهوما ، وليست قواعد مقررة ، وقوالب محفوظة ، كتلك التى حفظت بمصطلحاتها ، وجمعت فى علوم عرفت بأسمائها ، وهى البديع والمعانى والبيان ... ثم يقول :

لابد أن نفهم أن علوم البديع والمعانى والبيان لم توضع لتلغى ، أو لينصرف عنها النظر فى الدراسة أو المطالعة ، لأنها خلاصة الملاحظات التى أدركها النقاد بالذوق والفهم واهتدوا بها الى مواضع البلاغة فيما وعوه من كلام الشعراء والكتاب ، ولقد وضعها الأقدمون وأدركوا من شأنها كل مايدركه المحدثون الآن من فوائدها ومآخذها بل أدركوا منها - على التحقيق - فوق مايدركه المتحذلقون الذين يجهلون البلاغة قواعد ومصطلحات ، كما يجهلونها معانى ومفهومات ... فالعلوم التى عرفت باسم علوم البديع والمعانى والبيان صحيحة لاعيب فيها ، وكل مايؤخذ عليها فانما يؤخذ على اساءة استعمالها كما ينبغى لها ، وكما أرادها واضعوها . (١)

ونحن مع اعتزازنا برأى العقاد ودفاعه المجيد ، نرى أن علوم البلاغة الثلاثة يجب أن تتطور وتتوسع بحيث تشمل الأسلوب بجميع أنواعه وألوانه ، كما يجب أن تصاغ بطريقة أدبية بعيدة عن أسلوب المتكلمين وطريقتهم وهذا هو التجديد الذى نطمح اليه لبلاغتنا العزيزة .

---

(١) من مقال العقاد فى جريدة الأخبار بتاريخ ١٤ رمضان ١٣٨٣هـ .

واذا كان هناك شبه اجماع من المحدثين بأن السكاكي هو السبب في تقعيد البلاغة وتعقيدها فان هناك بعض الأصوات تخالف ذلك ، وتدافع عن السكاكي وبلاغته .

من ذلك مايراه الدكتور عباس حسن من أن السكاكي خدم البلاغة خدمة جليلة بما وضع لها من قواعد وأصول جمعت شتاتها ولمت شملها وجعلتها علما قائما بذاته ومستقلا بنفسه ، وأخذ يشيد بفضل السكاكي ومن لف لفه برغم الناقمين عليه ، المتسرعين في حكمهم على آثاره . وذهب يثبت ذلك بآراء وحجج عديدة (١) .

والدفاع عن السكاكي - في رأينا - دفاع عن البلاغة وعلومها الثلاثة لما بينهما من الارتباط الشديد . ولذلك فقد لفت نظرنا كذلك رأى الأستاذ أحمد موسى في كتابه " الصبغ البديعى " ، فهو على الرغم من حملته على السكاكي واتهامه بأنه (أول جان على هذه العلوم بسلاح المنطق والفلسفة على هذا الوجه المسرف الذى رأينا بذوره الأولى عند قدامة بن جعفر في نقد الشعر ، فأمعن فيه السكاكي ، واستحلى مذاقه ، حتى ودعت البلاغة عصرها الذهبي الحافل بالذوق الأدبي بانطواء صفحة أستاذها الأول والأخير عبد القاهر الجرجاني) (٢) . أقول : على الرغم من هذه الحملة وهذا الاتهام نرى الأستاذ أحمد موسى يعود وينصف السكاكي ويقول : (... وذلك لا ينسينا ما أفادته البلاغة على يد السكاكي من حسن التنسيق والتبويب ، ودقة التقسيم والتفصيل ، واحكام التمييز بين مباحث علم المعاني وعلم البيان . فان هذا مما يحمده التاريخ للسكاكي . ولو سلم هذا القسم الثالث من المفتاح - من مزجه بالعلوم العقلية لكان من خير المؤلفات التى ألفت في البلاغة في جميع عصورها) (٣) .

---

(١) انظر كتاب (المتنبى وشوقى) د . عباس حسن ص ٦٤- ٦٩ .

(٢) الصبغ البديعى ص ٢٤٧ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٤٨ و ٢٤٩ .

أما الدكتورة سهير القلماوى فانها تعفى السكاكى من مسئولية جمود البحث البلاغى وتعقيده وترى : (أن كتاب المفتاح كتاب جاف فى ترتيبه ومعالجته للموضوعات ، وأن السكاكى ليس هو المسئول عن جفاف هذه الدراسة التى نتجت عن جفاف الكتاب نفسه ، ولكن الواقع أن البلاغة والنقد الأدبى لابد أن يمرا فى هذه الأطوار دائما ببداية فطرية مبعثرة ، ثم دراسة حية قوية مثمرة مؤثرة ، وأخيرا خلاصة وتقنين وتعقيد جاف يودى بحياة النظرية أو الفكرة أو الناحية المدروسة ، ان هذه سنة الحياة فى الأبحاث الأدبية والفنية) (١) .

وواضح من هذه الآراء السابقة أنها دفاع عن بلاغة السكاكى وعلومها الثلاثة ، واقتصارها على الكلمة والجملة والجملتين .

لكن الأستاذ الزيات حينما أصدر كتابه " دفاع عن البلاغة " لم يكن يقصد ذلك ، وانما كان يعنى بلاغة أخرى هى التى يدافع عنها . فما هى ؟
ثم ماذا فى كتابه من دفاع وتجديد ؟

..

الواقع أن حديث الأستاذ الزيات عن البلاغة لم يكن مجرد دفاع ، وانما كان ارشادا وتوجيها الى اجادة التعبير ، وترقية الأساليب ، وبيان آلة ذلك ووسيلته .

وقضية (ترقية الأساليب) شديدة الارتباط بعلوم البلاغة ، اذ هى أثر من آثار دراستها ، وغاية من غاياتها ، ولذلك لا يستغنى الباحث فى (تجديد البلاغة) عن الالمام بما دار حول هذه القضية .

ولعل هذا هو السبب فيما أوليته من عناية أكبر بدفاع الزيات عن البلاغة .

---

(١) انظر تقديم د . سهير القلماوى لرسالة الماجستير (البلاغة عند السكاكى) للدكتور احمد مطلوب .

الزيات وكتابه :

" دفاع عن البلاغة "

لعل أنسب الأوقات لصدور كتاب (دفاع عن البلاغة) هو وقتنا الحاضر الذى تتآمر فيه على البلاغة ظاهرات ثلاث : السرعة والصحافة والتطفل ، فاختلت المقاييس، وتضاربت القيم ، وتسابق الكم وغمط الكيف . وهذه الآفات علتها القراءة الخفيفة ، والحاجة الملحة ، ونقص القدرة ، وعجز الوسيلة ، فلم يعد للكثرة طاقة أو صبر على التعمق أو التجويد أو التذوق المميز أو التقييم الصحيح .

بهذه الكلمات بدأت الدكتورة نعمات احمد فؤاد تقديمها لكتاب دفاع عن البلاغة للأستاذ احمد حسن الزيات . وهى ترى أن الأدب أصبح يكابد من الدعاوى والأدعياء ، وأن الأدب دون سائر الفنون يستطيع أن يدعيه من يشاء فى أى وقت يشاء ، فى حين يعجز غير متخصص عن الاقتراب من حرم الطب أو الهندسة أو حتى الفنون الأخرى كالرسم والموسيقى .

وقد فصل كتاب (دفاع عن البلاغة) القول عن الفروق الدقيقة والواضحة بين الموهبة والاكتساب والأصالة والهواية وبين القريحة والفن ، وأخيرا بين علم البيان والبلاغة ، فهو يقصد القواعد وهى تخدمها ، وهو (يعين الوسائل وهى تملكها ، وهو يرشد الى الينبوع وهى تغترف منه) .

وليست البلاغة التى قام الكتاب بالدفاع عنها ، وتصدى صاحبها لحديثها بلاغة شكل أو مظهر أسلوب ، ولكنها بلاغة شخصية أو بلاغة فن ، فهى (لا تفصل بين العقل والذوق ولا بين الفكرة والكلمة ولا بين الموضوع والشكل) .

وقد ناقش الكتاب رسالة البلاغة ووسائطها : ناقش الاقناع والاقناع وتحدث عن آلة البلاغة وهى : (الذهن الثاقب ، والخيال الخصيب ، والعاطفة القوية ، والأذن الموسيقية) وعلى ضوئها أجرى استفتاء لراغبى البلاغة .

ثم تحدث عن ثلاث :

اللغة : ومهمة طالب البلاغة درسها لتقويم السليقة واكتساب الذوق .

والطبيعة : لاستمداد الموضوع واستقاء المادة واثراء الخيال وتنويع الصور .

والنفس : ليشكل شخوص القصة ويرسم شخصيات المسرحية ويحلل أخلاق المجتمع ونزعات الناس وخلجات الشعور .

كما تحدث عن الذوق الذى يصدر فى حكمه عن العقل والعاطفة معا .

وبعد هذا الحديث العام عن البلاغة خلص الأستاذ الزيات الى الحديث عن الأسلوب (والأسلوب من حيث هو فكرة وصورة أجل بكثير من الجمل البيانية أو المحسنات البديعية) . وأطال الزيات الوقوف عند الأسلوب من حيث اللفظ والمعنى ووجهات النظر المختلفة فى هذا الشأن فى شرق وغرب . ووقفته هنا مادة للتأمل والدراسة والمقارنة والتفكير ، ومجال فى الوقت نفسه للدفاع عن البلاغة دفاعا علميا أولا ثم عاطفيا بما فى طبعه من أناقة وفى ذوقه من ترف وفى حسه من موسيقية .. وهذا الدفاع بالطبع ضد أولئك الذين يحاصرون (معبد الذوق) .

وقد خلص من بحثه ودفاعه معا الى صفات ثلاث جامعة لابد من توافرها لتحقيق البلاغة وهى : الأصالة ، والوجازة ، والتلاؤم . وشرح كلامنها بتفصيل .

وفى القسم الأخير من الكتاب وقف الكاتب بالتحليل عند مذاهب الكتابة فى تاريخ العربية حتى العصر الحديث ، كما تحدث عن نشأة المذاهب الأدبية فى أوروبا من اتباعية وابتداعية وواقعية وما نبع منها . ثم انتقل الى المذاهب الأدبية العربية وميز منها دعوتين : الدعوة الى العامية ، والدعوة الى الرمزية .
وبعد : فهذه ليست مقدمة بالمعنى التقليدى للمقدمات ، ان هى الا مفتاح يفضى الى كتاب (دفاع عن البلاغة) (١) .

ويبدو أن الدكتورة نعمات أرادت بهذه المقدمة أن تعوض نقصا فى طبع الكتاب فقد صدر بلا فهرس يعرف بموضوعاته وتسلسلها ، فكانت هذه المقدمة ضرورية لتعريف القارئ بمضمون الكتاب وموضوعاته وتهيئته لقراءة (دفاع عن البلاغة) .

---

(١) من مقدمة : دفاع عن البلاغة للدكتورة نعمات فؤاد الطبعة الثانية بتصرف

وقد نال الزيات جائزة الدولة التقديرية فى الآداب عام ١٩٥٣ عن كتاب " وحى الرسالة " وتقديرا لعلمه وأدبه . وقد جاء فى تقدير اللجنة للكتاب ما يلى :

(أنه مقالات متفرقة فى مختلف شئون الثقافة والأدب يجمعها أنها تحمل طابع مذهب فني واحد مثله المؤلف عملا فى ضروب انتاجه المختلفة ، ودافع عنه نظرا فى بعض كتاباته وعلى الأخص كتابه (دفاع عن البلاغة) . ويقوم هذا المذهب على ركنين هما :

أولا : العودة بالبلاغة العربية الى طابعها العربى الأول الذى يتمثل فى نهج البلاغة وكتابات ابن المقفع والجاحظ وأضرابهم الذى يتجلى فى الايجاز ، ورصانة الفواصل ، وقصرها ، وتصفية اللفظ .

ثانيا : تطعيم الفكر العربى الحديث بآثار الفكر الأوربى وروائع الآداب الغربية عن طريق الترجمة . وبذلك يساير الادب العربى ركب الحضارة المعاصرة ، وقد أسهم المؤلف فى هذا بترجمته لبعض الآثار الغربية مثل ترجمته آلام فرتر ، فاذا ضمننا الى هذا جهد المؤلف فى الدراسة الأدبية وفى تاريخ الأدب العربى تجمع لنا من كل أولئك انتاج جدير بالتقدير والاجازة) .[1]

ومن جهود الزيات التى لا تنكر ، وفضله الذى لا يجحد ، والذى لا يجوز لباحث أن يغض الطرف عنه وهو يكتب عن الزيات ، وعن رأيه فى البلاغة ودفاعه عنها ، انشاء " مجلة الرسالة " التى ما لبث أن اشتهرت وراجت وأصبحت منبرا حرا يعبر عن روح النهضة العصرية ، ويسجل مظاهر التجديد فى الأدب العربى ويحيى أساليب البلاغة العربية التى قرعت الاسماع وشغفت العقول والقلوب .

وقد صادفت (الرسالة) خلاء فشغلته ، وخللا فسدته ، وعبثا فحاولت أن تصد عنه بايقاظ النخوة فى الرؤوس ، والكرامة فى النفوس ، والرجولة فى النشء ثم سفرت بين الأدباء فى كل قطر من أقطار العروبة ، ثم قادت كتائب الفكر والبيان فى ميادين الاصلاح الأدبى والاجتماعى والسياسى على نهج من الدين والخلق[2]

---

(١) من محضر الجلسة السادسة للجنة جوائز الدولة للآداب بتاريخ ١٨/٦/١٩٥٣م

(٢) وحى الرسالة جـ ٤ ص ٧٢ .

وعلى صفحات الرسالة الغراء قامت معركة التجديد فى البلاغة التى عرضنا لها منذ قريب فى الباب الثانى من هذا البحث ، كما قامت على صفحاتها ايضا أهم المعارك الأدبية التى تمثل حيوية الأدب والفكر ويقظة الأدباء والمفكرين وتدفع الى التجديد والابتكار (١) .

ولقد تركت " الرسالة " أثرا بارزا على قرائها وعلى الأدب بصفة عامة . أما أثرها على قرائها فبيد و جليا فى أمور أهمها :

١ - أشبعت رغبات القراء ، وجذبتهم اليها ، وجعلتهم يتعلقون بها ، ويترقبون ظهورها ؛ ولقد أعجبهم فيها وجاهة الرأى وثبات المبدأ فمالوا اليها عن حب ورضى .

٢ - جعلت من قرائها تلاميذ شكلتهم نفسيا وموضوعيا وأعدتهم لخوض المعارك ... الأدبية والسياسية .

٣ - خلقت جيلا جديدا من مثقفى الأرياف ، ومعلمى الطفل ، وطبعتهم على الذوق العربى الأصيل وأعدتهم لنقل رسالتهم عن طريق التعبير للتلميذ المبتدى مما أعان المدرسة على أداء رسالتها ، وأعان المدرس على اكمال ما لديه من نقص وقصور .

٤ - أقامت جوا من الارتباط الروحى والفكرى بين الناشئة والشباب والسابقين من الكبار ، وضمنت للأدب الفصيح ثباته فى وجه المارقين .

٥ - لم تقتصر فى معاملاتها على اقليم مصر فحسب بل تخطت حدود مصر الى البلاد العربية ومنها انطلقت الى أقاصى الأرض وغزت عقولا وأمما وكتابا ومتعلمين وطبعتهم بطابعها .

أما آثارها على الأدب انما يرجع الفضل فيه الى ثبات المبدأ ، والتعفف عن الدنايا ، والصلابة فى الحق ، والتزام الغاية بلا التواء أو انعطاف . وأهم الآثار التى استفاد منها الأدب هى :

أولا : تعد مرجعا هاما لتاريخ الأدب ودراسته .

---

(١) الكاتب احمد حسن الزيات - مخطوطة بمكتبة دار العلوم رقم ٣٧٨ للأستاذ على الفقى ص ٣٠٦ .

ثانيا : عملت على نشر الأدب ونقده وتقييمه .

ثالثا : كانت الرسالة مدرسة يتخرج فيها الأدباء .

رابعا : أطلت بنا على الأدب العالمى .

خامسا : الأثر الفكرى الانسانى . ويظهر هذا الاتجاه فى توجيه الفكر وتنمية المواهب ونشر المادة التى تدفع العطى الأدبى الى آفاق أرحب والى نظرة أعمق وأشمل .

والاثر الفكرى لمجلة الرسالة يبدو فى نواح عدة أهمها :

الاتجاه الاسلامى - المجال العربى - المجال الاجتماعى - المجال الفنى (١).

" وجملة القول أن الرسالة ليست مدرسة واحدة ، ولكنها جماع المدارس التى نشأت ففيها أدب الظلال والأدب الرمزى والانشائى والوصفى . ولعل هذا قد جاء نتيجة لتجارب كثيرة فقد سجل الزيات هذا المعنى فى العدد الثالث من الرسالة حيث قال : انه تلقى من القراء رسائل متباينة يطلب بعضها المزيد من التعمق والافاضة ومن يرغب الى شئ من الفكاهة والبساطة وقال : " الرسالة ترجو أن توفق بين الرأيين بأن تتخذ طريقها بين بين ثم تنشر فى الحين بعد الحين أعدادا خاصة بما تجمع لديها من البحوث المستفيضة والدراسات العميقة والقصص الضافية " وقد عالجت الرسالة كثيرا من القضايا الأدبية ، ومن ذلك قضية المنهج الأدبى والنقد ، وغيرها من القضايا الأدبية العامة " (٢) .

وظلت الرسالة تصدر من يناير عام ١٩٣٣ الى فبراير عام ١٩٥٣ حيث توقفت لظروف خارجة عن ارادتها بعد أن أدت رسالتها وقامت بدور كبير جليل فى حياتنا الأدبية والفكرية .

---

(١) المصدر السابق - ص ٣٢٤ وما بعدها .

(٢) المحافظة والتجديد فى النثر العربى المعاصر - أنور الجندى ص ٦٦١ .

أسباب التنكر للبلاغة :

نعود الى كتاب (دفاع عن البلاغة) حيث بدأ الكاتب بمقدمة عن اسباب التنكر للبلاغة فى العصر الحديث ، وأجمل هذه الاسباب فى ثلاثة أمور:

السرعة - الصحافة - التطفل .

ثم تحدث عن كل منها بايجاز :

السرعة :

وهى جناية اختراع الآلة على الناس ، وكانت جريرتها على الفكر بوجه أعم، أن استحال تقدير القيم التى يحتاج وزنها الى الروية والتأمل ، أو الى الأناة والصبر ، فظهر الخبيث فى صورة الطيب ، ودخل الردئ فى حكم الجيد ، وقيس كل عمل بمقياس السرعة لا بمقياس الجودة .

ويرى الدكتور نايل أن " من أبرز سمات العصر الحاضر الحركة والسرعة والنشاط فهو سريع فى كل شئ . سريع فى تفكيره واتجاهاته ، وفى صناعته وانتاجه ، وفى تقلباته ومفاجآته ، حتى اصطلح الناس على تسميته -عصر السرعة- والسرعة قرينة البساطة أبدا ، لا تحب التركيب ولا التعقيد ، بل تبغضهما أشد البغض . ولقد كان طبيعيا أن تتأثر الثقافة الأدبية بهذه السرعة وأن تجنح الى البساطة التى نلمحها فى القراءة والاطلاع ثم فى التأليف والكتابة (١) ".

ورأى الاستاذ الزيات والدكتور نايل ورأينا ورأى الكثيرين غيرنا فى الشرق عن السرعة وجنايتها على الادب ، هو رأى الغربيين أيضا . يقول السير هيو الول : " لا يمكن للكاتب الخالق أن يبدع انتاجه كما يبدع أحد العمال فى مصانع السيارات صنع قطعة الحديد التى يمارس صنعها مئات المرات كل يوم ويقذف بها الى الالة . ان العمل الأدبى غير ذلك بالمرة لا تغنى عادة الكتابة فيه شيئا ولا يمكن أن تكون كثرة ممارستهما يمهد للكاتب أن يكتسب السرعة فى انتاجه مع الاحتفاظ بالجودة . ان المسمار الصغير لا يمكن للمتأنى فى صنعه أن يجعل منه شيئا أكثر من مسمار ، أما العمل الأدبى فان المتأنى فى

---

(١) البلاغة بين عهدين ص ٥ .

انتاجه يستطيع أن يتدرج به من الموضوع الانشائي التافه الى القطعة الأدبية الرائعة الى العمل الأدبي الخالد .. ان السرعة هي الداء الذى يقتل فى الأدب الحديث كل عناصر الخلود (١)" .

أما جريرة السرعة على البلاغة بوجه أخص ، فالأستاذ الزيات يرى : أنها أصابت الأذهان ، فلم تعد تملك الاحاطة بالأطراف ولا الغوص الى الأعماق ، فجاء لذلك أكثر انتاجها من الغثاء الذى لا رجع منه ، أو من الزبد الذى لا بقاء له .

وأصابت الأفهام ، فلم تعد تصبر على معاناة الجيد من بليغ الكلام ، فكان من ذلك انكبابها على الأدب الخفيف الذى لا غناء فيه ولا وزن له .

وأصابت الأذواق ، فلم تعد تميز الفروق الدقيقة بين الطعوم المختلفة ، فاختلط الحلو بالمر ، والتبس الفج بالناضج .

وقد تقع السرعة خطأ فى موازين بعض النقاد فيحسبونها شرطا فى حسن الانتاج . وربما عابوا الكاتب المروى بالابطاء وغمزوه بالتجويد وسفهوا قول الحكيم القائل : " لا تطلب سرعة العمل واطلب تجويده ، فان الناس لا يسألون فى كم فرغ ، وانما يسألون عن جودته واتقانه "(٢) .

هذا هو رأى الأستاذ الزيات عن السرعة وجنايتها على الأدب والبلاغة وهو كما ذكرنا من قبل رأى الكثيرين من الأدباء والنقاد فى الشرق والغرب .

لكن للدكتورة بنت الشاطىء رأى آخر فهى تقول : " .. ومعاذ الله أن يقيس أحد بهذا ، وأن تكون السرعة جانية على الأدب ، انما تقابل الجودة بالتسرع لا بالسرعة المستطيعة المتيسرة الأداة ، والكاتب ينسى أن الالهام سر الفن ، ويرى العكوف البطىء على صنعة الكلام ونحت الألفاظ سر جماله .أما البلاغة الفنية التى نعرفها فتعجب بالبديهة المسعفة والخاطر الحاضر ، ومازالت اللمحة والخاطرة

---

(١) مجلة الثقافة - العدد ٤٩ ص ٤٢ .

(٢) انظر - دفاع عن البلاغة ص ١٩ (ر.٢) .

سر بناء العربية لغة وفنا . فمتى كان بليد الذهن مثال الفنان ، ومتى كان البطيء الموسوس مثال المفكر ؟

ويقول الاستاذ : ان السرعة أصابت الاذواق فلم تعد تميز الفروق الدقيقة بين الطعوم المختلفة فاختلط الحلو بالمر والتبس الفج بالناضج . فهل عند الاستاذ أن التفرقة بين الحلو والمر والفج والناضج تمييز لفروق دقيقة ... وأين اذن الفروق الكبيرة الواضحة ؟

أما انى لأعرف أن ما بين الحلو والمر ليس فرقا دقيقا يميزه الذوق السليم ، انما تكون الاذواق سليمة اذا ميزت الفرق الدقيق بين حلو وحلو وأدركت درجة الحلاوة فى كل وأحسست نوعها على ضآلة الفرق ودقته . فأما أن يتواضع الذوق فيصير مقياس صحته أن يميز بين حلو ومر وبين ناضج وفج ويصبح هذا التمييز ادراكا لفروق دقيقة فتلك مرتبة يدركها الأطفال الرضع قبل أن يراضوا على دقة الحس ويسمو اليها الجفاة الغلاظ قبل أن يهذب لهم ذوق "(١) .

وكلام الدكتورة بنت الشاطئ هذا ، ليس كله صوابا ، فاذا سلمنا لها بأن التمييز بين حلو ومر وبين ناضج وفج ليس من قبيل ادراك الفروق الدقيقة فانا لا نسلم لها بأن السرعة بريئة من الجناية على الادب عامة والبلاغة خاصة . وقد أعجبنى رد الدكتور رجب البيومى عليها حين قال : " ولتأذن لنا الدكتورة الفاضلة ان ندلها على المغالطات السافرة فى هذا القول ، فقد جعلت التسرع خاصا بالعجلة ، والسرعة خاصة بالاستطاعة المتيسرة الاداء . وذلك فهم ذاتى لا يعلق بغير ذهنها الخاص . فمن قال ان الكاتب الذى يملاء الصحائف فى دقائق دون جدة طريفة يكون متسرعا لا سريعا ؟ ومن قال ان الزيات ينسى أن الالهام سر الفن وقد تحدث عنه أكثر من مرة فى دفاعه ؟ وهل تجهل السيدة الفاضلة أن الالهام شيء والتعبير عنه شيء آخر ؟ فقد يكون الالهام سريعا طائرا ولكن انتقاله الى دنيا الحروف والكلمات لا تفى السرعة بكماله على وجه دائم . وقد كان الحارث بن حلزة وعمرو بن كلثوم فى الأدب الجاهلى مثالين للسرعة المرتجلة ، وكان

---

(١) مجلة الكاتب - يناير ١٩٤٦ حـ ٣ ص ٣٧٠ .

النابغة وزهير مثالين للتنقيح والتؤدة ، فأى الفريقين أشعر وأخلد ؟ وهل يكون زهير بن أبى سلمى بليد الذهن وبطيئا موسوسا لانه تروى فى تسجيل ما ألهمه من معان كما وصفت الناقدة بذلك كل متئد دقيق ؟ ثم لتسأل الكاتبة نفسها ألا تجد أنها اذا كتبت مقالا أدبيا وعاودت النظر فيه على وجه متئد فانه يكون على درجة من القوة أفضل منه لو فقد المراجعة المنقحة ؟ وهل يعد الزيات داعيا للعكوف البطئ على صنعة الكلام ونحت الالفاظ اذا ما دعا الى الجودة والاتقان قوما يتكلمون بالعامية ويكتبون بالفصحى فيتعرضون للتهافت متى جانبوا الدقة والاحتياط ؟ " (١) .

الصحافة :

هى السبب الثانى بعد السرعة - وهى من فنون الادب المستحدثة ، ورأى الزيات فى جريرتها على البلاغة .. (أنها أوشكت ان تستبد بالمجال الحيوى للكتابة . وليس فى هذا الأمر على ظاهره نكير ولا مؤاخذة ، ولكن على الصحافة رواية الأخبار العالمية وتسجيل الأحداث اليومية ونشر الثقافة العامة ، وهى فى كل أولئك تخاطب الجمهور فلا مندوحة لها عن التبذل والتبسط والاسفاف والمط مراعاة للموضوعات التى تكتب فيها ، وللطبقات التى تكتب لها ، وللسرعة التى تعمل بها . ولو كان للصحافة كتابها وللتأليف كتابه لما لقيت البلاغة منها أذى ولا مضرة ، ولكن حالها مع الكتاب كحال السينما مع المسرح ، فهى أوفر فى المال وأقوى فى السلطان وأوسع فى الانتشار وأشمل فى المعرفة ، وأغنى فى الوسائل ، ولذلك استخلصت لنفسها أمراء القلم ، فهم يعملون فيها على ما تقتضيه أحوالها من مجاوبة السرعة وتوخى السهولة وايثار العامية . وللصحافة سبعة أبواب لا يدخلها بلغاء الكتاب الا من باب واحد ، أما سائر الأبواب فهى لأنماط من ذوى الثقافات المختلفة ... قعد بأكثرهم وهن السليقة وضعف الاطلاع

---

(١) الزيات بين البلاغة والنقد ص ٢٩٦ .

عن مجاراة الموهبين ، فسول لهم الغرور أن يخفضوا مستوى البلاغة ، ويبتذلوا حرم الفن ، ويوهموا الناس أن أدب الدهماء هو أدب المستقبل ، لأن العصر عصر السرعة ، ولأن الشأن شأن العامّة ، ولأن الديموقراطية تقضي باختيار لغة الشعب وايثار أدبه . . . .

من أجل ذلك طغت العامية ، وفشت الركاكة ، وفسد الذوق ، وأصبحت العناية بجمال الأسلوب تكلفا في الأداء ، والمحافظة على سر البلاغة رجعة الى الوراء ، ولم يكن للمخلصين للغة الوحي وأدب الرسالة الا أن يكتبوا لأنفسهم ولمن يعصمهم الله من أعقاب هذا الجيل) (١) .

ومرة أخرى تتصدى الدكتورة بنت الشاطئ لنقد الزيات في حديثه عن الصحافة كما نقدته من قبل في حديثه عن السرعة . وهي ترى أن الاستاذ الزيات أطلق القول في الصحافة . وذلك لأن الصحافة أدبية وغير أدبية ، وعيب ما في صحافتنا صبغتها التجارية التي لم يمسها الاستاذ ولو من بعيد . ثم علقت على قول الزيات : " ولكن عمل الصحافة رواية الاخبار العالمية وتسجيل الاحداث اليومية ونشر الثقافة العامة ، وهي في كل أولئك تخاطب الجمهور فلا مندوحة لها عن التبذل والتبسيط والاسفاف والمط مراعاة للموضوعات التي تكتب فيها وللطبقات التي تكتب لها وللسرعة التي تعمل بها " فقالت : " والكلام هذا لا يستقيم لأن السرعة لا تحتمل التبسط والمط ، ولأن رواية الأخبار العالمية وتسجيل الاحداث اليومية ونشر الثقافة العامة لا يقتضي التبذل والاسفاف . والاستاذ نفسه ينقض هذا مسرعا حين يقول بعد أسطر قلائل في الفقرة ذاتها من الصفحة نفسها " ولو كان للصحافة كتابها وللتأليف كتابه لما لقيت البلاغة منها أذاة ولا مضرة " وهذا ابراء للعمل الصحفي من هذه التهمة والقاء بالتبعية على الفقر في الكتاب ، فكأن الاستاذ يقرر في الوقت عينه أن العيب في فقر الكتاب الذين لو وجدوا لبطلت الشكوى " (٢) .

---

(١) دفاع عن البلاغة ص ٢٠-٢٣ بتصرف .
(٢) مجلة الكتاب ص ٣٧٢ .

وأحب هنا أن أضع بعض النقاط فوق الحروف ، وأوضح للدكتورة بنت الشاطئ أن الاستاذ الزيات لم يقصد اطلاق القول فى الصحافة ، فهو - بالضرورة - يعرف أن الصحافة أدبية وغير أدبية ، كيف لا وهو منشئ ومحرر مجلة الرسالة التى كانت أشهر من نار على علم فى مجال الصحافة الادبية . فهو اذن يقصد الصحافة / (غير الادبية) تلك التى شاعت وانتشرت فى الجرائد اليومية . . صحافة السندوتش كما سماها الزيات فى غير هذا المكان . . وهى صحافة لا تسمن ولا تغنى من جوع . ولو أنها وقفت عند هذا الأثر لهان الامر ، ولكنها طغت على مر الايام وغطت على الصحافة الادبية ، ومالت بالأدب عامة الى العامية والابتذال فى الافكار والاساليب . تماما كما طغت (السينما) بتفاهتها وابتذالها على المسرح الادبى وروائعه ، وحين أراد المسرح أن ينهض بعد عثاره لم يجد مناصا من أن يجارى السينما فى تفاهتها وابتذالها .

ومن هنا أستطيع القول بأن الدكتورة أخطأت أيضا فى فهم قول الزيات : " ولو كان للصحافة كتابها وللتأليف كتابه لما لقيت البلاغة منها أذاة ولا مضرة " فقالت : وهذا ابراء للعمل الصحفى من هذه التهمة ، والقاء بالتبعة على الفقر فى الكتاب .

وأقول : ان المسألة ليست فقرا فى الكتاب فهم كثيرون ، وأكثرهم مجيدون ولكن الزيات يقصد : أن الصحافة (غير الأدبية) اجتذبت هؤلاء الكتاب - والدكتورة منهم - وأغرتهم بوسائلها ، وطبعتهم بطابعها ، فمالوا بأقلامهم عن التأنق فى اللفظ والعناية بالمعنى ، وشغلوا عن الاجادة والاتقان ، واتبعوا أهواء الصحافة وساروا فى ركابها . اذن فالاستاذ الزيات انما كان يأسى ويأسف لخلو مجال الادب من أربابه بسبب انجذابهم الى مجال الصحافة . وهذا هو معنى العبارة التى لم تتعمق الدكتورة فى فهمها . ولعلنا نلتمس لها العذر لان الاستاذ الزيات - على غير عادته - لم يكن دقيقا فى اختيار بعض الالفاظ . فلو انه - مثلا - قال : " ولو ظل للصحافة كتابها وللتأليف كتابه . . . . . " بدلا من " ولو كان

للصحافة كتابها . . . . . " لوضح الأمر. علما بأن التعبير بـ ((كان)) قد يأتى بمعنى الدوام والاستمرار ومنه قوله تعالى : "وكان الله سميعا بصيرا " .

كذلك من الألفاظ التى لم يكن دقيقا فى اختيارها : التبسط والمط . فاننا مع الدكتورة فى أن " الكلام هذا لا يستقيم لأن السرعة لا تحتمل التبسط والمط " .

ويهمنى فى هذا المقام أن أوكد أن صحافتنا العربية قد تدهورت الى حد كبير من حيث الكتابة والأسلوب ، وارتفعت أصوات الغيورين تنبه الى كثرة الاخطاء الاملائية والنحوية واللغوية . هذا بالاضافة الى تدنى الأسلوب والابتذال فى التعبير ، مما أفسد أذواق الأجيال العربية ، وجنى على اللغة والأدب بوجه عام ، وعلى البلاغة بوجه خاص كما قال الزيات رحمه الله .

التطفل :

بعد الحديث عن السرعة والصحافة أخذ الأستاذ الزيات يتحدث عن السبب الثالث من أسباب نكبة البلاغة فقال : "أما التطفل فقد رأيته ظاهر الأثر على موائد الصحافة . غير أن هناك ضربا من التطفل المغرور يجوز أن نفرده بالذكر : ذلك هو تطفل فئة من أرباب المناصب لا يقدح في كفايتهم الا يكونوا كتابا ولا شعراء ولكنهم يأبون الا أن يضموا المجد من جميع حواشيه ، فهم يتكلفون ماليس في طباعهم من صناعة البيان ، فيقعون في النقص وهم يريدون الكمال .

قد ينبغ أولئك السادة فيما يملك بالتحصيل والمزاولة ، كالتعليم والتأليف والمحاماة والسياسة ، ولكنهم أعجز من أن يخلقوا في رءوسهم ملكة الفن بمجرد الارادة أو الأمر أو الادعاء ، فاصرارهم على أن يعدوا في كبار الكتاب على مافيهم من تخلف الطبع وخمود القريحة وضعف الأداة ، دفعهم الى مشايعة الجهلاء في تنقص البلاغة وخفض مستواها الى الدرك الذى لا يعز مناله على القاعد .

وهذه المشايعة من قوم لهم في التوجيه الثقافي رأى مسموع وأثر ملحوظ أخطر على البلاغة من كل ماتعانيه في هذه المحنة[1] .

وهكذا شخص الأستاذ الزيات أدواء البلاغة ، وأسباب نكبتها ، وهي : السرعة والصحافة والتطفل . ويذكرني هذا الثالوث بثالوث آخر يهدد كيان الشعب - أى شعب - وهو : الفقر والجهل والمرض .

وهذه الأدواء الثلاثة التى كشف عنها الزيات أمر جديد ، وحديث لم يسبق اليه ، فالسرعة والصحافة والتطفل أعداء للبلاغة لم يتنبه اليهم أحد من قبل ، اذ كان الداء محصورا قبل ذلك في الطريقة الكلامية وطغيانها على الطريقة الأدبية في دراسة البلاغة .

---

(١) دفاع عن البلاغة ص ٢٣ر٢٤ .

ومن الواضح أن الاستاذ الزيات كان موفقا فى تشخيص هذه الأدواء الثلاثة، ويبدو أنه عاش فى غمارها، واكتوى بنارها، ولعلها كانت بعض الأسباب التى أودت بحياة ابنته العزيزة " مجلة الرسالة ".

والآن قد آن الأوان لنسأل: ما البلاغة التى يدافع عنها الزيات؟ والتى يلتمس لها الأعذار والمبررات؟ فيدفع عنها الاهمال والتقصير، وينسبه الى الثالوث الجديد الذى لم يكن أحد يلتفت اليه قبل صدور كتاب " دفاع عن البلاغة".

البلاغة التى يدافع عنها الزيات :

يقول : (تسألنى بعد ذلك عن البلاغة التى أعنيها وأدافع عنها : أهى بلاغة العقل العربى التى تجلت فى نثر ابن المقفع والجاحظ والبديع، وارتسمت فى منهج أبى هلال وعبد القاهر؟ أم هى بلاغة العقل اليونانى التى تمثلت فى كلام الأصوليين والجدليين والمناطقة، واستقرت فى قواعد السكاكى والسعد؟ أم هى بلاغة المعنى أم بلاغة اللفظ؟ أهى بلاغة الفكر أم بلاغة الأسلوب؟

والجواب : أن البلاغة التى أعنيها هى البلاغة التى تحدى بها القرآن أمراء القول فى عهد كان الأدب فيه صورة الحياة، وترجمة الشعور، وعبارة العقل. هى البلاغة التى لا تفصل بين العقل والذوق، ولا بين الفكرة والكلمة، ولا بين المضمون والشكل، اذ الكلام كائن حى، روحه المعنى، وجسمه اللفظ، فاذا فصلت بينهما أصبح الروح نفسا لا يتمثل، والجسم جمادا لا يحس ...) (١).

ويذكرنا قول الزيات هذا بقول ابن رشيق : " اللفظ جسم وروحه المعنى، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم، يضعف بضعفه، ويقوى بقوته ..."(٢).

ونفهم من كلام الزيات وجوابه السابق أنه يعنى البلاغة الفنية، تلك البلاغة التى تحدى بها القرآن أمراء البيان، خاصة وأنه ذكر قبل ذلك بقليل أن البلاغة (كسائر الفنون طبيعة موهوبة لا صناعة مكسوبة) (٣).

---

(١) دفاع عن البلاغة ص ٣١

(٢) العمدة: ج ١ ص ٩٩

(٣) دفاع عن البلاغة ص ٢٥ .

البلاغة بين العلم والفن :

ولقد دعونا من قبل أن يتحول درس البلاغة من علم الى فن ، وان تختلط القواعد البلاغية المبسطة بتمارين التطبيق الشفوى والتحريرى ، وأن يكون التقدير ووضع الدرجات على أساس الأداء الفنى لا التحصيل القاعدى . أى على أساس مدى الاستفادة من التحصيل القاعدى فى الأداء الفنى .

وعلى هذا فالكلام عن البلاغة على أنها فن أمر يهمنا أن نعرضه ونعرف مداه ومدى مافيه من صلاحية وتجديد .

واذا كان الزيات يتحدث عن البلاغة بوصفها فنا فانه يهمنا أن نعرف رأيه فى تلك البلاغة الفنية التى يمارسها ويدعو اليها ، كما يهمنا كذلك أن نعرف الوسائل التعليمية التى توصلنا اليها .

ان الغاية من علم البلاغة هو الوصول الى فن البلاغة ، فالبلاغة الفنية هى الهدف الذى يرجى الوصول اليه ، وما قواعد البلاغة الا أسباب ووسائل للوصول الى الهدف وهو البلاغة الفنية .
وقد فرق الزيات بين علم البيان والبلاغة ، فهو يعقد القواعد وهى تخدمها وهو يعين الوسائل وهى تملكها ، وهو يرشد الى الينبوع وهى تغترف منه (١) .

واذا كان موضوع هذا البحث (التجديد فى علوم البلاغة) فان الغرض من هذا التجديد تيسير الوصول الى فن البلاغة .

وهنا سؤال يطرح نفسه ، ويفرض هذا الحديث وجوده ، وهو : هل تستغنى البلاغة الفنية عن العلم ؟ أم أنها ترتبط به وترتكز عليه ؟

والواقع أن البلاغة بوصفها فنا قوليا استغنت فيما مضى عن العلم بأصوله وقواعده فالقدماء أمثال : محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه ، وأبى بكر وابن الخطاب رضى الله عنهما .

---

(١) المرجع السابق ص ٢٨

هؤلاء وأمثالهم كانوا بلغاء ، وكانت بلاغتهم فنا فطريا طبعوا عليه واكتسبوه ونموه بطريقة ما ، ليس منها علم البلاغة . فالفن البلاغي لا يحتاج الى علوم البلاغة وهو في غنى عنها ، ويستطيع أن يستقل بنفسه دون مساعدة علمية . وان كان ذلك قد أصبح من الصعوبة بمكان بعد أن اختلطت الأجناس العربية بغيرها وخاصة في العصر الحديث .

أما البلاغة بوصفها علما نظريا فانها لاتستغنى أبدا عن التطبيق الشفوى والتحريرى والممارسة العلمية في ميادين الخطابة والكتابة والشعر . أى أن .... البلاغة العلمية لاتستغنى عن البلاغة الفنية .

والبلاغة الفنية - وان كانت كما قلنا لاتحتاج بالضرورة الى البلاغة العلمية - تحتاج في هذا العصر الذى تغيرت فيه الفطر ، وتلونت الطبائع ، الى صقل ودربة وخبرة لا يوفرها الا دراسة علوم البلاغة ، ولكن على الطريقة الأدبية لا الكلامية .

ونخلص من كل ذلك الى نتيجة حتمية وحقيقية واقعة وهى أن البلاغة الفنية والبلاغة العلمية أصبح كل منهما لا يستغنى عن الآخر ولا ينفك عنه ، ومن الخطأ الفصل بينهما في درس البلاغة الجديد .

هذا وقد أشار الأستاذ الشايب الى هذه الصلة بين علم البلاغة وفنها ، وأفرد لذلك فصلا في كتابه " الأسلوب " ، ورأى أن القدرة على التعبير هبة طبيعية ولكنها متفاوتة الدرجات بين الناس ، وأن طالب البلاغة كغيره من طلاب الفنون الأخرى لا يكتفى بالموهبة ، بل يحاول دائما صقلها بالدراسة والمران ليصل الى مستوى النبوغ والابتكار (١) .

بل انه يرى أن الدراسة والمران يفيد الموهوبين وغير الموهوبين . فغير الموهوبين ترتقى أذواقهم ، وتسمو مداركهم حتى يفرقوا بين الجيد والردىء من القول ، وهذا

---

(١) انظر كتاب " الأسلوب " ص ٣٠ - ٣٥

كاف بالنسبة لهم . أما الموهوبون فان الدراسة والمران يخلق منهم بلغاء ، ويصل بهم الى مستوى النبوغ والابتكار (١) .

واذا كانت البلاغة عند الزيات (كسائر الفنون طبيعة موهوبة لا صناعة مكسوبة) فانه يرى أيضا (أن الطبع والقريحة لا يغنيان فى البلاغة عن الفن . وربما كان فيهما ذلك الغناء فى العصر الجاهلى وصدر الاسلام ، حين كانت الأهواء صادقة والأخلاق صريحة ، والحياة بسيطة. أما وقد زيف الصادق ، وشيب الصريح ، وركب البسيط ، فلابد من حذق الصناعة وهدى القواعد لمعالجة ذلك) (٢) .

وبالتأمل فى قول الزيات هذا نجده أطلق كلمة الفن وأراد بها العلم ، وذلك فى قوله : (ان الطبع والقريحة لا يغنيان فى البلاغة عن الفن) اذ كان حقه أن يقول : الطبع والقريحة لا يغنيان فى البلاغة عن الدرس والمران .

ولعل ذلك يعطينا انطباعا بأن الزيات ربط هو الآخر بين علم البلاغة وفنها ، فاذا أطلق أحدهما أريد الآخر معه .

وعلى الرغم من أن الزيات فى دفاعه عن البلاغة كان يعنى البلاغة الفنية - كما يقول - فانه قد تحدث كذلك عن البلاغة العلمية ودافع عنها .

وذلك كدفاعه عن قواعد البلاغة التى وضعها الأقدمون ، فهو يرى أن علم البيان هو الجزء النظرى من فن الاقناع ، والبلاغة هى الجزء العلمى ، وأن القواعد البيانية لم يضعها الواضعون الا بعد أن رجعوا الى أصول الأشياء ، ودرسوا علائقها بالنفس والحس ، ثم صاغوها قواعد وقالوا انها أمثل الطرق لاحسان العمل دون أن يخضعوا قريحتك لها .

كذلك الذوق ، لا يمكن أن يكون بغير القواعد طريقا مأمونة الى عمل من أعمال الأدب ، فانه موهبة طبيعية تختلف فى الناس وفى الأجناس ، وتحتاج الى المرانة بالدرس والعادة (٣) .

---

(١) المرجع السابق .

(٢) دفاع عن البلاغة ص ٢٨ .

(٣) انظر دفاع عن البلاغة ص ٢٨ - ٣٠ .

ونلاحظ أن الزيات هادئ في دفاعه ، أديب في علمه ، فهو لا يندفع ولا يهاجم كالعقاد - مثلا - عندما دافع عن قواعد البلاغة وعلومها الثلاثة .

والزيات لم يدافع عن قواعد البلاغة فقط ، ولكنه دافع عن كثير من قضايا البلاغة العلمية ، فتحدث عن حد البلاغة وتعريفها ، وعن آلة البلاغة ووسائلها ، وعن اللغة والطبيعة والنفس وضرورة دراستها لطالب البلاغة ، وعن الذوق المثقف الذى يصدر عن العقل والعاطفة معا ، كما تحدث عن الأسلوب وأطال الوقوف عنده من حيث اللفظ والمعنى ووجهات النظر المختلفة فى هذا الشأن ، ثم تحدث عن صفاته من الأصالة والوجازة والتلاؤم .

وكل ذلك سنفصله بعد هذا الاجمال ، ونبين مافيه من تجديد ودفاع . وأيضا كل ذلك يؤيد ما ذهبنا اليه من أن علم البلاغة وفنها قد ارتبطا أشد الارتباط ، بل قد التحما وامتزجا ، وأصبح الحديث عن أحدهما يفرض الحديث عن الآخر ، وأن من الخطأ البين الفصل بينهما فى درس البلاغة الجديد .

تعريف البلاغة عند الزيات :

والزيات بوصفه مدافعا عن البلاغة ، وأحد دعاتها الى التجديد ، أراد أن يضع لها تعريفا جديدا بعيدا عن تعريف المتكلمين وجدلهم ، ولكنه لم يفعل ذلك الا بعد أن قدم بعض التعريفات البلاغية فى الشرق والغرب ، ورأى أن التعريفات على مدلول البلاغة اختلفت باختلاف تصور الناس لها ، وتأثرهم بها ، وغرضهم منها ولكنها تعريفات مقتضبة لا تكاد تكشف عن جوهرها الفنى . ولعل أول من حاول شرح البلاغة على نحو يشبه الفن ابن المقفع ، اذ قال : "البلاغة اسم لمعان تجرى فى وجوه كثيرة : منها ما يكون فى السكوت ، ومنها ما يكون فى الاستماع ، ومنها ما يكون شعرا ، ومنها ما يكون سجعا ، ومنها ما يكون خطبا ، وربما كانت رسائل . فعامة ما يكون من هذه الأبواب فالوحى فيها ، والاشارة الى المعنى أبلغ ، والايجاز هو البلاغة " .

ومن أمثلة الأقوال المقتضبة : قول ابن المعتز : " البلاغة هى البلوغ الى المعنى ولما يطل سفر الكلام " . وقول الخليل بن أحمد : " البلاغة هى ما قرب طرفاه وبعد منتهاه " .

ولبلغاء الغرب في البلاغة أقوال تشبه ماقال بلغاء العرب في اجمال المعنى وبعد الاشارة . قال لاهارب (١) : " البلاغة هي التعبير الصحيح عن عاطفة حق " .

وقال سورين (٢) : " هي الفكرة الصائبة ، ثم الكلمة المناسبة " .

وقال لابروبير (٣) : " هي نعمة روحية تولينا السيطرة على النفوس " .

وتخيلها سنيك (٤) : الها مجهولا في صدر الانسان . ومثلها القدماء في صورة آله يتكلم فيخرج من فيه سلاسل من الذهب تسلك السامعين فلا يفلت منهم أحد .

والتمثال على هذا الوضع لا يمثل غير بلاغة الخطيب .

وبعد كل ذلك يستخلص الزيات تعريفه للبلاغة ، فهي عنده بمعناها الشامل الكامل : " ملكة يؤثر بها صاحبها في عقول الناس وقلوبهم من طريق الكتابة أو الكلام " . فالتأثير في العقول على الموهبة المعلمة المفسرة ، والتأثير في القلوب على الموهبة الجاذبة المؤثرة ، ومن هاتين الموهبتين تنشأ موهبة الاقناع على أكمل صورة .

وذهب الزيات بعد ذلك في حديث غير قصير يشرح ويحلل هذا التعريف متكئا على شيء من علم النفس ثم يقول : ان " الغرض من تحليل هذا التعريف هو تجلية المراد من قول البيانيين : ان البلاغة هي مطابقة الكلام الفصيح لمقتضى الحال . فليست الأحوال المعروضة أو المفروضة الا انفعالات العواطف في النفس ، أو اتجاهات الخواطر في الذهن . وليست مقتضياتها الا الصور البلاغية المناسبة التي يهتدي اليها البليغ بطبعه أو فنه فيؤثر بها في هذه العواطف أو في تلك الخواطر التأثير الذي يريد (٥) .

---

(١) لاهارب : ناقد فرنسي اشتهر بدروسه الأدبية التي ألقاها في الليسيه وجمعها في مجلدين . توفي سنه ١٨٠٣م .

(٢) سورين : شاعر فرنسي درامي . توفي سنه ١٧٨١م .

(٣) لابروبير : كاتب أخلاقي فرنسي

(٤) سنيك : أحد علماء البيان في روما

(٥) دفاع عن البلاغة ص ٣١ - ٤٢ بتصرف .

مع الدكتورة بنت الشاطىء مرة ثانية :

لم ترض الدكتورة عن صنيع الزيات بعرضه لكل هذه التعريفات البلاغية للعرب وغير العرب ثم استخلاصه هذا التعريف الذى نسبه الى نفسه . قالت : " ولقد تعب الأستاذ الزيات وأتعبنا فى عرض تعريفات للبلاغة حشد فيها أقوال طائفة من الغربيين والعرب القدامى . ثم استخلص منها هذا التعريف الطويل العريض على حين اكتفت المدرسة الأدبية الحديثة بتعريف لا يتجاوز كلمتين اثنتين حين سمت البلاغة " فن القول " وهذا التعريف على ايجازه دقيق جامع مانع كما يقول المناطقة " (١) .

وحتى لا أظلم الدكتورة قبل أن أرد عليها أعود - على سبيل التوثق والتأكد - فأستعرض تعريف الأستاذ الزيات للبلاغة لأرى طوله وعرضه . لقد عرف البلاغة بأنها : " ملكة يؤثر بها صاحبها فى عقول الناس وقلوبهم عن طريق الكتابة أو الكلام" . وانى لا تساءل : أى طول وأى عرض فى هذا التعريف ؟ أم أن المسألة مسألة تعصب لفن القول وصاحب فن القول ؟ وماذا اذن تقول الدكتورة فى تعريف الامام محمد عبده للبلاغة - وهو لا يخفى على علمها واطلاعها - يقول الامام : " ليست البلاغة فى الحقيقة الا ملكة البيان وقوة النفس على حسن التعبير عما تريد من المعنى لتبليغ من مخاطبها ماتريد من أثر فى وجدانه يميل به الى الرغبة فيما رغب عنه أو النفرة مما كان يميل اليه ، أو تمكين ميل الى مرغوب أو تقرير نفرة من مكروه ، أو تحويل فى الاعتقاد وذوق النفس كذلك لمحاسن ماتسمعه ، أو وجوه النقد فيما يلقى اليها " (٢) .

ماذا تقول الدكتورة فى هذا التعريف ؟ ثم ماذا تقول فى التعريفات المختلفة للبلاغة التى أوردها صاحب العمدة (٣) واستغرقت خمس صفحات كاملة من القطع الكبير ولم يقل أحد ان ابن رشيق قد تعب وأتعبنا معه فى ايراد هذه التعريفات المختلفة للبلاغة .

---

(١) مجله الكتاب - المجلد الأول ص ٣٧٤ .

(٢) فى البلاغة العربية - د . رجاء عيد ص ٨ .

(٣) ج١ ص ٢٤١ تحقيق محيى الدين عبد الحميد .

وأجد من المناسب هنا أن أعرض رد الدكتور رجب البيومي على الدكتورة فهو منطقي وطريف . قال : " أما أن الأستاذ الزيات أتعب قراءه وتعب في عرض تعريفات للبلاغة حشد فيها أقوال طائفة من الغربيين والعرب فهذا افتراء عجيب ، لأن التعريفات قد وقعت في أقل من صفحة واحدة من القطع الصغير . . أفيكون الأستاذ تعب وأتعب في هذا المدى القصير . . ثم قالت ان المؤلف قد كتب للبلاغة تعريفا طويلا عريضا . أفيدرى القارئ أين الطول والعرض في قول الزيات عن البلاغة : ملكة يؤثر بها صاحبها في عقول الناس وقلوبهم من طريق الكتابة أو البيان ؟ أظن أن للطول والعرض مفهوما خاصا بالناقدة ولعلها تتحف به القراء . .
ثم تقول : ان المدرسة الحديثة اكتفت بتعريف لا يتجاوز كلمتين اثنتين هو - فن القول - ومعنى هذا التفضيل الرقمي أنه لو عرف كاتب البلاغة بكلمة واحدة فقط لكان تعريفه أولى من تعريف المدرسة الحديثة "(١) .

وبعد : ما الجديد في تعريف الزيات ؟ وما وجه الدفاع فيه ؟
أما الجديد فهو أنه تعريف بسيط واضح لا يحتاج الى شرح ومحترزات وهو امش وتقريرات ، وهو ما ندعو اليه في تجديد البلاغة من البساطة والوضوح في وضع الحدود والقواعد . وهو في ذلك قد نحى منحى الخولي في تسميته البلاغة " فن القول " ، والشايب حين اراد أن يسميها " الأسلوب " .

أما وجه الدفاع فانه غير ظاهر ، ولعله أراد أن يدفع عن البلاغة ماران على تعريفها القديم من شروح لمقتضى الحال وما يتبع ذلك من محترزات وتقريرات ، وأن يساهم في ادخال بعض التعديلات والاضافات التي تجعل وجه البلاغة مشرقا واضح القسمات .

---

(١) الزيات بين البلاغة والنقد ص ٢٩٨ .

آلة البلاغـــة

بدأ الزيات حديثه عن آلة البلاغة بمهاجمة مدعى البلاغة والادب ، ورأى ان آفة الفن الكتابى أن يتعاطاه من لم يتهيأ له بطبعه ، ولم يستعن عليه بأداته وأكثر المزاولين اليوم لصناعة القلم متطفلون عليها ، أغراهم بها رخص المداد وسهولة النشر واغضاء النقد . . ومن هنا شاع المبتذل وندر الحر ونفق الرخيص وكسد الغالى وكثر الكتاب وقلت الكتابة .

ولقد تحدث بعض البلغاء القدامى عن آلة البلاغة نذكر منهم أبا هلال العسكرى وابن الاثير . ففى الصناعتين قال أبو هلال " ان من تمام آلات البلاغة التوسع فـــى معرفة العربية ، ووجوه الاستعمال لها ، والعلم بفاخر الالفاظ وساقطها ومتخيرها ورديئها ، ومعرفة المقامات ، وما يصلح فى كل واحد منها من الكلام (١) " .

وفى مكان آخر يقول : " ينبغى أن تعلم أن الكتابة الجيدة تحتاج الـــى أدوات جمة وآلات كثيرة من معرفة العربية لتصحيح الالفاظ ، واصابة المعانـــى ، والى الحساب وعلم المساحة والمعرفة بالازمنة والشهور والاهلة (٢) " .

أما ابن الأثير فقد تحدث فى مثله السائر عن آلة البلاغة حديثا ضافيا حـــين أضاف ـ الى ما تقدم من العلم باللغة وسائر الفنون الأخرى ـ الطبع فهو الاصـــل والأساس : " اعلم أن صناعة تأليف الكلام من المنظوم والمنثور تفتقر الى آلات كثيرة . وقد قيل ينبغى للكاتب أن يتعلق بكل علم حتى قيل كل ذى علم يسوغ له أن ينسب نفسه اليه فيقال : فلان النحوى وفلان الفقيه وفلان المتكلم ، ولا يسوغ له أن ينسب نفسه الى الكتابة فيقول : فلان الكاتب . وذلك لما يفتقر اليه من الخوض فى كل فـــن وملاك هذا كله الطبع فانه اذا لم يكن ثم طبع فانه لا تغنى تلك الآلات شيئـــا . ومثال ذلك كمثل النار الكامنة فى الزناد والحديدة التى يقدح بها ألا ترى أنـــه

---

(١) الصناعتين ص ٢٧ .

(٢) " ص ١٦٠ .

اذا لم يكن فى الزناد نار لاتفيد تلك الحديدة شيئا (١).

والآن : ماذا قال الزيات عن آلة البلاغة ، وما رأيه فيها ؟ لقد لخص الزيات رأيه عن آلة البلاغة فى أمرين :

أ ـ الطبع الموهوب .
ب ـ العلم المكتسب .

ونلاحظ للوهلة الاولى أنه لم يخرج فى تعريفه لآلة البلاغة عن تعريف ابن الاثير والعسكرى " ولكن نلاحظ أيضا أنه فى شرحه لهما (الطبع الموهوب والعلم المكتسب)كان أكثر دقة ووضوحا . يقول عن الطبع :

" والمراد بالطبع ملكات النفس الاربع التى لابد من وجودها فى البليغ ،ولا حيلة فى ايجادها لغير الخالق ، وهى : الذهن الثاقب ، والخيال الخصب ،والعاطفة القوية ، والاذن الموسيقية . فان كنت على يقين جازم من وجود هذه الملكات فى نفسك فامض على ضوئها فى طلب هذا الفن فانك لا محالة واصل .

وسألقى عليك بعض الاسئلة لتعلم من أجوبتك عنها ان كنت موهوبا أو غير موهوب:

- هل يتأثر خيالك فى يسر ، ويتحرك فؤادك فى سهولة ، ثم يكون بين الخيال والقلب تجاوب سريع ؟

- هل تجد لاذنك الحساسية الرهيفة لانسجام الألفاظ ، وازدواج الفقر ، واتساع التراكيب ؟

- هل يملك مشاعرك جمال البلاغة فى روائع الشعر والنثر ؟

- هل تحس فى نفسك السمو اذا حمسها الاطلاع على الأمثلة الرفيعة من البلاغة

---

(١) المثل السائر حـ ١ ص٨ .

فتتحرك للمنافسة والمباراة ؟

- هل تشعر حين يتجه فكرك الى موضوع ما أن فكرته الجوهرية الأولية لا تلبث في ذهنك أن تحيا وتنمو ، ثم تتشكل وتتلون ، ثم تتوالد وتنتشر ؟

- هل تشعر بالحاجة الملحة والتوقان الشديد الى الانتاج الناشيء عن فيض القريحة وحرارة الفكر ؟

- هل يسهل عليك ادراك العلاقة بين الأفكار المجردة والموضوعات المحسة فتخرجها في الصورة المقبولة والالوان المناسبة ؟

- هل تتمثل المعاني في ذهنك من تلقاء نفسها على أفضل الوجوه الصالحة للتعبير والتصوير ؟

- هل تحس حين تفكر في موضوع شعري أن العواطف تنثال على نفسك ثم تتزاحم وتتدافع طالبة الانبثاق والتدفق ؟

ان كانت أجوبتك عن هذه الاسئلة بنعم . . فأنت تملك الطبع الموهوب(١) .

وللاستاذ رجب البيومي رأى في هذه الاسئلة . فهو يرى أن : " هذه الاسئلة جيدة التشخيص صحيحة النتيجة دقيقة الميزان ، ولكنها تؤتى من خطر واحد يعصف بها كما تعصف الريح بالرماد . ذلك أن المسئول في كثير من أحيانه لا يقدر نفسه تمام التقدير ، فان دخلاء كثيرين من ادعياء البلاغة يجيبون عن هذه الاسئلة بنعم دون نكوص ، لا لأنهم يكذبون على الناس وأنفسهم تعلم من خوائها ما تعلم ، بل لأنهم يتأكدون أنهم موهوبون يتسنمون البلاغة في أرفع مرقاة . فكم من دعى يعتقد أن خياله يتأثر في سرعة ، وأن قلبه يحفل بأرق المشاعر وأن أذنه حساسة تطرب لموسيقا البيان ، وأن خواطره تنثال على نفسه انثيالا اذا حاول علاج فكرة أو تحليل عاطفة ، ثم تتلون وتتوالد وتنتشر ، وكم رأينا من شعر بالحاجة الى التعبير شعرا

---

(١) دفاع عن البلاغة ص ٤٣ - ٤٦ بتصرف .

ونثراثم فاجأنا بما يغثى النفوس ويصدع الرؤس . لذلك كانت هذه الاسئلة على جودتها الجيدة لاتصلح الا للموهوب فعلا ، يأنس لها أنسا صادقا حين يجد افصاحها عن ذاته واضحا سافرا ، أما غير الموهوب فتزيده غرورا حين يجيب بنعم مكان لا " (١) .

أما آلة البلاغة الثانية وهى : العلم المكتسب . فالزيات يرى أن " الكاتب اذا كان ناقص العلم أو قليل الاطلاع ، يدركة الجفاف فلا يكون فى آخر أمره الا سارد ألفاظ ومقطع جمل . ذلك أن معارف الكاتب هى منابع انتاجه . وألسوان المعرفة له كألوان التصوير للمصور يجب أن تكون كلها على اللوحة قبل أن يقبض على الريشة . والمعارف لا تستفاد الا بمواصلة الدرس وادمان القراءة .

وأقل ما يجب على طالب البلاغة درسه ، هو : اللغة والطبيعة والنفس أما اللغة : فلأنها أداة القول والكتابة . وللثقافة العامة منها قدر مشترك يجب تحصيله على كل مثقف . لكن الكاتب أو الشاعر محتوم عليه أن يدرسها دراسة خاصة : يتضلع من مادتها ، ويتعمق فى فقهها ، ويتبسط فى أدبها ، ويحيط بعلومها ، ويوغل ما استطاع فى استبطان أسرارها ، واستقراء أطوارها ، حتى تكون للسانه وقلمه أطوع من الشمع ليد المثال الماهر . ومن زعم أن علوم اللسان لا ينبغى حذقها لغير الازهريين أو المتخصصين فهو هازل لا يريد أن يكون شيئا مذكورا فى هذا الفن ....

وكان الأشبه بطبيعة الموضوع أن نفصل الكلام فى تحصيل علوم اللسان ووضع الخطة لها وبيان الفائدة منها . ولكننا فى مقام من يدافع ولا يعلم ، ويوجه ولا يقسمون وقديما شكا عبد القاهر ما نشكو من زهادة الكتاب فى اللغة ، وانصرافهم عن النحو ، واستخفافهم بالبيان ... وظنهم أن الكاتب متى " عرف أوضاع لغة من اللغات .. وعرف المغزى من كل لفظة ، ثم ساعده اللسان على النطق بها ، وعلى تأدية أجراسها وحروفها ، فهو بين فى تلك اللغة كامل الاداة " .

---

(١) الزيات بين البلاغة والنقد ص ٢٥٤ و ٢٥٥ .

ولقد حاول عبد القاهر أن يطب لهذا الداء فوضع كتابيه القيمين (دلائل الاعجاز) و (أسرار البلاغة) . . . ثم عقم الدهر بمثل عبد القاهر ، وانقطعت الأسباب بين كتابيه وبين الزمن ، فتجددت معان وصور ، وتولدت أغراض وأساليب، وأصبح هذان الكتابان فى أول الطريق منارا لا ترى بعده الا أغفالاً ومجاهل ! فهل فى البيانيين من أساتذة جامعاتنا من يحاول فى البلاغة الحديثة ما حاول عبد القاهر فى البلاغة القديمة ، فيجددوا ما درس ، ويكملوا ما نقص ، ويقيموا أدب الكتابة وأدب النقد على قواعد ثابتة من الفن الصحيح والعلم الحديث ؟ (١).

وأنا أقف أمام هذا الكلام الاخير للزيات متعجبا . فهل يعقل أن الاستاذ الزيات لا يعلم بأن من أساتذة الجامعة من تقدم بخطة ومناهج جديدة للبلاغة ؟ فالاستاذ الشايب أصدر كتابه (الاسلوب) عام ١٩٣٩ والاستاذ أمين الخولى أصدر كتابه (فن القول) فى عام ١٩٤٧ بينما أصدر الاستاذ الزيات كتابه (دفاع عن البلاغة) بعد ذلك بأكثر من عشر سنوات هذا الى أن معركة البلاغة بين الدكتور العمارى والشيخ أمين الخولى دارت على صفحات مجلته (الرسالة) . فكيف بعد كل ذلك لا يشير الى كتابى الاسلوب وفن القول ويتغاضى عنهما وهو يهيب بأساتذة الجامعة البيانيين أن يحاولوا فى البلاغة الجديدة ما حاول عبد القاهر فى البلاغة القديمة ؟ ! أما كان المفروض أن يعرض لهذين الكتابين وما ورد فى كل منهما من تخطيط جديد للبلاغة وينتقدهما ويبين رأيه فيهما وهو يدافع عن البلاغة ؟ ! واذا كان الاستاذ الزيات يرى أن طالب البلاغة يجب أن يدرس - على الاقل - بجانب اللغة الطبيعة والنفس فذلك ليس بجديد فقد سبقه الى هذا الرأى منذ سنين الاستاذ الشايب فى " الاسلوب " ، والاستاذ الخولى فى " فن القول " وزادا على ذلك علوما أخرى ذكرناها هناك فى مكانها .

والاستاذ الزيات يرى أن درس طالب البلاغة للطبيعة من الاهمية بمكان . وذلك لانها " كتاب الفنان الجامع ومصوره العجيب . منها موضوعه ومادته ، وعنها اقتباسه ووحيه ، وفيها دليله ومثاله ، وبها أخيلته وصوره ، فيجب أن يطيل فيها

---

(١) دفاع عن البلاغة ص ٤٦ - ٥١ بتصرف .

النظر ، ويشغل بها الفكر ، ويرجع فى كل ما يعمل لأصولها الثابتة وقواعدها المقررة ، ليتقى الضلال والخطأ ، ويأمن الاغراق والتكلف .

هذا الكتاب المحيط المعجز الذى ألفته يد القدرة قد تجمعت على هوامش متنه الهائل عقول بنى آدم منذ استبصروا ، يحاولون كشف أسراره وفهم حقائقه ، فوفقوا بالاستقراء والاستنباط الى ابتكار علوم ، وابتداع فنون ، تخصص فى هذه أقوام ، وفى تلك أقوام ، كالجيولوجيين والجغرافيين والطبيعيين والكيميائيين والفلكيين والمهندسين وسائر من يتصل علمهم أو عملهم بالأرض والسماء ، واليبس والماء ، والجماد والحى . والاديب وحده هو الذى يجب عليه أن يشارك فى كل علم ويلم بكل فن ، لانه عرضة لان يكتب فى كل أولئك ولو على سبيل التصوير والتشبيه (١) .

وأما دراسته للنفس فلانها الينبوع الثر لما يزخر به الشعر والنثر من مختلف الغرائز والعواطف والافكار والاحاسيس . . . واذا كان من خصائص فن الكاتب أن يخلق اشخاصا للقصص ، ويمثل أهواء على المسرح ، ويعالج أخلاقا فى المجتمع ويحلل عقدا فى الناس ، فمن غير المعقول أن يحسن شيئا من أولئك اذا لم يكن عليما بأسرار القلوب وأهواء النفوس وما ينشأ من التعارض والتصادم بين الغرائز والاخلاق ، وبين العواطف والمنافع . واذا كان مدار البلاغة على مطابقة الكلام الفصيح لمقتضى الحال ، فان ادراك الفروق الدقيقة بين الحالات المختلفة للمخاطب ، وصياغة الكلام على قوالب المقتضيات المناسبة للخطاب ، وتصوير الاخلاق على نحو يغرى بالخير أو يحذر من الشر ، والقدرة على خلق الجمال فى الأسلوب ، أو التعبير عما يخلقه الجمال فينا من العواطف ، كل أولئك يستلزم دراسة خاصة لعلم النفس وعلم الاخلاق وعلم الجمال (٢) .

وكأنما أحس الاستاذ الزيات أنه ساق كلامه على عجل ووضعه فى تعميم وايجاز

---

(١) دفاع عن البلاغة ص ٥١ و ٥٢ .

(٢) المصدر السابق ص ٥٣ و ٥٤ .

فقال : هذا كلام أشبه بالمتن فى تعميمه وايجازه . والعذر المسوغ لهذا الاسلوب أننا نخاطب الكتاب ونبين الحدود ونبرز الخصائص ، ومن أجل ذلك قصرنا الكلام على اللغة والطبيعة والنفس من جملة ما يجب على طالب البلاغة درسه ، لأنها فى رأينا أشبه بعلوم التخصص له . والمفروض أن يخصها بطول النظر بعد أن يأخذ قسطه الأوفى من ضروب الثقافة .

وبعد : ان حديث الزيات عن آلة البلاغة - هو كما يقول - حديث من يدافع ولا يعلم ، ويوجه ولا يقود . وهو يرى أن الذنب فى تأخر البلاغة وجمودها ليس ذنب البلاغة ، وانما هو ذنب أولئك المدعين الخاوين من الموهبة والعلم ، فهم الجانون على البلاغة والأدب . ولو أنهم التمسوا لفن البلاغة آلته ووسيلته من الطبع الموهوب والعلم المكتسب لافادوا البلاغة ونهضوا بها .

الـــــذوق

يكثر ترداد كلمة (الذوق) فى البلاغة ، كما يكثر ترداد كلمة (العقل) فى الفلسفة . ذلك لأن حاسة الذوق هى أداة الفن ، كما أن ملكة العقل هى أداة العلم . فمن لا يذق لا يدرك الجمال . ولم تؤت البلاغة الا من فساد الذوق فيمن يكتب أو فيمن يقرأ . ولم أجد فيما أثر عن أدبنا ، ولا فيما نقل الى لغتنا ، كلاما يفيد طالب البلاغة فى موضوع الذوق على ما له من بليغ الأثر فى انشاء العمل الفنى وصحة تقديره ودقة نقده . لذلك لم أر من الفضول ، وأنا فى مقام الدفاع عن البلاغة أن أحاول تجلية هذا المعنى (١) .

كانت هذه هى الكلمات الأولى التى كتبها الأستاذ الزيات فى هذا الموضوع الهام (الذوق) .

الذوق وتجديد البلاغـــة :

ولئن كان الزيات يتحدث عن الذوق وهو فى مقام الدفاع عن البلاغة ، فانه يهمنا أن نتحدث عن الذوق ونحن فى مقام الدعوة الى تجديد البلاغة . وما أصدق الزيات حين قال : " ولم تؤت البلاغة الا من فساد الذوق فيمن يكتب وفيمن يقرأ " .

ولئن تأملنا لوجدنا أن السرعة التى نعيش عصرها قد أفسدت الأذواق الأدبية وكذلك الصحافة فى عصر السرعة ساعدت على فساد الأذواق ، ثم هؤلاء المتطفلون الذين فرضوا أنفسهم على الجو الأدبى والصحفى فى البلاد . وكأن الزيات حينما نبه الى هذه البلايا الثلاث : السرعة - الصحافة - التطفل ، وما لها من أثر فى التنكر للبلاغة ، انما كان يقصد أن هذه البلايا الثلاث قد جارت على الأذواق فأفسدتها ، فجنت بذلك على البلاغة .

وهل نستطيع فى هذا المقام أن ننسى الاذاعة والتليفزيون والمسرح والسينما وما لها من أثر كبير فى فساد الأذواق .

---

(١) دفاع عن البلاغة ص ٥٥

ان الذوق هو مناط الادراك والتقدير لأى فن من الفنون عامة ، وفن البلاغة خاصة . ومن هنا كان من حق الزيات وهو يدافع عن البلاغة أن يتحدث عن الذوق وأهميته وأن يدلى برأيه فى هذا الموضوع . وكان من حقنا ايضا ونحن نتحدث عن تجديد البلاغة الا نغفل هذا الموضوع دون تدبر ونظر .

وقبل أن نتطرق الى ماهية الذوق عند الزيات نجد من الملائم أن نشير الى مفهوم الذوق عند العرب فنذكر ماذكره الدكتور احمد بدوى من أن العرب عرفوا للذوق معنيين :

أحدهما : الملكة الراسخة فى النفس الناشئة من ممارسة كلام العرب .

ثانيهما : الاستعداد الفطرى الذى يهيء صاحبه لادراك ما فى الكلام من جمال وما لهذا الجمال من سر .

وقد خرج الدكتور بدوى بهذا الحكم بعد الموازنة التى عقدها بين عبد القاهر وابن خلدون وأوضح اختلاف نظرة كل منهما الى الذوق . فابن خلدون اعتد بالذوق المثقف ثقافة أدبية لغوية ، أما عبد القاهر فيرى أنه استعداد خاص يهيىء صاحبه لتقدير الجمال وفهم أسرار الحسن فى الكلام (١) .

والآن ماهو الذوق عند الزيات :

يقول : " الذوق حاسة معنوية يصدر عنها انبساط النفس أو انقباضها لدى النظر فى أثر من آثار العاطفة والفكر (٢) " فهو بذلك يميل الى نظرة عبد القاهر الى الذوق فالحاسة المعنوية ان هى الا استعداد فطرى خاص .

ويرى الزيات ان الناس قديما فطنوا (الى الشبه بين الذوق الحسى الذى يميز بين الطعوم ، وبين هذا الذوق المعنوى الذى يحكم فى نتاج الفنون . وأنهم لم يقفوا بوجه الشبه بين هاتين الحاستين عند طبيعة الادراك ، وانما تعدوا به الى قابليتهما للكمال والنقص ، واختلافهما بين الناس باختلاف الزمان والمكان والخلق والعادة .

---

(١) انظر أسس النقد الأدبى عند العرب ص ٨٧ وما بعدها .

(٢) دفاع عن البلاغة ص ٥٥ ، ٥٦ .

على أن التنوع والتغير والاختلاف في الذوق الحسي أضعف وأقل ، لأن مجاله مادي محدود ، وإدراك المادي قريب ، واستيعاب المحدود ممكن ، وفعل الطبيعة والبيئة في تطوير الغرائز بطيء لا يكاد يحس . أما الذوق المعنوي فمجاله ما يعجب وما لا يعجب من أعمال النفس والذهن . والمعجب وغير المعجب من هذه الأعمال أمور لا تزال تتأثر بعوامل الزمن والاقليم والجنس والتربية والثقافة والحضارة والطبقة والسن . وكلما التبست هذه الأمور التبس الذوق الذي يسيرها ويدبرها ويفرق بينها ويحكم عليها . فالذوق الحسي مرجعه الى الطبيعة والطبيعة طريقة واحدة . والذوق المعنوي مرجعه الى العادة وللعادة طرق متعددة .

وإذن لا يمكن الظفر بذوق عام تصدر عنه أحكام الناس على الأعمال الفنية فان ما يعجب الحضري قد لا يعجب البدوي ، وما يطرب المصري قد لا يطرب الأوربي . فكيف نجعل الذوق اذن ميزانا في البلاغة وهو على هذا الاختلاف (١).

والى هنا وصلنا في حديثنا عن الذوق الى طريق مسدود ، فالذوق لم يعد صالحا للحكم على الأعمال الفنية وبالتالي صدورها عنه .

وفي محاولة للبحث عن حل ومخرج يقول الزيات :

(ان للذوق مصدرين يستمد منهما الحكم في جميع قضاياه : أحدهما : العقل المتزن ، وهو يحكم في التناسب والقصد والترتيب والعلائق المشتركة بين السبب والنتيجة ، أو بين الطريقة والغاية . والذوق المستمد من هذا المصدر له ما للعقل من الوضوح الذي يشرق في كل نفس مهذبة ، وقواعده كقواعد العقل لا تتغير لأنه ثابت مطرد . والفنان الذي أوتي ثقوب الذهن يكون في مأمن من الزيغ اذا اتبع قواعد الفن لأنها وضعت على هذا الأساس المكين .

والمصدر الآخر هو : العاطفة ، وهي الشعور الواقع على النفس مباشرة من طريق الحواس . وهنا كان مجال الاختلاف وسبب التباين ، لأن الحقيقة في الفنون غير الحقيقة في العلوم - هي في العلوم محصورة مضبوطة ، ولكنها في

(١) المرجع السابق

الفنون منتشرة مبسوطة ، ومن ذلك كان التدرج من الحسن الى الأحسن ، ومن الفائق الى الممتاز . ولم ينشيء هذه الفروق الا هذا الذوق العاطفي الذى يتولد من الصفات والعادات والحوادث فيجعل الحقيقة الفنية تختلف فى نفسها من شعب الى شعب ، ومن قرن الى قرن ، حتى لتختلف فى المكان الواحد ، وفى الزمان الواحد ، تبعا لحالات العواطف وانطباعات الأحداث واختلافات الميول . .

لابد للذوق اذن من استمداد العقل والعاطفة كليهما فى تكوين حكمه)[1] .

الذوق بين عبد القاهر وابن خلدون والزيات :

ونشعر بعد قراءة هذا الكلام أن الاستاذ الزيات لم يجد رأى عبد القاهر الجرجانى فى الذوق مجديا فى العصر الحديث ، وأن الاستعداد الفطرى الخاص لم يعد وحده صالحا للحكم فى العمل الفنى أو التأثير فيه . فعدل عن هذا الرأى الى رأى ابن خلدون الذى اعتبر الذوق : ملكة راسخة فى النفس ناشئة من ممارسة كلام العرب . وهذه الملكة سماها د . أحمد بدوى " الذوق المثقف " ثقافة لغوية وأدبية . وقد استخلص ذلك من قول ابن خلدون فى مقدمته :

(اعلم أن لفظة الذوق يتداولها المعتنون بفنون البيان . ومعناها : حصول ملكة البلاغة للسان . وقد مر تفسير البلاغة ، وأنها مطابقة الكلام للمعنى من جميع وجوهه ، بخواص تقع للتراكيب فى افادة ذلك ، فالمتكلم بلسان العرب والبليغ فيه يتحرى الهيئة المفيدة لذلك على أساليب العرب وأنحاء مخاطبتهم ، وينظم الكلام على ذلك الوجه جهده ، فاذا اتصلت مقاماته بمخالطة كلام العرب حصلت له الملكة فى نظم الكلام على ذلك الوجه ،وسهل عليه أمر التركيب ، حتى لا يكاد ينحو فيه غير منحى البلاغة التى للعرب . وان سمع تركيبا غير جار على هذا المنحى مجه ، ونبا عنه سمعه بأدنى فكر ، وبغير فكر ،الا بما استفاده من حصول هذه الملكة ،فان الملكات اذا استقرت ورسخت فى محالها ، ظهرت كأنها جبلة وطبيعة لذلك المحل . . لذلك يظن كثير من المغفلين ممن لا يعرف شأن الملكات أن الصواب للعرب فى لغتهم اعرابا وبلاغة أمر طبيعى ، ويقول كانت العرب تنطق بالطبع ، وليس كذلك ،وانما هى ملكة لسانية فى نظم الكلام تمكنت

(١) دفاع عن البلاغة ص ٥٧ و ٥٨

ورسخت فظهرت فى بادى الرأى أنها جبلة وطبع ، وهذه الملكة كما تقدم انما تحصل بممارسة كلام العرب وتكرره على السمع ، والتفطن لخواص تركيبه ، وليست تحصل بمعرفة القوانين العلمية التى استنبطها أهل صناعة اللسان ، فان هذه القوانين انما تفيد علما بذلك اللسان ، ولا تفيد حصول الملكة بالفعل فى محلها .... وانما تحصل هذه الملكة بالممارسة والاعتياد والتكرر لكلام العرب.(١))

وعلى هذا فان الذوق عند ابن خلدون هو : الملكة الناشئة من ممارسة كلام العرب . ولو أن د . أحمد بدوى سماها : الذوق المدرب ، لكان أقرب .

ورأى الزيات فى الذوق أقرب الى رأى ابن خلدون ، فهو يرى أنه " لا بد للذوق من استمداد العقل والعاطفة كليهما فى تكوين حكمه " . ولا شك أن الزيات يقصد العقل المثقف المدرب .

والحقيقة أن الذوق فى العصر الحديث يجب أن يكون ذوقا مثقفا مدربا حتى لا تختلف الأذواق اختلافا بينا وحتى نستطيع أن نجمع - ولو الى حد ما - على رأى واحد أو قريب فى حسن العمل الفنى والأدبى أو قبحه . فحتى الآن لم نتفق - ولو الى حد ما - على حسن الشعر الحديث المرسل - مثلا - أو قبحه ، وتباينت فيه الأحكام ، واختلفت الآراء ، دون أن نصل الى نتيجة حاسمة . وما زال الشعر المرسل يصول ويجول بل يغطى على الشعر العربى العريق الأصيل . .

من أجل ذلك يجب ألا يترك الذوق على عواهنه بل يجب أن نقوم بترشيد الذوق وتعريفه الجيد والردىء وتدريبه على ادراك كل منهما . واذا اختلفنا بعد ذلك فى تحديد درجة الجودة أو درجة الرداءة فهذا أمر ميسور وضرره مقصور .

الذوق بين الشايب والخولي والزيات :

اذا كان الزيات قد جعل للذوق مصدرين هما : العقل والعاطفة ، فان الاستاذ الشايب قد جعل للذوق ثلاثة مصادر هى : العاطفة والعقل والحس . وذلك حين قال : (وليس الذوق ملكة بسيطة كما قد يتوهم ، ولكنه مزيج من

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٥٦٢ ط دار الفكر

العاطفة والعقل والحس ، وربما كانت العاطفة أهم عناصره وأوسعها سلطانا في تكوينه ومظاهره وأحكامه ، وكان تأليفه هذا من أسباب اختلاف الأفراد اذ يندر أو يستحيل أن تجد اثنين يتفقان فيما يصيبان من هذه العناصر كيفا وكما ، وكان لذلك مظاهره في نقد الأدب ، فمن غلب عليه عنصر الفكر آثر شعراء المعاني أمثال أبي تمام وابن الرومي والمتنبي وأبي العلاء وفضل كتاب الثقافة كالجاحظ وابن خلدون ، ومن غلبت عليه العاطفة فتن بشعراء النسيب والحماسة والعتاب وبالخطباء والوصاف ، ومن كان شديد الحس فضل أسلوب البحتري وشوقي كما يفضل الموسيقا والرسم الجميل)[1] .

وهذه المصادر الثلاثة - العقل والعاطفة والحس - التي جعلها الشايب مصدرا للذوق ترجع في الحقيقة الى اثنتين ، لأن الزيات جعل العاطفة نتيجة للشعور الواقع على النفس من طريق الحواس ، فهما اذن شيء واحد[2] .

أما الاستاذ الخولي فقد جعل الذوق (هو الأساس الأول ، والعامل الأقوى ، واليه المنتهى ، وعنه المصدر ، وهو شيء لا سبيل الى تلقينه وتعليمه ، والتبصير بمصادره ومراجعه لأنه شيء ليس في الكتب كما قال القدماء ، ولا هو مما يكسبه من حرم أصله . . هو الذوق الذى لو أجملنا كل محاولة في تصيير البلاغة فن القول لاعتمدت عليه ، ولم تتم الا به ، وكان العدة المفردة في تحقيقها ، فما نحتاج في شيء من ذلك كله ، الى أكثر من ذوق مثقف : فطرة تمنحها السماء وتمدها ثقافة كاملة ، وذلكم هو ملاك الأمر ومساكه)[3]

ونلاحظ أن رأى الخولي متفق وجار مع رأى ابن خلدون في أن العبرة بالذوق المثقف لا غير . واذا كان الأمر كذلك فان هناك سؤالا يطرح نفسه ، وهو كيف يتكون الذوق : أو بتعبير أدق : كيف نثقف الذوق وندربه . يقول الاستاذ الزيات : (كان الذوق في العصور الذهبية يتكون في الأديب بالدراسة الفقهية لعلوم الأدب والقراءة النقدية لروائع الفن ، والصحبة المتصلة لأمراء البيان ، وغشيان مجالسهم ، وطول الاستماع اليهم ، وأخذ النفس بمحاكاتهم ، وامتحان

---

(١) أصول النقد الأدبي ص ١٢١ ط ٧

(٢) الزيات بين البلاغة والنقد ص ٢٧٨

(٣) فن القول ص ٢١٣

الآراء والأذواق بمحاكهم ، بعد أن يجمع الأديب وعاء قلبه على خير ما أثر عن العباقرة الذاهبين من بليغ النظم والنثر في الأحوال المختلفة والأغراض المتنوعة .)[١]

ويرى الزيات : أن متأدبي اليوم لا يقرؤون الا (صحف الاخبار ومجلات الفكاهة وأقاصيص اللهو وملخصات العلم . وأكثر ما يقرؤون صور منقولة أو مقبوسة عن أدب الغرب لا تربي في القارىء الا ذوقا مذبذبا لا يثبت على لون ولا يستقيم على خطة . ومثل هذا الذوق الملفق المستعار لا ينظر الى (الأمالي) و (الأغاني) و (اللزوميات) الا كما ينظر الى العمامة والقباء والجبة ، فهي في حكمه أشياء قضت عليها (المودة) وللمودة في كل يوم زى يتجدد معه الذوق ويتعدد ! وليس معنى ذلك أن الذوق الأدبي العربي فسد في كل نفس ، انما نتحدث عن الكثرة ، والكثرة في عهد الديموقراطية تتحكم في القلة : تحدد لها المستوى ، وتعين لها الاتجاه ، وتنصب أمامها الغرض ، بله العدوى ، فانها الى الأصحاء مؤكدة سريعة .

على أن في كتاب العربية المعاصرين صفوة مختارة لا تزال في وسط هذه الأذواق المتنوعة المتناقضة مخلصة للذوق الطبيعي الخالص ، تذود عنه ، وتدعو اليه ، وتأبى أن تنزل به الى تمليق الدهماء ، ولو فقدت في سبيله انتشار الصوت ورواج القلم . وأغلب هذه الصفوة من أبناء الأزهر ودار العلوم ومن تلمذ لهم ، لأن الذوق الأدبي عندهم هدى من الوحي الالهي أنزله الله في القرآن ، وأرسله في الأدب ، فجرى في النفوس المؤمنة مجرى العقيدة ، لا يحسن في مكان دون مكان ، ولا يصلح لزمن دون زمن)[٢]

وأخيرا يرى الزيات أن (مستقبل البلاغة منوط بتغلب الذوق الطبيعي المأثور على الذوق المزيف المستحدث . واذا قلت ان سلامة القومية العربية موقوفة كذلك على هذا التغلب لم نعد الحق ، لأن الأذواق والأخلاق والعادات هي عناصر الشخصية التي تميز فردا من فرد وأمة من أمة . وسبيل الغلبة والفلج للذوق الحر تربيته وتقويته)[٣] .

---

(١) دفاع عن البلاغة ص ٦١
(٢) المرجع السابق ص ٦٢
(٣) المرجع السابق ص ٦٥ و ٦٦

والواقع أن الاستاذ الزيات لمس وترا حساسا في دفاعه عن البلاغة ولم يكن مبالغا حين قال : " ان مستقبل البلاغة منوط بتغلب الذوق الطبيعي المأثور على الذوق المزيف المستحدث " . وذلك أمر يهمنا أن نبرزه ونوضحه في مقام دعوتنا الى التجديد . اذ يجب أن يراعى في تجديد البلاغة العناية بتربية الذوق والوصول به الى مرتبة الذوق المثقف ، وذلك عن طريق اختيار النصوص الملائمة المساعدة على تربية هذا الذوق . وكذلك عن طريق دراسة بعض العلوم التي ورد ذكرها كاللغة والطبيعة والنفس بجانب العلوم الأساسية اللازمة لتقويم القلم واللسان كالنحو والصرف .

ولقد ذهب الاستاذ الزيات في نظرته الى أهمية الذوق الى حد بعيد ونبه الى أمر خطير حين قال : " واذا قلت ان سلامة القومية العربية موقوفة كذلك على هذا التغلب لم تعد الحق " . وأزيد على ذلك : أن سلامة العقيدة موقوفة كذلك على هذا التغلب . فأمر الذوق اذن جد خطير ، والعناية به وبتربيته ليس واجبا بلاغيا فحسب ، ولكنه واجب قومي وديني كذلك .

الأسـلوب

لعل ما عرضته عليك من اجمال القول في البلاغة كان توطئة لتفصيل الكلام في الأسلوب . ذلك لأن الأسلوب هو مظهر الهندسة الروحية لهذه الملكة النفسية يبرزها للعيان ويصل بينها وبين الأذهان ، وينقل أثرها المضمر الى الأغراض المختلفة والغايات البعيدة . وكتب البلاغة في لغتنا لم تعن الا بالجمل وما يعرض لها في علم المعاني ، والا بالصور وما يتنوع منها في علم البيان . أما الأسلوب من حيث هو فكرة وصورة معا فقد سكتت عن سكوت الجاهل به . وكان الظن بمن خلفوا عبد القاهر وأبا هلال وابن الأثير أن يفطنوا اليه بعد ما دلوهم عليه بذكرهم بعض خصائصه الفنية وصفاته اللفظية ، وان كان ما ذكروه من ذلك جاء فطيرا لم يخمر ، وخديجا لم يكتمل ، وشائعا لم يحدد ، ومشوشا لم يرتب . ولكنهم صموا عن تنبيه العسكري ، وعموا عن توجيه الجرجاني ، ومضوا على نحائزهم الأعجمية يفلسفون النحو والبلاغة لا لشيء غير الفهاهة والحذلقة [(1)] .

ونستنتج من هذا الكلام للزيات أنه يدافع عن البلاغة الأولى ، بلاغة المدرسة الأدبية وأعلامها من أمثال عبد القاهر وأبي هلال وابن الأثير ، فان هؤلاء لم يقصروا وذكروا الأسلوب وتحدثوا عنه ، وان كان ما ذكروه من ذلك جاء فطيرا لم يخمر ، وخديجا لم يكتمل . ولكن أليس لهؤلاء الأعلام عذرهم ؟ فان النظرة الأدبية في عصرهم كانت تتوجه الى البيت والبتين ، والجملة والجملتين ، ولم تكن النظرة الشاملة الى النص كله قد وجدت بعد .

ونستنتج من كلام الزيات أيضا أن هدفه الأول في دفاعه عن البلاغة هو الكلام عن الأسلوب ، وأن ما فات كله انما كان توطئة وتمهيدا لتفصيل الكلام عن الأسلوب .

ولسنا مع الاستاذ الزيات في هذا القول ، فان ما فات من آراء وأفكار كان كبير الأهمية عظيم الخطر . فأسباب التنكر للبلاغة لم يكن أحد يلتفت اليها من قبل ، وحديثه عن حد البلاغة وآلتها حديث له أهميته وقدره ، أما حديثه عن

---

(1) دفاع عن البلاغة ص ٦٨ .

عن الذوق فقد كان دقيقا رائعا ، كشف به عن أهمية الذوق ومكانته وخطر شأنه لا بالنسبة للبلاغة فحسب ، بل بالنسبة للقومية العربية وتربية الشخصية العربية كذلك .

وليس معنى ذلك أننا ننقص من قدر الأسلوب وأهميته ، فان الأسلوب من الدراسات الأدبية المستحدثة الهامة التى نادى دعاة التجديد بادخالها فى منهج البلاغة الجديد .

والاستاذ الزيات . وان كان يرى أن الأسلوب بحث جديد ، الا أنه يرى - كما أوضح من قبل - أن للأسلوب جذورا فى القديم . ولذلك أتى بتعريف ابن خلدون للأسلوب ، غير أنه أتى به مقتضبا ناقصا من أوله حوالى ثلاثة أسطر ، ومن وسطه حوالى سطرين . ونحن نورده بأكمله .

يقول ابن خلدون : " ولنذكر هنا سلوك الأسلوب عند أهل هذه الصناعة - صناعة الشعر - وما يريدون بها فى اطلاقهم ، فاعلم أنها عبارة عندهم عن المنوال الذى ينسج فيه التراكيب ، أو القالب الذى يفرغ فيه ، ولا يرجع الى الكلام باعتبار افادته أصل المعنى الذى هو وظيفة الاعراب ، ولا اعتبار افادته كمال المعنى من خواص التراكيب الذى هو وظيفة البلاغة والبيان - ولا باعتبار الوزن كما تستعمله العرب فيه الذى هو وظيفة العروض ، فهذه العلوم الثلاثة خارجة عن هذه الصناعة الشعرية - وانما يرجع الى صورة ذهنية للتراكيب المنظمة كلية باعتبار انطباقها على تركيب خاص ، وتلك الصورة ينتزعها الذهن من أعيان التراكيب وأشخاصها ، ويصيرها فى الخيال كالقالب والمنوال ، ثم ينتقى التراكيب الصحيحة عند العرب باعتبار الاعراب والبيان فيرصها فيه رصا ، كما يفعل البناء فى القالب والنساج فى المنوال ، حتى يتسع القالب بحصول التراكيب الوافية بمقصود الكلام ويقع على الصورة الصحيحة باعتبار ملكة اللسان العربى فيه ، فان لكل فن من الكلام أساليب تختص به وتوجد فيه على أنحاء مختلفة . . . . (١)

ولست أدرى ماذا تقول الدكتورة بنت الشاطىء فى طول هذا التعريف وعرضه ، فهى اذا كانت اعتبرت تعريف الزيات للبلاغة طويلا وعريضا وهو سطر واحد

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٣٦٨ و ٣٦٩ ط ١

فماذا اذن تقول فى هذا التعريف ؟ ! ولعل هذا ما حدا بالزيات أن يحذف منه أكثر من خمسة أسطر فلا أظنه حذفها استغناء عن معناها . واذا كان الأمر مجرد اثبات جذور للأسلوب فى القديم أما كان يكفى تعريف عبد القاهر عن الأسلوب بأنه " الضرب من النظم والطريقة فيه "[1] . خاصة وأن الزيات رجل بليغ ويدافع عن البلاغة ويقول ان من صفاتها (الوجازة) كما سيأتى بعد قليل .

وبعد ما هو الأسلوب عند الزيات ؟

" هو طريقة الكاتب أو الشاعر الخاصة فى اختيار الألفاظ وتأليف الكلام "[2]

ويذكرنا هذا التعريف بالاستاذ الشايب حيث عرض فى حد الأسلوب تعريفين أولهما : أن " الأسلوب معان مرتبة قبل أن يكون ألفاظا منسقة ، وهو يتكون فى العقل قبل أن ينطق به اللسان أو يجرى به القلم "[3] . وثانيهما أن الأسلوب هو طريقة التفكير والتصوير والتعبير "[4] .

ونلاحظ بين الزيات والشايب فرقا فى تعريف الأسلوب . فالزيات يعتبر الأسلوب خاصا باختيار الألفاظ وتأليف الكلام ، بينما الشايب ينظر الى الأسلوب نظرة أشمل فهو عنده معان فى النفس قبل أن تكون عبارات على اللسان أو فوق الورق .

<u>اختلاف الأسلوب ومداه</u> :

اذا كان الأسلوب عند الزيات هو : طريقة الكاتب أو الشاعر الخاصة فى اختيار الألفاظ وتأليف الكلام فان " هذه الطريقة فضلا عن اختلافها فى الكتاب والشعراء تختلف فى الكاتب أو الشاعر نفسه باختلاف الفن الذى يعالجه ، والموضوع الذى يكتبه ، والشخص الذى يتكلم بلسانه أو يتكلم عنه "[5] .

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٣٦١ .
(٢) دفاع عن البلاغة ص ٧٠
(٣) الاسلوب ص ٤٠ ط ٤
(٤) الاسلوب ص ٤٦ ط ٤
(٥) دفاع عن البلاغة ص ٧٠

وهذا الكلام فى اختلاف الأسلوب نجد مثله كذلك فى كتاب الاسلوب للاستاذ الشايب[1]. ولكن الأستاذ الزيات يتناول هذا الاختلاف فى الاسلوب ويفيض فيه بفكر آخر أو بنظرة أخرى أبعد مدى فيقول :

" ولكن الأساليب مهما اختلفت باختلاف الأفراد ، وتنوعت بتنوع الاغراض ، فانها تتسم جميعا بسمات واحدة من عبقرية الأمة . ومنطق ذلك أن الصفات المشتركة فى آحاد الأمة تتلاقى وتتجمع فتكون خصائصها التى تميزها من سواها . وهذه الخصائص نفسها تنطبع فى لغتها فتكون طرازا عاما فى كل أسلوب . وعلى قدر ما تكون هذه الخصائص فى الأمة تكون قابلية الأساليب فيها للاختلاف فالصفات القومية فى الأمة العربية كانت فى جاهليتها شديدة الظهور والعموم حتى لم يكن بين صفات الفرد وصفات الجماعة الا فروق لا تكاد تلحظ . ومن ثم تشابهت أساليب الشعر والخطابة فى ذلك العصر فلا تستبين فروقها الدقيقة الا للناقد البصير . ومن اختلف أسلوبه من الشعراء الجاهليين فقد اختلف لتغلب صفاته الخاصة .

فلما جاء الاسلام أخذت هذه الفروق تتضح وتتباين حتى بلغت غايتها من ذلك فى العصر العباسى ، حين صارت اللغة العربية لغة الاسلام ، وصار الأدب العربى أدب الشرق . . .

وبهذه الصفات القومية العامة تميزت لغة من لغة ، واختلف أدب عن أدب ، فاللغات الشرقية فى جملتها تتميز من الغربية بالزخرف والأبهة والانتفاخ والتبجيل والتهويل والصوفية ، لأن شعوبها صبغوها بهذه الأصباغ من صفاتهم الخاصة . والفروق المعروفة بين الفرنسية فى وضوحها ودقتها ، وبين الايطالية فى رخاوتها ورقتها ، وبين الانجليزية فى خشونتها وقوتها ، هى نفسها الفروق بين أصحاب هذه الأمم الثلاث فى أصل الجبلة وموروث الطبع[2] ".

<u>طبيعة اللغة وأثرها فى الاسلوب :</u>

يرى الزيات أنه كما تؤثر صفات الأمة فى طبيعة اللغة ، كذلك " تؤثر طبيعة اللغة فى أسلوب الكاتب ، فاللغات التى اكتسبت من مدنية أهلها رقة

---

(١) أنظر الباب الثالث ص ٥٤

(٢) دفاع عن البلاغة ص ٧٠ - ٧٢

اللفظ وأناقة العبارة ، ومن شاعريتهم جمال الصورة وروعة الأخيلة ، تغنى الكاتب بموسيقاها وحلاها عن كد القريحة فى ابتكار المعانى واستنباط الفكر . أما اللغات التى لم تؤتها الطبيعة حظا موفورا من سحر اللفظ وفنون الصياغة ، فكتابها مضطرون الى أن يعوضوا أساليبهم من ذلك وجازة التعبير ووزانة التفكير ومد القارىء بفيض من المعانى يشغله عن الفكر فيما فاته من جمال الأسلوب .

واللغة العربية من النوع الأول ، طبعها أهلها منذ القدم على موسقة الألفاظ ، وتنويع المعانى بصور البيان ، وتفويف الجمل بألوان البديع ، لا فرق فى ذلك بين بداوتها وحضارتها ، ولا بين فصحاها وعاميتها ، حتى اطمأن كثير من رجال القلم الى أن يعفوا طباعهم من جهد التفكير ويحاولوا امتلاك القلوب بروعة الأسلوب ، فكانت المقالة أو القصيدة أشبه بالقطعة الموسيقية تخلب الأذن ولا يبلغ النفس والذهن منها غير رجع ضعيف . ومن هنا قر فى أكثر النفوس أن الأسلوب انما يطلق على الجانب اللفظى من الكلام ، حتى قال الاستاذ الرافعى طيب الله ذكره : " فصل ما بين العالم والأديب ، أن العالم فكرة ، والأديب فكرة وأسلوبها " ففصل بين الفكرة والأسلوب واعترف بالأسلوب للأديب وأنكره للعالم . ولعلى أوفق الى تصحيح هذا الرأى فيما يلى من هذا الحديث"[(١)]

هذا الكلام من الأستاذ الزيات يجعلنا نعيد النظر فى تعريفه السابق للأسلوب ، فبعد أن قرر أن الأسلوب هو : طريقة الكاتب أو الشاعر فى اختيار الألفاظ وتأليف الكلام ، يعود فيستنكر ما قر فى أكثر النفوس من أن الاسلوب انما يطلق على الجانب اللفظى من الكلام ، ويستنكر فصل الرافعى بين الفكرة والأسلوب ويعد بتصحيح هذا الرأى فيما يلى من الحديث .

الأسلوب بين المعنى واللفظ أو بين الفكرة والصورة :

ومرة أخرى يحاول الزيات أن يوضح موقفه من الأسلوب ويزيل أى التباس سابق فيقرر أن " من رجال الأدب من يرى أن العلاقة بين المعنى واللفظ كالعلاقة بين الجسم والثوب ، لكل منهما على تلازمهما وجود ذاتى مستقل له

---

(١) المرجع السابق ص ٧٢ و ٧٣

أوصافه وخصائصه ، فالجسم يقوم بحساب الخلقة ، والثوب يقوم بحساب الصناعة . ومنهم من يرى أن العلاقة بينهما كالعلاقة بين الروح والجسد ، لا يوجد هذا بغير ذاك ، فاذا انفك أحدهما عن الآخر مات الحي وفسد الكائن . ونحن - كما علمت من قبل - على رأى هذا الفريق فقد قلنا في كلمة سبقت ان الاسلوب هو الهندسة الروحية لملكة البلاغة ، وان البلاغة التي نعنيها هي البلاغة التي لا تفصل بين العقل والذوق ، ولا بين الفكرة والكلمة ، ولا بين المضمون والشكل : اذ الكلام كائن حي روحه المعنى وجسمه اللفظ ، فاذا فصلت بينهما أصبح الروح نفسا لا يتمثل ، والجسم جماد لا يحس "[1].

وعلى الرغم من أن هذا الكلام - عن البلاغة التي يعنيها والتي لا تفصل بين العقل والذوق ولا بين الفكرة والكلمة .... الخ - ورد في حديثه عن : (حد البلاغة) لا الأسلوب ، فاننا نعتبر هذا رجعة الى الصواب ، وتنكرا للخطأ فالواقع - كما يقول الزيات بعد ذلك - أن : " الفكرة والصورة في الاسلوب كل لا يتجزأ ، ووحدة لا تتعدد . وليس أدل على اتحادهما من أنك اذا غيرت في الصورة تغيرت الفكرة ، واذا غيرت في الفكرة تغيرت الصورة . فقولك : أعنيك غير قولك : اياك أعني وقولك : كل ذلك لم يكن غير قولك : لم يكن كل ذلك وقولك : ما شاعر الا فلان ، غير قولك : ما فلان الا شاعر . فترتيب الألفاظ في النطق يكون بترتيب المعاني في الذهن .... وانا حين ذكرنا أن الاسلوب هو الطريقة الخاصة في اختيار الألفاظ وتأليف الكلام ، كنا نريد بذلك اختيار الألفاظ على الشكل الذي يرتضيه الذوق ، وتأليف الكلام على الوضع الذي يقتضيه العقل "[2].

وهكذا وضع الزيات النقط فوق الحروف في موضوع الأسلوب وحدد موقفه منه بوضوح . وزيادة في التأكيد يأتي بتعريف آخر بنا " على ما سبق " فالأسلوب اذن هو طريقة خلق الفكرة وتوليدها وابرازها في الصورة اللفظية المناسبة "[3] ثم يذهب يشرح ذلك : من ذلك نرى أن الأسلوب خلق مستمر : خلق الألفاظ بواسطة

---

(١) المرجع السابق ص ٧٣ و ٧٤ . وهذا رأى ابن رشيق أيضا - أنظر العمدة جـ ١ ص ٩٩ و ١٠٠

(٢) المرجع السابق ص ٧٤ و ٧٥ بتصرف

(٣) " " ص ٧٦

المعانى ، وخلق المعانى بواسطة الألفاظ . ومن ذلك نرى أن الاسلوب ليس هو المعنى وحده ولا اللفظ وحده ، وانما هو مركب فنى من عناصر مختلفة يستمدها الفنان من ذهنه ومن نفسه ومن ذوقه . تلك العناصر هى الأفكار والصور، والعواطف ثم الألفاظ المركبة والمحسنات المختلفة "(١).

أنصار الصياغة اللفظية :

ومرة أخرى بعد كل ما تقدم يعود الزيات فينضم الى أنصار الصياغة اللفظية ويراهم أقرب الى الصواب من أولئك الذين كفروا بها وشنعوا عليها(٢) . ويستشهد لذلك بآراء من الشرق ومن الغرب . فأبو هلال العسكرى يقول : " ليس الشأن فى ايراد المعانى ، لأن المعانى يعرفها العربى والعجمى والقروى والبدوى ، وانما هو فى جودة اللفظ وصفائه . . . مع صحة السبك والتركيب ، والخلو من أود النظم والتأليف . . . " . وقال لابروبير : " ان هوميروس وأفلاطون وفرجيل وهوراس لم يبن شأوهم على سائر الكتاب الا بعباراتهم وصورهم " . وقال شاتوبريان : " لا تحيا الكتابة بغير الأسلوب . . . " . . . .

وقد غالى علماؤنا البيانيون فزعموا أن المعانى شائعة مبذولة لا يملكها المبتكر ولا السابق ، وانما يملكها من يحسن التعبير عنها ، فمن أخذ معنى بلفظه كان سارقا ، ومن أخذه ببعض لفظه كان سالخا ، ومن أخذه فكساه لفظا أجود من لفظه كان هو أولى به ممن تقدمه(٣) . . . .

ومعنى ذلك - فى رأى الزيات - أن الأفكار تكون قبل أن يفرغها الفنان فى قالبه الخاص من الأملاك العامة ، فاذا عرف كيف يصوغها على الصورة اللازمة الملائمة تصبح ملكا خالصا له ، تسير فى الناس موسومة بوسمه ، وتعيش فى الحياة مقرونة باسمه . فالأسلوب وحده هو الذى يملك الأفكار وان كانت لغيرك . ألا ترى أن أثر الاخلاق فى بقاء الأمم وفنائها معنى من المعانى المأثورة المطروقة ، فلما أجاد شوقى سبك اللفظ عليه فى بيته المشهور :

انما الأمم الأخلاق ما بقيت ... فان همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

---

(١) المرجع السابق ص ٧٩
(٢) المرجع السابق ص ٨٠

أصبح بهذه الصيغة من حسناته المعدودة وأبياته المروية ؟

على أنك مهما تستقر لا تجد امرأ سليم الملكات ينكر ما لحلاوة الجرس وطلاوة العبارة من الأثر الفعال في بلاغة الكلام . وعلماء البيان مجمعون على أن : " الكلام اذا كان لفظه غثا ، ومعرضه رثا ، كان مردودا ولو احتوى على أجل معنى وأنبله "[١].

الصورة والفكرة مرة أخرى :

بعد ما ذهب الزيات الى فريق الصياغة اللفظية مؤيدا ومناصرا ، عاد يؤكد أن الأسلوب في الحقيقة صورة وفكرة معا ، ولكن المسألة مسألة نسبية فبالنسبة للصياغة فهي عنده أرجح وأقوى أثرا . يقول : " خلص لنا من مخض هذه الأحاديث أن الاسلوب الفني يتكون من الصورة والفكرة ، كما يتكون الماء القراح من الهيدروجين والاوكسجين . وكما استحال في فن الطبيعة أن يتكون الماء من أحد عنصريه ، فقد استحال في فن الانسان أن يتكون الأسلوب من أحد جزأيه . ولا أقصر وجه الشبه بين الأسلوب والماء على أن تركب هذا وذاك من عنصرين ضربة لازب ، انما أمد الشبه الى أن نسبة الصورة الى الفكرة في الأسلوب يجب أن تكون كنسبة الهيدروجين الى الاكسجين في الماء - وهي نسبة اثنين الى واحد - . واذن لا يعد من الأساليب الفنية المعاني الحكيمة التي تعرض في معرض بشع من الركاكة والغثاثة والتعقيد والخطأ ، ولا تلك الصور المموهة التي تنتفخ انتفاخ الفقاقيع ، وتبرق بريق الشرر ، ثم لا يكون من ورائها غير فراغ وظلمة "[٢].

قال ابن رشيق : " ولا تجد معنى يختل الا من جهة اللفظ وجريه فيه على غير الواجب ، قياسا على ما قدمت من أدواء الجسوم والأرواح . فان اختل المعنى كله وفسد بقي اللفظ مواتا لا فائدة فيه وان كان حسن الطلاوة في السمع ، كما أن الميت لم ينقص من شخصه شيء في رأى العين الا أنه لا ينتفع به ولا يفيد فائدة . وكذلك ان اختل اللفظ جملة وتلاشى لم يصح له معنى ، لأنا لا نجد روحا في غير جسم ألبتة "[٣].

(١) الصناعتين ص ٤٩ ، وانظر المرجع السابق ص ٧٨ - ٨٢
(٢) المرجع السابق ص ٩٢ و ٩٣
(٣) كتاب العمدة ج ١ ص ١٠٠

صفات الأسلوب عند الزيـــات :

الأسلوب يختلف باختلاف الذهن والثقافة والنوع والغرض والحال والشخص الذى يتحدث اليه . فأسلوب القصة غير أسلوب الرواية وأسلوب العتاب غير أسلوب الشكر ، وأسلوب التأثير غير أسلوب الاقناع . . . وهكذا . ولكن لهذه الأنواع مهما تعددت واختلفت صفات مشتركة من جهة الذهن . هذه الصفات المشتركة هى التى تعنينا ونعنيها [١] .

ويذهب الزيات ينقد صفات الأسلوب القديمة " ذلك لأن أكثرها من الألفاظ التى أشاعها الكتاب فى الناس من غير تقييد ولا تحديد فظلت معانيها مبهمة ، ودلالتها شائعة . من ذلك قولهم : الجزالة والسهولة والعذوبة والرقة والدقة والخفة والقوة والسلاسة والرصانة والنصاعة والوضوح والصدق والطلاوة والحلاوة والرونق والمائية والطبيعية والسبك والحبك والشرف والسمو والجمال والجلال ، الى آخر هذه النعوت المتداخلة التى لا تعين حدا ولا تبين مزية [٢] .

ولا أستطيع أن أترك هذا الكلام دون تعليق . فهذه الكلمات العربية التى استعملها العرب فى النقد والبلاغة ليست مبهمة ولا متداخلة ولا هى مما لا تعين حدا ولا تبين مزية . بل ان لكل كلمة معناها المحدد وايحاءها الجميل ، فقط يلسأل عن ذلك العارفون باللغة .

فالجزالة - مثلا - جودة الرأى وعظمه وفصاحة المنطق ، وفى المنجد : الجزل : الغليظ العظيم ، وجزل الرجل جزالة : صار جيد الرأى ، وجزل المنطق : فصح فهو جزل والجزل ضد الركيك من الألفاظ [٣] .

والرصانة - مثلا - معناها الاتقان والاحكام ، وفى المنجد : رصن الأمر رصنا : أتمه وأتقنه ، ورصن العقل وغيره رصانة : استحكم واشتد وثبت فهو رصين [٤] .

---

(١) المرجع السابق ٩٣ و ٩٤
(٢) المرجع السابق ٩٤ و ٩٥
(٣) المنجد ص ٩٠ . ط ٢٣
(٤) المنجد ص ٢٦٤ ط ٢٣

والطلاوة - كذلك - معناها الحسن والبهجة ، وفى المنجد : اطلولى اطليلاء : حسن كلامه ، والطلوة : بياض الصبح ، والطلاوة (مثلثة) : الحسن والبهجة ، يقال : " هذا كلام ما عليه طلاوة " اذا كان غثا لا ملاحة فيه[1].

واذا كنت قد اخترت هذه الكلمات الثلاثة وأوضحتها من المعاجم فلأنها قد تكون موغلة فى القدم الى حد ما أما بقية الكلمات كالسهولة والعذوبة والرقة والدقة . . . . الخ فهى كلمات قريبة الى الأذهان والأفهام يكاد يعرفها العامى والفصيح على السواء . وانى لأعجب كيف يراها الأستاذ الزيات شائعة الدلالة مبهمة المعنى وهو الذى أكثر من استعمالها فى أحاديثه هنا وهناك ؟ !! أما انه لو قال : أننا أسأنا استعمال هذه الكلمات فى النقد والبلاغة لكان أولى .

ويعود الاستاذ الزيات الى تلك الصفات المشتركة من جهة الأسلوب فيرى أنها لا تخرج عن صفات ثلاثة هى جملتها وجماعها : وتلك الصفات الجامعة هى : الأصالة - الوجازة - التلاؤم .

وتذكرنا هذه الصفات الثلاثة بصفات أخرى ثلاثة أيضا هى : الوضوح - القوة - الجمال . فقد ذكرها الاستاذ الشايب واعتبرها صفات للاسلوب كذلك ذكرها من قبله أصحاب (البلاغة الواضحة) ومن تبع طريقتهم بعد ذلك من مؤلفى الكتب المدرسية .

هذا وفى الامكان بقليل من النظر ارجاع صفة الأصالة الى الوضوح والقوة ، وارجاع الوجازة والتلاؤم الى الجمال . والله أعلم .

<u>الأصالة :</u>

يراد بالأصالة فى الأسلوب بناؤه على ركنين أساسيين من : خصوصية اللفظ وطرافة العبارة . وتلك هى الصفة الجوهرية للأسلوب البليغ والسمة المميزة للكاتب الحق . و ملاك الأصالة ألا تكتب كما يكتب الناس . ملاكها أن تكون أصيلا فى نظرتك وكلمتك وفكرتك وصورتك ولهجتك ، فلا تستعمل لفظا عاما ، ولا تعبيرا محفوظا ، ولا استعارة مشاعة .

---

(١) المنجد ص ٤٧٠ ط ٢٣

أما خصوصية اللفظ : فهى دلالته التامة على المعنى المراد ، ووقوعه الموفق فى الموقع المناسب . وآية مطابقته لمعناه ومبناه أنك لا تستطيع أن تبدله ولا أن تنقله . والخصوصية فى اللفظ أصل الدقة فى التعبير ، والوضوح فى المعنى ، والصدق فى الدلالة . . . . والكلمة فى الجملة كالقطعة فى الآلة ، اذا وضعت فى موضعها على الصورة اللازمة والنظام المطلوب تحركت الآلة والا ظلت جامدة . . . . ويضرب الزيات مثلا لذلك بما ورد . . . أن ابن هرمة سمع أديبا ينشد قوله :

بالله ربك ان دخلت فقل لها   هذا ابن هرمة (قائما) بالباب

فقال له : لم أقل (قائما) أكنت أتصدق ؟ ! ، قال : (قاعدا) ؟ قال : أكنت أبول ؟ قال فماذا ؟ قال : (واقفا) . وليتك علمت ما بين هذين من قدر اللفظ والمعنى[1] . ذلك مثال من أمثلة كثيرة تريك كيف يميز الفنان اللفظ ويختاره ، وتمييز اللفظ واختياره شديدان على من لم يؤته الله العلم بمعانى الألفاظ والبصر بفروق المعانى . ولم يقع صاغة الكلام فى البهرج والزيف الا بمجافاة الذوق ومخالفة اللغة .

أما الركن الأخير وهو طرافة العبارة : فأسه الابتكار فى حكاية الخبر وتصوير الفكر وتقويم الموضوع . وهيهات أن تحدد الجملة المبتكرة التى تثير الاعجاب وتحدث الأثر وتحرك الفتنة الا اذا وجدت الكلمة الخاصة التى تحدد الفروق وتجدد العلاقة وتبعث الحركة .

والأسلوب - كما يرى الزيات - خلق مستمر : خلق للفكر بطرافته ، وخلق للترتيب بتنسيقه وتشويقه ، وخلق للأداء بألفاظه ولهجاته وصوره . وعلى قدر ما يتضح الخلق فى الكتابة تتضح العظمة فى الكاتب .

ما تحققه الأصالة فى الأسلوب :

ويعود الزيات الى الحديث عن الأصالة - بعد ما استطرد فى خصوصية اللفظ وطرافة العبارة - فيقرر أن الأصالة هى الكلمة الخاصة والعبارة الجديدة .

---

(١) القيام يقتضى الثبوت والدوام ، والوقوف لا يقتضيهما تقول : وقف الحجيج بعرفة ولا تقول : قام .

وبخصوصية الكلمة وجدة العبارة تتحقق (الطبيعة) في الأسلوب . وليست (الطبعية) أن ترسل الكلام على سجيتك من غير روية ولا تنقيح ، انما الطبعية نتيجة النظر الطويل والجهد المتصل فهي على الرغم من اسمها تكسب ولا توهب .

وأقول : اذا كان من المعلوم أن (الطبعية) موهبة لا كسب فلماذا يرغم الزيات الكلمة على عكس معناها مهما قال في تبرير ذلك ؟ ! وهل ضاقت العربية بالأسماء المناسبة ؟ !

ومن الطبعية بمعناها الفني تكون (الدقة) . وما الدقة الا ترك فضول الكلام وتوخي صواب اللفظ . . . . . .

والدقة المشتقة من الطبع سبيل (الوضوح) . لأن غموض الكلمة ينشأ من غرابتها أو اشتراكها ، وغموض الكلام ينشأ من تعقده أو فساده . والغرابة والاشتراك والتعقد والفساد هي الأضداد الطبيعية لمعاني الأصالة[1] .

ذلك مجمل القول في " الأصالة " وما تضمنته من صفات الدقة والصحة والصدق والطبعية والوضوح[2] .

والأصالة بهذه الصفات التي ذكرها الزيات انما تتناول الجانب اللفظي من الأسلوب و " كان من حق الأصالة في الشعور والتفكير أن تنال من الاستاذ ما نالته الأصالة في الأسلوب والتعبير . فالمعاني والأحاسيس ليست شائعة ملقاة على جانب الطريق ، والا فأين تذهب الطبائع الأصيلة الممتازة التي ترى الدنيا والأشياء بعين خاصة فاذا هي تعيش في كون خاص بها من صنع أحاسيسها وتفكيرها ؟ تلك فلتة من فلتات الحماسة للبلاغة من صاحب (دفاع عن البلاغة) يرد بها الغلو في انكار قيمة التعبير فيجعل المزية كلها للتعبير "[3] .

---

(١) دفاع عن البلاغة ص ٩٥ - ١٠٣ بتصرف

(٢) المرجع السابق ص ١٠٣ .

(٣) مقال (على هامش النقد) لسيد قطب - الرسالة العدد ٦٧٦ ص ٦٦٥

الوجـــــازة :

(اذا كانت الأصالة هى الصفة الجوهرية للأسلوب البليغ ، والسمة المميزة للكاتب الحق ، فان الوجازة باجماع الرأى هى حد البلاغة .

واذا كانت الوجازة أصلا فى بلاغات اللغات ، فانها فى بلاغة العربيـــة أصل وروح وطبع . . . يظهر ذلك فى مثل قولك : (قتل الانسان) فان الفعـل فى هذه الجملة يدل بصيغته الملفوظة وقرينته الملحوظة على المعنى والزمــن والدعاء والتعجب وحذف الفاعل ،وهى معان لا تستطيع أن تعبر عنها فى لغـة أوربية الا بأربع كلمات أو خمس " .

وللزيات فى التفصيل رأى خاص فهو يرى أن : " التفصيل اذا سلم مــن اللغو ،كان كالاجمال اذا برئ من الاخلال ،وكلاهما حسن فى موقعه بليـغ فى بابه . وقد يكون التفصيل من الايجاز اذا قدر لفظه على معناه ، فـــان الايجاز الذى نعنيه أن يدل اللفظ على المعنى ولا يزيد عليه : فان كان ناقصا عنه فهو ايجاز الحذف والقصر ، وان كان مساويا له فهو ايجاز التقدير والمساواة" .

ويذهب الزيات يوضح قصده فيقول : " انما أقصد بذكر الاجمال والتفصيل الى أن الأسلوب العربى الأصيل موسوم بالوجازة من أصل النشأة ، لأنه أسلوب أمة صافية الذهن دقيقة الحس سريعة الفهم ، تشعر بقوة ،وتعبر بقوة ، وتفهم بقوة . وقوة الروح والقلب ، وقوة العقل والخلق ، تلازمهما قوة اللسان والقلم ،أى البلاغة. والبلاغة والايجاز ، والايجاز امتلاء فى اللفظ وقوة فى الحبك ،وشدة فى التماسك ."

وراح الزيات يلتمس أمثلة كثيرة للوجازة نختار منها قوله " كان سيد البلغاء محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم يكره أن يجاوز الكلام مقدار القصد به ، فقد تكلم رجل عنده فأطال ، فقال له : " كم دون لسانك من حجاب ؟ قال : شفتاى وأسنانى . فقال له الرسول : ان الله يكره الانبعاق فى الكلام . فنضر الله وجه رجل أوجز فى كلامه واقتصر على حاجته " .

وقيل لاياس : " لا عيب فيك الا أنك تطيل . قال : أخيرا تسمعون أم شرا ؟ قالوا : خيرا . قال : فالزيادة في الخير خير " . روى ذلك الجاحظ وعقب عليه بقوله : " وليس الأمر كما قال اياس ، فان للكلام غاية ، ولنشاط السامعين نهاية ، وما فضل عن مقدار الاحتمال ، ودعا الى الاستثقال والملال ، فذاك الفاضل هو الهذر ، وهو الخطل ، وهو الاسهاب الذى سمعت الحكماء يعيبونه ".(١)

وكان أمراء النثر العربى من أمثال جعفر بن يحيى وسهل بن هرون يتوخون جانب القصد ، ويؤثرون طريق الايجاز ، حتى قال جعفر للكتاب : " ان استطعتم أن تجعلوا كتبكم كلها توقيعات فافعلوا ".(٢)

ونحن مع الاستاذ الزيات فى أن الايجاز أصل من أصول البلاغة العربية ، ولكنه ليس الأصل الوحيد ، فالبلاغة فيها الاطناب والمساواة كما فيها الايجاز ، ولكل واحد من الثلاثة دواعيه وأسبابه ، وذلك أعرف وأشهر من أن نقرره أو نؤكده . والقرآن الكريم الذى استشهد الاستاذ ببعض آياته على الايجاز ، فيه كذلك آيات أخرى بنيت على الاطناب أو المساواة حسب الغرض الذى سيقت له الآيات . فلماذا ذكر هذا وأنكر ذاك ؟ " أتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض " ؟ . ولعل السبب فى ذلك ما ذهب اليه الزيات من مفهوم خاص عن الايجاز فأدخل فيه المساواة كما بينا ذلك من قبل ، بل أدخل فيه الاطناب كذلك فقال : " والتفصيل اذا سلم من اللغو كان كالاجمال اذا برىء من الاخلال . . . "(٣)

---

(١) البيان والتبيين ص ١٠٦

(٢) دفاع عن البلاغة ص ١٠٣ - ١١٥ بتصرف

(٣) " " " ص ١٠٤

التـــــلاؤم :

وهو الصفة الثالثة والأخيرة من صفات الأسلوب الجامعة .

والتلاؤم يعنى عند الزيات الموسيقية أو (الهرمونية) . وهذا التـــلاؤم يفتح صفحة هامة من قضية البلاغة ، ويثير غبار تهمة " تريب المتهم ، وتعتســـف الدليل ، وتنكر الذوق ، وتنزل القيم الفنية منزلة العبث . تلك هى تهمة اللفـظ بالأناقة ، والتركيب بالموسيقى ، والأسلوب بالرفعة . ولو كانت هذه التهمـــة الجريئة تقصد الجمال المزيف والحسن المجتلب لما حك فى الصدور من ناحيتهـــا شئ ، ولكنها تقصد التعبير الجميل الذى يتميز به كلام الأديب من كلام الناس. "

وينبرى الزيات مدافعا عن البلاغة وجمال الأسلوب فيقول : " لماذا يثورون على تنميق الكلام بدعوى أن الغرض منه الفهم والعلم ، ولا يثورون على تزيين الطعام وتحلية الهندام وتزويق المسكن ، والغرض الأصيل منها الغذاء والوقاء ؟ . . . .

واذا كان أحدهم لا يحب أن يلبس الثوب المرقع ، ولا أن يسكن الكـــوخ النابى ، ولا أن يتزوج المرأة المسيخة ، ولا أن يسلك الطريق الوعر ، ولا أن يركب المركب الخشن ، فلماذا يكره أن يسمع الكلمات العذبة ، والفقر المنسقة ، والجمل الموزونة ، والأصوات المؤتلفة ، والنظر والسمع فى هذا المقام سواء . . . " وجميع جوارح البدن وحواسه تسكن الى ما يوافقه ، وتنفر مما يضاده ويخالفه . والعـــين تألف الحسن وتتقذى بالقبيح ، والأنف يرتاح للطيب وينفر للنتن ، والفم يتلـــذذ بالحلو ويمج المر ، والسمع يتشوف للصوت الرائع وينزوى عن الجهير الهائل ، واليد تنعم باللين وتتأذى بالخشن ، والفهم يأنس من الكلام للمعروف ، ويسكن للمألوف ، ويصغى الى الصواب ، ويهرب من المحال وينقبض عن الوخم ، ويتأخر عن الجافـــى الغليظ . ولا يقبل الكلام المضطرب الا الفهم المضطرب والروية الفاسدة[1]

والحق الصريح أن الذين يدعوننا أن نكتب كما نتكلم انما يزورون حقيقـــة الفن فيهم بنقيصة العجز منهم ، بدليل أنهم يجدون فى أنفسهم حلاوة الرضـــا ان وقعت فى كلامهم عفوا كلمة أنيقة أو جملة رشيقة أو سجعة محكمة . . . . .

---

(١) الصناعتين ص ٤٨

من ذلك نعلم أن جمال العبارة ، وجلال الأسلوب ، من الصفات المشتركة فى الناس ، تتفق فى الوجود والمظهر ، وتختلف فى الطاقة والدرجة . فالعامة يستعملون الوزن والسجع والجناس متى جاشت فى صدورهم عاطفة أو جرت على ألسنهم حكمة ، فمواويلهم وأناشيدهم وأغانيهم موزونة أو موقعة ، وأمثالهم وحكمهم وضوابطهم مزدوجة أو مسجعة . وكلما سمت الطبقة واتسعت الثقافة وصدق الشعور وصفا الذوق وأرهفت الأذن ، سما الأسلوب من الجميل الى الأجمل ، ومن الجليل الى الأجل ، حتى يبلغ الأوج عند كلام الله .

ان جمال اللفظ وطلاوة التعبير تابعان لقوة العاطفة وجلالة الموضوع لا فرق فى ذلك بين أدب العامة وأدب الخاصة "(١)

وبعد هذه الجولة فى الدفاع عن الجمال الفنى والصياغة الفنية يعود الزيات الى التلاؤم فى حقيقة معناه وطبيعة مداه . فيقول " التلاؤم كلمة جامعة لكل وصف لابد منه فى اللفظ ليكون الكلام خفيفا على اللسان ، مقبولا فى الأذن ، موافقا لحركات النفس ، مطابقا لطبيعة الفكرة أو الصورة أو العاطفة التى يعبر عنها الكاتب أو الشاعر .

فالتلاؤم من حيث القبول فى الآذان والخفة على اللسان ، يكون فى الكلمة بائتلاف الحروف وتوافق الأصوات وحلاوة الجرس . ويكون فى الكلام بتناسق النظم وتناسب الفقر وحسن الايقاع . ومن هنا تنشأ السلاسة والعذوبة والطلاوة والرخامة ، وانسجام التراكيب ومتانة الحبك ، وكل صفة تنفى عن الكلام التنافر والنبو القلق والتعسف والتعقيد والهلهلة والركاكة والغثاثة والحوشية والجفوة . ومدار ذلك على الذوق الفنى السليم ، والاذن الموسيقية المرهفة . . . .

وأما التلاؤم من حيث موافقة الكلام لحركات النفس ومطابقته لصور الذهن ، فيكون بتقطيعه فقرا وفواصل تقصر أو تطول تبعا لحالات النفس والفكر . فلكل عاطفة درجتها من الابطاء أو الاسراع ، ولكل صورة طبيعتها من الظهور أو الضمور ومن القوة أو الضعف . قد تكون أشعة الالهام كومضات البرق تتعاقب على الذهن

---

(١) دفاع عن البلاغة ص ١١٦ - ١٢١ بتصرف .

بسرعة ، وقد تكون عواطف النفس فائرة تجيش بالألم أو تضطرم باللذة ، وحينئذ تكون الفقر القصيرة أنسب الصور للتعبير عنها . . . وقد تكون المعانى رزينة بطبيعة موضوعها لتوخيها الافادة أو الاقناع أو الشرح ، فتقتضى الأسلوب المرسل أو المفصل . . .

وتقطيع المنثور من الكلام جملا أو فقرا أو فواصل عمل بلاغى تقتضيه حالة النفس وحركة الذهن وطبيعة التنفس . . وهذا التقطيع له هندسة وموسيقى ملاكهما التلاؤم بين أجزاء الفقر وفواصلها . فان كانت الفواصل متعادلة فهو التوازن ، وان كانت متماثلة فهو السجع .

الموسيقى بين السجع والازدواج :

والتوازن - ويسمى الازدواج - موسقة فطرية فى نفوس العرب جعلوا بها النثر أشبه بالنظم فى جمال الوصف وحسن الاقناع . فهو صفة ملازمة من صفات الأسلوب لا تكاد تنفك عنه فى جميع أغراضه ومختلف صوره . وهو فى ذلك يخالف السجع ، فان للسجع موضوعات ومواضع لا يطلب الا لها ، ولا يحسن الا فيها ، ولذلك يقبل فى غرض دون غرض ، ويجمل فى صورة دون صورة . . . قال أبو هلال فى الصناعتين : " لا يحسن منثور الكلام ولا يحلوا حتى يكون مزدوجا . ولا تكاد تجد لبليغ كلاما يخلو من الازدواج . . . " . وقال فى موضع آخر " واعلم أن الذى يلزمك فى تأليف الرسائل والخطب هو أن تجعلها مزدوجة فقط ، ولا يلزمك فيها السجع ، فان جعلتها مسجوعة كان أحسن ، مالم يكن فى سجعك استكراه وتنافر وتعقيد " .

فالازدواج على اطلاقه ، والسجع على تقييده ، يؤلفان الموسيقية فى الأسلوب البليغ منذ كان للعرب ذوق وللعربية أدب . . . .

وأقطع الحجج على أن الازدواج والسجع من لوازم الأسلوب العربى ان القرآن وهو " كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير " قد تجوز فى بعض الألفاظ والصيغ محافظة عليهما . قال شمس الدين بن الصائغ فى كتابه (احكام الرأى فى أحكام الآى) : " وتتبعت الأحكام التى وقعت فى آخر الآى مراعاة للمناسبة فعثرت منها على نيف وأربعين حكما " نذكر منها على سبيل المثال :

- تقديم ما هو مؤخر في الزمان نحو: ولله الآخرة والأولى
- تقديم الصفة الجملة على الصفة المفرد نحو : ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا .
- تقديم الضمير على ما يفسره نحو : فأوجس في نفسه خيفة موسى
- تذكير اسم الجنس مرة وتأنيثه مرة أخرى نحو : أعجاز نخل منقعر ، وأعجاز نخل خاوية
- الافراد في موضع التثنية نحو : فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى
- تغيير بنية الكلمة نحو : طور سينين ، بدلا من طور سيناء .
- وضع اسم المفعول موضع اسم الفاعل نحو : حجابا مستورا ، بدلا من ساترا .

كذلك نجد في كلام أفصح العرب وسيد البلغاء مثل ذلك ، فقد كان صلى الله عليه وسلم يغير الكلمة لتلائم أختها في مثل قوله : " أعيذه من الهامة والسامة ، وكل عين لامة " أي ملمة . أو في قوله : " ارجعن مأزورات غير مأجورات " وانما أراد موزورات من الوزر .

فلو كان الازدواج نافلة ، والسجع فضلة ، لما كان لهما هذه المنزلة من كتاب الله وحديث رسوله ".(١)

ونحن لا نجادل الأستاذ الزيات في أن السجع والازدواج أساسان من أسس النثر العربي المأثور . . ولا نجادله في أن فيهما جمالا حين يحسن استخدامهما . ولكن هذا لا يعني أنهما مفروضان ضربة لازب على الأساليب العصرية . . ولا أتردد في الجهر بأن القرآن لم يستخدم السجع والازدواج في كافة أغراضه ، بل استخدمهما في المواضع الخطابية التأثيرية ، وفي هذه المواضع وأمثالها دون سائر الأغراض يحسن السجع والازدواج .

فاذا خطر لنا أن نتأثر أسلوب القرآن ، فلنعرف مواضع كل طريقة من طرق الأداء فيه ، ولنفرق بين السمات المطردة فيه ، والسمات الخاصة بموضع دون موضع.(٢)

---

(١) دفاع عن البلاغة ص ١١٦ - ١٣٨ بتصرف
(٢) من مقال (على هامش النقد) لسيد قطب ـ الرسالة : العدد ٦٧٧ ص ٦٩٢

والآن .. هل آن لنا أن نتساءل بماذا في "دفاع عن البلاغة" من تجديد؟ فهذا هو ما يهمنا بالدرجة الأولى .

الواقع أننا أشرنا أثناء دراستنا لدفاع الزيات عن البلاغة الى الافكار الجديدة التي تضمنها هذا الدفاع ، ولكننا هنا نحب أن نضم شتاتها ، ونعيد النظر في أمرها .

ذلك أن دفاع الزيات عن البلاغة لم يكن دفاعا مباشرا كدفاع الدكتور أحمد بدوى عندما رد على من عابوا على البلاغة وقوفها عند حدود الجملة والجملتين ، وعندما تحدث عن رسالة البلاغة وأنها قد أدت رسالتها خصوصا فيما مضى[1] .

وكدفاع العقاد عندما رد بحماسة وعنف على من عابوا التقسيم الثلاثي لعلوم البلاغة ورأوا أنه وقف بها عن التطور والتوسع[2] .

وكدفاع الدكتور عباس حسن عن السكاكي وكيف أنه خدم البلاغة خدمة جليلة بما وضع لها من قواعد وأصول جمعت شتاتها ولمت شملها وجعلتها علما قائما بذاته ومستقلا بنفسه[3] .

وكدفاع الأستاذ أحمد موسى عندما رأى أن ما قدمه السكاكي للبلاغة من تنسيق وتبويب عمل عظيم يحمده له التاريخ[4] .

وكدفاع الدكتورة سهير القلماوى عندما أعفت السكاكي من مسئولية جمود البحث البلاغي وتعقيده ، وألقت بالمسئولية على سنة الحياة والتطور[5] .

كل ذلك كان دفاعا مباشرا ، لكن دفاع الزيات - كما يلوح لي - كان دفاعا غير مباشر .

---

(١) أنظر ص ٤٨٤ من هذا البحث
(٢) أنظر ص ٤٨٦ " " "
(٣) أنظر ص ٤٨٧ " " "
(٤) أنظر ص ٤٨٧ " " "
(٥) أنظر ص ٤٨٨ " " "

لم يكن الزيات يرد على أحد بالذات ، وانما كان يدافع عن البلاغة بصفة عامة ، ويدفع عنها تهمة القصور والجمود والفشل ، ويلحق هذه التهمة بأسباب ودواع جدت في العصر الحديث . ثم ذهب يتحدث عن البلاغة التي يعرفها ويدافع عنها ، ويوضح - كما في تصوره - حقيقتها وجوهرها . ولقد شغل الأستاذ الزيات بهذا الدفاع ، وانصرف اليه ، واستغرق فيه ، فلم يفكر في وضع خطة أو منهج جديد للبلاغة ، واكتفى بأن يكون مدافعا لا معلما ، وموجها لا قائدا .

وحديث الزيات عن أسباب التنكر للبلاغة حديث جديد ، فالسرعة والصحافة والتطفل أمور جديدة لم يلتفت اليها أحد من قبل في مجال البحث عن أسباب تأخر البلاغة . والأسباب التي كنا نعرفها من قبل وكان لها أثرها في تأخر البلاغة هي طريقة المدرسة الكلامية من شيوع الفلسفة والمنطق في كتب البلاغة وطريقة تدريسها .

والأسباب الجديدة التي ذكرها الزيات جديرة بالنظر والتأمل ، لأنها أمور متوغلة في حياتنا ، ونعيشها رغما عنا ، وأثرها فينا بعيد الغور كبير الخطر .

ان القضاء على الأسباب القديمة من شيوع الفلسفة والمنطق في تعليم البلاغة وكتبها أمر سهل جدا بالنسبة الى الأسباب الجديدة التي نجد القضاء عليها من الصعوبة بمكان . فمن ذا الذي يستطيع أن يتخلص من السرعة وقد ضربت أطنابها في هذا العصر ؟ أو يتجاهل أثر الصحافة أو يقضي عليها أو يعدل في نظامها وتحريرها ؟ بل من ذا الذي يستطيع أن يتخلص من التطفل والطفيليين وقد كثر عددهم وانتشروا كالذباب في كل مكان ؟

لقد كان الزيات على صواب حين سماها : البلايا الثلاث - واذا كنا نريد أن ننهض بالبلاغة ونجددها فلابد أن نجعل في اعتبارنا ونضع نصب أعيننا هذه الأسباب ، ونتلمس لها العلاج قدر الامكان ، اذ لابد للبلاغة الجديدة - في رأيي - أن تكون محصنة ضدها . فدرهم وقاية خير من قنطار علاج .

كان هذا أول الجديد في دفاع الزيات عن البلاغة .

أما الثاني : فقد كان حديث الزيات عن البلاغة التي يعنيها ويدافع عنها وهي البلاغة الفنية . ولكن الزيات ربط بين علم البلاغة وفنها ، وتحدث مدافعا عن كليهما معا ، وخلصنا من دراستنا هناك الى نتيجة حتمية وحقيقة واقعة ، وهي أن البلاغة الفنية والبلاغة العلمية أصبح كل منهما لا يستغنى عن الآخر ولا ينفك عنه ، وأصبح الحديث عن أحدهما يفرض الحديث عن الآخر ، ومن الخطأ الفصل بينهما في درس البلاغة الجديد .

أما ثالث الجديد . فهو ما وجدناه في حديث الزيات عن الذوق ، وأنه لم تؤت البلاغة الا من فساد الذوق فيمن يكتب وفيمن يقرأ ، ولقد لمس الزيات وترا حساسا في دفاعه عن البلاغة حين قال : ان مستقبل البلاغة منوط بتغلب الذوق الطبيعي المأثور على الذوق المزيف المستحدث . وذهب الزيات في نظرته للذوق الى أبعد من ذلك حين رأى أن سلامة القومية العربية موقوفة على سلامة الذوق وتغلبه . وأضفت هناك : أن سلامة العقيدة موقوفة كذلك على سلامة الذوق وتغلبه . فأمر الذوق اذن جد خطير ، والعناية به وبتربيته وتثقيفه ليس واجبا بلاغيا فحسب ، ولكنه واجب قومي وديني كذلك .

وكان الحديث عن الأسلوب وصفاته من الأصالة والوجازة والتلاؤم رابع ما وجدنا من الجديد في دفاع الزيات عن البلاغة . والأسلوب في حد ذاته أمر جديد ، ودراسة أدبية مستحدثة ، وان كان له جذور في القديم كما أوضحنا ذلك في مكانه . ولكن الصفات الثلاثة للأسلوب التي ذكرها الزيات وتحدث عنها صفات جديدة في تكوين الأسلوب البلاغي ، وان كان بعض القدماء مثل العسكري والرماني وابن سنان - تحدث عن التلاؤم لكنه حديث عابر ليس في سعة حديث الزيات وافاضته . وهذه الصفات الثلاث من الأصالة والوجازة والتلاؤم ربطنا بينها وبين صفات الأسلوب الثلاثة - التي ذكرناها سابقا - من الوضوح والقوة والجمال والتي اقترحنا أن تكون أساسا لدرس البلاغة الجديد ، وأوضحنا كيف يكون ذلك في مكانه من البحث .

ولعل الحديث عن الأسلوب - من وجهة نظر البعض - لا يعد جديدا ، وذلك لشيوع الحديث عنه فى الآونة الأخيرة . ولكننا نقول : ان الحديث عن الأسلوب سيظل جديدا متجددا حتى تضمه البلاغة الى خطتها ومنهجها الجديد .

وبعد : فان حديث الزيات عن البلاغة كان دفاعا غير مباشر - كما أوضحنا من قبل - ، وكان دفاعا عن بلاغة جديدة لا تفصل بين العقل والذوق ، ولا بين الفكرة والكلمة ، ولا بين المضمون والشكل . بلاغة مزجت بين العلم والفن ، فصار كل منهما يستمد وجوده من الآخر . وعلى المتطفلين فى ميدان البلاغة ومجالاتها أن يعرفوا ذلك ، وأن يأخذوا أنفسهم بآلة البلاغة ووسائلها ان كانوا يريدون أن يكونوا بلغاء .

وعلى أساس أن الزيات كان يدافع عن بلاغة جديدة أو يدعو اليها ، فاننا نعتبر الزيات من الدعاة الى تجديد البلاغة . واذا كان لم يضع منهجا أو خطة جديدة للبلاغة ، فان فى دفاعه عنها ملامح خطة أو منهج ، وأسلوب الزيات فى كتابته صورة حية مما يدعو اليه ، ويدافع عنه .

الفصل الثانى

هجوم على البلاغة

لم تكن الدعوات الى تجديد البلاغة كلها صادقة النية ، حسنة الطوية ، فقد كانت هناك دعوات مغرضة تهدف الى هدم اللغة ، والقضاء على البلاغة باسم التجديد والتطور .

" قالوا ان بلاغتنا العربية هي بلاغة الاعاجم وليست بلاغة العرب . يقصدون بهذا القول ان اعلام البلاغة العربية ليسوا من أصل عربي . وهي التهمة نفسها التي وجهها "رينان" الى الفلسفة العربية والحضارة العربية .

وقالوا ان بعض مباحث البلاغة العربية له نظائر في بعض المباحث النقدية او البلاغية عند الاجانب . أي ان هذه الامة العربية ليست بذات أصالة في ميدان البحث البلاغي . وبعض اصحاب هذه الدعوى يناقضون انفسهم اذ تراهم يدعون الى اغتنام كل فرصة للافادة أيا كان مصدرها ، في الوقت الذي يرون فيه ان افادة علماء البلاغة العربية من الثقافة الاجنبية يجعلها غريبة على الادب العربي والعقلية العربية ومن ثم لا تصلح مقياسا له مع هيامهم وولوعهم في ايامنا بتطبيق نظريات غربية لا تمت الى ادبنا وعقليتنا بسبب من الاسباب . . . . والمجدد عند هؤلاء من يتصيد خياله من خيال الغرب ، ومن يبعد عن أساليب لغته وأحاسيس قومه .

وقالوا : ان البلاغة العربية بمقاييسها التي انتهت الى ما رسم أبو يعقوب السكاكي في مفتاح العلوم قد تحجرت ولم تعد صالحة لارهاف الملكات التعبيرية الفنية ".(١)

ولا يخفى ما في هذه التقولات من ادعاء وبهتان وسوء طوية . ومن السهل على أي دارس ان يرد هذه الدعاوى .

فقولهم ان بلاغتنا هي بلاغة الاعاجم ليس غريبا علينا ، بل اننا نسمي بلاغة السكاكي ومدرسته بلاغة الاعاجم وذلك لان أصحاب هذه المدرسة هم فعلا من غير

---

(١) أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية والنقدية ص ١٠٩١ بتصرف د . طبانة ط ٢

العرب كما ان كتبهم جنحت عن طابع العربية فى الوضوح والافهام وتعمقت كثيرا فى مسائل الفلسفة والمنطق وعلم الكلام . وليس هذا بعيب يؤخذ علينا ولا على بلاغتنا ، بل انه لفخر ان يخصص هؤلاء العلماء وقتهم وجهدهم فى بحوث البلاغة والادب والنقد العربى بعد ان بهرهم الاسلام بروحه وثقافته فشاركوا العلماء العرب فى كثير من العلوم او الفنون .

ان معظم من الفوا فى النحو أعاجم ، ولم يقل أحد ان ذلك يعد انتقاصا للنحو العربى والنحاة ، فلماذا البلاغة بالذات ؟!

أما قولهم ان بعض مباحث البلاغة العربية له نظائر فى بعض المباحث النقدية أو البلاغية عند الاجانب فقد رد عليه د . طبانة بما كتبناه آنفا ، ونزيد عليه بأنه من الطبيعى أن تتشابه مباحث البلاغة فى كل اللغات تقريبا لانها تعبير عن مشاعر الانسان وأحاسيسه . هذا الى أن الغرب سبق واقتبس كثيرا من اصول علومنا وآدابنا وبنوا عليه علومهم وحضارتهم فلم نعب عليهم ذلك وتلك سنة الحياة وطبيعة النمو والتطور .

أما قولهم ان البلاغة العربية بمقاييسها التى انتهت الى ما رسم السكاكى قد تحجرت ولم تعد صالحة ، فنحن نعجب ونتساءل : هل السكاكى هو المؤلف الوحيد فى البلاغة العربية ؟ وهل لم يسمع هؤلاء عن الامام عبد القاهر ومقاييسه البلاغية .أو عن الجاحظ أو أبى هلال العسكرى وغيرهم .

والواقع أن اللوم فى ذلك علينا أكثر مما هو على الناقدين المغرضين ، فقد صبرنا كثيرا جدا على بلاغة السكاكى على الرغم من تواتر الشكوى منها ومن آثارها .

ان آثار مدرسة السكاكى فى علوم البلاغة لم تقتصر علينا فقط بأن باعدت بيننا وبين بلاغتنا ووضعت بيننا وبينها السدود والحدود فعزلتها عن الحياة ، بل انها كذلك أعطت الفرصة لبعض النقاد الاجانب وأشباههم من مثقفينا أن يطعنونا فى بلاغتنا ويتهموها ويتهمونا بالتأخر والجمود .

البلاغة العصرية وسلامة موسى :

ما سبق وذكرناه من هجوم على البلاغة ونقد لها أمر هين وليس بالغريب . ولكن الغريب حقا هو تلك البلاغة العصرية التى دعا اليها سلامة موسى ، وساق لها من الحجج والمبررات ما كاد يخدع الناشئة من أجيالنا والساذجين من القراء وأنصاف المثقفين .

وسلامة موسى ركب موجة الحملة على اللغة العربية وبلاغتها ، وتزعمها مدعيا الاصلاح والتجديد . وفيما أتى به سلامة من آراء وأفكار جديدة نجد عنجهية سواء فى كلامه عن لغتنا أو عن بلاغتنا . ولكننا فى هذا الفصل من البحث نقصر كلامنا على آرائه فى البلاغة ، ونرد عليه هجومه ، ونبين ما فيه من باطل واضطراب .

وبينما الدعوات الصادقة المخلصة الى تجديد البلاغة تتوالى من العلماء والأدباء ، وكلهم حرص وحدب على لغتنا وبلاغتنا وتراثنا ، اذا بسلامة موسى يطلع علينا بآراء جديدة غاية فى الغرابة والشذوذ . انه يدعونا الى بلاغة جديدة قوامها العقل والمنطق ، لا مخاطبة الشعور ، واثارة الانفعال والاحساس بالجمال . فالبلاغة القديمة فى نظره بلاغة تزاويق وبهارج ، وهى ترف ذهنى لا ضرورة له .

" ولذلك يجب أن يكون المنطق أساس البلاغة الجديدة ، وأن تكون مخاطبة العقل غاية المنشىء بدلا من مخاطبة العواطف . والبلاغة بفنونها المختلفة كما هى الآن فى لغتنا العربية تخاطب العواطف دون العقل وهذا ضرر عظيم . فاننا حين ننصح لأحد الشبان بأن يسلك السلوك الحسن فى الدنيا ، ويتخذ أسلوبا ناجحا فى الحياة ، نشير عليه بأن يجعل العقل والمنطق دون العاطفة والانفعال هدفه ووسيلته فى كل ما يعمل . ولكن البلاغة العربية فى حالها الحاضرة هى بلاغة الانفعال والعاطفة فقط . واذا جعلنا المنطق أساس البلاغة فاننا عندئذ نجعل قواعد المنطق ونظريات اقليدس مما يدرس للتفكير الحسن وهو الغاية الأولى للبلاغة ، ونبين قيمة الأرقام فى التفكير الحسن . ثم تأتى بعد ذلك الفنون ، وهى عاطفية انفعالية للترفيه الذهنى . ولكن يجب أن نذكر أن التفكير الدقيق بالمنطق أخطر وأثمن من الترفيه الذهنى بالفنون . واذا جعلنا المنطق أساس البلاغة فاننا سنبحث الكلمات من حيث معانيها ، ونبين كيف أن الناس كثيرا

ما يخلطون بين الشيء واسمه ، وأن هذا الخلط يشقيهم لأنه يبعدهم عن التفكير الناجح ، ويؤخر نجاحهم ، ويعطل المجتمع عن الرقي " . (١)

ماذا أقول في هذا الخلط العجيب !! بلاغة تخاطب العقل دون العاطفة وتعتمد على قواعد المنطق ونظريات اقليدس ، وتتعامل بالأرقام في التفكير الحسن .

ما هذا الهراء . . لقد ضجت البلاغة بالشكوى من بعض أساليب المنطق التي داخلتها ، ونادى الجميع - محافظون ومجددون - بتخليصها من هذه الشوائب المنطقية ، أفيكون علاجها في رأى الاستاذ الهمام أن نغرقها في المنطق ، ونضمها الى لغة الأرقام والحسابات ، وأن تصبح أحد العلوم الرياضية كالجبر والهندسة .

أولا يعلم هذا الكاتب النحرير أن الأسلوب نوعان : أدبي وعلمي ، وأن في الأسلوب العلمي مندوحة له ومجالا لأن يخاطب العقل كما يريد ويقنعه بالحجج والبراهين والمنطق ، دون اللجوء الى التأثير العاطفي ؟ أو يريد أن يجعل البلاغة كلها أسلوبا علميا بحتا !!

ثم اننا حين ننصح المتهور بالتعقل ، ونشير عليه بأن يجعل العقل والمنطق دون العاطفة والانفعال هدفه ووسيلته في كل ما يعمل ، حين ننصح الشاب المتهور الطائش بذلك ، لا نلقي عليه خطبة رنانة ، ولا نسمعه نصا أدبيا ، ولا قصيدة شعرية ، فبلاغتنا تقول : لكل مقام مقال ، ولذلك فمقتضى المقام أن نحدث هذا المتهور الطائش حديثا رزينا هادئا يعتمد على العقل والمنطق والاقناع أى نحدثه بالأسلوب العلمي ، وقد يقتضي المقام أن نمزج حديث العقل بشيء من العاطفة ، فيتعاون الاقناع والتأثير على تحقيق الغرض المراد من نصح الشاب وتهدئة ثائرته واعادته الى الصراط المستقيم والسلوك المتزن ، وهو ما يسمى بالاسلوب العلمي المتأدب . وهما - أى الاسلوب العلمي ، والاسلوب العلمي المتأدب - خلاف الأسلوب الادبي الذى يعتبره سادته الغربيون أرقى أنواع الأساليب ، وبه ترهف المشاعر وتسمو ، وترق الأحاسيس وترقى ، وتتناجى القلوب ، وتتعانق الأرواح ، ويصبح الانسان انسانا ملائكيا ، يحب الخير ويهفو اليه ، ويكره الشر وينبو عنه .

---

(١) البلاغة العصرية : ص ٥٣ ط ٤

والتفكير الحسن ليس هو الغاية الأولى للبلاغة كما يزعم سلامة موسى ، فكل انسان بالغ عاقل يستطيع أن يفكر تفكيرا حسنا ، كما يستطيع أن يفكر تفكيرا سيئا ، وهو فى كلتا الحالتين يعلم أن هذا التفكير حسن ، وذاك سيئ ، فكل الناس تعرف الخير والشر ، والحسن والسيئ ، والمعقول واللامعقول ، ولا يحتاج ذلك الى موهبة أو عبقرية .

أما غاية البلاغة - ان كان يريد أن يعرفها - فهى أولا : تكوين ملكة لادراك الاعجاز ، وثانيا : ادراك الجيد والردئ من الكلمات ، وثالثا : تأدية المعنى واضحا بعبارة صحيحة فصيحة لها فى النفس أثر خلاب مع ملاءمة كل كلام للموطن الذى يقال فيه والأشخاص الذين يخاطبون به ، أو هى باختصار : الكلام الفنى الممتع . وجميع تعريفات البلاغة قديما وحديثا تدور حول ذلك . أما أن غاية البلاغة هى التفكير الحسن فذلك ما لم يقل به أحد من قبل ولا من بعد .

واذا كان لنا أن نصحح للاستاذ معلوماته فاننا نقول له : ان التفكير الحسن هو الغاية من دراسة علم المنطق أو الفلسفة . كما أن بلاغة المنطق والأرقام موجودة فى لغتنا ، ولكن اسمها - كما يعرفه الجميع - الأسلوب العلمى .

ثم هل نسى هذا العالم الأريب أن سادته من علماء الغرب المحدثين قد جعلوا البلاغة فنا من الفنون الجميلة الخمسة وهى : النحت والتصوير والعمارة والموسيقى والأدب ، ولم يقل أحد منهم بهذه البلاغة المنطقية التى يدعو اليها ، والتى تعتمد على العقل والاحصائيات والأرقام .

ان دعوته هذه فكرة خاسفة " تهدم أساس الشعر والنثر والفنون الجميلة عامة ، لأن الفنون وليدة العواطف ، واستجابة لنوازع نفسية لا صلة للمنطق بها ، ولو أننا أخضعنا كثيرا من النصوص الأدبية التى تروقنا للمنطق لوجدناها هباء . فكلنا يعجب بقول المنخل اليشكرى :

وأحبها وتحبنى ويحب ناقتها بعيرى

ونطرب لقول جميل :

لكل حديث بينهن بشاشة وكل قتيل عندهن شهيد

وأى منطق فى هذا ؟ لو اتخذنا المنطق وحده دعامة للأدب لانقلب الى حقائق جافة لا خيال فيها ولا جمال ولا سحر ، ولكان أحرى به أن يسمى علما لا أدبا ، لأن خصيصة الأدب فى لغات العالم كلها أن معانيه خيالية ، وليس معنى ذلك أنها بمعزل عن منطق الحياة[1] .

لكن الكاتب النحرير كما رأينا (يوجب أن يكون المنطق أساس بلاغته الجديدة ، ويسمى البلاغة القديمة " بلاغة الانفعال والعاطفة " ، ويعود فينقض بنفسه كلامه السابق حين يرى أنه يمكن أن تستخدم بلاغة الانفعال والعاطفة ، أى البلاغة القديمة كما سماها ، فى التوجيه الاجتماعى للأمة ، ولكن مع الحذر من أن يعود هذا التوجيه دعاية سيئة لأحد المذاهب الضارة[2] . ثم يعود مرة أخرى فيقرر أننا نسىء الى اللغة العربية والى شبابنا أيضا ، اذ أننا نعلمهم مبادىء البلاغة العاطفية بالمجاز والاستعارة والتشبيه . لكى يصلوا منها الى التعبير الفنى أو الى الرفاهية الذهنية بدلا من مبادىء البلاغة العقلية بقواعد المنطق حتى يصلوا الى دقة التعبير وتوقى الالتباس . والنتيجة من هذه البلاغة العاطفية هى الضرر لأنها تحدث لهم اتجاها نحو التزاويق والبهارج ، فاذا طلب اليهم التفكير عجزوا[3] .

والذى نريد أن نصل اليه الآن هو الاجابة على السؤال التالى : هل يعترف الكاتب أن هناك فنا اسمه " الأدب " وفنيا اسمه " الأديب "[4]) .

فان اعترف فقد هدم كلما قاله عن بلاغة المنطق والعقل ، وان أنكر فقد أنكر شيئا مشهودا معلوما بالضرورة لكل مثقف وغير مثقف . وأنكر كذلك نفسه لأنه يعتبر نفسه صحفيا أديبا ويستعمل أسلوب الأدباء ويستخدم بلاغة الانفعال والعاطفة فى كتاباته ومقالاته . بل ان كتابه هذا "البلاغة العصرية" الذى يدعو فيه الى العامية والى بلاغة العقل والمنطق ونبذ بلاغة العاطفة والأساليب المجازية نجده -ويا للعجب- مكتوبا بالفصحى ، ومليئا بالأساليب المجازية !! فأين دعوته الى العامية؟ ولماذا لم يكتب بها ؟! وأين دعوته الى البلاغة المنطقية ؟ ولماذا لم

(١) مجلة الرسالة - العدد ٦٢٤ ص ٦٤٦ مقال د . الحوفى - البلاغة العصرية
(٢) البلاغة العصرية ص ٥٤
(٣) المرجع السابق ص ٥٥ و ٥٦
(٤) البيان العربى - ص ٢٩٦ - د . بدوى طبانة

يستعملها فى كتابته كنموذج تطبيقى لها خاصة وهو يدعونا اليها !! أليس هو أولى بتطبيقها كنموذج يحتذى فى بادئ الأمر !! وانى لأكاد أوقن أنه لو حاول ذلك لفشل ، ولجاءت كتابته جافة عجفاء شوهاء . ولكنه وهو يدعونا الى بلاغة المنطق والعقل يستعمل بلاغتنا التى لا تعجبه ، بلاغة العاطفة والمجاز . وعلى سبيل المثال :

يقول : " فلو أن جيته ولد فى قبيلة أفريقية لما استطاع أن ينتج الثمرات الزكية التى نقطفها من مؤلفاته لأن اللغة القبلية لم تكن عندئذ لتسعفه بالكلمات التى تؤدى معانيه بل كانت تبقى هذه المعانى أجنة تؤلمه بالمخاض ولا تجد المخرج من ذهنه أو تخرج جهيضة "(١) .

ويقول حينما تحدث عن اللغة والجنس فرأى أن الكلمات " أصوات نشأت بين البرمائيات كالضفدع لكى ينادى الذكر الأنثى ، وكانت غايتها الأولى لهذا السبب جنسية . بل ما زلنا نرى أغاريد الطيور التى تنضح بها الجو فى الربيع انما قصد بها فى الأغلب نداء الجنس الآخر للتناسل . والصوت يعبر عن العاطفة ولذلك يجب ألا نستغرب قول فرويد : ان الباعث الأول للنشاط البشرى هو الشهوة الجنسية ، ويجب ألا يصدمنا هذا القول ، لأن فرويد قد بصر من خلال هذا القول الى الجذور الأولى التى تختفى فى جوف التطور "(٢) .

وهكذا نجد سلامة موسى يدعونا الى نبذ الأساليب المجازية ، ويستعملها هو !! ومثله فى ذلك مثل عدو المرأة الذى يعشق المرأة ولا يستغنى عنها .

رأى سلامة موسى فى الأساليب البيانية :

ويزداد الاستاذ تناقضا فى منهجه ، ففى الوقت الذى يدعونا فيه الى نبذ الأساليب البيانية يدعونا الى استخدامها . فهو يدعونا الى استخدام كلمات العلوم الموجودة فى بيئتنا الاجتماعية باعتبارها الكلمات المجازية التى تتفق والمجتمع العلمى الذى ننشده .

---

(١) البلاغة العصرية ص ١٩

(٢) المرجع السابق ص ٢٧

" وفيما يلى بعض التعابير التى اشتققتها أنا - أى سلامة موسى - من اللغة العلمية على سبيل المثال :

- التفاعل بين اللغة والمجتمع	- كيميا ء
- الاستقلال هو بؤرة الاشتعال الوطنى فى مصر	- طبيعيات
- نعيش فى عصر متوتر بالمصاعب والمشكلات	- سيكلوجية
- اللغة هى الجهاز العصبى للمجتمع	- طب
- الحياة تفقد ايقاعها فى المرض	- موسيقا
- أول ما تجرثمت الفكرة عندى	- سيكلوجية
- يجب أن ننظر الى المستقبل ببصيرة تلسكوبية	- فلكيات
- يعانى تخمة ذهنية	- طب
- الايحاء أفعل من الاغراء	- سيكلوجية
- يمشى فى تثاقل روماتزمى	- طب
- يخشى الدنيا ويرى المصباح الأحمر أينما سار	- ميكانيات
- الحرب هى قاطرة التاريخ لأنها تعجل التطور	- ميكانيات "[1] .

أجل ، لقد دعانا الأستاذ الى استخدام هذه التعابير المجازية ، وقال : انها تتفق والمجتمع العلمى الذى ينشده !!

هذا بينما منذ قليل عاب علينا أننا " ما زلنا نلتزم عبارات مقتبسة يعافها الذهن الذكى . ومرجع هذه العبارات تلك البلاغة العاطفية الانفعالية التى تعلمناها وغرست فى نفوسنا قيمة مزيفة للاستعارة والمجاز . فما زالت صحفنا مثلا تقول :

- عرض على بساط البحث	بدلا من	عرض للبحث
- وخاض غمار القتال	" "	قاتل
- حمى وطيس القتال	" "	حمى القتال
- دارت رحى المعركة	" "	دارت المعركة

---

(١) البلاغة العصرية ص ١١٤ و ١١٥

- وضعت الحرب أوزارها	بدلا من	انتهت الحرب
- لتعزيز أواصر الثقة	›› ››	لتعزيز الثقة
- صب جام غضبه	›› ››	صب غضبه
- أطلق سراحه	›› ››	أطلقه
- نتجاذب أطراف الحديث	›› ››	نتحدث

وقل منا من يقول : الحرب الضروس أو الموت الزؤام . ولكن العبارات السابقة التى ذكرت لا تزال ترى كل يوم في جرائدنا ، على الرغم مما فيها من استعارات ومجازات يمكن أن نستغنى عنها . بل على الرغم من أنها كلمات تحتاج الى مجهود كبير لتفسيرها لصبياننا مثل : وطيس - أوزار - أواصر - جام - رحى . وفى استغنائنا عن هذه العبارات اقتصاد ذهنى ومادى . ويجب ألا يفهم القارئ أننا نعارض الاستعارة كائنة ما كانت ، ولكنا نعارضها حين يمكن الاستغناء عنها ...[1]

واذا كان الأمر كما يقول الأستاذ فانه قد وقع فيما يحذر منه ويعارض فيه ، فان معظم الاستعارات التى اشتقها - آنفا - من التعبيرات العلمية يمكن الاستغناء عنها . وعلى سبيل المثال يقول :

- الحرب هى قاطرة التاريخ لأنها تعجل التطور

يمكن أن تصبح العبارة - على رأيه - : الحرب تعجل التطور - ولا داعى للتشبيه .

- يخشى الدنيا ويرى المصباح الأحمر أينما سار	: يخشى الدنيا دائما .
- يمشى فى تثاقل روماتزمى	: يمشى متعبا
- يجب أن ننظر الى المستقبل ببصيرة تلسكوبية	: فلننظر الى المستقبل .

وهكذا .

والواقع أن سلامة موسى لا ينظر الى البلاغة ببصيرة تلسكوبية وهو يخلط فى كلامه ويناقض نفسه بين كل صفحة وأخرى .

---

(١) البلاغة العصرية ص ٧٥ - ٧٦

واذا كنت تريد أن تعرف بلاغة سلامة موسى على حقيقتها فتعال أعرض عليك نوعا من البلاغة المقدسة التي تعجبه والتي وردت ضمن بعض الأدعية التي وضعها ليتضرع بها أبناء طائفته الى الله . يقول :

" يا رب أنت الوابور واحنا العربيات ، جرنا بقدرتك الالهية الى ملكوت السماء . . . يا رب أنت الحنفية واحنا الجرادل ، املأنا من نعمتك "(١)

ليت شعرى كيف يجوز لمن يقول ذلك أن يتحدث فى البلاغة وأساليبها . بل كيف يجوز له أن يكون أديبا من لا يحسن فهم الشعر ويخطىء ويخلط فى تفسيره ، يقول : " ولأبى تمام شطرة من بيت كثيرا ما تذكرهى : (السيف أصدق انباء من الكتب .) . والواقع أن أبا تمام لم يقل كلمة هى أبعد عن الصحة والحقيقة من هذه الشطرة "(٢) ويقول فى مكان آخر : " كان أبو تمام شاعرا عربيا ، وكان ملتون شاعرا انجليزيا وقد قال الأول كلمته الكاذبة البشعة " السيف أصدق أنباء من الكتب "(٣) . ونتساءل فى عجب : لماذا ؟ ! فنسمع خلطا وهذيانا ثم جهلا . أما الخلط والهذيان فقوله : " لأن السيوف لا تتحرك الا للكلام الذى سبقها . والكلام هو القوة الروحية المتسلطة ، والسيف هو القوة المادية الخاضعة . أليس من الواضح أن السيوف انما جردت فى حروب العرب والرومان لأن كلا منهما كان يفكر بكلمات تحمل قوات ذهنية وروحية ونفسية تختلف عما كانت تحمله الكلمات الأخرى عند الفريق الآخر ؟ ثم انظر الى نابليون . لقد ضاع كل ما فتحه بالسيف فى أوربا وأفريقيا قبل أن يموت . أما الكلام الذى رتبه فى " قانون نابليون " فلا يزال حيا الى الآن . ولو أن نابليون عنى بالكلمات ولم يحتقرها ، لكان الى جنب سيوفه ومدافعه دعاية لمذهبه الجديد فى الحكم من حيث اتحاد أوربا والغاء النظام الاقطاعى . ولكنه أهمل هذه الدعاية ، ولذلك استطاع أصحاب الكلمات القديمة بزعامة " مترنيخ " أن يفوزوا عليه ، وأن يطفئوا نور العصر الجديد الى حين . . . . "(٤)

---

(١) شيوخ الأدب الحديث ص ١١٥ ـ حبيب الزحلاوى

(٢) البلاغة العصرية ص ٩١

(٣) المرجع السابق ص ٩٣

(٤) المرجع السابق ص ٩١ و ٩٢

وهكذا بعد بنا سلامة موسى عن شطر أبى تمام ، وخلط بينه وبين نابليون ومترنيخ وأوروبا ونظام الاقطاع والدعاية !! ونتساءل : أهذه بلاغة المنطق والعقل والأرقام ؟! أم أن هذا هو التجديد فى شرح النصوص !! هذا هو الخلط والهذيان . أما الجهل فهو قوله بعد ذلك : "وهل نسى أبو تمام أن المسيحية تركت كتابا ، وأن الاسلام ترك كتابا ، وكذلك فعلت سائر الأديان ، وأن هذه الكتب أصدق أنباء من السيف ؟ " (١)

وعجبى ... ان أى طالب فى الصف الثانى الثانوى لو سألته : ما المراد بالكتب فى شطر أبى تمام ؟ لقال على الفور : المراد بالكتب هنا كتب المنجمين . أجل .. كتب المنجمين فقط لا غير ، الذين يرجمون بالغيب ويدعون معرفة المستقبل وكان يجب أن يرجع الى كتب الأدب ليعرف حقيقة الموضوع قبل أن يقول ويقرر : أن المسيحية تركت كتابا ، وأن الاسلام ترك كتابا ، وكذلك سائر الأديان ، وأن هذه الكتب أصدق أنباء من السيف . فأبو تمام لم ينس ولم يخطىء ، ولكن المخطىء هو سلامة موسى .

فن البلاغة والحياة العصرية :

وسلامه موسى يلبس الحق بالباطل ، ويسوق باطله على وجه معقول ومنطق منسق ، فيقدم المقدمات ، ويستخلص النتائج ، ويريدنا أن نقتنع بما يقول . ولكن أنى للحق أن يخفى مهما حاول الباطل . أنظره يقول :

" انه ليس للحياة غاية سوى الحياة . وكل ما عدا الحياة انما هو وسائل للحياة . فاللغة والأدب والفن والبلاغة انما هى جميعها فى خدمة الحياة التى لها الاحترام الأول والمكانة المفضلة . فنحن نتعلم الفنون ، ونمارس البلاغة ، ونعنى بالثقافة ، كى نصل فى النهاية الى مستوى عال من الحياة . ولذلك لا نحتاج الى أن نشرح للقارىء أن بلاغة الحياة أهم وأخطر من بلاغة اللغة ، وأن أسلوب الحياة أجدر بالأولوية والتفضيل فى التعليم من أسلوب الكتابة ، وأن فن الحياة هو أشرف وأجدى الفنون على هذا الكوكب .

---

(١) المرجع السابق ص ٩٣

واذا جعلنا الحياة الشريفة السعيدة هدفا ، نوجه اليه فنوننا وعلومنا وعقائدنا ، فاننا نستطيع أن ننزع عن هذه جميعها تلك القداسة التي تحول بيننا وبين تنقيحها أوتغييرها. ويعود عندئذ "فن البلاغة" فنا تجريبيا مثل جميع الفنون . ويتغير كما تغيرت . فليس شك في أن التغير أو التنقيح قد عم فنونا كثيرة في عصرنا مثل الرسم أو النحت أو البناء . ولكن فن البلاغة (١) في اللغة العربية لم يتغير .

فحياتنا العصرية تختلف عن الحياة العربية قبل ألف سنة . فاذا كنا نسلم بأن فن البلاغة يجب أن يكون في خدمة هذه الحياة العصرية فانه يجب أن يتغير كي يخدمها . فلم يعد مجتمعنا في حاجة الى البهارج والزخارف البديعية نحطم رؤوس أبنائنا بتعلمها وممارستها . ولكنا في حاجة الى أن نجعل البلاغة فنا للتفكير الحسن السديد " (٢) .

ماذا يريد هذا الرجل ؟ ! وما له يخلط بين فنوننا وعلومنا وبين عقائدنا ثم يريد أن ننزع عنها جميعها تلك القداسة التي تحول بيننا وبين تنقيحها أو تغييرها . أما يكفيه أنه طعن في لغتنا وبلاغتنا حتى يريد - بحذر - أن يطعن في عقيدتنا ! ! ان الدعوة الى جعل اللغة والأدب والفن والبلاغة جميعها في خدمة الحياة أمر نقره وندعو له ونسعى اليه ، ولكن ليس بطريقة سلامة موسى ، طريقة السم في العسل ، ان بلاغتنا في حاجة الى التجديد ، نعم ، وليس ذلك بضائرنا ، فالدعوة الى التجديد تعالت بها أصوات كثير من العلماء الشرفاء المخلصين ، وكانت آراؤهم واقتراحاتهم موضع تقديرنا واحترامنا . أما أن تتخذ الدعوة الى التجديد طابع الهدم والتنديد بلغتنا وعقيدتنا فهذا ما لا نسمح به على الاطلاق .

ماذا يريد هذا الرجل من البلاغة الجديدة :

ويعود سلامة موسى بعد هذه المقدمات التي حاول فيها أن يلبس الحق بالباطل فيقول : ويجب أن نشرح غايتنا من البلاغة الجديدة :

١ - فهي قبل كل شيء التفكير المنطقي السديد الذي يؤمن فيه الخطأ .

٢ - تحريك الذكاء وتدريبه بالكلمات .

---

(١) نلاحظ هنا أن سلامة موسى لم يفرق في كلامه عن البلاغة بين العلم والفن وكأنه يقصدهما معا . وقد أشرنا الى ذلك من قبل في دفاع الزيات .

(٢) البلاغة العصرية ص ١٠٧ و ١٠٨

٣ - أن نعرف كيف نستعمل الكلمات للتفكير التوجيهي .
٤ - أن نعرف كيف نستعمل الكلمات للتحريك الاجتماعي .

فأما القاعدة الأولى وهي أن التفكير يجب أن يكون منطقيا ، فتقضي بدراسة كتاب موجز في المنطق . واذا كان اللورد هورد ر الطبيب الانجليزي ينصح لكليات الطب في بريطانيا بتدريس كتاب جيفونز في المنطق في السنة الأولى من الدراسة الطبية ، فاننا أحوج الى مثل هذه النصيحة في دراسة اللغة العربية في كلية الآداب أو في دار العلوم .

ويجب أن تكون الكلمات موضوعا لتدريب الذكاء اللغوى في التلميذ والطالب. ولن يستطيع مدرس اللغة أن يصل الى ذلك الا اذا كان موسوعي المعارف قد درس احدى اللغات الأوربية وأتقن علما عصريا .

والى هنا الفائدة سلبية ، وهي أننا لا نقع في الخطأ والالتباس . ولكن يجب أن نتعلم اللغة للفائدة الايجابية ، وهي الانتفاع بها في ايجاد الكلمات (الموطرية) التي تحرك الفرد والمجتمع . أى نعرف القيم (السيكلوجية) للكلمات وما فيها من شحنات عاطفية أو تنبيهات ذهنية . فاللغة علم وفن . هي علم من حيث أننا يجب أن نعرف كيف ننتقد المعاني وكيف نسبر المعاني في الكلمة. وهي فن من حيث قدرتنا على استعمال الكلمات كي تبعث التحريك الاجتماعي أو التنبيه الذهني أو العاطفي في الفرد أو الجماعة (١) .

واذا نظرنا الى ما ذكره المؤلف عن غايته من البلاغة الجديدة وجدنا عبثا وخلطا واضطرابا . فهي عنده قبل كل شيء التفكير المنطقي السديد الذى يؤمن فيه الخطأ ، واذا كانت تلك غاية البلاغة أولا وقبل كل شيء ، فما هي غاية المنطق اذن !! أليس ذلك خلط في الرأى واضطراب في التفكير .

أما الغاية الثانية وهي : تحريك الذكاء وتدريبه بالكلمات فليست تلك مهمة البلاغة وانما هي مهمة الأدب والنصوص والمطالعة والنحو أيضا فعلى قدر ما يعى الدارس ويستوعب من أساليب اللغة يتحرك ذكاؤه اللغوى ومن هنا قالوا : (احفظ ثقل ان الكلام من الكلام) . ولذلك كانت دراسة روائع الأدب وحفظ نصوصه من أهم الأمور في تجلية موهبة الدارس وصقلها .

---

(١) البلاغة العصرية ص ١٠٨ و ١٠٩

أما الغايتان الثالثة والرابعة وهما : كيف نستعمل الكلمات للتفكير التوجيهي ، وكيف نستعملها للتحريك الاجتماعي ، فهما يعودان أيضا الى ما قلناه في الغاية الثانية ، لأن استعمال الكلمات سواء في التفكير التوجيهي أو التحريك الاجتماعي انما يتولد وينبعث من كثرة ومداومة الاطلاع على روائع الأدب من شعر ونثر . وحتى ان كان يقصد بالتفكير التوجيهي الكتابة ، ويقصد بالتحريك الاجتماعي الخطابة ، فان كلا من الكتابة والخطابة انما يرجع أساسا الى صقل الموهبة عن طريقة الدراسة والممارسة لروائع النصوص الأدبية . وان كان يقصد بالتفكير التوجيهي الأسلوب العلمي ، وبالتحريك الاجتماعي الأسلوب الأدبي فان كلا الأسلوبين يحتاج أيضا الى التدريب اللغوي والممارسة .

وعلى كل فان أسلوب المؤلف غير محدد وغير واضح ولا شيء فيه يلفت النظر غير تلك الكلمات الجديدة التي يكثر من ترديدها مثل : الكلمات الموطرية ، القيم السيكلوجية ، السلبية والايجابية ، التنبيهات الذهنية . . . الى غير ذلك .

أما الغاية من البلاغة عنده فهي بعيدة كل البعد عن البلاغة العربية بل وعن غيرها من البلاغات . فلا يوجد - فيما نعلم - بلاغة عربية أو حديثة تقوم على المنطق وتخاطب العقل وتجافي العاطفة وغايتها التفكير الحسن .

والغريب - وما أكثره في هجوم سلامة موسى - أن المؤلف بعد أن جرد البلاغة من العاطفة ، وجرد اللغة من الأسلوب الأدبي ، وجعل كلا من البلاغة واللغة منطقا واحصاء وأرقاما ، يعود مرة أخرى فيناقض نفسه ويقول : " فاللغة علم وفن . هي علم من حيث أننا يجب أن نعرف كيف ننتقد المعاني وكيف نسبر المعاني في الكلمة ، وهي فن من حيث قدرتنا على استعمال الكلمات كي تبعث التحريك الاجتماعي أو التنبيه الذهني أو العاطفي في الفرد أو الجماعة " .

فهل بعد هذا اضطراب وخلط وتناقض ؟ ! !

يقول د . طبانة " ورأينا في هذا الكلام أنه ليس من طبيعة الأدب أن يلزم الأديب أو البليغ أن يكون أدبه منطقيا أو غير منطقي ، بل ان له أن يعبر تعبيرا جميلا عما يحس وعما يجد في بيئته مما يؤثر في نفسه ، أو يثير تفكيره أو عواطفه وانفعالاته .

ومجالات الأدب لا حد لها ، وانما المطلوب هو فنية التعبير "[1].

واذا كانت البلاغة - عند المؤلف - هى بلاغة العلم والمنطق والأرقام، فاننا نورد هنا أيضا ما قاله الاستاذ عباس محمود العقاد من " أن الكتابة الأدبية فن ، والفن لا يكتفى فيه بالافادة ، ولا يغنى فيه مجرد الافهام ، وعندى أن الأديب فى حل من الخطأ فى بعض الأحيان ، ولكن على شرط أن يكون الخطأ خيرا وأجمل وأوفى من الصواب . . . . "[2].

ومن المتناقضات الكثيرة فى آراء سلامة موسى، أو صحيحه أنه يعود فيفرق بين الكلمة الموضوعية والكلمة الذاتية ، أى بين الأسلوب العلمي والاسلوب الأدبى ، أنظره يقول : " ونحن فى تفكيرنا نتخذ أسلوبين : الأسلوب الموضوعى ، حين نتجرد من احساسنا الشخصى أو لا نجد له مجالا . كما لو قلنا ،كرسى أو أسد أو شمس أو شارع . فكلنا على وجه التقريب يذكر هذه الأسماء دون أى انفعال ، وكلنا سواء تقريبا فى ادراك صورها . . . . وهذه الكلمات موضوعية ،أى أنها غير متأثرة بذواتنا .و المفكر العلمى يحاول على الدوام الوصول الى هذا الاسلوب الموضوعى فى التفكير أى أنه حين يبحث مشكلة يتجرد من احساساته وميوله وما يحب وما يكره . ولكن هناك الأسلوب الذاتى ، أسلوب الأديب والفنان ، فرجل الأدب يتحدث عن المثليات أو الجمال أو الذوق أو العظمة . وهذه الكلمات جميعها ذاتية ، أى تعبر عن احساساته وانفعالاته . ولذلك نختلف فيها كثيرا . . . . "[3]

وهذا الكلام ليس بجديد طبعا ،ولكن الجديد أنه قاله بعد أن أنكر واستنكر الأسلوب الأدبى وحمل عليه وعلى بلاغة العاطفة والانفعال . وكعادته عاد فنقض هذا الكلام بطريقة مائعة . يقول : " والكاتب الذكى هو الذى يحاول

---

(١) البيان العربى ص ٢٩٤

(٢) مقدمة " الغربال " لميخائيل نعيمه بقلم العقاد ص ٨ دار المعارف - القاهرة .

(٣) البلاغة العصرية ص ٦٥ ، ٦٦

أن يكون علميا موضوعيا ، وليس عاميا ذاتيا . ولكن يجب أن نذكر أن اللغة ستحتوى على الدوام كلمات ذاتية تعبر عن الآداب والفنون ، وهي هنا ليست عامية ، ولكنها تعبر عن ذاتية ممتازة ".(١) ثم يقول : " والتفكير السديد ينقلنا ، أو يحاول أن ينقلنا ، من النظر الذاتى للاشياء الى النظر الموضوعى ، ومن الوصف المائع العام الى الوصف بالأرقام ".(٢)

وأقول : ليت المؤلف أراحنا من كلامه المائع ووصف لنا ما يريده بالأرقام فلعل ذلك كان يقنعنا ويقنع غيرنا بنظرية اللغة الرقمية .

ضرر البلاغة العاطفية :

ويحذرنا سلامة موسى من أضرار البلاغة العاطفية القديمة ، واساءة استعمالها ، فيقول : اننا (فى مصر نسىء الى اللغة العربية ، والى شبابنا أيضا ، حين نتخذ معهم طرقا عتيقة فى معالجتها يمكن تلخيصها فيما يلى :

١ - أننا نعلمهم مبادىء البلاغة العاطفية بالمجاز والاستعارة والتشبيه الخ .. كى يصلوا منها الى التعبير الفنى أو الرفاهية الذهنية ، بدلا من مبادىء البلاغة العقلية بقواعد المنطق ، حتى يصلوا الى دقة التعبير وتوقى الالتباس، والنتيجة من هذه البلاغة العاطفية هى الضرر ،لأنها تحدث لهم اتجاها نحو التزاويق والبهارج . فاذا طلب اليهم التفكير عجزوا .

٢ - هذه البلاغة العاطفية قد حملت المعلمين على الاكبار من شأن الاقتباس ، حتى اننا كثيرا ما نرى فى كتب الانشاء التى يتداولها التلاميذ عناية المؤلفين بما يسمونه " الجمل المختارة " . وهى عبارات تحتوى كلمات لها بريق أو رنين أو ضجيج . والتلميذ الذى يكلف استظهارها انما يفعل ذلك على حساب تفكيره . فكأننا نقول له " لا تنظر الى هذه الدنيا بروح الباحث المتفهم المفكر ، وانما استظهر العبارات المزخرفة وتكلف التزاويق لأنها أحسن ما يمكنك أن تعبر به فى الانشاء " . ونحن فى هذا التوجيه نحمله على العناية بالقشور ،بل بما هو أتفه منها ، وترك اللباب ، أى التفكير السديد .

---

(١) المصدر السابق .
(٢) المصدر السابق ص ٦٧

٣ - وضرر ثالث هو أيضا نتيجة لما ذكرناه ، نعني به العناية بالأسلوب، ومحاولة التلميذ أو الطالب أن يتعلم أساليب الأقدمين ويحاكي أحسنها ، وكأنها غاية الانشاء) .[1]

ويعلق الكاتب على هذه الأضرار الثلاثة التى اخترعها وصورها له خياله المريض فيقول : " ونحن فى كل هذا نكاد نجحد الذهن وعندما يشب هؤلاء الشبان يتجهون ، اذا ألفوا كتابا أو كتبوا فى صحيفة ، وجهة الاقتباس والتزويق دون التفكير والبحث . وهذا ما نراه شائعا فى كتبنا ومجلاتنا ".[2]

ويتساءل الكاتب : كيف نعالج هذه الحال ؟ ويتطوع بالاجابة المثلى كما يتصور فيقول :

١ - نعالجها أولا وقبل كل شيء بأن نجعل قواعد المنطق تقوم مقام قواعد البلاغة القديمة . أى دقة التعبير بدلا من تزويق التعبير ، ومخاطبة العقل بدلا من مخاطبة العواطف .

٢ - ونعالجها ثانيا بأن نقاطع الاقتباس فى الانشاء فى المدارس الابتدائية والثانوية ونجعل التفكير يقوم مقام الاقتباس . فيجب ألا تكون هناك " جملة مختارة " تحفظ عن ظهر قلب . بل يجب أن يعود الصبى أو الشاب كيف يفكر ويبحث ويطلع .

٣ - يجب أن نعرف أن الاسلوب هو الناحية الاخلاقية للكاتب . فاذا كان الكاتب فنانا يعيش الحياة الفنية ، فأسلوبه فنى . واذا كان عالما فأسلوبه علمى ، واذا كان اجتماعيا . . . الخ .

وأسلوب الكتابة هو بعض أسلوب الحياة . فالرجل المستقيم الصريح فى معاملاته يكتب فى عبارة صريحة وفى كلمات لا تقبل الالتواء . فاذا طالبنا الصبى أو الشاب بأن يحسن الأسلوب فى كتابته ،فانما نطالبه فى الحقيقة بأن يتخذ أسلوبا حسنا فى معيشته وأن يرقى شخصيته . واذا استقرت هذه القواعد فى مدارسنا وتعلمها صبياننا وشبابنا فاننا سنجد عندئذ المؤلفين المفكرين والصحافة النيرة المرشدة صحافة الشخصيات الكبيرة والتفكير العلمى الدقيق .[3]

---

(١) البلاغة العصرية ص ٥٥ و ٥٦
(٢) المرجع السابق
(٣) المرجع السابق ص ٥٧

واعجباه . . ان كلام هذا الكاتب وأفكاره كوسوسة الشيطان . بل هي هي ، أليس الوسواس الخناس من الجنة والناس .

واذا تأملنا في وسوسة هذا الكاتب وكلامه وجدنا تفكيرا صبيانيا وهراء ومغالطات وأخطاء . فما هي هذه القواعد التي اذا استقرت في مدارسنا وتعلمها صبياننا وشبابنا فاننا سنجد عندئذ المؤلفين المفكرين والصحافة النيرة ؟

أهي أن نحل قواعد المنطق مقام قواعد البلاغة القديمة . فنلغي عواطفنا ونخاطب عقولنا فقط ، ونلغي بالتالي كل ما يتعلق بالعاطفة الانسانية من محبة ورحمة ومروءة وصداقة وحنان وغير ذلك من العواطف التي لا غنى لمجتمع عنها ! !

أم هي أن نلغي من كتب الانشاء وتعليم اللغة تلك الجمل المختارة من روائع الأدب واللغة التي تصل أبناءنا بتراثهم وروائع أدبهم ولغتهم ، وتغرس فيهم جمال اللفظ وروعة المعنى ، وترسي لديهم أساسا هاما من التعابير والتراكيب الممتازة التي تخول لهم بعد ذلك أن ينسجوا على منوالها ثم يبتكروا بعد ذلك ما شاءوا من الصيغ والتراكيب ، بعد أن تمرسوا وتقلبوا في رياض اللغة ! !

أما الأسلوب فأمره عجب عند سلامة موسى . . فهو لا يعترف الا بالاسلوب الرقمي الذى لا يحتمل الشك ، ولكنه في أكثر من موضع يتحدث عن الاسلوب الفني أو الأدبي ، ولكنه يعود فيقرر أن الذكي هو الذى يعتمد الأسلوب العلمي دون غيره . وهو هنا يعود فيخلط في كلامه عن الأسلوب ، فيقول : " يجب أن نعرف أن الأسلوب هو الناحية الأخلاقية للكاتب . فاذا كان الكاتب فنانا يعيش الحياة الفنية فأسلوبه فني ، واذا كان عالما فأسلوبه علمي ، واذا كان اجتماعيا . الخ . " . اذن فهو يعترف بالأسلوب الفني ، وبالأسلوب العلمي ، ولكن لا ندرى ماذا يريد بالأسلوب الاجتماعي الذى أحجم عن ذكره واكتفى بقوله : واذا كان اجتماعيا الخ .

على أن قوله ، ان الاسلوب هو الناحية الأخلاقية للكاتب ليس صحيحا فالكافر قد يكتب في ناحية اسلامية فيجيد ، والظالم قد يكتب عن العدل والانصاف فيبدع . ثم نجده بعد أن يجرد الأسلوب من محسناته يقول : " فاذا طالبنا الصبي أو الشاب بأن يحسن الأسلوب في كتابته ، فانما نطالبه في الحقيقة بأن يتخذ أسلوبا حسنا في معيشته " .

فاذا سلمنا بأن تحسين الاسلوب يؤثر فى تحسين المعيشة ، فاننا نتساءل : كيف يحسن الطالب أسلوبه فى الكتابة ؟ أبالأرقام والأعداد والمنطق ، كما يقول سلامة موسى ؟ أم بتلمس وسائل الجمال الأسلوبى من تشبيه ومجاز وبديع مما ينكره ويستنكره الكاتب الخطير ؟ !

(ان الهدم سهل ، والذى يصنعه هم أولئك الذين ينتقدون الجمال فى اللغة ، ويريدونها عضوا أشل . . . والأحداث التى غيرت مجرى التاريخ وألهبت بين الجوانح نزعة الرقى . . . كانت وسيلتها الى الاصلاح . . التعابير الجميلة التى تخاطب القلب قبل أن تخاطب العقل . ومن أمعن النظر فى أسرار هذه الأحداث تبين له أن أسرعها الى الانتشار وأبعدها أثرا فى المجتمع هى التى كان فى الدعوة اليها وفى شرح أهدافها أكبر نصيب ممكن من الجمال . . ولو حاولنا أن نجارى الذين يدعون أن اللغة للأداء فحسب فماذا نفعل بالآثار الأدبية العالمية التى تزخر بالجمال ، وهى التراث الخالد الذى ينحدر من جيل الى جيل ، وفيه تجارب الانسان يلتمس فيها علاج النفس ويمتلك به ناصية الهناء. أنعرض عنها أم نلقى على عواتقهم تبعة تجريدها من كل رائع طريف وجعلها مرجعا للجمود والبلادة .

ان الأساليب المجردة التى يطالب بها هؤلاء لا يمكن أن تميز كاتبا عن آخر ، فكأنها خارجة من قالب واحد فى معمل واحد فيها تتلاشى الشخصية الانسانية وتحل محلها الآلة التى لا تبدى ولا تعيد . . . وهكذا يمكن الاستغناء بكاتب عن بقية الكتاب . أما الأساليب التى تبهرنا ، وأما اللغة التى تحوز اعجابنا فهى التى تجعل كل كاتب شخصية مستقلة تتميز عن سواها بخصائصها الواضحة .

فى وسط هذا التيار الجارف من اليبوسة المؤلمة ، تقف اللغة العربية موقف المجابهة . . ان أعداءها حاقدون ، والحجة التى يتكلمون عليها تفرى وتفوى ما أسهل أن يعلق فى أشراكها الذين لا يبالون بالبحث والتنقيب أو ما نسمعهم يصرخون بأنهم يريدون مجاراة روح العصر ومسايرة القافلة الانسانية السائرة الى الأمام . ويدعون أن التخلف الذى تعانى منه العروبة ما تعانى ،

من دواعيه لغتها وما في لغتها من تعقيد ، ويجهلون أو يتجاهلون أن هذه اللغة التي يعيبونها كانت رسولة حضارة نشرت أعلامها في الشرق والغرب ، ورافقت الفتوحات - وكانت طليعة فيها - ووطدت في الأصقاع التي دخلتها معالم العمران وظلت - بعد أن تقلصت البنود السياسية في البلدان المذكورة - تزود الأفكار بالروائع ، وتمون القلوب بالبدائع ، وتقع موقع الرضا والترحاب حيث حلت . ويجهلون أو يتجاهلون أن هذه اللغة هي من دقة التعبير وقوة الاشتقاق وجلاء الصيغ وغنى المفردات بحيث اختارها الكثيرون من العلماء غير العرب في الدولتين الأموية والعباسية للدراسة والتأليف . فقد رأوها من أصلح اللغات للتعبير عن أدق الشئون العلمية المختلفة .

ان العلة ليست في اللغة العربية ، بل في الذين لا يفهمونها ، ويهذرون وهم في معزل عن الحق) .[1]

بين البلاغة والاعراب :

حفل هجوم سلامة موسى على البلاغة واللغة العربية بكثير من الدعوات المفرضة ، وقد عرضنا ونقدنا آراءه في البلاغة وتجديدها ، وفي الاسلوب الأدبي والأساليب البيانية .

وكنا نود أن نعرض وننقد آراءه وأحافيره في اللغة العربية أيضا ، والتي ساقها باسم الاصلاح والتجديد والتيسير ، لنكشف بصورة أكثر وضوحا حقيقة سلامة موسى وحملته الهدامة المفرضة . أقول : كنت أود ذلك ، لولا ما أحاذره من الخروج على موضوع البحث .

ولكن من أحافير سلامة موسى اللغوية ما له علاقة ببحثنا ، كحديثه عن النحو الاعراب .

وذلك أنه يدعو الى " أن نقتصر في تعليم اللغة العربية على تمكين التلميذ من المطالعة والفهم بلا حاجة الى أية قواعد خاصة بالنحو ، وليس عليه من حرج أن يقرأ فيرفع المفعول ، وينصب الفاعل ، ما دام يفهم ما يقرأ . حسبه أن يسكن آخر الكلمات[2]

(١) من مقال للأديب الياس قنصل بعنوان (العلة ليست في اللغة العربية) مجلة الفيصل - العدد الخامس عشر ص ١٥٣ - ١٥٤ بتصرف .

(٢) البلاغة العصرية واللغة العربية ص ١٣٨

وتتساءل فى عجب : كيف يرفع التلميذ المفعول وينصب الفاعل ثم يفهم ما يقرأ ؟ ! ألم يطلع - وهو العالم النحرير - على ما قاله الامام عبد القاهر فى هذا الشأن من أن " الألفاظ مغلقة على معانيها حتى يكون الاعراب هو الذى يفتحها ، وأن الاغراض كامنة فيها حتى يكون هو المستخرج لها ، وأنه المعيار الذى لا يتبين نقصان كلام ورجحانه حتى يعرض عليه ، والمقياس الذى لا يعرف صحيح من سقيم حتى يرجع اليه ، ولا ينكر ذلك الا من ينكر حسه ، والا من غالط فى الحقائق نفسه "(١)

ان الاعراب هو مفتاح المعانى ، وهو مظهر الفصاحة ، وجمال البيان ، وبدونه نطمس كثيرا من معالم اللغة ، ونبعد كثيرا عن موسيقا الكلام ، ونفقد الصحة والسلامة فى قراءة القرآن وفهم معانيه ، فلا بلاغة بغير اعراب . ان تسكين أواخر الكلمات ليس حلا مقبولا بل ولا مستساغا فى كثير من الأحيان ، ولك أن تتخيل أو تحاول قراءة الفاتحة - مثلا - بتسكين أواخر كلماتها ، فسترى أن ذلك صعب على اللسان ، ولا طرب له فى القلب والآذان . هذا الى ما يسببه ذلك من خلط فى المعانى والأفكار . فهل هذا ما يدعو اليه المؤلف الخطير ؟ !

ويقول : " وبدلا من هذه القواعد النحوية يجب أن يتعلم الصبى أكبر مقدار مستطاع من الكلمات التى ترد فى الجريدة والمجلة والمتجر والمصنع والدكان . " أى نعلمه الكلمات العامية . وهل اللغة العامية فى حاجة الى تعليم ! ! وهل من الصواب أن نلغى قواعد النحو لنوفر للتلاميذ الوقت لزيادة ما يدخرون من الكلمات العامية ! !

ومن العجيب حقا أنه بعد أن دعانا الى الوقف فى أواخر الكلمات أى اسكانها ، وادعى أن ذلك " هو الخطة السديدة التى يجب أن تتبع وعندئذ يتوافر للتلاميذ الوقت لزيادة ما يدخرون من الكلمات " يقول : " وهنا تدخل البلاغة " ! !

أى بلاغة يا سلامة تلك التى تدخل هنا ؟ ! ويسرع بالرد : " ونعنى بلاغة المنطق اللغوى للتمييز بين الكلمات من حيث الدقة والاقتصاد فى التعبير ، وليس من حيث ألاعيب الصغار عن الاستعارات والمجازات ، كوجه القمر ، وأنت بحر ، وعلم من فوقه نار .. الخ "(٢)

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٢٣ و ٢٤
(٢) البلاغة العصرية ص ١٣٨

وماذا نقول فى هذا الخلط والهذيان والتناقض . فهذا الرجل يستنكر الاستعارات والمجازات ويعتبرها ألاعيب الصغار ثم يستعملها فى كتابته - كما بينا من قبل - ويدعونا الى بلاغة المنطق اللغوى والأرقام ثم لا يستعملها ، أو هو لم يستطع ذلك . لأنه غير صادق فى دعوته ، ولأن هدفه هدم الفصحى وبالتالى هدم الدين الذى يحقد عليه وعلى أهله .

واذا كانت بلاغة العاطفة والاستعارات والمجاز ألاعيب صغار ، فماذا نسمى بلاغته المضحكة المخجلة التى وضعها لكى يدعو بها أبناء طائفته ومنها : يا رب انت الوابور وحنا العربيات جرنا الى رحمتك ، يا رب انت الحنفية وحنا الجرادل املأنا من نعمتك .

حقا لقد صدق المثل : اذا لم تستح فاصنع ما شئت .

ويعود سلامة فيدعونا الى الاخلاق - فهو رجل أخلاق - ويقول : " يجب أن تكون لنا غاية أخلاقية فى تعليم اللغة العربية هى تعويد التلميذ القراءة بحيث لا يستطيع الكف عنها طيلة حياته "(١) .

وتعويد التلميذ على القراءة أمر محمود ولكن كيف نحققه ونرغب فيه اذا كان الأسلوب الذى يعرض عليه ويقرؤه أسلوبا علميا جافا لا روح فيه ولا عاطفة ولا حلاوة ولا جمال . وحتى البلاغة قد فقدت رواءها وطلاوتها لانها أصبحت بلاغة صارمة تقوم على المنطق وتتعامل بالأرقام . أفلا يجدر بنا اذا كنا نريد أن نعود التلاميذ على القراءة أن نعرض عليهم الموضوعات المطلوبة فى ثوب قشيب وأسلوب جميل يرقى بأذواقهم فى الكتابة والتفكير ؟ .

ومن الخلط العجيب أن سلامة موسى يربط بين الخطابة والمناقشة ، ثم يعرف الخطابة بأنها الاكثار من الموضوعات التى يطالعها التلاميذ ، وهو كلام يدل على خلط وجهل . اسمعه يقول : " وغاية أخرى نتوخاها هى تكوين شخصيته - أى التلميذ - بالمناقشة والخطابة . ولا نعنى بالخطابة تلك الحركات المنبرية البهلوانية التى تعتمد على قوة الذراعين والحنجرة أكثر مما تعتمد على الفهم

---

(١) المرجع السابق ص ١٤٠

والتمييز ، وانما نعنى أن نكثر من الموضوعات التى يطالعها التلاميذ مع المعلم فتنشأ المناقشة المنيرة التى يتعلم منها التلميذ كيف يناقش وينتقد "[٢].

وأقول ما كل من عرف الكتابة كاتب . وأكبر دليل على ذلك : سلامة موسى وآراؤه فى البلاغة واللغة .

وبعد : فان دعوة سلامة موسى الى تجديد البلاغة وبنائها على قواعد المنطق والأرقام دعوة لم تكن لتنجح أبدا ، أو تأخذ طريقها الى القلوب والعقول . ومهما تذرع فى دعوته بالاصلاح والتجديد والتيسير ، وصاغ أفكاره الهدامه فى كثير من الخبث والدهاء ، وتظاهر بأنه مجدد صادق مخلص حريص على مصلحة اللغة العربية ومستقبلها ، مهما فعل ذلك فان نظرة فاحصة تكشف عما فى دعواته من هدم وعصبية ، وما فى نفسه من حقد وضغينة على العرب والعربية .

ولسنا نعتبر دعوة سلامة موسى الى تجديد البلاغة الا هجوما عليها ، واستهانة بها وبأربابها .

ونعود فنقول : اننا لا نعفى علماءنا وأدباءنا الكبار ، والمسئولين عن الثقافة العربية ، من التبعة والمسئولية ، ومما لاقت وتلاقى بلاغتنا ولغتنا من جور وظلم واجحاف .

وقد آن الأوان لنقوم بعمل كبير ، ننصف به بلاغتنا ، وننهض بلغتنا ، ونعيد العصر الذهبى للأمة العربية فى العلوم الآداب .

والبلاغة : قمة اللغة العربية ، وذروة سنامها ، بحاجة الى هزة عنيفة ، تسقط أوراقها الجافة ، وتسعد أوراقها الخضراء . وحديقة البلاغة بحاجة ماسة الى العناية والتشذيب والارواء ، لتعود روضة غناء ، تؤتى أكلها كل حين باذن ربها .

---

(١) المرجع السابق ص ١٤٠

الباب الخامس

قضية الاعجاز الكبرى وآراء المجددين فيها

الفصل الاول : الاعجاز النفسي

الفصل الثاني: الاعجاز العلمي

الفصل الثالث : الاعجاز العددي

الفصل الرابع : الاعجاز الروحي

===================
===================

قضيــــــة الاعجــــــاز

قضية الاعجاز قضية قديمة ، كثر القول فيها وكثرت الآراء ، ولسنا هنــــا بصدد البحث فيما ثار حول الاعجاز قديما ، فقد تحدث فيه كثيـــــرون وقتلوه بحثا وتمحيصا ، ولكنا بصدد ما طرأ حوله من جديد ، وما استحدث من دراسات حديثة في هذا المجال .

اما وان الحديث عن الجديد لا بد ان يستضاء له بالقاء ضوء علـــى القديم ، فانا نعرض هنا للآراء القديمة باجمال ، توطئة للحديث عن الجديد في قضية الاعجـــاز .

ولقد اختلفت وجهات النظر في الاعجاز ، وتشعبت سبل القول فبعضهم رأى انه لا علة للاعجاز " ولذلك صاروا اذا سئلوا عن تحديد هذه البلاغة التي اختص بها القرآن ، الفائقة في وصفها سائر البلاغات ، وعن المعـــنى الذي يتميز به عن سائر انواع الكلام الموصوف بالبلاغة قالوا : انه لا يمكننـا تصويره ولا تحديده بأمر ظاهر نعلم منه مباينة القرآن غيره من الكلام ، وانما يعرفه العالمون منه عند سماعه ضربا من المعرفة لا يمكن تحديده . واحالوا على سائر اجناس الكلام الذي يقع فيه التفاضل فتقع في نفوس العلماء بـــه عند سماعه معرفة ذلك ، ويتميز في افهامهم قبيل الفاضل من المفضول منه . قالوا : وقد يخفى سببه عند البحث ، ويظهر أثره في النفس حتى لا يلتبس على ذوي العلم والمعرفة به . قالوا : وقد توجد لبعض الكلام عذوبة فـي السمع وهشاشة في النفس لا يوجد مثلهما لغيره منه ، والكلامان معا فصيحان ثم لا يوقف لشيء من ذلك على علة " (١) .

فاصحاب هذا الرأي يرون ان الاعجاز احساس وادراك وتذوق خــاص بأولي العلم والمعرفة ، وانه لا علة ظاهرة يمكن بها بيان سبب الاعجـــاز وهؤلاء قد اراحوا واستراحوا ، ولكن انى للعقل البشري ان يقنع بهذا الـــرأي .

ولعل ذلك هو ما دعا الخطابي الى ان يعود فيقول : " واعلم ان القرآن انما صار معجزا لانه جاء بافصح الالفاظ في احسن نظوم التأليف مضمنا اصح المعاني " (٢) .

١ــ بيان اعجاز القرآن للخطابي ص ٢٢ .

٢ــ المرجــــع السابــــق ص ٢٤ .

فقد التمس للاعجاز بعض الأسباب والعلل ، بعد ان عرض رأى القائلين بأنه لا علة للاعجاز ، وان كان قد رأى رأيهم فى موضع آخر حيث قال : "قلت فى اعجاز القرآن وجها آخر ذهب عنه الناس ، فلا يكاد يعرفه الا الشاذ من آحادهم ، وذلك صنيعه فى القلوب وتأثيره فى النفوس" (١)

وهكذا نجد الخطابى يرى الوجهين ويقول بهما .

ويرى الشيخ الامام عبد القاهر الجرجانى أن معرفة أسرار الاعجاز ممكنة وأن دراسة البيان هى الوسيلة لهذه المعرفة (وأنه لا بد لكل كلام تستحسنه ، ولفظ تستجيده ، من أن يكون لاستحسانك ذلك جهة معلومة وعلة معقولة ، وأن يكون لنا الى العبارة عن ذاك سبيل ، وعلى صحة ما ادعيناه من ذلك دليل ، وهو باب من العلم اذا انت فتحته اطلعت منه على فوائد جليلة ، ومعان شريفة ، ورأيت له أثرا فى الدين عظيما ، وفائدة جسيمة ، ووجدته سببا الى حسم كثير من الفساد فيما يعود الى التنزيل ، واصلاح انواع من الخلل فيما يتعلق بالتأويل ، وانه ليؤمنك من أن تغالط فى دعواك ، وتدافع عن مغزاك ، ويربأ بك عن ان تستبين هدى ثم لا تهتدى اليه ، وتدل بعرفان ثم لا تستطيع أن تدل عليه ، وأن يسألك السائل عن حجة يلقى بها الخصم فى آية من كتاب الله تعالى او غير ذلك ، فلا ينصرف عنك بمقنع ، وأن يكون غاية مالصاحبك منك أن تحيله على نفسه ، وتقول : قد نظرت فرأيت فضلا ومزية ، وصادفت لذلك اريحية فانظر لتعرف كما عرفت وراجع نفسك واسبر وذق لتجد مثل الذى وجدت فان عرف فذاك ، والا فبينكما التناكر ، تنسبه الى سوء التأمل ، وينسبك الى فساد فى التخيل ". (٢)

ويأتى السكاكى فيخالف رأى عبد القاهر ، ويرى أن معرفة الاعجاز عن طريق الدراسة أمر غير ممكن (نعم للبلاغة وجوه متلثمة ربما تيسرت اماطة اللثام عنها ، لتجلى عليك ، أما نفس وجه الاعجاز فلا) .

١- المرجع السابق ص ٦٤ .

٢- دلائل الاعجاز ص ٣٣ ، ٣٤ .

ويقول د. العماري : " لقد طال القول فى امكان معرفة الاعجاز وعدم امكانه ، واطال الشيخ عبد القاهر وفصل القول تفصيلا فى رأيه ، وأصر السكاكى فى اكثر من مناسبة على أن هذه القواعد ليست الطريق لمعرفة اسرار الاعجاز ، ثم رأيت كلاما اعجبنى للعلامة ابن خلدون ، وهو كلام جديد ، لعله كذلك وسط بين الرأيين ، رأيته يفرق بين المعرفة والادراك ويرى أن معرفة الاعجاز ممكنة عن طريق دراسة البلاغة ، أما ادراكه فغير ممكن عن طريق هذه الدراسة (واعلم ان ثمرة هذا الفن انما هو فى فهم اعجاز القرآن ... وهذا هو الاعجاز الذى تقصر الافهام عن ادراكه ، وانما يدرك بعض الشيء منه من كان له ذوق بمخالطة اللسان العربى ، وحصول ملكته ، فيدرك من اعجازه على قدر ذوقه) (١).

ويمكن بسهولة أن نفرق بين المعرفة والادراك ، ونضرب لذلك مثلا بدراسة العروض ، فبعض الناس يعرف سلامة البيت واعتلاله عن طريق هذه الدراسة ، فهو ينظر الى البيت يعرضه على ما عرفه من البحور وقواعدها ، ويتبين ما فيه من زحاف وعلة ، ويحكم بما يجوز من ذلك ومالا يجوز فهذا عارف . وبعض آخر له اذن موسيقية تحس نبو الوتر - كما يقول حافظ ابراهيم - يحكم على البيت بالصحة أو الاعتلال بمجرد سماعه ، وهذا هو الادراك .. وقديما قال بعض الخلفاء العباسيين لاسحق الموصلى : صف لى جيد الغناء ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ان من الاشياء اشياء تصيبها المعرفة ، وتعجز عن ادراكها الصفة . وما قاله اسحق فى جيد الغناء هو نفسه الذى يقال فى جيد الكلام ، والجيد من الفنون بعامة "(٢).

وهذا هو رأى السكاكى ومن شايعه فى الاعجاز حيث يرى ان شأن الاعجاز عجيب يدرك ولا يمكن وصفه ، وهو بهذا يتفق مع الشطر الثانى من

---

١ - مقدمه ابن خلدون ص ٥٢١ ط الشعب .

٢ - قضايا بلاغية - د. العماري - ص ٢٦ و ٢٧ و ٢٨ بتصرف .

رأى ابن خلدون الذى فرق بين المعرفة والادراك . ومن ذلك ما قاله رشيد رضا من أن " العلماء قد حاروا فى كشف حجب البيان عن وجوه اعجاز القرآن ، بعد ان ثبت عندهم بالوجدان والبرهان ، حتى قال بعضهم ان الله تعالى قد صرف عنه قدر القادرين على المعارضة بخلق العجز فى أنفسهم وألسنتهم وذلك ان ادراك كنه العجز ، والاحاطة بأسبابه وأسراره ضرب من ضروب القدرة ، والمقام مقام عجز مطلق ، فالقرآن فى البيان والهداية كالروح فى الجسد ، والاثير فى المادة ، والكهرباء فى الكون تعرف هذه الاشياء بمظاهرها وآثارها ، ويعجز العارفون عن بيان كنهها وحقيقتها"(1)

وفيما قاله رشيد رضا اشارة الى مذهب الصرفة ، وقد دان بهذا المذهب بعض علماء الكلام من المسلمين ، كابراهيم بن سيار النظام ، الذى قال فى اعجاز القرآن : " الآية والاعجوبة فى القرآن ما فيه من الاخبار عن الغيوب ، فأما التأليف والنظم فقد كان يجوز ان يقدر عليه العباد ، لولا أن الله منعهم بمنع وعجز احدثهما فيهم " (٢) .

وقد عارض كثير من العلماء القول بالصرفة ومنهم الامام عبد القاهر الذى ذهب الى ان الاعجاز انما يكمن فى النظم الذى هو توخى معانى النحو وأحكامه ورأى ان ألوان البلاغة من استعارة وكناية وتمثيل يعتبر من مقتضيات النظم(٣) . لكن سيد قطب رحمه الله رد الاعجاز الى التصوير الفنى ورأى أنه الاداة المفضلة فى اسلوب القرآن (٤) وضرب لذلك أمثله وأدلة (٥) .

ونحن نرى أن ما ذكره سيد قطب من الادلة لا يتعدى كونه لونا من الوان البلاغة وهو بذلك ينضوى تحت رأى عبد القاهر فى الاعجاز بالنظم ، والبلاغة والتصوير الفنى من مقتضياته .

---

١ ـ من مقدمه رشيد رضا لكتاب اعجاز القرآن للرافعى ص ١٨

٢ ـ الملل والنحل للشهرستانى ـ ج ١ ص٦٤ .

٣ ـ دلائل الاعجاز ص ٣٠٠ ، وثلاث رسائل فى الاعجاز ص ٤٨ ـ ٥١

٤ ـ التصوير الفنى ص٤٩

٥ ـ المرجع السابق ص ٤٠ وما بعدها

ومن رأى سيد قطب — خلافا لعبد القاهر — أن نظام الفواصل والمقاطع يعتبر وجها من وجوه الاعجاز (١) وكذلك ما فى القرآن من ايقاع موسيقى متعدد الانواع . ٢)

وهكذا نجد أن علماء المسلمين اتفقوا على اعجاز القرآن الكريم لكنهم اختلفوا فى وجوه اعجازه " فمنهم من قال : ان اعجاز القرآن الكريم بما اشتمل عليه من النظم الغريب ، والترتيب العجيب ، والاسلوب المخالف لما استنبط بلغاء العرب من الاساليب فى مطالعه ومقاطعه وألفاظه وفواصله وهذا هو مذهب بعض المعتزلة .

ومنهم من قال : انه معجز بما اشتمل عليه من البلاغة التى تقاصرت عنها سائر ضروب البلاغات . وهذا هو قول الجاحظ من المعزلة . . وعليه المحققون من اهل العربية . . . .

ومنهم من ذهب الى مجموع الامرين : أى النظم الغريب ، وكونه فى الدرجة القصوى من البلاغة الخارجة عن طوق البشر . وهذا القول منسوب الى القاضى الباقلانى .

ومنهم من قال : انه معجز باشتماله على الاخبار عن الغيب مطابقا لما هو الواقع ، كما فى قوله تعالى :" وهم من بعد غلبهم سيغلبون ". وهو رأى الآمدى .

وقال بعضهم : ان اعجازه فى عدم اختلافه وتناقضه مع ما فيه من الطول والامتداد ، وتمسكوا بقوله تعالى : " ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا " وكأن هذا القائل غافل عن وقوع التحدى بمقدار سورة منه . . .

ومنهم من قال ان الاعجاز " بالصرفة " بمعنى ان العرب كان فى مقدورهم الاتيان بكلام مثل القرآن الكريم قبل البعثة المحمدية ، ولكن الله تعالى صرفهم عن المعارضة مع بقاء قدرتهم عليها أو بدونها على اختلاف فى الرأيين . وهو رأى النظام وأبى اسحق الاسفراييني " (٣) .

" وفكرة الصرفة التى نادى بها بعض المعتزلة لم يفهم المقصد منها على حقيقته

١ـ المرجع السابق ص ٩٠ ـ ٩٢ .
٢ـ المرجع السابق ص ٨٧
٣ـ اعجاز القرآن البيانى ـ د . حفنى محمد شرف ص ٨ و ٩ و ١٠ بتصرف

فالنظام زعيم مدرسة الاعتزال يقول : " ان العبد قادر خالق لأفعاله خيرها وشرها " ، وقدرة الانسان مقيدة بمدى علمه ومدى ما يخطر بباله والقدرة تابعة للعلم ، والارادة نفسها لا تأتي مرتبتها الا تالية للعلم ، فالانسان عند النظام " يعلم الشيء ثم تريده نفسه ثم تقوم قدرته بتنفيذه " ، فالعجز ليس في القدرة ولكنه في جهد وطاقة واستطاعة هذه القدرة ، والتي منحها الله الانسان بطاقة معينة واستطاعة محددة وجهد مرسوم ، وهذه القدرة قد بذلت طاقتها فاستطاعت كل الاغراض ، أما بالنسبة للقرآن فانها حاولت وجربت فعجزت فانصرفت ، ومن ثم سمى مبدأ الصرفة أى الانصراف وليس الصرف" (١) وفى هذا الكلام نظر .

هذه خلاصة عجلة لآراء القدماء فى الاعجاز أردنا بها أن نوطىء القول للبحث فيما جد من جديد وما استحدث من دراسات حول اعجاز القرآن الكريم مهد البلاغة ومنبعها بل ان البلاغة لم تتكون أصلا علما له أصوله وقواعده الا من أجل معرفة الاعجاز . وهذا أمر معروف وقد أشرنا اليه اكثر من مرة خلال هذا البحث .

أما ماذا جد من دراسات حديثة حول الاعجاز ؟ فهذا ما يهمنا بيانه وما نحاول عرضه فى هذا الباب من بحثنا .

ولقد شهد العصر الحديث عدة دراسات جديدة حول الاعجاز هى :-

(١) الاعجاز النفسى
(٢) الاعجاز العلمى
(٣) الاعجاز العددى
(٤) الاعجاز الروحى

وحول كل واحد من هذه الأوجه الجديدة للاعجاز نقدم الفصول التالية :-

---

١- أعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة - منير سلطان ص ٢٠٢ ط ٢

الفصـــــل الاول

الاعجـــاز النفسى

وصاحب هذا الرأى هو الأستاذ أمين الخولى ، وقد بدأ بحثه باستعراض سريـع لآراء العلماء السابقين فى الاعجاز ورأى أن هذه الاراء " تكـاد تستوفى نواحى القسمة العقلية وتدير كل ترديد واحتمال ، فقائل : لا اعجاز فى اللفظ ولا فى المعنى ، ولكنها الصرفة ، وقائل بالاعجاز فيهما مــــع الصرفـــة .

وقائل باعجاز هما للبشر ولا سبيل الى تعليل هذا الاعجاز أو بيانه .

وقائل بالاعجاز مع امكان التعليل ، ومن هنا تتشعب الطرق ، وتتفرق السبل فى ذلك التعليل ، فيقال تارة هو النظم البديع والاسلوب المخالف لجميـع أســـاليب العرب .

أو هى الجزالة التى لا تتأتى من مخلوق بحـــــال .

أو هو التصرف فى لسان العرب على وجه لا يستقل به عربى حتى يقع منهـــم جميعهم الاتفاق على اصابته فى وضع كل كلمة وحرف موضعه .

أو هو الاخبار عن الامور التى تقدمت فى أول الدنيا الى وقت نزوله ممن أمى ما كان يتلو من كتاب ولا يخطه بيمينـــــــه .

أو هو الوفاء بالوعد المدرك بالحس فى كل ما وعد الله سبحانه وتعالى .

أو هو الاخبار عن المغيبات فى المستقبل مما لا يطلع عليه الا بالوحى .

أو هو ما تضمنه القرآن من العلم الذى هو قوام جميع الأنام فى الحلال والحرام وفى ســـــائر الأحكام .

أو هو الحكم البالغة التى لم تجر العادة بأن تصدر فى كثرتها وشرفهـــا من آدمى .

أو هو التناسب فى جميع ما تضمنه ظاهرا أو باطنا من غير اختلاف (١) .

ثم يقول بعد هذا الحصر المجمل لأوجه الاعجاز : " كل واحد من هذه الاوجه مردود ممن لا يقول به والكل مناقشون . وجمهرة هذه الآراء ، بل هذه الآراء

١ـــ القرطبى ـــ الجامع لأحكام القرآن ج ١ ص ٧٢ ط دار الكتب .

رأيا رأيا ، وقولا قولا ، ليست ذات صلة كافية بالفن الادبي من تلك الوجهة التي قدمنا القول في ضرورة ابتناء الفن كله عليها — والفن القولي بخاصة — وهي الوجهة النفسية الانسانية (١)".

والواقع أن الاشارة الى اعجاز القرآن النفسي ، وماله من بالغ الاثر في النفوس والقلوب لم يفت بعض العلماء القدامى .

فهذا ابن قتيبة في كتابه (تأويل مشكل القرآن) يشير الى أثر القرآن النفسي وكيف أنه " يثير الوجدان عن طريق الشعور ، ويهز القلوب لأن أسلوبه يخاطب النفس الانسانية خطاب العارف بخفاياها ، فيبلغ في التعبير مبلغ الروعة اذ يكلم الغرائز وينادي الطبائع" (٢).

والخطابي لم يقف باعجاز القرآن عند بيان ألفاظه وصحة معاينة وروعة نظمه ، بل تخطى ذلك الى أثر البيان القرآني في النفوس وفي القلوب. فقال: " قلت في اعجاز القرآن وجها آخر ذهب عنه الناس فلا يكاد يعرفه الا الشاذ من آحادهم ، وذلك : صنيعه بالقلوب ، وتأثيره في النفوس ، فانك لا تسمع غير القرآن منظوما ولا منثورا قرع السمع الا خلص له الى القلب من اللذة والحلاوة في حالة ، ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه اليه ، تستبشر به النفوس وتنشرح له الصدور ، حتى اذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة قد عراها من الوجيب والقلق ، وتغشاها من الخوف والفرق ، ما تقشعر منه الجلود ، وتنزعج له القلوب ، يحول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها ، فكم من عدو للرسول — صلى الله عليه وسلم — من رجال العرب وفتاكها اقبلوا يريدون اغتياله وقتله ، فسمعوا آيات من القرآن ، فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول ، وأن يركنوا الى مسالمته ، ويدخلوا في دينه ، وصارت عداوتهم موالاة ، وكفرهم ايمانا " (٣)

ومثل ذلك قال ابو هلال العسكري فأشار الى ما عظم القرآن من الحلاوة وجلله من الطلاوة (٤) . وكذلك الامام الزركشي (٥) . وغيرهم

١ـ مناهج تجديد : ص١٩٩ و ٢٠٠

٢ـ ص ٦٦ من كتاب " تأويل مشكل القرآن ".

٣ـ ص ٢٣ من ثلاث رسائل في الاعجاز

٤ـ مقدمه الصناعتين .

٥ـ البرهان في علوم القرآن ص ٥ .

اعتراض ووهـــم وتوضيح :

لكن الاستاذ الخولى لا يرى فيما سبق لنا ذكره من حديث السابقين عن حلاوة القرآن وطلاوته وأثره فى النفس شيئا من الاعجاز النفسى الذى يقصده ويقول : انه يجب أن " لا يسبق الى الوهم ذلك القول القديم ، المعاد حديثا كذلك ، عن أثر القرآن على النفس الانسانية ، ووقعه عليها ، وفعله فيها وما تجده من حلاوته ، وتستشعره من طلاوته . أو تلك الموسيقى الصوتية فى جرس حروفه ، وتأليف كلمه ، وائتلاف جمله . أو هاتيك العذوبة يتذوقها قارئه ، أو الاقبال النفسى على تلاوته ، وعدم الملالة من تكراره .... تلك نواح لا أعنيها فيما أريد الآن من القول فى صلة الاعجاز بعلم النفس ، فلن أقصد الى هذا المعنى وان كنت لا أكرهه ، ولا أعتمد عليه فى مشكلة الاعجاز ، كما لا أهدمه .... ثم هذا الملحظ لا يرتد فى جملته الا الى الألفاظ والعبارات ، وليس على مثل هذا وحده يقوم اعجاز كتاب وصف نفسه بأنه هدى ورحمة وبيان وتبصرة ، أولا أقل من ألا يكتفى بهذا المعنى فى اعجاز مثل هذا الكتاب " (١) .

كذلك يرى الأستاذ أن " ثمة معنى بعيدا قد سبقت اليه أوهام قوم فى هذا العصر ، فآثرت أن انفى القصد اليه هنا أو التعويل على شىء منه ذلك هو استخراج علم النفس ونظرياته من القرآن ، تدعيما للزعم بأنه يتضمن كل شىء ... فنحن ندع علماء النفس فى تجاربهم العملية ، ومشاهداتهم الواقعية ، أو تأملاتهم النظرية ، ان صح لهم فى ذلك شىء ، ليكشفوا عن خصائص النفس الانسانية ، لا نقلقهم فى شىء من ذلك ، ولا نرى سبق القرآن اليه ، أو تقدمه على الأجيال بأصله ، وما الى ذلك ، بل نتلقاه منهم لنعتمد عليه فى بيان الوجه النفسى للاعجاز ، مؤيدين هذا البيان بفضل ما عرف محدثوا الباحثين عن الظواهر النفسية .... " (٢) .

اجمال فكرة الاعجاز النفسى :

ان هذا القرآن من حيث هو فن ادبى معجز ، ثم من حيث هو هدى وبيان

١ـ مناهج تجديد : ص ٢٠١ و ٢٠٢ بتصرف .
٢ـ مناهج تجديد : ص ٢٠٢ بتصرف .

دينى ، لن يدار الأمر فيه الا على سياسة النفوس البشرية ورياضتها ، لان الفن هو : نجوى الوجدان ، والدين هو : حديث الاعتقاد وخطاب القلوب ، فصلته بالنفس ، ومناجاته للروح ، أوضح من أن يستدل لها ، أو تخص بالشرح ...

فالنظر الصائب اليه ، والفهم الصحيح له ، أو بعبارة أكثر صراحة تفسيره ، لا يقوم الا على ادراك ما استخدمه من ظواهر نفسية ، ونواميس روحية ، أدار عليها بيانه مستدلا وهاديا ومقنعا ومجادلا ومبشرا ومهددا ، فأصبح ما يبنى عليه هذا التفسير هو القواعد النفسية وأصدق ما اهتدى اليه العلم قديما وحديثا عن تلك الشئون . فليس يصح أن تعلل عبارة من عباراته ، أو يحتج للفظ فى آية من آياته ، أو يستشهد لأسلوب من أساليبه ، الا بموقعه كله من النفس ، وبما كشف العلم عن هذا الموقع ، وما سبر من اغواره . فبالأمور النفسية لاغير ، يعلل ايجازه واطنابه ، وتوكيده واشارته ، واجماله وتفصيله ، وتكراره واطالته ، وتقسيمه وتفصيله وترتيبه ومناسباته . وما قام من تعليل هذه الأشياء وغيرها على ذلك الاصل فهو الدقيق المنضبط ، وما جاوز ذلك فهو الادعاء والتمحل ، أو هو أشبه شئ به ....

تلك جملة من الاعجاز النفسى ، قد يكشفها مترادف الأمثلة ، ويجليها متتابع الشواهد ، وينتهى الى تأييدها تفسير جديد للقرآن على هذا النمط . (١)

<u>بعض بيان الاعجاز النفسى :</u>

يضرب الأستاذ الخولى مثلا للاعجاز النفسى بالتكرار ، ويرى أن "هذا التكرار فى القرآن قال فيه القدماء منذ عهد بعيد ، ولا يزال يقول فيه المحدثون حتى أمس القريب ، ولعل القائلين جميعا جاءوا هذه المسألة من غير طريقها النفسى ، الذى هو سبيل الاعجاز الفني فى القرآن ، فكان كلام كل رجل منهم محتاجا لكلام من بعده ، وظل كلام الأمس ينادى

١- راجع مناهج تجديد ص ٣٠٢ - ٣٠٤ بتصرف

مقال اليوم ليسنده .
فالحافظ منذ القرن الثالث تكلم فى هذا وأبان (١) ، وكان مما اورده حكاية ابن السماك ، اذ جعل يوما يتكلم ، وجارية له حيث تسمع كلامه ، فلما انصرف اليها قال لها : كيف سمعت كلامى ؟ قالت : ما أحسنه لولا أنك تكثر ترداده ، فقال : أردده حتى يفهمه من لم يفهمه ، قالت : الى أن يفهمه من لم يفهمه قد ملّه من فهمه . كما نقل فى هذا الموضع أنه مكتوب فى التوراة : لا يعاد الحديث مرتين ، وقول الزهرى : اعادة الحديث أشد من نقل الصخر ، ثم عرض بعد هذا كله لالتماس وجه الاعادة فى القرآن فقال :" وجملة القول فى الترداد أنه ليس فيه حد ينتهى اليه ، ولا يؤتى الى وصفه ، انما ذلك على قدر المستمعين له ، ومن يحضره من العوام والخواص ، وقد رأينا الله عز وجل ردد ذكر قصة موسى ، وهود ، وهارون ، وشعيب ، وابراهيم ، ولوط ، وعاد وثمود ، وكذلك ذكر الجنة والنار ، وأمور كثيرة ، لأنه خاطب جميع الامم من العرب ، وأصناف العجم ، وأكثرهم غبى غافل ، أو معاند مشغول الفكر ، ساهى القلب ، وأما حديث القصص والرقة فانى لم أر أحدا يعيب ذلك ."

ولعل قيمة هذا البيان واضحة ، ومدى اقناعه محدود ، بعد طول ما ساقه قبله فى ثقل التكرار واملاله ... " (٢) .

ومن الجاحظ ينتقل الأستاذ الخولى الى القاضى الباقلانى ويذكر أنه عرض للمسألة فى كتابه (اعجاز القرآن) مرتين ، قال فى أولاها : (ومن البديع عندهم التكرار ، كقول الشاعر :

هلا سألت جموع كندة يوم ولوا أين أينا

وكقول الآخر :

وكانت فزارة تصلى بنا فأولى فزارة أولى لها

ونظيره فى القرآن كثير ، كقوله : " ان مع العسر يسرا " ، وكالتكرار فى قوله :

١- البيان والتبيين ج ١ ص ٨٥ ط السندوبى

٢- مناهج تجديد ص ٥٠ .

" قل يأيها الكافرون " ، وهذا فيه معنى زائد على التكرار ، لأنه يفيد الاخبار عن الغيب)(١)وليس هذا التكرار فى كلمة أو جملة مما يحتاج الى القول الكثير .

وفى الثانية : عرض القاضى لموضوع التكرار الذى نحن بصدده ، فى ثنايا كلامه عن بديع تأليف القرآن وحسن نظمه ، وأنه يتبين لمن كان من أهل الصنعة اذا عمد الى قصة من هذه القصص ، وحديث من هذه الأحاديث ، فعبر عنه بعبارة من جهته ، وأخبر عنه بألفاظ من عنده فانه يرى فيما جاء به النقص الظاهر ، ويتبين فى نظم القرآن الدليل الباهر . . وعرج من هذا على التكرار فقال : (ولذلك أعاد قصة موسى فى سور على طرق شتى ، وفواصل مختلفة مع اتفاق المعنى ، فلعلك ترجع الى عقلك وتستر ما عندك ، ان غلطت فى أمرك ، أو ذهبت فى مذاهب وهمك ، أو سلطت على نفسك وجه ظنك) (٢) .

وأنت واجد أن هذا القول لم ينل من المسألة الصميم ، ولم يخض الغمار ، وهل يريد أن يعلل التكرار بأنه مظهر لحسن النظم ودقته ، أو لم يرد أن يدفع شبهة التكرار وما يثار حوله ؟! وان كان يتحدث فى ختام عبارته عن الغلط والوهم والظن ! ! (٣)

ثم هذا السكاكى شيخ البلاغيين يتناول المسألة فى كتابه (المفتاح) ويسوقها من بين المطاعن على القرآن ليردها فيقول : " ومنها أنهم يقولون لا شبهة فى أن التكرار شىء معيب خال عن الفائدة ، وفى القرآن من التكرار ما شئت ، ويعدون قصة فرعون ونظائرها ، ونحو : فبأى آلاء ربكما تكذبان ، وغير ذلك مما ينخرط فى هذا السلك ، فيقال لهم :
أما اعادة المعنى بصياغات مختلفة فما أجهلكم فى عدها تكرارا وعدها من عيوب الكلام .

اذا محاسنى اللاتى أدل بها كانت ذنوبى فقل لى كيف اعتذر

---

١ ـ ص ٥١ اعجاز القرآن للباقلانى
٢ ـ ص ٨٨ المرجع السابق
٣ ـ مناهج تجديد ٢٠٧

أليس لو لم يكن في اعادة القصة فائدة سوى تبكيت الخصم بلو قال عند التحدى لعجزه : قد سبق الى صوغها الممكن فلا مجال للكلام فيها ثانيا لكفت . وأما نحو : فبأى آلاء ربكما تكذبان ، ويل يومئذ للمكذبين فمذهوب به مذهب رديف يعاد في القصيدة مع كل بيت ، أو مذهب ترجيع القصيدة يعاد بعينه مع عدة أبيات ، أو ترجيع الأذكار ، وعائب الرديف أو الترجيع اما دخيل في صناعة تفنين الكلام ، ما وقف بعد على الطائف أفانينه ، واما متعنت ذو مكابرة" (١) .

هذا رأى السكاكي في التكرار . ولكن " ان يهن الأمر في الرديف والترجيع فما أحسب احتجاجه لتكرار القصة بما قال يبين وجه ايثار القصة بهذا التكرار ، أو ايثار الجنة والنار ، وهلا كان يجيء ذلك في القرآن كله ؟ وربما كان أقطع للمعذرة في هذا أن يجاء بقرآن ، أو قرآنات حسما لتعلل من يتحدى !!! " (٢) .

ثم يجيء بعد ذلك الامام يحيى بن حمزة العلوى فيتناول المسألة في كتابه (الطراز) ويقول ما خلاصته : أن التكرير على جهة الشرح لفؤاد رسول الله صلى الله عليه وسلم والتسلية له ، فليس تكرارا في الحقيقة .
وثانيا : انما كرر القصص لفوائد ، وما هذا حاله فليس تكرارا في الحقيقة .
وثالثا : لأن الله تعالى لما تحدى العرب بالاتيان بمثل القرآن ، ربما توهم متوهم أن الاتيان بمثله مستحيل من جهة الله تعالى ، فلا جرم كرر القصص ليعلم أنه غير مستحيل من جهته ، وانما الاستحالة كانت متعلقة بالخلق دونه .

ومن وجه آخر هو أن التكرير انما ورد لتأكيد الزجر والوعيد ، كقوله تعالى ، " كلا سوف تعلمون ، ثم كلا سوف تعلمون ، كلا لو تعلمون " . ثم ان التأكيد مستحسن في لغة العرب ، فلهذا وردت هذه التكريرات على جهة التأكيد ، ولو كان ما أتى به مخالفا لأساليب العرب في كلامهم لكان ذلك من أعظم المطاعن لهم ، فلما سكتوا عن ذلك دل على بطلان ما زعموه من

---

١ = ص ٢٤٧ من المفتاح
٢ = مناهج تجديد ص ٢٠٨

من الطعن بالتكرير (١) .

ويعلق الخولى على ذلك بقوله : ان العلوى تحدث "عن تكرار القصص فقط ، وفي القرآن مكررات أخرى ، كالذى ورد في قول الجاحظ من الجنة والنار ، بل كالذى يذكره هو نفسه - أى العلوى - من تأكيد الزجر والوعيد . ثم دفع توهم أن الله لا يستطيع الاتيان بمثله مطلب ليس قريبا ، والتوهم غريب ، وان يكن فليس يكون في القصص فقط ، فقد يستطاع الاتيان بمثل القصص ، ولا يستطاع الاتيان بمثل الأحكام مثلا . ثم ليس سكوت العرب عن الطعن مانعا من أن يذكره من تأخر عنهم ، ولا فيه دليل على بطلان ما زعم المعترض به ، ما دامت اللغة وأدبها من نصيب من يستعملها ويعاجز فيها (٢) .

وفي العصر الحديث جاء الأستاذ الرافعى ليكشف عن سر التكرار في القرآن فقال : " فانه في الحقيقة سر من أسرار الأدب العبرانى جرى القرآن عليه في أكثر خطابهم خاصة ، ليعلموا أنه وضع غير انسانى ، وليحسوا معنى من معانى اعجازه فيما هم بسبيله ، كما أحس العرب فيما هو من أمرهم اذ كان أبلغ البلاغة في الشعر العبرانى القديم أن تجتمع له رشاقة العبارة وحسن المعرض ووضوح اللفظ ، وفصاحة التركيب ، وابانة المعنى ، وتكرار الكلام لكل ما يفيده التكرار ، توكيدا ومبالغة وابانة وتحقيقا ونحوها ، ثم استعمال الترادف في اللفظ والمعنى ، ومقابلة الاضداد وغيرها ، مما هو في نفسه تكرار آخر للمحسنات اللفظية ، وتحسين للتكرار المعنوى " (٣) .

ويقول الأستاذ الخولى : ان هذا البيان لا يكفى في توجيه هذا الحديث العام عن شئون في الأدب العبرانى ، ولا يكون القول فيها بمثل هذا التعجل والالمام القاصر ، ولا ذاك التعميم ومجمل الكلام . ثم كيف كان هذا التكرار سرا لم يدركه الا اليهود الذين عنوا به ، وانه اذ ذاك لمما تجد العرب غرابته ويصح الطعن به ما دام قد خرج مخالفا لمألوفهم نابيا عن طريقه في

١- انظر رأى العلوى ملخصا في مناهج تجديد ص ٢٠٨ ، ومفصلا في الطراز جـ ٣ ص ٤٤٤

٢ مناهج تجديد ص ٢٠٨ و ٢٠٩

٣- اعجاز القرآن للرافعى ص ٢٥٦ و ٢٥٧

مخاطبتهم .. والجاحظ نفسه حين يعلل بهذا تكرار ما خوطبت بــــه يهـــود ، يذكر أن فى القرآن تكرارا لشئون أخرى من الثواب والعقــاب وليست هذه مما يختص به بنو اسرائيل ، أو يفردون بادراك سره (١) .

" تلك آراء فى التكرار أشهر أنها لا تزال تفسح مكانا لمحاولة تعليــل يقوم على اعتبار نفسى انسانى عالمى ، تؤيده شواهد من أحوال النفــس البشرية واتجاهاتها ، ولعله يصح أن يكون من وجه ذلك ما يســوقه النفسيون من : أن التكرار من أقوى طرق الاقناع ، وخير وسائط تركيز الرأى والعقيدة فى النفس البشرية ، على هينة وفى هوادة ، دون استثارة لمخالفيها بالجدل أو المشادة فى نظم البرهان والتعرض البادى للاستدلال ، الــى آخر ما يسوق علماء النفس على ذلك من شواهد ومثل عملية تغنى عـــن اختراع الوجوه فى تعليل التكرار القرآنـى ، وجعله مثار الجدل والاختلاف (٢) .

وأخيرا فان هذا ـ الاعجاز النفســى ـ وجه من وجوه الاعجــاز لم ينضج بعد ، فهو ما يزال فكرة فى بدايتها ، تحتاج الى كثير مــن الدراسة والبحث ، فلعلها بعد ذلك تصبح الوجه المفضل من وجـــوه الاعجــاز .

---

١ ـ مناهج تجديد ص ٢١٥ .

٢ ـ المرجع الســـابق .

الفصـــل الثانـــى

الاعجاز العلمـــى :

ظهرت فى العصر الحديث نزعة علمية حاولت أن تحلل الاعجاز القرآنـــى بأسباب علمية ، هدفها اثبات مسايرة القرآن لكل ما يجد من مكتشـــفات ومخترعـــات .

ويقول د . حفنى شرف : لعل السر فى هذا الاتجاه بفكرة اعجـاز القرآن ، وتفسيره التفسير العلمى راجع الى رد الفعل العنيف الـــذى أحدثه الاتصال بأوربا وامتزاج الثقافة العربية والاسلامية بالثقافـــة الأوربية ، وكذا ما بهر العلماء من علوم ومخترعات حديثة ، فحاول هـؤلاء المفكرون أن يرجعوا الى تراثهم العربى الاسلامى مستنبطين منـــه أصول هذه العلوم ، وخشوا اذا هم لم يفعلوا أن يظهروا القرآن غيـر مساير للزمن فى أعين أنصاره ومتبعيه ، وأن تتزعزع العقيدة فى قلـــوب أناس بهرهم زبرج المدنية الحديثة ولألاؤهـــا (١) .

وقد عارض بعض العلماء هذا الاتجاه فى تفسير آيـــات القرآن الكريـم ورأوا أن نصوص القرآن يجب أن تكون بعيدة عن هذا التفسير العلمى ، لأن النظريات العلمية لا تكاد تأخذ صفة الثبوت والاستقرار ، فقد تثبـــت القضية الكونية لدى جيل من الأجيال حتى تصبح أمرا ثابتا لا يجوز عليـه الاختلاف ، ثم يأتى جيل آخر وينقض ما أثبته الجيل الأول ، وبذلك تتعرض النصوص القرآنيـــة للتأويلات المختلفة ، وبذلك تصبح الآية الواحدة دليـلا للاثبات فى زمن ، والنفى فى زمن آخر ، وهذا عبث يجب أن ننزه كتاب اللـه تعالى عنـــه (٢) .

هذا وقد أصدر كتاب الهلال عددا خاصا عن القرآن حافلا بأقـــلام عديد من العلماء الذين تناولوا هذه الناحية من الاعجاز العلمى . فـــى ديسمبر سنة ١٩٧٠ م وكذلك فى أعداد مختلفة من الرسالة ومجلة الازهر .
وقد ذهب كل من الفريقين يؤيد رأيه ويرجح وجهة نظره :
فالذين يرون أن يفسر القرآن تفسيرا علميا تؤيده النظريات المستحدثـة

١ـ اعجاز القرآن البيانى : ص ٢٠٢
٢ـ الرسالة : العدد ٧٠٥

يحتجون بأن القرآن ليس للعرب فقط حتى يكون اعجازه بلاغيا يلمسه الفصحاء وحدهم ، ويدركه من فهموا أسرار البيان العربى من ذكر وحذف ووصل وفصل ، ولكنه اعجاز بشرى يشمل الناس كافة من أسيويين وأوربيين وأمريكيين وأفريقيين ، وهؤلاء العجم من غير العرب يستطيعون أن يفهموا نواحيه العلمية والنفسية والاجتماعية ، فلو اقتصر الاعجاز القرآنى على الوجه التشريعى أو البلاغى لفات هؤلاء جميعا أن يروا أقباسا وضيئة من نور الله ، كما أن القرآن الكريم ليس خاصا بجيل واحد من الأجيال ، فنحصر تفسيره فيما يروى عن الصحابة والسلف من الأقوال ، ومن حق كل جيل أن يفهم منه ما يمتد اليه بحثه العلمى والنفسى والاجتماعى من استنباط وقياس . فاذا حاول أبناء القرن العشرين أن يجدوا فى بعض آياته تعضيدا لما سطعت به الفتوح العلمية من حقائق فانهم بذلك يزدادون ايمانا مع ايمانهم . وهذا كسب كبير للنصوص الدينية فى عهد يفيض بالشكوك ويمتلئ بالالحاد . على أن هؤلاء الملاحدة المتشككين لا يجدون حجة يستطيلون بها على المؤمنين اذا وجدوا الحقائق العلمية تؤيد ما يتشككون فيه من هدى كريم ، فتخرس ألسنتهم أمام الحجج الساطعة ، ويجد كتاب الله من النظريات الثابتة أسسا تدعمه ، وأركانا وطيدة تقويه وتعليه .

هذا هو أهم ما يحتج به أنصار التفسير العلمى للقرآن ، أورده الاستاذ محمد احمد الغمراوى أكثر من مرة فى أعداد مختلفة من الرسالة (١) .

وقد وضع الأستاذ الغمراوى حدودا وقيودا لهذا التفسير العلمى فقال : يجب أن ننبه الى أمرين مهمين (٢) :

الأول : أنه لا ينبغى فى فهم القرآن أن نعدل عن الحقيقة الى المجاز الا اذا قامت القرائن الواضحة تمنع من حقيقة اللفظ وتحمل على مجازه ، لأن مخالفة هذه القاعدة قد أدى الى كثير من الخلط فى التفسير .

أما الامر الثانى : فهو أنه ينبغى ألا نفسر كونيات القرآن الا باليقين الثابت من العلم ، لا بالنظريات ولا بالفروض ، لأن الحقائق هى سبيل التفسير

١ــ الرسالة : الأعداد ٦٤٦ ، ٧٠٥ ، ٧٠٦

٢ــ الرسالة : العدد ٧٠٥ .

الحق هي كلمات الله الكونية ينبغى أن يفسر بها نظائرها من كلمات الله القرآنية ، أما الحدسيات والظنيات فهى عرضة للتصحيح والتعديل ان لم يكن للابطال فى أى وقت .

وقد جاء الأستاذ الأكبر محمد مصطفى المراغى - رحمه الله - بقيد ثالث حين قال : " يجب ألا نجر الآية الى العلوم كى نفسرها ولا العلوم الى الآية كذلك ، ولكن ان اتفق ظاهر الآية مع حقيقة علمية ثابتة فسرناها بها " (١) .

ويمكن للقارئ أن يأخذ هذا القيد مستشفا من خلال القيدين السابقين الا أننى آثرت أن أسجله صريحا واضحا ليكمل التوجيه المحتوم لمن يتعرض الى كتاب الله بتفسير علمى رشيد (٢) .

أمثلة توضيحية للاعجاز العلمى :

يقول الله تعالى فى سورة الأنعام : " ان الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى ذلكم الله فأنى تؤفكون " .

هذه الآية الكريمة اذا تعرض لتفسيرها رجل الدين فانه لا يرى فى معناها أكثر من المعنى الظاهري الذى يتمثل فى أن الله سبحانه وتعالى هو الذى يهيمن بقدرته على مصير الحبة الجافة والنواة الساكنة فيهب كليهما الحياة وتنشق كل منهما عن جنين أو بادرة صغيرة فيها حياة بعد سكون ، فنراها وقد ارتفع ساقها الى الشمس والهواء واتجه جذرها الى الأرض باحثا عن عناصر الغذاء . هذا هو المعنى الظاهرى .

ومع أنه صالح لأن يثير مكامن الفكر عند الرجل العادى ، ويوضح له عظمة الله فيما خلق ، ويريه كيف أن الحبة الصغيرة أو النواة الضئيلة تنفلق وتنشق عن شجرة ضخمة أو نخلة عظيمة أكبر بملايين أو بلايين المرات من هذه البذرة التى قد يحمل منها العشرات على أحد كفيه . مع ذلك فان رجل العلم يرى فيها قولا عميقا راسخا رسوخ الجبال الراسيات .

لقد عرفنا مثلا عن طريق العلم أن للحبة أو نواة البلحة نوى من داخل نوى وأنه جميعا ينفلق وفى فلقه تكمن فكرة الموت والحياة .

ولكن ما المقصود بالنواة ؟ انها لب الشئ أو وسطه أو مركزه ..

١- مجلة الأزهر - المجلد السادس - ص ٦٣٥ .

٢- راجع البيان القرآنى : د . رجب البيومى : ص ٢٨٢ - ٢٨٥ .

فلكل شيء في الكون مركز أو نواة ، ولا يقتصر هذا على نظرتنا القاصرة في نواة البلحة أو ما يشبهها كما يذهب البعض في التفكير والتفسير، ولكننا نرى فيها صورا رائعة نستطيع أن ننهل من مواردها الكثير .. ثم اذا بنا في النهاية نرى وحدانية الخالق تتجلى لنا في وحدة خلقه من أصغر الاشياء الى أكبرها .

فللذرة نواة تتوسطها وتسيطر على شخصيتها ، لأنها هي الأساس وقد تنفلق النواة أو تنشطر ثم تلتحم .. وهي الأساس الذي تقوم عليه حياة شمسنا من قديم الأزل ، كما أن الاضواء أو الانوار التي تنتشر في كل أرجاء الكون من بلايين البلايين من النجوم أو الشموس ولبلايين السنين انما تقوم أساسا على هذه العملية .. فحياة الشمس كجرم سماوي منير تعتمد على عملية انفلاق والتحام في نوى ذراتها ، وهو ما نعبر عنه بالطاقة الشمسية أو النجمية ، ولو توقفت لتوقفت حياتها وحياتنا تبعا لذلك .

اذن فهناك موت وحياة على المستوى الذرى ، وكذلك على المستوى الشمسى أو النجمى ..

وللخلية الحية في كل المخلوقات نواة تتوسطها ، وتهيمن على كل أسرار الحياة فيها .. وهي بدورها تنفلق أو تنقسم ، ولولا هذه العملية لما تكاثرت المخلوقات على هذا الكوكب .

ولقد بدأت حياتنا بخلية ملقحة جاء نصفها من الاب ونصفها من الام ، فأصبحت واحدا ، والواحد ينقسم الى اثنين فأربعة فثمانية فستة عشر ف .. ف .. فمليون فعشرات ومئات وآلاف الملايين .. فلق من وراء فلق لتتكاثر الخلايا وتنمو وتتميز الى أنسجة وأعضاء .

اذن فلا بد أن تنفلق النواة .. ولكن من وراء هذا الفلق فلق آخر في مكونات النواة ذاتها ، في أشياء تبدو لنا من خلال عدسات (الميكروسكوب) كحلق أو دود صغير ، في كل خلية من الخلايا الجسدية ٤٦ من هذا الحلق الدقيق ، وهذا الحلق هو عبارة عن مكونات يطلق عليها اسم (الكروموسومات) أو المورثات وكأنما كل كروموسوم منها بمثابة نواة أصغر في داخل نواة أكبر لان الكروموسوم ينفلق أيضا عند كل عملية انقسام الى نصفين ، ثم يكمل كل

نصف نفسه ليصبح واحدا •

ومن هذه العملية ينتج لنا ٢١ كروموسوما يهاجر نصفها الى أحد قطبي الخلية والنصف الآخر الى القطب الثاني •• وعند كل قطب تتكون نواة جديدة بها ٣٦ كروموسوما ثم تبني الخلية الأم بينهما حاجزا أو جدارا •• وبهذا تصبح الخلية الأم خليتين جديدتين تنمو كل منهما وتكبر لتصبح — أما — ثم تنقسم من جديد وهكذا تسير الأمور•

اذن ففي الخلية فلق أو انقسام بعد فلق النواة •• وفي النواة فلق وانقسام بعد فلق الكروموسومات •• ولكن السر لم ينته عند هذا الحد لأننا عندما ننظر الى الكروموسوم من خلال عدسات الميكروسكوب الضوئي فاننا لا نرى الا الظاهر أما الباطن فلا يزال عن عيوننا وعيون ميكروسكوبنا غامضا أشد الغموض •• والى هنا تظهر أجهزة العلم الحديث وأدواته المتطورة الدقيقة ، ومنها الميكروسكوب الأليكتروني الذي يكبر مكونات النواة بدرجات فائقة ، فيرينا تفاصيل أدق وأسرارا أعظم وكأنما في داخل الكروموسوم نوى جديد تجرى عليه عملية الانفلاق كما هو الحال في فلق خلية ونواة وكروموسومات •

ان أقرب تشبيه يمكن أن نقدمه لتوضيح الصورة هي أن نتصور (سوستة) الملابس التي نفتحها فتنفرج الى نصفين ثم نغلقها فتصبح على هيئة شريط مقفل • كذلك وجد العلماء أن في الكروموسوم أشياء أشبه بأشرطة مجدولة وعندما يريد الشريط أن يضاعف نفسه ، أو أن يخلق نسخة من ذاته فانه ينفلق الى نصفين ، وعلى كل نصف أن يكمل نفسه ليصبح واحدا •

بقي أن نعرف أن شريطنا هذا ليس الا جزئيات عملاقة من الأحماض النووية -نسبة الى نواة — أو أنه شفرتنا الوراثية ، أو هو بمثابة كتابنا المكتوب داخل نواة الخلية لكي تتحول معلومات من البداية الى أوامر كيميائية تبني لنا البروتينات وهذه بدورها تسيطر على كل العمليات الحيوية التي تجرى في ملايين الملايين من خلايا الجسم •

والموضوع بعد ذلك طويل جدا وعلينا أن نعود الى هذا الجزء من الآية •

<u>فالق الحب والنوى :</u>

رأينا من اللمسات الخفيفة التى قدمناها أن الفلق ليس مقصورا على تلك الصورة الظاهرية التى تعرض لها المفسرون من قبل ولكنه يتعداها الى خلية فى نواة بلحة أو أى مخلوق نشاء ، ثم الى نواة فى قلب خلية ثم الى كروموسوم فى نواة خلية ، ثم الى جزئيات وراثية فى كروموسوم نواة ..

وكلها تسير بكفاءة واحدة وهدف واحد وجميعها يسرى بنظم رائعة وقوانين متقنة فاذا بنا نقف خاشعين متعبدين أمام هذه القدرة وهذا الجلال .

واذا بالحواس كلها تكاد تصرخ من الأعماق : هنا فى الأرض نرى عظمة الله هناك فى السموات نرى جلاله .. وكلما تعمقنا وجدنا سر اعجازه فى نواة ذرة .. فى نواة جزىء .. فى نواة خلية .. فى كل ما يحيط من مخلوقات حية وساكنة .. صنع الله الذى أتقن كل شىء ..

ولكن مايدرينا أن هذا النوى هو ما يعنيه القرآن ويقصده ؟

لسنا فى الواقع ندرى ، ولا نستطيع أن نؤكد تمشيا بذلك مع روح العلم .. ولكن يكفى أن نقول : ان كثيرا من الآيات القرآنية قد جاءت مكتفية بالاشارة والتلميح دون الاسهاب والتوضيح .. ذلك أن القرآن كتاب دين وعقيدة فى المقام الأول ، وليس من المعقول أن يتعرض لكل هذه الأسرار خاصة وأنه قد نزل على أعراب ليس لهم معرفة أو دراية بنوى ذرات وجزئيات وخلايا وكروموسومات ، ولكن الحبة ونواة البلحة تناسب تفكيرهم .. وهى فى نفس الوقت تناسب تفكير القرن العشرين أو ما بعد العشرين ، فلقد تركت الآية دون تحديد ومع ذلك فانت تستطيع أن تحدد معناها بقدر ماتعمقت فى نظام الخلق ، وهى أيضا مازالت تناسب رجل الشارع والمزارع والأعرابى ورجل الدين والعلم فسر اعجاز القرآن أنه صالح لكل مستويات التفكير عند الانسان .(١)

" واذا كانت بعض الآيات الكونية لاتزال فى دور التطبيق الصريح فان أكثر الآيات الطبية قد وجدت من العلم نصيرا مجندا ، فأصبح من الاعجاز العلمى للقرآن أن نقرأ قوله تعالى : والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ، وقوله : والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن

١- راجع : علماء الطبيعة كيف يقرؤون القرآن ؟ للدكتور عبدالمحسن صالح الهلال عدد خاص عن القرآن ديسمبر سنة ١٩٧٠م ص ٢٨ - ٣٨

أراد أن يتم الرضاعة ، وقولــه : فلينظر الانسان مم خلق ؟ خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب • ونحو ذلك مما انبسط فيه مجال القول للمتخصصين فكان احدى معجزات القرآن الكريم (١)•

ويرى الدكتور مصطفى محمود فى كتابه عن القرآن أن الآية الكريمة " يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل " هذه الآية لايمكن تفسيرها الا أن نتصور أن الأرض كروية •• ويشرح الآية الكريمة : "ثم ان علينا بيانه " بأن الله عز وجل سوف يشرحه ويبينه فى مستقبل الأعصر (٢)•

هذا هو رأى الفريق الأول الذى يرى أن القرآن ليس وقفا على اللغويين وعلى رجال الدين وحدهم ، وانما هو دائرة معارف يجب أن يشترك فى محاولة فهمها العالم والمتدين والفلكى والكيميائى وغير ذلك من العلماء المتخصصين فى فروع الثقافة الانسانية المتنوعة •

أما الفريق الآخر فيعارضون التفسير العلمى ، ويذهبون الى أن القرآن قد خاطب العرب أول من خاطب من الناس وهم قوم أميون لا يحتاجون فى فهم النصوص الصريحة الى التغلغل فى العلوم الكونية والرياضيات الهندسية وقد واجههم القرآن بما فى مقدورهم أن يستوعبوه من الكلام فأدى رسالته معهم على أحسن وجه يتاح اذ فهموا مبادئه ودرسوا شرائعه دون أن تكون لهم حاجة الى نظرية علمية أو فلسفة كونية ، فعلى المفسرين أن يفهموا من القرآن ما فهمه العرب الاوائل اذ أن كتاب الله لسان هداية ومدار توجيه أنزله الله على نبيه ليخرج الناس من الظلمات الى النور ، لا ليتحدث عن أسرار البرق والرعد والمطر والرياح ، ولا ليحدد مواضع الشمس والقمر والنجوم والبحار والجبال ثم ان النظريات العلمية فى الكون -كما أشرنا سابقا = لا تستقر على حال فقد تثبت القضية الكونية لدى جيل من الأجيال حتى تصبح أمرا بدهيا لا يجوز فيه الاختلاف ، ثم يدور الزمن فيجد من النظريات ما يقلب الاولى رأسا على عقب ، فاذا فسرنا القرآن بمقتضى النظر العلمى فاننا

١- البيان القرآنى : ص ٢٨٦
٢- كتاب الهلال ديسمبر ١٩٧٠ ص ١٥٧ بتصرف

نجعله ميدانا للتأويل المتناقض المضطرب حتى ليجوز أن تتخذ من الآية الواحدة دليلا للاثبات فى زمن والنفى فى زمن آخر ، ومثل ذلك عبث بالغ يجب أن يتنزه عنه كتاب الله (١).

ومما جعل الآذان تصغى كثيرا لهذا الفريق أن أناسا ممن لا يجمعون بين النظر الثاقب والعلم الصحيح قد دفعهم حب الابتكار الى تفسير بعض الآيات تفسيرا بدائيا لا يستند الى دليل ، فحين يظهر مكتشف ما من المكتشفات يسارع هؤلاء **السطحيون** فيقتطعون من كتاب الله ما يوهم صاحب النظر المتسرع أنه يسير مع المكتشف الحديث ، يملئون الصحف هراء بتمحلاتهم الكاذبة وافتياتهم المقيت ، ويدعون عند ذلك أن كتاب الله قد ألقى اليهم بأسراره ، فهم قديرون على أن يستنبطوا منه قضايا العلم الحديث ، وينسون أنهم فى تمحلهم الكاذب يخبطون خبط عشواء .

نجد أحد هؤلاء يتحدث عن التصوير الشمسى فيستدل بقوله تعالى : " ألم تر الى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا " أو يتحدث عن القمر الصناعى فيستدل بقول الله : " اقتربت الساعة وانشق القمر " أو يلم بآلة التسجيل الهوائى للاصوات فيستشهد بقوله تعالى : " وكل انسان ألزمناه طائره فى عنقه " أو يشير الى تحطيم الذرة فيقرأ قول الله : "وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب ".

من أجل ذلك كتب فضيلة الأستاذ الاكبر الشيخ محمود شلتوت ردا وافيا يفند به ما ذهب اليه هؤلاء الأدعياء من تعسف مقيت ، وبسط الحجج المقنعة على فساد نظرهم الطائش واستدل بالنقل والعقل على شططهم الكريه ثم قال فى ختام حديثه :

فلندع للقرآن عظمته وجلاله ، ولنخلع عليه قدسيته ومهابته ولنعلم أن ما تضمنه من الاشارة الى أسرار الخلق وظواهر الطبيعة انما هو لقصد الحث على التأمل والبحث والنظر ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم ، وحسبنا أن القرآن لم ولن يصادم حقيقة من حقائق العلوم تطمئن اليها العقول (٢).

١- المرجع السابق . بتصرف . وراجع البيان القرآنى ص ٢٨٦ - ٢٨٩

٢- الرسالة : العدد ٤٠٨ لسنة ١٩٤١ .

الفصل الثالث

الاعجاز العددى

هذا وجه آخر جديد من وجوه الاعجاز طالعنا به حديثا الأستاذ عبدالرزاق نوفل ألا وهو الاعجاز العددى فى القرآن الكريم .

وهذا الوجه من الاعجاز ـ كما يقول ـ وجه قاطع فان دليله العدد والحساب ، والعدد لا يختلف والحساب لا يخطىء .

وهذا الوجه من الاعجاز لا يمكن لأى باحث أو دارس أو قارىء أن يستعرضه الا يؤمن الايمان الكامل المطلق أن هذا القرآن لا يمكن الا أن يكون وحى الله سبحانه وتعالى لآخر انبيائه وخاتم رسله لأنه شىء فوق القدرة ، وأعلى من الاستطاعة ، وأبعد من حدود العقل البشرى . ان التوازن والتناسق العددى فى موضوعات القرآن الكريم لا يمكن أن يكون مصادفة قدرية ، أو واقعة عشوائية ، أو حادثة عفوية لأنه توازن مقصود وتناسق غير محدود .

ترى أى قوة أو طاقة بشرية ، أو ما كانت من الأجهزة الحاسبة أو العقول الالكترونية ، يمكنها أن تحدد هذه الأعداد المتساوية فى ألفاظ الموضوعات المتشابهة ، أو المتماثلة ، أو المترابطة ، أو المتناقضة .. ثم توزعها هذا التوزيع الدقيق منفردة ومتباعدة فى مختلف آيات القرآن الكريم التى يبلغ عددها بضع مئات وست آلاف آية .. وتأتى الآيات بعد ذلك قمة فى البلاغة والبيان وروعة فى الصياغة والاتقان .. ترى اذا كان لا يمكن ولو تعاون البشر اجمعون ، فكيف بالأمر ان كان هذا الفرد من الأميين صلى الله عليه وسلم .

ان التساوى فى عدد الألفاظ لموضوع بعدد ألفاظ موضوع آخر لمما يشير الى أكثر من أمر .. وما أخطرها من أمور ، ويوضح أكثر من حقيقة وما أجلها من حقائق .

لهذا طالبنا القرآن بالتدبر فى آياته والتذكر والتفكر فى أوجه معجزاته ، وتقول آياته الشريفة : "كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا

آياته وليتذكر أولوا الالباب " (١) ، " أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها " (٢) .

وقد أوضح التدبر في آياته أنها معجزة بلاغية ، ودعوة أخلاقية ، ثم ثبت أنها مراجع تشريعية وأصول قانونية ، وأخيرا قرر العلم أنها تسبقه في ايرادها للحقائق العلمية .. وها نحن اليوم نجد بالتدبر وجها جديدا من اعجاز القرآن الكريم .. انه الاعجاز العددى ..

ها هو ذا القرآن الكريم يميزه ـ ضمن ما يتميز به ـ التساوى والتوازن والتناسق والتناسب العددى ، شأنه في ذلك شأن كل ما خلق الله من موجودات كونية ، أفلا يكون قطعا وصدقا وحقا ويقينا هو وحى الله المنزل على خاتم رسله وأنبيائه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . ويكون بذلك هذا التساوى والتناسق والتوازن وجها جديدا من أوجه الاعجاز العديدة التى يكشف عنها التدبر والتفكر والتأمل .. الا انه وجه لا تختلف في نتيجته الآراء ، ولا تتعدد الاتجاهات ، فهو ليس بتفسير أو تأويل تتعارض فيه الاجتهادات ، وتتباين النظريات ، ولكنه حساب وأرقام وحقائق الحساب دائما قاطعة ، وشواهد الأرقام أبدا دامغة (٣) .

وحين خرج الجزء الأول من " الاعجاز العددى " الى الوجود ، انقسم العلماء الى فريقين .. فريق يعارضه ويرى أن الاعجاز العددى للقرآن فتنة جديدة تقوم على المغالطات والأوهام ، وأن هذا الاعجاز من شأنه أن يحول القرآن الى كلمات متقاطعة .. الخ .. وفريق آخر يؤيده ويرى أن هذا الاعجاز العددى رد دامغ على الملحدين الذين لا يؤمنون الا بالأرقام والحساب والأعداد التى لا تقبل الشك أو الجدل .

من الفريق الاول : الشيخ عبدالجليل عيسى ، والاستاذ عبدالكريم الخطيب .

ومن الفريق الثانى : الشيخ عبدالرحيم فودة ، والعالم المجاهد الشيخ عبدالحميد كشك ، والشيخ صلاح أبو اسماعيل ، والشيخ عبدالرحمن البنا ، ولفيف من علماء وأساتذة ورجال جامعة الأزهر الشريف ، والدكتور مصطفى محمود الذى اعتبر هذا الاعجاز فتحا جديدا في ميدان الدراسات

١ـ ٢٩ من سورة ص .

٢ ـ ٢٤ من سورة محمد

٣ـ راجع خاتمة الاعجاز العددى جـ ١ ص ١٨١ ـ ١٩٢ ط ٢ .

القرآنيـــة (١) •

ونظرا لهذا التشجيع الكبير من الأساتذة والعلماء أخرج الأســـتاذ عبد الرزاق نوفل ثلاثة أجزاء فى الاعجاز العددى للقرآن الكريم • وقـــال فى خاتمة الجزء الثانـــى :

هذا التساوى العددى فى الموضوعات التى يتضمنها هذا الجـــزء الثانى ، بالاضافة الى التساوى فى الموضوعات السابق ايضاحها فى الجزء الاول ، انما هى مجرد أمثلة وشواهد وعبارات واشارات ، فما زالت الموضوعات المتشابهة أو المترابطة أو المتناقضة المتساوية الأعداد أو المتناســـبة الأرقام تفوق الحصر ولا تدركها الطاقة •

والبحث فى الأعداد ذاتها ومناقشتها ، بل مجرد النظرة العابـــرة لها ، يقود الانسان الى جانب آخر من جوانب هذه المعجزة العدديـــة يزيدها وضوحا واشراقا وعمقا وبعدا •

فان الأرقام التى ورد بها التساوى فى الموضوعات مختلفة عن بعضهـــا جدا ، ومتباعدة الواحدة عن الأخرى شوطا ، فليست المعجزة العددية قاصرة على قلة من الأعداد تتكرر فى كل موضوعات القرآن الكريم ، اذ أن كثرة الأعداد واختلافها تزيد من عمق المعجزة ، وتوضح مدى قدرها ، فمثـــلا كانت الأعداد التى تساوت بها موضوعات الجزء الأول من الكتاب هى :

٤ـ٥ـ٧ـ١٠ـ١٢ـ٢١ـ٢٧ـ٣١ـ٤٥ـ٥٠ـ٧٠ـ٨٨ـ١١٥ـ١٤٥ـ١٤٨ـ١٨٠ـ٣٦٨ـ٨١١ •

وهذه أعداد اختلف بعضها عن بعض كثيرا ، فهى مثلا تبدأ مـــن ٤ وتنتهى بالعدد ٨١١ وتكون ١٧ عددا تساوت به هذه الموضوعات •

والأعداد الجديدة التى تساوت بها موضوعات هذا الجزء الثانى هى :

٦ـ١١ـ١٢ـ١٤ـ١٦ـ١٧ـ٢٣ـ٢٥ـ٣٢ـ٣٧ـ٤١ـ٤٩ـ٦٠ـ٦٢ـ٦٨ـ٧٣ـ٧٥ـ٩٢ـ١٥٤ •

وهى أيضا أعداد كثيرة تبدأ من ٦ وتنتهى بالعدد ١٥٤ ولم تتكـــرر فى المجموعة الأولى •• فالأمر اذن ليس فى بضعة أعداد تتكرر بها آيـــات

١ـ راجع المحركة على صفحات الأخبار أعداد ٢٧/٦/١٩٧٥ و ٤/٧ و ١١/٧ و ١٤/٧

القرآن الكريم وانما لكل موضوعين أو أكثر عدد خاص بها .. حقا وصدقا .. سبحان اللـــــه .

ويرى الأستاذ عبد الرزاق نوفل أن هذه الأرقام لها دلالات خاصة وذات أسرار هامة ، ويتساءل في أي جيل سيكون الفتح بسر هذه الأرقام .

ويقول : ان أمر الاعجاز العددي أبعد مما يرى وأعمق مما يتصور وأسمـــى مما يظن ، فهناك الأسرار التي ما زالت تحتاج الى جهد جهيد وفتح مبين ، وان بدأت بعضها في الاشراق فانما هي علامات على الطريـــــق أو أضواء بين يدي نور عظيم .. ولكن ما نريد اعلانه هو أن هذا التســـاوي الرهيب ، وهذا التناسق العجيب في كل موضوعات القرآن الكريم وألفاظـه يقطع بلا أدنى شك أو جدل أن القرآن وحي الله سبحانه وتعالى .. فما كان لرسول الله وهو الأمـــي .. ولا للعلماء في زمانه .. ولكل علمـــاء العالم ولو اجتمعوا في مختلف الأجيال ايجاد هذا التساوي والتـــوازن في هذه الموضوعات بهذا القدر وهذا الاعجاز . اعرضوا هذه المعجزة على الآليات الاحصائية ، والعقول الحاسبة ، لتسمعوا الرد القاطـــــع والجواب الواضح :

" لا اله الا الله .. محمد رسول الله .. حقا وصدقـــا " .

" كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير "(١ من سورة هود)[(١)] .

أمثلة من الاعجاز العددي في القرآن الكريم :

الدنيـــا والآخـــرة :

لقد تكررت الدنيا في القرآن الكريم ١١٥ مرة وذلك بمثل النص الشريف :

" وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور "(١٨٥ آل عمران) .

وتكررت الآخرة نفس العدد أي ١١٥ مرة وذلك بمثل النص الشريف :

" ان في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة " (١٠٣ سورة هود) .

رغم أنهما لم يجتمعا في أكثر من حوالي ٥٠ آية في مثل النص الكريم :

" وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا "(٧٧ مـــن القصص) .

١ــ راجع خاتمة الجزء الثاني ص ١٥١ ــ ١٥٩ .

وانفردت الدنيا فى آيات ، والآخرة فى آيات أخرى ، ورغم ذلك يتساوى عدد مرات وورود كل منهما ١١٥ مرة الدنيا ، و ١١٥ مرة الآخرة فى كل آيات القرآن الكريم (١) .

الصيف والحر .. والشتاء والبرد :

تساوى عدد مرات ذكر الصيف والحر بعدد مرات ذكر الشتاء والبرد فى القرآن الكريم رغم اختلاف ورودهما فى آياته الشريفة اذ لم يجتمعا فى آية واحدة سوى مرة فى النص الشريف :

"لايلاف قريش ايلافهم رحلة الشتاء والصيف " (٢ من سورة قريش) .

ولم يرد بعد ذلك لفظ الشتاء أو مشتقاته ولا الصيف ومشتقاته ، فيكون الصيف ذكر مرة واحدة ، والشتاء ذكر أيضا مرة واحدة .

ولقد ورد الحر مرتين فى مثل النص الشريف : " وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر " (٨١ من سورة النحل) ، ومرة واحدة بلفظ حرا فى النص الكريم " قل نار جهنم أشد حرا " (٨١ من سورة التوبة) ، وأيضا مرة واحدة بلفظ الحرور فى قوله تعالى :" وما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور "(٢١ من سورة فاطر) .

وبذلك يكون الحر قد ورد ٤ مرات .

وورد البرد بلفظ بردا مرتين فى مثل النص الكريم : " قلنا يانار كونى بردا وسلاما على ابراهيم " (٦٩ من سورة الأنبياء) .

وكذلك ورد بلفظ بارد مرتين فى مثل النص الشريف :" اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب " (٤٢ سورة ص) .

ويكون البرد قد تكرر ٤ مرات قدر ما تكرر الحر .

وأن الصيف والحر تكرر ٥ مرات ، قدر ما تكرر الشتاء والبرد تماما (٢) .

الشياطين والملائكة :

تساوى عدد مرات ورود لفظ الشيطان وعدد مرات ورود لفظ الملائكة فى القرآن الكريم ، فقد تكرر لفظ الشيطان ٦٨ مرة فى مثل النص الشريف :

١ـ الاعجاز العددى ج ١ ص ١٣

٢ـ المرجع السابق : ص ٥٥ و ٥٦

" ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا " (٦ من سورة فاطر) •

وتكرر لفظ الملائكة ٦٨ مرة أيضا فى مثل النص الكريم : " اذ يوحى ربك الى الملائكة أنى معكم " (١٢ من سورة الأنفال) •

وبلفظ شيطانا فى آيتين فى مثل النص الكريم : " ان يدعون الا شيطانا مريدا " (١١٧ من سورة النساء) •

وبلفظ شياطينهم مرة واحدة فى النص الشريف : " واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم " (١٤ من سورة البقرة) •

وهنا يتحدى سؤال : هل المراد بشياطينهم فى هذه الآية : الشياطين الحقيقية المقابلة للملائكة أم المراد بها رؤساء المنافقين ؟

وقامت معركة بين الشيخ عبد الجليل عيسى وبين الأستاذين عبد الرزاق نوفل وعبد الرحيم فودة حول عد الشياطين فى هذه الآية من الألفاظ المقابلة للملائكة :

قال الشيخ عبد الجليل عيسى : ان المؤلف اذ يقابل بين الاسم ونقيضه لا يلتفت الى المعنى ، فهو مثلا اذ يدلل على التساوى العددى بين كلمة الملائكة وكلمة الشياطين ، يدخل لفظة الشياطين الواردة فى قوله تعالى : " واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم " يدخلها فى جملة عدد الشياطين ، مع أن المراد منها فى الآية رؤساء المنافقين كما أنه لم يجعل المقابلة بين الملائكة وابليس ، أو بين الملائكة وابليس والشياطين ، لأن ذلك لا يحقق له المساواة العددية التى يطلبها (١) •

ورد عليه الأستاذ عبد الرزاق نوفل وقال : انى أخالفه الرأى فى هذا التفسير ، فمتى قرر القرآن على أى جمع أنهم شياطين فهم شياطين واحترام قول القرآن يقضى بذلك ، ولا ينسى سيادته أن الشياطين منهم شياطين الانس وشياطين الجن اذ يقول الله تعالى : " وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الانس والجن " فهل بعد أن يقرر القرآن على رؤساء المنافقين أنهم شياطين نعترض ونقول بغير ما قال القرآن (٢) ؟

١ـ الأخبار : عدد ١٩٧٥/٦/٢٧ •
٢ـ الأخبار : عدد ١٩٧٥/٧/٤ •

وأيد الأستاذ عبدالرحيم فودة رأى الأستاذ نوفل فقال : وقد قرأت مما نشر عن بعض الأخطاء التى أخذت على هذا الكتاب فلاحظت أنها هنات هينات ... كانكار ذكر الشياطين فى مقابلة الملائكة بدعوى أن المراد بهم فى قوله تعالى: "واذا خلوا الى شياطينهم " روءساء المنافقين ولم يأخذ فى الاعتبار أن لقب شيطان يطلق على المتمرد من الانس والجن .

على أن الباحث لم يزعم أنه فسر معانى الكلمات حتى يوءخذ عليه قطعها من السياق ، ولم يزعم أنه أصاب التوفيق والصواب فى كل ما كتب ، وانما كان همه منصرفا الى اظهار وجه من وجوه الاعجاز هو كما قال : التساوى والتوازن والتناسق والتناسب العددى . فأى فتنة أو خطر فى هذا ؟ (١)

ورد عليهما الشيخ عبدالجليل عيسى ، فعقب على رد نوفل بقوله : انى لأخجل بالرد على مثل هذه البدهيات ، ولكنى أسأل هذا العالم : هل رأى انسانا تحول الى شيطان ؟ واذا سمع الناس يقولون : ان فلانا شيطان ، فهل يفهم من هذا أنه شيطان حقا ؟ ان الشيطان لا يظهر للناس عيانا كما يقول تعالى : " انه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم " . ان هذا استعمال مجازى ، وآسف أن يدور الحوار حول هذه البدهيات . (٢)

أما رده على الأستاذ فودة فيتلخص فى قوله : ان هذا الاطلاق على متمردى الانس لا يدخلهم بحال فى عالم الشياطين الذى هو عالم حقيقى مستقل بصورة الخلق التى خلقه الله عليها ، كما أنه لا يدخل الانسان القوى الى عالم الأسود اذا قالوا عنه : أسد فى شجاعته وقوته كذلك لا يدخل الانسان الى عالم الثعالب أو الذئاب أو الكلاب اذا قيل عنه انه ثعلب أو ذئب أو كلب أو نحو هذا مما يطلقه بعض الناس على بعض بصفة بارزة فيهم تشبه صفة هذا الحيوان أو ذاك . (٣)

ولندع هذا الخلاف بين العلماء الأجلاء ونكتفى بذكر ما قاله الأستاذ

١- الأخبار : عدد ١١/٧/١٩٧٥ .
٢- الأخبار : عدد ١٤/٧/١٩٧٥ .
٣- المرجع السابق

نوفل من أنه قد اجتهد فان أصاب فله أجران وان أخطأ فله أجر واحد وهو لا يطمع فى أكثر من هذا •

ولنستمر فى عرض التساوى بين الشياطين والملائكة :

وقد ذكر الشيطان بألفاظ أخرى ٢٠ مرة اذا أضيفت الى عدد ورود لفظ الشيطان وهو ٦٨ لأصبح المجموع ٨٨ مرة •

وباقى الألفاظ التي تخص الملائكة فقد وردت بلفظ الملك ١٠ مرات فى مثل النص الشريف : " ولا أقول لكم انى ملك " (٥٠ من سورة الانعام) • وبلفظ ملائكته ٥ مرات فى مثل النص الكريم :" ان الله وملائكته يصلون على النبى " (٥٦ من سورة الأحزاب) • وبلفظ ملكا ٢ مرات بمثل النص الشريف :" ولو أنزلنا ملكا لقضى الامر " (٨ من سورة الأنعام) وبلفظ الملكين فى آيتين شريفتين مثل :" وقال مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا أن تكونا ملكين "(٢٠ الأعراف) •

وعدد هذه المرات ٢٠ أيضا اذا أضيفت الى عدد ورود لفظ الملائكة وهو ٦٨ أصبح المجموع ٨٨ مرة أيضا •

وهكذا تتساوى مرات ذكر الشيطان والملائكة بالعدد ٦٨ ، وتتساوى الألفاظ الأخرى للشيطان وهى ٢٠ مرة بالألفاظ الأخرى للملائكة وهى ٢٠ ويتساوى المجموع الكلى لكل من الشياطين والملائكة فيرد كل منهما ٨٨ مرة فى القرآن الكريم •(١)

هذا هو بعض الاعجاز العددى فى القرآن الكريم الذى يراه الأستاذ عبد الرزاق نوفل دليلا ماديا وبرهانا ساطعا على أن القرآن من عند الله ، " ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا " ، فهذا التساوى العددى بين الألفاظ التى وردت متساوية فى القرآن الكريم رغم بعد زمن نزول الآيات واختلافها من السور لهو أكبر دليل على أن القرآن من وحى الله عز وجل ، فما كان لرسول الله وهو الأمى ، ولا للعلماء فى زمانه ولا لكل علماء الوجود ولو اجتمعوا فى مختلف الأجيال ، ايجاد هذا التوازن والتساوى فى هذه الموضوعات بهذا القدر وهذا الاعجاز (٢)•

١ــ الاعجاز العددى : جـ ١ ص ١٧ ــ ١٩ •

٢ــ المرجع السابق ص ١٥٩ •

الاعجاز العددى فى الحروف :

اختلف المفسرون فى الحروف المقطعة التى تبتدئ بها أوائل السور القرآنية بمثل : ألم ، ألر ، ق ، كهيعص ، .. الخ .

قال بعض المفسرين : انها من أسماء الله التى استأثر بها فى علم غيبه . والبعض كان يتلو : ا ل م ذلك الكتاب لا ريب فيه ، بمعنى أن الله يقول : من جنس هذه الحروف جئنا بذلك الكتاب الذى لا ريب فيه ونحن نتحدى أن يأتى أحد بمثله رغم أن هذه الحروف فى ميسور الجميع .

وقال كثرة المفسرين : الله أعلم .

لكننا فى العصر الحديث شهدنا أخيرا محاولة جريئة لاكتشاف المدلول العددى لهذه الحروف ، قام بها الأستاذ رشاد خليفة باستخدام العقل الالكترونى ووصل الى نتائج مثيرة ..

فقد وجد بالاحصاء أن استهلال سورة بحروف معينة يقابله دائما تفوق حسابى بمعدل توارد وتكرار هذه الحروف فى نفس السورة . ففى سورة (ق) مثلا نجد أن الحرف ـ ق ـ يتكرر فى السورة بمعدل أعلى من باقى الحروف ، ثم ان معدله فى السورة هو أعلى معدل فى سور القرآن على الاطلاق . ونفس الشئ فى ا ل م البقرة ، وأكثر من هذا تأتى المعدلات فى سلم تنازلى من ا الى ل الى م وبنفس الترتيب :

ا وردت ٤٥٩٢ مرة ، ل وردت ٣٢٠٤ ، م وردت ٢١٩٥ مرة .

نفس الحكاية فى أ ل م آل عمران :

ا وردت ٢٥٧٨ مرة ، ل وردت ١٨٨٥ مرة ، م وردت ١٢٥١ مرة . بنفس الترتيب التنازلى ا ل م ، وهى تتوارد فى السورة بمعدلات أعلى من باقى الحروف .

ونفس الحكاية فى ا ل م سورة العنكبوت :

ا وردت ٨٧٤ مرة ، ل وردت ٥٥٤ ، م وردت ٣٤٤ ، بنفس الترتيب التنازلى ، ثم هى تتوارد فى السورة بمعدل أعلى من باقى الحروف . نفس الحكاية فى ا ل م سورة الروم

ا وردت ٥٤٧ مرة ، ل وردت ٣٩٦ ، م وردت ٣١٨ مرة بنفس الترتيب التنازلى ، ثم هى تتوارد فى السورة بمعدلات أعلى من باقى الحروف .

نفس الحكاية فى ا ل م ر الرعد :

ا ترد ٦٢٥ مرة ، ل ترد ٤٧٩ مرة ، م ترد ٢٦٠ مرة ، ر ترد ١٣٧ مرة

بنفس الترتيب التنازلى ا ل م ر ، وبنفس الترتيب الذى جاءت به بالقرآن .

وفى جميع السور التى ابتدأت بالحروف ا ل م نجد السور المكية تتفوق حسابيا فى معدلاتها على باقى السور المكية فى المصحف . والمدنية تتفوق حسابيا فى معدلاتها على باقى السور المدنية .

كما نجد أن جميع السور التى افتتحت بالحروف حم اذا ضمت الى بعضها البعض فان معدلات توارد الحرف ح والحرف م تتفوق على السور المكية فى المصحف .

وكذلك السور التى افتتحت بالحروف ا ل ر وهى ابراهيم ويونس وهود ويوسف والحجر ، وأربع منها جاءت متتابعة فى تاريخ النزول اذا ضمت لبعضها أعطانا الحقل الالكترونى أعلى معدلات فى نسبة توارد حروفها أ ل ر على كل السور المكية فى المصحف .

وبالمثل ا ل م ص سورة الأعراف يقول لنا الحقل الالكترونى أن معدلات هذه الحروف هى أعلى ما تكون فى سورة الأعراف وأنها تتفوق حسابيا على كل السور المكية فى المصحف .

وفى سورة طه نجد أن الحرف ط والحرف هـ يتواردان فيها بمعدلات تتفوق على كل السور المكية .

أما فى سورة يس : فاننا نلاحظ أن الدلالة موجودة ولكنها انعكست لأن ترتيب الحروف انعكس فالياء فى الأول بعكس الترتيب الأبجدى ، ولهذا نرى توارد الحرف ى والحرف س فى السورة أقل من تواردە فى جميع المصحف مدنيا ومكيا (١) .

دلالة خاصة للعدد ١٩ :

ثم يكتشف الأخ رشاد خليفة دلالة خاصة للعدد ١٩ ويرى أن الله يقيم بهذا الرقم حجة على الملحد الذى يقول ان القرآن مع صنع بشر ، كما جاء فى سورة المدثر : " انه فكر وقدر فقتل كيف قدر ثم

١ـ من أسرا القرآن : (د . مصطفى محمود ـ ص ٧٠ ـ ٧٤) .

فقتل كيف قدر ثم نظر ثم عبس وبسر ثم أدبر واستكبر فقال ان هذا الا سحر يوثر ان هذا الا قول البشر سأصليه سقر وما أدراك ما سقر لا تبقى ولا تذر لواحة للبشر عليها تسعة عشر وما جعلنا أصحاب النار الا ملائكة وما جعلنا عدتهم الا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا ايمانا " (١) •

ويفسر الأستاذ رشاد خليفة هذه الالغاز فيقول : ان آية (بسم الله الرحمن الرحيم) الفاتحة •• وقد نزلت بعد هذه الآيات من المدثر ، هذه الآية من ١٩ حرفا ، ثم ان كل كلمة منها تتكرر في القرآن ١٩ مرة ، أو مضاعفات ال ١٩ :

كلمة اسم تتكرر ١٩ مرة

كلمة الله تتكرر ١٩×١٤٢=٢٦٩٨ مرة

كلمة الرحمن تتكرر ١٩×٣ =٥٧ مرة

كلمة الرحيم تتكرر ١٩×٦ =١١٤ مرة

ثم ان جميع الحروف المقطعة في أوائل السور تتكرر الى مضاعفات ال ١٩ بطول المصحف هكذا :

الحرف ق يتكرر في سورة ق ١٩×٣ = ٥٧ مرة

الحروف كهيعص تتكرر في سورة مريم ١٩×٤٢=٧٩٨ مرة

الحرف ن في سورة القلم يتكرر ١٩×٧ =١٣٣ مرة

الحرفان يس في سورة يس يتكرران ١٩×١٥=٢٨٥ مرة

الحرفان طه في سورة طه يتكرران ١٩×١٨=٣٤٢ مرة

الحرفان حم في جميع السور المفتتحة بهما يتكرران ١٩×١١٤=٢١٦٦ مرة

الحروف عسق في سورة الشورى تتكرر ١٩×١١ =٢٠٩ مرة

الحروف ا ل م ر في سورة الرعد تتكرر ١٩×٧٩=١٥٠١ مرة •

ثم ان الكلمات :

لا حول ولا قوة الا بالله = ١٩ حرفا

بسم الله الرحمن الرحيم = ١٩ حرفا

وهى كلمات يتحفظ بها المؤمن من الشر والسوء ومن زبانية العذاب الذين

١ــ سورة المدثر ــ الآيات من رقم ١٨ ــ ٣١ •

قال ربنا فى سورة المدثر أنها ١٩ " سأصليه سقر وما أدراك ما سقر لا تبقى ولا تذر لواحة للبشر عليها تسعة عشر " .

فهل كل هذه مصادفات ؟

واذا سلمنا بمصادفة واحدة فكيف نفسر الباقى ؟

وقوانين الاحتمال ذاتها تنفى تكرار المصادفات بهذا التواتر الا أن يكون الامر ترتيبا مقصودا .

ولا يمكن أن يبدأ مؤلف كتابا بأن يقول لنفسه : سوف أكرر الحرف الفلانى كذا والحرف الفلانى كذا وسوف ألتزم فى مقالاتى بألا تتجاوز مجموعات الحروف كذا مضاعفات ١٩ ، ثم ان القرآن نزل مفرقا على ٢٣ سنة وكانت الآيات تنزل على النبى من وسط السورة وهو يجهل أولها كما يجهل آخرها ثم تكتمل بعد ذلك السورة ربما بعد عشرين سنة ، فهناك استحالة أن يكون الأمر تأليفا من الرسول عليه الصلاة والسلام .

بل ان العد الالكترونى يصحح لنا أخطاء وردت فى احصاءات المعجم المفهرس لألفاظ القرآن ويؤكد استطراد هذه القاعدة ..

ان البعض ينظر باستنكار واستهجان الى هذه النظرة الاحصائية لحروف القرآن وكلماته ، ويرى أنها تصرف القارئ عن تدبر معانى الكتاب الكريم ، ويخشى فتح هذا الباب .

ونحن لا نشجع أحدا على الانصراف عن تفهم القرآن الى عد حروفه ، وليس عند كل قارئ عقل الكترونى ، فالمشكلة غير واردة ، والخوف ليس له مبرر . انما هو اجتهاد يطرح أمامنا ملاحظة ، وعلى من ينكر أن يجد لنا تفسيرا . وقد قال الرسول عليه الصلاة والسلام عن القرآن انه كتاب لا تنقضى عجائبه ، وهذه عجيبة من عجائبه .

وقال ربنا : " الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان " (١٧ الشورى)

وأى ميزان ؟ انه ميزان يدق حتى يزن الشعرة والحرف والرقم .

انها ظاهرة جديرة بالاهتمام ، وحجة جديدة على أن ذلك الكتاب الذى نتداوله ونتلوه ليس من الكتب العادية فى شئ (١) .

---

١ - من أسرار القرآن : د مصطفى محمود ص ٧٤ - ٧٨ .

وأخيرا .. هل لنا أن نقول : لماذا نرفض هذا الكشف الجديـــد ما دام يقوم على احترام كتاب الله تعالى ، ويبين وجها جديدا من وجــوه الاعجـــاز .

الفصـــــل الرابـــع

الاعجـــاز الروحـــى

ما زالت قضية الاعجاز القرآنى وستظل تشغل العلماء والباحثين والمفكرين فالقرآن الكريم لا تنقضى عجائبه ولا يخلق على كثرة الرد ، وستجد فيه أجيال المسلمين فى العصور القادمة وجوها أخرى جديدة فى الاعجاز وباب الاجتهاد فى اعجاز القرآن مازال مفتوحا ، وسيظل مفتوحا أبد الدهر.

ولقد اختلف القدماء فى وجوه الاعجاز ، وتجمع لدينا من آرائهم ثلاثة عشر وجها لاعجاز القرآن الكريم (١).

وفى العصر الحديث سمعنا وقرأنا عن : الاعجاز النفسى ، والاعجاز العلمى ، والاعجاز العددى . وهذا الذى بين يدينا وجه رابع من وجوه الاعجاز الجديدة التى تمخض عنها القرن العشرين .

وصاحب هذا الرأى الجديد هو العالم المفكر الأديب محمد فريد وجدى فقد رأى أن العناية فى العصر الحديث متجهة الى اعجاز القرآن البلاغى ، واعتبار هذا الوجه أرجح من الوجوه الأخرى ، وأحس أن الاعجاز الحقيقى انما هو فى الاعجاز الروحى الذى يكمن فى أسلوب القرآن الكريم.

يقول : ان المتكلمين فى اعجاز القرآن قد حصروا كل عنايتهم فى الناحية البلاغية ، ونحن وان كنا نعتقد أن القرآن قد بلغ الغاية من هذه الوجهة الا أننا نرى أنها ليست الجهة الوحيدة لاعجازه ، بل ولا هى أكثر جهات الاعجاز تسلطا على النفس ، فان للبلاغة على الشعور الانسانى تسلطا محدودا لا يتعدى حد الاعجاب بالكلام والاقبال عليه ثم يأخذ هذا الاعجاب والاقبال يضعف شيئا فشيئا بتكرار سماعه حتى تستأنس به النفس فلا يعود يحدث فيها ما كان يحدثه فى مبدأ تواردها عليها ، وليس هذا شأن القرآن فانه قد ثبت أن تكرار تلاوته تزيده تأثيرا ، فوجب على الناظر فى ذلك أن يبحث عن وجه اعجازه فى مجال آخر .

١ـ راجع هذه الوجوه فى : الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ج ١ ص ٧٢ ـ ٧٥

وهذا الوجه الآخر الذى يراه يتمثل فى : أن القرآن روح من أمر الله تعالى ، فهو يؤثر بهذا الاعتبار تأثير الروح فى الأجساد فيحركها ويتسلط على اهوائها .. وأما تأثير الكلام فى الشعور فلا يتعدى سلطانه حد اطرابها والحصول على اعجابها ..

وقوله تعالى : "وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا " يكفى وحده فى ارشادنا الى جهة اعجاز القرآن ، وقصور الانس والجن عن الاتيان بمثله وبقائه الى اليوم معجزة خالدة تتلألأ فى نورها الالهى ، وتتألق فى جمالها المقدس ، فلا جرم كانت روحانية خاصة هى عندنا جهة اعجازه ، والسبب الاكبر فى انقطاع الانس والجن عن محاكاة أقصر سورة من سوره ، وارتعاد فرائص الصناديد والجبابرة عند سماعه وناهيك بروحانية الكلام الالهى .

ثم قال : ولا مشاحة فى أن القرآن فصيح ، قد أخرس بفصاحته فرسان الخطابة وقادة البلاغة وهو حكيم بهر الفلاسفة وهو حق ألزم كل ضال الحجة وهو هدى وشفاء لما فى الصدور ، وكل هذه صفات جليلة تؤثر فى العقل والشعور والعواطف والميول فتتحكم فيها تحكم المالك فى ملكه ، ولكنه فوق ذلك روح من أمر الله تصل من روح الانسان الى حيث لا تصل اليه أشعة البلاغة والبيان ، ولا سيالات الحكمة والعرفان ، وتسرى من صميم معناه الى حيث لا يحوم حوله فكر ولا خاطر ، ولا يتخيله خيال شاعر .

هذه الروحانية تظهر جليا عندما تكون آية من آياته جاءت على سبيل الاستشهاد والاقتباس فى صفحة كبيرة فانك ترى تلك تتجلى لك من بين السطور وخلال التراكيب كأنها الشمس فى رابعة النهار مهما كانت درجة تلك الصفحة من البيان ومنزلتها من جمال الاسلوب وجزالة الالفاظ(١) .

هذا ويرى د . رجب البيومى أن الشقة قريبة بين من يقول بالاعجاز البلاغى وبين الاستاذ محمد فريد ، وتساءل : أيمكن أن تظهر روحانية القرآن دون أسلوب بليغ يحملها للناس ؟ اذ يستحيل علينا بداهة أن نتصور هذا الظهور دون كلام يقال ، واذا ثبت أن الاسلوب القرآنى هو موضع

١- البيان القرآنى : ص ٢٤٨ - ٢٥٠ ، ودائرة المعارف فى القرن العشرين ج ٧ .

هذه الروحانية النافذة فقد صارت الشقة قريبة بين من يقولون بالاعجاز البلاغى وبين الأستاذ الكبير ان لم تكن هناك شقة على الاطلاق ..

واذا كانت بلاغة البشر تفقد تأثيرها باستمرار التلاوة دون بلاغة القرآن فلأن الأسلوب القرآنى يحمل من وسائل اعجازه ما يرتفع به عن بلاغة البشر ، وعلينا أن نبحث عن ذلك فى مطاوى نظمه وطريقة تعبيره وتصويره ... وكون القرآن روحا من أمر الله لا يحصر اعجازه البيانى بل يدفع الدارس الى استشفاف هذا الروح فيما يتراءى من قوة أسره ودقة دليله وبلاغة تصويره مما يسيطر على النفوس سيطرة تدفع الى الاذعان المؤمن والاستسلام البصير .

ولعل الأستاذ وجدى لا يريد أن يحصر الاعجاز القرآنى فى بلاغته التعبيرية موافقة لمن يرى أن حصر الاعجاز فى البلاغة التركيبية يدفعنا لطول النظر الى اكتناه أسراره والوقوف على دقائقه ، ومتى عرفت هذه الأسرار وجليت تلك الحقائق أمكنت محاكاته وسهلت معارضته فلم يبق وجه لاعجازه . وهذا كلام براق فى ظاهره ، ولكنه لدى التدقيق لا ينهض على ساق ، لأن ادراك السر البلاغى فى قول معجز لا يجعل المدرك قادرا على الاتيان بمثل ما أدرك سره وجلا حقيقة وجه ...

والمسألة أوضح من أن يستدل عليها ، لاننا نرى الناقد الأدبى يدرك أسرار القصيدة الرائعة بيتا بيتا وكلمة كلمة ثم لا يستطيع بعد ذلك أن يأتى بمثلها لانه غير شاعر بطبيعته ، فلو كان الولوج الى أسرار الجمال فى البيان الأدبى داعيا الى محاكاته لكان كل ناقد كبير شاعرا كبيرا أو قصاصا شهيرا ولكن التذوق النقدى شئ وملكة الابداع الفنى شئ سواه ...

فليكن القرآن ذا روح قوية غالبة ، ولكن هذه الروح تستكن فى كلمات وآيات وسور وهى موضع الاعجاز (١) .

وهكذا طلع علينا العصر الحديث بأربعة وجوه جديدة للاعجاز ولكل وجه وجهة هو موليها ، وفكرة يجليها ، ولكل جيل أفكاره وتصوراته وكشوفه والقرآن الكريم لا تنقضى عجائبه ، وستجد فيه أجيال المسلمين فى

١ـ البيان القرآنى ص ٢٥١ و ٢٥٢ .

العصـــور القادمـــــة وجوها أخرى جديدة ،وباب الاجتهاد فـــى بيان اعجاز القرآن مازال مفتوحا ،وسيظل مفتوحا أبد الدهر.

الخاتمة

الصراع بين القديم والجديد هو قضية الزمن ، وديدن الحياة ، وتجديد البلاغة العربية قضية طال عليها الزمن دون أن نبت فيها برأى ، فعلى كثرة من تكلموا وكتبوا فى تجديد البلاغة نجدها ما زالت تدور فى فلك السكاكى ومدرسته . ولقد جرت محاولات فى العصر الحديث للتخفيف من حدة كتب البلاغة القديمة ، وصياغتها فى أسلوب جديد يميل الى البساطة والوضوح ونحن لا ننقص من قدر هذه المحاولات ومن حاولوها ، ولكن نقول :- ان هذه المحاولات لم تثمر ثمرتها المرجوة ، فما زالت الكتب الحديثه فى البلاغة تدور فى فلك علم الكلام ، ومنهج السكاكى .

واذا كانت البلاغة العربية من أجل العلوم قدرا ، لأن ثمرتها — كما يقول ابن خلدون — فهم الاعجاز وادراكه . وأيضا لأن دراستها تفتق الذهن وتربى الذوق وتدربه على الرقة والدقة حتى يميز بين الجيد والردئ من الكلام اذا كانت البلاغة بهذه الأهمية دينيا وتربويا فان من واجبنا صيانة هذا التراث البلاغى ، والعمل على تداوله وازدهاره . وبما أنه ليس تحفا وأحجارا كريمة فيجب العمل على تجديده وتطويره بما يرغب فى الاقبال عليه وتداوله .

اننا لسنا أعداء للبلاغة القديمة ، ولكننا أعداء لجمودها وتأخرها ، ولا يرضينا أبدا ما تعانيه بلاغتنا الحبيبة من زهد فيها ، وانصراف عن درسها ، ورغبة الأدباء والنقاد عنها .

ونتيجة لاهمال تجديد البلاغة ، واخفاق تدريسها للأجيال القريبة الماضية ، ظهر كتاب وشعراء هبطوا بالكتابة والشعر . ونزلوا بالأدب العربى عن عرشه فسمعنا وقرأنا الشعر الحديث ، تقلبه فلا تدرى ان كان شعرا أو نثرا ، ثم هو بعد ذلك أعجمى الروح ، غربى الملامح ، لا أثر له ، ولا بريق فيه ، ولم نعد نسمع فى مجال الأدب والصحافة الا منكرا من القول وزورا . وأكاد أجزم بأن كل ذلك أثر من آثار واهمال البلاغة والقعود عن تجديدها . بل انى لا أبالغ اذا قلت : ان افتقاد الشخصية العربية أو ضعفها واهتزازها فى أعين القوميات

الأخرى انما هو أيضا أثر من آثار اهمال البلاغة وعدم نجاح تدريسها لأجيالنا المتعاقبة ، فعظمة الانسان العربى مرتبطة الى حد كبير بفصاحته وبلاغته . فالمرء بأصغرية والانسان — كما يقول على بن أبى طالب كرم الله وجهه — : المرء مخبوء تحت لسانه ، حتى اذا نطق أفصح عن عظمته أو نقصانه . فاللسان هو الذى يوضح عظمة الانسان ، وهو فى الوقت نفسه جزء من هذه العظمة لأن البلاغة ليست فى اللسان فقط ، بل هى فى الفكر والعقل قبل أن تكون فى اللسان والبيان . فسمو التعبير جزء من سمو التفكير وسمو التفكير والتعبير سمو للشخصية . والبلاغة لها دخل كبير فى كل ذلك .

وليس من المجهول أن هناك أيادى خفية مجندة من قبل الاستعمار الثقافى والغزو الفكرى ، تريد أن تقضى على الفصحى وآدابها وبلاغتها ، لتقضى بالتالى على دينها وقرآنها ، ولتمحو الشخصية العربية المسلمة من الوجود ، فلا يبقى امام استغلالها واستعمارها مجابهة ولا مقاومة .

من أجل كل ذلك فانى أرى أن تجديد البلاغة والنهوض بها أصبح واجبا قوميا ودينيا فى آن واحد ، وهو واجب الجامعات العربية أولا ، ثم المجامع العلمية والهيئات الثقافية ثانيا .

ومن أجل كل ذلك أيضا كان اقدامى على هذا البحث فى تجديد البلاغة .

ولقد اقتضى هذا البحث أن نقسمه الى مقدمة وتمهيد وخمسة أبواب وخاتمه .

وفى المقدمة ، أوضحت موضوع هذا البحث وظروفه ودواعيه ، وبينت فى اجمال حال البلاغة قديما وحديثا .

وفى التمهيد ، تحدثت عن نشأة البلاغة وتطورها ، وبينت مدارسها وخصائص كل مدرسة ، ثم تحدثت عن صلة البلاغة بالعلوم العربية الأخرى ومكانتها بين هذه العلوم ، ثم تتبعت مسيرة البلاغة حتى مرحلة نضوجها على يد الامام عبد القاهر ، ثم استقلالها على يد السكاكى ، ثم جمود البحث البلاغى بعده حتى العصر الحديث ، وأوضحت كيف أن البلاغة أصبحت فى حاجة ماسة الى التجديد .

وهذا التمهيد فى الواقع كان يستحق — وحده — أن يكون بحثا

مستقلا ، فهو مسيرة طويلة مع البلاغة فى عصورها المتعاقبة منذ تكونت جذورها الأولى حتى وصلت الينا فى العصر الحديث . وهو تمهيد كان لابد منه لمعرفة القديم وتصوره وعرض آراء المتقدمين والمتأخرين فيه ، قبل أن نقدم على دراسة الجديد ونقلب فيه وجهات النظر ، فأول التجديد قتل القديم فهما . ولقد كنت أحاذر فى هذا التمهيد الاطناب الممل والايجاز المخل وهى مهمة ليست باليسيرة فى مثل هذا البحث الدقيق . (١)

ولقد كان للتجديد بوادر ومقدمات كما كان له مقاصد واتجاهات ولذلك كان الباب الأول : " بوادر التجديد واتجاهاته فى العصر الحديث " . وقسمت هذا الباب الى فصلين : تحدثت فى الفصل الأول عن التجديد ومفهومه وبوادره .

وقد كان لهذه البوادر والبدايات أصوات تعلو حينا ، وتخفت أحيانا ، الى أن كانت البادرة التي أشعلت الحماس ، وأثارت الرأى ، تلك هى معركة البلاغة التى حمى وطيسها على صفحات مجلة الرسالة بين الدكتور على العمارى والأستاذ أمين الخولى ثم انضم اليهما آخرون (٢) . وتثور قضية التجديد البلاغى فيعكف الأستاذ أمين الخولى على كتابه " فن القول " ويضمنه آراءه وخطته فى تجديد البلاغة (٣) ، ويصدر الأستاذ احمد الشايب كتابه " الاسلوب " ويضع فيه منهاجا كاملا لبلاغة جديدة (٤) ، ويشارك الأستاذ احمد حسن الزيات فى القضية فيدفع الى الميدان بكتابة " دفاع عن البلاغة (٥) وفى الجامعة الأمريكية يلقى البشرى محاضرته " ثورة على علوم البلاغة " (٦) وفى المجمع اللغوى يلقى د . عبد الرزاق محيى الدين بحثه " مفاهيم بلاغيه " (٧) ويكتب الدكتور العمارى بحثه " البلاغة العربية وحاجتها الى التجديد " (٨) ،

---

١ — راجع التمهيد فى البحث ص ٧ .　　٢ — انظر حركة الرسالة ص ١٩٠ من البحث

٣ — راجع خطة فن القول ص ٣٦٣ من البحث .　　٤ — راجع منهاج الشايب ص ٢٤٢ "

٥ — انظر ص ٤٨٤ " "　　٦ — انظر ص ١١٤ "

٧ — " " ١٥١ " " .　　٨ — " " ١٤٣ "

وتعقد الندوات والمحاضرات بين المعنيين بالدراسات البلاغية ، وتذاع على الهواء ، كالندوة التي عقدت بين الدكاترة : غنيمى هلال ، وبدوى طبانه ، واحمد بدوى . (١)

وفى جامعة الأزهر ينشأ قسم خاص بالبلاغة والنقد فى كلية اللغة العربية ويقوم أساتذته بالدعوة الى تجديد البلاغة وتطويرها ، وفى آداب القاهرة والاسكندرية وعين شمس ودار العلوم ترتفع الأصوات بضرورة اصلاح البلاغة وتجديدها .

كل ذلك آثار قضية البلاغة بعد ركود ، وأيقظها بعد سبات ، وأخذ العلماء والأدباء وأساتذة البلاغة يدلون بآرائهم ، ويعلنون عن اتجاهاتهم فى تطوير البلاغة وتجديدها .

ولهذا كان الفصل الثانى من الباب الأول " اتجاهات التجديد ومظاهره فى العصر الحديث " .

وباستقراء آراء الدعاة الى تجديد البلاغة نجدهم يتجهون فى شبه اجماع الى تخليص البلاغة مما شابها من مسائل المنطق والفلسفة ، ومباحث الأصوليين وما اليها .

ثم يختلفون بعد ذلك :

- فبعضهم يرى الاعتماد على تراثنا فى البلاغة وجعله أساسا للتجديد ، وأن التجديد يجب أن يكون نابعا من روحنا ومجتمعنا وتكويننا وفطرتنا وذوقنا .
- وبعض آخر يرى أن الكتب القديمة يجب أن تلغى ويلقى بها فى بحر الظلمات ويحل محلها كتب أخرى مؤلفة على منهج حديث مستقل مبنى على أساس من الدراسات الغربية الحديثة .
- وبعض ثالث يرون مزج البلاغة العربية بأصول الدراسات البلاغية الحديثة فى شتى اللغات الأوربية ، وأنه من الخير الجمع بين ما يصلح من تراثنا وما يصلح من بلاغة الغرب ، وأن التمايش بين القديم والحديث أفضل نتاجا وأقوى أثرا .

---

١ ـ انظر ص ١٢٧ . من البحث .

وبعد هذا العرض العام فى الباب الأول لبوادر التجديد واتجاهاته ، تناولت فى الباب الثانى " دعوات التجديد البلاغية " وتحدثت عنها بالتفصيل ودعوات التجديد فى العصر الحديث ، انما نعنى بها تلك التى بدأت مع هذا القرن العشرين ، حيث بدأت النهضة العربية فى العلوم والآداب تأخذ سبيلها وتشق طريقها بعد أن انفتح العرب على النهضة الغربية الأوربية ، واطلعوا على الكثير من علومها وآدابها .

وقد قسمت هذا الباب الى ثلاثة فصول :

عرضت فى الفصل الأول لبحوث عديدة فى تجديد البلاغة ، للأساتذة : أمين الخولى ، وعبد العزيز البشرى ، وأنيس المقدسى ، والدكاترة ، احمد بدوى ، وعلى العمارى ، وعبد الرزاق محيى الدين ، ثم عرضت لتقرير لجنة المعارف المصرية وما تضمنه من تخطيط جديد للبلاغة .

وقد عقبت كل بحث برأيى ورأى غيرى ان وجد .

وفى الفصل الثانى : عرضت لآراء بعض المتخصصين من أساتذة البلاغة فى الجامعات ممن أولوا بدلوهم فى قضية التجديد ، فهم الأقدر من سواهم على معرفة حاجة البلاغة ، وتفهم مشكلاتها . واذا كان الطبيب يستطيع بالكشف على مريضه أن يحدد الداء ويصف الدواء ، فانهم - ولا شك - يعرفون داءها ، ويستطيعون أن يصفوا دواءها ، ولذلك رأينا ألا نهمل آرائهم مهما كان حجمها .

هذا عدا بعض الآراء الأخرى التى عرضناها فى ثنايا البحوث السابقة . وهذه الباقة من الآراء فى البلاغة وتجديدها ، حلقة مكملة للبحوث السابقة فى الفصل السابق ، وتلقى كثيرا من الأضواء على قضية التجديد فى البلاغة .

وفى الفصل الثالث - من هذا الباب الثانى - تناولت حركة الرسالة ، تلك المعركة البلاغية التى قامت على صفحات الرسالة فى منتصف هذا القرن بين المحافظين والمجددين ، وبينت كل ما كان لها من أثر فى اثارة قضية التجديد فى البلاغة . وكنت هنا وهناك أطل برأيى أؤيد ما أراه صوابا ، وأصوب ما أراه خطأ ، وأوضح ما أراه غامضا ، وأضيف ما أرى اضافته ، مستشهدا فى كل

ذلك بما يؤيد وجهة نظرى أو يجيزها على الأقل .

واذا كانت البحوث والآراء التى عرضتها فى هذا الباب الثانى قد تضمن بعضها تخطيطا صغيرا ، أو فكرة محدودة ، فى تجديد البلاغة ،

فقد جعلت الباب الثالث " مناهج جديدة للبلاغة " خاصا بالمناهج الكبيرة المتكاملة التى وضعت لتجديد البلاغة وقد قسمت هذا الباب الى أربعة فصول :

تحدثت فى الفصل الأول عن منهج الشايب وكتابه " الأسلوب " ثم عرضته على ميزان النقد ، وبينت ماله وما عليه .

وتحدثت فى الفصل الثانى : عن منهج الخولى وكتابه " فن القول " ثم عرضته هو الآخر على ميزان النقد ، وقارنت بينه وبين منهج الشايب .

وفى الفصل الثالث : عرضت للمنهج المدرسى الحديث ، وتحدثت عن البلاغة فى مدارسنا ، مبينا أثر المنهج ، ومدى نجاحه أو فشله ، وأسباب ذلك .

وفى الفصل الرابع : عرضت رأيا جديدا فى تدريس البلاغة . فقد لاح لى بعد كثرة ما قرأت واطلعت على بحوث ومناهج وآراء فى تجديد البلاغة أن هناك رأيا لم يطرح بعد ، وأن درس البلاغة اليوم فى حاجة الى علاج سريع ـ ولو مؤقتا ـ يخرج به من نطاق السكاكى والقزوينى ، ويساعد الدارسين على استيعاب البلاغة فنا وعلما .

ولقد أمعنت النظر فيما يفعلون بدرس البلاغة ، فوجدتهم يعلمون الطالب ـ أول ما يعلمونه ـ الفصاحة بأنها خلو اللفظ من تنافر الحروف ، والغرابة ، ومخالفة القياس ، ويضربون لذلك أمثلة ركيكة ـ تصيب النفس بالضيق والكدر .

وقلت لنفسى أهذا هو أول ما ينطبع فى ذهن الطالب عن الفصاحة والبلاغة ؟

وتساءلت : لماذا يعرف القدماء الفصاحة تعريفا سلبيا فيقولون : هى خلو اللفظ أو خلوصه من التنافر والغرابة .. ، ويتركون التعريف الايجابى فلا يذكرون عنه شيئا .. أما كان التعريف الايجابى للفصاحة أولى وأجمل وأوقع فى النفس من التعريف السلبى ؟ .

ان التعريف السلبي للفصاحة — قد أدى بالقدماء الى استعمال أمثلة رديئة ، يفاجأ بها الطالب في بداية درس البلاغة ، فتترك في نفسه انطباعا سيئا ، ما كان أغنانا عنه لو أنهم لجئوا الى التعريف الايجابي وعرفوا الفصاحة تعريفا أدبيا جميلا مشرقا وقد أوضحت ذلك بالأمثلة والشواهد في مكانه من البحث . مبينا كيف أن القزويني بعد بنا عن الفصاحة الى ضدها ، وبدل أن يحدثنا في البداية حديثا ايجابيا عن جمال الفصاحة وأثرها في النفس . ويضرب لها أمثلة مضيئة مشرقة ، يحدثنا عن أضداد الفصاحة من التنافر والغرابة والتعقيد ، ويضرب لها — بالطبع — أمثلة — معتمة موحشة .

ولقد عرضت — فيما عرضت — في هذا البحث لعناصر الأسلوب الثلاثة : الوضوح — القوة — الجمال . ذكرها كتاب البلاغة الواضحة في ايجاز واقتضاب ، وذكرها كتاب الأسلوب في اسهاب واطناب .

وهذه العناصر الثلاثة (الوضوح والقوة والجمال) أرى أن تكون الأساس الجديد في درس البلاغة . بوجه عام ونجعل كل المباحث البلاغية تدرس في ضوئها .

فمقتضى الحال يمكن أن يدرس بطريقة جديدة في ضوء الوضوح والقوة والجمال وكذلك الصور البيانية من تشبيه واستعارة وكناية ، وأيضا في الحذف والتقديم والقصر ، وفي الايجاز والاطناب والمساواة ، الى غير ذلك من مباحث البلاغة .

وقد أوضحت وجهة نظري ، ووضعت النقط فوق الحروف في الفصل الخاص بذلك في هذا البحث .

ولا أستطيع القول بأني وضعت للبلاغة خطة حديثة ، أو منهجا جديدا ان هي الا فكرة مبدئية يمكن أن تنمو وتتطور بالمدارسة والممارسة اذا لاقت القبول والاستحسان . وهي في رأيي علاج سريع مؤقت لدرس البلاغة اليوم ، حتى يستقر أولو الأمر على منهج جديد للبلاغة العربية .

ولقد تعرضت بلاغتنا في هذا العصر لهجوم كبير ، وتجن خطير ، اتسم بالدهاء والخبث ، وتقنع بدعوى الاصلاح والتجديد ، لذلك جعلت الباب

الرابع " البلاغة بين الدفاع والهجوم " وقسمته الى فصليـــــن :

تناولت فى الفصل الأول . آراء الذين دافعوا عن البلاغة مثل : الدكتور احمد بدوى والأستاذ العقاد والدكتور عباس حسن والأستاذ احمد موســـى والدكتورة سهير القلماوى . ثم تحدثت عن الزيات وأوضحت دفاعه عن البلاغــة وآراءه فى تجديدها ، وما ينبغى أن تكون عليه فى العصر الحديث .

وفى الفصل الثانى من هذا الباب الرابع تحدثت عن سلامة موسى ومـــن دار فى فلكه ، وعن كتابه (البلاغة العصرية) وما تضمنه من هجـــوم خبيث على بلاغتنا ولغتنا باسم الاصلاح والتجديد ، ونقدت آراءه وفندتهـــا ، وبينت الأسباب والدواعى التى كانت وراء هذه الجملة المغرضة ، والتى تفرض علينا أن نسارع الى بلاغتنا الحبيبة فننفض عنها آثار الماضى ، ونفتح لهـــا باب التجديد والتطور ، حتى لا يتهمها المغرضون ويتهموننا معها بالجمـــود والتأخر .

وان فيما عرضه هذا البحث من بحوث ومناهج لخير معين على تطويـــر البلاغة وتجديدها .

ولم يكن فى الامكان أن نختتم هذا البحث دون أن نتناول قضية الاعجـــاز الكبرى وآراء المجددين فيها ، فهى قضية تتصل بالبحث البلاغى اتصالا وثيقـا بل هى من أهم قضايا البلاغة على الاطلاق .

لهذا كان الباب الخامس خاصا بقضية الاعجاز وما طرأ عليها من دراســة جديدة فى العصر الحديث .

وقد قسمت هذا الباب الى أربعة فصول ، تحدثت فيها عن أربعة أوجـــه جديدة للاعجاز ، هى على الترتيب :

الاعجاز النفسى ، والاعجاز العلمى ، والاعجاز العددى ، والاعجـــاز الروحى .

وفى الخاتمة : لخصت هذا البحث ، وأوضحت خطته ، وأبرزت أهم معالمه كما أجملت رأيى الجديد فى تدريس البلاغة .

ولقد اقتضت طبيعة هذا البحث أن أنهج المنهج التاريخى ، فأتتبع الفكرة البلاغية منذ نشوئها ، وأسير معها فى تطورها عبر العصور حتى العصر الحديث ، ثم أتتبع ما طرأ من أفكار جديدة ومناهج متطورة لتطوير البلاغة وتجديدها .

ولم يكن المنهج التاريخى وحده هو الذى فرض نفسه على هذا البحث ، بل ان المنهج الفنى – كذلك – فرض نفسه ، وسيطر على طول هذا البحث وعرضه . ذلك أن طبيعة هذه الدراسة اقتضتنى أن أتناول أعلام البلاغة ومدارسها وأبرز آثارها بالنقد والتحليل والموازنة ، كما أتناول – كذلك – كل رأى جديد وفكرة مستحدثة فى تجديد البلاغة مبينا ما فيها من ابتكار أو تقليد . ولذلك فان المنهجين التاريخى والفنى يتعانقان فى هذا البحث ويؤازر كل منهما الآخر .

وفى كل ما عرضت فى هذه الدراسة من آراء وبحوث ومناهج ، كان رأيى يطل هنا وهناك ، يقوم تلك الجهود وينقدها ، ويشيد بما يستحق الاشادة منها من غير تعصب أو هوى .

ويهمنا فى ختام هذا البحث أن نستخلص منه التوصيات الآتية :

١ – يجب أن يراعى فى تجديد البلاغة تسهيل دراستها ، وتقليل ما يبذل فيها من جهد ووقت ، مع تحقيق المطلوب من دراستها تحقيقا عمليا يتمثل فى : ا – القدرة على ادراك الجمال الأدبى .
ب – القدرة على التعبير الرائع .

٢ – استبعاد الأبحاث المقحمة فى البلاغة ، وما خالطها من مقدمات منطقية واستطرادات فلسفية مثل : الدلالات ، والجامع الوهمى والخيالى والعقلى ، كما نستغنى عن أبحاث الأصوليين ، وعن الاطالة فى بحث التعاريف ومحترزات القيود والخلافات اللفظية ، فانه لا معنى لأن يصرف الطالب وقتا وجهدا فى خصومة عنيفة يطالع فيها حجج الفريقين ، ويتعب نفسه فى تفهم جدل الخصمين ، ثم يقال له أخيرا : ان الخلاف لفظى ، أو يجد النتيجة لا تكافىء الجهد .

٣ ـ اعادة تنظيم البلاغة على أسس تتصل بالذوق والفن والجمال والتأثير .

٤ ـ وضع مقدمة فنية يدرك الدارس من خلالها قيمة الفنون عامة ، والفن القولى خاصة .

٥ ـ الاستعانة بما يناسب مباحث البلاغة من الدراسات النفسية ، ويساعد على توضيحها ، وتقرير مسائلها .

٦ ـ أن تتجاوز دراسة البلاغة مجال البحث في الكلمة والجملة والجملتين الى البحث فى الفقرة والقطعة الأدبية والأساليب المختلفة .

٧ ـ ادخال دراسة الأسلوب وعناصره وأنواعه فى البحث البلاغى .

٨ ـ الحرص على أن تتصل البلاغة اتصالا وثيقا بالنبع القرآنى الفياض الزاخر بشتى الصور البيانية ، وأن نخلق جوا من الجمال القرآنى يهيمن على فن البلاغة ودرسها .

٩ ـ تجديد البلاغة قضية قومية دينية فى آن واحد ، ويجب ألا يخفت صوت هذه القضية حتى يتم وضع خطة جديدة متكاملة .

وان فيما ورد فى هذا البحث لخير معين على وضع هذه الخطة .

١٠ ـ منهاج الخولى فى تجديد البلاغة أفضل منهج حتى الآن ، وهو على ضخامته له أسس ومبررات ، وقام على مقارنات واقعية بين القديم والجديد ، ولكنه كما قال صاحبه : ليس الصورة الأخيرة للبلاغة أو فن القول ، وانما هو تخطيط لمحاولة يود أن تظل أبد الدهر ـ لو أمكن ـ رهن التغيير والتبديل والاضافة والتحسين ممن تهيأت لهم القدرة على ذلك .

والواقع أن هذه الخطة الخولية فى تجديد البلاغة خطة متطورة واعية ، غير أنها تحتاج الى لجنة متخصصة لتطبيقها والافادة منها ، فقد تنصل الأستاذ الخولى من مهمة التطبيق ، وتركها لمن يأتى بعده من المهتمين بشئون البلاغة . ونحن ـ بفضل الله وقوته ـ سنحاول فى المستقبل القريب ـ ان شاء الله ـ أن نساهم فى تطبيق هذا المنهج أو جزء منه حسب ما يتاح لنا ، فان هذا المنهج ـ على قصوره واقتصاره على الناحية النظرية ـ جدير بالعناية والتطبيق . وقد يظهر فى

المستقبل القريب أو البعيد من يستطيع تعديل هذه الخطة ، أو يأتى بأفضل منها ، ولكن حتى ذلك الحين يجب أن نهتم بخطة الخولى ونستفيد منها .

١١ — وجهة نظرى الجديدة لتدريس البلاغة التى قدمتها فى هذا البحث انما هى بمثابة اسعافات أولية ضرورية سريعة حتى يتفق أولو الأمر ويستقروا على خطة جديدة لتدريس البلاغة .

فالتعريفات السلبية للفصاحة وغيرها يجب استبعادها مع أمثلتها ووضع الضرورى منها فى الهامش ، ووضع تعريفات ايجابية بدلا منها تكون أمثلتها وضيئة مشرقة .

والوضوح والقوة والجمال ركائز ثلاثة يجب أن يبنى عليها الدرس البلاغى بوجه عام . فما توافر فيه الوضوح فقط فهو الكلام العادى ولغة التخاطب وما توافر فيه الووضوح والقوة معا فهو الكلام الفصيح ، أما ما توافر فيه الثلاثة . الوضوح والقوة والجمال فهو كالكلام البليغ .
ولكل من هذه المستويات الثلاثة درجات ورتب ومقامات . وقد أوضحت المراد بكل من الوضوح والقوة والجمال فى مكانه من البحث .

وبعد : فان هذا البحث الذى بين أيديكم عصارة فكر ، وثمرة جهود ومعاناة طويلة ، أرجو بها مخلصا أن أكون قدمت لبلاغتنا الحبيبة ما يضىء لها الطريق الى عهد أفضل ومستقبل أجمل ان شاء الله .

ولقد قرأت رسالتى هذه على سبيل المراجعة عدة مرات ، وفى كل مرة كنت أغير وأبدل ، وأزيد وأنقص ، وأقدم وأؤخر ، أجبر نقصا هنا ، وأضيف رأيا هناك . وهكذا لو قرأتها مائة مرة لفعلت ذلك فى كل مرة ، فالنقص من صفات البشر ، والكمال لله وحده ، وفوق كل ذى علم عليم .

نسأل الله العلى العظيم أن ينفعنا بما علمنا ، وأن يعلمنا ما ينفعنا ، وأن يزيدنا علما .

انه سميع مجيب .

==========

المصـــادر والمراجـــــع

١ — ابن أبي الأصبع المصري بين علماء البلاغة — د . حفني شرف — مكتبة نهضة مصر — القاهرة .

٢ — أبو هلال العسكري ومقاييسه النقدية — د . بدوي طبانة — مطبعة مخيمر — القاهرة ١٩٥٢ .

٣ — الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث — أنيس المقدسي طبعة بيروت

٤ — الاتقان في علوم القرآن — جلال الدين السيوطي — مكتبة البابي الحلبي ط ٣ القاهرة ١٩٥١

٥ — أثر القرآن في تطور النقد العربي — د . محمد زغلول سلام — دار المعارف . القاهرة ١٩٦١

٦ — أثر القرآن في تطور البلاغة العربية حتى القرن الخامس الهجري — د . كامل الخولي — دار الأنوار . القاهرة ١٩٦٢ .

٧ — أثر النحاة في البحث البلاغي حتى نهاية القرن الخامس الهجري — د . عبد القادر حسين — دار نهضة مصر ١٩٧٥

٨ — أحمد حسن الزيات بين البلاغة والنقد الأدبي — د . رجب البيومي — مجلة كلية اللغة العربية بالرياض العدد الخامس ١٩٧٥

٩ — الأدب والنصوص للصف الأول الثانوي — د . حسن شاذلي فرهود وآخرون — ط وزارة المعارف السعودية .

١٠ — أرسطو — تلخيص الخطابة — ابن رشد — تحقيق عبد الرحمن بدوي — مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٠ .

١١ — أساس البلاغة — الزمخشري — دار الكتب . ط ٢ . القاهرة ١٩٧٢م .

١٢ — الأساس في النقد والبلاغة — د . عبد الله الوهيبي وآخرون — دار الاصفهاني بجدة

١٣ — أسرار البلاغة — عبد القاهر الجرجاني — دار المنار — القاهرة ١٣٧٢ هـ

١٤ ـ الأسس الجمالية فى النقد العربى ـ عز الدين اسماعيل ـ ط ٢ ـ دار الفكر العربى . القاهرة ١٩٦١
١٥ ـ الأسس النفسية للنقد الأدبى ـ د . عبد الحميد يونس ـ دار المعرفة القاهرة ١٩٥٨ .
١٦ ـ أسس النقد الأدبى عند العرب ـ د . أحمد بدوى ـ نهضة مصر ١٩٦٠
١٧ ـ الأسس المعنوية للأدب ـ د . عبد الفتاح الديدى ـ دار المعرفة القاهرة ١٩٦٦
١٨ ـ الأسلوب ـ أحمد الشايب ـ مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٦
١٩ ـ أسواق الذهب ـ أحمد شوقى ـ دار الهلال ـ القاهرة ١٩٣٣
٢٠ ـ أشتات مجتمعات فى اللغة والأدب ـ عباس محمود العقاد ـ دار المعارف ـ القاهرة ١٩٧٠
٢١ ـ الأشباه والنظائر ـ جلال الدين السيوطى ـ ط الهند
٢٢ ـ أصول النقد الأدبى ـ أحمد الشايب ـ مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٤ .
٢٣ ـ الأضواء فى اللغة العربية ـ أحمد محمد صقر وآخرون ـ دار نهضة مصر ١٩٧٢ .
٢٤ ـ الاعجاز العددى للقرآن ـ د . عبد الرازق نوفل ـ مطبعة دار الشعب ـ القاهرة .
٢٥ ـ اعجاز القرآن ـ عبد الكريم الخطيب ـ دار الفكر العربى ـ القاهرة ـ ١٩٦٤
٢٦ ـ اعجاز القرآن ـ الباقلانى ـ دار المعارف ـ القاهرة ١٩٦٣
٢٧ ـ اعجاز القرآن والبلاغة النبوية ـ مصطفى صادق الرافعى ـ المكتبة التجارية . القاهرة ١٩٦٩
٢٨ ـ اعجاز القرآن البيانى ـ د . حفنى محمد شرف ـ مطابع الأهرام التجارية . القاهرة ١٩٧٠

٢٩ ـ اعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة ـ منير سلطان ـ منشأة المعارف بالاسكندرية ١٩٧٨
٣٠ ـ الاعجاز والايجاز ـ الثعالبي ـ مكتبة دار البيان ـ بيروت .
٣١ ـ الأغاني ـ أبو الفرج الاصبهاني ـ طبعة دار الكتب المصرية
٣٢ ـ الأمالي لأبي علي القالي ـ دار الفكر ـ بيروت
٣٣ ـ أمالي علي عبد الرازق في علم البيان وتاريخه ـ علي عبد الرازق ـ مكتبة النيل . القاهرة ١٩٣٠
٣٤ ـ أمراء الشعر العربي في العصر العباسي ـ أنيس المقدسي ـ طبعة بيروت
٣٥ ـ أنوار الربيع في أنواع البديع ـ ابن معصوم المدني ـ النجف الأشرف مطبعة النعمان ١٩٦٨
٣٦ ـ الايضاح في علوم البلاغة ـ الخطيب القزويني ـ مكتبة صبيح . القاهرة ١٩٧١
٣٧ ـ الايمان ـ ابن تيمية ـ دار الطباعة المحمدية . القاهرة
٣٨ ـ البحث الأدبي ـ طبيعته مناهجه ـ أصوله ـ شوقي ضيف ط ٢ دار المعارف ـ القاهرة ١٩٧٦
٣٩ ـ بحوث وآراء في علوم البلاغة ـ أحمد مصطفى المراغي ـ مطبعة العلوم . القاهرة ١٩٤٠
٤٠ ـ بديع القرآن ـ ابن أبي الأصبع المصري ـ تحقيق د . حفني شرف مطبعة مصر ١٩٥٧
٤١ ـ البديع ـ ابن المعتز ـ ط كراتشوفسكي ـ المكتبة المركزية بمكة رقم ٣ / ٤١٤
٤٢ ـ البرهان في علوم القرآن ـ الامام الزركشي ـ دار احياء الكتب العربية ـ القاهرة ١٣٧٦ هـ
٤٣ ـ بغية الايضاح ـ عبد المتعال الصعيدي ـ مكتبة الآداب ومطبعتها القاهرة ط ٦

٤٤ ـ بلاغة أرسطو بين العرب واليونان ـ د • ابراهيم سلامة ـ مكتبة الأنجلو ـ القاهرة ١٩٥٢

٤٥ ـ البلاغة التطبيقية فى علم البيان ـ د • أحمد ابراهيم موسى ـ ط ١ • القاهرة ١٩٦٣

٤٦ ـ البلاغة تطور وتاريخ ـ د • شوقى ضيف ـ دار المعارف ط ٣ • القاهرة

٤٧ ـ البلاغة العالية ـ عبد المتعال الصعيدى ـ المطبعة السلفية القاهرة ١٣٥٥ هـ

٤٨ ـ البلاغة العربية فى دور نشأتها ـ د • سيد نوفل ـ مطبعة الاعتماد ـ القاهرة ١٩٤٧

٤٩ ـ البلاغة العربية نشأتها وتطورها ـ د • حفنى شرف ـ مكتبة الشباب • القاهرة ١٩٧٣

٥٠ ـ البلاغة المصرية واللغة العربية ـ سلامة موسى ـ مطبعة التقدم • ط ٤ • القاهرة ١٩٦٤

٥١ ـ البلاغة عند السكاكى ـ د • أحمد مطلوب ـ مكتبة النهضة بغداد ١٩٦٤

٥٢ ـ البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى ـ محمد حسنين أبو موسى دار الفكر العربى ـ القاهرة •

٥٣ ـ البلاغة الواضحة ـ على الجارم ومصطفى أمين ـ دار المعارف ط ٢٣ • القاهرة ١٩٦٩

٥٤ ـ البلاغة العربية وأثر الفلسفة فيها ـ أمين الخولى ـ بحث ألقى فى الجمعية الجغرافية بالقاهرة ونشر فى "مناهج تجديد" كما نشر فى صحيفة الجامعة المصرية مايو ١٩٣١ •

٥٥ ـ البلاغة والنقد بين التاريخ والفن ـ د • مصطفى الجوينى ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥ •

٥٦ ـ بل ثورات على علوم البلاغة ـ مقال نشر بالهلال عدد مارس ١٩٣٦ •

٥٧ — بيان اعجاز القرآن — ابن أبى الاصبع المصرى — تحقيق حفنى شرف ط المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ١٣٨٣ هـ .

٥٨ — بيان اعجاز القرآن — الخطابى — مطبعة دار التأليف — القاهرة ١٩٥٣

٥٩ — البيان العربى — د . بدوى طبانة — دار المودة — بيروت .

٦٠ — البيان — د . على محمد حسن العمارى — دالا الاتحاد العربى للطباعة . القاهرة

٦١ — البيان القرآنى — د . رجب البيومى — مجلة مجمع البحوث الاسلامية . القاهرة

٦٢ — البيان والتبيين — الجاحظ — المكتبة التجارية ط ١ . القاهرة

٦٣ — تاج العروس — الزبيدى . المطبعة الخيرية ١٣٠٦ هـ القاهرة

٦٤ — تاريخ الأدب الفرنسى — جوستاف لانسون — ترجمة محمود قاسم — المؤسسة العربية الحديثة . القاهرة ١٩٦٢

٦٥ — تاريخ الجاهلية — د . عمر فروخ — ط بيروت ١٩٦٤

٦٦ — تاريخ الدعوة الى العامية وأثرها فى مصر — د . نفوسة زكريا — دار نشر الثقافة بالاسكندرية ١٩٦٤

٦٧ — تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها — أحمد مصطفى المراغى — مطبعة الحلبى . القاهرة ١٩٥٠

٦٨ — تاريخ النقد الأدبى عند العرب — طه أحمد ابراهيم — دار الحكمة بيروت .

٦٩ — تاريخ النقد العربى الى القرن الرابع الهجرى — د . محمد زغلول سلام — دار المعارف . القاهرة ١٩٦٤ .

٧٠ — تاريخ النقد العربى من القرن الخامس الى العاشر الهجرى — د . محمد زغلول سلام — دار المعارف .

٧١ — تأويل مشكل القرآن — ابن قتيبة — مطبعة الحلبى . القاهرة ١٩٥٤

٧٢ — تحرير التحبير — ابن أبى الأصبع المصرى — تحقيق حفنى محمد شرف المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ١٣٨٣ . القاهرة

٧٣ ـ تجريد البنانى على مختصر التفتازانى ـ المطبعة العلمية • القاهرة ١٣١٥ هـ •
٧٤ ـ التركيب اللغوى للأدب ـ د • لطفى عبد البديع ـ مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٠
٧٥ ـ التصوير البيانى ـ د • حفنى شرف ـ مكتبة الشباب • القاهرة ١٩٧٠
٧٦ ـ التصوير الفنى فى القرآن ـ سيد قطب ـ دار الشروق ـ بيروت
٧٧ ـ التطور والتجديد فى الشعر الأموى ـ د • شوقى ضيف ـ دار المعارف القاهرة ١٩٥٩
٧٨ ـ تلخيص البيان فى مجازات القرآن ـ الشريف الرضى ـ دار احياء الكتب العربية • القاهرة ١٩٥٥ •
٧٩ ـ تلخيص المفتاح ـ القزوينى ـ مطبعة الحلبى ط ١ • القاهرة ١٩٣٨
٨٠ ـ توضيح المعانى ـ د • على محمد حسن العمارى ـ القاهرة الحديثة للطباعة ١٩٦٤
٨١ ـ تهذيب السعد ـ محمد محيى الدين عبد الحميد ـ مكتبة الحسين التجارية • القاهرة
٨٢ ـ الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين ـ العقاد ـ المكتبة الثقافية • القاهرة
٨٣ ـ ثلاث رسائل فى اعجاز القرآن ـ الخطابى والرمانى والجرجانى ـ دار المعارف • القاهرة ١٩٦٨
٨٤ ـ ثورة على علوم البلاغة ـ عبد العزيز البشرى ـ محاضرة ألقاها فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة ونشرت فى كتابه : المختار •
٨٥ ـ الجامع لأحكام القرآن ـ القرطبى ـ مطبعة دار الكتب • القاهرة •
٨٦ ـ الجامع الكبير فى صناعة المنظوم من الكلام والمنثور ـ ضياء الدين بن الأثير القاهرة
٨٧ ـ الجمان فى تشبيهات القرآن ـ ابن ناقيا البغدادى ـ منشأة المعارف بالاسكندرية ١٩٧٤
٨٨ ـ جواهر البلاغة ـ أحمد الهاشمى ـ طبعة بيروت •

٨٩ ـ حاشية الدسوقى ـ شروح التلخيص ـ محمد عرفة الدسوقى ـ المكتبة التجارية ١٩٣٦ القاهرة

٩٠ ـ حاشية الخضرى ـ المطبعة الشرقية • القاهرة ١٣٢٠ هـ

٩١ ـ حاشية مخلوف المنياوى على شرح الدمنهورى لمتن الخضرى (الجوهر المكنون فى المعانى والبيان والبديع) دار احياء الكتب العربية القاهرة ١٩٢١

٩٢ ـ حديث الأربعاء ـ د • طه حسين ـ دار المعارف • القاهرة ١٩٥٧

٩٣ ـ حركات التجديد فى الأدب العربى ـ يوسف خليف ـ دار الثقافة للطباعة والنشر • القاهرة ١٩٧٥ •

٩٤ ـ حسن التوسل الى صناعة الترسل ـ شهاب الدين الحلبى ـ المطبعة الوهابية ١٢٩٨ هـ

٩٥ ـ حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ـ السيوطى ـ دار احياء الكتب العربية • القاهرة ١٩٦٨ •

٩٦ ـ الحقيقة والمجاز فى القرآن الكريم ـ د • على محمد حسن العمارى ـ مطبعة السعادة • القاهرة ١٩٧٤

٩٧ ـ الحيوان ـ الجاحظ ـ طبعة الساسى • القاهرة

٩٨ ـ خزانة الأدب ـ البغدادى ـ دار الكتب المصرية •

٩٩ ـ خصائص الشعر الحديث ـ د • نعمات أحمد فؤاد ـ دار الفكر العربى • القاهرة •

١٠٠ ـ الخطابة ـ أرسطو ـ ترجمة ابراهيم سلامة ـ مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٥٠

١٠١ ـ الخواطر الحسان فى المعانى والبيان ـ جبر ضومط ـ مطبعة الوفاء بيروت ١٩٣٠

١٠٢ ـ دائرة المعارف الاسلامية ـ مجلد ٤ ـ مادة بلاغه •

١٠٣ ـ دائرة المعارف فى القرن العشرين ـ ج ٧

١٠٤ ـ دراسات فى الأدب والبلاغه ـ ابراهيم أبو الخشب واحمد البهى ـ القاهرة ١٩٥٩ •

١٠٥ - دراسات فى الشعر العربى المعاصر - د . شوقى ضيف - القاهرة ١٩٥٣

١٠٦ - دراسات فى علم النفس الأدبى - حامد عبد القادر - مطبعة مصر ١٩٤٩

١٠٧ - الدر النضيد - الحفيد الهروى - طبعة الخانجى . القاهرة ١٣٢٢ هـ

١٠٨ - دفاع عن البلاغة - أحمد حسن الزيات - عالم الكتب ط ٢ . القاهرة ١٩٦٧

١٠٩ - دلائل الاعجاز - عبد القاهر الجرجانى - طبعة بيروت .

١١٠ - الذخيرة - ابن بسام - دار الثقافة بيروت ١٩٧٩

١١١ - سر الفصاحة - ابن سنان الخفاجى - مكتبة صبيح . القاهرة ١٩٦٩

١١٢ - شروح التلخيص - مطبعة السعادة بالقاهرة ١٣٤٢ هـ

١١٣ - الشعر - أرسطو - تحقيق شكرى محمد عياد - دار الكتاب العربى القاهرة ١٩٦٧

١١٤ - الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث - مصطفى عبد اللطيف السحرتى - القاهرة ١٩٤٨

١١٥ - الشعر والشعراء - ابن قتيبة - القاهرة ١٣٣٢ هـ

١١٦ - شيوخ الأدب الحديث - جبيب الزحلاوى - مكتبة نهضة مصر

١١٧ - الصبغ البديعى فى اللغة العربية - د . أحمد موسى - دار الكتاب العربى للطباعة والنشر ١٩٦٩

١١٨ - الصراع الأدبى بين القديم والجديد - د . على العمارى - دار الكتب الحديثه ١٩٦٥

١١٩ - الصناعتين - أبو هلال العسكرى - مطبعة الحلبى . القاهرة .

١٢٠ - الصورة الأدبية - د . مصطفى ناصف - مكتبة مصر - القاهرة .

١٢١ - الصورة البديعية - د . حفنى شرف - مكتبة الشباب - القاهرة ١٩٦٦

١٢٢ - صور البديع وفن الاسجاع - على الجندى - دار الفكر العربى القاهرة

١٢٣ ـ الصور البيانية بين النظرية والتطبيق ـ د . حفني شرف ـ المكتبة التجارية ـ القاهرة
١٢٤ ـ ضحى الاسلام ـ أحمد أمين ـ مطبعة الاعتماد . القاهرة
١٢٥ ـ ضياء الدين بن الأثير وجهوده في النقد ـ د . محمد زغلول سلام ـ مكتبة نهضة مصر
١٢٦ ـ طبقات فحول الشعراء ـ محمد بن سلام الجمحي ـ مطبعة المدني ـ القاهرة
١٢٧ ـ الطراز ـ يحيى بن حمزه العلوى ـ مطبعة المقتطف . القاهرة ١٩١٤
١٢٨ ـ عبد القاهر الجرجاني ـ بلاغته ونقده ـ د . احمد مطلوب وكالة المطبوعات بالكويت ١٩٧٣
١٢٩ ـ عبد القاهر الجرجاني ـ د . أحمد بدوى ـ أعلام العرب (٨) . القاهرة
١٣٠ ـ الغربال ـ ميخائيل نعيمه ـ القاهرة ١٩٢٣
١٣١ ـ عروس الأفراح ـ بهاء الدين السبكي ـ مطبعة السعادة . القاهرة ١٣٤٢ هـ
١٣٢ ـ العصر الجاهلي ـ شوقي ضيف ـ دار المعارف . القاهرة ١٩٦٠
١٣٣ ـ عصر ورجال ـ فتحي رضوان ـ مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٧
١٣٤ ـ علوم البلاغة ـ أحمد مصطفى المراغي ـ المكتبة العربية ومطبعتها القاهرة ط ٣
١٣٥ ـ العمدة ـ ابن رشيق القيرواني ـ المكتبة التجارية الكبرى . القاهرة ١٩٥٥
١٣٦ ـ فجر الاسلام ـ احمد أمين ـ مكتبة النهضة . القاهرة ١٩٥٩
١٣٧ ـ فصول في الأدب والنقد ـ طه حسين ـ مطبعة المعارف . القاهرة ١٩٤٥
١٣٨ ـ فلسفة البلاغة ـ جبر ضومط ـ المطبعة العثمانية . القاهرة
١٣٩ ـ فلسفة المجاز ـ د . لطفي عبد البديع ـ مكتبة النهضة المصرية .

١٤٠ ـ فن القول ـ أمين الخولى ـ دار الفكر العربى • القاهرة
١٤١ ـ الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ـ د • شوقى ضيف ـ ط ٤ • دار المعارف • القاهرة ١٩٦٠
١٤٢ ـ الفن ومذاهبه فى النثر العربى ـ د • شوقى ضيف ـ دار المعارف ١٩٦٥
١٤٣ ـ فن المقالة ـ محمد يوسف نجم ـ دار الثقافة • بيروت ١٩٦٣
١٤٤ ـ فنون بلاغية (البيان والبديع) د • احمد مطلوب ـ مكتبة النهضة بغداد
١٤٥ ـ فى الأدب الجاهلى ـ د • طه حسين ـ دار المعارف • القاهرة ١٩٥٢
١٤٦ ـ فى الأدب والنقد ـ د • محمد مندور ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر • القاهرة ١٩٤٩
١٤٧ ـ فى البلاغة العربية ـ د • رجاء عيد ـ مطبعة غريب • القاهرة
١٤٨ ـ فى تاريخ البلاغة العربية ـ عبد العزيز عتيق ـ دار النهضة العربية ـ بيروت ١٩٧٠
١٤٩ ـ فى الميزان الجديد ـ د • محمد مندور ـ مطبعة نهضة مصر • القاهرة •
١٥٠ ـ فيض الخاطر ـ أحمد أمين ـ مكتبة النهضة المصرية ١٩٦١
١٥١ ـ قصص العرب ـ محمد أبو الفضل ابراهيم وآخرون ـ دار احياء التراث العربى • بيروت ١٩٦٢
١٥٢ ـ قضايا بلاغية ـ د • على العمارى ـ مخطوطة
١٥٣ ـ قضايا جديدة ـ د • محمد مندور • بيروت ١٩٥٨
١٥٤ ـ قضايا النقد الأدبى والبلاغة ـ محمد زكى العشماوى ـ دار الكتاب العربى • القاهرة
١٥٥ ـ قواعد النقد الأدبى ـ لاسل آبر كرمبى ـ ترجمة محمد عوض ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر • القاهرة ١٩٣٦

١٥٦ ــ الكامل ــ المبرد ــ مطبعة التقدم العلمية ط ١ . القاهرة ١٣٣٤هـ
١٥٧ ــ الكتاب ــ سيبويه ــ تحقيق عبد السلام هارون ــ دار القلم القاهرة ٩٦٦
١٥٨ ــ كتب وشخصيات ــ سيد قطب ــ طبعة بيروت
١٥٩ ــ الكشاف ــ الزمخشرى ــ مكتبة مصطفى البابى الحلبى القاهرة ١٩٦٦
١٦٠ ــ كشاف اصطلاحات الفنون ــ التهانوى الهندى ــ طبعة الآستانة ١٣١٧ هـ .
١٦١ ــ لسان العرب ــ ابن منظور ــ سلسلة تراثنا . القاهرة
١٦٢ ــ لغتنا والحياة ــ د . عائشة عبد الرحمن ــ دار المعارف . القاهرة ١٩٧١
١٦٣ ــ اللغة الشاعرة ــ عباس محمود العقاد ــ مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٠
١٦٤ ــ المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر ــ ضياء الدين بن الأثير مطبعة حجازى . القاهرة ١٣٥٤ هـ
١٦٥ ــ مجاز القرآن ــ أبو عبيدة معمر بن المثنى ــ طبعة الخانجى . القاهرة ١٩٦٢
١٦٦ ــ المجازات النبوية ــ الشريف الرضى ــ مطبعة الحلبى ــ القاهرة ١٣٥٦هـ
١٦٧ ــ محاضرات فى البيان العربى ــ د . يوسف البيومى ــ مطبعة السعادة القاهرة
١٦٨ ــ محاضرات فى البلاغة العربية ــ على البدرى ــ دار الطباعة المحمدية القاهرة ١٩٧٤
١٦٩ ــ المحافظة والتجديد فى النثر العربى المعاصر ــ أنور الجندى ــ مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٥
١٧٠ ــ المختار ــ عبد العزيز البشرى ــ دار المعارف . القاهرة ١٩٥٣
١٧١ ــ المختار من صحاح اللغة ــ محمد محيى الدين ومحمد عبد اللطيف السبكى ــ المكتبة التجارية الكبرى ط ٣
١٧٢ ــ المدخل الى دراسة البلاغة العربية ــ السيد احمد خليل ــ دار النهضة العربية ــ بيروت ١٩٦٨ .

١٧٣ ـ المدخل الى النقد الأدبى الحديث ـ د • غنيمى هلال ـ مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٢

١٧٤ ـ مذكرة فى الفصل والوصل ـ سليمان نوار القاهرة ١٩٣٤

١٧٥ ـ المسوغات العقلية فى البلاغة ـ مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق المجلد الثلاثون

١٧٦ ـ مصر فى تاريخ البلاغة ـ أمين الخولى ـ نشر هذا البحث فى مناهج تجديد •

١٧٧ ـ المطول ـ سعد الدين التفتازانى ـ مطبعة أحمد كامل • القاهرة ١٩٣٠

١٧٨ ـ المعتمد فى علم البيان ـ محمد حسن ضيف الله ـ دار الكتاب العربى القاهرة ١٩٥٩

١٧٩ ـ معجزات قلب القرآن ـ هاشم محمد سعيد دفتردار ـ بيروت ١٩٧٦

١٨٠ ـ مع المتنبى ـ طه حسين ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ١٩٣٦

١٨١ ـ المفتاح ـ السكاكى ـ مطبعة الحلبى • القاهرة ١٩٣٧

١٨٢ ـ مقدمة ابن خلدون ـ ابن خلدون ـ طبعة الشعب

١٨٣ ـ مقدمة لدراسة بلاغة العرب ـ أحمد ضيف ـ القاهرة ١٩٢١

١٨٤ ـ مقدمة نقد النثر ـ د • طه حسين ـ مطبعة مصر

١٨٥ ـ الملل والنحل ـ للشهرستانى ـ ط ليبزج ١٩٢٨

١٨٦ ـ مناهج بلاغية ـ د • أحمد مطلوب ـ وكالة المطبوعات بالكويت ١٩٧٣

١٨٧ ـ مناهج تجديد ـ أمين الخولى ـ دار المعرفة • القاهرة ١٩٦١

١٨٨ ـ مناهج الدراسة الأدبية ـ شكرى فيصل ـ بيروت •

١٨٩ ـ من أسرار القرآن ـ د • مصطفى محمود ـ كتاب اليوم العدد ١١٥ القاهرة

١٩٠ ـ من بلاغة القرآن ـ د • أحمد بدوى ـ مكتبة نهضة مصر

١٩١ ـ المنجد فى اللغة والأعلام • ط ٢٣ دار الشروق • بيروت

١٩٢ — من حديث الشعر والنثر — د • طه حسين — دار المعارف • القاهرة ١٩٥١

١٩٣ — من الوجهة النفسية فى دراسة الأدب ونقده — محمد خلف الله أحمد — المطبعة العالمية • القاهرة •

١٩٤ — المنهاج الواضح — حامد عونى — مكتبة الجامعة الأزهرية • القاهرة

١٩٥ — منهج الزمخشرى فى تفسير القرآن وبيان اعجازه — مصطفى الجوينى — دار المعارف • القاهرة ١٩٦٨ •

١٩٦ — منهج المرحلة الثانوية — ادارة المناهج والبحوث بالرئاسة العامة لتعليم البنات ط ٢

١٩٧ — منهل الوراد فى علم الانتقادات — قسطاكى الحمصى — مطبعة الأخبار • القاهرة

١٩٨ — الموازنة بين شعر أبى تمام والبحترى — الآمدى — تحقيق احمد صقر — دار المعارف — القاهرة ١٩٧٢

١٩٩ — مواهب الفتاح فى شرح تلخيص المفتاح — ابن يعقوب المغربى — شروح التلخيص

٢٠٠ — الموجز فى تاريخ البلاغة — د • زكى المبارك — دار الفكر — بيروت

٢٠١ — نزهة الألبا فى طبقات الأدبا — أبو البركات عبد الرحمن بن محمد الانبارى (مصور) ١٢٩٤ هـ

٢٠٢ — نصوص النظرية البلاغية — د • داود سلام ود • عمر الملا حويش — مطبعة الأمة • بغداد

٢٠٣ — نظرية العلاقات — د • محمد نايل — دار الطباعة المحمدية ١٩٦٤

٢٠٤ — النقد الأدبى — أحمد أمين — دار الكتاب العربى • القاهرة

٢٠٥ — النقد الأدبى — د • يوسف البيومى — دار الجيل للطباعة • القاهرة

٢٠٦ — النقد الأدبى — د • حفنى شرف — مطبعة الرسالة ١٩٧٠ • القاهرة

٢٠٧ — النقد الأدبى الحديث — د • غنيمى هلال — دار النهضة العربية ١٩٦٤ • القاهرة •

٢٠٨ ـ النقد الأدبى أصوله ومناهجه ـ سيد قطب ـ دار الفكر العربى القاهرة ١٩٥٩

٢٠٩ ـ النقد الأدبى فى القرن الرابع للهجرة ـ د • احمد مطلوب ـ وكالة المطبوعات بالكويت ١٩٧٣

٢١٠ ـ نقد النثر ـ قدامة بن جعفر ، تحقيق د • طه حسين والعبادى ـ مطبعة مصر ١٩٣٨

٢١١ ـ نقد الشعر ـ قدامة بن جعفر ـ مكتبة الخانجى القاهرة ١٩٦٣

٢١٢ ـ النقد العربى الحديث ومذاهبه ـ د • محمد عبد المنعم خفاجى دار الطباعة المحمدية • القاهرة

٢١٣ ـ النقد المنهجى عند العرب ـ د • محمد مندور ـ نهضة مصر ـ القاهرة

٢١٤ ـ النقد الموضوعى ـ سمير سرحان ـ مكتبة الانجلو المصرية ـ القاهرة

٢١٥ ـ النقد والبلاغة ـ د • مهدى علام وآخرون • المطابع الأميرية ١٩٥٩

٢١٦ ـ النقد والبلاغة لمعاهد المعلمين ـ توفيق محمد الحمد وعبد الكريم أسعد ـ دار الأصفهانى بجدة

٢١٧ ـ النكت فى اعجاز القرآن ـ الرمانى ـ دار المعارف ١٩٦٨ القاهرة

٢١٨ ـ نهاية الايجاز فى دراية الاعجاز ـ فخر الدين الرازى ـ مطبعة الآداب ١٣١٧ هـ

٢١٩ ـ وجهة نظر ـ د • زكى نجيب محفوظ ـ مكتبة الأنجلو المصرية ـ القاهرة

٢٢٠ ـ وحى الرسالة ـ أحمد حسن الزيات ـ مطبعة الرسالة ـ القاهرة •

٢٢١ ـ الوساطة بين المتنبى وخصومه ـ القاضى الجرجانى ـ تحقيق أبو الفضل ابراهيم ـ مطبعة مصر ١٩٤٥

٢٢٢ ـ الوسيلة الأدبية فالى العلوم العربية ـ حسين المرصفى ـ مطبعة المدارس الملكية ـ القاهرة ١٩٢٤ •

٢٢٣ ـ وفيات الأعيان ـ ابن خلكان ـ تحقيق احسان عباس ـ دار الثقافة ـ بيروت •

المخطوطـــــات :

١ ـ أمين الخولى فى مناهج تجديده ـ د . كامل سعفان ـ مكتبة آداب عين شمس

٢ ـ البلاغة بين عهدين ـ د . محمد نايل ـ مكتبة اللغة العربية

٣ ـ قضايا بلاغية ـ د . على العمارى ـ مكتبة اللغة العربية .

٤ ـ قضية اللفظ والمعنى ـ د . على العمارى ـ مكتبة اللغة العربية

٥ ـ الكاتب أحمد حسن الزيات ـ د . على الفقى ـ مكتبة دار العلوم

٦ ـ منهج البحث البلاغى بين عبد القاهر والسكاكى ـ د . سيد حجاب ـ مكتبة اللغة العربية

الدوريـــات :

الأخبار ـ عدد ١٤ رمضان ١٣٨٣ هـ ، والأعداد ٢٧ / ٦ ، ٤ / ٧ ، ١١ / ٧ / ١٩٧٥

دائرة المعارف الاسلاميه ـ مجلد ٤

دائرة المعارف فى القرن العشرين ـ ج ٧

صحيفة دار العلوم ـ العدد الثانى من السنة الثالثة ـ وعدد اكتوبر ١٩٣٨

كتاب الهلال ـ عدد خاص عن القرآن الكريم ديسمبر ١٩٧٠

مجلة آداب اسكندرية ـ المجلد الأول ١٩٤٣

مجلـــــة الأدب — مارس ١٩٥٦
مجلة الأزهـــــر — المجلد السادس ، والمجلد ٢٢
مجلة الثقافـــــة — العدد ٤٩
مجلة الرســــالة — الأعداد ١٤٦ ، ٤٠٨ ،
٦١٧ — ٦٢٨ ، ٦٧٦ ،
٦٨٧ — ٧٤٦
مجلة الفيصـــــل — العدد ١١ ر ١٥
مجلة الكاتـــــب — ينايـــر ١٩٤٦
مجلة الكتـــــاب — المجلد الأول
مجلة كلية اللغة العربية بجامعة الامام محمد بن سعود — العدد الخامس ١٩٧٥
مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق — مجلد ٣٠
مجلة مجمع اللغة العربية — ج ٢٢
مجلة الهـــــلال — عدد يناير ١٩٣٨ ومارس ١٩٣٦
ملحق الأهـــرام — عدد ١١ / ٣ / ١٩٦٦

==========

الفهـــــــــــــرس